

(فهرست الجزء الاول من تاريخ مصر لابن اياس)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

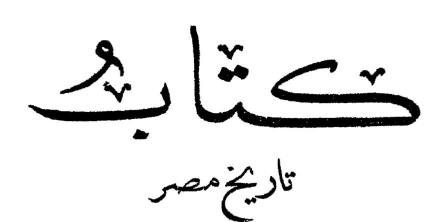
صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة





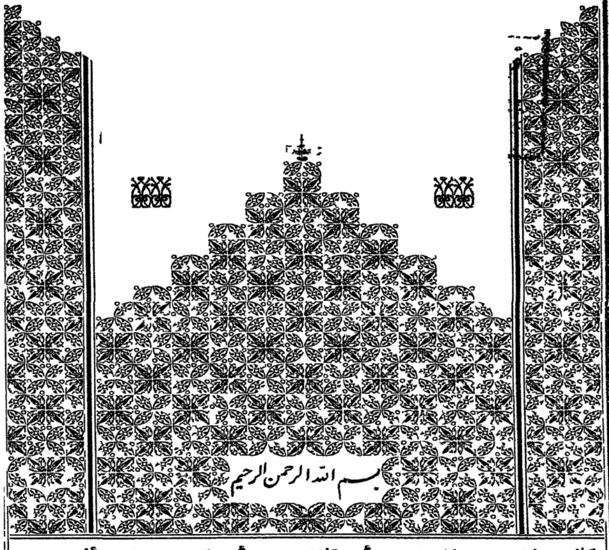
تاريخ مصر

المشهور ببدائع الزهور فى وقائع الدهور

تأليف

العلامة المؤرخ محمد بن أحمد بن اياس
الحنفى المصرى رحمه الله تعالى
آمين

(الطبعة الاولى)
بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية
سنة ١٣١١
هجرية



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة لا تشبع من أربعة عين من نظر وأذن من خبر وأنثى من ذكر وأرض من مطر أقول

طالع كتابى ان أردت مخبرا * عن مبتدا خبر الدهور بما جرى

(١) فتراه كالمرآة تنظر بعلها * أبدا الزمان عجائبا بين الورى

ذكر أخبار مصر وما ورد فيها من الآيات العظيمة

والاحاديث النبوية وما خصت به من الفضائل والمحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد ومن ملكها من مبتدا الزمان من الجبابرة والفراعنة وغير ذلك الى ظهور الاسلام ومن ملكها فى الاسلام من مبتدا دولة الاتراك ومن تولى منهم الى يومنا هذا وذلك على سبيل الاختصار

فصل اعلم وفقك الله تعالى ان مصر من أجل البلاد قدرا

(١) كذا فى النسخ اه

امنن

آمنين وقال تعالى مخبرا عن فرعون انه قال أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون وأما بالاشارة لا الاعيان فمنها قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم يعنى مصر وهذا القدر كاف هنا من الآيات وأما ما ورد فيها من الاخبار النبوية فمنها قوله صلى الله عليه وسلم اذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فذلك الجند خير اجناد الارض لانهم فى رباط الى يوم القيامة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم قسمت البركة عشرة أجزاء فجعل الله تعالى تسعة منها فى مصر وجزأ فى سائر الامصار ومنها قوله صلى الله عليه وسلم أهل مصر قوم ضعاف ما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته وروى فى بعض الاخبار ان الله تعالى يقول لساكنى مصر يوم القيامة ألم أسكنكم مصر أما كنتم تشبعون من نيلها وهذا من جملة تعداد النعم لا من باب المناقشة وقال كعب الاحبار رضى الله عنه لولا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت الا فى مصر فقيل له ولم ذلك فقال لانها بلد معافى من الفتن ومن أرادها بسوء قصمه الله وروى ان آدم عليه السلام أول من دعا لها بالبركة والخصب والرأفة وذلك ان آدم عليه السلام لما اهبط الى الارض مثلت له الدنيا جميعها من شرقها وغربها وسهلها وجبالها وأنهارها ومن يسكنها من الامم فلما نظر الى أرض مصر رأى أرضا سهلة بين جبلين وفى وسطها نهر جار تنحدر مادته من تحت سدرة المنتهى فاعجبته تلك الارض فدعا لها بالبركة فى زرعها وبارك فى نيلها سبع مرات وكذلك نوح عليه السلام دعا لها بالبركة والخصب قال أبو الحسن المسعودى فى كتاب أخبار الزمان ان مصر كان اسمها فى قديم الزمان درسان أى باب الجنان وسميت بعد الطوفان جزله وقد اختلف أهل العلم فى المعنى الذى سميت من أجله بمصر فقال قوم سميت بمصرام بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وهو اسم أعجمى لا ينصرف فلما كثر استعمالها أسقطوا منها الميم للتخفيف فسميت مصر والله أعلم بذلك .

ذكر حدود أرض مصر ومسافتها

قال أبو الصلت أمية الاندلسى ان حد أرض مصر فى الطول من مدينة برقة الى عقبة ايلة وذلك نحو من أربعين يوما ومسافة حدها فى العرض من مدينة اسوان من أعمال الصعيد الى العريش عند الشجرتين وذلك نحو من ثلاثين يوما فى مسافة العرض منها وقيل من برقة الى منتهى الواحات السبع ويمتد الى بلاد النوبة من حد اسوان الى بلاد البجاة ومسافة العرض من اسوان الى منتهى بحر الروم عند رشيد وقيل الى الحفائر التى خلف العريش

وقيل مسافة عرضها ثلاثون درجة فلكية وقيل مسافة طولها أربعة وخمسون درجة فلكية والله أعلم وكان اقليم مصر متصلا بالعمارة على شاطئ النيل كأنها مدينة واحدة مشتبكة بالاشجار المثمرة بالفواكه اليانعة والقرى العامرة حتى قيل كان المسافر يسير من اسكندرية الى اسوان بلا زاد بل يسير فى ظل وأشجار وفواكه الى أن يصل الى مدينة اسوان فى قرى عامرة بالناس لايحوجونه الى زاد يحمله معه قال ابن عباس رضى الله عنه كان فى زمن مصرام الذى سميت مصر به اذا زرعت أرضها وشملها ماء النيل تصير الحبة القمح قدر كلية البقر وكان طول القثاء أربعة عشر شبرا كل واحدة وكان طول البلحة شبرا ووزنها نحو عشرين درهما وكان طول الظرف ثلاثين شبرا وكان العرجون الموز يطرح ثلثمائة موزة وكل موزة منها رطلا وكان العنقود العنب اذا قطف من البستان يحمل على بعير من كبره وكانت الاترجة تشق نصفين من عظم خلقتها و يحمل كل نصف منها على بعير وكانت الكمثرى زنة كل واحدة سبعمائة درهم وكانت الرمانة الواحدة اذا قشرت يقعد فى قشرتها ثلاثة نفر من كبرها وكانت البطيخة الواحدة ثمانين رطلا وعلى هذا فقس بقية الاصناف من الفواكه والحبوب وغير ذلك وكان ذلك بدعوة نوح عليه السلام حين دعا لمصر بالبركة والخصب قال ابن عباس رضى الله عنه لازالت الناس ينقصون فى الارزاق والآجال فى كل عام الى زماننا هذا روى ذلك الترمذى فى كتاب الاصول قال المسعودى لو زرعت أرض مصر كلها لوفت بخراج الدنيا بأسرها والله سبحانه وتعالى أعلم

ذكر ما عد من فضائل مصر

قال أبو الريحان ولد بمصر من الانبياء موسى وهرون عليهما السلام وولد بها يوشع ابن نون ودخل اليها عيسى بن مريم وأقام بقرية بالصعيد يقال لها اهناس وكان بمصر النخلة المذكورة فى قوله تعالى وهزى اليك بجذع النخلة ودخل مصر من الانبياء ابراهيم الخليل عليه السلام ويعقوب ويوسف والاسباط وارمياء ودخل اليها دانيال ولقمان الحكيم عليهم السلام ودخل اليها من السادة التابعين جماعة ودفن بها من العلماء جماعة كثيرة كما سيأتى ذلك فى مواضعه وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذى أثنى الله تعالى عليه فى القرآن ومنهم آسية امرأة فرعون التى أخبر الله تعالى عنها فى كتابه ومن أهلها سحرة فرعون الذين آمنوا فى ساعة واحدة مع كثرتهم اه ذلك

ذكر ما خصت به مصر من المحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد

قال صاعد الغوثى فى كتاب طبقات الامم ليس فى بلد اعجوبة الا وفى مصر مثلها أو أعجب منها وقيل ان بمصر من الانواع ثلاثين نوعا لا توجد فى الدنيا فمنها معدن الزمرد والذبابى ولا يوجد فى الدنيا الا بها قيل يوجد فى نواحى البهنسا ومنها معدن الشب والملح ولا يوجد الا بها ومنها الآبنوس الاسود ولا يوجد الا بها ومنها مقاطع الرخام الملون الفستقى والسماقى والداروردى وغيره من أنواع الرخام ومنها الافيون وهو عصارة ماء الخشخاش ومنافعه لا تنكر وبها دهن البيلسان ولا يوجد الا بها فى أرض المطرية وهو الذى تتغالى ملوك النصارى فى ثمنه ولهم فيه اعتقاد عظيم وبها السمك الرعاد ونفعه للحمى اذا علق على المحموم برئ وبها الحيات التى يعمل منها الدرياق ومنافعها لا تنكر وفيها الاسقنقور ومنافعه لا تنكر وبها الحطب الصنط الذى هو سريع الاشتعال بطىء الخمود وبها القمح اليوسفى وبها دهن السلجم وبها معامل التنانير التى يعمل بها البيض ويوقد عليها بالنار فتحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة فيخرج منها الفراريج وهى من أعظم مأكول مصر ولا يعمل هذا فى بلد غير مصر وبها النارنج والاترج المدور وقيل انه حمل من أرض الهند وزرع بمصر بعد سنة ثلثمائة من الهجرة ولم يكن بمصر قبل ذلك وكان بها نوع يقال له البنج وهو مثل اللوز الاخضر وكان من محاسن مصر ولكن انقطع منها فى سنة سبعمائة من الهجرة وكان بها الماسكة ومنافعها لا تنكر وبها الخوخ الزهرى الاحمر ولا يوجد الا بها وبها العسل النحل المصرى وهو أطيب من غيره من الاشربة وله فضيلة دون غيره وبها نتاج الخيل والبغال والحمير تفوق على غيرها من البلاد وبها الطرز الاسيوطية وكانت لا توجد الا بها وبها الثياب الدبيقية كانت تعمل بمدينة تنيس يبلغ ثمن الثوب منها مائة دينار وبها جلال الخيل والبراقع والطنافس لا تعمل الا بها وبها المقاطع الشرب لا تعمل الا بدمياط ولها خاصية دون غيرها وبها العرس والنمس ولهما فضيلة لا تنكر فى أكل الثعابين حتى قيل لولا العرس والنمس لما سكنت مصر وبها البطيخ الصيفى ومنافعه لا تنكر قيل نقلت زريعته الى مصر من بلاد الهند فى أيام القبط وبها الرخام المرمر ومنافعه لا تنكر وبها القرط الذى تربط عليه الخيول فى زمن الربيع وبها الكتان ومنافعه لا تنكر وبها الخيار شنبر ومنافعه لا تنكر ومن أجل منافعها ماء النيل المبارك وسرعة هضمه للاكل قال بعض الحكماء ولولا ماء الليمون على أهل مصر لوخموا من حلاوة ماء النيل وبها ماء العوسج ومنافعه لا تنكر قيل

فضلت على الشام بأربعة أشياء بلحوم الضأن وبجبنها وبمائها وبعسلها ومن فضائل مصر ان الرخامة الخضراء الفستقية التي في الحجر عند الكعبة أصلها من مصر بعثها الى مكة محمد بن طريف مولى العباس بن محمد في سنة احدى وأربعين ومائتين من الهجرة وبعث معها رخامة أخرى فستقية وضعت على سطح الكعبة عند الميزاب وقيل طولها ما ذراع بالعمل وثلاث أصابع وعرضهما مثل ذلك ذكره الفاكهي في تاريخ مكة قال المسعودي ان كل قرية من قرى مصر تصلح ان تكون مدينة على انفرادها وقد قال الله تعالى في حق قرى مصر وابعث في المدائن حاشرين قال القضاعي لم يكن في الارض ملك أعظم من ملك مصر ولو ضرب بينها وبين سائر قرى الدنيا سور لاستغنى أهلها بما فيها عن سائر البلاد ولو زرعت كلها لوفت بخراج الدنيا باسرها كما تقدم وهي أكثر البلاد كنوزا وعجائب وأنهارا ولا سيما في بلاد الصعيد من البرابي وما أودعت من العلوم والحكم والطلسمات وغير ذلك قيل سئل بعض الحكماء متى تطيب أرض مصر قال اذا اعتدل هواها وارتفع وباها وطاب مرعاها وقال بعض الحكماء اذا بلغت زيادة النيل ثمانية عشر ذراعا وهبط كانت العاقبة في ذلك حدوث وباء بالديار المصرية في تلك السنة قال كعب الاحبار رضي الله عنه من أراد أن ينظر الى شبه جنة الفردوس فلينظر الى أرض مصر قيل قبل طلوع الشمس في زمن ربيعها اذا اطردت أنهارها وغردت أطيارها واينعت أزهارها وقد قال القائل في المعنى

ما مثل مصر في زمان ربيعها * لصفاء ماء واعتلال نسيم

أقسمت ما تحوي البلاد نظيرها * لما نظرت الى جمال وسيم

ووصف بعض الحكماء أرض مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر كهربة صفراء فان أرض مصر في شهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فتصير الارض بيضاء من افتراش الماء عليها وتصير ضياعها مثل الكواكب في السماء فلا يصل اليها أهلها الا في الزوارق وأما المسكة السوداء فان أرض مصر في شهر بابه وهاتور وكيهك ينصرف عنها الماء فتصير مثل المسكة السوداء وأما الزمردة الخضراء فان أرض مصر في شهر طوبه وأمشير وبرمهات يكثر فيها الزرع فتصير الارض خضراء مثل الزمردة وأما الكهربة الصفراء فان أرض مصر في شهر برموده وبشنس وبؤنه يدرك فيها الزرع ويحصد فتصير مثل السبيكة الذهب الصفراء وقد قيل في المعنى

كل وقت بمصر أمر عجيب * نحن منه في السعد كالاغنياء

ذهب حيثما ذهبنا ودر * حيث درنا وفضة في الفضاء

ومن

ومن محاسن مصر قال القضاعى ان مصر يوجد بها فى كل شهر من الشهور القبطية نوع من المأكولات والمشمومات فيقال رطب توت ورمان بابه وموز هاتور وسمك كيهك وماء طوبه ورءيس أمشير ولبن برمهات وورد برموده ونبق بشنس وتين بؤنه وعسل أبيب وعنب مسرى * ومن محاسن مصر أيضا السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد فى أواخر فصل الشتاء ولم يكن هذا ببلد غيرها وهى النرجس والبنفسج والبان والورد النصيبى والزهر وهو زهر النارنج والياسمين والورد الجورى ويعرف أيضا بالقحانى وهو آخر هذه السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد وأما النسرين وان كان من أعظم الزهور رائحة فانه غير معدود فى جملة الزهور السبع التى تجتمع فى وقت واحد لانه يأتى فى آخر أيام الورد فلا يلحق النرجس ولا يلحق البنفسج فلم يكن معدودا فى جملة هذه السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد لاجل تأخره عن بقية الازهار وقد نظمتها فى هذا المقطوع وهو قولى فى المعنى

يا طيب وقت بعصر فيه قد جمعت * سبع من الزهر تحويها البساتين

بنفسج نرجس زهر وبان لنا * وردنصيبى وجورى وياسمين

وقيل ان الذى ينقطع من الفواكه والازهار فى سائر البلاد فى زمن الشتاء يوجد بمصر (أقول) ولما دخل قرن التسعمائة زال من محاسن مصر أشياء كثيرة منها ان البلسم انقطع وجوده من مصر وهو من آثار عيسى عليه الصلاة والسلام ومنها ان البلطى الفيومى انقطع وجوده من مصر وكان من آثار يوسف عليه السلام وأعظم من هذا كله أن الحاج انقطع من مصر وأعمالها سنة احدى عشرة وتسعمائة وكان هذا من أعظم الحوادث بمصر والامر لله تعالى * ومن محاسنها ان أهل مصر لا يحتاجون فى زمن الشتاء الى التدفى بالنار كما تعانيه أهل الشام ولا فى زمن الصيف الى ان يدخلوا تحت الخيش من شدة الحر كما تعانيه أهل مكة قال أبو الصلت أهل مصر خصوا بالافراح فيها دون غيرهم من جميع الامم وان أهل مصر الغالب عليهم اتباع الشهوات والانهماك فى اللذات والتصديق بالمحالات وفى اخلاقهم رقة وقلة غيرة وعندهم بشاشة وملق وعندهم مكر وخداع ولا ينظرون فى عواقب الامور وعندهم قلة الصبر على الشدائد والقنوط من الفرج وسرعة الخوف من السلطان وان أهل مصر يتحدثون بالاشياء قبل وقوعها ويخبرون بالامور المستقبلة قبل أن تقع قيل ان منطقة الجوزاء تسامت رؤسهم فلذلك يخبرون بالامور قبل وقوعها كما قيل ولم تزل مصر باقوالها وقيل ان أهل مصر لا يهتمون بأمر الزاد كما هى عادة غيرهم من الامم كأنما حوسبوا وفرغوا من الحساب وقال بعض الحكماء ان أمزجة أهل مصر حارة رطبة وأبدانهم سخيفة سريعة التغير وقيل ان ماء النيل لشدة حلاوته يعفن أبدانهم

ويكثر الدمامل ويورث القروح * وكان بمصر من الفلاسفة والحكماء القدماء هرمس وبقراط وجالينوس والينوس وفيداغورس ولما ماتوا دفنوا بمصر وكان بها من الحكماء في دولة الاسلام الرئيس علاء الدين بن نفيس صاحب كتاب الموجز والرئيس أبو على بن سينا * ومما تفتخر به مصر على سائر البلاد أن سلطانها خادم الحرمين الشريفين وله الميزة على سائر ملوك الارض كما قال القائل

اذا البلاد افتخرت لم تزل * مصر لها عز وتفضيل
وكيف لا تفخر مصر وفي * أرجائها السلطان والنيل

وقال بعض الحكماء أرض مصر كالمرأة العارض أى الحائض تطهر بالنيل في كل عام وقال بعض الحكماء يصف مصر نيلها عجب ونساؤها لعب وأرضها ذهب وهى لمن غلب وخيرها جلب ومالها رغب وأهلها صحب وطاعتهم رهب وهى مسكن الجبابرة والفراعنة

ذكر ما قاله الشعراء في وصف مصر من كل معنى غريب

قال ابن الوردى رحمه الله تعالى

ديار مصر هى الدنيا وساكنها * هم الانام فقابلها بتقبيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها * مصر مقدمة والشرح للنيل

وقال الصلاح الصفدى

من شاهد الارض وأقطارها * والناس أنواعا وأجناسا
ولا رأى مصر ولا أهلها * فما رأى الدنيا ولا الناسا

وقال العيزاوى رحمه الله

لعمرك ما مصر بمصر وانما * هى الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها * وروضتها المقياس والنيل كوثر

وقال الشيخ علاء الدين الوداعى

روّ بمصر وسكانها * شوقى وجد عهدى الخالى
وصف لنا القرط وشنف به * سمعى وما العاطل كالحالى
وارو لنا يا سعد عن نيلها * حديث صفوان بن عسال

وقال البهاء زهير

يارعى الله أرض مصر وحيا * مامضى لى بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه * مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث على النيل * ودعنى من دجلة والفرات

وقال بعض الادباء مطلع زجل

أصبحت مصر نزهة للناظرين * هى أم القرى وزين الملاح
خطبتها منا التستر بالنفوس * وعلى مصر راحت الارواح

وقال ابن فضل الله

يحق لمصر أن تتيه اذا جرى * بها النيل وامتدت اليه عيون
فما مثله من زائر لقدومه * تقر عيون اذ تقر العيون

وقال ابن الصائغ الحنفى

ارض بمصر فتلك أرض * من كل فن لها فنون
ونيلها العذب ذاك بحر * مانظرت مثله العيون

وقال شمس الدين النواجى

مصر قالت دمشق لا * تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتى * منه راحت بسهمها

وقال الشهاب المنصورى

تقول لنا مصر أنا خير موطن * ولا ناس فى الامصار أظرف من ناسى
فان تك أوقات السرور نضيرة * فلا تقطعوها فى الا بمقياسى

وقوله رضى الله عنه

اعملوا أهل مصر لله شكرا * وقليل من العباد الشكور
ان مصرا سقى الاله ثراها * بلد طيب ورب غفور

ذكر أخبار من ملك الديار المصرية فى مبتدا الزمان من الجبابرة

اعلم ان أول من ملك مصر من الجبابرة تبليل وكان عالما بالطلسمات والكيميات والكهانات وغير ذلك من العلوم الجليلة وقيل هو الذى بنى مدينة أمسوس وهى مصر القديمة وكانت من أعظم المدائن وبها من العجائب مالم يسمع بغيرها ولكن محا الطوفان رسمها ونسى اسمها فأقام تبليل فى ملك مصر نحو مائة وثمانين سنة وكان له من الاولاد

ثلاثة وهم نقراوش ومصرام وعيقام فلما هلك قسمت البلاد بين أولاده الثلاثة فأما ابنه نقراوش فانه كان قد انفرد بعلم الكهانة والطلسمات وقيل انه انتهى الى البحر المحيط وبنى هنالك قلعة وكانت الجن والشياطين تحمل سريره على أعناقهم ويطوفون به فى سائر أقاليم الدنيا ثم يرجعون الى قلعته التى بناها وسط البحر المحيط فاستمر على ذلك حتى هلك وتولى من بعده أخوه مصرام وهو الذى بنى مدينة مصر واليه تنسب وكان عالما بعلم الكهانة والطلسمات وكان قد كتب على أبواب مصر أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة وأودعت بها الطلسمات الصادقة والصور الناطقة وهو الذى ساوى الارض حتى أتى منبع النيل وبنى بها الجسور والقناطر وأصلح مكان مجراه وقطع منها الجبال التى كانت تعوق جريان النيل واستمر سابحا فى الارض نحوا من ثلاثين سنة ثم هلك وتولى من بعده أخوه عيقام وكان عالما بعلم الكهانة والسحر وهو الذى يحكى عنه حكايات غريبة لا تقبلها العقول لعظمها وقيل ان ادريس عليه السلام رفع الى السماء فى أيامه وقيل ان عيقام توجه الى خلف خط الاستواء وبنى هنالك قلعة من نحاس أصفر فى سفح جبل القمر الذى ينحدر من أعلاه النيل وصنع هنالك خمسة وثلاثين تمثالا من النحاس يخرج من حلوقها ماء النيل ويصب فى بطائح هنالك ثم ينحدر الى أرض مصر بقانون وتدبير بما يكون فيه لاهل مصر المنفعة دون الفساد وقدر ذلك على ستة عشر ذراعا تروى أراضى مصر جميعها من هذه الستة عشر واستمر عيقام ساكنا فى القصر النحاس الذى بناه على سطح جبل القمر حتى هلك فتولى من بعده ابنه عرياق وكان عالما بعلم الطلسمات وله أعمال عجيبة منها أنه عمل شجرة من نحاس أصفر ولها فروع اذا قرب منها ظالم اختطفته بتلك الفروع فلا تفلته حتى يقر بظلمه ويخرج من ظلامة خصمه وقيل ان هاروت وماروت كانا فى زمانه وكان عرياق يميل الى النساء الحسان فتغاير عليه النساء فعمدت احداهن الى طعام ووضعت فيه السم وقدمته اليه فأكل منه فمات لوقته وكان قد عمل قبة عظيمة فى وسط مدينة امسوس وعمل فوقها كالسحابة تمطر مطرا خفيفا شتاء وصيفا وعمل تحت تلك القبة مطهرة فيها ماء أخضر يتحصل من ذلك المطر فاذا استعمله من به عاهة برئ من وقته ولما هلك تولى من بعده ابنه لوجيم وكان عالما بعلوم الطلسمات والسحر وله أعمال عجيبة منها كانت الغربان قد كثرت فى أيامه وصارت تفسد الزروع والغلال فعمل أربع منارات فى جوانب مدينة امسوس وجعل على كل منارة صورة غراب وعليه صورة حية قد التوت فلما عاين الغربان ذلك نفروا عن المدينة ولم يدخلوها بعد ذلك فى مدة أيامه ومنها انه عمل طلسما للريح فكانت المراكب المقلعة اذا وصلت اليه تقف ولا تسير حتى يجعلوا له على كل مركب ضريبة معلومة حتى يطلق لهم الريح من الجو واستمر فى الملك حتى هلك

وتولى من بعدها ابنه حصليم وكان عالما فاضلا فى علوم الطلسمات والسحر وله اعمال عجيبة وهو أول من عمل مقياسا بمصر لزيادة النيل وعمل فى وسط ذلك المقياس بركة يدخل اليها ماء النيل وجعل على حافة تلك البركة عقابين من نحاس أصفر وهما ذكر وأنثى فاذا كان أول الشهر الذى يزيد فيه النيل تجتمع هناك الكهان ويعزمون بكلام حتى يصفر أحد العقابين فان صفر الذكر كان النيل فى تلك السنة عاليا واذ صفرت الانثى كان النيل فى تلك السنة ناقصا فيعتدون لذلك فى تحصيل جميع الغلال وهو الذى بنى القنطرة الكبيرة على بحر النيل ببلاد النوبه واستمر فى الملك حتى هلك وتولى من بعده ابنه قفال وكان عالما فاضلا فى علم الطلسمات والسحر قيل انه عمل تحت الارض سردابا ينتهى الى بلاد الصعيد فكانت نساؤه ينزلن فى ذلك السرداب ويمشين فيه الى بلاد الصعيد ويزرن البرابى وقيل ان نوحا عليه السلام كان فى زمانه واستمر فى الملك حتى هلك وتولى من بعده ابنه تدرسان وكان عالما فاضلا فى علوم الطلسمات والسحر وكانت له أعمال عجيبة منها انه عمل قصرا من الخشب ونقش فيه صور الكواكب وكان يضعه على الماء ويجلس فيه فبينما هو جالس فيه وبين يديه سفرة الشراب وحوله النساء الحسان اذ هبت من الجوّ رياح عاصفة فاضطرب الماء فانقلب ذلك القصر الخشب بالملك تدرسان فهلك هو ومن معه بالغرق وقد ذهب ببسطه وانشراحه وطرقته المنية فى اصباحه فكان كما قيل فى المعنى

تمتع من الدنيا بلذتك التى - ظفرت بها مالم تعقك العوائق
فما أمسك الماضى عليك بعائد * ولا يومك الآتى به أنت واثق

فلما هلك تولى من بعده ابنه سرقاق وكان عالما فاضلا فى علوم الطلسمات والسحر وكانت له أعمال عجيبة منها انه عمل صورة بطة من نحاس أصفر قائمة على اسطوانة من رخام أخضر على باب المدينة فاذا دخل المدينة أحد غريب فتصفق تلك البطة بجناحيها وتصرخ حتى يسمعها كل من فى المدينة فيمسكون ذلك الغريب بيده فكان فى أيامه لا يستطيع غريب أن يدخل المدينة وكل من دخل أمسك من وقته فاستمر الملك سرقاق فى الملك حتى هلك وتولى من بعده ابنه شهلوق وكان عالما فاضلا فى علوم الطلسمات وكانت له أعمال عجيبة منها انه عمل شجرة من نحاس أصفر ونصبها على الجبل الاحمر فكان يقسم بها الرياح الى البلاد التى يريد الفساد الى أهلها فلا يستطيعون بها الاقامة حتى يأتوا اليه ويدخلوا تحت طاعته وفى أيامه ظهر معدن الفضة فى بلاد البجة فأثار منه شيأ كثيرا فكان جميع أوانيه حتى نعال خيله من الفضة واستمر شهلوق فى الملك حتى هلك وتولى من بعده ابنه سوريد وكان عالما فاضلا فى علوم الطلسمات والكهانة وكان أغنى ملوك الارض كلها وكانت له أعمال عجيبة منها انه صنع مرآة من أخلاط شتى فكان ينظر فيها الى جميع ما يحدث

فى الاقاليم السبعة من خير أو شر ومار وى من أرضها وما أجدب فكانت هذه المرآة فى وسط مدينة أمسوس قائمة على اسطوانة من رخام أخضر وقيل ان سوريد هذا هو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر اللذين لا تغيرهما الدهور ولا الازمان وقد قال القائل فى المعنى

الست ترى الاهرام دام بناؤها * ويفنى لديها العالم الانس والجن
كان رحا الافلاك أكوارها على * قواعدها الاهرام والعالم الطحن

وقد تقدم أخبار بناء الاهرام وما كان سبب ذلك فى قصة نوح عليه السلام فى أول التاريخ وقد بينت فى اخبارها العجائب والغرائب كما قال القائل

لله أى غريبة وعجيبة * فى صنعة الاهرام للالباب
تحكى الخيام سقامة فى نصبها * من غير أعمدة ولا أطناب

وقيل ان الملك سوريد لما أتم بناء الاهرام صنع لها عيدا وجمع أعيان قومه وأولم فى ذلك اليوم الولائم العظيمة وكسا الهرمين الكبيرين بالديباج الملون وكتب عليهما بقلم الطير أنا الملك سوريد قد بنيت هذه الاهرام فى ستين سنة فن أتى من بعدى ويزعم أنه مثلى فليهدم هذه الاهرام فى ستمائة سنة وان الهدم أهون من البناء وقد كسوتها لما تم بناؤها بالديباج الملون فليكسها من يأتى من بعدى بالحصر ان استطاع ذلك واستمر سوريد فى الملك حتى هلك ولما مات سوريد دفن فى الهرم الكبير وقيل ان سوريد هو الذى بنى البرابى باخميم وقفط ولما هلك سوريد تولى من بعده ابنه هوجيب وكان عالما فاضلا فى علوم الطلسمات والكهانة والسحر وكان له أعمال عجيبة منها أنه عمل درهما اذا ابتاع به صاحبه شيأ اشترط أن يزن له ما ابتاعه منه بوزن هذا الدرهم ولا يطلب عليه زيادة فيغر البائع ذلك ويقبل منه الشرط فاذا وقع الوزن بذلك الدرهم يدخل قبالته جميع الاصناف ولا تعدله فى الوزن وقد وجد هذا الدرهم فى كنوز الفيوم بعد مدة طويلة وانتقل من ناس الى ناس حتى وجد فى خزائن بنى أمية وكان من شأن ذلك الدرهم اذا أراد الرجل أن يبتاع به حاجة يقبل ذلك الدرهم ثم يقول له أذكر العهد القديم ثم يبتاع به ما أراد فاذا مضى الى بيته يجد ذلك الدرهم ورقة آس أو ورقة بيضاء من قرطاس فكان الناس يتعجبون من شأن هذا الدرهم حتى فقد من الوجود واستمر هوجيب فى الملك حتى هلك وتولى من بعده ابنه منقاوش وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء وكان يأخذ النساء الحسان من أزواجهن غصبا وكان يسمع وصف الجنة من الكهان فقال انا ابنى لى فى الدنيا جنة مثلها فبنى له قصرا من الذهب والفضة على شاطئ النيل وأجرى فيه الانهار من ماء النيل وجعل بأرضه حصبا الدر والجوهر وكان يجلس فيه وحوله النساء الحسان

فبينما

فبينما هو جالس ذات يوم فى ذلك القصر وفى يده الكاس فلما شرب به شرق به فمات فى الحال
ودفن فى ذلك القصر الذى بناه فلما هلك تولى من بعده ابنه أقروش وكان عالما فاضلا فى علوم
الطلسمات والكهانة وكان عادلا فى حق الرعية حسن السيرة وكانت له أعاجيب فى كل
فن قيل انه بنى قبة فى شاطئ النيل من نحاس أصفر طولها خمسون ذراعا وعرضها مثل ذلك
وجعل حولها أطيارا من ذهب وفضة اذا دخل فى اجوافها الريح تصفر باصوات مطربة من
لغات شتى وكان له مدهن من الياقوت الاحمر قطره خمسة أشبار فكان يشرب فيه الخمر
وقيل ان هذا المدهن وجد بعد الطوفان فى بعض البرابى واستمر أقروش فى الملك حتى
هلك فلما هلك تولى من بعده ابنه أرماليئوش وكان جبارا عنيدا وهو أول من ملك أرض
مصر بعد ان زال الطوفان فبنى مدينة منف وكان له ثلاثون ولدا فبنى لكل واحد منهم
قصرا بمنف وقيل انما سميت منف لانها بلسان القبط ثلاثون على عدد أولاده الذين كانوا
بها واستمر فى مدينة منف حتى هلك فلما هلك تولى من بعده ابنه مصريم وهو مصريم الثانى
الذى بنى مدينة مصر بعد الطوفان وهو غير مصريم بن بيصر بن حام بن نوح وهو من
الامم الثانية بعد مجىء الطوفان حين تفانى العالم وبادوا أجمعين فبنى مصريم مصر هذه
وبه سميت وهو الذى شق بمصر الانهار وغرس بها الاشجار من بعد الطوفان وهو الذى
صنع بها الجسور وعقد بها القناطر وكل ذلك بعد الطوفان واستمر فى الملك حتى هلك فلما
هلك تولى من بعده ابنه قفطيم وقيل ان مصريم عاش من العمر نحو سبعمائة سنة ولما تولى
قفطيم بعد أبيه استخرج المعادن من الارض واتخذ الكيل والميزان وسار فى الارض سيرة
حسنة واستمر فى الملك حتى هلك ثم تولى من بعده ابنه قفطريم فكان جبارا عنيدا كثير
الظلم وقد بنى مدينة بمصر وسماها باسمه وجعل لها أربعة أبواب ونصب على كل باب
منها صنما من النحاس الاصفر فكان اذا دخل الى تلك المدينة أحد غريب ألقى عليه النوم
فلا ينتبه حتى يأتى اليه أحد من أهل المدينة فينفخ فى دبره حتى ينتبه وان لم يفعلوا ذلك
فلا يزال نائما حتى يموت فلما هلك تولى من بعده ابنه أبتورشير وكان عالما فاضلا وله أعمال
عجيبة منها انه عمل شجرة من نحاس أصفر ووضعها فى الفضاء وكان لا يمر بها وحش ولا طير
الا وقف مكانه فلا يستطيع الحركة حتى يؤخذ باليد فشبعت الناس فى أيامه من لحوم
الوحش والطير واستمر فى الملك حتى هلك وتولى بعده قيلمون فكان عالما فاضلا ماهرا فى علوم
السحر والكهانة فكان يجلس فى السحاب فأقام فى السحاب نحو ستة أشهر ثم ظهر لقومه
عند طلوع الشمس وهى فى برج الحمل فأمر جنده أن يولوا ابنه عديم فانه ما بقى يرجع اليهم
فولوا ابنه عديم فكان جبارا عنيدا وقيل هو أول من صلب أصحاب الجرائم وكانت له أعمال
عجيبة منها انه عمل قدحا لطيفا من زجاج أخضر اذا صب فيه شئ من الماء أو غيره وشرب منه

جميع من فى المدينة لاينقص منه شئ ولو أقام دهرا طويلا فاستمر فى الملك عديم حتى هلك
فتولى من بعده ابنه شداد وهو صاحب ارم ذات العماد وقد تقدم أخباره فى أول التاريخ
وهو أول من أظهر الصيد وكان مولعا به فاتخذ الكلاب السلوقية والجوارح بسبب الصيد
واستمر فى الملك حتى هلك فتولى من بعده ابنه منقاش وكان عالما فاضلا فى علوم الكهانة
والسحر وهو الذى توجه الى أرض المغرب وانتهى الى الجبل الاسود الذى ليس له مصعد
فنقب فيه مغاور ونقل اليها جميع أمواله قيل انه نقل الى تلك المغاور اثنى عشر ألف عجلة
موسوقة بالجواهر وستمائة ألف عجلة موسوقة من الذهب والفضة ولما مات دفن بذلك الجبل
وتولى من بعده ابنه قرشون وكان عالما فاضلا فى علوم الكهانة والسحر وكانت له أعمال
عجيبة منها انه عمل منارة على بحر القلزم وهو بحر الحجاز ووضع فوقها مرآة من أخلاط شتى
فكان من شأن هذه المرآة ان تجلب المراكب الى البر فلا تبرح حتى يؤخذ منها العشر من
أصناف البضائع واستمر قرشون فى الملك حتى هلك ولم يكن له ولد ذكر فتولت من بعده ابنته
نونية الكاهنة وكانت ساحرة ماهرة فأقامت فى الملك مدة ثم وثب عليها الملك مرقونس
ونزعها من الملك وتولى عليه وكان حكيما فاضلا وله أعمال عجيبة منها انه صنع الآنية التى
اذا ملئت بالماء يصير خمرا وقد وجدت هذه الآنية ببعض الكنوز بمدينة اطفيح فى أيام
هرون بن خمارويه بن أحمد بن طولون كما سيأتى ذكر ذلك فى أخباره ولما هلك مرقونس
تولى من بعده ابنه صاء وهو الذى بنى مدينة صاء وبه سميت تلك المدينة وهى الآن خراب
على شاطئ النيل وكان بها اسطوانة من الرخام الابيض وكان عليها مرآة من أخلاط شتى
فكان ينظر فيها ما يحدث من خير أو شر واستمر صاء فى الملك حتى هلك وتولى من بعده ابنه
بداوس وكان عالما فاضلا فى علوم السحر والكهانة وقد بلغ خراج مصر فى أيامه ألف ألف
وخمسين ألف دينار واستمر فى الملك حتى هلك وتولى من بعده ابنه ماليق وكان عالما فاضلا
فى علوم السحر والكهانة وكان كثير الغزوات فتوجه الى مدائن البربر فأخربها وأسر
أهلها وكان بالبربر مدينة عظيمة يقال لها قوميه وكان بها ملكة ساحرة فلما توجه اليها الملك
ماليق وحاصرها ألقت عليهم شيأ من السحر فطمست على العسكر مكان المياه فلم يعرفوها
وهلك عسكر ماليق بالعطش ومات منهم نحو الثلث فلما عاين ذلك ترك حصار تلك المدينة
ومضى عنها وقيل ان الملك ماليق لما غزا بلاد البربر رأى بها مدينة ورأى بها أقواما
وجوههم كوجوه الناس وأرجلهم مثل حوافر البقر وعلى أبدانهم شعر مثل شعر المعز ولهم
أنياب بارزة مثل أنياب السباع حاصرهم فلم يقدر عليهم من شدة سحرهم فتركهم ومضى
وقيل انه رأى ببلاد البربر عجائب لم يسمع بمثلها فى سائر البلاد وقيل ان جنس البربر شر
الاجناس وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعث الله تعالى الى أقوام نبيا قبلى

فذبحوه وطبخوه وأكلوا من لحمه وشربوا من دمه فهم أقسى الامم قلبا وقيل نساؤهم خير من رجالهم وقيل لما رجع ماليق الى مصر سحرا لبربر مدينة مصر فكثر بها التماسيح والثعابين والعقارب والضفادع وفاض النيل حتى غرق الاراضى فى غير أوانه فلما عاين الملك ماليق ذلك لبس المسوح السود وافترش الرماد وسجد عليه ودعا الله تعالى بكشف هذه النازلة فكشفت عنهم بعد أن عجز عن ابطال ذلك السحرة والكهنة واستمر ماليق فى الملك حتى هلك وانقضت أيامه والله أعلم

ذكر من ملك مصر من الفراعنة

قال وهب بن منبه ان الفراعنة الذين ملكوا مصر كانوا ستة فأولهم فرعون ابراهيم الخليل عليه السلام وكان اسمه طوطيس وهو الذى أخذ سارة زوجة ابراهيم منه وقد تقدمت أخباره فى قصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام والثانى فرعون يوسف عليه السلام وكان اسمه الريان بن الوليد بن اسلادس وكان وزيره يسمى قطفير وهو الذى اشترى يوسف عليه السلام وقد تقدمت أخباره فى قصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام عند قصة يوسف عليه السلام وكان الريان حسن السيرة عادلا فى الرعية وكان الغلاء قد جاء فى أيامه فأسقط عن المزارعين بمصر خراج ثلاث سنين حتى يتقووا بذلك فى السنين الماحلة وكان خراج مصر فى أيامه مائة ألف ألف دينار فى كل سنة وهو الذى بنى مدينة العريش وكانت من أجل المدائن وهو الذى غزا بلاد السودان وقتل منهم خلائق لا تحصى وكانت هذه الطائفة يأكلون الناس جهارا ثم انه غزا بلاد الجنوب فرأى بها أقواما خلقتهم كخلقة القرود ولهم أجنحة يلتفون فيها ثم غزا أقواما عند البحر المظلم فرأى واديا مظلما فكانوا يسمعون فيه صياحا عظيما ولا يرون فيه أشخاصا لشدة ظلمته ورأى هناك سباعا سودا غريبة الخلقة وهى مخزومة الانوف وسار حتى انتهى الى البحر الاسود المسمى بالزفتى فرأى هنالك عقارب طيارة خرجت على عسكره فهلك منهم جماعة كثيرة ثم سار حتى وصل الى مدينة سلوقة فرأى بها حية عظيمة الخلقة فكان طولها ميلا وكانت تبلع الفيل العظيم تحسبه رمة فتهجم عليه وتبتلعه فلما ان عاين الريان ذلك وقد هلك من عسكره ما لا يحصى رجع الى مصر وأقام بمدينة منف وأمر بعد عسكره فاذا هو قد فقد منهم مائة ألف ألف انسان وكانت مدة غيبته فى هذه السياحة احدى وثلاثين سنة قال الواقدى ان الريان هذا هو الذى بنى قصر الشمع القديم وانما سمى قصر الشمع لانهم كانوا يوقدون فيه الشمع عند تنقل الشمس من برج الى برج وهى تنتقل فى كل سابع عشر من الاشهر القبطية ولم يزل هذا القصر عامرا الى ان خربه بختنصر عند ما دخل مصر وأقام خرابا الخ

خمسمائة سنة ولم يبق منه الا الرسوم فلما قويت شوكة الروم على اليونان واستولوا على مصر جدد بناء ذلك القصر ملك من الروم يقال له مقراطيس وجعله بيتا لعبادة النيران وكان هذا القصر مطلا على بحر النيل انتهى قال وهب بن منبه ان الملك الريان كان مؤمنا وقد آمن على يد يعقوب عليه السلام لما دخل مصر وكان يكتم ايمانه خوفا من فساد مملكته وفى أيامه بنى يوسف عليه السلام مدينة الفيوم وقيل انها بنيت بالوحى الى يوسف على لسان جبريل عليه السلام وكانت أرضها مفايض للماء فدبر الحيلة يوسف فى أمرها حتى خرج عنها الماء ثم عمرها فى مدة يسيرة فلما فرغت وتم بناؤها ركب ونظر اليها الملك الريان وصار يتعجب من سرعة بنائها فى مدة يسيرة فقال ليوسف هذا كان يعمل فى ألف يوم فسميت من ذلك اليوم الفيوم وكان عدد القرى التى بها ثلثمائة وستين قرية على عدد أيام السنة لتكون كل قرية تغل على أهل مصر يوما واستمر الملك الريان بمصر حتى هلك فى أيام يوسف عليه السلام واستقر يوسف مكانه وقد تقدمت أخبار ذلك فى قصص الانبياء عند قصة يوسف عليه السلام ثم تولى على مصر ملك يقال له داروم وهو الفرعون الثالث وكان جبارا عنيدا وكان مولعا بشرب الخمر وحب النساء الحسان فنزل ذات يوم فى مركب وهو الى نحو حلوان فقام عليه الريح فغرق فى البحر وهو سكران ثم طلعوا به وحمل الى منف ودفن بها وأما الفرعون الرابع فان اسمه عند القبط دريوش وكانت له أعمال عجيبة منها انه صنع صنما من رخام أخضر وألبسه الحرير الاحمر واتخذ له عيدا كلما دخل القمر الى برج السرطان يكون عيده وعمل فى أيامه تنورا يشوى فيه من غير نار وعمل قدرا يطبخ فيه بغير نار وعمل سكينا منصوبة فتأتى اليها البهائم فتذبح نفسها بها من غير يد وعمل ما يستحيل نارا والنار تستحيل هواء وعمل أشياء كثيرة من هذه الانواع العجيبة من باب علم النارنجيات وأما الفرعون الخامس فهو الذى يقال له ميلاطيس ابن دريوش وكانت له أعمال عجيبة منها انه عمل ميزانا بكفتين من ذهب وكانت معلقة فى هيكل الشمس وكتب على احدى كفتيها حق والاخرى باطل وجعل تحتها فصوصا ونقش عليها اسم الكواكب فيدخل الظالم والمظلوم ويأخذ كل واحد منهما فصا من تلك الفصوص ويسمى عليه ما يريبه ويجعل كل واحد منهما فصه فى كفة فتثقل كفة الظالم وتخف كفة المظلوم وقيل ان بختنصر لما دخل مصر أخذ هذه الميزان وحملها الى بابل مع جملة ما أخذه من مصر انتهى الفرعون السادس هو فرعون موسى عليه السلام وقد تقدمت أخباره فى قصة موسى عليه السلام قال وهب بن منبه كان اسمه الوليد بن مصعب وكان أصله من مدينة بلخ وقيل من أرض حوران من نواحى الشام وكان عطارا فتجمد عليه دين فخرج هاربا على وجهه حتى دخل مصر وكانت صفته أعور

بعينه اليسرى وكان طول لحيته سبعة أشبار وكان قصير القامة وقيل كان أعرج وقد تقدمت أخباره في سبب مبتدا ولايته على مصر في أول التاريخ ولم يزل قائما بملك مصر عادلا في رعيته حسن السيرة محببا للناس حتى هلك في أيامه ثلاثة قرون من العالم وهو باق فعند ذلك طغى وتجبر وادعى الربوبية من دون الله تعالى وقال أنا ربكم الاعلى قال وهب بن منبه عاش فرعون أربعمائة سنة وهو منفرد بملك مصر لا يرى في هذه المدة مكروها ولا حم في جسده يوما ولم يزل مخولا في النعمة حتى أخذه الله نكال الآخرة والاولى قال المهدوى في تفسير قوله تعالى اخبارا عن فرعون حيث قال أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون قيل كانت أرض مصر من رشيد الى أسوان محتبكة بالاشجار والانهار من الجانبين جميعا لا تقع الشمس على شيء من الارض وكان بها سبعة خلجان وهي خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج سردوس وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المهى وكانت تجرى بالماء شتاء وصيفا ماقد دبروه من القناطر والجسور وأحكموه وقد قال الله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم قال المهدوى في تفسير هذه الآية ان المقام الكريم هو الفيوم قيل انه كان به ألف منبر من الذهب برسم الوزراء يجلسون عليها وكانت أراضى مصر تروى كلها من ستة عشر ذراعا أعاليها وأسافلها وكان بها قصور مطلة على النيل متصلة من رشيد الى اسوان وقد قال الله تعالى ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون قال ابراهيم بن وصيف شاه في أخبار مصر ان خراج مصر كان في زمن فرعون يجبي في كل سنة اثنين وسبعين ألف ألف دينار فكان فرعون يأخذ من الخراج الربع لنفسه والربع الثانى لوزرائه وجنده والربع الثالث يدخره بسبب شراقى الاراضى في السنين المجدبة والربع الرابع يصرفه على حفر الخلجان وعمل الجسور وسد الترع قال ابن لهيعة كان لاراضى مصر في كل سنة مائة وعشرون ألف انسان بسبب قلع القضاب والحلفاء وكل نبات يضر بالارض فكانت لهم الرواتب في كل سنة عمالة بسبب ذلك فكانوا يقتسمون في النواحى جماعة للوجه القبلى وجماعة للوجه البحرى وهم بالمساحى والآلة حتى تكون الاراضى كلها عامرة بالزرع وقيل كان يرسل زمن التخضير قائدين من قواده ومعهما اردب من القمح فيذهب أحدهما الى أعلى بلاد الصعيد والآخر الى أسفل نواحى مصر من البلاد البحرية فان وجدا في الارض مكانا بائرا من الزرع يكاتبان فرعون بذلك فيأمر بصلب عامل ذلك المكان بسبب بوره وربما عاد القائدان ولم يجدا مكانا بائرا في أراضى النواحى بمصر فيرجعا ومعهما ذلك الاردب القمح فلاجل ذلك كانت مصر عامرة كلها وكان خراجها اثنين وسبعين ألف ألف دينار ولم يزل فرعون قائما بملك مصر

حتى هلك وأغرقه الله تعالى لما خرج فى طلب موسى و بنى اسرائيل وقيل انه غرق فى بركة الغرندل وقد تقدمت أخباره فى قصة موسى عليه السلام انتهى ذلك قال القضاعى لما أغرق الله تعالى فرعون وقومه صارت مصر ليس بها أحد من أشراف أهلها سوى العبيد والاجراء والنساء فكانت المرأة تعتق عبدها وتتزوج به والاخرى تتزوج باجيرها وكانوا يشرطون عليهم أن لا يفعلوا شيأ الا باذنهن وقد صارت من يومئذ هذه عادة عند القبط الى اليوم لا يبيع أحدهم ولا يشترى حتى يستأذن زوجته قبل أن يفعل شيأ من ذلك ثم ان النساء أجمعن رأيهن أن يولين عليهن امرأة منهن يقال لها دلوكه وكانت ذات عقل ومعرفة وكان لها من العمر نحو مائة وستين سنة فملكوها عليهم فلما ملكت دلوكه مصر بنت على أرض مصر حائطا من اسوان الى العريش وحاشت قرى مصر وضياعها بذلك الحائط وجعلت له حراسا وجعلت على ذلك الحائط أجراسا من نحاس فاذا أتاهم من يخافونه حرك تلك الاجراس الموكلون بها من كل جانب حتى يسمعها من بالمدينة فيستعدون الى قتالهم وآثار هذا الحائط باقية الى الآن بأعلى بلاد الصعيد وتسمى حائط العجوز قال ابن عبد الحكم ان دلوكه لما ولت على مصر أرسلت خلف امرأة ساحرة يقال لها تدوره وكانت ساحرة عظيمة فقالت لها انا قد احتجنا الى شئ من سحرك يمنع عنا من يقصد بلادنا بسوء فعملت بربا من الحجارة الصوان فى وسط مدينة منف وجعلت لهذه البربا أربعة أبواب لكل جهة من الجهات الاربع باب وصورت فى كل جهة منها صور الخيل والبغال والابل والحمير والسفن والرجال فقالت لدلوكه قد عملت لكم عملا يهلك به من أراد كم بسوء من بر أو بحر فكان اذا قصد اليهم أحد من الملوك الجبابرة وعجزوا عن قتاله يدخلون فى تلك البربا ويقطعون رؤس تلك الصور أو يفقؤن أعينها فمهما فعلوا فى تلك الصور يؤثر مثل ذلك الفعل فى عسكر الملك الذى يقصدهم فامتنعت عنهم الملوك ولم يقدروا على بلادهم فى أيام دلوكه وأقامت دلوكه فى ملك مصر نحو مائة وثلاثين سنة ولم تزل مصر ممتنعة من العدو بتدبير تلك العجوز حتى هلكت وأقامت تلك البربا على ماذكرناه بعد هلاك العجوز التى وضعتها فى الاصل فكانت كلما فسدت تلك الصور لا يقدر على اصلاحها بعد ذلك الا من يكون من ذرية تلك العجوز فلما انقطع نسلها خربت تلك البربا فلم يقدر أحد على اصلاحها بعد ذلك ثم ان مصر بعد ذلك تملكها شخص من أولاد القبط

ذكر ابتداء دولة الاقباط

قال المسعودى لما هلكت دلوكه انتشأ من بعدها شخص من أولاد أشراف القبط يقال له دركون بن نكوطس فوقع الاتفاق من الجند على توليته فولوه عليهم فأقام فى الملك مدة

طويلة ثم هلك فتولى من بعده شخص يقال له مرينوش فأقام فى الملك مدة وفى أيامه قدم بختنصر الى مصر وجرى منه ماجرى من اخراب مدنها وقراها ونهب أموالها وقتل رجالها وسبى نسائها ولم يترك بها من الطلسمات والحكم وأخرب غالب البرابى التى كانت مودعة من الحكم وقيل ان بختنصر لما دخل مصر قتل من بنى اسرائيل سبعين ألفا وأسر سبعين ألفا منهم وكان من جملة من أسر دانيال عليه السلام وأرميا فتوجه بالاسرى والاموال الى أرض بابل وكانت محل ولايته فلما خرب مصر ورحل عنها أقامت بعد ذلك أربعين سنة خرابا ليس بها ساكن ولا متحرك فكان نيلها اذا زاد ينفرش على الارض ثم يهبط ولا يجد من يزرع عليه ولا ينتفع به فى هذه المدة ثم بعد ذلك ردت أهل مصر اليها وعمروها وسكنوا بها كما كانت فكانوا أخلاطا من الامم مابين قبطى ويونانى وعمليق ولكن أكثرهم كانوا قبطا وأكثر من ملك مصر الغرباء وكان من اصطلاح ملوك القبط فى يوم النيروز وهو أول يوم من السنة القبطية أن يأتى الملك رجل فى صبيحة ذلك اليوم ويدخل عليه بغير اذن ويكون ذلك الرجل حسن الوجه حسن الشباب طيب الرائحة فصيح اللسان فيقف بين يدى ذلك الملك بحيث انه يراه فيقول له الملك من أنت ومن أين أقبلت والى أين تريد وما اسمك وما معك ولاى شئ وردت فيقول الرجل أنا المنصور واسمى المبارك والى الملك السعيد أردت وبالهناء والسلامة وردت وبالعام الجديد قد أقبلت ثم يجلس بين يدى الملك ويرد بعده رجل ومعه طبق من الفضة وفيه قمح وشعير وفول وحمص وبسلة وعدس وسمسم وقطعة سكر ودينار ذهب ودرهم فضة ضرب ذلك العام الجديد وطاقة آس فيضع ذلك الطبق بين يدى الملك ثم يقدم الى الملك رغيفا قد صنع من تلك الحبوب السبعة فيأكل منه الملك ويطعم من حوله من أرباب الدولة ثم يدخل عليه الوزراء والحجاب وعمال الخراج ثم بقية الجند على قدر مراتبهم ثم يقول الملك هذا يوم جديد من شهر جديد من عام جديد من زمان جديد فنحتاج أن نجدد فيه ماأخلق الزمان ثم يأمر بان يفرق مافى حواصله جميعا من ملابس ومن فرش على جنده ثم يجدد غيرها ويقول مامن أخلاق الملوك أن يساووا العامة فى أفعالهم ويدخروا فى حواصلهم كسوة الصيف الى الشتاء ولا كسوة الشتاء الى الصيف انتهى ذلك واستمر القبط على ملك مصر يتولونه واحدا بعد واحد الى آخر من تولى منهم وهو المقوقس

ذكر أخبار المقوقس أحد ملوك القبط وهو آخر من تولى منهم

وكان اسمه جريج بن ميناهى وقد أدرك نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كانت

سنة ست من الهجرة بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة رضى الله عنه ومعه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه فيه الى الاسلام فلما دخل حاطب مصر وجد المقوقس بثغر اسكندرية فتوجه اليه وكان يصيف بمصر و يشتى بالاسكندرية فلما دخل عليه ناوله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أخذه قبله ووضعه على رأسه ثم قرأه وعلم مافيه وقال لحاطب نعلم انه نبي مرسل وقد أخبرنا المسيح بذلك ثم بعث مع حاطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية عظيمة وهى ألف مثقال من الذهب وعشرون ثوبا من قباطى مصر وجارية تسمى مارية وأخرى تسمى شيرين وغلام خصى يسمى مابور و بغلة تسمى دلدل وحمار يسمى عفيرا وقيل يعفور وعسل من عسل بنها وأكرم حاطبا غاية الاكرام و بعثه بتلك الهدية فلما وصلت الى النبى صلى الله عليه وسلم قبلها منه واستسلم مارية فأسلمت على يديه و وهب أختها شيرين الى حسان بن ثابت وكانت البغلة والحمار أحب دوابه اليه ولما أكل من العسل أعجبه فسأل من أين هذا العسل فقيل له من بنها وهى قرية من قرى مصر فقال اللهم بارك فى بنها وفى عسلها وكان الخصى يخدمه حتى مات وكفن فى بعضها ولما دخل على مارية حملت منه بابراهيم فعاش ثمانية عشر شهرا ومات فقال صلى الله عليه وسلم لو عاش ابراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى وقال صلى الله عليه وسلم ستفتحون بعدى أرضا يذكر فيها القيراط فاذا افتتحتموها فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم نسبا وصهرا وفى رواية ذمة وصهرا قال ابن شهاب كنى بالنسب عن هاجر أم اسمعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام فان أصلها من مصر وكنى بالصهر عن مارية القبطية فان أصلها من مصر أيضا انتهى ذلك واستمر المقوقس قائما بملك مصر نحو احدى وثلاثين سنة حتى افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنه الديار المصرية فى سنة عشرين من الهجرة النبوية فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه

ذكر افتتاح الديار المصرية على يد عمرو بن العاص الاموى رضى الله عنه وابتداء دولة الاسلام

قال الكندى لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل جيشا الى مصر وكان أمير الجيش عمرو بن العاص رضى الله عنه فلما وصل الى مصر أقام يحاصر أهلها ثلاثة أشهر وكان المقوقس فى قصر الشمع وكان قصر الشمع مطلا على بحر النيل وكانت السفن ترسو تحته فلما رأى المقوقس ان العرب أشرفوا على أخذ المدينة نزل فى مركب من باب قصر الشمع وتوجه الى نحو الاسكندرية هاربا وكان يعلم ان العرب لابد أن تملك مصر وسبب

ذلك

ذلك قال أبو الحسن المسعودي كان بقصر الشمع في الكنيسة المعلقة صنم من النحاس الاصفر راكب على جمل من النحاس الاصفر وهو زي العرب وعلى رأسه عمامة وفي رجليه نعلان من جلد فكانت القبط والروم اذا تظالموا في شيء بينهم واعتدى بعضهم على بعض يتحاكمون عند ذلك الصنم النحاس ويقفون بين يديه فيقول المظلوم للظالم أنصفني قبل ان يجيء هذا الرجل الاعرابي فيأخذ الحق لي منك ان رضيت أولم ترض فكانوا يعنون بذلك عمرو بن العاص رضي الله عنه وقيل كان بالاسكندرية باب لا يزال مغلقا دائما وعليه أربعة وعشرون قفلا فعزم على فتحه المقوقس فلما قوي عزمه على ذلك اجتمعت عليه القسيسون والرهبان وسألوه أن لا يفتح ذلك الباب وأن يجعل عليه قفلا كما فعل من تقدمه من الملوك فلم ينته عن فتحه فقالوا له نحن نعطيك ما خطر ببالك أنه فيه من المال ولا تفتحه فلم يسمع لهم شيأ وفتحه فلما دخل فيه لم يجد به شيأ من المال ورأى على حيطانه منقوشا تصاوير العرب وهم على خيولهم بعمائمهم وسيوفهم في أوساطهم وهم على الابل ورأى في صدر ذلك المكان كتابة بالقلم الرومي فأتي بمن قرأ ذلك الخط فاذا معناه اذا فتح هذا المكان تملك العرب المدينة في تلك السنة التي يفتح فيها فكان الامر كذلك وملكت العرب المدينة في تلك السنة وكان كل من ملك مدينة الاسكندرية يجعل على ذلك الباب قفلا وهذه الاقفال بعدد من ملك المدينة من ملوك القبط قال الكندي لما أبطأ خبر فتح مصر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب الى عمرو بن العاص كتابا يقول فيه اني قد وجهت معك جماعة من فرسان العرب فيهم كل واحد مقوم بمائة فارس فاذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على القتال ورغبهم في الصبر وابرز للقتال عند زوال الشمس من يوم الجمعة فانها ساعة اجابة فلما أتى كتاب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص جمع المؤمنين وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فلما كان يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة برزوا للقتال ففتح الله تعالى عليهم بالنصر في ذلك اليوم ففتحت مصر على يد عمرو بن العاص فلما فتحت مصر أرسل عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخصا يسمى معاوية بن خديج يبشره بفتح مصر فقدم معاوية ابن خديج الى المدينة الشريفة وقت الظهر فلما دخل على أمير المؤمنين وأخبره بأمر الفتح خرج أمير المؤمنين الى المسجد ونادى بالصلاة جامعة فاجتمعت الصحابة فصلى بهم ركعتين شكرا لله تعالى بسبب الفتح ثم صلى بهم صلاة الغيبة على من قد استشهد في هذا الفتح من المؤمنين فكان عدة من قتل من المؤمنين اثنين وعشرين رجلا ولكن كان كل رجل منهم مقوما بمائة فارس قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فرغ من الصلاة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتحت عليكم بعدي مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا فذلك

الجند خير أجناد الارض فقيل ولم ذلك يارسول الله فقال لانهم فى رباط الى يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم مصر كنانة الله فى أرضه ما كادها أحد الا كفاهم الله تعالى مؤنته قال ابن المتوج لما فتح عمرو بن العاص مصر واستقر بها قصد التوجه الى مدينة الاسكندرية فتوجه اليها بمن معه من العربان فلما وصل اليها حاصر أهل المدينة أشد المحاصرة وكان المقوقس بها مقيما فلما أشرف على فتحها أرسل المقوقس يسأله فى الصلح وأن يجعل عليه الجزية قال ابن لهيعة وكان سبب فتح الاسكندرية ان عمرو بن العاص لما طال عليه أمر الحصار أتى اليه رجل يقال له ابن بسامة وكان بوابا على باب المدينة فقال لعمرو بن العاص أتؤمننى على نفسى وعيالى وأنا أفتح لك الباب فاجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل عمرو ومن معه من المسلمين فملكوها وأسروا المقوقس فلما فتحت مدينة الاسكندرية أرسل بذلك وكتب اليه كتابا وهو يقول فيه أما بعد فانى قد فتحت مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها غير أنى قد وجدت بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون صنف البقولات فى جوانب المدينة من بعد العصر ووجدت بها ألف مركب من مراكب الروم الكبار ووجدت بها نحو ستمائة ألف يهودى وقد هرب أكثرهم الى بلاد الروم من البحر وقد أوجبت الجزية على من بقى منهم غير النساء والصبيان فقررت على كل رأس منهم دينارين فى كل سنة فكان الذى بقى نحو خمسين ألف يهودى فكتب اليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من كان فى يدك من اليهود أو النصارى خيره بين الاسلام ودينه فان أسلم فهو من جملة المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم وان لم يسلم فعليه الجزية عن كل رأس دينارين ثم ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص تقليدا بولاية مصر وأرسله على يد معاوية بن خديج وذلك فى سنة عشرين من الهجرة فكان أول من تولى على مصر نيابة عن الخلفاء قال ابراهيم بن وصيف شاه كانت القبط يجتمعون فى يوم عيد لهم عند عمود السوارى الذى بالاسكندرية وكانوا فى ذلك اليوم يلعبون بالكرة والصولجان وكان يجتمع بسبب الفرجة فى ذلك اليوم ألف ألف انسان من القبط والروم وغير ذلك فلا يكون منهم أحد الا وهو ينظر فى وجه صاحبه عند وقع الكرة وكانوا يتلاقونها بأكمامهم فلا تقع فى كم أحد من الحاضرين الا ملك مصر ولو بعد حين فاتفق أن عمرو بن العاص حضر فى بعض السنين فى يوم ذلك الملعب مع جملة من حضر من الناس فوقعت الكرة فى كمه فقال القبط ما كذبنا هذه الكرة قط الا فى هذه المرة أترى هذا الرجل الاعرابى يملك مصر فلا يكون هذا أبدا وكان عمرو بن العاص يومئذ فى الجاهلية فلا زال حتى ملك مصر فى الاسلام قيل لما تولى عمرو بن العاص على مصر استمر المقوقس بها وهو بطال من الجزية عنه وعن أولاده حتى مات فى أيام عمرو بن العاص وهو آخر ملوك القبط بمصر وبه قد انقرضت دولتهم

وقيل

وقيل ان عمرو بن العاص أقام يحاصر مدينة الاسكندرية أربعة أشهر وكان فتحها في يوم الجمعة بعد العصر في أوائل جمادى الآخرة سنة عشرين من الهجرة وقيل في سنة اثنتين وعشرين قيل لما ملك العرب مدينة الاسكندرية جاءت الروم الى قسطنطين بن هرقل وقالوا له أتترك الاسكندرية في أيدي العرب وهي مدينتنا الكبرى فتوجه قسطنطين الى الاسكندرية في ألف مركب مشحونة بالرجال المقاتلين فلما وصل الى قرب الاسكندرية بعث الله تعالى عليهم ريحا عاصفا فاغرقت تلك المراكب كلها بمن فيها من الرجال ولم ينج منهم أحد وأما قسطنطين ملك الروم فالقته الريح بصقلية فسأله أهلها عن أمره فاخبرهم بامر الريح وتغريق المراكب فقالوا له قد أفنيت من بقي من عسكر الروم وجئت الينا فلو دخلت العرب الى بلادنا لم يجدوا من يردهم فاجتمع عليه أهل صقلية وقتلوه وكفى الله المؤمنين القتال قال ابن وصيف شاه لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية أقام بها مدة ورجع الى مصر فاجتمع رأيه بان يبني هنالك مدينة ظاهر قصر الشمع فابتدأ بيناء مدينة وسماها مدينة الفسطاط وسبب تسميتها بمدينة الفسطاط ان عمرو بن العاص لما فتح مصر نزل بمن معه من العربان في الفضاء ونصب هنالك فسطاسه فلما قصد التوجه الى الاسكندرية أمر بنزع ذلك الفسطاط فوجدوا عليه عش يمامة وقد أفرخت عليه فقال عمرو بن العاص دعوا الفسطاط يعني الخيمة مكانه لا تهدوه احتراما لليمامة التي قد عششت عليه فلما توجه الى الاسكندرية وفتحها وقصد الرجوع الى مصر قالوا له لما دخل الى مصر في أي مكان تنزل فقال في مكان تركت به الفسطاط أي الخيمة فلما بنى هنالك هذه المدينة سميت مدينة الفسطاط بسبب ذلك وكانت مدينة عظيمة جليلة بها عدة مساجد وحمامات وطواحين ومعاصر وكان أولها من حدرة ابن قميحة وآخرها عند الرصد ولم تزل هذه المدينة عامرة ساكنة الى دولة الفاطمية الى خلافة العاضد بالله حرقت عند ما استولى الفرنج على الديار المصرية كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه في أخبار الدولة الفاطمية قال ابراهيم بن وصيف شاه ان في سنة احدى وعشرين من الهجرة كان فتح مدينة دمياط على يد المقداد بن الاسود رضي الله عنه وكان ملك هذه المدينة شخصا من القبط يقال له الهاموك خال المقوقس صاحب مصر وكان للهاموك ولد يسمى شطا فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وأسلم تلك الليلة ودلهم على مسالك المدينة فاستولوا عليها بالليل وملكوها فقاتل معهم شطا قتالا شديدا حتى قتل في المعركة وكان قتله في ليلة الجمعة في النصف من شعبان من سنة احدى وعشرين من الهجرة ودفن خارج دمياط في مكان قتل به وقبره يزار الى الآن رحمة الله عليه انتهى قال ابن عبد الحكم لما استقر عمرو بن العاص بمصر جاء اليه القبط وقالوا له أيها الامير ان لنا سنة كل سنة

لايجرى الابها فقال لهم وماهى فقالوا اذا كان ليلة اثنتى عشرة من شهر بؤنه من الشهور
القبطية عمدنا الى جارية بكر وأخذناها من أبويها غصبا أو رضا وجعلنا عليها الحلى والحلل
ثم نلقيها فى بحر النيل فى مكان معلوم فلما سمع عمرو بن العاص ذلك قال لهم هذا الامر
لا يكون فى الاسلام أبدا فأقام أهل مصر شهر بؤنه وأبيب ومسرى وتوت من الشهور القبطية
ولم يجر فيها النيل لا قليلا ولا كثيرا فهم أهل مصر بالجلاء فلما أن رأى عمرو بن العاص
ذلك كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأرسله على يد نجاب فلما وصل الى أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب كتب بطاقة وأرسلها الى عمرو بن العاص وأمره أن يلقيها فى بحر
النيل فلما وصلت الى عمرو بن العاص فتح تلك البطاقة وقرأ ما فيها واذا فيها مكتوب بسم
الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى نيل مصر المبارك أما بعد فان كنت
تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الله تعالى الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله
تعالى أن يجريك فلما وقف عمرو على ما فى البطاقة ألقاها فى النيل كما أمره أمير المؤمنين عمر
وقد ألقاها فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد وعيد الصليب يكون سابع عشر توت
من الشهور القبطية وكان قد أجلى غالب أهل مصر من عدم جريان الماء فلما أصبح الناس
يوم عيد الصليب رأوا النيل زاد فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا فى دفعة واحدة وقد قطع
الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر ببركة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه
قال ابراهيم بن وصيف شاه فى أخبار مصر ان عمرو بن العاص لما افتتح مصر جمع من بها
من القبط وقال لهم كل من كان عنده كنز وكتمه عنى ضربت عنقه فقال له بعض الاقباط
ان رجلا قبطيا يقال له بطرس عنده كنز عظيم فارسل اليه عمرو بن العاص فلما حضر
بين يديه قال له بلغنى ان عندك من كنوز فرعون كثيرا فأنكر بطرس ذلك فامر
عمرو بسجنه فسجن فأقام فى السجن مدة فقال عمرو للموكلين به هل تسمعونه يذكر أحدا
من أصحابه فى هذه المدة فقالوا له نعم قد سمعناه يسأل عن راهب فى الطور فأرسل عمرو بن
العاص الى بطرس وهو فى السجن وأمره أن ينزع خاتمه من اصبعه ويرسله اليه فارسل اليه
بالخاتم الذى كان فى اصبعه فلما أخذه عمرو أرسله الى ذلك الراهب الذى فى الطور عن لسان
بطرس وهو يقول له الوديعة التى عندك أحضرها الى صحبة حامل هذا الخاتم بسرعة فلما
رأى الراهب خاتم بطرس لم يشك فى تلك الامارة بانها صحيحة فارسل على يد حامل الخاتم حقة
مختومة بالرصاص فلما حضرت بين يدى عمرو بن العاص فتحها وفك الرصاص الذى بها
فوجد فيها صحيفة مكتوبا فيها ان الاموال التى وجدت فى كنوز فرعون تحت الفسقية
الكبيرة التى فى قصر الشمع فحضر عمرو الى قصر الشمع فوجد الفسقية الكبيرة ملآنة ماء
فصرف عنها الماء فوجد أرضها مبلطة بالرخام الابيض ففك ذلك الرخام فوجد مخبأة فيها

دنانير

دنانير مسكوكة كالعرمة سكب فنقله بالقفف ثم انه اكتاله بالربع فاذا هو اثنان وخمسون اردبا من الذهب هكذا نقله ابن وصيف شاه فى أخبار مصر فلما وجد عمرو بن العاص ذلك الذهب أحضر بطرس وضرب عنقه بحضرة جماعة من الاقباط فلما رأوا ما جرى على بطرس خافوا على أنفسهم من القتل وصار كل من كان عنده كنز أحضره بين يدى عمرو ابن العاص والاصار مثل بطرس انتهى وفى سنة ثلاث وعشرين من ولايته على مصر ابتدأ ببناء جامعه الكبير الذى بمصر وهو المسمى به وكان واقفا على قبلته نحو سبعين رجلا من الصحابة فهو أول جامع بنى فى الاسلام بمصر وهو جامع مبارك وفيه الدعاء مجاب قال ابن وصيف شاه ان عمرو بن العاص سأل المقوقس وقال له لقد وليت على مصر احدى وثلاثين سنة فاخبرنى بما يكون فيه عمارة أراضى مصر فقال له المقوقس انى رأيت الذى يقوم بعمارة مصر حفر خلجانها واصلاح جسورها وسد ترعها ولا يؤخذ خراجها الامن غلالها ويحجر على عمالها من المطل ويمنعون من الرشا وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ليكون ذلك قوة على وزن الخراج قال ابن عبد الحكم كان بمصر فى زمن القبط أربعمائة ألف ألف وثمانين ألف ألف حراث يلزمون العمل بها دائما وكان بها مائة ألف وعشرون ألف مزارع منهم سبعون ألفا الى بلاد الصعيد وخمسون ألفا الى بلاد بحرى وقد حررت مساحة أراضى مصر بعد أن تلاشى من أمرها ما تلاشى بالنسبة الى زمن فرعون فكانت مساحتها مائة ألف ألف وثمانين ألف ألف فدان هذا الذى يزرع غير البور قال المسبحى كان بمصر فى الزمن الاول مائة وخمسون كورة فى كل كورة مدينة وكان لكل كورة ثلثمائة وخمسة وستون قرية فلما خربت عند قدوم بختنصر اليها ثم اعيدت بعد ذلك صار بها خمسة وثمانون كورة ثم انها تناقصت من بعد ذلك الى أن كانت دولة عمرو بن العاص فصار بها نحو أربعين كورة وقد اشتملت على ألفين وثلثمائة وخمسة وتسعين قرية دون الكفور وذلك عندما خربت وتناقص خراجها فجباها عمرو بن العاص فبلغ اثنى عشر ألف ألف دينار وكان خراجها فى زمن الفراعنة ستة وتسعين ألف دينار وقد تغيرت أحوال مصر فى دولة الاسلام الى الغاية وخرب غالب قراها وانحطت قراها واستمرت الى الآن فى كل سنة يتلاشى أمرها الى الخراب ثم ان عمرو بن العاص أقام على مصر الى أن توفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وتولى من بعده الامام عثمان بن عفان فعزل عمرو ابن العاص عن ولاية مصر وولى عبد الله بن أبى السرح فكانت مدة ولاية عمرو بن العاص على مصر فى هذه المرة نحو ست سنين الا أشهرا ثم عاد الى ولايته بمصر ثانيا كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه

ذكر ولاية عبد الله بن أبي السرح العامري على مصر

قال الكندى كان عبد الله بن أبي السرح اخا الامام عثمان بن عفان من الرضاع فلما تولى على مصر رحل عنها عمرو بن العاص وأتى المدينة الشريفة فلما استقر ابن أبي السرح بمصر جبا خراجها فى تلك السنة أربعة عشر ألف ألف دينار فلما وصل خراج مصر الى الامام عثمان بن عفان نظر الى عمرو بن العاص وقال لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو فقال له نعم ولكن أجاعت أولادها وان هذه الزيادة التى أخذها عبد الله بن أبى السرح انما هى على الجماجم فانه أخذ عن كل رأس دينارا خارجا عن الخراج فحصل لاهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل وكانت هذه أول شدة وقعت لاهل مصر فى مبتدا الاسلام وأقام عبد الله بن أبي السرح فى ولايته على مصر الى أن مات فى سنة ست وثلاثين من الهجرة وقيل انه مات بفلسطين ودفن بها فكانت مدة ولايته على مصر نحو اثنتى عشرة سنة فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفى فى سنة ست وثلاثين ثم تولى من بعده الامير قيس بن سعد ابن عبادة الخزرجى الانصارى وكان من الصحابة فاقام فى ولايته على مصر الى أن مات ودفن بها فكانت ولاية قيس فى صفر سنة ست وثلاثين ثم تولى من بعده الامير مالك بن الحرث النخعى ابن الاشتر وكان من الصحابة فتولى على مصر فى خلافة الامام على رضى الله تعالى عنه وأقام فى ولايته عليها الى أن مات بها ودفن بها وقيل انه مات مسموما فلما بلغ الامام موته حزن عليه حزنا شديدا وقال لقد كان لى كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تولى من بعده الامير محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه تولى على مصر فى خلافة معاوية بن أبي سفيان فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة وأقام بمصر حتى قتل وكان سبب قتله أن محمد ابن أبي بكر هذا كان من جملة من اجتمع على قتل الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو فى داره يوم المقتلة فيما زعموا واستغفر الله من ذلك فلما تولى محمد على مصر ثار عليه الشيعة بسبب ثأر عثمان بن عفان وكان الذين ثاروا عليه من الشيعة معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبشر بن أرطاه وغيرهم من الشيعة فاتوا من الشام فلما دخلوا الى مصر خرج اليهم الامير محمد بن أبي بكر رضى الله عنه وقاتلهم قتالا شديدا وكان مع صغر سنه شجاعا بطلا فكان هو وأخوه عبد الرحمن يقاتلان الشيعة ومعهما بعض العسكر فلما قويت عليهم الشيعة تفرق عنهما العسكر فانكسر الامير محمد وهرب واختفى فى بعض الخرابات فلما حشوا فى طلبه قالت لهم عجوز أتريدون الامير محمد بن أبي بكر فقالوا لها نعم فقالت أتعطونى الامان لاخى وأنا أدلكم عليه فقالوا لها نعم قد اعطينا الامان لاخيك وكان أخوها يبيع الفجل فى مدينة الفسطاط فدلتهم على مكانه فلما دخلوا عليه وجدوه قد كده العطش فقال لهم بالله اسقونى

شربة من الماء فقال له معاوية بن خديج لا سقانى الله ان سقيتك أنسيت منعك الماء لعثمان ابن عفان وهو محصور فى الدار فقال أكرمونى لاجل أبى بكر فقال له معاوية بن خديج لا أكرمنى الله ان أكرمتك أنسيت ما فعلته يوم قتلة عثمان فلا أمان لك عندنا ثم تقدم اليه معاوية بن خديج وضرب عنقه بالسيف ثم جره برجله وطاف به فى المدينة ثم أدخل جثته فى جوف حمار ميت وأحرقه حتى صار رمادا فكانت قتلته فى رابع عشر صفر سنة ثمان وثلاثين من الهجرة وكانت مدة ولايته على مصر خمسة أشهر وكان له من العمر لما قتل ثمانية وعشرون سنة وكان مولده فى عام حجة الوداع وتوفى أبوه أبو بكر وله من العمر نحو سنتين ونصف قيل لما قتل الامير محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أخذ رأسه وجثته زمام الخادم ودفنهما خارج مدينة الفسطاط وبنى هناك مسجدا وهو الى الآن يعرف بمسجد زمام ويزار الى الآن قال الكندى لما قتل الامير محمد أرسل معاوية بن خديج قميصه الذى قتل فيه وهو بدمه الى المدينة الشريفة فلما وصل الى دار الامام عثمان بن عفان اجتمع عصبة عثمان ونساؤه وأظهروا الفرح والسرور فى ذلك اليوم ثم ان نائلة زوجة عثمان لبست القميص ورقصت به بين الرجال قيل ان أخت معاوية بن خديج لما وصل قيص الامير محمد الى المدينة أرسلت الى عائشة بنت أبى بكر بخروف مشوى وقالت لها هكذا شوى أخوك محمد بمصر فحلفت عائشة انها لا تأكل شويا قط حتى تلقى الله تعالى فما أكلته من بعد ذلك أبدا قيل دخلت نساء المدينة على أسماء بنت عميس أم الامير محمد بن أبى بكر وقلن لها قد قتل ابنك محمد بمصر وأحرقوه فى جوف حمار ميت وكانت قائمة تصلى فعضت على شفتيها حتى سحت ثدياها دما من شدة أسفها على ولدها الامير محمد لما قتل اهـ ذلك ثم من بعده أعيد الامير عمرو بن العاص الى ولايته بمصر وهى الولاية الثانية تولاها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة واستمر فى ولايته الى أن مرض وسلسل فى المرض فلما أشرف على الموت احضر ما كان جمعه من الاموال وقال لولده عبد الله وكان يقاربه فى السن قيل كان بين مولد عمرو بن العاص وبين مولد ابنه عبد الله نحو ثلاثة عشر سنة فقال عمرو لولده عبد الله اذا أنا مت فاردد هذه الاموال التى جمعتها الى أربابها فلما مات الامير عمرو بن العاص أرسل معاوية بن أبى سفيان يقول لعبد الله نحن أحق بهذه الاموال التى جمعها عمرو ولدفع العهد وأرسل أخذها وأدخلها فى بيت المال فقيل لعبد الله ما كان قدر ذلك المال فقال كان سبعين جرابا من جلد ثور كاملة وكانت وفاة الامير عمرو بن العاص فى ليلة عيد الفطر فى سنة ثلاث وأربعين من الهجرة فلما كان يوم عيد الفطر أخرج نعشه الى الجامع ووضع فى المحراب حتى تكاملت الناس وصلوا عليه بعد صلاة العيد ثم حمل ودفن فى مقابر الفسطاط على طريق الحاج ومات رضى

الله عنه وله من العمر نحو خمسة وتسعين سنة وكانت مدة ولايته الثانية نحو ست سنين الا أشهرا انتهى ذلك ثم تولى من بعده الامير عقبة بن أبي سفيان أخو أمير المؤمنين معاوية فلما تولى على مصر أقام بها مدة يسيرة دون السنة ومات ودفن بمصر ثم تولى من بعده الامير عقبة بن عامر الجهني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورديفه وهو الذي تسند اليه الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تولى على مصر في سنة أربع وأربعين من الهجرة وأقام بها الى أن مات شهيدا في يوم النهروان رضي الله عنه فكانت مدة ولايته على مصر سنتين وثلاثة أشهر (١) وكانت وفاته في سنة سبع وأربعين من الهجرة ودفن بالقرافة الصغرى وقبره يزار الى الآن بالقرافة اه ذلك ثم تولى من بعده الامير مسلمة بن مخلد واستمر على ولايته بمصر حتى مات فكانت مدة ولايته خمس سنين ثم تولى من بعده الامير سعيد ابن يزيد بن علقمة الازدي تولى على مصر في سنة اثنتين وستين من الهجرة فكانت مدة ولايته سنتين ثم تولى من بعده الامير عبد الرحمن بن جحدم القرشي تولى في أيام عبد الله بن الزبير في سنة أربع وستين من الهجرة فلم تطل أيامه بمصر وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير عبد العزيز بن مروان وهو أبو العبد الصالح عمر رضي الله عنه قيل لما تولى عبد العزيز ابن مروان على مصر وقع بها الطاعون فرحل عبد العزيز عن مدينة الفسطاط وتوجه الى حلوان وهي من قرى مصر فاقام بها مدة وقيل ولد بها ابنه عمر فكانت أخبار المدينة تأتيه في كل يوم الى حلوان بما يحدث في البلد من الموت وعدة من يموت بها وغير ذلك من الاخبار فلم يزل عبد العزيز مقيما بحلوان حتى طعن ومات بها فحملوه في نعش من حلوان الى مدينة الفسطاط وقد تغيرت رائحته وكان حول نعشه مجامر النار وهي مطلقة بالبخور حتى دخل الى مدينة الفسطاط فدفن بها قال ابن عفير لما كان الامير عبد العزيز بحلوان كان له في كل ليلة ألف جفنة تصف حول داره وهي ملآنة بالطعام تفرق على الفقراء والمساكين بجراية الخبز وكانت له مائة حلة كبيرة تحمل على عجل وفيها الطعام فيطاف بها على قبائل العرب التي حوله واستمر ذلك في كل ليلة الى أن مات انتهى ذلك ثم تولى من بعده الامير عبد الله بن عبد الملك بن مروان فكانت ولايته على مصر في سنة ست وثمانين من الهجرة وكانت مدة ولايته نحو خمس سنين ثم تولى من بعده الامير قرة بن شريك العبسي تولى على مصر في سنة تسعين من الهجرة فلم تطل ولايته الا اياما وعزل عنها ثم تولى من بعده عبد الملك بن رفاعة الفهمي تولى على مصر مرتين وطالت بها أيامه حتى مات ودفن بها ثم تولى من بعده الامير أيوب بن رحبل الاصبحي تولى على مصر في سنة احدى

(١) الذي في شذرات الذهب واسد الغابة ان وفاة عقبة بن عامر سنة ثمان وخمسين وفي صحيفة ٣٠١ من الجزء الاول من خطط المقريزي انه عزل عن مصر سنة ٤٧

ومائة

ومائة من الهجرة فى خلافة عمر ابن عبد العزيز فأقام بها نحو سنة وعزل عنها ثم تولى من بعده
الامير بشر بن صفوان تولى على مصر ثلاث مرات ثم عزل عنها فى سنة ثمان وعشرين ومائة
فى خلافة مروان الحمار ثم تولى من بعده الامير حنظلة بن صفوان الفهمى أخو بشر وهو
الذى نقلت قبائل بنى قيس الى مصر فى أيامه وذلك فى سنة ثمان وعشرين ومائة ولم يكن قبل
ذلك بمصر من بنى قيس أحد واستمر الامير حنظلة واليا على مصر حتى توفى فى سنة تسع
وعشرين ومائة ثم تولى من بعده الامير محمد بن عبد الملك بن مروان فأقام فى ولايته على
مصر سبعة أشهر وخمسة أيام ثم عزل عنها ثم تولى من بعده الامير الحر بن يوسف فلم تطل
أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير حفص بن الوليد العامرى فلم تطل أيامه بها وعزل
عنها ثم تولى من بعده أخوه الوليد بن رفاعة فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده
الامير عبد الرحمن بن خالد الفهمى فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير
حسان بن العتاهية التجيبى فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير حوثرة بن سهل
الباهلى وكان رجلا حليما قليل الغضب قيل ان رجلا من العرب دخل عليه وهو قائم يريد
الدخول الى حرمه فجاء اليه الرجل الاعرابى وحدثه فى حاجة له فوضع الاعرابى نعل سيفه
على رجل الامير حوثرة وطال معه فى الحديث وجعل يغوص بالسيف فى رجله حتى أدماها
وهو صابر حتى فرغ الاعرابى من كلامه وخرج من عنده فدعا حوثرة بمنديل ومسح به الدم
عن رجله فقيل له لم لا نحيت رجلك من تحت سيفه أيها الامير أو أمرته برفع سيفه عن رجلك
فقال خشيت أن أقطع عليه كلامه وهو فى حاجته ثم تولى من بعده الامير عبد الحميد بن
المغيرة بن سعيد الفزارى فأقام على ولاية مصر نحو سنتين ثم عزل عنها قال ابن وصيف
شاه ان أرض مصر أجدبت ووقع بها الغلاء فى زمن عبد الحميد بن المغيرة فرهن حلى نسائه
عند التجار واشترى منهم قمحا وفرقه على الفقراء فلما عزل عقب ذلك عن مصر وقف اليه
التجار بسبب الرهن فأمر ببيعه حتى قضى ما كان عليه من الدين الذى للتجار وكان نحو
عشرة آلاف دينار ثم رحل عن مصر والناس عنه راضون ثم تولى من بعده الامير عبيد
الله بن مروان الحمار وهو آخر من تولى على مصر من عمال الخلفاء من بنى أميه ومما وقع
للامير عبيد الله هذا قال ابن وصيف شاه لما انتقلت الخلافة الى بنى العباس وولى عبد
الله السفاح توجه عبد الله بن على العباسى الى الشام فى طلب من بقى من بنى أمية ثم أرسل
بالقبض على الامير عبيد الله بن مروان الحمار أمير مصر فلما أن بلغ الامير عبيد الله ذلك
دخل الى خزائن أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهبا ثم أحضر اثنى عشر بغلا وحملها
ذلك المال وشيأ من القماش والفرش وغير ذلك وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان
ثم شد على وسطه خريطة فيها جواهر فاخرة مثمنة وخرج من مصر هاربا فتوجه الى نحو بلاد

النوبة فلما وصل هناك وجد مدائن خرابا وبها قصور محكمة البناء فنزل فى بعض تلك القصور وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرشت فيها فرشه وما كان معه من تلك الفرش الفاخرة ثم قال لبعض غلمانه وكان ممن يثق بعقله امض الى ملك النوبة وخذ لى منه أمانا على نفسى من القتل فخرج الغلام وتوجه الى ملك النوبة فغاب ساعة ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة فلما دخل عليه قال له ان الملك يقرؤك السلام ويقول لك أجئت اليه محاربا أم مستجيرا فقال له الامير عبيد الله رد عليه منى السلام وقل له قد جاء اليك ليستجير بك من عدو يريد قتله فمضى ذلك القاصد بالجواب فغاب ساعة ورجع وقال له ان الملك قادم عليك فى هذه الساعة فقال عبيد الله لغلمانه افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة وجعل مرتبة فى صدر المكان برسم ملك النوبة وجلس يرتقب مجيئه فبينما هو على ذلك اذ دخل عليه غلامه وقال له ان ملك النوبة قد أقبل فقام الامير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر الى ملك النوبة فاذا هو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسد وعليه بردان قد اتزر باحدهما وارتدى بالآخر ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع فلما رآه الامير عبيد الله استصغر أمره واحتقره فلما قرب من المكان الذى فيه عبيد الله أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف رجل من السودان فى أيديهم الحراب فلما دخل ملك النوبة على عبيد الله وأحاط ذلك العسكر بالمكان الذى فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة على الامير عبيد الله بادر الى يد الامير عبيد الله وقبلها فأشار اليه عبيد الله بان يجلس على تلك المرتبة التى وضعها له فأبى وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجله فقال عبيد الله للترجمان لم لا يقعد الملك على تلك المرتبة التى وضعناها له فقال له الترجمان فى ذلك فقال ملك النوبة قل للامير كل ملك لا يكون متواضعا لله فهو جبار عنيد متكبر ثم انه جلس بين يدى الامير عبيد الله وجعل ينكت فى الارض بأصبعه طويلا ثم انه رفع رأسه الى الامير عبيد الله وقال له كيف سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس الى نبيكم فقال له عبيد الله ان الذى سلب منا ملكنا أقرب الى نبينا منا فقال له ملك النوبة فكيف أنتم تلوذون الى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من الخمور وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم وتركبون فى السروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيأ من هذا وانما انك لما وليت على مصر كنت تخرج الى الصيد وتكلف أهل القرى ما لا يطيقون وتفسدون الزرع على الناس وتروم الهدايا والتقادم من أهل القرى وكل هذا لاجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف أو ثمانية فصار ملك النوبة يعدد على الامير عبيد الله جملة ذنوب والامير عبيد الله ساكت لا يتكلم بحرف واحد ثم قال له ملك النوبة فلما استحللتم ما حرمه الله عليكم سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأوقع الله

بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم وأنا أخاف على نفسي ان أنزلتك عندي أن تحل بي تلك النقمة التي حلت بكم والبلاء عام والرحمة مخصوصة ثم قال له ارحل من أرضي بعد ثلاثة أيام والا أخذت جميع ما معك وقتلتك شر قتلة فلما سمع الامير عبيد الله ذلك خرج من أرض النوبة في يومه ورجع الى مصر فقبض عليه عمال الخليفة المنصور العباسي وبعث به الى بغداد فسجنه المنصور حتى مات في السجن وهو آخر من تولى على مصر في دولة الخلفاء الأموية من العمال وأما من تولى على مصر من العمال في دولة الخلفاء العباسية فجماعة كثيرة أكثر ممن تولى في دولة بني أمية وكانوا يسمون عمال الخراج بمصر وكانت الخلفاء تشترط على عمال مصر في تقليدهم الخيل العربية والأثواب الديبقية شغل تنيس والمقاطع الشرب الاسكندرانية والطرز الصعيدية وأجلال الخيل وتشترط عليهم ضيافة العسل النحل المصري من عسل بنها وتشترط عليهم البغال والحمير وغير ذلك من الاصناف التي لا توجد الا بمصر فكان أول من تولى مصر في دولة الخلفاء العباسية الامير صالح بن علي بن عبد الله العباسي تولى على مصر في سنة ثلاث وثلاثين ومائة فتولى على مصر مرتين ثم تولى من بعده الامير أبو عون عبد الملك الازدي فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير موسى بن كعب وهو أبو عيينة تولى على مصر في سنة احدى وأربعين ومائة فلم تطل أيامه بها وكانت مدة ولايته على مصر دون السنة ثم تولى من بعده الامير محمد بن الاشعث الخزاعي فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده حميد بن قحطبة فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير يزيد بن حاتم المهلبي تولى في سنة سبع وأربعين ومائة وفي أيامه وقع الغلاء بمصر وشرقت الاراضي من خسة النيل وفي هذه السنة أخذ قاع النيل فجاء الماء القديم ذراعا وعشرين اصبعا ولم يعهد مثل ذلك في السنين الماضية فكان منتهى الزيادة في تلك السنة اثني عشر ذراعا وستة عشر اصبعا فشرقت البلاد في تلك السنة وحصل للناس الضرر الشامل ووقع الغلاء بمصر حتى ماجت المدينة بأهلها ومات الامير يزيد بعد ذلك بمدة يسيرة ثم تولى من بعده الامير عبد الله بن عبد الرحمن فلم تطل أيامه بها ومات فتولى من بعده الامير محمد أخو عبد الرحمن عم عبد الله ثم عزل عنها بعد مدة يسيرة ثم تولى من بعده الامير موسى بن علي وعزل عنها بعد مدة يسيرة ثم تولى من بعده اللخمي في أيام الخليفة المهدي فلم تطل أيامه بها وعزل عن ولاية مصر في سنته ولم يستقم أمره بها ثم تولى من بعده الامير عيسى بن لقمان فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير واضح المنصوري فلم تطل أيامه ثم تولى من بعده الامير منصور بن يزيد فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير يحيي ابن داود في أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير سالم بن سودة تولى أيضا في أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير ابراهيم بن صالح العباسي تولى على مصر

فى سنة خمس وستين ومائة وكان الرشيد قد زوجه بابنته غالية فلما تولى على مصر لم يستقم بها حاله فعزله الرشيد عنها ثم تولى من بعده الامير موسى بن مصعب مولى خثعم تولى على مصر فى سنة سبع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير أسامة بن عمرو المعافرى تولى على مصر فى سنة تسع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير فضل بن صالح العباسى فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير على بن سليمن العباسى فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده موسى بن عيسى العباسى فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير مسلمة بن يحيى الاحمسى تولى على مصر سنة اثنتين وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير محمد بن زهير الازدى فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده داود المهلبى تولى على مصر سنة ثلاث وسبعين ومائة هو والامير محمد بن زهير الازدى سنة واحدة ثم تولى من بعده الامير ابراهيم بن صالح العباسى وفى أيامه توفى الامام الليث بن سعد رضى الله عنه ودفن بالقرافة وكانت وفاته فى سنة خمس وسبعين ومائة وذلك فى يوم الجمعة رابع عشر شعبان وهى الولاية الثانية فأقام بها حتى توفى فى سنة ست وسبعين ودفن بمصر ثم تولى من بعده الامير عبد الله بن المسيب الضبى فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير اسحق بن سليمن العباسى تولى على مصر فى سنة سبع وسبعين ومائة ثم تولى من بعده الامير هرثمة بن أعين فى سنة ثمان وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير عبد الملك بن صالح العباسى تولى فى سلخ سنة ثمان وسبعين ومائة فأقام دون الشهر ومات ودفن بمصر ثم تولى من بعده الامير عبيد الله ابن الخليفة المهدى العباسى تولى على مصر فى سنة تسع وسبعين ومائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير موسى بن عيسى العباسى تولى على مصر ثلاث مرات وأقام فى آخر ولايته الى سنة ثمانين ومائة ثم تولى من بعده الامير عبيد الله ابن الخليفة المهدى ثانيا فأقام فى ولايته على مصر هذه الثانية نحو سنة وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير اسمعيل بن صالح العباسى فأقام على ولايته بمصر دون السنة وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير اسمعيل بن عيسى فى سنة اثنتين وثمانين ومائة ثم تولى من بعده الليث بن الفضل الاسدى تولى على مصر فى سنة أربع وثمانين ومائة ثم عزل عنها وتولى من بعده الامير أحمد بن اسمعيل العباسى تولى على مصر فى سنة تسع وثمانين ومائة ثم عزل عنها ثم تولى من بعده الامير عبد الله بن أحمد العباسى الذى يقال له ابن زينب تولى على مصر فى سنة تسعين ومائة وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير حسين بن جميل تولى على مصر فى أواخر سنة تسعين ومائة ثم عزل عنها فى مدة يسيرة ثم تولى من بعده الامير مالك ابن دلهم الكلبى فى سنة اثنتين وتسعين ومائة فلم تطل بها أيامه وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير حاتم حسن بن البجباح تولى على مصر فى سنة ثلاث وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها

وعزل

وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير جانم بن هرثمة بن أعين فأقام على ولاية مصر مدة يسيرة ثم عزل عنها ثم تولى من بعده الامير جابر بن الاشعث الطائى تولى على مصر فى سنة خمس وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده الامير عبادة بن محمد فى سنة ست وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده المطلب بن عبد الله الخزاعى فى سنة ثمان وتسعين ومائة وفى أيامه توفى القاضى بكار بن قتيبة الحنفى رضى الله عنه وكان الرشيد ألزمه أن يتولى القضاء بمصر فتولى القضاء على كره منه وكانت له كرامات خارقة للعادة وكانت وفاته فى سنة تسع وتسعين ومائة ودفن بالقرب من باب الزعلة عند الجراة ثم عزل المطلب عن مصر وتولى العباس بن موسى العباسى فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم أعيد المطلب ثانى مرة فأقام مدة يسيرة وعزل عنها ثم تولى من بعده السرى بن الحكم فى سنة تسع وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير عبد الله بن طاهر الخزاعى وكان من حذاق العمال بمصر وهو الذى نقل زريعة البطيخ العبدلى الى مصر ولم يكن بها قبل ذلك منه شئ وكان ظهوره بمصر فى سنة مائتين من سنى الهجرة فى أيام عبد الله بن طاهر واليه ينسب فيقال البطيخ العبدلى وأقام عبد الله بن طاهر على ولاية مصر ثم عزل عنها ثم أعيد السرى بن عبد الحكم الى ولاية مصر ثانيا وذلك فى سنة احدى ومائتين فأقام بها مدة ومات ودفن بمصر ثم تولى من بعده ابنه محمد بن السرى وفى أيامه توفى الامام الشافعى محمد ابن ادريس رضى الله عنه وكانت وفاته فى ليلة الجمعة فى سلخ شهر رجب الفرد سنة أربع ومائتين من الهجرة ودفن بالقرافة الكبرى مقابل تربة القاضى بكار وقيل مات بعلة البطن ومات وله من العمر أربع وخمسون سنة وكان مولده بمدينة غزة فى سنة خمسين ومائة وهى السنة التى توفى فيها الامام أبو حنيفة رضى الله عنه قيل لما مرض الامام الشافعى أوصى بأن لا يغسله الا أمير البلد فلما مات حضر محمد بن السرى أمير البلد فقيل له ان الامام أوصى بأن لا يغسله الا أنت فقال هل توفى الامام وعليه دين فقيل له نعم فحسبوا ما عليه من الدين فاذا هو سبعون ألف درهم فقضاها عنه محمد بن السرى وقال هذا غسلى اياه وانما كنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه وقيل ان الامام الشافعى أوصى اذا مات بأن السيدة نفيسة رضى الله عنها تصلى عليه فلما مات أحضروا نعشه عندها فضربت لها ستارة وصلت عليه من خلفها ثم حمل من عندها ودفن فى تربته كما تقدم ذكر ذلك وقيل ان الامام الشافعى رضى الله عنه لما ساح فى الارض فى طلب الحديث وقصد التوجه الى نحو مصر أنشد فى حلقة درسه قبل أن يدخل الى مصر هذين البيتين من نظمه حيث قال

وانى أرى نفسى تتوق الى مصر * ومن دونها عرض المهامه والقفر
فوالله ما أدرى ألالعز والغنى * أساق اليها أم أساق الى قبرى

فكان الامر كذلك ودفن بمصر وكانت وفاته في أيام الخليفة المأمون وأما نسبه رضي الله عنه فهو محمد بن ادريس بن عثمان بن شافع بن السائب متصل النسب الى عبد مناف أحد أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو قرشي وأما أمه فهي فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن الامام على رضي الله عنه وقد قال الكرماني فيه هذه الابيات

الشافعي امام كل أئمة * تربو فضائله على الآلاف

لكنني أوتيت بدعا بارعا * في وصفه هو سيد الاوصاف

ختم النبوة والامامة في الهدى * بمحمدين هما لعبد مناف

قيل ان أم الشافعي رضي الله عنه رأت في منامها وهي حامل أن نجما خرج من بطنها وله ضوء عظيم فسقط بأرض مصر ثم طار منه فانتشر في سائر الآفاق فقصت هذه الرؤيا على بعض المعبرين فقال لها سيخرج من بطنك مولود ويكون من كبار العلماء ويخص علمه أهل مصر دون غيرها من البلاد ثم ينتشر علمه في سائر الآفاق وكان كذلك وكان الامام رضي الله عنه حسن الخلق قليل الغضب سخي النفس وقد عاصر الامام مالك بن أنس رضي الله عنه وقرأ عليه الموطأ في المدينة الشريفة وعاصره أيضا الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ومما يحكى عن الامام الشافعي رضي الله عنه قال كنت في المسجد جالسا واذا بلص قد سرق نعلي من غير علمي ثم مضى الى بيتي فقال للجارية ان الامام قد سرق نعله ولم يجد ما يمشي فيه فارسلوا له نعلا حتى يجيء به الى البيت فبينما أنا جالس في المسجد واذا بالجارية قد أقبلت من باب المسجد ومعها نعل فقلت لها وما هذا فقالت قد جاء الينا رجل وقال لنا ان الامام قد سرق نعله ولم يجد ما يجيء به الى البيت فأتوا اليه بنعل غيره فعلمت ان القائل للجارية هو اللص فتعجبت من لطافة هذا اللص اذ لم يدعني أجيء الى بيتي حافيا اه ذلك ومن فضائل الامام الشافعي رضي الله عنه ان في مدة حياته لم يقع الطاعون بمصر وهو بها ولا وقع في غيرها من البلاد في مدة حياته طاعون وذلك نحو من خمسين سنة نقل ذلك ابن حجر ومن هنا نرجع الى أخبار أمراء مصر ثم تولى من بعد محمد بن السري أخوه عبيد الله ابن السري تولى على مصر في سنة ست ومائتين من الهجرة وفي أيامه توفيت السيدة نفيسة رضي الله عنها وكانت وفاتها في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين من الهجرة ودفنت بالمراغة وكان لها كرامات خارقة وأسرار صادقة قيل ان النيل توقف عن الزيادة في أيامها فأرسلت قناعها فغسل في بحر النيل فزاد في تلك الليلة وأوفى ستة عشر ذراعا ببركتها قال شمس الدين بن خلكان في تاريخه هي نفيسة بنت الامام حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين أتت من مكة الى مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق رضي الله عنه وقيل بل دخلت مصر مع أبيها الامير حسن

وقيل كان لها أولاد من زوجها اسحق بن جعفر الصادق رضى الله عنه قال ابن خلكان ان الامام الشافعى رضى الله عنه حضر عندها وأخذ عنها الحديث وبالجملة ان الدعاء عند قبرها مجاب وقيل ماتت ولها من العمر نيف وسبعون سنة اه ذلك ثم أعيد الامير عبد الله ابن طاهر الى ولايته على مصر ثانيا فأقام مدة ثم عزل عنها ثم تولى من بعده الامير عيسى بن يزيد الجلودى تولى على مصر فى سنة ثلاث عشرة ومائتين فأقام بها نحو سنة ثم عزل عنها وتولى الامير عمير بن الوليد التميمى تولى على مصر فى سنة أربع عشرة ومائتين فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ثم أعيد الامير عيسى بن يزيد ثانيا ثم عزل عنها ثم تولى من بعده عبدويه ابن جبلة تولى على مصر فى سنة خمس عشرة ومائتين فأقام بها مدة ثم عزل عنها ثم تولى من بعده الامير عيسى بن منصور المرافق وفى أيامه خرج أهل مصر عن طاعة الخليفة المأمون وامتنعوا عن وزن الخراج وطردوا العمال عن البلاد وكانت فتنة عظيمة بمصر حتى كادت أن تخرب عن آخرها وعظم الامر حتى قدم الخليفة المأمون الى مصر وخمدت هذه الفتنة ومهد البلاد وعزل عيسى بن منصور المرافق عن مصر وكان ذلك فى أخبار الخليفة المأمون ثم تولى من بعده الامير نصر السعدى المسمى كيدر فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده المظفر فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير عيسى بن منصور المرافق فأقام بها مدة ثم عزل عنها فى سنة تسع عشرة ومائتين ثم تولى من بعده الامير موسى بن على فكانت مدة ولايته على مصر نحو شهر ويومين وعزل عنها ثم تولى من بعده مالك بن كيدرة فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده على بن يحيى الارمنى فى سنة خمس وعشرين ومائتين ولم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده هرثمة بن نصر الجبلى ثم تولى ابنه جانم ثم تولى اسحق بن يحيى ثم تولى من بعده الامير عبد الواحد المسمى حوط تولى على مصر فى سنة ست وثلاثين ومائتين فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده عنبسة بن اسحق بن شمر تولى على مصر فى سنة ثمان وثلاثين ومائتين وفى أيامه أتى بنو الاصفر الى ثغر دمياط وهجموا على أهلها وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة فجاء الخبر الى مصر بذلك فى يوم عيد النحر فنودى بالنفير عاما فخرج أهل الفسطاط جميعا وتوجهوا الى ثغر دمياط وتحاربوا مع بنى الاصفر فانتصر عليهم عنبسة وأسر منهم جماعة وهرب الباقون جميعا ورجع عنبسة الى مدينة الفسطاط وأقام بعد ذلك مدة ومات ودفن بها ثم تولى من بعده الامير يزيد بن عبد الله التركى وكان من الموالى تولى على مصر فى أيام الخليفة المتوكل على الله جعفر وهو الذى بنى المقياس الجديد فى جزيرة الفسطاط وأبطل المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى فى أيام خلفاء بنى أمية وصار العمل فى قياس النيل على هذا المقياس الجديد الى الآن وكان بناؤه فى سنة ٢٤٧ سبع وأربعين ومائتين وقد ذكرت أشياء لطيفة من أخبار المقياس فى أول التاريخ فى أخبار

الخليفة المتوكل وأوضحت ذلك اه ثم تولى من بعده مزاحم بن خاقان التركى فلم تطل أيامه بها ثم تولى من بعده ابنه أحمد ولم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده أرخور التركى وكان من الموالى تولى فى أيام المتوكل فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير محفوظ بن سليمن تولى فى أيام المتوكل أيضا فكان يقول انى تأملت أرض مصر فوجدتها اذا بلغ النيل ستة عشر ذراعا فقد وفى خراج مصر تاما وان زاد ماء النيل بعد ذلك ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من بطون الاراضى التى هى واطية واذا زاد خمسة عشر ذراعا ثم هبط حصل للناس الضرر الشامل واستسقى أهل مصر لذلك ووقع بها الغلاء ولو أن أراضى مصر تزرع كلها لوفت بخراج الدنيا كلها بأسرها قال محفوظ بن سليمن أميرمصر تبقى على من خراج مصر فى أيام المتوكل ثلثمائة ألف دينار فارسل فأحضرنى فى الحديد فلما وصلت الى بغداد دخلت عليه بعد أن فرغ من صلاة الفجر وأنا لا أعقل من الوهم فأصبته جالسا وفى يده درج مكتوب بماء الذهب فلما أبصرنى قال من أنت فقلت عبدك محفوظ بن سليمن فقال ويحك أى ساعة دخلت على فيها فقلت فى ساعة خير يا أمير المؤمنين فقال هل تدرى ما فى هذا الدرج الذى فى يدى فقلت لا والله ياسيدى فقال هذا مما أنزل على دانيال عليه السلام يقول الله تعالى عند تناهى شدتى يكون فرجى وعند نزول بلائى يكون رجائى وفى مثلى فليطمع الطامعون اذهب يا محفوظ فقد وهبت لك ما عليك من المال ووليتك على مصر فامض راشدا وأمر بنزع قيودى وخلع على خلعة سنية وقد قيل فى المعنى

ما خاب عبد على الله الكريم له * توكل صادق فى السر والعلن
حاشاه أن يحرم الراجى اجابته * اذا دعاه لكشف الهم والحزن

واستمر الامير محفوظ بن سليمن فى ولايته على مصر حتى مات ودفن بها فى سنة أربع وخمسين ومائتين ثم تولى من بعده الامير أحمد بن محمد بن المدبر فلما تولى على مصر أحدث بها أنواعا من المظالم فى جهات متعددة منها انه حجر على الاطرون بعد ما كان مباحا للناس ومنها انه قرر على الرعاة ما كانوا يرعونه من المراعى فى الفلاة وصير عليهم قدرا معلوما ومنها انه قرر على صيادى السمك قدرا معلوما وأحدث أشياء كثيرة من هذا النمط فهذه أول شدة لحقت أهل مصر من المظالم وقد انحط خراجها فى هذه الايام الى الغاية حتى بقى ثمانمائة ألف دينار بعد ما كانت تجبى فى أيام خلفاء بنى أمية اثنى عشر ألف ألف دينار بغير مكوس ثم صارت مصر تتزايد من هذه الاحوال الفاسدة وقد آل أمرها الى الخراب حتى تولى أمرها الامير أحمد بن طولون واستقل بها وانفرد وادعى بها الامر لنفسه وذلك فى أيام محمد المعتز بالله بن جعفر المتوكل

ذكر أخبار دولة الامير أحمد بن طولون

قال ابراهيم بن وصيف شاه كان طولون والد الامير أحمد أصله من مماليك الخليفة المأمون فولد له الامير أحمد هذا فلما انتشأ طلع شجاعا بطلا عالى الهمة سعيد الحركات تولى على مصر فى أواخر خلافة المتوكل فى سنة خمس وخمسين ومائتين ولما دخل مصر كان فى أضيق حال يحتقره كل من يراه قيل كان بمصر رجل من الاعيان يقال له على بن معبد البغدادى وكان فى سعة من المال فلما بلغه حضور الامير أحمد خرج الى تلقيه فلما رآه فى ضيق حال أرسل اليه عشرة آلاف دينار فقبلها ورأى بها موقعا وحظى ذلك الرجل عنده فكان لا يتصرف فى شئ من الامور الا برأى ذلك الرجل وتضاعفت عنده منزلته الى الغاية قال ابن وصيف شاه لما تولى الامير أحمد بن طولون على مصر أخذ فى أسباب عمارة قرى مصر وعمارة جسورها وقناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه بعدما كانت قد تلاشى أمرها الى الخراب وانحط خراجها فى أيام من تقدمه من العمال فلما حصلت العمارة والعدل عم الرخاء سائر أعمال الديار المصرية حتى بيع القمح فى أيامه كل عشرة أرادب بدينار وعلى هذا فقس فى جميع البضائع ووصل خراج مصر فى أيامه مع وجود هذا الرخاء أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير المكوس قال ابن وصيف شاه فلما تم أمر الامير أحمد بن طولون فى ولايته على مصر واستقامت أحواله بها استكثر من مشترى المماليك الديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك وبلغ مشترى عبيده أربعين ألفا من العبيد الزنج واستكثر من شنانترة العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف انسان فعند ذلك سطا على الخلفاء وادعى الخلافة لنفسه بمصر وانفرد بخراجها فحاربه الخليفة المعتضد بالله أشد المحاربة فلم يقدر عليه فخضع له وأرسل يخطب ابنة ابنه الامير خمارويه وهى الست قطر الندى فاصدقها مائة ألف دينار وأتت من مصر الى بغداد فى محفة وكانت مدة توجهها من الديار المصرية الى بغداد ستة أشهر فكانت تمشى كما تمشى السحابة فلما حضرت الى بغداد دخل عليها المعتضد بالله وزفت عليه وكان لهم مهم عظيم وأحبها المعتضد بالله حبا شديدا وأقامت معه حتى مات قيل ان النجوم تطايرت فى السماء شرقا وغربا فى أيام الامير أحمد بن طولون وذلك فى سنة (١) احدى وأربعين ومائتين فارتاع الامير أحمد من ذلك وأحضر أرباب الفلك وسألهم عن ذلك فما أجابوا بشئ فصار الامير أحمد متطيرا من ذلك فدخل عليه الشاعر المسمى بالجمل وهو جالس فى موكبه وأنشد هذه الابيات

قالوا تساقطت النجو * م لحادث أبدا عسير

(١) لعلها احدى وستين اهـ

فأجبت عند مقالهم * بجواب محتنك خبير
هذى النجوم الساقطا * ت رجوم اعداء الامير

فتفاءل الامير أحمد بذلك وخلع على الشاعر الجل خلعة سنيه قال ابن وصيف شاه خرج الامير أحمد بن طولون يوما على سبيل التنزه الى نحو الاهرام فبينما هو يسير اذ غاصت قوائم فرسه فى الارض فأمر بكشف ذلك المكان فلما كشفه اذا هو مطلب فيه دنانير يوسفية فنقلها الى خزائنه على ظهور الجمال بالشكاير واتسع حاله فأخذ فى أسباب بناء الجامع المعروف به وكان بناؤه فى سنة ستين ومائتين قيل انه أنفق على بنائه مائة ألف دينار قال القضاعى ان الامير أحمد بن طولون وضع أساس هذا الجامع على مكان يسمى جبل يشكر وكان هذا الجبل يشرف على بحر النيل قبل حفر تينك البركتين اللتين احداهما تعرف ببركة الفيل والاخرى تعرف ببركة قارون وقيل ان جبل يشكر هذا مشهور باجابة الدعاء وسبب ذلك ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه فى بعض الاوقات وهو مكان مبارك قيل ان النمل دار على محراب هذا الجامع لما وضعوا أساسه فبنوا على ذلك الخط الذى وضعه النمل المحراب ويسمى محراب النمل الى الآن ورؤى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام عدة مرار يصلى فى ذلك المحراب فلما بنى الامير أحمد هذا الجامع قرر به جماعة من العلماء والفقهاء وأجرى عليهم الرواتب والصدقات وكان له فى كل يوم راتب من الطعام والخبز حتى الحلاوا والفاكهة وغير ذلك وكان هذا مستمرا فى كل يوم وأنشأ به مارستانا برسم الضعفاء ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان غيره فكان ما يصرف على هذه الرواتب والصدقات فى كل يوم ألفا ومائتى دينار وكان الامير أحمد يرسل فى كل سنة الى فقراء بغداد مائة ألف دينار برسم الصدقات ويرسل اليهم فى كل سنة بكسوة الشتاء والصيف دائما فى مدة ولايته على مصر قال الشيخ أبو الحسن بن حماد وكان من كبار العلماء كنت راقدا فى بعض الليالى فى منزلى واذا بالباب يدق فى نصف الليل فنظرت من الطاق واذا برجال ومعهم مشاعل فوقفوا على باب منزلى فقلت ماتريدون قالوا أبا الحسن بن حماد فقلت ها هو أنا فقالوا امض فان الامير أحمد قد طلبك فى هذه الساعة فارتعدت أعضائى فخرجت معهم وركبت بغلتى وأنا آيس من الحياة فلما وصلت الى دار الامير أحمد دخلت وسلمت على حاجب الباب فقال لى ادخل وخذ فى مشيك عن عينك واحترز أن لا تقع فى الحجرة وكانت ليلة مظلمة من ليالى الشتاء فمشيت حتى بلغت ضوء الشمع فوقفت هنالك ساعة واذا بالامير أحمد فى قبة لطيفة وهو نائم على ظهره وبين يديه شمعتان فوقفت طويلا فلما علم بى قال أبو الحسن فقلت نعم فقال ادخل فدخلت ووقفت بين يديه فقال لى اجلس فجلست فقال لى لأى شئ تصلح هذه القبة وكانت قبة لطيفة يجلس فيها نحو أربعة أنفس فقلت تصلح للذكر وقراءة القرآن

ومطالعة

ومطالعة العلم ومنادمة المحبين فتبسم ثم قال ما تقول في هذه المسئلة فقلت يقول الامير أيده الله بنصره فقال ما تقول فيمن سلط على شئ ففعله فهل يعذب عليه قال أبو الحسن فعلمت ان المسئلة ناشئة عنه فقلت على الفور لو كان كل مسلط معذبا لكان ملك الموت أشد الناس عذابا يوم القيامة فلما سمع ذلك استوى جالسا وقال كيف قلت فقلت لو كان كل مسلط معذبا لكان ملك الموت أشد الناس عذابا يوم القيامة ثم سكت طويلا وقال انصرف الى منزلك فخرجت من عنده وأنا لم أصدق بالنجاة فلما خرجت من عنده تبعني الحاجب بكيس فيه مائة دينار وانصرفت الى منزلي وأنا أرعد من الخوف وكان الامير أحمد يقول انى لاجد فى فهم الرجل عنى اذا خاطبته من اللذة مالا يجده مجامع المرأة الحسناء عند جماعها انتهى قال ابن وصيف شاه كان راتب مطبخ الامير أحمد بن طولون فى كل يوم ألف دينار تصرف فيما يحتاج اليه أمر الطعام والحلوا والفاكهة والسكر والشمع وغير ذلك وكان منتهى حكمه من مصر الى الفرات ومن مصر الى بلاد المغرب قال جامع السيرة الطولونية كان بمدينة عين شمس وهى التى تسمى الآن المطرية صنم من الكذان الابيض على قدر خلقة الانسان المعتدل وكان محكم الصناعة يكاد أن ينطق فقصد الامير أحمد أن ينظر اليه فنهاه عن ذلك بعض الكهان وقال له أيها الامير لا تنظر الى هذا الصنم فما نظر اليه أحد من ولاة مصر الا عزل عنها فى سنته فلم ينته الامير أحمد عن ذلك وركب وتوجه الى مدينة عين شمس ولم يزل حتى رأى ذلك الصنم فأمر باحضار القطاعين فكسروه قطعا ولم يبق له أثر فلما رجع الامير أحمد الى داره لم يقم بعد ذلك سوى عشرة أشهر ثم مرض وتسلسل فى المرض فاضطربت مصر بسبب مرضه وخرج الناس قاطبة الى الصحارى وفعلوا مثل ما يفعلون فى الاستسقاء فخرج الناس حفاة وعلى رؤسهم المصاحف وخرج اليهود وعلى رؤسهم التوراة وخرج النصارى وعلى رؤسهم الاناجيل وخرج الاطفال من المكاتب وعلى رؤسهم الالواح وخرج سائر العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء فاستمر الامير أحمد فى ذلك المرض حتى مات به فكانت وفاته فى سنة تسع وستين ومائتين فكانت مدة ولايته بمصر نحوا اثنتى عشرة سنة وكان يقول فى مرضه رب ارحم من جهل مقدار نفسه وقد أبطره وغره حلمك يا أرحم الراحمين وكان الامير أحمد ملكا عادلا فى الرعية كريما سخيا منقادا الى الشريعة يحب العلماء والصلحاء وكان يصلى على من يموت فى البلد من فقير أو غنى بنفسه ويحضر دفنهم ويحب فعل الخير كثير البر والصدقات وكان له اشتغال بالعلم وطلب الحديث وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة حكم فى أيام ولايته من مصر الى الفرات ومن مصر الى بلاد المغرب وعم العدل منه سائر الجهات حتى تخيروه على خلفاء بغداد وكانت أفعاله جميلة غير أنه كان سفاكا للدماء شديد الغضب

سيء الخلق قيل مات في حبسه ثمانية عشر ألف انسان ولما مات الامير أحمد دفن بالقرب من باب القرافة قال بعض الثقات كنت أرى شيخا من أهل العلم يقرأ على قبر الامير أحمد ابن طولون في كل يوم ثم رأيته ترك القراءة ورجع عن ذلك فسألته عن سبب ذلك فقال لي كان للامير أحمد علي بعض احسان فأحببت أن أصله بعد موته بشيء من القرآن فرأيته في بعض الليالي في المنام فقال لي يافلان لاتبق تقرأ على قبري شيأ فاني ماتمر بي آية الاقيل لي أما سمعت هذه الآية في دار الدنيا فهلا كنت تعمل بها ومارأيت أشد على رؤساء الدنيا من الحجاب في كتمهم لحوائج المظلومين عن الحكام ثم أنشد يقول

ولو أنا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسئل بعد ذا عن كل شي

مع ان الامير أحمد كان فيه الخير وابطل في أيامه جملة مكوس كانت حدثت بمصر في أيام أحمد بن المدبر قال ابن وصيف شاه لما توفي الامير أحمد بن طولون خلف من الاولاد ثلاثة وثلاثين ولدا منهم سبعة عشر ذكورا وباقي ذلك اناث وخلف من الذهب العين عشرة آلاف ألف ألف دينار وخلف من المماليك المشتروات سبعة آلاف مملوك ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألف عبد وخلف من الخيول سبعة آلاف فرس ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس وخلف من الجمال عشرة آلاف جمل ومن المراكب الحربية والشواني ألف مركب وخلف من اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق وخلف من التحف والفرش مالايحصى عدده وهذا خارج عن الضياع والاملاك والبساتين وغير ذلك وكان خراج مصر في أيامه أربعة الاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار بعد اسقاط المكوس وهو نحو مائة ألف دينار مع وجود الرخاء وانحطاط سعر الغلال في زمانه ولما مات رثاه بعض الشعراء بهذه الابيات

خذ القناعة من دنياك وارض بها * واقصد لنفسك منها راحة البدن
وانظر لمن قد حوى مصرا وماجمعت * هل راح منها بغير القطن والكفن

ولما مات الامير أحمد بن طولون تولى من بعده ابنه خمارويه

ذكر أخبار الامير خمارويه بن أحمد بن طولون

تولى على مصر بعد أبيه الامير أحمد ومشى على نظامه وطريقته واستكثر من المماليك وزاد في عسكره شناترة العرب الشجعان حتى بلغوا نحو عشرة آلاف انسان وكان يحب الجياد من الخيل فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاسطبلات وكان لها انساب مثبتة في الدواوين كانساب الناس المعروفة قال ابن وصيف شاه كان الامير خمارويه مولعا

بالعمارات وغرس الاشجار قيل انه انشأ ميدانا بالقرب من جامع أبيه ونقل اليه الاشجار من سائر البلاد الهندية والشامية حتى من خراسان ومن مكة ومن اليمن فكان به سائر الفواكه وسائر الرياحين حتى الكادى والقرنفل والسنبل والزعفران وجوز الهند وغير ذلك من أنواع الفواكه والزهورات والرياحين والاشياء الغريبة التى لم تزرع قط بمصر ثم زرع أشياء من أنواع الرياحين وجعلها كالسطور تقرأ مثل حسبنا الله ونعم الوكيل وما أشبه ذلك من الالفاظ ووكل بتلك السطور رجالا بايديهم مقاريض من الذهب والفضة يصلحون بها ما يفسد من الاوراق ويخرج عن قالب الاعتدال فى الاحرف حتى يستقيم الكلام فى معناه ثم انه ألبس قوائم الاشجار الكبار بالنحاس الاصفر وطلاه بالذهب فكانت الشمس اذا طلعت على تلك الاشجار لا يقدر أحد أن ينظر اليها من شدة اتقاد ذلك النحاس المموه بالذهب وكان يسحق المسك والكافور ويذره على تلك الرياحين السطور وصنع فى ذلك البستان بحيرة كبيرة وملأها من الزئبق وكان يضع على ذلك الزئبق فراشا من جلد خباه أنعم من الحرير وكان له حركات تمتلئ بالريح ثم يسدفاه بحبل ويطرح ذلك الفراش على ذلك الزئبق وينام عليه قال بعض المؤرخين ان خمارويه هذا كان يعتريه ضربان المفاصل وكان يضع ذلك حتى يجد له راحة وينام ساعة من الليل قال ابن وصيف شاه خرج خمارويه يوما الى الفضاء على سبيل التنزه فلقيه أعرابى فاخذ بعنان فرسه وأنشد

ان السنان وحد السيف لو نطقا * لحدثاعنك فى الهيجاء بالعجب
أفنيت مالك تعطيه وتبذله * يا آفة الفضة البيضاء والذهب

فلما سمع خمارويه هذه الابيات قال لغلامه ادفع اليه ما معك فى الخريطة فوجد فيها خمسمائة درهم فدفعها اليه فقال الاعرابى زدنى أيها الامير فتلك من يزيد فقال خمارويه للمماليك اطرحوا عليه مناطقكم وسيوفكم وكانت مسقطة بالذهب فقال الاعرابى ومن يحمل لى ذلك فامر له ببغل فحمل ذلك ومضى فلما رجع خمارويه الى قصره فرق على المماليك سيوفا ومناطق عوضا عما أخذ منهم واستمر خمارويه فى ولايته على مصر حتى توفى بها ودفن عند أبيه ثم تولى من بعده ابنه الافضل أمير الجيوش بدر الجمالى وهو صاحب سوق مرجوش قال القضاعى ان الافضل هذا هو الذى حفر خليج أبي المنجى وكان المتولى أمر حفر هذا الخليج أبو المنجى شعيا اليهودى فعرف به من يومئذ وقال القضاعى ان الافضل هو الذى بنى المسجد المطل على بركة الحبش المعروف الآن بالرصد وانما سمى بالرصد لانه كما قيل كان فوقه صورة من النحاس الاصفر قدرها نحو قنطار وهى مركبة على أعمدة من الرخام الابيض بسبب تحرير الساعات لاجل وقت دخول الصلاة ولم ينسب الى الحاكم بامر الله فى بنائه شئ وانما هى اشاعة بين الناس فى نسبته الى الحاكم ومن الحوادث فى أيام

الافضل أنه فى يوم الجمعة ثانى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين هاجت بالديار المصرية
ريح سوداء واشتد هبوبها وأظلم الجو حتى ظهرت النجوم بالنهار فارتاع الناس من ذلك
وتوجهوا الى المساجد يبتهلون الى الله تعالى بالدعاء فلم تزل تلك الرياح عاصفة من العصر الى
المغرب ثم بعد ذلك سكن الريح وانجلت تلك الظلمة وعادت الناس الى دكاكينهم بعد
ما تركوها مفتوحة ومضوا الى المساجد وفى أيامه توفى الشيخ بنان الجمال رضى الله عنه
وكان صاحب كرامات خارقة ودفن تحت الجبل المقطم بالقرافة واستمر الافضل فى ولايته
على مصر حتى مات بها ودفن فى المسجد الذى فى حارة برجوان وكانت وفاته فى سنة احدى
وتسعين ومائتين ثم تولى من بعده ابنه هارون فلما تولى على مصر لم يستقم أمره بها
وعزل عنها فكانت مدة ولايته على مصر ثمانية أشهر وأياما ومن الحوادث فى أيامه أن شخصا
يسمى أبا الحسن الصائغ الخراسانى توجه الى اطفيح فوجد فى بعض الدفائن شربة زجاج
أزرق بعروة خضراء فاخذها أبو الحسن المذكور وكان معه رفقة فجاء الى شاطئ النيل
فملؤا منه تلك الشربة فتناولها بعض الجماعة ليشرب منها ماء فوجده خرامس كراطيب
الرائحة أحمر اللون ولم يكونوا يعلموا ما فى تلك الشربة من السر فلما علموا انها رام كل واحد
من الجماعة أخذها فتخانقوا عليها فوقعت فانكسرت فوجدوا فيها شخصا لطيفا من نحاس
أصفر وتحت رجله عنبة وهو يعصرها فلما شاع أمرهم بين الناس بما جرى احضروا بين
يدى الامير هارون فوجد الشربة قد انكسرت عدة قطع فاسف عليها واغتم لذلك وقال
لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكى وان هذه كانت من محاسن الزمان اه ذلك ثم تولى
من بعده الامير شيبان من ولد الامير أحمد بن طولون وكان يكنى بابى المناقب تولى على مصر
فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين فلم تطل مدته بها وعزل عنها ثم تولى من بعده الامير عيسى
الدنوشرى فلم تطل أيامه بها وعزل عنها ومن الحوادث فى أيامه أنه وقعت صاعقة عظيمة فى
مدينة الفسطاط فاحرقت عدة أماكن ثم تولى من بعده أبو الحسن المسمى بكا الاعور
تولى على مصر فى سنة ثلاث وثلثمائة فاقام بها مدة يسيرة ثم عزل عنها ثم تولى من بعده
شخص يسمى تكين التركى تولى على مصر مرتين ثم عزل عنها ثم تولى من بعده شخص يسمى
هلال بن بدر المصرى فى سنة تسع وثلثمائة ولم تطل أيامه بها ثم عزل عنها ثم تولى من بعده
شخص يسمى أحمد بن كيغلغ فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ثم أعيد تكين التركى الى ولايته
بمصر ثالث مرة فكانت ولاية أحمد بن كيغلغ وعود تكين فى سنة واحدة وهى سنة احدى
عشرة وثلثمائة ولم تزل الاحوال مضطربة بمصر حتى ابتدأت دولة الاخشيدية قال الكندى
ان أول من تولى بمدينة فرغانة يسمى الاخشيدى فكان أول من تولى منهم أحمد بن كيغلغ
ومحمد بن طغج وأبو القاسم على وأبو بكر بن محمد بن طغج وخادمهم كافور وأما أحمد بن كيغلغ

ومحمد بن طغج فتوليا على مصر كل واحد منهما مرتين ولم تطل أيامهما بها وأما أبو القاسم علي فانه تولى على مصر في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وفي أيامه وقع الغلاء بمصر واستمر تسع سنين متوالية وسبب ذلك أن النيل كان ينتهي في زيادته الى خمسة عشر ذراعا وأربعة عشر اصبعا واستمر في كل سنة يزيد هذه الزيادة الخسيسة الى سنة تسع وأربعين وثلثمائة فوقع الغلاء بسبب ذلك في هذه السنين ثم توفي عقيب ذلك الامير أبو القاسم علي الاخشيدي وتولى الامير أبو بكر بن محمد بن طغج على مصر مدة طويلة نحو عشرين سنة وفي أيامه استقامت أحوال الديار المصرية وانصلحت أحوال الناس واستكثر من العساكر ورتب لهم الرواتب والجوامك في كل شهر فبلغت عدة عساكره بمصر والشام نحو أربعمائة ألف فارس وبلغ خراج مصر في أيامه ألفي ألف دينار قيل ان الوزير عمل لاولاده في ليلة الغطاس فوانيس شمع من هو فكان مصروف ذلك مائة وعشرين ألف دينار واستمر الامير أبو بكر في ولايته على مصر حتى توفي في سنة خمس وخمسين وثلثمائة ودفن بمصر فكانت مدة ولايته بها نحو عشرين سنة ولما مات الامير أبو بكر رثاه الشاعر الماهر أبو الطيب المتنبي بهذه الابيات

هو الزمان مشت بالذي جمعا * في كل يوم ترى من صرفه بدعا
لو كان ممتنع تغنيه منعته * لم يصنع الدهر بالاخشيد ما صنعا
ذاق الحمام فلم تدفع عساكره عنه القضاء ولا أغناه ما جمعا
لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم * ومن فخار ومن نعماء لاتسعا
يا لحد طل ان فيك البحر محتبسا * والليث مهتصرا والجود مجتمعا
يا يومه لم تخص الفجع فيه لقد كل الورى بردى الاخشيد قد فجعا

ولما مات الامير أبو بكر تولى من بعده خادمه أبو المسك كافور الاخشيدي فلما تولى على مصر مشى على طريقة أستاذه الامير أبي بكر وأطاعه أهل مصر ثم انه استجد في عسكره جماعة كثيرة من طوائف البربر ومما وقع له أنه كان جالسا في موكبه في يوم عيد فدخل عليه طائفة من التكرور وهم يرقصون ومعهم طبل وطنبور فلما رقصوا بين يديه طرب منهم وحرك كتفيه ثم انه استدرك فارطه فصار يحرك كتفيه في كل ساعة من الليل والنهار حتى مات وقار هذا مرض يعتريني ولم يخرج عن ناموسه قيل وكانت علامة على مراسيمه القلم بعقد والسيف بحده والعبد بسعده لا بأبيه ولا بجده قال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه كان راتب كافور الاخشيدي في مطبخه في كل يوم ألفي رطل من اللحم البقري وسبعمائة رطل لحم ضأن ومائة طير اوز وثلثمائة طير دجاج وثلثمائة فرخ حمام وعشرين فرخ سمك كبار وعشرين رميسا رضع وثلثمائة صحن حلوا وسبعة أفرادفا كهة

وألف كوز تفاح ومائة قربة من السكر وألف كماجة وخمسة أفراد بقولات وكان يحضر على سماطه الخاص والعام قيل وقعت زلزلة عظيمة بمصر في أيامه فخاف الناس من ذلك وهربوا الى الجبال فدخل محمد بن عاصم الشاعر على كافور وهو في موكبه فانشده قصيدة عظيمة منها هذا البيت

ماززلت مصر من خوف يراد بها * لكنها رقصت من عدله طربا

فلما سمع كافور ذلك أجازه على هذه القصيدة بالف دينار وهذا الجائزة التي هيجت المتنبي حتى دخل الى مصر ومدح كافورا بقصائد سنية وهي ثابتة في ديوانه الى الآن قيل وقع حريق عظيم في أيامه بمصر وعملت النار من سوق البزازين الى قيسارية العسل ودخل الليل والنار على حالها فبات الناس على وجل من ذلك فركب كافور وأمر المنادى ينادى بان من جاء بقربة فيها ماء فله مائة درهم فجاء الناس بالقرب وفيها الماء فأطفؤا تلك النار فكان عدة ما احترق في هذه الواقعة ألفا وسبعمائة دار غير البضائع والاقمشة التي احترقت للناس وفي أيامه وقع الغلاء بمصر وسبب ذلك أن النيل بلغ في الزيادة الى اثنى عشر ذراعا وتسعة عشر اصبعا ثم هبط فشرقت الاراضي ووقع الغلاء وكان ذلك في سنة ست وخمسين وثلثمائة قال الكندى وكان من آثار عجائب القدماء الى أيام كافور الاخشيدى حوض من رخام أخضر مدور وعليه كتابة لا تقرأ بالقلم القديم وهذا الحوض كان في بحر النيل عند طرا فاذا جلس فيه واحد من الناس أو أربعة وحركوه يعدى بهم من جانب الى جانب فاخذه كافور من البحر والقاه في البر فبطل فعله من يومئذ واستمر كافور الاخشيدى في ولايته على مصر الى أن مات في سنة سبع وخمسين وثلثمائة ودفن بالقرافة الصغرى فكانت مدة ولايته على مصر نحو ثلاث سنين وهو آخر من تولى على مصر من الامراء قال ابن وصيف شاه تولى على مصر من الامراء اثنان وسبعون أميرا أولهم عمرو بن العاص رضي الله عنه وآخرهم أبو المسك كافور الاخشيدى ودفن غالبهم بمصر ومن مبتدا ظهور الاسلام من حين فتحت مصر على يد عمرو بن العاص وأخذها من يد المقوقس عظيم القبط لم ينفرد بملك مصر أحد من امرائها ويستغل خراجها له سوى الامير أحمد بن طولون في مدة ولايته عليها ولما مات الامير كافور اضطربت أحوال الديار المصرية غاية الاضطراب وطمع أهل القرى في الجند وامتنعوا عن وزن الخراج فعند ذلك كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمي وكان ببلاد الغرب بأن يحضر الى الديار المصرية ويستلم المدينة ويتولى عليها فلما وقف المعز على تلك المكاتبات أرسل الى مصر الامير جوهرا القائد الصقلي ومعه مائة ألف من عساكر الغرب فكان دخول جوهر القائد الى مصر في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فلما دخل الى مصر لم تعجبه مدينة الفسطاط فأخذ في أسباب عمارة القاهرة قال الشيخ شمس

الدين

الدين الذهبي فى تاريخه لما أراد جوهر القائد أن يبنى سور القاهرة اختط أساس المدينة وجمع أرباب الفلك وأمرهم بأن يختار واله مطلعا سعيدا حتى يضع فيه أساس المدينة فجعل على كل جهة من أساس المدينة قوائم من الخشب وبين كل قائمة منها حبلا وفيه اجراس من نحاس ثم وقفت الفلكية ينتظرون دخول الساعة الجيدة والطالع السعيد حتى يضعوا فيه الاساس وكان لهم اشارة مع البنائين اذا حركوا تلك الاجراس يلقون ما بايديهم من الحجارة اذا سمعوا حس الاجراس فبينما هم واقفون لانتظار الساعة السعيدة واذا بغراب وقع على تلك الحبال فتحركت تلك الاجراس فظن البناؤن أن الفلكية قد حركوا لهم الحبال التى فيها الاجراس فالقوا ما بايديهم من الحجارة فى أساس السور فصاح عليهم الفلكية لالا القاهر فى الطالع يعنون المريخ واسمه عندهم القاهر فقضى الامر وخانهم ما قصدوا له من الطالع السعيد فكان كما قيل

يريد المرء أن يعطى مناه * ويأبى الله الا ما يريد

فقال الفلكيون اعلموا ان هذه المدينة أكثر من يملكها الاتراك فكان الأمر كذلك وكان بناء سور القاهرة فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة من الهجرة وبنى أولا بالطوب اللبن فلما فرغ بناء السور أرسل الامير جوهر القائد يعرف المعز بفراغ بناء السور فقدم اليها

ذكر ابتداء دولة الخلفاء الفاطميين بمصر

قال الشيخ شمس الدين الذهبي فى نسبه هو المعز أبو تميم معد بن المنصور اسمعيل بن القائم بالله محمد بن المهدى عبيد الله المغربى الفاطمى وكان مولده ببلاد الغرب بمدينة أفريقية فى يوم الجمعة تاسع عشرى شوّال سنة احدى وأربعين وثلثمائة وهو رابع خليفة من بنى عبيد الله ببلاد المغرب بمدينة أفريقية ۞ وفى سبب شرف هذه الفاطمية أقوال كثيرة فمن الناس من قد نسبهم الى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الناس من قد نسبهم الى الحسين بن محمد بن أحمد بن القداح وكان أصل القداح من أبناء المجوس وهذا الامر عند أرباب التواريخ فى نسبهم مشهور وأكثر الاتفاق عليه قال الذهبي وكان قدوم المعز الى مصر فى سابع عشر شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة وقد انقرضت دولة الاخشيدية بموت الامير كافور قال الشيخ عماد الدين بن كثير لما دخل المعز الى مصر دخل معه ألف وخمسمائة جمل موسوقة ذهبا عينا وكان معه من القماش والتحف ما لا يسمع بمثله فمن جملة ذلك كان معه قبة من البلور وهى قطعتان يجلس فيها نحو أربعة أنفس فكانت اذا نصبت فى الليلة المقمرة تخفى ضوء القمر من شعاعها وكان معه أربعة خوابى من البلور كل خابية

تسع قدر راوية من الماء وكان معه غير ذلك من التحف والعجائب قيل لما أراد المعز أن يتوجه الى مصر حمل معه أجداده الذين ماتوا بمدينة أفريقية فحملهم فى توابيت من خشب فلما دخل الى مصر دفنهم بالقرافة الكبرى قال ابن كثير لما دخل المعز الى مصر رأى ما بناه جوهر القائد فلم يعجبه وعاب عليه ما بناه وقال له لقد بنيت هذه المدينة فى وطيئة لا هى بحرية ولا هى جبلية وكان قصد المعز لو بناها على شاطئ النيل وقيل ان المعز سمى القاهرة أولا المنصورية فلما بلغه ما وقع للفلكية من أمر القاهر غير اسمها فقال سموها القاهرة فاستمرت من ذلك اليوم على هذا الاسم وقد قالت فيها الشعراء أشعارا كثيرة

لله قاهرة المعز لانها * بلد تخصص بالمسرة والهنا

أوما ترى فى كل قطر منية * من جانبيها فهى مجتمع المنى

وقال آخر فيها

مصر لها الافضال اذ لم تزل * على العدا منصورة ظاهره

ماغولبت كلا ولا قوهرت * الا وكانت مصر والقاهره

قال المسبحى لما استقر المعز بمصر انفرد بها ولم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية وادّعى الخلافة لنفسه بمصر وقال نحن أفضل من الخلفاء العباسية لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الخلفاء الفاطمية يحكمون من مصر الى الشام الى حلب الى الفرات الى مكة والمدينة الشريفة الى القدس والخليل وصارت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة وكانت الخلفاء العباسية يحكمون من الفرات الى بغداد وأعمالها الى سائر بلاد الشرق وكان يخطب لكل خليفة منهما فى الجهات التى تحت حكمه باسمه فقط ثم ان المعز استكثر من العساكر بمصر فكانوا ما بين كتامة وروم وصقالبة وبربر ومغاربة وكانوا فى العدد لا يحصون لكثرتهم حتى قيل لم يطأ الارض بعد جيوش الاسكندر بن فلبش الرومى الكبير أكثر من جيوش المعز الفاطمى ثم انه بنى قصر الزمرذ مكان دار الضرب وكان جوهر القائد وزيره ومدبر مملكته ۞ وجوهر هذا هو الذى بنى الجامع الازهر وكان بناؤه فى سنة احدى وستين وثلثمائة وكان جوهر من كبار الرافضة وكانت له فى مصر حرمة وافرة وكان خراج مصر فى أيامه ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار وكان خراج مصر قد انحط فى أيام من تولى قبله من الامراء فجدد الامير جوهر ما فسد من عمارة القناطر والجسور وغير ذلك حتى استقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه ولما تولى المعز على مصر منع القبط مما كان يعمل فى يوم النيروز من صب المياه على الناس فى الطرقات وايقاد النار فى تلك الليلة وكانوا يخرجون فى ذلك عن الحد ومنعهم أيضا مما كان يعمل فى ليلة الغطاس من النزول فى المراكب وضرب الخيام على شاطئ بحر

النيل عند المقياس فأشهر النداء بابطال ذلك جميعه وهدد من يفعل ذلك بالشنق فرجع الناس عن ذلك فى أيامه وكان يحصل من هذه الافعال غاية الفساد بمصر فى تلك الايام قال المسبحى فى تاريخه ان امرأة وقفت للمعز وهو فى موكبه وأنشدت

تحطمنا ريب الزمان كأننا * زجاج ولكن لا يعاد له سبك

فقال لها المعز من أنت أيتها المرأة فقالت أنا زوجة الامير أبى بكر بن محمد بن طغج الاخشيدى صاحب مصر فقام اليها المعز وقال ما حاجتك فقالت انى قد أودعت بغلطاقا عند شخص يهودى فأقام عنده مدة ثم انى طلبته منه فأنكره فقلت له خذ منه ما تختار من جواهره وأعطنى الباقى فابى وامتنع من الاعطا وأنكر ذلك أصلا فلما سمع المعز ذلك أرسل خلف اليهودى وسأله عن أمر البغلطاق الذى أودعته عنده زوجة الامير أبى بكر الاخشيدى فانكره ولم يعترف به فأمر بشنقه فلما تحقق ذلك اعترف به فأمره المعز باحضاره فلما أحضره بين يديه تحير مما فيه من الجواهر واللآلى ثم انه وجد اليهودى قد سرق من صدر ذلك البغلطاق درتين فسأله عن ذلك فاعترف أنه باع هاتين الدرتين بألف وستمائة دينار فأخذ المعز ذلك البغلطاق من اليهودى وأمر بشنقه فشنق ثم دفع ذلك البغلطاق الى زوجة الاخشيدى فسألته أن يأخذه منها على سبيل الهدية فابى من قبول ذلك فأخذته وانصرفت وهى داعية له ۞ وكان المعز يحب العدل والانصاف بين الرعية غير أنه كان رافضيا سبابا للصحابة فى يوم الجمعة على المنابر قال المسبحى ان المعز كان يميل الى علم الفلك فاخبره جماعة من المنجمين بأن عليه قطعا شديدا فى يوم كذا وكذا فى شهر كذا وكذا ثم أشاروا عليه بأن يختفى فى سرب تحت الارض حتى تمضى عنه تلك القطوع فاختفى فى سرب نحو أربعة أشهر فلما طالت غيبته على جنده ظنوا أنه قد رفع الى السماء فكان الفارس من عسكره اذا نظر الى الغمام فى السماء ينزل عن فرسه و يقول السلام عليك يا أمير المؤمنين فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر من ذلك السرب وجلس على سرير ملكه وهم يحسبون أنه كان فى السماء وأتى اليهم قال المسبحى كان للمعز أخت تسمى الست سيده الملك قيل انها توفيت فى خلافة أخيها المعز فوجد لها من الذهب العين ثلثمائة صندوق ومن الفصوص الياقوت الملونة واللؤلؤ خمس ويبات ووجد لها مدهنا من الياقوت الاحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا لم يحصر له ثمن ووجد لها من الشقق الحرير الاحمر ثلاثين ألف شقة قال بعض المؤرخين وكانت أخت المعز مع وجود هذه السعة أزهد الناس فى الدنيا وكانت لا تأكل الا من ثمن غزلها دائما حتى ماتت واستمر المعز فى الخلافة حتى مرض وسلسل فى المرض حتى مات فكانت وفاته فى ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة وكان له من العمر لما توفى نحو احدى وأربعين سنة وهو أول خلفاء بنى عبيد الله بمصر ودفن عند سيدى زين العابدين (٢) جد

السيدة نفيسة وتربته بين الكيمان عند حدرة ابن قميحة وكانت مدة خلافة المعز بمصر أربع سنين وشهرا ويومين وكان المعز رجلا عادلا عاقلا حازما لبيبا فصيحا شاعرا وله شعر جيد فمن ذلك قوله

مابان عذرى فيك حتى عذرا * وبدا البنفسج فوق ورد أحمرا
همت بقبلته عقارب صدغه * فاستل ناظره عليها خنجرا

ولما مات المعز تولى من بعده ابنه العزيز انتهى ما أوردناه من أخبار المعز الفاطمى وذلك على سبيل الاختصار

ذكر خلافة العزيز بالله أبى منصور نزار بن المعز بالله معد الفاطمى العبيدى وهو الثانى من خلفاء بنى عبيد بمصر

بويع بالخلافة بعد موت المعز فى سنة خمس وستين وثلثمائة وكان مولده بمدينة القيروان فى سنة أربع وخمسين وثلثمائة فلما تم أمره فى الخلافة بمصر استقر بجوهر القائد مدبرا لامر مملكته كما كان فى أيام أبيه المعز وكان العزيز يحب العدل فى الرعية وينصف المظلوم من الظالم وكان كريما جوادا ممدوحا فأحبته الرعية وصفا له الوقت بالديار المصرية ثم انه استكثر فى عسكره من المماليك الديالمة والمصامدة والاتراك المغل واستقر بالقاضى يعقوب بن كلس وزيرا قيل لما تولى العزيز الخلافة دخل عليه عبد الله بن حسن الجعفرى الشاعر يهنئه بالخلافة بعد موت أبيه فانشده هذه القصيدة منها

عمت خلافته مصرا فصار بها * كأنه الشمس فيها حلت الحلا
ان المعز الذى لا خلق يشبهه * الا العزيز ابنه ان قال أو فعلا
فان مضى كافل الدنيا فصار لها * من بعده كافلا يغنى بما كفلا
أضحت ملوك بنى الدنيا له خدما * وما حوت كل دار منهم نفلا

حكى المسبحى فى تاريخه أن العزيز لما تم أمره بمصر استقر بشخص من النصارى عاملا بمصر على سائر جهاتها وكان يقال له نسطروس واستقر بشخص من اليهود عاملا على سائر جهات دمشق وكان يقال له منشا فحصل من النصرانى لاهل مصر غاية الظلم والاذى وحصل من اليهودى لاهل دمشق غاية الظلم والاذى فاتفق ان العزيز ركب يوما وشق من القاهرة فزينت له عمد بعض الناس الى مجزرة من حديد وألبسها ثياب النسا وزينها بازار وشعرية وجعل فى يدها قصة على جريدة وكتب فيها بالذى أعز جميع النصارى بنسطروس

وأعز جميع اليهود بمنشا وأذل جميع المسلمين بذلك الامارجتهم وأزحت عنهم هذه المظالم فلما مر العزيز على تلك الصورة ظن أنها امرأة ولها حاجة فطلب قصتها فلما قرأها اشتد به الغضب وأمر بشنق ذلك النصرانى نسطروس فشنق على باب القصر وأرسل بشنق منشا اليهودى فشنق على أحد أبواب دمشق واحتاط على جميع أموالهما من صامت وناطق ۞ ومن الحوادث فى أيامه أن فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة ولدت امرأة بمدينة تنيس جارية لها رأسان ووجهان فى عنق واحد وكان أحد الوجهين أبيض اللون والآخر أسمر اللون وفيه سهولة وكل وجه منهما كامل الخلقة وهذان الوجهان فى جسد واحد فكانت أم تلك المولودة ترضع كل واحد منهما على انفراده فحملت هذه المولودة الى العزيز من تنيس الى مصر حتى شاهدها فوجه لامها شيأ من المال ثم عادت الى تنيس فعاشت هذه المولودة مدة يسيرة ثم ماتت ۞ وفى أيامه فى سنة تسع وسبعين وثلثمائة حدث بمدينة تنيس فى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الاول حادث فيه أرعدت السماء وأبرقت وأظلم الجو وظهر فى السماء أعمدة من نار تلتهب فأضاءت منها الدنيا ثم اشتدت تلك الحمرة وجاءت عقب ذلك ريح سوداء فيها غبار حار يأخذ بالانفاس من شدة حره فارتاع الناس من ذلك وأيقنوا بالهلاك وصار يودّع بعضهم بعضا فضج الناس الى الله تعالى بالدعاء ولم يزل على ذلك من بعد العشاء الى طلوع الفجر حتى خمدت الريح وخمدت تلك الاعمدة النار وزالت الحمرة من الجو فلما لاح الصباح طلعت الشمس وهى محمرة فأقامت على ذلك خمسة أيام حتى اعتدلت قال أبو القاسم عبد المجيد القرشى ان فى سنة احدى وسبعين وثلثمائة صيدت سمكة بمدينة تنيس من البحر المالح فكان طولها من رأسها الى ذنبها ثمانية وعشرين ذراعا ونصف ذراع وكان عرضها خمسة عشر ذراعا وكان فتح فمها تسعة وعشرين شبرا وكان لها يدان كل يد طولها ثلاثة أذرع وكان لها عينان كعينى البقر ولسان كلسان الثور العظيم وكانت ملساء وفى جلدها غلظ فلما صيدت أمر والى تنيس أن يشق بطنها ويحشى ملحا فوضعوا فى جوفها مائة أردب ملح فكان الرجل يدخل فى جوفها وهو حامل قفاف الملح قائما غير منحن فأمر نائب تنيس بحملها الى القاهرة حتى يشاهدها الخليفة العزيز فشاهدها وتعجب من خلقتها اهـ وكانت مدينة تنيس هذه من أجلّ المدائن وكانت بالقرب من دمياط قال المسعودى كان طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتى ذراع وكان عرضها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا بالعمل وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا وبكل مسجد منارة وكان بها ستة وثلاثون حماما وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب وكان بها مائة وستون طاحونا وكان بها من الحوانيت

ألفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون فيها الثياب الشرب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار وكانت تحمل منها الى بغداد وكان يعمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب وكان بهذه المدينة النخل والكرم وسائر أصناف الاشجار وكانت صحيحة الهواء كثيرة الطير والسمك وكان أهلها يدخرون بها ماء النيل فى جباب فلا يفسد ولو أقام بها دهرا طويلا وكان بها طريق مسلوكة يابسة الى جزيرة قبرس تمشى عليها الدواب فغلب عليها ماء البحر المالح فغرق تلك الارض قبل أن تفتح مصر بمائة سنة ولم تزل مدينة عامرة الى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها واستمرت على ذلك الى سنة أربع وعشرين وستمائة فى دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها واستمرت خرابا من يومئذ الى الآن قال المسعودى ان الذى بنى مدينة تنيس كانت امرأة تسمى تنيس وهى بنت صا بن تدارس أحد ملوك القبط فسميت تلك المدينة بها انتهى ذلك قال المسبحى ان فى أيام العزيز نزار هذا ظهر السمك البلطى بالنيل ولم يكن به قبل ذلك منه شئ وهو من أسماك البحر المالح وفى أيامه أيضا ظهر السمك اللبيس ببحر النيل ولم يكن منه قبل ذلك شئ وهو أيضا من أسماك البحر المالح هرب ودخل الى البحر الحلو وانما سمى لبيسا لانه يشبه البورى فالتبس به فسمى لبيسا انتهى ذلك واستمر العزيز بالله نزار فى الخلافة بمصر حتى توفى وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة وكانت مدة اقامته فى الخلافة بمصر احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياما وكان خيار بنى عبيد قاطبة ولما مات تولى من بعده الحاكم بأمر الله منصور انتهى ما أوردناه من أخبار العزيز بن المعز وذلك على سبيل الاختصار

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله أبى على منصور

ابن العزيز نزار بن المعز معد الفاطمى العبيدى وهو الثالث من خلفاء بنى عبيد الله بمصر بويع بالخلافة بعد موت أبيه العزيز فى يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان سنة ست وثمانين

وثلثمائة من الهجرة وكان مولده بالقاهرة في يوم الخميس سادس عشرى جمادى الاولى سنة خمس وسبعين وثلثمائة فلما تولى الخلافة أظهر العدل بين الرعية وسار في الناس سيرة حسنة وأخذ في أسباب بناء جامعه الذى هو داخل باب النصر وكان مبتدأ عمارته في سنة تسع وثمانين وثلثمائة ولما تم أمره في الخلافة بمصر أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم بان يسكنوا بها ولا يخالطوا المسلمين في حاراتهم ثم انه بعد مدة أمرهم بأن كلا منهم يدخل في دين الاسلام فخافوا منه وأسلموا كلهم ثم أذن لهم بالعود الى دينهم فارتد منهم في يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودى ثم انه أمر بهدم كنائسهم ثم انه أعادها كما كانت عليه أولا ۞ وفي أيامه توفي الامير جوهر القائد وزير المعز فلما مات وجد له من الاموال مالا يحصى فمن جملة ذلك من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صناديق مجلدة ومن القصب الزمرذ ألف قصبة ومن الثياب الديباج ورق تنيس خمسة وسبعين ألف قطعة ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهى مرصعة بالدر والياقوت فقوّم ما عليها من الجواهر باثنى عشر ألف دينار ووجد عنده لعبة من المسك والعنبر الخام اذا نزع ثيابه ألبسها عليها ووجد في داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمامة لون ووجد عنده من المعالق الذهب والفضة ثلاثة آلاف معلقة ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صينى وبلور وفضة ووجد عنده أربع قدور من الذهب وزن كل قدر مائة رطل ذهب قيل كان يطبخ المسلوقة فيها ووجد عنده سبعمائة خاتم بفصوص من الياقوت والزمرذ والماس ووجد عنده ثلاثة آلاف نرجسية ذهب وفضة وبلور وصينى هذا كله خارج عن البغال والجمال والخيل والعبيد والجوارى والفرش والاملاك والضياع وغير ذلك ۞ ولما مات الامير جوهر القائد دفن بالقرافة الكبرى ثم ان الحاكم بأمر الله لما توفي الامير جوهر القائد استقر بالامير برجوان عوضه بالوزارة وبرجوان هذا هو صاحب الحارة المنسوبة اليه وكان من أمراء الحاكم وكان الحاكم يخشى من سطوة برجوان ولا يتصرف في شيء من أمور المملكة الا برأيه وصار معه كالمحجور عليه فأقام على ذلك مدة طويلة فما أطاق ذلك فندب الى برجوان من قتله وهو خارج من الحمام فلما قتل برجوان احتاط الحاكم على موجوده فوجد له أكثر مما وجد لجوهر القائد فمن جملة ذلك وجد له من الذهب العين مائتا ألف ألف دينار ومن الدراهم الفضة خمسون اردبا ووجد له من القماش مائتان واحدى وستون بقجة ووجد له ألف سروال من البعلبكى العال وفي كل سروال نافجة مسك وتكة حرير أبيض ووجد له ألف قميص حرير اسكندرى وألف منديل حرير شغل اسكندرية ووجد عنده من كل صنف من القماش ألف قطعة ووجد عنده من الجواهر

اثنا عشر صندوقا هذا خارج عن الاملاك والضياع والخدم ووجد عنده من البقر والانعام والجاموس ما يباع لبنه فى كل سنة بثلاثين ألف دينار على يد أبى الحسن بن يزيد العامل ووجد له من الحواصل والمناخات مالا يحصى لكثرته فصار الحاكم ينقل فى موجود برجوان فى كل يوم دفعتين من حارة برجوان الى قصر الزمرذ الذى كان عند دار الضرب على مائتى جمل نقلتين فى كل يوم نحو أربعين يوما قال الشيخ شمس الدين الذهبى لما قتل برجوان صار الحاكم ما على يده يد فعند ذلك طغى وتجبر وصار يفعل أشياء متضادة لا تقع الا من المجانين الذين فى عقلهم خلل فمن ذلك أنه مر يوما بحمام الذهب الذى بمصر فسمع بها ضجيج النساء وهن فى الحمام فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام فسدوه عليهن من وقته وساعته بالحجر الفص فاستمرت فى الحمام حتى مات الجميع فى الحمام ولم يجدوا لهم من حميم ولا شفيع ومنها أنه منع الناس من بيع الزبيب وأمر بحرق الكروم وقطعها فقطع منها نحو مائة ألف كرم ومنها أنه منع الناس من بيع العسل الاسود وكسر منه نحو اثنى عشر ألف مطر ومنها أنه منع الناس من أكل الملوخية وأكل القرع وكتب قسائم على الفلاحين أن لا يزرعوا شيأ من الملوخية ولا القرع وعلل تحريم الملوخية بكون أبى بكر الصديق كان يميل اليها وعلل تحريم القرع بكون عائشة بنت أبى بكر كانت تميل اليه وقيل أنه طلع يوما على جماعة يأكلون ملوخية فضربهم بالسياط وطاف بهم فى القاهرة ثم أمر بأن تضرب أعناقهم عند باب زويله ومنها أنه نهى عن بيع السمك الذى لا قشر له ونهى عن بيع الرطب ونهى عن زرع الترمس ومنها انه أمر بقتل الكلاب فقتل منهم نحو ثلاثين ألف كلب ومنها أنه صار يقعد الشمع فى مجلسه ليلا ونهارا ثم انه صار يجلس فى الظلام واستمر على ذلك مدة طويلة ومنها أنه أمر الناس بأن يغلقوا الاسواق بالنهار ويفتحوها بالليل وجعل الليل مقام النهار فى جميع أحوال الناس فامتثلوا منه ذلك واستمروا عليه دهرا طويلا ثم انه مر فى بعض الايام على شيخ يعمل فى التجارة من بعد العصر فوقف عليه وقال ألم أنهكم عن ذلك فقال له الشيخ يا أمير المؤمنين أما كان الناس يسهرون بالليل فهذا من جملة السهر فتبسم وتركه ثم أعاد الناس الى ما كانوا عليه فى الاول يتقاضون أشغالهم بالنهار ومنها أنه كان يسب الصحابة وأمر بكتابة ذلك على سائر أبواب المساجد والجوامع فاقام على ذلك مدة ثم انه أمر بمحو ذلك ومنها أنه هدم قمامة وبنى مكانها مسجدا ثم أعادها الى ما كانت عليه قمامة وكان يبنى عدة مدارس ويقرر بها المشايخ والصوفية ثم يقتلهم ويهدم تلك المدارس ومنها أنه كان يعاقب جماعة من خواصه بسلب الالقاب فاذا غضب على أحد سلب لقبه مدة طويلة لا يدعوه بذلك اللقب فيصير ذلك الرجل فى حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه فيكون عنده ذلك عيدا ومنها أنه أمر طائفة اليهود بأن يعملوا فى أعناقهم اذا خرجوا الى الاسواق قرمة خشب وزن كل قرمة خمسة أرطال وأمر النصارى بأن يعملوا فى أعناقهم صلبانا من حديد

قدرذراع وأمرهم بأن يلبسوا المآزر الفسيحة وأن لا يركبوا بهيمة فأقاموا على ذلك مدة
ثم أعادهم الى ما كانوا عليه ومنها أنه أمر الناس اذا ذكر اسمه الخطيب فى يوم الجمعة وهو
على المنبر تقوم الناس صفوفا اعظاما للذكر واحتراما لاسمه فكان يفعل ذلك فى سائر مملكته
حتى فى الحرمين الشريفين و بيت المقدس ومنها أنه كان يلبس جبة صوف أبيض ويركب
على حمار عال أشهب يسمى القمر و يطوف فى أسواق مصر والقاهرة و يباشر حسبة البلد
بنفسه وكان معه عبد أسود طويل عريض يمشى فى ركابه يقال له مسعود فان وجد أحدا من
السوقة غش فى بضاعته أمر ذلك العبد مسعودا بأن يفعل به الفاحشة العظمى وهى اللواط
فيفعل به على دكانه والناس ينظرون اليه حتى يفرغ من ذلك والحاكم واقف على رأسه وقد
صار مسعود هذا مثلا عند لطفاء أهل مصر اذا من حوامع أحد يقولون احضر له يا مسعود
وفى ذلك يقول بعض الشعراء

ان لمسعود آلة عظمت * كأنها فى صفات طومار
تشق أدبار من بهم جرم * أصعب من درة بمسمار

ومنها انه أبطل صلاة التراويح نحو عشر سنين ثم أعادها كما كانت أولا ومنها انه كان
يحب أهل العلم والصلحاء ثم يغضب عليهم و يقتلهم وأقام يلبس الصوف مدة سبع سنين
ثم ترك ذلك ولبس الحرير ومنها انه كان يركب على حماره الاشهب المدعو بالقمر فينزل
عنه عند باب جامعه الذى عند باب النصر و يأخذ بيده من يختار من غلمانه فيرقده ويشق
بطنه بيده ثم يخرج مصارينه بيده فيرميها الى الكلاب و يترك المقتول مكانه حتى يدفنه
أهله وكان يعذب جماعة من خواصه بالنار وقتل جماعة كثيرة من العلماء منهم أبو اسامة
وكان من كبار العلماء ومنهم جبارة اللغوى قيل ان الشيخ جبارة هذا كان يعرف للكلب
فى اللغة ثلثمائة اسم فى لغات العرب ومنهم الهروى وغير ذلك من العلماء ومنها انه كان
عنده شجاعة واقدام مع جبن وادبار وكان يحب الكرم ويكثر من البخل وكان يحب
فعل الخير و يتبعه بشىء من الشر ويحب العدل فى الرعية و يتبعه بشىء من الظلم والجور
فكان كما قال القائل فى المعنى

أرى فيك أخلاقا حسانا قبيحة * وأنت لعمرى كالذى أنا واصف
قريب بعيد باذل متمنع * كريم بخيل مستقيم مخالف
كذوب صدوق ليس يدرى صديقه * أيجفوه من تخليطه أم يلاطف
فلا أنت ذو غش ولا أنت ناصح * وانى لفى شك لامرك واقف
كذلك لسانى هاجى لك مادح * كما أن قلبى جاهل بك عارف

قال القاضى شمس الدين بن خلكان فى تاريخه ان الحاكم بأمر الله كان يعبد الكواكب

كما كان جده المعز وكان له اشتغال بامر المطالب وله فى ذلك أخبار كثيرة قيل انه ظفر فى بعض المطالب بصنم من حجر كذان وهو مجوّف وفى جوفه روحانى موكل به فكان ينطق كما ينطق الآدمى فكان من فوائده انه يظهر الضائع ويخبر عن المكان الذى فيه فلما ظفر الحاكم بهذا الصنم أمر باشهار النداء فى مصر والقاهرة بان لا أحد من الناس يغلق له باب دار ولا حانوت وان ضاع لاحد من الناس شئ فهو فى درك الحاكم فامتثل الناس أمره فلما باتوا تلك الليلة سرق من مصر والقاهرة أربعمائة عملة فأصبح الناس يستغيثون للحاكم تحت قصر الزمرذ فقال الحاكم ما الخبر فقال له الوزير يا أمير المؤمنين ان اللصوص قد سرقوا فى هذه الليلة من مصر والقاهرة أربعمائة عملة لما أن تركوا دكاكينهم وأبوابهم مفتحة فقال الحاكم لا بأس عليهم ثم أمر باشهار النداء بان كل من ضاع له شئ يحضر بين يدى الحاكم فحضر أصحاب الضوائع جميعهم فلما تكاملوا أحضر ذلك الصنم بين يديه وصار أصحاب الضوائع يقعد الواحد منهم بين يديه ويقول له يا أبا الهول قد ضاع منى ما هو كيت وكيت فيقول ذلك الروحانى الذى هو فى جوف ذلك الصنم ان ضائعك أخذه فلان بن فلان وهو فى المكان الفلانى فى الحارة الفلانية فيرسل الحاكم بعض غلمانه الى ذلك الرجل فيحضر ذلك الضائع بعينه فيسلمه الى صاحبه فلا زال يحضر لكل شخص من الناس ما ضاع له حتى ردّ على جميع الناس ضوائعهم ثم انه أحضر اللصوص الذين سرقوا فأمر بشنقهم أجمعين ثم نادى فى مصر والقاهرة رحم الله من رأى العبرة فى غيره فاعتبر فصارت الناس يتركون دكاكينهم وأبوابهم مفتحة ليلا ونهارا ولم يفقد لاحد منهم شئ حتى كان يقع من الرجل منهم الدراهم والفلوس فلا يجسر أحد من الناس أن يأخذها من الارض حتى يمر صاحبها ويأخذها ولو بعد حين وحكى بعض المؤرخين ان رجلا وقع منه كيس فيه ألف دينار عند جامع أحمد بن طولون فصار مرميا على الارض وكل من رآه يتباعد عنه فأقام مرميا على الارض أسبوعا حتى مر صاحبه وأخذه وهذا الذى قد جسر الحاكم على ان جعل الليل مقام النهار فى جميع أحوال الناس وقيل ان هذا الصنم لم يزل عند الحاكم حتى قتل فعمد اليه بعض اللصوص وكسره تحت الليل فبطل من يومئذ فعله ولم ينطق ما كان فى جوفه ولم يكن من محاسن الحاكم غير هذه الحكاية اهـ ذلك وحكى بعض المؤرخين ان رجلا أودع عند رجل جرابا فيه ألف دينار وسافر الى الحجاز فلما عاد طلب ذلك الجراب من الرجل فأنكره فشكا ذلك الرجل أمره الى الحاكم فقال له الحاكم اقعد لى فى الشارع فاذا مررت بك فقم الىّ وتحدث معى فلما فعل ذلك ومر عليه الحاكم قام له وتحدث معه وأطال معه الحديث فرآه الرجل الذى عنده الجراب فرأى صاحب الجراب يتحدث مع الحاكم حديثا طويلا فلما مر الحاكم ومضى أحضر ذلك الرجل الجراب ودفعه الى

صاحبه

صاحبه وقال له تذكرت وديعتك وها هي فوجده الرجل بختمه لم يفتح فضى به ذلك الرجل الى الحاكم وعرفه بما جرى له مع الرجل فقال له الحاكم خذ جرابك وامض الى حال سبيلك فلما أصبح رأى ذلك الرجل الذى كان عنده ذلك الجراب مشنوقا على باب داره والناس يتحدثون فى أمره قال ابن كثير وقع الغلاء بمصر فى زمن الحاكم فى سنة سبع وثمانين وثلثمائة فاجتمع الناس تحت قصر الزمرذ واستغاثوا بالحاكم فى ان ينظر فى أحوال الناس فقال لهم الحاكم اذا كان الغد أتوجه الى جامع راشدة وأعود من مصر فان وجدت فى طريق مكانا خاليا من الغلة ضربت عنق صاحب ذلك المكان ثم انه توجه الى جامع راشدة وتأخر هنالك الى ما بعد العصر فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة الا وحمل ما عنده من الغلال ووضعها فى الطريق الذى يمر عليها الحاكم فلما رجع من جامع راشدة وجد الغلال قد امتلأت بها الطرقات وشبعت أعين الناس فقرر مع أصحاب الغلال ان أحدا لا يدخر فى بيته شيأ من الغلال وقرر معهم أسعار كل صنف من الغلال بثمن معين لا يزيد ولا ينقص فعند ذلك سكن الوهج الذى كانت فيه الناس ووقع الرخا فى مصر وسائر أعمالها وذلك من شدة رعب الناس من الحاكم ومن سطوته فكان كما قيل فى المعنى

صاحب أخا الشر لتسطو به * يوما على بعض صروف الزمان

فالرمح لا يرهب انبوبه * الا اذا ركب فيه السنان

وفى هذه السنة وهى سنة سبع وثمانين وثلثمائة توفى ابن زولاق صاحب تاريخ مصر ودفن بها ومن النكت المضحكة ما قيل كان فى زمن الحاكم قاض بمصر يقال له النطاح وسبب ذلك انه كان له طرطور وفيه قرنان من قرون البقر فيضعه الى جانبه فاذا جاءه خصمان يتحاكمان عنده وجار أحدهما على الآخر يلبس القاضى ذلك الطرطور الذى فيه القرنان و يتباعد و ينطح الخصم الذى يجور على صاحبه فاشتهر أمره بين الناس بهذه الواقعة فبلغ أمره الى الحاكم فأرسل خلفه فلما حضر بين يديه قال له ما هذا الامر الذى قد اخترعته حتى قبحت سيرتك بين الناس فقال يا أمير المؤمنين أشتهى ان تحضر مجلسى يوما وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسى من العوام فان كنت معذورا فيهم والا عاقبنى بما تختار فقال له الحاكم أنا غدا أحضر مجلسك حتى أرى ما تقول فلما أصبح الحاكم أتى الى مجلس ذلك القاضى وقعد من خلف ستارة فأتى الى القاضى خصمان فادعى أحدهما على الآخر بمائة دينار فاعترف له المدعى عليه بها فأمره القاضى بدفع ذلك الى صاحبه فقال المدعى عليه انى معسر فى هذا الوقت فقسطوا على ذلك على قدر حالى فقال القاضى للمدعى ما تقول فقال أقسطها عليه فى كل شهر عشرة دنانير فقال المديون لا أقدر على ذلك فقال القاضى تكون خمسة دنانير فقال المديون لا أقدر على ذلك فقال

القاضي تكون دينارين فقال المديون لا أقدر على ذلك فقال القاضي تكون دينارا فقال المديون لا أقدر على ذلك فلا زال القاضي يدرجه حتى قال له تكون عشرة دراهم في كل شهر وهو يقول لا أقدر على ذلك فقال له القاضي وما القدر الذي تقدر عليه في كل شهر فلعل ان يرضى به خصمك فقال المديون أنا لا أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم في كل سنة بشرط ان يكون خصمي في السجن لئلا يحصل معي هذا القدر ولا أجد خصمي فيذهب مني فلما سمع ذلك الحاكم لم يملك عقله وخرج من خلف الستارة وقال للقاضي انطح هذا النحس الشيطان والا فأنا أنطحه وكان الحاكم أحق من القاضي انتهى ذلك وقال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام لا زال الحاكم بامر الله يتزايد في الظلم والجور واستخف بأهل مصر حتى انه ادعى الربوبية من دون الله كما فعل فرعون فكان اذا مر في الطرقات والاسواق يقول له جماعة من العوام يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت وكانت جماعة من جهال العوام يسجدون له كلما رأوه ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه ثم انه ادعى في وقت أنه يعلم علم الغيب فكان يقول لامرائه ووزرائه يا فلان أنت فعلت في بيتك البارحة ما هو كيت وكيت وأنت يا فلان قلت البارحة ما هو كيت وكيت وكان ذلك باتفاق بعمده مع العجائز اللاتي يدخلن الى بيوت الامراء والوزراء وغير ذلك من أعيان أهل مصر فلما زاد الامر في ذلك كتب اليه بعض الناس رقعة ورمى بها وهو في معظم موكبه وكان في الرقعة هذه الابيات

بالجور والظلم قد رضينا * وليس بالكفر والحماقه
ان كنت أوتيت علم غيب * بين لنا كاتب البطاقه

فلما قرأ تلك الرقعة سكت عن الكلام في أمر ما كان يدعيه من علم الغيب انتهى ذلك روى ابن كثير أن الفاطمية كانوا يدعون الشرف ويقولون نحن أفضل من العباسية لانا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعض العلماء الذين يتواجهون لهم أثبت لهم نسبا فاسدا بأنهم من ولد الامام علي رضي الله عنه وليس بصحيح وانما هم من ولد ديصان بن سعيد وكان أصله مجوسيا وقد وافق على ذلك جماعة من العلماء مثل أبي حامد الاسفرايني والشيخ أبي الحسن القدوري وغير ذلك من العلماء وكان الحاكم يذكر نسبه في كل جمعة وهو على المنبر يخطب وكانت الناس ترفع اليه الرقاع في أشغالهم وهو على المنبر فرفعت اليه رقعة فيها مكتوب هذه الابيات

انا سمعنا نسبا منكرا * يتلى على المنبر في الجامع
ان كنت فيما قلته صادقا * فانسب لنا نفسك كالطائع
وان ترم تحقيق ماقلته * فاذكر لنا بعد الاب السابع
أولا دع الانساب مستورة * وادخل بنا في النسب الواسع

فانّ انساب بنى هاشم * يقصر عنها طمع الطامع

فلما قرأ تلك الرقعة رجع عما كان يدعيه من أمر النسب واستمر الحاكم على ماذكرناه من أمر هذه الافعال الشنيعة ومخالفته لامر الشريعة حتى قتل وكان سبب قتله أنّ أخته ست النصر لما زاد أخوها من هذه الفعال أراد قتلها فلما تحققت ذلك وكانت من النساء المدبرات أخذت فى تدبير الحيلة على قتل أخيها فخرجت تحت الليل وأتت الى دار الامير سيف الدين بن رواش وكان أكبر أمراء الحاكم فلما دخلت عليه اختلت به وعرفته انها أخت الحاكم فبالغ فى تعظيمها فقالت له أنت تعلم ما قد فعله أخى بالرعية من القتل والجور وخراب البلاد وقد عوّل على قتلى وقتلك فقال لها الامير سيف الدين وكيف الحيلة فى قتله فقالت له الرأى عندى انك تندب اليه جماعة من العبيد السود يقتلونه اذا خرج الى حلوان فانه ينفرد بنفسه فى الطريق فيخرجون عليه و يقتلونه فاذا قتل تكون أنت المدبر للمملكة من بعده ويولى ولده عليا فاتفقا على ذلك ثم مضت الى قصرها فلما أصبح النهار خرج الحاكم على عادته الى نحو حلوان فأرسل الامير سيف الدين خلفه عشرة من العبيد السود الغلاظ الشداد وأعطى لكل عبد منهم خمسمائة دينار وعرفه كيف يقتله فسبقه العبيد الى حلوان فلما وصل الحاكم هناك نزل بالقصبة التى فى حلوان بشرقى البلد فخرج عليه أولئك العبيد فقتلوه هناك فلما ابطأ خبره على العسكر خرجت اليه جماعة من الجند يلتمسون رجوعه ومعهم جنائب الموكب بالسروج الذهب والكبابيش فصاروا يخرجون الى حلوان فى كل يوم ينتظرون رجوعه منذ سبعة أيام فلما ابطأ عليهم فوق السبعة أيام خرج الامير مظفر الحاجب ومعه جماعة من العسكر وكانت عساكر الحاكم ما بين ترك وديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد سود وغير ذلك فلما وصلوا الى آخر القصبة التى بحلوان وجدوا حماره الاشهب المدعو بالقمر وقد قطعت يداه ورجلاه وعليه السرج واللجام فتبعوا أثر الحمار فوجدوا ثياب الحاكم وكان عليه سبع جبب صوف بيض ورأوا فيها آثار ضرب السكاكين فلم يشكوا بعد ذلك فى قتله فلما رجعوا الى القاهرة أشيع قتل الحاكم وكان قتله فى شوّال سنة احدى عشرة وأربعمائة وكانت مدة خلافته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمسا وعشرين سنة وأياما ولم ينل أهل مصر من أفعاله مكرمة وصاروا معه فى قمع سمسمة وصبروا على أذاه فى هذه المدة وقد قاسوا منه أى شدة حتى فرج الله عنهم هذه الكربة العظيمة فكان كما قيل

ودهر قطعناه بضيق وشدة * ونحن على نار قيام على الجمر
صبرنا له حتى أزيل وانما * تفرج أيام الكريهة بالصبر

وفى هذه المدة قتل الحاكم من الناس مالا يحصى عددهم من العلماء والفقهاء وغير ذلك
قال الشيخ شمس الدين الذهبي ولما قتل الحاكم صار جماعة من الجهال المغفلين من
وادى التيم من نواحى الشام يعتقدون حياة الحاكم الى الآن ويقولون لابد أن يظهر فى
آخر الزمان ويعود الى الخلافة وانه هو المهدى لا محالة ويحلفون الى الآن بغيبة الحاكم
انتهى ما أوردناه من أخبار الحاكم بأمر الله منصور بن نزار وذلك على سبيل الاختصار
ولما قتل الحاكم تولى من بعده ابنه الظاهر لدين الله على

ذكر خلافة الظاهر لدين الله على بن منصور

ابن نزار بن المعز معد وهو الرابع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمية بمصر بويع له بالخلافة
بعد أبيه الحاكم بأمر الله فى شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة وتلقب بالظاهر لدين
الله تولى الخلافة وله من العمر نحو ست عشرة سنة وكانت عمته ست النصر أخت
الحاكم هى القائمة بأمور دولته والامير سيف الدين بن رواش وفى أيامه اضطربت
أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية واستولى على البلاد الشامية الامير حسان شيخ
عربان جبل نابلس وصار يستخرج خراجها لنفسه ونزع أيدى العمال عنها وفى سنة
خمس عشرة وأربعمائة من خلافته توفيت ست النصر أخت الحاكم بأمر الله فظهر لها
موجود عظيم من المال والجواهر والقماش والتحف لا يحصى لكثرته ووجد لها أربعة
آلاف جارية ما بين بيض وسود ومولدات فمنهن ألف وخمسمائة ابكار والبقية ثيبات
ووجد عندها ثلاثون زيرا صينيا مملوءة من المسك السحيق وأما بقية الموجود فما ضبط
لكثرته ومن الحوادث فى أيامه جاءت الاخبار من مكة ان رجلا أعجميا قد حضر الى مكة
وجماعة من الاعاجم معه فأظهروا انهم يريدون الحج فأقاموا فى مكة مدة ثم انهم
غافلوا الناس فى وقت القائلة ودخلوا الحرم وقلعوا الحجر الاسود من مكانه وكسروه
ثلاث قطع فأدركهم الناس وأمسكوهم فقطعوا أيديهم وصلبوهم على أبواب الحرم ثم
ان الناس أعادوا الحجر الاسود الى مكانه ولصقوا ما كسر منه وفى أيام الظاهر هذا
أذن لاقباط مصر فيما كان يعمل فى ليلة الغطاس بالديار المصرية وكان هذا الامر قد
بطل من أيام المعز كما تقدم وكان من أجل المواسم بمصر وذلك ان ليلة الغطاس وهى
فى الحادى عشر من شهر طوبه تجتمع جماعة من المسلمين وجماعة من الاقباط النصارى
عند شاطئ النيل قدام المقياس فتنصب هناك الخيام على جانبى النيل وتوضع فيها الاسرة
لاعيان القبط من الرؤساء وكان البحر يمتلئ بالمراكب والزوارق ويجتمع فيها السواد
الاعظم من الخاص والعام من المسلمين والنصارى فاذا دخل الليل تزين المراكب بالقناديل
وتشعل فيها الشموع وكذلك على جوانب الشطوط من بر مصر والروضة وكان يشعل
على الشطوط فى تلك الليلة أكثر من ألف مشعال وألف فانوس وتنزل رؤساء القبط

فى

فى المراكب وكان ينفق فى تلك الليلة من الاموال مالا يحصى فى مآكل ومشارب وتجاهر الناس بشرب الخمر وتجتمع أرباب الملاهى وأرباب الملاعب من كل فن ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والفرجة ولا يغلق فى تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق وكانوا يهادون رؤساء الاقباط فى تلك الليلة بأطنان القصب والبورى والحلوى القاهرية والكمثرى والتفاح الفتحى والسفرجل والاترج والنارنج والليمون المراكبى وطاقات النرجس وغير ذلك من الانواع اللطيفة وكانوا بعد العشاء يغطسون فى بحر النيل النصارى مع المسلمين سوية ويزعمون ان من يغطس فى تلك الليلة يأمن من الضعف فى تلك السنة فلما كان وقت الغطاس نادى الخليفة الظاهر بأن لا يختلط النصارى بالمسلمين عند الغطاس وكان فى قصر جده المعز الذى يشرف على بحر النيل يتفرج على ذلك المهرجان الذى يحصل فى تلك الليلة وكان المعز لما قدم الى مصر ورأى ما يحصل فى ليلة الغطاس من المفاسد العظيمة أمر بابطال ذلك واستمر ذلك باطلا من سنة اثنتين وستين وثلثمائة الى سنة خمس عشرة وأربعمائة فأمر الخليفة الظاهر باعادة ذلك حتى يتفرج عليه قال المسبحى ان فى الدولة الفاطمية كان رؤساء القبط يضربون فى يوم خميس العدس خراريب من ذهب ويفرقونها على أرباب الدولة برسم التبرك وكانوا يضربون من هذه الخراريب نحو خمسمائة مثقال فبطل ذلك جميعه من مصر من جملة ما بطل من القواعد القديمة واستمر الخليفة الظاهر لدين الله فى الخلافة بمصر حتى توفى وكانت وفاته فى يوم الاحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة وكانت مدة خلافته بمصر (١) عشر سنين وتسعة أشهر ولما مات الظاهر لدين الله تولى من بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد انتهى ما أوردناه من أخبار الخليفة الظاهر لدين الله وذلك على سبيل الاختصار من أخباره

ذكر خلافة المستنصر بالله أبى تميم

معد ابن الظاهر لدين الله على بن منصور الحاكم بامر الله وهو الخامس من بنى عبيد الله الفاطمى بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر لدين الله فى يوم الاحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة فتولى الخلافة بمصر وله من العمر سبع سنين وعشرون يوما وكان مولده بالقاهرة فى سنة ثمان عشرة وأربعمائة (٢) وهو الذى خطب له البساسيرى على منابر بغداد مع وجود خلفاء بنى العباس وهذا لم يقع لاحد من أقاربه من خلفاء بنى عبيد الله ولما تم أمره فى الخلافة استقر بالحسن بن على البازورى وزيرا وهو الذى جمع بين الوزارة وقضاية القضاة الشافعية ولم تقع هذه لمن قبله من الوزراء فلما مات البازورى

(١) الذى فى المقريزى ان مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما وهو الصواب
(٢) فى المقريزى انه ولد فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٤٢٠

استقر بأبي نصر العلاجي و زيرا فقبض أبو نصر العلاجي على ابن الانباري و زير الحاكم بأمر الله فاعتقله بخزانة البنود وصادره وأخذ جميع أمواله ثم قطع رأسه ودفنها بخزانة البنود فما مضى قليل حتى قبض المستنصر على أبي نصر العلاجي واعتقله في خزانة البنود وصادره وأخذ أمواله وأمر بقطع رأسه فلما أرادوا أن يحفروا لابي نصر العلاجي في خزانة البنود ليواروا رأسه فيها ظهر من تلك الحفرة رأس فسألوا العلاجي عن ذلك فقال هذا رأس ابن الانباري وأنا قتلته ودفنته في هذه الحفرة ثم أنشد يقول

رب لحد قد صار لحدا مرارا * ضاحكا من تزاحم الاضداد

فقطعوا رأس العلاجي ودفنوها على رأس ابن الانباري والجزاء من جنس العمل انتهى ذلك (ومن الحوادث) في زمن المستنصر بالله انه في سنة احدى وخمسين وأربعمائة وقع الغلاء العظيم بمصر فكان يعادل الغلاء الذى وقع في زمن يوسف عليه الصلاة والسلام وقد أقام هذا الغلاء بمصر سبع سنين متوالية والنيل في تلك السنين لم يبلغ في الزيادة الا اثني عشر ذراعا واحد عشر اصبعا وكان القاع ثلاثة أذرع واحد عشر اصبعا ففي هذه المدة أكلت الناس بعضها بعضا وبيع فيها القمح بثمانين دينارا كل إردب وبمائة وعشرين دينارا كل إردب ثم اشتد الامر حتى بيع كل رغيف في زقاق القناديل بخمسة عشر دينارا وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنانير وبيع كل قط بثلاثة دنانير وقيل كان الكلب يدخل الى الدار فيأكل الطفل الصغير وهو في المهد وأمه وأبوه ينظران اليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع وعدم القوة ثم اشتد الامر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس وصار الناس في الطرقات اذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكله وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب فاذا مر بهم أحد من الناس ألقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب في أسرع وقت فاذا صار عندهم ذبحوه في الحال وأكلوه بعظامه وقيل ان الوزير ركب يوما على بغلة ودخل الى دار الخلافة فلما نزل عنها أخذت من غلمانه وأكلت في الحال فأمسكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم وعلقوهم على الخشب فلما باتوا أصبحوا لم يجدوا أحدا من المشانيق وقد أكلوا من فوق الخشب ولم يبق منهم غير العظام على الارض قال المسبحي في تاريخه كان بمدينة الفسطاط حارة تسمى حارة الطبق وكان فيها نحو عشرين دارا كل دار تساوى في الثمن ألف دينار فبيعت بيوت هذه الحارة كلها بطبق من الخبز كل دار برغيف فسميت من يومئذ حارة الطبق وقال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى خرجت امرأة من مدينة الفسطاط ومعها ربع من اللؤلؤ الكبار وقالت من يأخذ مني هذا اللؤلؤ ويعطيني عوضه قمحا فلم تجد

من يأخذ منها ذلك اللؤلؤ ويعطيها عوضه قمحا فلما أعيت من ذلك ألقته على الارض وقالت
اذا لم تنفعني وقت الحاجة فلا حاجة لي بك ثم تركته ومضت فأقام ذلك اللؤلؤ مرميا على
الارض ثلاثة أيام ولم يوجد من يلتقطه وكان كل أحد من الناس مشغولا بنفسه عن كل شئ
وقال عبد الله بن عبد الحكم ان امرأة من ذوى البيوت أخذت عقدا من الجواهر قيمته
ألف دينار فعرضته على جماعة من الناس في أن يعطوها عوضه دقيقا فصار كل واحد من
الناس يعتذر لها في عدم الدقيق ثم ان بعض الناس عطف عليها وباعها بذلك العقد دقيقا
فأخذته في تليس وخرجت به من مدينة الفسطاط تريد القاهرة فلما ان وصلت به الى باب
زويلة تكاثرت عليها الناس فانتهبوا ما كان معها من الدقيق فأخذت منه بجملة الناس ملء
يديها دقيقا فلما وصلت به الى بيتها عجنته رغيفا وخبزته فلما خرج من الفرن أخذته على
جريدة وتوجهت الى قصر الزمرذ ووقفت تحته ونادت بأعلى صوتها ورفعت الرغيف
وقالت يا أهل القاهرة ادعوا بالنصر لامير المؤمنين المستنصر بالله الذى أكلنا الرغيف
في أيامه بألف دينار فلما ان سمع المستنصر ذلك قاردمه وأحضر الوزير والحاجب وهددهما
بالشنق وقال ان لم يظهر الخبز في الاسواق والا شنقتكما على باب المدينة فنزلا من عنده
وصارا يكبسان على البيوت والحارات بسبب القمح حتى ظهر الخبز في الاسواق وكثر على
الدكاكين قال المسبحي لما جاء هذا الغلاء العظيم جاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى فنى ثلثا
أهل مصر وصارت أراضى الناحية بائرة لم تزرع من عدم الرجال فكان الجندى يخرج
بنفسه هو وجماعته يحرثون ويزرعون في البلاد لعدم الفلاحين وقيل كان الرجل يمشى من
جامع ابن طولون الى باب زويلة لا يرى في وجهه انسانا يمشى في الاسواق قال المسعودى ان
الخليفة المستنصر بالله لما تعطلت البلاد بموت الفلاحين تعطل الخراج على الجند فأخرج
ما في خزائنه من القماش والسلاح والتحف فكان يبيعها بأرخص ثمن حتى يرضى الجند
قيل باع ثمانين ألف قطعة من الجواهر الفاخرة وباع خمسة وسبعين ألف شقة حرير من
أنواع الديباج المذهب وباع عشرين ألف سيف مسقطة بالذهب وباع احدى وعشرين
ألف ضيعة وعشرين ألف دار حتى باع رخام قبور أجداده الخلفاء ولم يبق عنده من
آثار النعمة شيأ سوى سجادة رومية وقبقاب في رجله فكان اذا نزل من قصره يستعير من
الوزير بغلته حتى يركبها ويقضى أشغاله ثم يعيدها الى الوزير وكانت أخته ترسل اليه في
كل يوم زبدية فيها طعام يقتات به في كل يوم وليلة مرة واحدة ومات جميع غلمانه وعبيده
وجواريه ولم يبق عنده أحد من العيال يخدمه وانكشف حاله الى الغاية وجرى عليه
ما لا يجرى على أحد من أقاربه من سوء الحال فأقام على ذلك مدة ثم تراجعت الاحوال
قليلا قليلا وانصلحت أحوال الديار المصرية وانحط سعر القمح وبقية الغلال ووقع

الرخاء ووردت الاموال من البلاد الى المستنصر وحسنت أوقاته وصفا له الوقت بمصر وطالت أيامه فى الخلافة ونسى ما قد جرى عليه من ضيق الحال والمشقات وكان كما قال القائل فى المعنى

الدهر لا يبقى على حالة * لا بد أن يقبل أو يدبرا
فان تلقاك بمكروهه * فاصبر فان الدهر لن يصبرا

واستمر الخليفة المستنصر فى الخلافة بمصر حتى توفى وكانت وفاته فى يوم الخميس ثانى عشر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة ومات وله من العمر نحو ثمان وستين سنة وتولى الخلافة وهو ابن سبع سنين وكانت مدته فى الخلافة ستين سنة وأربعة شهور وهذه المدة لم تتفق لأحد قبله من الخلفاء الفاطميين ولا العباسيين لكنه قاسى فى هذه المدة مشقات عظيمة شديدة كما قيل فى المعنى والامثال من أراد البقاء فى الدنيا فليوطن نفسه على المصائب انتهى ما أوردناه من أخبار المستنصر بالله وذلك على سبيل الاختصار ولما مات المستنصر تولى من بعده ابنه أحمد المستعلى بالله والله سبحانه وتعالى أعلم

ذكر خلافة المستعلى بالله أحمد بن المستنصر بالله

ابن الظاهر بن الحاكم وهو السادس من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر بالله فى ثانى عشر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة ومن الحوادث فى أيامه أن الفرنج استولوا على بيت المقدس وملكوه وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين وأسروا من الباقى نحو ألف انسان وذلك فى سنة احدى وتسعين وأربعمائة وأخذوا من قبة الصخرة أربعين قنديلا من الذهب والفضة وزن كل قنديل ألف درهم من الفضة وأخذوا التنور النحاس الكبير وأقاموا ساكنين بيت المقدس نحو ثلاث سنين وفى أيام المستعلى كسفت الشمس وغاب جميعها وأظلمت الدنيا حتى ظهرت النجوم وقت الظهر وأقامت على ذلك الى آخر النهار حتى انجلت واستمر المستعلى فى الخلافة بمصر الى أن مرض ومات فكانت وفاته فى يوم الثلاثاء تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة وكانت مدة خلافته بمصر سبع سنين وشهرين ولما مات تولى من بعده ابنه الآمر باحكام الله انتهى ما أوردناه من أخبار المستعلى بالله وذلك على سبيل الاختصار

ذكر خلافة الآمر بأحكام الله أبى على المنصور

ابن المستعلى بالله أحمد وهو السابع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى بويع بالخلافة بعد

موت أبيه المستعلي بالله في تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ولما أن تولى الخلافة
بمصر طاش وسار في الناس أقبح سيرة وصار يتجاهر بالمنكرات واشتغل باللهو والطرب
وشرب الخمر فاضطربت أحوال الديار المصرية في أيامه وجاءت الاخبار بأن الفرنج
استولوا على مدينة عكا وطرابلس ونابلس وغير ذلك من أعمال البلاد الشامية وأشرفوا
على أخذ الديار المصرية ووصلوا الى العريش وكان ملك الفرنج يسمى بردويل فلما
وصل الى العريش مرض هناك مرضا شديدا ومات فكتم أصحابه موته خوفا من
المسلمين وشقوا بطنه ورموا مصارينه ثم دفنوها بالعريش وقد صار الناس الى
الآن كلما مروا بالعريش رجموا ذلك المكان الذى دفنت فيه مصارين بردويل ويسمى
الى اليوم سبخة بردويل وأما جثته فحملت الى القمامة التى ببيت المقدس ودفنت
هناك وفى أيامه وقع الغلاء بمصر وتناهى سعر القمح الى ثلاثين دينارا ثمن الاردب الواحد
فأقام الامر على ذلك نحو ستة أشهر وتراجع الأمر قليلا قليلا وانحط سعر القمح عن
ذلك القدر وكثرت الغلال فى العرصات وكان القائم بتدبير أمور الديار المصرية المأمون
البطايحي الوزير فساس الناس فى هذه الغلوة أحسن سياسة ولم يحصل فى الديار المصرية
من الاضطراب كما حصل فى أيام المستنصر مما تقدم ذكره (قيل) هجم رجل فى زمان الغلاء
على بعض المغاربة وهو يأكل فى رغيف فلما رآه ستر الرغيف منه فقال له ذلك الرجل
أما سمعت الحديث طعام واحد يكفي اثنين فقال له المغربي ذلك فى ضوء السراج اذا كان
لواحد يكفي جماعة وأما فى هذا الرغيف فلا أطعمك منه لقمة فمضى عنه الرجل ولم
يطعمه شيأ وسبب هذا الغلاء أن النيل بلغ فى الزيادة الى خمسة عشر ذراعا وأصبعا ثم
هبط فشرقت البلاد وحصل للناس الضرر الشامل ورسم الخليفة للبطرك بأن يتوجه
الى بلاد الحبشة بسبب توقف النيل ولم يفد توجه البطرك شيأ وفى سنة اثنتى عشرة
وخمسمائة ابتدأ الآمر بأحكام الله فى عمارة جامعه الذى بناه عند سوق مرجوش
المسمى بجامع الاقمر وأنفق على بنائه مائتى ألف دينار وكان له صهريج يمتلئ من
مسارب الخليج الحاكمى وفى سنة تسع عشرة وخمسمائة قبض الآمر على الوزير المأمون
البطايحي وقتله ثم صلبه واحتاط على موجوده فظهر له من الاموال مالا يحصى فى ذلك
مائة صندوق ما بين ذهب عين ودراهم فضة وجواهر فاخرة ووجد عنده مائة بكرنية
مملوءة من الكافور العنصورى وهذا الصنف عزيز الوجود ووجد عنده ثلثمائة
صندوق فيها قماش جميعه ما بين حرير وصوف ودق تنيس ودمياط ووجد عنده من
العود القمارى مائة من وأشياء كثيرة لا تنحصر فحمل ذلك الى قصر الخلافة فلما قتل
الآمر الوزير البطايحي لم يقم بعده الا مدة يسيرة وقتل الآخر وكان سبب قتله أنه توجه

الى بر الروضة على سبيل التنزه فأقام هناك يوما وليلة فلما رجع الى القاهرة مر على جسر الروضة الذى كان بالقرب من الجزيرة الوسطى فلما عبر على الجسر وثب عليه جماعة من العبيد السود فضربوه بالسكاكين تحت الليل وكان سكران فوقع عن فرسه فحملوه الى القاهرة وطلعوا به الى قصره فمات من وقته فكانت وفاته فى ليلة الثلاثاء العشرين من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة من الهجرة وكانت مدة خلافته بمصر نحو تسع وعشرين سنة وشهرين ومات عن غير ولد فتولى من بعده ابن عمه المستنصر بالله انتهى ما أوردناه من أخبار الآمر بأحكام الله وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر خلافة أبى الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله

ابن المستنصر بالله وهو الثامن من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى بويع بالخلافة بعد قتل الآمر بأحكام الله وكان الحافظ لدين الله رجلا حليما لين الجانب قليل الأذى فطمعت فيه الرعية واضطربت فى أيامه أحوال الديار المصرية واستولت الفرنج على البلاد وكثر منهم الفساد وطمع الفلاحون فى أهل مصر وامتنعوا من وزن الخراج وتعطل الامر وماراج قال الشيخ شمس الدين الذهبى ان الشيخ أبا عبد الله الاندلسى دخل الى مصر فى أيام الخليفة الحافظ وكان الشيخ أبو عبد الله له يد طائلة فى علم السيمياء فأحضره الحافظ بين يديه وقال له أرنا شيأ من علم السيمياء فامتنع من ذلك فالح عليه فأراه ساحة القصر كأنها لجة ماء وفيها سفينة كبيرة وحولها شوانى حربية فوقع بينهما الحرب والقتال فكانت بينهم السيوف تلمع وسحائب القسى تمطر والبنود تخفق والرؤس تهدر والدماء تسيل فلا يشك الناظر فى حقيقة ذلك ثم ان أصحاب السفينة سلموا الى أصحاب الشوانى فساروا بها والطبول تضرب والبوقات ترعق حتى غابوا عن الابصار ثم ذهبت تلك اللجة الماء التى كانت فى القصر بأمواج تتلاطم كالجبال فلما رأى الحافظ ذلك تعجب منه وكان حوله جماعة من خواصه فأشاروا عليه بقتل الشيخ أبى عبد الله وقالوا هذا يفسد عقول الناس فلم يوافقهم الحافظ على قتله ثم قال للشيخ أرنى شيأ فى هؤلاء الذين قد أشاروا بقتلك فقال له الشيخ مرهم يمضوا الى منازلهم فقال الحافظ لمن حوله انصرفوا الى منازلكم فلما انصرفوا صار كل من يركب دابته يراها فى صفة الثور العظيم ولها فى رأسها قرون طوال فتحيروا فى ذلك ورجعوا الى الحافظ وذكروا له ماجرى لهم فى دوابهم فضحك وقال لهم افدوا دوابكم منه فما منهم الامن أعطاه شيأ حتى أطلق لهم دوابهم قيل ان الحافظ كان يشتكى بألم القولنج فصنع له الحكيم شيرماه الديلمى طبلا من المعادن السبعة وهو مرصود فى وقت معلوم فكان من خاصية هذا الطبل اذا ضرب عليه أحد خرج منه ريح وهذه الفائدة كانت

لدفع القولنج وكان الحافظ يعتريه هذا المرض فصنع له ذلك الطبل بسبب القولنج قيل لما ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب أمرا الديار المصرية استعرض حواصل الخلفاء الفاطمية فوجد ذلك الطبل فى علبة فأخذه بعض الاكراد وضرب عليه بيده فخرج منه ريح فخنق من ذلك و رمى الطبل من يده على الارض فكسره فبطل فعله من حينئذ فندم على كسره صلاح الدين يوسف غاية الندم انتهى ذلك واستمر الحافظ بالخلافة بمصر حتى توفى فكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر ولما مات تولى من بعده ابنه الظافر بالله انتهى ما أوردناه من أخبار الحافظ لدين الله وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر خلافة الظافر بالله أبى المنصور اسمعيل

ابن الحافظ بن المستنصر بالله وهو التاسع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى بويع بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ وكان له من العمر لما ولى الخلافة سبع عشرة سنة وكان شابا جميل الصورة حسن الهيئة وكان يميل الى اللهو والطرب وشرب الراح وكان يهوى ابن وزيره عباس وينزل اليه ويبيت عنده فى غالب الاوقات وامتحن به غاية الامتحان قيل انه أهدى فى بعض الاوقات الى ابن الوزير صينية من ذهب فيها ألف حبة من اللؤلؤ الكبار وفصوص من الياقوت الاحمر والاصفر والزمرذ الذبانى وألف نافجة من المسك وعشرة آلاف دينار ومن العجائب أن الوزير عباسا وولده نصرا لم ينفع فيهما شئ من ذلك وقتلا الظافر عقيب ذلك كما سيأتى ذكره فى موضعه ومن الحوادث فى أيام الظافر ان فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة وقع وباء عظيم بين أرض الحجاز واليمن وكان بينهما نحو من عشرين قرية فدخل الوباء فى ثمانى عشرة قرية منها فأفناهم عن آخرهم حتى لم يبق منهم انسان فكانت مواشيهم سائبة لا مالك لها ولا يستطيع أحد من الناس أن يدخل الى تلك القرى وكل من دخل الى تلك القرى هلك من وقته بالطعن ومات وأما القريتان اللتان حول تلك القرى فاعمدهما شعور بما جرى على من حولهما من القرى مما أصابهم من الفناء والطعن ولم يمت من هاتين القريتين طفل واحد فسبحان القادر على كل شئ ومن هنا نرجع الى أخبار الظافر بالله قيل كثر الكلام بين الناس فى حق الوزير عباس بسبب ابنه نصر فلما نزل الظافر الى بيت الوزير عباس على جرى عادته وبات عنده ندب اليه من قتله تحت الليل ورماه فى بئر فلما أصبح الوزير طلع الى دار الخلافة ودخل الى القصر فقال لبعض الخدام أين أمير المؤمنين فقال له الخدام ان ابنك نصرا يعرف أين هو ثم ان الوزير عباسا دخل الى دور الحرم وأخرج الامير عيسى بن الظافر وأحضر القضاة وأرباب الدولة وقال ان أمير المؤمنين

الظافر نزل البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق ومات والرأى عندى أن تولى الامير عيسى الخلافة عوضا عن أبيه الظافر ونلقبه بالفائز بنصر الله وتراضوا على ذلك ثم بعد ذلك شاع بين الناس أن الوزير عباسا قد قتل الظافر فانقلبت الجند على الوزير عباس بسبب ذلك وكانت قتلة الظافر فى ليلة الاحد ثانى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة من الهجرة وكانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأياما (أقول) والظافر هذا هو الذى بنى الجامع المعروف الآن بجامع الفاكهانى وهو بالقرب من الشوايين انتهى ما أوردناه من أخبار الظافر بالله وذلك على سبيل الاختصار

ذكر خلافة الفائز بنصر الله أبى القاسم عيسى

ابن الظافر بن الحافظ بن المستنصر وهو العاشر من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى بويع بالخلافة بعد قتل أبيه الظافر بالله وكان سبب بيعته ان الوزير عباسا لما قتل الظافر طلع الى القصر وأحضر القضاة والشهود وقال لهم أن الظافر نزل البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق ثم هجم الوزير على ابن الظافر وهو فى دور الحرم وأخذه من عند أمه وحمله على كتفه ففزع منه واضطرب وكان له من العمر ست سنين فاحضره بين القضاة وولاه الخلافة واستمرت معه الطريبة عمالة حتى كبر ومات بعد مدة وهو يضطرب فى كل وقت فلما تم أمره فى الخلافة وأطاعه الجند صار يخشى من الوزير عباس ولا يقر له قرار فاستعان على قتله بشخص يسمى طلائع بن رزيك وكان متوليا على منية ابن خصيب فجمع عسكرا عظيما من العربان وقصد التوجه الى القاهرة فلما بلغ الوزير عباسا ذلك أخذ ما قدر عليه من الاموال والتحف وهرب نحو البلاد هو وولده نصر فكان كما قيل

حكى غراب البين فى شؤمه * لكن اذا جئنا الى الحق زاغ

فبينما هو فى أثناء الطريق اذ خرجت عليه طائفة من الفرنج فأسروه وأخذوا ما كان معه من الاموال والتحف فلما جاءت الاخبار بذلك الى القاهرة احتاط الفائز على موجود الوزير عباس جميعه وولى الوزارة طلائع بن رزيك عوضا عن عباس فخلع عليه وتلقب بالصالح بالله فاطاعه الجند وأحبوه وكانت له حرمة وافرة فى القاهرة وهو الذى بنى الجامع المنسوب اليه المشهور بجامع الصالح الذى هو خارج باب زويله وكانت الوزراء تتلقب يومئذ كالقاب الخلفاء ثم ان الصالح هذا أرسل الى طائفة الفرنج الذين أسروا الوزير عباسا يطلبه منهم وأرسل اليهم هدية ومالا نحو عشرة آلاف دينار فلما وصل ذلك الى الفرنج أرسلوا الوزير عباسا وولده نصرا الى الصالح وهما فى الحديد فلما دخلوا القاهرة كان يومهم يوما مشهودا لم يسمع بمثله فأمر الفائز بأن يصلب الوزير عباس وولده نصر على باب القصر فصلبا وأخذ

الفائز بثأر أبيه الظافر قبل العصر فكان كما قيل في الأمثال الموت في طلب الثار خير من الحياة في العار وفي أيام الفائز هذا نقلت رأس الحسين رضي الله عنه من عسقلان الى القاهرة وذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة وسبب ذلك ان رأس الحسين كانت بعسقلان فلما تولى الفرنج على عسقلان خاف المسلمون على رأس الحسين فاحضروها الى القاهرة في علبة وبنى لها الفائز هذا المشهد ودفنها به قيل ان رأس الحسين نقلت الى ثلاث أماكن قبل أن تحضر الى القاهرة بمدة وفي أيام الفائز استعرضت عساكر القاهرة فكانت نحو خمسين ألف مقاتل على أجناس مختلفة وكان بمراكبه عشر مراكب مشحونة بالرجال والسلاح بسبب الجهاد وهذا مع وجود تلاشي أمر الخلفاء الفاطمية وضعف شوكتهم واستمر الفائز في الخلافة بمصر حتى مرض ومات وكانت وفاته في يوم الجمعة سابع رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة وتوفي وله من العمر احدى عشرة سنة وأشهر ومات بالطعن وكانت مدة خلافته بمصر خمس سنين وأشهرا ولما مات تولى من بعده ابن عمه عبد الله العاضد بالله انتهى ما أوردناه من أخبار الفائز بنصر الله وذلك على سبيل الاختصار

ذكر خلافة العاضد بالله أبي محمد عبد الله بن الحافظ ابن المستنصر

وهو الحادي عشر من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي بويع بالخلافة بعد موت ابن عمه الفائز في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة قيل ان الخليفة المعز لما قدم الى الديار المصرية قال لبعض علماء مصر اكتب لنا ألقابا تصلح للخلافة حتى اذا تولى منا أحد تلقب بها فكتب له ألقابا كثيرة آخرها العاضد بالله فاتفق ان آخر من تولى منهم تلقب بالعاضد بالله وبه انقرضت دولتهم ولم يكن لهم من المساوى سوى أنهم كانوا رافضة يسبون الصحابة في كل جمعة على المنابر ولما أن تولى العاضد استمر الصالح وزيرا فاقام على ذلك مدة ومات فتولى عوضه في الوزارة شاور بن مجير السعدي ۞ ومن الحوادث في أيام العاضد أن الفرنج استولوا على الديار المصرية ودخلوا بمراكبهم الى بحر النيل ونزلوا على مدينة الفسطاط التي تقدم ذكرها لانها كانت بالقرب من بركة الحبش من الرصد فاحاطت عساكر الفرنج بمدينة الفسطاط وأشرفوا على أخذها وكان ملك الفرنج يسمى مرى وكان معه نحو سبعين مركبا مشحونة بالمقاتلين فلما رأى الخليفة العاضد عين الغلب وصار الفرنج يأسرون جماعة من المسلمين وينهبون أموالهم وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموال الاجزيلة وأخذوا في أسباب جبايتها فعند ذلك أشار الوزير على الخليفة بحرق

مدينة الفسطاط خوفا من الفرنج أن يملكوها فاذن له الخليفة فى حرقها فجمع الوزير العبيد
وأحرقوها وكانت هذه المدينة من أجل المدائن وقد أنشاها عمرو بن العاص فى مبتدا
الاسلام عند فتح مصر وقد تقدم ذكر ذلك عند فتوح مصر فلما قدم المعز من الغرب وبنى
القاهرة تلاشى أمر مدينة الفسطاط وكانت القاهرة فى غاية العمارة والتحصين فلما أحرقت
مدينة الفسطاط تحوّل الناس الى القاهرة قيل بلغ كراء الجمل من مدينة الفسطاط الى
القاهرة عشرة دنانير كل نقلة وصارت النار عمالة فى مدينة الفسطاط أحدا وخمسين يوما
حتى صار الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام فلما رأى الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر قال
عبد الله بن عبد الحكم وكان ذلك سببا لخراب مدينة الفسطاط وصارت من يومئذ كيمانا
يوجد فيها الاعمدة الرخام الابيض الى الآن وكان أولها من حدرة ابن قميحة وآخرها عند
الرصد وكان حرقها وخرابها فى سنة أربع وستين وخمسمائة وقال ابن المتوج ان الخليفة
العاضد لما استولى عمرى ملك الفرنج على مصر أرسل العاضد الى الملك العادل نور الدين
الشهيد صاحب دمشق بأن يرسل الى أهل مصر نجدة ويدركهم قبل أن تملك الفرنج المدينة
فأرسل نور الدين الشهيد الى مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب هو واخوته فلما قدموا الى
مصر تسامع بهم الفرنج فرحلوا عن مصر ولما رحلوا قويت شوكة بنى أيوب بمصر فخاف
منهم العاضد فخلع الوزير شاور بن مجير الدين السعدى من الوزارة وولى أسد الدين شيركوه
أخا أيوب عم صلاح الدين يوسف عوضا عن السعدى ثم ان أسد الدين صلب الوزير ابن مجير
الدين السعدى على باب القاهرة لكونه أشار بحرق مدينة الفسطاط ثم ان أسد الدين لما تم
أمره فى الوزارة تلقب بالمنصور وكانت الوزراء تتلقب بمثل ألقاب الخلفاء فلما تولى الوزارة
أقام حرمة مصر الى الغاية وهابه الناس فاقام فى الوزارة مدة يسيرة ومات فجأة على حين
غفلة فلما مات أسد الدين شيركوه تولى من بعده الوزارة صلاح الدين يوسف بن أيوب
وتلقب بالناصر فلما تولى صلاح الدين بن أيوب على مصر ضعفت شوكة الخليفة العاضد
ومالت الجند الى صلاح الدين يوسف ثم ان نور الدين الشهيد أرسل يقول له اقطع الخطبة
من مصر عن اسم العاضد فلما قطع الخطبة عن اسمه حصل له قهر عظيم وصار مع صلاح
الدين كالمحجور عليه لا يتصرف فى الامور الا بعد مشورة صلاح الدين فما أطاق العاضد ذلك
فقيل انه ابتلع فص ألماس فمات من يومه وكانت وفاته فى يوم الاثنين عاشر المحرم سنة سبع
وستين وخمسمائة من الهجرة وكانت مدة خلافته بمصر اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وأياما
وبه انقطعت دولة بنى عبيد الله الفاطمى عن الخلافة بمصر انتهى ما أوردناه من أخبار
العاضد وبه ختمت أخبار الخلفاء الفاطمية من بنى عبيد الله وذلك على سبيل الاختصار
وقد قامت دولة الخلفاء الفاطمية بمصر مائتين وثمانيا وستين سنة

ذكر

ذكر ابتداء دولة الاكراد من بنى أيوب

كان أولهم الملك الناصر أبا المظفر يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان الكردى وكان أصلهم من أذربيجان من بلاد الكرج ولكن أصلهم أكراد وكان مولد صلاح الدين يوسف بقلعة تكريت فى سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وكان أبوه أيوب فى خدمة زنكى أبى نور الدين الشهيد فلما توفى زنكى صار أيوب وأولاده فى خدمة نور الدين الشهيد ثم ارتقى نور الدين حتى بقى صاحب البلاد الشامية فلما تلاشى أمر الخليفة العاضد واستولت الفرنج على الديار المصرية أرسل يطلب من نور الدين الشهيد نجدة بسبب الفرنج فأرسل اليه أسد الدين شيركوه أخا أيوب عم صلاح الدين يوسف فلما توفى أسد الدين تولى من بعده فى الوزارة أيام العاضد صلاح الدين يوسف فلما توفى العاضد تولى من بعده على مصر صلاح الدين يوسف نيابة عن نور الدين الشهيد بتقليد منه وكان سبب موت العاضد أن نور الدين الشهيد لما أرسل الى صلاح الدين يقول له اقطع الخطبة عن اسم العاضد بالله أرسل صلاح الدين يقول لنور الدين الشهيد ان أهل مصر لا يطاوعونى على ذلك وأخشى أن يثبوا علىّ بسبب ذلك فأرسل نور الدين الشهيد يقول لصلاح الدين ثانيا لا بد من ذلك فلما رأى صلاح الدين أن نور الدين الشهيد مصمم على ذلك جمع أعيان أهل مصر وذكر لهم ما قاله نور الدين الشهيد فقالوا له وكيف يكون ذلك فقال شخص من أبناء العجم يسمى الامين وكان من أهل العلم أنا أفتح لكم باب هذا الامر فلما كان يوم الجمعة ثانى المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة صعد ذلك الشخص الاعجمى الى المنبر قبل صلاة الجمعة ودعا الى الخليفة المستضىء بالله العباسى خليفة بغداد فلما صعد المنبر ودعا الى المستضىء لم يتكلم أحد من الناس ولا أنكروا فلما كان ثانى جمعة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا اسم الخليفة العاضد من الخطبة وأن يدعوا باسم الخليفة المستضىء بالله العباسى ففعلوا ذلك فلما بلغ العاضد ذلك انقهر وعمد الى فص من الالماس فابتلعه فمات من يومه ودفن فكانت وفاته فى عاشر المحرم كما تقدم فلما مات العاضد أرسل نور الدين الشهيد الى صلاح الدين تقليدا بولاية مصر نيابة عنه قيل لما استولى صلاح الدين يوسف على حواصل الخلفاء الفاطمية استعرض ما فيها من السلاح والاموال فأرسل الى نور الدين ما استحسنه من السلاح الفاخر والتحف وصار بعد ذلك يبيع ما فضل من السلاح وغيره نحو عشر سنين غير ما اصطفاه لنفسه ثم ان صلاح الدين صار مستوليا على مصر نيابة عن نور الدين الشهيد حتى توفى نور الدين محمود بن زنكى وكانت وفاته فى سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بدمشق فى جامع الكلاسة وكان يلقب بالملك العادل وهو المجاهد المرابط فاتح بيت المقدس من أيدى الفرنج وفاتح الثغور الاسلامية من البلاد الشامية وهو الذى تعصب لبنى العباس ورد لهم الخطبة

بمصر وأعمالها وأبطل ما كان يخطب باسم الفاطمية انتهى ذلك (قال الهروى) ان فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة انخسفت المغارة المدفون فيها ابراهيم الخليل عليه السلام فنزل اليها جماعة فوجدوا فيها ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام وقد بليت أكفانهم وهم مستندون الى حائط المغارة وعلى رؤسهم قناديل من ذهب وفضة فلما بلغ نور الدين ذلك أمر بان تجدد لهم أكفان جدد وأن يسد عليهم ما انخسف من المغارة فلما توفى نور الدين الشهيد انفرد صلاح الدين يوسف بمملكة الديار المصرية والبلاد الشامية وصفا له الوقت فأزال ما كان بمصر من العساكر الملفقة وكانوا ما بين صقالبة وكدانة ومصامدة وأرمن وشنانرة العرب والعبيد السود فمحا تلك الطوائف جميعها واتخذ بمصر عساكر من الاكراد خاصة فكان عدتهم اثنى عشر ألف فارس من شجعان الرجال الذين لا يكلون من الحروب ثم ان صلاح الدين يوسف نظر فى أحوال الرعية وأمر باسقاط المكوس جميعها التى حدثت فى أيام الفاطمية وكتب بذلك مسامير بخط القاضى عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان الانشاء وقرئت على المنابر فى الجوامع بعد صلاة الجمعة وكان قدر ما أبطله من المكوس فى كل سنة ما ينوف عن مائة ألف دينار فلما قرئت تلك المسامير ضج له الناس بالدعاء وأحبته الرعية فكان كما قيل

دولته للأنام عيد * باق وأيامه مواسم

قد أظهر العدل فى الرعايا * وأبطل الجور والمظالم

هذا الذى عنه أخبرتنا * طوالع النجم والملاحم

يصير الشاة فى حماه * تمشى مع الذئب والضياغم

قال ابن الاثير لما كانت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أمر الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب ببناء سور القاهرة بالحجر الفص المنحوت وكان القائم على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الخصى الحبشى فأبطل السور القديم الذى كان قد بناه الامير جوهر القائد فى أيام المعز الفاطمى كما تقدم وكان جوهر القائد بنى السور أوّلا بالطوب اللبن فى سنة احدى وستين وثلثمائة عندما قدم من القيروان وآثار السور القديم باق عند الباب المحروق الى الآن قال ابن الاثير ان دور السور الذى بناه صلاح الدين يوسف تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثة آلاف ذراع بالعمل وجعل عليه هذه الابواب المصفحة بالحديد وكانت عدة أبواب القاهرة خمسة عشر بابا غير ما فى السور من الابواب الصغار وكان باب زويلة يسمى باب الفاضل وانما باب زويلة القديم الذى فى الغرابليين عند سام بن نوح وآثاره باقية الى الآن قال ابن الاثير ان صلاح الدين يوسف هو الذى بنى قلعة الجبل وصارت دار المملكة وبطل أمر قصر الزمرذ الذى كان فى القاهرة مكان دار الضرب ولكن مات صلاح الدين

ولم يتم بناء قلعة الجبل وانما أتم بناءها الملك الكامل محمد ابن أخي الملك الناصر صلاح الدين يوسف وهو أول من سكن بقلعة الجبل من بني أيوب * ومن النكت اللطيفة قيل كان بدمشق خان يسمى بخان ابن الزنجاري وكان يفعل فيه من أنواع الفسوق مالا يوصف شرحه فلما بلغ الملك الناصر صلاح الدين يوسف أخبار ذلك الخان أمر بهدمه فهدم وبني مكانه جامعا وسماه جامع التوبة وولى خطبته والامامة الى شخص يسمى العماد الواسطي وكان يتهم بشرب الراح وحب الملاح فكتب بعض اللطفاء قصيدة عن لسان حال هذا الجامع ورفعها الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف وكان شرح هذه القصة في هذه الابيات

يا مليكا أوضح الحق * لدينا وأبانه
جامع التوبة قد قلدني منه أمانه
قال قل للملك النا * صر أبقى الله شانه
يا صلاح الدين يامن * جدد الناس زمانه
لي خطيب واسطي * يعشق الشرب ديانه
ويحب المرد طبعا * ويغني بالجعانه
فانا في كل حال * لم أزل بالسكرخانه
فاستمع قصة حالي * زادك الله صيانه

فلما وقف صلاح الدين على هذه الابيات أمر بعزل العماد الواسطي عن خطبة الجامع وولى عليه شخصا من أهل الصلاح والخير انتهى ذلك قال المسبحي ان في أيام صلاح الدين يوسف نزل الفرنج على ثغر مدينة دمياط فخرج اليهم صلاح الدين في عساكر كثيرة من مصر وتوجه الى دمياط فتقاتل مع الفرنج أشد القتال وكانوا نحو مائتي مركب فاقام صلاح الدين يحاصر الفرنج على دمياط نحو خمسة وخمسين يوما فانكسر الفرنج وانهزموا نحو بلادهم مدبرين وانتصر عليهم صلاح الدين فلما رحل الفرنج الى بلادهم توجه صلاح الدين من هناك الى الشام فاقام بها مدة قيل لما دخل صلاح الدين الى دمشق نزل بالميدان الكبير فجاءت اليه أرباب الملاعب من المصارعين والمتأنقين وغير ذلك وكان فيما جاء اليه رجل أعجمي فتكلم معه بان يريه أعجوبة في صنعة الشعبذة فاذن له في ذلك فنصب خيمة لطيفة في الميدان بين يدي السلطان صلاح الدين وأخرج من كمه كبة خيط فربط طرف ذلك في يده ثم حذف تلك الكبة الخيط في الهواء ثم تعلق بها وصعد حتى غاب عن الابصار ثم سقطت بين الناس احدى رجليه وصارت تزحف على الارض حتى دخلت الى الخيمة ثم سقطت احدى يديه ودخلت الى الخيمة ثم سقطت اليد الاخرى ودخلت الى الخيمة ولم تزل اعضاؤه تتساقط عضوا بعد عضو حتى سقط الرأس وصار يزحف على الارض حتى

دخل الخيمة ثم بعد ساعة خرج ذلك الرجل وهو سوى كما كان يمشى على أقدامه فقبل الارض بين يدى الملك الناصر فبهت الناس من ذلك ثم ان الرجل دخل الخيمة ثانيا قدام الناس فقال رفيقه للحاضرين ادخلوا الخيمة فتشوا فيها فدخلوا الخيمة وفتشوا فيها فلم يجدوا فيها أحدا ثم فكوا الخيمة ونصبوها فى مكان آخر فخرج منها ذلك الرجل وهو يمشى على أقدامه كما دخل فتعجب منه الناس ومن كان حول الملك الناصر من الامراء ثم ان الامير سنقر الاخلاطى حنق من ذلك الرجل الذى صنع هذه الشعبذة فقام اليه بالسيف وضرب عنقه بين الناس وقال للملك الناصر ان مثل هذا لا يؤمن ان يكون جاسوسا من عند أحد من الفرنج ثم أراد الامير سنقر ان يقتل رفيقه فاستجار بالملك الناصر وزعم انه لا يعرف شيأ مما كان يعمله رفيقه فقال له الملك الناصر أخرج من دمشق فى هذه الساعة ولا تقم بها فيقتلوك فخرج من وقته انتهى ذلك قال ابن كثير ان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب هو أول من قرر الخدام الخصيان بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن بها أحد من الخدام قبل ذلك وكان سبب تقريره للخدام ان بنى حسن لما تغلبوا على الخلفاء الفاطمية وأظهروا العصيان وصاروا يجهرون عند الاذان بقولهم حى على خير العمل وهو مذهب الشيعة فلما تولى مصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب استمال بنى حسن وأغدق عليهم بالاموال والهدايا حتى أذنوا له ان يجعل على المدينة الشريفة جماعة من قبله فقرر بالمدينة الشريفة أربعة وعشرين خادما خصيا وجعل عليهم شيخا من الخدام يقال له بدر الدين الاسدى ووقف على مجارى المدينة الشريفة بلدين من أعمال الصعيد وهما نقاده وقباله وهما الى الآن جاريان فى أوقاف الحرمين وكان شيخ الحرم النبوى اذا قدم من المدينة على الملوك يقومون له ويجلسونه الى جانبهم ويتبركون به لقرب عهده من تلك الاماكن الشريفة واستمر الامر على ذلك الى أيام الملك الاشرف برسباى ﴿ ومما أنشأه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالديار المصرية من آثار الخير خانقاه سعيد السعداء التى بالقرب من باب النصر وانشأ المدرسة السيوفية التى بالقرب من باب الزهومة وأنشأ مارستانا كان عند دار الضرب القديم وأنشأ المدرسة التى بجوار الامام الشافعى وكانت ساحة وهو الذى أقام بمعبد السادة الشافعية وقدمهم على غيرهم من المذاهب وأنشأ المدرسة الصلاحية التى بالقدس الشريف عندما استخلص بيت المقدس من يد الفرنج وله غير ذلك من الآثار الحسنة أشياء كثيرة بالديار المصرية والبلاد الشامية واستخلص بلادا كثيرة كانت تحت يد الفرنج من البلاد الاسلامية واستمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف قائما بامور الديار المصرية حتى سافر الى البلاد الشامية فى أواخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة فلما دخل الى الشام أقام بها مدة يسيرة ومرض ومات وكانت

وفاته فى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ومات وله من العمر احدى وسبعون سنة ولما مات دفن بدمشق بمدرسة مجاهد الدين وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية أربعة وعشرين سنة بما فيها من أيام محمود بن زنكى الشهيد ولما مات صلاح الدين يوسف خلف من الاولاد سبعة عشر ولدا ذكرا من صلبه ولم يخلف فى خزائنه لا ذهبا ولا فضة ولم يخلف قرية ولا بستانا ولا ملكا ولا ضيعة وأنفذ جميع ما فى الخزائن على التجاريد والغزوات حتى فتح البلاد التى كانت بيد الفرنج ولما مات تولى من بعده ابنه العزيز عثمان انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك العزيز بالله عماد الدين أبى الفتح

عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو الثانى من ملوك بنى أيوب بمصر بويع له بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بعهد من أبيه له وكان أصغر اخوته وكان أخوه الافضل أكبر منه فلما توفى الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ولى ابنه الافضل على دمشق وولى ابنه المظفر غازى على حلب وولى ابنه العزيز عثمان على مصر وكان مولد العزيز بمصر فى جمادى الاولى سنة سبع وستين وخمسمائة وولى ملك مصر وله من العمر نحو سبعة وعشرين سنة فلما مات أبوهم صلاح الدين وقع الخلف بين الاخوة ووثبوا على بعضهم ولم يقنع أحد منهم بما هو فيه فحصل بينهم من الفتن والحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق وجلس على سرير الملك لم يمش على طريقة والده الملك الناصر صلاح الدين وسار مع الناس فى مصر أقبح سيرة وقد أخطأت فيه فراسة أبيه الناصر بما كان يرجوه فيه فكان كما قيل فى المعنى

أملتهم ثم تأملتهم * فلاح لى ان ليس فيهم فلاح
طال وقوفى بفنا رءبهم * بغير نفع فار واح الرواح

فأعاد المكوس التى كان أبطلها أبوه صلاح الدين وزاد فى شناعتها وتجاهر بالمعاصى والمنكرات حتى غلا سعر العنب فى أيامه لكثرة من يعصره وحملت أوانى الخمر جهارا من غير انكار وحميت بيوت المزارة وأماكن الحشيش وأباح ذلك أرباب الامر والنهى وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة حتى صار يأخذ من أرباب هذه الجهات فى كل يوم ستة عشر دينارا حماية للسلطان فلم يقدر أحد أن يعارض أماكن الفسوق فى أيامه فيما يفعلون وصارت طاحون الحشيش عمالة فى كل يوم فى حارة المصامدة وكذلك بيوت المزرفى

الكبش فى مكان يقال له الغور قال القاضى الفاضل ان فى أيام الملك العزيز هذا وقع غلاء بسبب توقف النيل وتشحطت الغلال فى وقت ميسورها والقمح فى الجرون واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق ۞ ومن الحوادث فى أيامه ان دارا كانت فى فم السد تعرف بدار ابن مقشر وكان يحصل فى أجرتها فى اليوم والليلة مالا يحصل من أجرة مثلها فى مدة سنة كاملة وذلك بسبب الفرجة يوم فتح السد اذا أوفى النيل فلما أن كانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة أوفى النيل على جرى عادته فأكرت الناس تلك الاماكن التى فى دار ابن مقشر بسبب الفرجة حتى مابقى فيها مايسع قدم انسان فبينما الناس محتبكة بها للفرجة اذ سقطت تلك الدار على من فيها من الناس فماتوا جميعا وكان بها ماينوف عن خمسمائة نفس من نساء ورجال وصغار وكبار فأقاموا يستخرجون من فيها من الاموات ثلاثة أيام فوجدوا بها شخصا يعرف بابى البقا وفيه بعض نفس فطلع من تحت الردم وقد كاد ان يفارق الدنيا فلما شم الهواء عوفى وعاش بعد ذلك مدة طويلة ثم طلع الى سطح داره فى بعض الايام ونزل وهو مستعجل فزلت رجله من ثلاث درج من سلم السطح فمات من وقته وساعته انتهى ذلك قال ابن المتوج جاء رجل من بلاد العجم الى القاهرة فأوحى الى الملك عثمان بأن الهرم الصغير الذى فى الجيزة وهو المكسو بالحجر الصوان تحته مطلب فوجه اليه الملك العزيز جماعة من الحجارين ليهدموه فأقاموا فى هدمه نحو شهر ولم يهدموا منه الا اليسير فأنفق على هدمه فى هذه المدة مالا جزيلا فلما أعياه ذلك تركه وآثار ذلك النقب فيه الى الآن وقد نزعوا عنه بعض الحجارة الصوان ۞ ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة فيها خرج الملك العزيز الى نحو الفيوم يتصيد على سبيل الفرجة فلاح له طى فساق خلفه فكبابه الفرس فدخل قربوس السرج فى صدره فمات من وقته فحمل الى القاهرة ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه وكانت وفاته فى يوم الخميس العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة فكانت مدة سلطنته فى الديار المصرية نحو سبع سنين وأشهر ولما مات تولى من بعده ابنه محمد انتهى ما أوردناه من أخبار الملك العزيز عثمان وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك المنصور محمد بن الملك العزيز

عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو الثالث من ملوك بنى أيوب بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العزيز فى العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو عشرين سنة وكان القائم بأمور دولته الامير بهاء الدين قراقوش وهو صاحب الحارة المنسوبة اليه فساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة

واحبته

وأحبته الرعية ودعواله بطول البقاء وفى أيامه توفى القاضى عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان الانشاء وهو أول من أظهر التورية فى الشعر قال الاسعد بن مماتى كان القاضى الفاضل ذميم الخلقة وكان له حدبة ظاهرة خلف ظهره وكان يسترها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس وقد هجاه ابن عنين الشاعر بسبب حدبته بهذه الابيات

حاشا لعبد الرحيم سيدنا الـ * فاضل ماذا تقوله السفل
يكذب من قال ان حدبته * فى ظهره من عبيده حبل
هذا قياس فى غير سيدنا * يصح ان كان يحبل الرجل

ومن النكت اللطيفة قال الاسعد بن مماتى دخلت يوما على القاضى الفاضل فرأيت الى جانبه أترجة بديعة الخلقة فجعلت أنظر الى تلك الاترجة فقال لى الفاضل أراك تطيل النظر الى هذه الاترجة فقلت أتعجب من شكلها وبديع خلقتها فقال لى الفاضل ولها نسبة أيضا فيما بها من الاحديداب فقلت الله الله يامولانا ثم انى ارتجلت بيتين من الشعر وهما هذان

للحسن بل لله أترجة * قد أذكرتنا بجنان النعيم
كأنها قد جمعت نفسها * من هيبة الفاضل عبد الرحيم

فلما سمع ذلك أعجبه وزال ماعنده مما كان قد توهمه منى قال الاسعد بن مماتى ثم انى ذكرت هذه الواقعة لبعض أصحابى فقال لى احمد الله اذ أنشدته ذلك من لفظك ولم تكتبه ماله فربما تصحفت عليه فى اللفظ فيقرؤها من هيئة الفاضل عبد الرحيم فيزداد حنقا من ذلك اه واستمر الملك المنصور فى السلطنة مدة يسيرة وتقلبت عليه أعمامه من أجل السلطنة وجرى بينهم من الحروب مايطول شرحه عن هذا المختصر وآخر الامر خلع الملك المنصور من السلطنة وسجن بقلعة الجبل واستمر مسجونا الى ان مات فى السجن فكانت مدة سلطنته بمصر تسعة أشهر وأيام ولما خلع الملك المنصور تولى من بعده عم أبيه الامير أبو بكر بن أيوب اه ماأوردناه من أخبار الملك المنصور محمد بن العزيز وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر سلطنة الملك العادل سيف الدين أبى بكر

ابن الامير نجم الدين أيوب بن شادى وهو الرابع من ملوك بنى أيوب بمصر بويع بالسلطنة بعد خلع ابن ابن أخيه المنصور محمد فى شوال سنة خمس وتسعين وخمسمائة وكان العادل هذا فى أيام أخيه الناصر صلاح الدين يوسف قد استولى على عدة من بلاد الشرق وكان

العادل هذا مسعودا في جميع حركاته يحب الغزو في سبيل الله خفيف الركائب صبورا على الجهاد وكان مولده بمدينة بعلبك في سنة أربع وستين وخمسمائة وكان أصغر من أخيه صلاح الدين يوسف فلما تولى السلطنة بمصر مشى على نظام الملوك القديمة في الحرمة الوافرة ونفاذ الكلمة قيل انه كان يشتي بمصر ويصيف بالشام وكانت مملكة مصر والشام في أيامه مضبوطة لا يختل شيء من نظامها واستمر الامر على ذلك حتى دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة فيها توقف النيل عن الزيادة قبل الوفاء وثبت على اثنى عشر ذراعا واصبع واحدة ثم هبط ولم يزد بعد ذلك شيأ من الاصابع فاضطربت أحوال الديار المصرية وأكلت الناس بعضها بعضا واستمر النيل على ذلك ثلاث سنين متوالية ولم يزد غير عشرة أذرع ثم يهبط فوقع القحط بالديار المصرية وعدمت الاقوات في سائر أعمال مصر فصار الناس من شدة الجوع يأكلون القطط والكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال حتى ما بقي بمصر دابة فصار الناس اذا قوى أحدهم على صاحبه يذبحه بيده ويأكله وصار الرجل يذبح ابن جاره ويأكله ولا ينكر ذلك عليه ويذبح ولده بيده ويأكله من شدة الجوع وهذا كله بعد أن فرغت الكلاب والقطط والوحوش والطيور وقد تناهى سعر القمح في السنة الثالثة الى مائة دينار كل اردب ولا يوجد ثم جاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى مات من أهل مصر نحو الثلثين قال أبو شامة المؤرخ ان الملك العادل أبا بكر بن أيوب كفن من ماله في مدة يسيرة ممن مات من الغرباء نحو مائتين وعشرين ألف انسان غير من مات من أهل المدينة فلم يحص لهم عدد حتى قيل كان النيل اذا طلع لم يجد من يزرع الاراضي فكانت الترك تخرج بنفسها يحرثون ويزرعون بأيديهم ويبذرون في الارض الغلال لعدم وجود الفلاحين وقيل فقد من الاطباء في تلك السنة جماعة كثيرة يدعونهم الى المريض فاذا حصلوا عندهم في الدار يذبحونهم ويأكلونهم وكذلك النساء الغواسل يدعونهم الى الاموات فيذبحونهم ويأكلونهم حتى قيل ان رجلا استدعى بطبيب فلما مضى معه الطبيب جعل ذلك الرجل يكثر من ذكر الله تعالى بطول الطريق فسكن روع ذلك الطبيب بعد ما كان على وجل فلما وصلا الى الدار فاذا هي دار خربة فارتاع ذلك الطبيب فخرج اليه رجل من الخربة وقال للرجل الذي جاء بالطبيب وهل مع هذا البطء العظيم جئت الينا بصيد فلما سمع الطبيب ذلك ولى هاربا وما خلص الا بعد جهد عظيم واستمر الامر على ذلك مدة ثم سكن الحال وتراجع الامر قليلا قليلا وظهرت الغلال وانحط سعر القمح حتى صار مرميا لا يجد من يشتريه وتراجع سعر كل شيء وانصلح الوقت وطاب ورجع الماء الى مجاريه فكان كما قيل في المعنى

اذا ما رمالك الدهـر يوما بنكبة * فهيئ لها صبرا واوسع لها صدرا
فان تصاريف الزمان كثيرة * فيوما ترى عسرا ويوما ترى يسرا

ثم ان الملك العادل استمر فى السلطنة بمصر حتى خرج الى نحو الشام لتفقد الاحوال فرض هنالك ومات ودفن بدمشق فكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة وكانت مدة سلطنته بمصر ثمانى عشرة سنة وتسعة أشهر وكان العادل هذا رجلا طويلا جسيما مدورالوجه شرها فى الاكل يأكل الخروف وحده وكان يحب من يأكل معه مثل أكله وكان كثيرا الجماع لايمل من ذلك ليلا ولانهارا دائما على ممر الليالى ولما مات الملك العادل خلف من الاولاد ثلاثة وهم الملك محمد الكامل فاستمر بعد أبيه العادل على مملكة الديار المصرية وابنه الملك المعظم عيسى فاستقر بعد أبيه العادل على مملكة البلاد الشامية وابنه الملك الاشرف موسى شاه ارمن فاستقر بعد أبيه على مملكة البلاد الحلبية وكان موسى شاه ارمن هذا بديع الحسن والجمال وهو ممدوح القاضى كمال الدين ابن النبيه فى جميع قصائده حيث يقول من قصيدة

يا طالب الرزق ان سدت مذاهبه * قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت

وقال فى ختم زجل والشفق أحمر وأصفر راياة شاه ارمن * ذا ملك بجمال جمالو اما خلق وليس يخلق * وفى أيام العادل أبى بكر توفى مؤيد الدين صاحب لامية العجم الطغرائى وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد وكان كاتب الملك مسعود صاحب حماه فلما كانت الواقعة بين الملك مسعود وبين أخيه الملك محمود شاه انكسر الملك مسعود وولى هاربا فكان أول من أسر من جماعة الملك مسعود مؤيد الدين الطغرائى فلما امتثل بين يدى الملك محمود شاه وكان بينه وبين الطغرائى عداوة بسبب مملوكه فريد الحسن أمر بقتل الطغرائى على يد ذلك المملوك الذى كان يهواه فرمى عليه بالنشاب فقتله وقيل عفى عنه ومات الطغرائى عقيب ذلك من الرجفة انتهى ما أوردناه من أخبار الملك العادل أبى بكر وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر سلطنة الملك الكامل ناصر الدين

محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو الخامس من ملوك بنى أيوب بمصر بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العادل فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة وكان الملك الكامل أكبر اخوته قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه ان الملك الكامل استولى على الديار المصرية نحوا من أربعين سنة نصفها فى حياة أبيه الملك العادل ونصفها مستقل بها بمفرده وكان كثير الغزوات ويحب الجهاد وفتح فى أيامه فتوحات

كثيرة من البلاد الشامية والمصرية وكان الملك الكامل يكثر من الاقامة فى العباسية ويقول هذه أحسن من مصر فانى اذا أقمت بها اصطاد الطير من السماء والسمك من الماء والوحش من الفضاء ويصل الى خبر القاهرة فى يومه مع النجباء فى كل يوم مرتين وكان من حبه للعباسية أنشأ بها البساتين والمناظر برسم الحرم والسرارى وفى أيامه توفى الشيخ الصالح أبو الحسن الدينورى وكان من كبار العلماء الاولياء وله كرامات خارقة ودفن بالقرب من الجبل المقطم وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة ست عشرة وستمائة ۞ ومن الحوادث فى أيامه ان شخصا مغربيا دخل الى الديار المصرية وكان من علماء فن السيميا فاظهر لشخص من الاعيان بستانا خارج القاهرة من أحسن ما يكون كثير الاشجار من أصناف الفواكه المثمرة وفيه خمس سواق دائرة وعدة ثيران واقفة برسم السواقى وخوله واقفة من حول هذا البستان فلما رآه ذلك الرجل أعجبه فاشتراه من المغربى بألف دينار وقبضه الثمن وأشهد عليه المغربى بتسليم ذلك البستان بقاض وشهود ثم مضى ذلك المغربى الى حال سبيله وبات ذلك الرجل فى البستان الذى اشتراه فلما أصبح وجد نفسه بين الكيمان ولم ير شيأ من ذلك البستان الذى باعه له المغربى فصار يسأل من الناس هل كان قبل ذلك اليوم هنا بستان فيقولون ما سمعنا بهذا قط فصار الرجل متعجبا من ذلك وشاع أمره بين الناس فلما بلغ الملك الكامل ذلك طلب المغربى فلم يجده وأخذ الالف دينار ومضى الى حال سبيله وهذه الواقعة من الغرائب وقال بعض المؤرخين ان ملوك اليمن أهدت الى الملك الكامل محمد شمعدانا من نحاس يخرج منه عند طلوع الفجر شخص من نحاس لطيف الخلقة يخاطب الملك قائلا صبحك الله بالخير قد طلع الفجر أو صفير هذا معناه وكان هذا الشمعدان من صنعة الميقاتية فأقام فى حواصل الملوك الى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم فقد وفى أيام الملك الكامل هذا توفى الشيخ زكى الدين العوضى وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد وكان سبب موته كما قيل انه كان فى خدمة الملك المظفر محمود صاحب حماه وكان قبل ان يلى حماه وعد الشيخ زكى الدين العوضى انه اذا تولى حماه يعطى الشيخ زكى الدين ألف دينار فلما تولى حماه كتب اليه الشيخ زكى الدين هذه الابيات

مولاى هذا الملك قد نلته * برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته * فذا أوان الموعد الصادق

فعند ذلك دفع اليه الملك المظفر الالف دينار التى وعده بها ثم ان الملك المظفر صار يرسل الشيخ زكى الدين فى الاسفار الى بعض أشغاله فصرف الالف دينار على الاسفار ولم يبق منها شئ فبلغ الملك المظفر ان الشيخ زكى الدين قال فى معنى ذلك شعرا

ان الذى أعطوه لى جملة * قد استردوه قليلا قليل

فليت

فليت لم يعطوا ولم يأخذوا * وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بحبسه فحبس فبلغه عنه انه قال وهو فى السجن هذا البيت من قصيدة

أعطيتنى الالف تعظيما ومكرمة * ياليت شعرى أم أعطيتنى ديتى

فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بخنقه فخنق وهو فى السجن ودفن تحت الليل انتهى ذلك *ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة فيها جاءت الاخبار بان الفرنج جاؤا الى ثغر دمياط فى مائتى مركب واستولوا على مدينة دمياط وملكوها فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ونادى الملك الكامل فى القاهرة بان النفير عام فاجتمع من العساكر نحو عشرين ألف مقاتل فعند ذلك خرج الملك الكامل من القاهرة ومعه تلك العساكر فتوجه الى دمياط ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم واجتمع هناك السواد الاعظم من الخلائق وصار الملك الكامل يحاصر الفرنج فى دمياط وقد حصن الفرنج سور دمياط وجعلوا الجامع الكبير كنيسة فلما دام الحصار بينهم وقع الغلاء بين عسكر السلطان الكامل حتى عدمت الاقوات وبلغ الرغيف الخبز ثقله فضة وبيعت بيضة الدجاجة بدينار وصار السكر فى مقام الياقوت الاحمر فكانت الخيول والبهائم تأكل من أوراق الشجر فى مدة هذه المحاصرة وكانت المحاصرة على ثغر دمياط ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما وقد أسرف الافرنج فى القتل والنهب والاسر وسير الملك الكامل السعاة الى سائر البلاد يستحث الناس الى الحضور لاجل دفع الفرنج عن الديار المصرية قيل كان فى مدة هذه المحاصرة يمشى فى ركاب الملك الكامل شخص يسمى شمايل وكان من جملة الجندارية فكان يسبح فى البحر تحت الليل ويأتى الملك الكامل باخبار الفرنج فحظى بذلك عند الملك الكامل فلما انتصر على الافرنج ولى شمايل المذكور القاهرة وصار مقربا عنده واليه تنسب خزانة شمايل وهى عبارة عن سجن يحبس فيه أصحاب الجرائم ولما طال حصار الملك الكامل على دمياط أنشأ هناك قرية وسماها المنصورة وبنى بها الاسواق والفنادق والحمامات ولازالت تتزايد فى العمارة الى الآن ثم ان الملك المظفر محمود صاحب حماه حضر فى عسكر كثيف عند الملك الكامل ليعاونه به على دفع العدو فاجتمع هناك من العساكر نحو أربعين ألف مقاتل فجرى بينهم من القتال مايطول شرحه عن هذا المختصر فلما طال الامر على الافرنج أيقنوا بالهلاك وأرسلوا يطلبون من الملك الكامل الامان على انهم يتركون دمياط ويرحلون عنها الى بلادهم فاتفق الحال على ان كلا من الفريقين يعطى رهائن من أقاربه وعلى ان كلا من المسلمين يطلق من عنده من الاسارى وعلى ان الافرنج يطلقون من عندهم من الاسرى من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف

ابن أيوب خلف الملك الكامل والافرنج على ذلك ووقع الصلح على ذلك فأرسل ملك الافرنج عشرين ملكا من عنده رهنا الى الملك الكامل وأرسل الملك الكامل ابنه الامير نجم الدين مع جماعة من الامراء الى ملك الافرنج فعند ذلك سلم الافرنج مدينة دمياط الى المسلمين وأطلقوا من كان عندهم من الاسرى من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف وكذلك أطلق الملك الكامل من كان عنده من الافرنج من الاسرى قيل لما سلم الفرنج مدينة دمياط الى المسلمين جاء عقيب ذلك الى الافرنج نجدة من البحر نحو مائتي مركب وكان من جميل صنع الله تأخرها الى حين تسلم المسلمون دمياط لانها لو جاءت قبل ذلك لتقووا بها على المسلمين وأبوا عن الصلح فلما تسلم الملك الكامل مدينة دمياط كان يوم دخوله اليها يوما مشهودا لم يسمع بمثله وعمت البشائر سائر الآفاق وكانت مدة استيلاء الفرنج على ثغر دمياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما والملك الكامل معهم في جهاد ليلا ونهارا لا يكل من الحروب في هذه المدة وكانت هذه النصرة في سنة تسع عشرة وستمائة قال الشيخ شمس الدين الذهبي ان في مدة المحاصرة حضر الى الملك الكامل أخواه وهما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسى شاه أرمن صاحب حلب وماردين فلما حصلت هذه النصرة أحضر الملك أخويه واجتمعوا في القصر الذي أنشأه الملك الكامل في المنصورة وكان مبتدأ عمارة المنصورة في سنة عشرين وستمائة فلما اجتمعوا في القصر أحضروا سفرة الشراب بعد أن مد لهم سماط عظيم هنالك فلما جلسوا الى المنادمة بعد ما قاسوا من الافرنج أهوالا عظيمة كما قيل في المعنى

فيوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

أحضر الملك الاشرف موسى جارية تغني على عود فحركت العود وأنشدت تقول

ولما طغى فرعون عكا بسحره * وجاء ليسعى بالفساد الى الارض

أتى نحوه موسى وفي يده العصا * فأغرقهم في اليم بعضا على بعض

فطرب الملك الاشرف موسى لذلك فشق على أخيه الملك الكامل محمد هذا المعنى وأسرها في نفسه ثم انه أرسل خلف الراجح الحلي الشاعر وأمره بان يجيب عن ذلك المعنى بشئ (أقول) والراجح الحلي هذا أقدم من الصفي الحلي وقد قال ابن نباتة في معنى ذلك هذين البيتين

ياسائلي عن رتبة الحلي في * نظم القريض رواضيا بي أحكم

للشعر حليان ذلك راجح * ذهب الزمان به وهذا قيم

ثم ان الراجح الحلي نظم هذين البيتين ودفعهما الى الملك الكامل فأمر الملك الكامل باحضار جارية تضرب بالعود فحضرت في اليوم الثاني وأخذت العود وغنت عليه بهذه الابيات

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا * لما قد جرى في عصرنا وتجددا
الا ان موسى قد أتانا وقومه * وعيسى جميعا ينصرون محمدا

فلما سمع الملك ذلك طرب له وأمر لكل جارية بخمسمائة دينار وأجاز الراجح الحلي بجائزة سنية انتهى ذلك ثم ان الملك الكامل دخل الى القاهرة في موكب عظيم ومعه أخواه الملك الاشرف موسى والملك المعظم عيسى فاقاموا في القاهرة مدة يسيرة وتوجها الى بلادهما ثم ان الملك الكامل أخذ في أسباب بناء مدرسته الكاملية التي بين القصرين وكانت تسمى دار الحديث قيل لما أن حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك صنما كبيرا من ذهب فأمر الملك الكامل بان يسبك ذلك الصنم و ينفق على بناء هذه المدرسة فبنيت من وجه حل وهو الذي أنشأ هذه القبة العظيمة على ضريح الامام الشافعي رضي الله عنه و بني المجراة من بركة الحبش الى تربة الامام الشافعي رضي الله عنه تجري بالماء في أيام النيل وهي باقية الى الآن و بني الحوض على الطريق السالكة عند تربة الامام الشافعي رضي الله عنه ولما ماتت أم الكامل دفنت عند الامام الشافعي داخل القبة وتوفي في أيامه القاضي كمال الدين ابن النبيه وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد وهو الذي مدح بني أيوب بقوله من قصيدة

دمتم بني أيوب في نعمة * تحوز في التخليد حد الزمان
والله لا زلتم ملوك الورى * شرقا وغربا وعلى الضمان

وكان الملك الكامل سعيد الحركات في أفعاله كثير الجهاد والغزوات والفتوحات وفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة في ثاني جمادى الاولى توفي الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رحمة الله عليه ودفن بالقرافة الصغرى تحت العارض بالجبل المقطم وكان مولده بالقاهرة في رابع ذي القعدة سنة سبع وسبعين وخمسمائة فكانت مدة حياته أربعا وخمسين سنة وستة أشهر وأياما وتوفي في ثاني جمادى الاولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة كما تقدم ولما مات دفن تحت رجلي شيخه الشيخ محمد البقال رحمة الله عليه وكان أصله من حماة وانما سمي بابن الفارض لان والده الشيخ شمس الدين كان من كبار أهل العلم وقد انفرد في علم الفرائض فسمي لذلك الفارض وكان الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضي الله عنه فريد عصره في علم التصوف وكان له نظم فائق في معاني الغراميات لم يسبق اليه وقد عاصر من العلماء الشيخ أبا القاسم المنفلوطي والشيخ صفي الدين بن أبي المنصور والشيخ شمس الدين الايكي شيخ خانقاه سعيد السعداء والشيخ سعد الدين الحارثي الحنبلي المحدث والقاضي أمين الدين ابن الرقاقي والشيخ جمال الدين الاسيوطي والشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله عنه والشيخ برهان الدين الجعبري والقاضي شمس الدين بن خلكان والشيخ شهاب الدين بن الخيمي

وكان له نظم لطيف وكان يطارح به ابن الفارض والشيخ نجم الدين بن اسرائيل وغير ذلك جماعة كثيرة من العلماء والصوفية ولم ينكر عليه أحد منهم فى حالاته ولا نظمه وكانوا معه فى غاية الادب انتهى ذلك ومما وقع للشيخ شرف الدين عمر بن الفارض انه كان مقيما بجامع الازهر فاراد يوما ان يتوجه الى جامع عمرو بن العاص الذى فى مصر العتيقة فاحضروا الى الشيخ مكاريا ليركبه الى جامع عمرو فقال أصحاب الشيخ للمكارى كم لك من هنا الى جامع عمرو فقال المكارى خلوا الشيخ يركب معى على الفتوح فقال الشيخ نعم نركب معك على الفتوح فركب معه الشيخ وتوجه الى جامع عمرو فلما كان فى أثناء الطريق لقى الشيخ بعض اعيان الناس فترجل له عن فرسه فسلم عليه ثم ارسل الى الشيخ مائة دينار مع غلامه فقال الشيخ ادفعوا هذه المائة الى المكارى فانا ركبنا معه على الفتوح فدفعوا المائة دينار الى المكارى فبعث اليه بمائة دينار أخرى غير المائة الاولى فقال الشيخ ادفعوها الى المكارى فانا ركبنا معه على الفتوح فلما وصل الشيخ الى جامع عمرو نزل عن الحمار وصار يعتذر الى المكارى فى التقصير وقال لو دخل الينا أكثر من ذلك لدفعناه اليك انتهى ثم ان الملك الكامل قصد التوجه الى دمشق لتفقد الاحوال فخرج من القاهرة وتوجه الى دمشق فلما دخلها أقام بها مدة ثم مرض ومات هنالك ودفن بدمشق وكانت وفاته فى العشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة فكانت مدة سلطنته بمصر نحوا من عشرين سنة ولما مات تولى من بعده ابنه العادل أبو بكر انتهى ما اوردناه من اخبار الملك الكامل محمد وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك العادل سيف الدين

أبى بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن نجم الدين أيوب وهو السادس من ملوك بنى أيوب بمصر بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الكامل محمد تولى الملك فى سنة خمس وثلاثين وستمائة وكان سبب سلطنته انه لما توفى أبوه الملك الكامل بدمشق كان العادل أبو بكر هذا نائبا عن أبيه بمصر لما ان توجه الى دمشق فلما توفى هنالك الملك الكامل وجاءت الاخبار بموته الى القاهرة اتفق رأى الامراء الذين كانوا بمصر على ان يسلطنوا الامير أبا بكر بن الملك الكامل عوضا عن أبيه فسلطنوه ولقبوه بالملك العادل على اسم جده الملك العادل أبى بكر فلما بلغ أخاه نجم الدين وكان نائبا بحلب ان أخاه تسلطن بمصر وكان العادل أصغر من أخيه نجم الدين شق ذلك على نجم الدين وحضر من حلب الى الديار المصرية فى اسرع مدة فلما دخل الى مصر وثب على أخيه الملك العادل وحاربه وجرى بينهما من الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر وصار العسكر معهم فريقين مع كل

أخ قريق ودام الامر على ذلك ثم قويت شوكة الامير نجم الدين على أخيه العادل فخلعه من السلطنة وسجنه بقلعة الجبل الى أن مات كما سيأتي ذلك في موضعه فكانت مدة ولايته على مصر سنة وشهرين وأياما ولما خلع تولى من بعده أخوه نجم الدين انتهى ما أوردناه من أخبار الملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل محمد وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب

ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر ابن نجم الدين بن أيوب وهو السابع من ملوك بني أيوب بمصر بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك العادل أبي بكر في يوم الاثنين خامس عشري ذي القعدة سنة ست وثلاثين وستمائة وتولى الملك وله من العمر نحو أربعة وثلاثين سنة وكان مولده في سنة ثلاث وستمائة بمصر في قلعة الجبل فلما تم أمره في السلطنة وأطاعه الجند أخذ في أسباب تدبير ملكه واستكثر من مشترى المماليك حتى ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشون على الناس وينهبون البضائع من الدكاكين فضج منهم الناس وفي ذلك قال بعض الشعراء

الصالح المرتضى أيوب أكثر من * ترك بدولته ياشر مجلوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته * فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب

فلما بلغ الملك الصالح ذلك بنى لهم قلعة في الروضة بالقرب من المقياس وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية وجعل حول تلك القلعة شواني حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج اذا طرقوا البلاد فتكون هذه المماليك على أهبة فينزلون في الحال في الشواني ويتوجهون الى قتال الفرنج وكان عدتهم ألف مملوك قاطنين بالقلعة لا يخالطون الناس بالمدينة ولهم الرواتب والجوامك عمالة بسبب ذلك وآثار هذه القلعة باقية في الروضة الى الآن قال الشيخ شمس الدين الذهبي ان طائفة من هذه المماليك خرجوا من القاهرة هاربين من السلطان في سنة اثنتين وأربعين وستمائة فتوجهوا الى نحو التيه فتاهوا به نحو خمسة أيام فلاح لهم في اليوم السادس سواد فقصدوه فاذا هو مدينة عظيمة ولها سور ولها أبواب وهي مبنية بالرخام الاخضر فدخلوا اليها وطافوا بها فوجدوا بها أسواقا ودورا ووجدوا فيها صهاريج فيها ماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج فشربوا منه ووجدوا في بعض الدكاكين التي في أسواقها دنانير من الذهب وعليها كتابة بالقلم القديم فأخذوا تلك الدنانير وخرجوا من المدينة فساروا ليلة كاملة فلما أصبحوا وجدوا طائفة من العرب هنالك فحملوهم الى مدينة الكرك فأخرجوا تلك الدنانير التي معهم لبعض الصيارفة فاذا عليها مكتوب اسم موسى عليه السلام وقيل ان هذه المدينة بنيت في زمن موسى وكان

يقال لها المدينة الخضراء من مدائن بنى اسرائيل وقد طمست بالرمال فتارة تنقص عنها الرمال فتظهر وتارة تطمها فلاحت الى هؤلاء المماليك وقت تناقص الرمل عنها وفى سنة أربع وأربعين وستمائة أنشأ الملك الصالح نجم الدين مدينة على أطراف الرمل وسماها الصالحية وأنشأ بها الاسواق والفنادق والمساجد فتزايدت فى العمارة وصارت مدينة على انفرادها وهو الذى أنشأ المدرستين تجاه باب الصاغة وهى النجمية والصالحية قلعة العلماء * ومن الوقائع فى أيامه أن الامير شهاب الدين بن يغمور والى القاهرة أمر بشنق عشرين رجلا كانوا يقطعون الطريق على الناس ويقتلون من يظفرون به فلما شنقهم أمر الخفراء بحفظهم فلما جاء الليل عدهم الخفراء فاذا هم تسعة عشر مشنوقا فخاف الخفراء من الامير شهاب الدين أن يسألهم عنه فقعدوا على الطريق ينتظرون من يمر بهم فيشنقونه عوضا عن ذلك الرجل واذا بشخص قد مر بهم فقاموا اليه وأمسكوه وشنقوه مع جملة المشانيق فلما لاح الصباح أتى الامير شهاب الدين وعد المشانيق فاذا هم احد وعشرون رجلا فقال للخفراء ومن هذا الرجل الزائد الذى معهم فبهتوا فقال لهم ما شأنكم فقالوا يا أيها الامير قد عددناهم فى الليل فرأيناهم ناقصين واحدا فقربنا فى الليل هذا الرجل فأمسكناه وشنقناه معهم فقال لهم الامير شهاب الدين أرونى هذا الرجل المسكين الذى وقع لكم فلما رآه وجده شخصا قاطع طريق وله مدة وهو يحث فى طلبه ولا يقدر على تحصيله فلما رآه سربه وتعجب من هذه الواقعة غاية العجب انتهى ذلك ثم ان الملك الصالح صفاله الوقت وكثرت مماليكه وطالت أيامه فى السلطنة فعند ذلك تعرض لقتل أخيه الملك العادل أبى بكر الذى كان فى السجن بقلعة الجبل فقتله فى ثالث شوال سنة أربعين وستمائه ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه فلما قتل الملك الصالح أخاه العادل أقام بعد قتله أياما يسيرة ثم ابتلاه الله تعالى بآكلة طلعت له فى وجهه فرعته الى آخره واستمر عليلا وثقل المرض عليه

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة فيها جاءت الاخبار بان ريدافرنسيس ملك الافرنج أتى الى ثغر دمياط فى مائتى مركب مشحونة بالرجال غير من أتى فى البر من المقاتلين وكان ريدافرنسيس هذا قد استولى على غالب بلاد الاندلس وسبى أهلها وقتل من المسلمين ما لا يحصى عددهم ونهب أموالهم وكانت طائفة هذه الافرنج غير الطائفة التى جاءت فى أيام الملك الكامل محمد كما تقدم ذكر ذلك فلما تحقق الملك الصالح ذلك أمر باشهار النداء فى مصر والقاهرة بأن النفير عام ولا يتأخر صغير ولا كبير فان العدو قد استولى على البلاد ووصلت بوادره للمنصورة فاضطربت أحوال الديار المصرية وماجت باهلها ثم ان ملك الافرنج ريدافرنسيس لما أحاط بثغر دمياط أرسل كتابا الى نائب دمياط يهدده فيه ويحذره وذكر له ما جرى على أهل الاندلس من القتل والسبى فلما سمع أهل دمياط

بذلك

بذلك هربوا تحت الليل فلما أصبح الافرنج وجدوا أبواب المدينة مفتحة وليس فيها أحد من الناس فظن الافرنج أن ذلك مكيدة من المسلمين فتمهلوا حتى ظهر لهم أن ما فى المدينة أحد من المسلمين فدخلوا من غير مانع وملكوها فلما سمع الملك الصالح بذلك نادى فى مصر والقاهرة بالرحيل فخرج الناس قاطبة وسائر الامراء وخرج الملك الصالح فى محفة فانه كان مريضا على غير استواء فلما وصل الى نحو المنصورة نزل بها وأمر بجمع العربان من سائر النواحى فاجتمع من العالم مالا يحصى ثم ان الملك الصالح أحضر نائب دمياط وشنقه وشنق معه نحو خمسين أميرا بسبب خروجهم من دمياط بغير اذن من السلطان فعز ذلك على الامراء وقصدوا أن يقتلوا الملك الصالح هناك فاشار بعض الامراء بعدم ذلك وقال هذا غير صواب فصار القتال بين المسلمين والافرنج كل فرقة تقتل من الاخرى وأسر جماعة كثيرة هذا والسلطان كل يوم يتزايد فى المرض حتى أيست منه الاطباء فلما كانت ليلة الاحد رابع عشر شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد فلما مات الملك الصالح بالمنصورة كتموه خوفا من الافرنج أن يطمعوا فى أخذ البلاد من أيدى المسلمين فحمل السلطان بعد ان مات فى زورق تحت الليل وجىء به الى قلعة الروضة فدفن بها وقيل نقل بعد ذلك الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ودفن عند أقاربه داخل القبة فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية نحو تسع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوما ولم يشعر أحد من الناس بموته فكانت المراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان فلا يشك من يراها انها بخط السلطان الصالح وكانت الامراء تجتمع فى الموكب ويظهرون ان السلطان مريض وكانت الاطباء تدخل على جارى العادة فى كل يوم وكان طبق المزاور يدخل فى كل يوم ويخرج على جارى العادة والمراسيم فى كل يوم رائحة من المنصورة الى القاهرة فى الاشتغال ولم يعلم احد بموت الصالح فى القاهرة وكان القائم بتدبير هذه الامور الامير حسام الدين لاچين والامير فارس الدين اقطاى فى هذه المدة حتى حضر توران شاه ابن الملك الصالح وكان توران شاه فى حصن كيفا فلما استرسل الملك الصالح فى المرض أرسلوا خلف ابنه توران شاه من حصن كيفا فأبطأ عليهم حتى مات أبوه فلما حضر الى المنصورة وقد جاء فى عسكر عظيم من الاكراد من عسكر حصن كيفا أشيع موت الملك الصالح وتسلطن ابنه توران شاه عوضه انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك المعظم توران شاه

ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد وهو الثامن من ملوك بنى أيوب بمصر بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مستهل شهر المحرم

المحرم (١) سنة ثمان وأربعين وستمائة وكانت ولايته بعد موت أبيه بأربعة أشهر فلما تولى نودى باسمه فى القاهرة وزينت له ودقت له الكوسات سبعة أيام وتلقب بالملك المعظم ونودى بين العساكر فى الوطاق بالدعاء للسلطان الملك المعظم توران شاه والترحم على الملك الصالح نجم الدين أيوب فلبس توران شاه خلعة السلطنة بالمنصورة وقبل له الامراء الارض وخطب باسمه على المنابر فلما تحقق الافرنج موت الملك الصالح طمعوا فى أخذ مصر وزحفوا الى فارسكور فاجتمع سائر الامراء وتحالفوا على الجهاد فى سبيل الله تعالى فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة ركب الامير بيبرس البندقدارى والامير لاچين وغيرهما من الامراء وخرج معهم السواد الاعظم من العوام والفلاحين وغير ذلك وفى أيديهم المقاليع والحجارة وهجم المماليك البحرية وفى أيديهم السيوف والدبابيس والرماح ومنهم طائفة يرمون بالنشاب فحملوا على الافرنج حملة واحدة فكانت ساعة تشيب منها النواصى وقد تاب من هول ذلك اليوم العاصى فانكسر الافرنج أبخس كسرة وولوا مدبرين والله تعالى ناصر الناصرين وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم قال الشاعر

لله در فوارس يوم الوغى * تهوى الخياطة لا اليهم تنتمى
ذرعوا الفوارس بالرماح وفصلوا * بالمرهفات وخيطوا بالاسهم

فبلغ عدة من استشهد فى هذه الواقعة من أمراء السلطان سبعة وستين أميرا غير المماليك وقتل من العوام مالا يحصى عددهم وقتل من الافرنج على فارسكور مايزيد على اثنى عشر ألف انسان وأسر من ملوكهم سبعة وغنم منهم المسلمون من السلاح والقماش والخيول شيأ كثيرا لا يحصى حتى قيل بيع فى عسكر السلطان كل سيف بنصف فضة وكل فرس بعشرة أنصاف وكل درع بثمانية أنصاف وأما ملك الافرنج ريدافرنسيس وأكابر أمرائهم فانهم قد انحاشوا الى تل عال هناك وأرسلوا يسألون الامان من السلطان فأرسل اليهم بعض الامراء فقبض عليهم وقيدهم وسجنهم وأما ملك الافرنج فسجنه السلطان فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السر وكانت فى المنصورة ووكل به طواشى يسمى صبيح الفاطمى فكان يضربه ليلا ونهارا ويقرره على الاموال واستمر فى السجن وهو مقيد هو وأخوه وأقاربه وقد قرر عليه السلطان مالا يورده وأرسل الى بلاده لحضر الاموال التى قد قررت عليه فلما حصلت هذه النصرة أرسل السلطان الملك المعظم توران شاه بالبشارة الى القاهرة بأخذ مدينة دمياط وقد توجه بهذه البشارة الامير شهاب الدين بن يغمور والى القاهرة فدخلها وهو لابس لبس ملك الافرنج اشكرلاط مخمل احمر بفرو سنجاب وقلنسوة ذهب فزينت له القاهرة وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله وكانت هذه النصرة على غير القياس بعد أن كان الافرنج أشرفوا على أخذ الديار المصرية واستولوا على غالب

(١) فى حسن المحاضرة أن توران شاه ملك مصر فى ذى القعدة سنة ٦٤٧ وقتل فى يوم الاثنين سابع عشر المحرم سنة ٦٤٨

الضياع ونهبوا مافيها وأسروا أهلها قيل لما ملك المسلمون مدينة دمياط اشار الامراء على السلطان بهدم مدينة دمياط فارسل اليها الهدادين فهدموها عن آخرها ولم يبق منها سوى الجامع الكبير و وقع فيها الهدم في يوم الاثنين ثامن شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة واستمرت من يومئذ خرابا وصار مكان بيوتها أخصاصا من القش على شاطئ بحر النيل يسكن فيها جماعة من الصيادين وسموها المنشية واستمرت على ذلك الى دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فامر بتجديد عمارتها فارسل اليها جماعة من البنائين والحجارين وكان ابتداء عمارتها في سنة خمسين وستمائة فجدد بناء سورها وأمر بردم فم البحر الذى تدخل منه مراكب الافرنج فردموه من القرابيص التى كانت هناك من الهدم القديم فامتنعت المراكب الكبار من الدخول الى بحر النيل من يومئذ ثم ان الملك الظاهر أمر باعادة السلسلة الحديد التى كانت من البر الى البرقيل ان هذه السلسلة كانت في أيام المقوقس عظيم القبط ثم بطلت فامر باعادتها كما كانت انتهى ومن هنا نرجع الى أخبار ملك الافرنج ريدافرنسيس فانه لما اعتقل بدار القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السر التى كانت بارض المنصورة وتولى عقابه الطواشى صبيح الفاطمى صار يضربه في كل يوم خمسمائة عصا فاستمر على ذلك الى ان تولى الملك المعز أيبك التركمانى فارسل اليه فرنسيس يقول له بان يشترى نفسه منه بمائتى ألف دينار غير التقادم فأفرج الملك المعز عنه وعن أخيه وأقاربه وحلفوه أيمانا عظيمة بانه مابقى يتعدى على بلاد المسلمين ولا يفسد في البحر والبر فلما حلف أذن له الملك المعز بالتوجه الى بلاده فسار واستمر في بلاده وأرسل الى الملك المعز ماقرره له من الاموال وأقام على ذلك الى أن قتل الملك المعز أيبك وتولى من بعده ابنه الملك المنصور على فجاءت الاخبار من البلاد بأن فرنسيس المذكور جمع العساكر وصنع مراكب كثيرة وقصد العود الى أخذ مدينة دمياط فلما بلغ المنصور ذلك جمع الامراء وضربوا مشورة فاقتضى الرأى أن يرسلوا اليه مطالعة من عند السلطان بالتهديد له والحط عليه فكتب اليه الصاحب جمال الدين بن مطروح مطالعة وضمنها هذه الابيات

قل للفرنسيس اذا جئته * مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ماجرى * من قتل عباد دين المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها * تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين الى عسكر * ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم * بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لاترى منهم * الا قتيلا أو أسيرا جريح
وفقك الله لامثالها * لعل عيسى منكم يستريح

ان كنت عولت على عودة * لاخذ ثار أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشي صبيح

فلما وصلت هذه المطالعة الى فرنسيس وسمع هذه الابيات رجع عن التوجه الى مصر وتذكر ماقد جرى عليه من الطواشي صبيح وما قاسى من ضربه انتهى ذلك ومن هنا نرجع الى أخبار الملك المعظم توران شاه قيل لما حصلت هذه النصرة لتوران شاه ظن ان الوقت قد صفا له فتحول من المنصورة الى فارسكور فنصب له هنالك برجا من الخشب على شاطئ البحر ثم أحضر الاسارى من الافرنج وضرب أعناقهم بين يديه بالسيف ثم قذفهم فى البحر ثم شرع يقرب جماعة من حاشيته ممن حضر معه من حصن كيفا وصار يعطيهم الوظائف السنية وأبعد مماليك أبيه الملك الصالح وأرسل الى شجرة الدر زوجة أبيه يعدها بكل سوء فأرسلت شجرة الدر تقول للامراء والمماليك البحرية اقتلوا توران شاه وعلى رضاكم بكل ما يمكن وكان توران شاه عنده خفة وهوج فى أموره فكان اذا سكر يصف الشموع فى الليل قدامه ويأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع ويقول هكذا أفعل بالمماليك البحرية وكان أحمق جاهلا لايدرى مايضره وما ينفعه كأنه خشبة وكان كما قال فيه القائل

ياجامع الخصال * قبيحة ليس تحصى * نقصت عن كل فضل * فقد تكاملت نقصا
لو أن للجهل شخصا * لكنت للجهل شخصا

فلما بلغ مماليك أبيه ذلك أضمروا له السوء وقد تغيرت خواطرهم عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة جلس الملك المعظم توران شاه فى الموكب والامراء بين يديه وكان قد أمر رؤس النوب أن يقفوا قدامه بعصى وهى ملبسة بالذهب فى أيام المواكب فلما مضى الموكب وحضر السماط جلس الملك المعظم على السماط كجارى العادة فتقدم اليه جماعة من المماليك البحرية وبايديهم السيوف فضربوه على أصابعه فقطعوها فقام وهرب ودخل ذلك البرج الخشب وأغلق عليه باب البرج فأطلقوا فى البرج النار فخرج منه السلطان وألقى نفسه فى البحر وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو يقول خذوا ملككم ودعونى أرجع الى حصن كيفا فلم يغثه أحد وبقى على ذلك حتى قتل فى ذلك اليوم المقدم ذكره فمات حريقا قتيلا غريقا فلقطه العوامة من البحر فبقى مرميا على شاطئ البحر ثلاثة أيام لم يدفن ثم دفن فى بعض جروف البحر ولم يعلم له قبر ثم ان المماليك نهبوا جميع ما كان فى الوطاق من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك واستمر السماط فى ذلك اليوم ممدودا حتى تخطفه الكلاب ولم يع أحد له وكانت مدة سلطنة الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب نحو أربعين يوما ولم يدخل الى مصر ولا جلس على سرير الملك بقلعة الجبل ولا حكم بالقاهرة فكانت قتلته فى يوم

الاثنين كما تقدم وهو آخر من تولى السلطنة بمصر من بنى أيوب وبه انقرضت دولة بنى أيوب وكانت مدة دولتهم من حين تولى الملك الناصر صلاح الدين يوسف الى أن قتل الملك المعظم توران شاه نحو ست وثمانين سنة الا أشهرا وزالت دولتهم كأنها لم تكن بمصر قيل لما قتل توران شاه رجعت الامراء والعسكر الى القاهرة وطلعوا الى قلعة الجبل فوقع الاتفاق من الامراء على سلطنة شجرة الدر عوضا عن توران شاه وأن يكون الامير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة معها فسلطنوها وتحالفوا على ذلك وهذا لم يقع قط بالديار المصرية ولا سمع بان امرأة قد تسلطنت بها انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب

وهى أم ولده خليل فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب وقع الاتفاق على سلطنتها فتسلطنت فى ثانى شهر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وقبل لها الامراء الارض من وراء حجاب فلما تم أمرها فى السلطنة فرقت الوظائف السنية على الامراء وفرقت الاقطاعات الثقال على المماليك البحرية وأغدقت عليهم بالاموال والخيول وأرضتهم بكل ما يمكن وساست الرعية فى أيامها أحسن سياسة وكانت الناس عنها راضية وكان الامير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة وكان لا يتصرف فى الامور الا بعد مشورتها فيما تريد وكانت تكتب على المراسيم فى العلامة بخطها والدة خليل فلما كان يوم الجمعة خطب باسم شجرة الدر على منابر مصر فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب قال الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم الجزرى فلما بلغ الخليفة المستنصر بالله أبا جعفر وهو ببغداد ان أهل مصر قد سلطنوا امرأة أرسل يقول من بغداد لامراء مصر أعلمونا ان كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الانكار وهددهم وأمرهم بالرجوع عن ذلك وقد قال القائل

النساء ناقصات عقل ودين * ما رأينا لهن رأيا سنيا

ولاجل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبيا

فلما بلغ شجرة الدر ذلك خلعت نفسها من السلطنة برضاها من غير كره لها فكانت مدة
سلطنتها بالديار المصرية نحو ثلاثة أشهر الا أياما وكانت تدبر أمور المملكة بالديار المصرية
فى حياة أستاذها الملك الصالح وكانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة
فسلطنوها لحسن تدبيرها للامور وسياستها للرعية وجعلوا الامير عز الدين أيبك التركمانى
أتابك العساكر ومشاركها فى أحوال المملكة فكان لا يتصرف فى شئ من الامور الا برأيها
فلما خلعت نفسها من السلطنة أشار القضاة والامراء بأن يولوا الامير عز الدين أيبك
التركمانى السلطنة وان يتزوج بشجرة الدر فتزوج بها ثم تولى السلطنة بعد خلع شجرة الدر
فكان أول من تولى من ملوك الترك

ذكر ابتداء دولة الاتراك

كان أولهم المعز أيبك التركمانى الصالحى النجمى كان أصله من مماليك الملك الصالح نجم
الدين أيوب فأعتقه ثم صار أميرا فى حياة أستاذه الملك الصالح ثم بقى أتابك العساكر
بعد قتل الملك المعظم توران شاه ثم بعد خلع شجرة الدر تولى الملك بالديار المصرية فى
يوم السبت تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة وركب بشعار وحملت
على رأسه القبة والطير ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب وجلس على سرير الملك وجميع
الامراء قبلوا الارض بين يديه ولقبوه بالملك المعز فلما تم أمره فى السلطنة تقلب عليه
المماليك الصالحية وقالوا لابد لنا من واحد من ذرية بنى أيوب نسلطنه وكان المتكلم
يومئذ من الامراء الامير بلبان الرشيدى والامير فارس الدين اقطاى والامير بيبرس
ركن الدين البندقدارى والامير سنقر الرومى وغير ذلك جماعة من المماليك البحرية فوقع
الاتفاق بينهم وبين المعز أيبك بأن يحضروا بشخص من بنى أيوب يقال له مظفر الدين يوسف
من أولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق وكان عند عماته ببلاد الشرق فأرسلوا خلفه
فلما حضر من البلاد سلطنوه ولقبوه بالملك الاشرف وكان له من العمر نحو عشرين سنة
فلما تسلطن يوسف المذكور لم يعزل أيبك التركمانى من السلطنة بل صار معه مثل الشريك
وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها وضربت السكة على الدنانير والدراهم
باسمهما فلم يسع أيبك الاحتمال واستمر أيبك ويوسف المذكور شريكين فى السلطنة
حتى قويت شوكة المعز أيبك وأنشأ له مماليك وأقام له عصبة فعزم رأيه على ان يقبض
على الامير فارس الدين اقطاى وكان رأس المماليك الصالحية فطلبه وقت الظهر فلما
طلع الى القلعة أكمن له كمينا وراء قاعة الاعمدة وقرر معهم اذا مر بهم الامير فارس الدين
يقتلونه من غير معاودة فلما مر بهم ووصل الى باب قاعة الاعمدة وثب عليه المماليك

المعزية فأذاقوه كأس المنية فلما قتل الامير فارس الدين أمر الملك المعز أيبك بغلق باب القلعة فلما شاع بين الناس قتل الامير فارس وكان ذلك فى يوم الاثنين حادى عشرى شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة ركب سائر خشداشينه وكانوا نحو سبعمائة انسان فلما ان طلعوا الى الرميلة وأحاطوا بالقلعة رمى اليهم الملك المعز برأس الامير فارس الدين اقطاى من فوق سور القلعة فلما تحقق خشداشينه قتله انفضوا خائبين وخرجوا على حية نحو البلاد الشامية وهم الامير بيبرس ركن الدين البندقدارى والامير قلاون الالفى والامير سنقر الاشقر والامير بيسرى والامير سكن والامير برمق فلما قصدوا أن يخرجوا الى البلاد الشامية وجدوا أبواب القاهرة مغلقة فتوجهوا الى باب القراطين فأحرقوه بالنار وخرجوا منه هاربين فسمى من ذلك اليوم باب القراطين فلما بلغ المعز هروبهم أمر بالحوط على موجودهم فلما خمدت تلك الفتنة وتشتت الامراء الذين كان يخشى منهم المعز فعند ذلك قبض على الملك الاشرف يوسف الذى كان شريكه فى السلطنة وسجنه بالقلعة وانفرد بالسلطنة وحده ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة فيها أرسل الملك المعز ايبك يخطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فلما بلغ ذلك شجرة الدر تغيرت على المعز ايبك وتغير هو أيضا عليها لانها كانت تمن عليه فى كل وقت وتقول له لولا أنا ما وصلت أنت الى السلطنة وكانت قد منعته من الاجتماع بزوجته أم ولده الامير على حتى انها ألزمته بطلاقها منه بالثلاث وكانت شجرة الدر تركية الجنس صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة سكرانة من خمرة العجب والتيه كما قيل فى المعنى

كتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جر الذيول

فلما صار أيبك معها فى غاية الضنك حنق منها يوما ونزل الى مناظر اللوق وهو غضبان وكانت مناظر اللوق مكان الازبكية الآن وكانت مطلة على بحر النيل فلما نزل أيبك من القلعة أقام بمناظر اللوق أياما وهو غضبان فأرسلت اليه شجرة الدر وهى تتلطف به حتى سكن غضبه وقام وطلع الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يده على غير عادة منها وكانت شجرة الدر قد أضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدام الخصى الروم وقالت لهم اذا دخل الى الحمام فاقتلوه فلما طلع الى القلعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الى الحمام فلما صار هو وشجرة الدر بها دخل عليه أولئك الخدام وبأيديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدام اتركوه فأغلظ عليها بعض الخدام فى القول وقال لها ان تركناه متى فلا يبقى عليك ولا علينا فقتلوه فى الحمام خنقا وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات فلما مات حملوه وأخرجوه من الحمام وأشاعوا

انه قد أغمى عليه من الحمام فوضعوه على فراش الحمام وكان ذلك فى ليلة الاربعاء الخامس
والعشرين من ربيع الاول سنة ست وخمسين وستمائة فلما أصبح الصباح أشاعوا قتله بين
الناس فركب ابنه الامير على والمماليك المعزية فلما طلعوا الى القلعة وتحققوا قتله
شرعوا فى تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى القرافة ثم قبض ابنه على شجرة
الدر وسلمها الى أمه فأمرت جواريها أن يقتلنها بالقباقيب والنعال فضربنها بها حتى
ماتت وفارقت الدنيا فكانت كما قيل فى الامثال

واقنع اذا حاربت بالسلامة * واحذر فعالا توجب الندامة
فالتاجر الكيس فى التجارة * من خاف فى متجره الخسارة

فلما ماتت شجرة الدر سحبوها من رجلها ورموها من فوق السور الى خندق وهى عريانة
ولم يكن عليها غير اللباس فى وسطها فأقامت وهى مرمية فى الخندق ثلاثة أيام لم تدفن حتى
قيل ان بعض الحرافيش نزل الى الخندق تحت الليل وقطع دكة لباسها لانها كانت من حرير
أحمر وفيها كرة من لؤلؤ ونافجة مسك فسبحان من يعز ويذل كما قيل فى المعنى

لقد هزلت حتى بدا من هزالها * كلاها وحتى سامها كل مفلس

ثم بعد ثلاثة أيام حملت ودفنت بتربتها التى بطريق السيدة نفيسة بجوار بيت الخلفاء
وكانت شجرة الدر أصلها من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب اشتراها فى أيام أبيه الملك
الكامل محمد فحظيت عنده واستولد منها ابنه خليلا ثم أعتقها وتزوج بها وكانت
معه فى البلاد الشامية مدة طويلة لما كان مستوليا على الشام فلما قدم الى الديار المصرية
وتسلطن عظمت شجرة الدر فى دولة أستاذها الملك الصالح وصارت تدبر أمور المملكة
عند غياب الملك الصالح فى الغزوات وكانت ذات عقل وحزم كاتبة قارئة لها معرفة
تامة بأحوال المملكة وقد نالت من العز والرفعة مالم تنله امرأة قبلها ولا بعدها وقد
أقامت فى السلطنة نحو ثلاثة أشهر وخطب باسمها على منابر مصر وأعمالها ونفذت
مراسيمها فى الآفاق بعلامتها وكانت علامتها على المراسيم والدة خليل وكانت كثيرة
البر والصدقات ولها أوقاف على جهات خير وصدقة وكانت قتلتها فى يوم الثلاثاء
الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وخمسين وستمائة انتهى ذلك وأما
الخدام الذين قتلوا المعز أيبك التركمانى فهرب بعضهم الى بلاد الشرق وصلب بعضهم على
باب القلعة وأقام أياما وكان الملك أيبك التركمانى رجلا عاقلا حليما نظر فى مصالح الرعية
فى أيامه وكان كفؤا للسلطنة ودفع العدو وكان يحب الجهاد فى سبيل الله تعالى مع
الافرنج وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية سبع سنين منها مدة
انفراده بالسلطنة خمس سنين وثلاثة أشهر وكانت مدة الاشرف يوسف الذى هو من بنى

أيوب الذى شارك أيبك فى السلطنة سنة وأشهرا وأيبك هذا هو أول ملوك الترك ولما قتل تولى من بعده ابنه نور الدين على انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المعز أيبك التركمانى وذلك على سبيل الاختصار ومن الابيات اللطيفة التى تتضمن أسماء ملوك الترك والجراكسة دون أسماء أولادهم ممن تولى السلطنة بالديار المصرية وهم على الترتيب من مبتدا دولتهم الى الآن وهى هذه

أيبك قطز يعقبا * بيبرس ذو الكمال
بعد قلاون بعـ * ـد كتبغا المفضال
لاجين بيبرس بر * قوق شيخ ذو الافضال
ططر برسباى جق * مق ذو العلا اينال
وخشقدم عنه قل * بلباى ذو الاحوال
تمربغا قايتبا * ى الفحل ذو الاقبال
وقانصوه جنبلا * ط عنهما اقوالى
وبعدهم جانطو * من باى بالاقبال
وقانصوه بعده * ذا مظهر الاهوال

ذكر سلطنة الملك المنصور نور الدين على

ابن الملك المعز أيبك التركمانى الصالحى وهو الثانى من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية تولى السلطنة بعد قتل أبيه الملك المعز أيبك التركمانى يوم الخميس سادس عشرى ربيع الاول سنة خمس وخمسين وستمائة وكان له من العمر لما تولى السلطنة أحدى عشرة سنة وكان القائم بتدبير أمور المملكة الامير علم الدين سنجر الحلبى وكان الوزير يومئذ شرف الدين بن صاعد الفائزى وكان قد وزر لابيه المعز أيضا وكان اسمه هبة الله وكان أصله من أبناء القبط فأسلم فى دولة الملك الكامل محمد ولازال يرقى الى ان بقى وزيرا بالديار المصرية فى دولة الملك المعز أيبك التركمانى ثم وزر لابنه الملك المنصور على فلما تم أمر الملك المنصور على فى السلطنة استقر بالامير سيف الدين قطز المعزى نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر وكان قطز شديد البأس صعب الخلق فقبض على الوزير شرف الدين هبة الله وصادره وأخذ جميع أمواله ثم صلبه على باب القلعة وخلع على القاضى زين الدين يعقوب بن الزبير واستقر به وزيرا عوضا عن هبة الله ومن الحوادث فى أيام الملك المنصور على هذا ان فى سنة ست وخمسين وستمائة فى خامس جمادى الآخرة جاءت الاخبار من المدينة الشريفة بأنه قد ظهر فى التاريخ نار بوادى شطا شرقى المدينة وانها

يخرج منها شرريأكل الحجارة وقيل انه قبل ظهور هذه النار بخمسة أيام وقع بالمدينة زلزلة عظيمة وسمعوا أصواتا من السماء مزعجة ولم تزل هذه النار مستمرة ليلا ونهارا نحو شهر فكان طول هذه النار أربع فراسخ فى عرض أربعة أميال فصارت تأكل الحجارة حتى تصير مثل الفحم الاسود قال الشيخ عماد الدين بن كثير أخبرنى الشيخ صدر الدين على التميمى الحنفى قال أخبرنى والدى الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة البصرى انه رأى وهو بالبصرة صفحات أعناق الابل فى الليل المظلم من ضوء تلك النار التى ظهرت بالمدينة قال الشيخ شهاب الدين أبوشامة ان أهل المدينة لما رأوا تلك النار قد زاد أمرها تضرعوا الى الله تعالى وتابوا من ذنوب كانوا يعملونها وتصدقوا بالاموال على الفقراء ولزموا الصوم والصلاة حتى كشف الله تعالى عنهم تلك النار بعدما أقامت نحو شهر وهى تفور وفى ذلك يقول القائل

بحر من النار تجرى فوقه سفن * من الهضاب لها فى الارض ارساء
منها تكاثف فى الجو الدخان الى * ان عادت الشمس منه وهى دهماء
يرمى لها شرر كالقصر طائشة * كأنها ديمة تنصب هطلاء
فيالها آية من معجزات رسو * ل الله قد ظهرت والقوم أحياء

يشير الناظم الى ما رواه البخارى فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ منها أعناق الابل ببصرى رواه فى آخر كتاب الفتن فى باب خروج النار انتهى ذلك قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى تاريخه ان فى دولة الملك المنصور على بن أيبك هذا كان استيلاء هلاكو على مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخراب بغداد وقتل أهلها ثم قصد النوبة الى حلب وأخذ البلاد الشامية فعدّى من الفرات فى عسكر لا يحصى عدده فلما جاءت الاخبار الى القاهرة بما جرى من هلاكو وقد أرسل ابنه فى عسكر عظيم الى حلب وقد استولى على نائب حلب فلما تحقق الاتابكى قطز ذلك أمر بعقد مجلس وجمع سائر الامراء والقضاة ومشايخ العلماء وكان المشار اليه فى ذلك المجلس شيخ الاسلام العز بن عبد السلام رضى الله عنه وكان من أكابر علماء الشافعية وقد تلقب بسلطان العلماء فلما تكامل ذلك المجلس من الامراء وأعيان الدولة والقضاة ومشايخ العلماء قام مدع فى ذلك المجلس وذكر هيئة سؤال فى أمر هلاكو واستيلائه على البلاد ووصوله الى حلب وان بيت المال خال من الاموال وقد وصل العدوّ وطمع فى أخذ البلاد والسلطان صغير السن وضاعت مصالح الرعية وان الوقت محتاج الى اقامة سلطان كبير تخشاه الناس ويدفع العدوّ وان بيت المال محتاج الى المساعدة بشئ من أموال الرعية لاقامة الجند وتجهيزهم للسفر

ومايعينهم على ذلك فاجاب الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه فى ذلك المجلس وقال اذا طرق العدوّ البلاد وجب على الناس قتاله وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تجهيز العسكر لدفع العدوّ لكن بشرط أن لا يبقى فى بيت المال شئ من السلاح والسروج الذهب والفضة والكبابيش الزركش واسقاط السيوف الفضة وغير ذلك وان كلا من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ويساوى فى ذلك بقية العامة وقت القتال وأما أخذ أموال التجار والرعية مع وجودما فى بيت المال من السلاح والقماش فلا يجوز لانه من باب أخذ أموال الرعية بغير حق ثم ان الامراء تكلموا مع القضاة فى اقامة سلطان كبير لدفع العدوّ فوقع الاختيار من الامراء والقضاة على خلع الملك المنصور على ابن الملك المعز ايبك التركمانى وأن يسلطنوا الاتابكى قطز فعند ذلك خلعوا الملك المنصور على من السلطنة وولوا الاتابكى قطز وكان الملك المنصور على طائش العقل يلعب بالحمام مع أولاد الغلمان وكانت أمه تدبر أحوال السلطنة فلما خلعوه من السلطنة أرسلوه وهو مقيد الى ثغر دمياط وأرسلوا معه اخوته وأمه فاعتقلوه ببرج السلسلة بثغر دمياط فأقام فى البرج الى ان مات هنالك ودفن بثغر دمياط بعد مدة طويلة وهو فى البرج فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنتين وثمانية أشهر وكانت أيامه كلها فتن وشرور ۞ ومن الحوادث فى أيامه ان فى سنة ست وخمسين وستمائة فى رابع شهر رمضان وقعت احدى المسلتين اللتين باراضى المطرية يزعم الناس انهما مسلتا فرعون وكانتا اثنتين فلما وقعت احداهما وجدوا فى قلنسوتها نحو مائتى قنطار نحاس أصفر ووجدوا فى داخل تلك القلنسوة عشرة آلاف دينار كل دينار وزنه أوقية من الذهب الاكسير الجيد فحمل الى الخزائن الشريفة ذكر ذلك الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم الجزرى فى تاريخه كما شرح هنالك (وأما من توفى فى أيام الملك المنصور على ابن الملك المعز ايبك التركمانى من الاعيان) فهم الشيخ زكى الدين عبد العظيم المنذرى والشيخ القطب العارف بالله تعالى شيخ الطريقة والحقيقة الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ودفن بصحراء عيذاب من أعالى الصعيد الاعلى وتوفى الشيخ شعلة شيخ القراآت وتوفى الفاسى المغربى المالكى وتوفى الشيخ سعد الدين بن العربى صاحب النظم الرقيق وتوفى الصرصرى صاحب الديوان اللطيف وتوفى ابن الابار المؤرخ وغير ذلك من أعيان العلماء وأعيان الناس ۞ ومن انشاء المعز ايبك المدرسة المعزية المطلة على بحر النيل عند رحبة الحناء عند مصر العتيقة اهـ ما أوردناه من أخبار الملك المنصور على ابن الملك المعز ايبك التركمانى وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى

وهو الثالث من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وكان أصله من مماليك المعز ايبك التركمانى ورقى فى دولة أستاذه الملك المعز ثم صار فى دولة ابن أستاذه الملك المنصور على اتابك العساكر فلما خلع الملك المنصور على وقع الاختيار على سلطنة الاتابكى قطز المعزى فتسلطن فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وستمائة فلما تسلطن وتم أمره فى السلطنة قبض على جماعة من خشداشينه من الامراء والخدام وأرباب الدولة وغير ذلك من الاعيان وأرسلهم الى الحبوس بثغر دمياط والاسكندرية فلما فعل ذلك استقامت أموره فى السلطنة وصفا له الوقت وأنشأ له عصبة من الامراء فخلع على الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى واستقر به أتابك العساكر وفوّض اليه جميع أمور المملكة وانحصرت فيه الكلمة ثم جاءت الاخبار بان جاليش عسكر هلاكو ملك التتار قد وصل الى أطراف دمشق ونهبوا البلاد وقتلوا العباد وأطلقوا فيهم الزناد وكان ذلك فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت وماجت بأهلها وقد بلغهم ما فعله هلاكو فى بغداد وقتله للخليفة المستعصم بالله وما جرى منهم فى حق أهل بغداد من القتل والنهب وخراب البلاد كما تقدم فى أول التاريخ ثم ان أميرا من أمراء هلاكو الذين وصلوا الى دمشق يقال له كتبغا حضر الى الملك قطز وصحبته أربعة من التتار ومعهم كتاب من عند هلاكو وكان مضمونه من ملك الملوك شرقا وغربا القان الاعظم ونعت فيه نفسه بالفاظ معظمة وذكر فى الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على أهل البلاد منه ولاسيما فعله فى بغداد وما جرى على أهلها منه وأرسل يقول يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم منى ولا تقاتلونى أبدا فتندموا وشرع يذكر فى كتابه أشياء كثيرة من هذا الالفاظ الفاحشة اليابسة فلما أن سمع الملك المظفر قطز مضمون ما فى كتاب هلاكو أحضر الامراء واستشارهم فيما يكون من أمر هلاكو فقال الامراء نجمع العساكر من سائر البلاد ونخرج اليه ونقاتله أشد ما يكون من القتال ثم ان الملك المظفر قطز نادى فى القاهرة بان النفير عام الى الغزو فى سبيل الله تعالى ثم انه عرض العساكر وأرسل خلف عربان الشرقية والغربية فاجتمع من العساكر ما لا يحصى ثم انه أخذ فى أسباب جمع الاموال فاخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأنثى دينارا واحدا وأخذ من أجرة الاملاك والاوقاف شهرا واحدا وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا وأخذ من الترك الاهلية الثلث من المال وأخذ على الغيطان والسواقى أجرة شهر

وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة فبلغ جملة ما جمعه من الاموال فى هذه الحركة ستمائة ألف دينار فأنفق على العسكر والعربان وبرز خيامه الى الريدانية فلما كان أواخر شهر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة نزل السلطان الملك المظفر قطز من قلعة الجبل وهو فى موكب عظيم فلما نزل بالريدانية أمر بتوسيط كتبغافوين بك أمير هلاكو ومن كان معه من التتار ثم رحل من الريدانية ونزل بمنزلة الصالحية وأقام بها الى أن تكامل العسكر ثم رحل من الصالحية وجد فى السير الى ان وصل الى عين جالوت من أرض كنعان فتلاقى هناك عسكر هلاكو وعسكر السلطان قطز فكانت بينهما ساعة تشيب فيها النواصى وقتل من الفريقين ما لا يحصى عدده فكانت الكسرة على التتار فكسروهم وشتتوهم الى بيسان وكان ذلك فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة ثم وقعت بينهما وقعة ثانية على بيسان أعظم من الاولى فقتل من التتار نحو النصف وغنم عسكر السلطان منهم غنيمة عظيمة من خيول وسلاح وغير ذلك فلما جرى ذلك توجه السلطان قطز الى نحو الشام فدخلها فى موكب عظيم وجلس للحكم فخلع على الامير سنجر الحلبي واستقربه نائب الشام وخلع على الامير علاء الدين ابن صاحب الموصل واستقر به نائبا ثم انه أخذ فى أسباب استخلاص البلاد الشامية من أيدى أولاد بنى أيوب وكان غالبها فى أيديهم فمهد البلاد الشامية والحلبية وولى من يختار من عصبته من الامراء ثم بعد ذلك قصد التوجه نحو الديار المصرية فلما خرج من دمشق ووصل الى قريب من أرض الصالحية اتفق الامراء على قتله فكان كما قيل فى الامثال

لا تغتر ربا لحفظ والسلامه * فانما الحياة كالمدامه

والعمر مثل الكأس والدهر القدر * والصفو لا بد له من الكدر

وكان المشار اليه فى ذلك الوقت من الامراء الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى فلما وصل السلطان قطز الى القرين ركب السلطان فى الفضاء فرأى ارنبا فساق خلفه وساق معه الامراء وكان فيهم الامير بيبرس البندقدارى فلما ساق دنا منه الامير بيبرس ليقبل يده وكان السلطان قطز قد أنعم عليه بجارية مليحة من سبايا التتر فظن قطز أنه جاء يقبل يده بسبب ذلك فلما مد يده اليه قبض عليه وضربه بالسيف وحمل عليه بقية الامراء بالسيوف فقتلوه وتركوه ميتا ملقى على الارض ثم ساقوا وهم شاهرون سيوفهم الى أن وصلوا الى الوطاق فجلس الامير بيبرس على مرتبة السلطان قطز وأخذ المملكة بالقوة فشق ذلك على جماعة من المماليك الامراء لكون السلطان قطز قتل من غير ذنب وكان خيار ملوك الترك وله اليد البيضاء فى قيامه لدفع التتار عن البلاد الشامية وقد أشرفوا على الدخول الى الديار المصرية وكان قتل الملك المظفر قطز فى اليوم الخامس عشر من ذى القعدة

سنة ثمان وخمسين وستمائة ودفن هناك فى مكان قتله بالقرين وقيل نقل بعد ذلك ودفن فى مدرسته التى بالقرب من زاوية الشيخ خلف وكانت مدة سلطنته سنة الا أياما ثم تولى من بعده الامير بيبرس البندقدارى انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المظفر قطز وذلك على سبيل الاختصار والله سبحانه وتعالى أعلم

ذكر سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائى البندقدارى الصالحى النجمى

وهو الرابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية تسلطن بعد قتل الملك المظفر قطز فى يوم السبت الخامس عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة وتلقب بالملك القاهر أبى الفتوحات فلما تلقب بالملك القاهر عز ذلك على جماعة من العلماء فقال الصاحب زين الدين بن الزبير ما تلقب أحد بهذا اللقب فأفلح ولقد تلقب به جماعة من الملوك فلم تطل أيامهم فلما سمع ذلك ترك ذلك اللقب وتلقب بالملك الظاهر بيبرس وكان أصله تركى الجنس أخذ من بلاده وهو صغير فبيع لشخص يسمى العماد الصائغ ثم بعده اشتراه منه الامير علاء الدين ايدكين البندقدارى فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب واحتاط على موجوده أخذ بيبرس من جملة الموجود ثم ان الملك الصالح أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية وكان بيبرس هذا شجاعا بطلا أظهر فى يوم وقعة الافرنج التى كانت فى المنصورة فى أيام الملك المعظم توران شاه من الشجاعة ما لا يسمع بمثله فلا زالت الاقدار تساعده حتى بقى أتابك العساكر فى أول دولة الملك المظفر قطز فلما قتل قطز بقى بيبرس سلطانا كما تقدم فلما جلس على مرتبة السلطان قطز قبل له الامراء الارض وحلفوا أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يثبوا عليه وذلك الحلف على المصحف الشريف ثم أحضر خلعة وخلع على الامير فارس الدين أقطاى المستعرب واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه فلما تم أمره فى السلطنة قصد التوجه نحو الديار المصرية فدخل القاهرة فى الليل وطلع الى قلعة الجبل فلما طلع النهار نادى المنادى فى مصر والقاهرة ترحموا على الملك المظفر قطز وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس البندقدارى وكانت القاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز فلما تحقق الناس قتل الملك المظفر قطز حزنوا عليه لانه قتل من غير موجب وكانت له الراية البيضاء فى قيامه لدفع العدو عن البلاد وكان التتار قد أشرفوا على الدخول الى مصر ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب بقلعة الجبل وخلع على من يذكر من الامراء وهم الاتابكى فارس الدين اقطاى المستعرب واستمر أتابك العساكر كما تقدم وخلع على الامير لاجين الدرفيل واستقر به دوادارا كبيرا وخلع

على الامير بلباى الرشيدى واستقر به دوادارا ثانيا وخلع على الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى واستقر به أمير أخور كبيرا وخلع على الامير أيبك الافرم الصالحى واستقر به أمير جاندار وأنعم على الامير بدر الدين البيسرى الشمسى بتقدمة ألف وأنعم على الامير سيف الدين قلاون بتقدمة ألف وأنعم على الامير بدر الدين بكتوت المعزى الجوكندار بتقدمة ألف وأنعم على الامير عز الدين بيدغان المعروف بسم الموت بتقدمة ألف وأنعم على الامير بلبان الهارونى بتقدمة ألف وخلع على الامير جمال الدين أقوش النجيبى واستقر به استادارا العالية وخلع على الامير ركن الدين اباجى والامير سيف الدين بكجرى واستقر بهما حجابا ثم فصل الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة واستقر بالصاحب بهاء الدين ابن حنا وزيرا بالديار المصرية ﴿ أقول والصاحب بهاء الدين بن حنا هذا هو الذى بنى مكان الآثار النبوية المطل على بحر النيل واشترى الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال وأودعها فى ذلك المكان الذى أنشاه على بحر النيل وصارت الناس يقصدون ذلك المكان بسبب الزيارة فى كل يوم أربعاء ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب وخلع على مملوكه الامير بدر الدين بيليك الخازندار واستقر به نائب السلطنة وفوض اليه جميع أحوال المملكة وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تذكرته ان الامير بيليك هذا كان أصله من مماليك الظاهر بيبرس اشتراه صغيرا ورباه من حين كان الملك الظاهر أمير عشرة واستمر فى خدمته الى أن بقى الملك الظاهر سلطانا فخلع على الامير بيليك واستقر به نائب السلطنة وفوض اليه أمور المملكة جميعها وصار ينفذ الامور من غير مشورة السلطان قيل ان التاجر الذى باع الامير بيليك الى الملك الظاهر بيبرس كان فى سعة من المال والتجارة فدارت عليه الدوائر حتى افتقر وصار من جملة الحرافيش فلما دخل الى القاهرة قال له التجار ان مملوكك بيليك الذى بعته للملك الظاهر بيبرس قد صار عزيز مصر وأقبلت عليه الدنيا فلو أنك تدخل اليه وتذكر له حالك وما صرت اليه من الفقر فعسى ينعم عليك بشئ من الدنيا تستعين به على جور الزمان فكتب قصته ورفعها الى الامير بيليك وكان من مضمون تلك القصة هذين البيتين

قد صرت من بعد عز فى الهوان وقد * جار الزمان بضيق نلت منه أذا
والآن أقبلت الدنيا عليك كما * ترنى فلا تنسى ان الكرام اذا

فلما قرأها الامير بيليك قال من رفع هذه القصة فقيل له هذا التاجر الذى باعك للسلطان فلما رآه قام اليه واعتنقه وأجلسه الى جانبه فشكى اليه التاجر ما قد جنى عليه الزمان بجوره فأنعم عليه الامير بيليك بعشرة آلاف دينار وخلعة وفرس انتهى ذلك ، ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الظاهر بيبرس فلما تم أمره فى السلطنة رسم باحضار المماليك البحرية الذين كانوا

منفيين فى البلاد ثم أرسل عدة مكاتبات الى سائر من فى البلاد من النواب وأخبرهم بما قد جدد الله تعالى له من الملك وطلب منهم بذل الطاعة فأجابوه بالسمع والطاعة ثم ان الملك الظاهر لما ثبت فى السلطنة أراد أخذ خواطر الرعية بالافعال المرضية ليمحو ما جناه من السيآت وتعود مكارم الحسنات فابطل جميع ما كان أحدثه الملك المظفر قطز من أبواب المظالم عند خروجه الى تجريدة التتار وكتب به مسامح وقرئت على منابر مصر والقاهرة فطابت اليه نفوس الرعية وضجوا له بالادعية السنية فطابت به مصر ورق الهواء ومشى الذئب والشاة سواء وفيه يقول بعض الشعراء من أبيات

لم يبق للجور فى أيامكم أثر * الا الذى فى عيون الغيد من حور

وفى هذه السنة جاءت الاخبار من دمشق بأن نائب الشام سنجر الحلبى الذى كان الملك المظفر قطز ولاه نيابة الشام قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان وجمع أمراء دمشق وقبلوا له الارض وركب فى دمشق بشعار السلطنة وتلقب بالملك المجاهد وكتب بذلك الى سائر أعمال البلاد الشامية وخطب باسمه على منابر دمشق وأعمالها وكان الامير علم الدين سنجر الحلبى هذا لما ثقل أمره على الناس فى دولة الملك المنصور على بن أيبك التركمانى قبض عليه الملك المظفر قطز قبل أن يلى السلطنة وسجنه مدة فى الاسكندرية ثم أفرج عنه واستقر به نائب الشام فلما اقتتل الملك المظفر قطز وتولى الملك الظاهر بيبرس كما تقدم أظهر الامير سنجر العصيان وتسلطن بالشام فلما بلغ الظاهر بيبرس ما وقع من الامير سنجر كتب اليه كتابا وبخه فيه بقبيح فعله وأمره بالرجوع عن ذلك فعادت الاجوبة بالمخالفة وعدم الطاعة وقد وافقه على العصيان جماعة من النواب واضطربت أحوال البلاد الشامية والحلبية فى أوائل دولة الملك الظاهر بيبرس منها ما أفسده عسكر هلاكو من نهب البلاد وقتل العباد ومنها عصيان النواب وسلطنة سنجر واضطربت أحوال الملك الظاهر فى أوائل دولته ووثب عليه المماليك المعزية فقبض على جماعة من الامراء المعزية والمماليك وقتل منهم جماعة ونفى منهم جماعة حتى صفا له الوقت من الكدر وأمن الحذر ۞ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة فى يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب حضر من بغداد الى الديار المصرية شخص من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد وهو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الخليفة الناصر لدين الله ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى الهاشمى فلما بلغ الملك الظاهر قدومه خرج الى تلقيه فلما وصل الى المطرية تلاقى هنالك هو والامام أحمد العباسى وكان الامام أحمد هذا أسمر اللون وأمه أم ولد حبشية فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ونزل الامام أحمد عن فرسه واعتنقا ثم ركبا ومرا فى القاهرة ودخلا من باب النصر فزينت له القاهرة وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله فلما وصلا الى القلعة طلع الامام

أحمد مع السلطان الى القلعة وأنزله السلطان فى قاعة الاعمدة فأقام بها أياما ثم ان الملك الظاهر قصد أن يثبت نسبا للامام أحمد بأنه من ذرية بنى العباس فان الخلافة كانت شاغرة من حين قتل الخليفة المستعصم بالله فى سنة ست وخمسين وستمائة وكان قدوم الامام أحمد الى الديار المصرية فى سنة تسع وخمسين وستمائة فكانت مدة شغور الخلافة نحو أربع سنين الا أشهرا فأمر الملك الظاهر بعقد مجلس فى قاعة الاعمدة وجمع القضاة ومشايخ العلماء ومشايخ الصوفية وأعيان مشايخ الاولياء وسائر الامراء وأرباب الدولة وكان فى صدر المجلس المشار اليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام رضى الله عنه فلما تكامل المجلس تأدب الملك الظاهر مع الامام أحمد وجلس بين يديه بغير مرتبة ثم ان السلطان أمر باحضار العربان الذين حضروا صحبة الامام أحمد من بغداد وكان فيهم طواشى من بغداد فشهدوا كلهم بين يدى قاضى القضاة تاج الدين الشافعى ابن بنت الاعز بان الامام أحمد هذا هو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الخليفة الناصر لدين الله المتصل النسب الى العباس رضى الله عنه فثبت ذلك على يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز وسجله على نفسه وحكم بصحة ذلك فلما ثبت نسب الامام أحمد بايعه القضاة بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة وفوض اليه أمر البلاد الاسلامية وما يضاف اليها وما سيفتح عليه من البلاد الكفرية فلما كان يوم الجمعة أمر السلطان الامام أحمد بأن يخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الامراء بالجامع فخطب الامام أحمد خطبة بليغة وأثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى رد الخلافة لبنى العباس فلما كان يوم الاثنين رابع شهر شعبان من السنة المذكورة خرج الملك الظاهر الى نحو أرض المطرية وضرب هنالك خيمة كبيرة وجلس على كرسى والامراء بين يديه ثم ان القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السر الشريف نصب له هنالك منبرا وصعد عليه وقرأ على الامراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر فلما فرغ من قراءته أحضروا للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة وهى جبة سوداء بطوق ذهب وعمامة سوداء بعذبة ذهب وسيف بداوى متقلد به حمائلى فلما لبس خلعة السلطنة ركب فرسا بزنسرج ذهب وكنبوس ودخل القاهرة من باب النصر وعمر بالمدينة وهو لابس وزينت له وهو لابس شعار السلطنة كما تقدم والامراء جميعهم مشاة بين يديه والصاحب بهاء الدين بن حنا حامل التقليد على رأسه حتى طلع الى القلعة وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله ثم ان السلطان كتب الى سائر أعمال مملكته بأخذ البيعة الصحيحة من الخليفة المستنصر بالله أحمد وهو أول خليفة بايع الملوك الترك بمصر ثم ان السلطان أخذ فى أسباب تجهيز الامام أحمد وعوده الى بغداد فأقام له برك عظيم وعين معه عسكرا فكان جملة ما انفقه الملك

الظاهر على تجهيز الامام أحمد من المال مائة ألف دينار وستين ألف دينار وقد تقدم أخبار ذلك فى أول التاريخ عند أخبار الخلفاء فلما انتهى شغل الامام أحمد ودع السلطان ونزل من القلعة فنزل السلطان معه الى المطرية وسائر الامراء فودع السلطان الامام أحمد وعاد الى القلعة وسار الامام أحمد بمن معه من العساكر السلطانية فلما وصل الى الفرات بلغ قرابغا أمير التتار الذى استخلفه هلاكو على بغداد مجىء الامام ومعه عساكر السلطان فخرج اليه قرابغا فى عسكر ثقيل من التتار فتلاقى العسكران على مكان يسمى الانبار فحمل عسكر السلطان على التتار فكسروهم كسرة قوية وهرب التتار فلما دخل الليل هجم التتار على عسكر السلطان فأحاطوا بهم فما نجا منهم الامن طال عمره ونهبوا ما كان معهم من سلاح وخيول ومال وأما الامام أحمد فلم يعلم له خبر ولا وقف له على أثر فمن الناس من يقول انه قتل تحت الليل وقت الكبسة ومن الناس من يقول انه نجا بنفسه وهو مجروح مع طائفة من العرب فأقام عندهم أياما ومات والله أعلم وكانت هذه الواقعة فى أواخر سنة تسع وخمسين وستمائة فلما جاءت الاخبار الى القاهرة بما جرى للامام أحمد تأسف الملك الظاهر بيبرس على ذلك غاية الاسف وراح ما صنعه فى البارد فكان كما قال الشاعر فى المعنى واجاد

انفقت كنزمدائحى فى ثغره * وجمعت فيه كل معنى شارد

وطلبت منه جزاء ذلك قبلة * فابى وراح تغزلى فى البارد

❁ ثم دخلت سنة ستين وستمائة فيها جاءت الاخبار بأن شخصا من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد أيضا قد وصل الى الديار المصرية فلما بلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس خرج الى تلقيه فلاقاه من الريدانية وصعد به الى القلعة وانزله بالبرج الكبير الذى بالقلعة وكان هذا الامام أحمد الثانى مستخفيا عند جماعة من العرب فى قرية من أعمال بغداد فسبقه الامام أحمد بن الخليفة الظاهر الى مصر فلما قتل الامام أحمد حضر الى مصر فعقد له الملك الظاهر مجلسا ثانيا وجمع فيه القضاه وفعل به كما فعل أولا وكان قد حضر معه الامير عيسى بن مهنا وجماعة كثيرة من العربان فشهدوا بين يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز بأن هذا الامام أحمد هو ابن على بن أبى بكر ابن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر ابن الخليفة المقتدى ابن محمد الذخيره العباسى الهاشمى فثبت ذلك على يد قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز وحكم بصحة ذلك ثم ان القضاة بايعوا الامام أحمد بالخلافة ولقبوه بالحاكم بأمر الله وثبت نسبه وتولى فى ذلك المجلس الخلافة ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بالسلطنة ثانيا وبايع أعيان الدولة على قدر طبقاتهم ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها وينقش على الدنانير والدراهم اسمهما وان يقدم اسم الخليفة فى الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه ثم أنه اسكن الامام أحمد فى مناظر

الكبش التي أنشأها الامير أحمد بن طولون وكانت مناظر الكبش مطلة على بحر النيل ورتب له ما يكفيه فى كل يوم هو وعياله وأمره بأن يصعد الى القلعة فى أول كل شهر ويهنى السلطان بالشهر فهو أول خلفاء بنى العباس بمصر وهو جد الخلفاء الذين تولوا الخلافة بمصر فهذا كان سبب نقل الخلافة من بغداد الى مصر على يد الملك الظاهر بيبرس وهذا من جملة فضائله وقد ورد فى بعض الاخبار أن الخلافة لاتزال فى بنى العباس حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فتنقطع بعد ذلك قال بعض الشعراء فى حق الملك الظاهر بيبرس

يا أسد الترك ويا ركنهم * ويا آخذ الثار بعد المخافه
كسرت الطغاة جبرت العفاه * قطعت الفرات وصلت الخلافه

ثم ان الملك الظاهر لما استقرت الخلافة بمصر جعل لكل مذهب من المذاهب قاضيا كبيرا وتحت يده نواب وكان قبل ذلك فى الدول المتقدمة قاض فرد كبير شافعى وكان يولى من تحت يده نوابا من المذاهب الثلاثة وآخر من كان يفعل ذلك قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز الشافعى فابطل ذلك الملك الظاهر بيبرس وقرر لكل مذهب قاضيا كبيرا ويولى من تحت يده نوابا فهو أول من قرر القضاة أربعة وجعل لمصر نوابا وحدها وللقاهرة نوابا وحدها وكان ذلك فى أواخر سنة ستين وستمائة ۞ ثم دخلت سنة احدى وستين وستمائة فيها رتب السلطان لعب القبق وفيها وقع الغلاء بمصر وشح النيل حتى عدمت الاقوات فأمر السلطان بجمع الحرافيش كلهم وكانوا نحوا ألفى حرفوش ففرقهم على الامراء وأخذ لنفسه منهم جانبا وأضاف لولده الملك السعيد منهم جانبا وأضاف الى الامير بيليك نائب السلطنة منهم جانبا ورسم لكل واحد منهم فى كل يوم برطل خبز ونصف رطل لحم وأمرهم أن لا يسألوا بعد ذلك أحدا من الناس وفيها كانت وفاة الشيخ شرف الدين عبد العزيز الانصارى الحموى شيخ الشيوخ بحماة وكان مولده فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ووفاته سنة احدى وستين وستمائة فكانت مدة حياته خمسة وسبعين سنة وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد فن ذلك قوله فى الغزل

سبحان مورثه من حسن يوسف ما * لم يبق فى الجرلى والصبر من حصص
أقام للشعراء العذر عارضه * فكم لهم فى دبيب لنمل من قصص

۞ ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة وفيها حضر الى الملك الظاهر بيبرس جماعة من ملوك الشرق يهنؤنه بالسلطنة فنهم الملك الصالح اسمعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب الجزيرة وأخوه الملك المظفر فلما قدموا على الملك الظاهر أكرمهم وأقرهم على ما بأيديهم من الممالك التى فى الشرق وفيها اختن السلطان ولده الملك السعيد محمدا ورسم للامراء والجند وبقية الرعية ان كل من كان له

ولد فليطلع به الى القلعة حتى يختتن مع ابن السلطان فأحضر الناس أولادهم فبلغ عددهم نحو ألف وستمائة وخمسة وأربعين ولدا خارجا عن أولاد الامراء والاعيان فرسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام أبيه وأمّا أولاد الحرافيش فرسم لكل واحد منهم بكسوة ومائة درهم ورأس غنم واستمرّ المهم عمالا فى القلعة سبعة أيام ۞ ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة فيها كثر الحريق بمصر والقاهرة وقد أشيع بين الناس ان هذا من فعل بعض النصارى فرسم السلطان أن تجتمع سائر النصارى فلما اجتمعوا أمر بحرقهم فجمعت لهم الاحطاب والحلفاء فعند ذلك طلع الاتابكى فارس أقطاى المستعرب الى القلعة واجتمع بالسلطان وتشفع فيهم فقرّر عليهم السلطان مالا جزيلا نحو خمسين ألف دينار وأن يصلحوا ما قد أفسدوا من الدور التى احترقت فتخلصوا من الحرق على ذلك الشرط الذى قرّر عليهم ۞ ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة فيها سافر السلطان الى الشام وتوجه من هنالك الى صفد فافتتحها وعمر بها البرج الكبير ورجع الى الديار المصرية وفيها أخرج السلطان تجريدة الى مدينة سيس وكان باش العساكر الامير عز الدين بيدغان المعروف بسم الموت والامير قلاون الالفى وجماعة من الامراء والمماليك السلطانية فخرجوا من القاهرة فى موكب عظيم وتوجهوا الى نحو بلاد الشمال فلما وصلوا الى مدينة سيس وحاصروها أعلن أهلها بالامان ثم توجهوا الى قلعة اياس ففتحوا عدة قلاع كانت بيد الارمن ثم رجع الامراء الى الديار المصرية وهم فى غاية النصر بهذه الفتوحات العظيمة التى فتحت على أيديهم وقد هنى بهذه الابيات بعض الشعراء الامير بيدغان عند عوده

بقيت مدى الدنيا بالادولة * لها منك سهم فى اللقا ورسيس

تسوق لها عز الفتوح جنائبا * وأوّل هاتيك الجنائب سيس

۞ ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة فيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة وأمر باحراقها وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمور وأراقها ومنع الخانات من الخواطى واستتاب العلوق واللواطى وعم هذا الامر سائر الجهات المصرية وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات الشامية فطهرت فى أيامه سائر البقاع ومنع الناس من ذلك غاية الامتناع ثم أحضروا اليه فى أثناء هذه الواقعة شخصا يسمى ابن الكازرونى وهو سكران تابعه فأمر بصلبه فصلب بعد حد عظيم فى مستحقه وعلقت الجرّة والقدح فى عنقه فلما عاين أرباب المجون والخلاعة ما جرى لابن الكازرونى امتثلوا أمر السلطان بالسمع والطاعة وقد قال القائل

لقد كان حدّ السكر من قبل صلبه * خفيف الاذى اذ كان فى شرعنا جلدا

فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي * ألا تب فان الحد قد جاوز الحدا

قال

قال الشيخ شمس الدين بن دانيال صاحب كتاب طيف الخيال لما قدمت من الموصل الى الديار المصرية في الدولة الظاهرية سقى الله من سحب الانعام عهدها وأعذب مشارب وردها فوجدت مواطن الانس دارسه وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسه ومن لذة العيش آيسة وهزم أمر السلطان جيش الشيطان وتولى الخوان والى القاهرة اهراق الخمور واحراق الحشيش وتبديد المزور واستتاب العلوق واللواطى وحجر البغاة والخواطى وشاعت بذلك الاخبار ووقع الانكار واختفى المسطول في الدار وقد آذى الخلاعة غاية الاذية وصلب ابن الكازروني وفي رقبته نباذية فدعاني بعض أصدقائي الى محله وأنزلني من عياله وأهله واعتذر الى عن تقصيره في الاكرام اذلم يأتني بمدام وقال قد غلب على ظني أن أبا مرة قد مات وعدم من الرفاقات فقم بنا نبكيه ونصف الحالة ونرثيه فابتدأت وقلت في معنى هذه الواقعة التي وقعت

مات ياقوم شيخنا ابليس * وخلا منه ربعه المأنوس
ونعاني حدسي به اذ توفي * ولعمري مماته محدوس
هو لولم يكن كما قلت ميتا * لم يغير لأمره ناموس
أين عيناه تنظر الخمر اذ عطـ * ـل منها الراووق والمحريس
ومواعينها تكسرن والخمـ * ـار من بعد كسرها محبوس
أين عيناه والحشائش اذ تحـ * ـرق بنار تراع منها المجوس
قلعوها من البساتين اذذا * ك صغارا خضراء وهي عروس
والحرافيش حولها يتباكوا * بدموع يطفي بهن الوطيس
أين عيناه تنظر المزر قد أو * حش منه الماجور والقادوس
وبجين البقول قد بددوه * وهو بالترب خلطه مبسوس
والقناني مكسرات كما قد * كسرت في دجى الليالي الكؤس
وذوو القصف ذاهلون وقد كا * دت على سيلها تسيل النفوس
وفتى قائل لقد هان عندي * بعد هذا في شربها التجريس
كم خليع يقول ذا اليوم يوم * مثل ما قيل قمطرير عبوس
وقضيب ونرجس وسعاد * باكيات وزينب وعروس
ذي تنادي حريفها لوداع * لاعناق لاضم لاتبويس
وينادي قوادهم شه علينا * نجم ستي قد نكسته العكوس
من لنا منصف لجور زمان * لاتحاب فيه ولاخندريس
وترى زنكلون يزعق زيتو * نوناقوا يصيح ياجاسوس

أين شكشا كتي وطاجنة الفا * روأين المـــزراق والدبوس
نهبوا الحصن والطراطير والطا * روضاعت خريطتي والفـلوس
ارحـلوا هـذه بلاد عفاف * وسـعود الخـلاع فيها نحوس
من لنا بعـد ذلك الشيخ الف * وسمـير ومؤنس وأنيس
لا ترى بعـده فتى ضاحك السـن * وكل يـدوله تعبيس
فسأبكيه أرمد العين حتى * لشفائي يعيش جاليـنـوس
(قال ابراهيم المعمار) لما وقفت على قصيدة الشيخ شمس الدين بن دانيال قلت لو أني أدركت ذلك الزمان لرثيت الخلاعة والمجون بهذا الزجل المصون
منعونا ماء العنب ياسـين * رب سـلم لم يمنعونا التـين
هات قـل لي اذا منعنا الراح * وحرمنا من الوجوه الصـباح
بيش نبقى نستجلب الافـراح * والخليـع كيف نراه يعيش مسكين
عـلى ماء ذا العنب بكي الراووق * والشمع صار بعـبرتوا مخنوق
والوتريات من الغـروب للشروق * من أنينه تسمع له في الليـل حنين
ولقـد هـان حضرة الخضر * وتلون ذا الزهـر وتغـير
وبغيظـه ريحانا انتصر * وعلى وجهـه صلب اليسمـين
والنـدامى بجميعهـم في شتات * حزنوا كأن مات لهـم أموات
هـذا قاعـد يبكي على ما فات * وذا ينـدب وذا الآخر حزين
ولي صاحب زمان معي كان طبيب * جاني وقال لي مشـتاق أنا يا أديب
لجـريره لو أنها مـن زبيب * أرى قلـبي يرتاح لهـذا الحين
فقصـدنا المنيـة الى شـبرا * مالقينا رحنا طـنان لخـرا
وفي قليـوب قالوا ولا نظـرا * درنا مس مرصـفا الى شـبين
وصـعدنا قبـلي ذا البلـدان * وتبشنا طموه لدير شـعران
ما أمر الطريق الى حـلوان * أخرب الله طـره عـلى التبـين
قـد تعبنا مما نجـد السـير * ولا أصبنا في ذا السفر من خـير
جئنا عنـد المسا لواحـد دير * فوقفنا زعـق للشيخ أبو مرتين
ونقـول له يا أبونا قـد جئنالك * عسى جره بحياة رها ينـالك
ويميتـك ربي عـلى دينالك * وانا ندري انه أحسـن دين
لا نا نضحـك عليـه ونتهزر * حـتى لا يكبح ويتخـزر
ووهبناه من بيننا مـنزر * ووقفنا نخاطبـه باللـين

فدخل غاب زمان ونحن وقوف * وانتوا تدروا ايش وقفة الملهوف
وانا ندعوا ذاك الدعا الموصوف * انه يفتح وأخي يقول آمين
بعد ساعة الاوهو قدرد * جايقول بالله رآكم حد
ونصيب من وراه شيخ يرعد * ومعه جره اذ يصيح يا أسين
كم ندور رفقا لقيت عندى * الاهذه وأظنها دردى
قت متمدد من الفرح يدى * ونصيح له من الظما أروين
أخذت نسكب منها قنينه * جبتها كالمسك رقتينه
سودا ملانه للطينه * قلت معماردى نحسة للطين
فرجعنا ايش رجعة المكسور * قلت كيف العمل فقال ندور
فى المقيلات ونقتنع بالمزور * ولا نرجع من ذا السفر متخيبين
حين قطعنا الاياس من الخمار * جئنا نسعى له أشن المزار
قال نشرب ما عجين فقلت فشار * فاذا الكعك أصل من ذا العجين
وأنا مالى عنه سوى ابن الكروم * والشراب المعتق المعلوم
تتبعه لو يصير باقصى الروم * ولو انا ندخل لقسطنطين
ولا نهوى الا الشراب القديم * ومعشوق جديد يكون لى نديم
تنفق المال على ايش يسمى عديم * وأنا ممكن فى غاية التمكين
أرخوا بالله توبة المعمار * وأكتبوها بالتبرطول أعمار
قولوا من هجرة النبى المختار * سبعمائة سنة خمس وأربعين

انتهى ما أوردناه مما قالت الشعراء فى هذه الواقعة ومن هنا نرجع الى أخبار التاريخ (ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة) فيها توجه السلطان نحو الشام وحاصر مدينة انطاكية ففتحها فى يوم الجمعة ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة ثم توجه الى بغراس ففتحها ورجع الى الديار المصرية وهو فى غاية النصرة وزينت له القاهرة (ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة) فيها حج السلطان الى بيت الله الحرام فخرج من القاهرة فى ثالث شوال وتوجه الى غزة فاخذ الاقامات التى كان عباها له نائب الشام ثم توجه من غزة الى الكرك ثم توجه من الكرك الى المدينة الشريفة فزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ثم توجه من هنالك الى مكة فدخلها فى خامس ذى الحجة وكان فى تلك السنة الوقفة يوم الجمعة وكان ولد السلطان السعيد محمد توجه صحبة المحمل بالحاج المصرى فلما قضى حجه رجع الى الشام ورجع ابنه الملك السعيد صحبة المحمل مع الركب المصرى (ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة) فيها رجع السلطان الى القاهرة وأقام بها الى شهر شعبان ثم توجه الى زيارة

بيت المقدس والخليل عليه السلام فزارهما ورجع الى الديار المصرية (ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة) فيها أرسل صاحب طرابلس تقدمة عظيمة للسلطان وأظهر الطاعة فقبلها السلطان وأقره على ما كان بيده من البلاد وفى هذه السنة رتب السلطان خيل البريد بسبب سرعة أخبار البلاد الشامية فكانت أخبار البلاد الشامية ترد عليه فى الجمعة مرتين وقيل انه أنفق على ذلك جملة مال حتى تم له ترتيب ذلك وكان خيل البريد عبارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق وفيها عدة خيول جيدة وعندها رجال يعرفون بالسواقين ولا يقدر أحد يركب من خيل البريد الا بمرسوم سلطانى وكان عند كل مركز ما يحتاج اليه المسافرون من زاد وعلف وغير ذلك وهذا كله لاجل سرعة مجيء أخبار البلاد الشامية وغيرها من البلاد وقيل ان الملك الظاهر بيبرس هذا كان يعمل موكبا بمصر وموكبا بالشام وكانت خيل البريد مرصودة بسبب ذلك حتى لقد قال القائل فى المعنى

يوما بمصر ويوما بالشام ويو * ما بالفرات ويوما فى قرى حلب

واستمر هذا الامر باقيا بعد الملك الظاهر بيبرس مدة طويلة ثم تلاشى أمره قليلا قليلا حتى بطل فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق عندما قدم تيمورلنك الى الشام وأخرب البلاد الشامية وذلك فى سنة ثلاث وثمانمائة فعند ذلك بطل أمر خيل البريد مع جملة ما بطل من شعائر مملكة الديار المصرية انتهى (ثم دخلت سنة سبعين وستمائة) فيها جاءت الاخبار بأن التتار قد تحركوا على البلاد ووصلوا الى الفرات وملكوا البيرة فخرج اليهم السلطان ومعه سائر الامراء وكان جاليش العسكر الامير قلاوون الالفى والامير بيسرى فتلاقوا مع التتار على الفرات فكان بينهم وقعة عظيمة فقتل منهم ما لا يحصى عدده وأسر منهم جماعة كثيرة فلما دخل السلطان الى البيرة خلع على نائبها وأقره على حاله وفرق جملة من المال على من بها من الرعية لانهم قاتلوا التتار قتال الموت حتى كسروهم كسرة قوية فأقام السلطان فى البيرة أياما ثم رجع الى الشام فأقام بها شهرا ثم توجه الى الديار المصرية فدخلها فى موكب عظيم وزينت له وحملت القبة والطير على رأسه (ثم دخلت سنة احدى وسبعين وستمائة) فيها هجم الوباء على الديار المصرية ومات فى تلك السنة ما لا يحصى من الخلائق من نساء ورجال وأطفال وعبيد وجوار وأقام نحو ستة أشهر (ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة) فيها كان النيل شحيحا ووقع الغلاء وقلت الغلال فى سائر أعمال الديار المصرية وفى هذه السنة توفى الشيخ عبد العظيم ابن الجزار الشاعر وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد وكان مولده فى سنة احدى وستمائة ووفاته فى سنة اثنتين وسبعين وستمائة فكانت مدة حياته احدى وسبعين سنة وعاصر الشيخ أثير الدين أبا حيان المغربى والشيخ قطب الدين القسطلانى وغيرهم من العلماء ومن

شعره الرقيق قوله فى نفسه

من منصفى من معشر * كثروا على وأكثروا
صادقتهم وأرى الخرو * ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل فى السطو * ر ومحوه يتعذر
واذا أردت كشطته * لكن ذلك يؤثر

(ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة) فيها زوج السلطان ولده الملك السعيد محمد بنت الامير سيف الدين قلاوون الالفى وكان له مهم عظيم أقام سبعة أيام بالقلعة وكان يظن انه اذا زوج ابنه بينت الامير قلاوون الالفى يكون له من بعده عونا على تقلب الزمان فجاء الامر بخلاف ذلك فسطا الزمان عليه وأخذه من الجانب الذى يركن اليه (ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة) فيها جرد السلطان الى نحو بلاد النوبة وسبب ذلك أن ملك النوبة دخل مدينة اسوان ونهب ما فيها وأحرقها فلما بلغ السلطان ذلك أرسل الامير شمس الدين آق سنقر الفارقانى استادار العالية والامير عز الدين ايبك الافرم أمير جاندار وجماعة من الامراء العشراوات والمماليك السلطانية فلما وصلوا الى النوبة تقاتلوا مع ملك النوبة على أسوان فانكسر ملك النوبة وهرب وقتل من عسكره جماعة كثيرة وأمسك أخوه وأولاده وأقاربه وغنم منهم عسكر السلطان غنائم كثيرة من جوار وعبيد وخيول وغير ذلك (ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة) فيها جاءت الاخبار بأن التتار زحفوا على البلاد فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتار فكسرهم وقتل منهم خلائق لا تحصى وكان ملك التتار يقال له ابغا فلما انكسر ملك التتار هرب فتبعه السلطان الى نحو الابلستين فكانت بينهما هنالك وقعة عظيمة قتل من الفريقين نحو مائة ألف انسان فانكسر ابغا ملك التتار وهرب فتبعه السلطان الى نحو زبيد ثم رجع من هنالك السلطان الى قيسارية وحاصر أهلها فأرسلوا يطلبون من السلطان الامان فأرسل لهم الامان على يد الامير بيسرى فسلموا المدينة فدخلها السلطان وكان يوم دخوله الى المدينة يوما مشهودا فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين وحكم بين الناس وأقام بها أياما ثم رحل وتوجه الى دمشق (ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة) فيها دخل السلطان الى حلب فتوعك جسده وأخذته الحمى وسلسل فى المرض فأسقاه الحكماء دواء مسهلا فأفرط فى الاسهال وثقل فى المرض فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق فمات فى بعض ضياع دمشق فلما مات كتم موته عن العسكر وحمل فى محفة الى أن دخل دمشق فدفن هنالك ليلا وكان موته فى يوم الخميس ثامن عشرى شهر الله المحرم سنة ست وسبعين وستمائة ومات وله من العمر نحو ستين سنة وكان

ملكا عظيما جليلا مهيبا كثير الغزوات خفيف الركاب يحب السفر والحركة فى الشتاء والصيف وكان مشهورا بالفروسية فى الحرب وله اقدام وعزم وقت القتال وله ثبات عند التقاء الجيوش فى الحرب وكان يلقب بأبى الفتوحات لكثرة الفتوحات فى أيامه وكان له موكب بمصر وموكب بالشام كما تقدم ذلك عند خيل البريد وكان رنكه سبع اشارة لشجاعته وقوة بأسه وكان كريما سخيا على الرعية باسط اليد يفرق الغنائم التى تحصل من الفتوحات على الرعية حتى يرغبهم فى القتال وقت الحرب وكان محبا لجمع الاموال كثير المصادرات للرعية لاجل الغزوات والتجاريد وينفق ذلك على العسكر وكان مهيب الشكل حسن الوجه طويل القامة مستدير اللحية الغالب فى لحيته البياض وكان مبجلا فى موكبه كفؤا للسلطنة منقادا للشريعة يحب العلماء والصالحين ويحب فعل الخير وله بر ومعروف وآثار ولاسيما رده الخلافة لبنى العباس بعدما كادت أن تنقطع عنهم فردها لهم كما تقدم ذلك وقد انفق على ذلك جملة مال حتى صارت الخلافة بمصر وكان خيار ملوك الترك بمصر وفى ذلك أقول

تاريخه فى الملوك أضحى * يحير العرب والاعاجم
فاكتبه بالتبر لا بحبر * وانسب لأفعاله العظائم
اختاره الله من امام * لقمع أهل الفساد صارم
قد أظهر العدل فى الرعايا * وأبطل الجور والمظالم
له بقلب الملوك رعب * أغنى عن السمر والصوارم
فالله يرحمه كل حين * مادام هذا الوجود قائم

قيل لما توفى الملك الظاهر بيبرس كتم الامير بيليك نائب السلطنة موته خوفا من التتار لئلا يرجعوا الى البلاد ثم احتاط على خزائن المال والبرك السلطانى وقصد التوجه الى الديار المصرية فكانت المحفة تمشى فى الموكب وقدامها الجنائب وهو يظهر أن السلطان مريض ورتب حضور الاطباء على العادة فكان لا أحد يجسر أن يقرب الى المحفة واستمر الامر على ذلك حتى دخل الى مصر القاهرة وطلع قلعة الجبل فعند ذلك أشيع موت السلطان وتسلطن ولده الملك السعيد وقد رثاه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف بهذه الابيات

الله أكبر انها لمصيبة * منها الرواسى خيفة تتقلقل
لهفى على الملك الذى كانت به الدنيا تطيب فكل قفر منزل
الظاهر السلطان من كانت له * من على كل الورى وتطول
لهفى على آرائه تلك التى * مثل السهام الى المصالح ترسل

لهفى

لهفي على تلك العزائم كيف قد * غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل
ما للرمال تحولتها رعدة * لكنها اذ ليس تعقل نعقل
سهم أصاب ومارمى من قبله * سهم له في كل قلب مقتل
أنا ان بكيت دما فعذري واضح * ولئن صبرت فانني أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فأدمع * منهلة في أوجه تتهلل

وكانت مدة سلطنة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية والبلاد الشامية سبع عشرة سنة وشهرين ونصفا ولما مات خلف من الاولاد عشرة ثلاثة ذكور وهم الملك السعيد محمد والملك العادل سلامش وسيدى خضر ولكنه لم يتسلطن وخلف من البنات سبعة (وأما فتوحاته) التى افتتحها فى أيامه فهى قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبغراس والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيثا والمرقبة وحلب وبانياس وطرسوس وكانت هذه البلاد بأيدى الافرنج (وأما مافتحه من بلاد الشرق) فهى مدينة سيس أخذها بالامان ودركوش وتليش وكفردنين ورعيان ومرزبان وكينوك وأدنة والمصيصة (وأما الذى صار اليه من بلاد المسلمين) فهى دمشق وبعلبك وقلعة الصبية وقلعة شيزر وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وتل باشر وصهيون وقلعة الكهف والقدموس والخوابى والكرك والشوبك وبيت المقدس ومدينة الخليل عليه السلام (وأما ما افتتحه من بلاد السودان) فهى النوبة وأعمالها وافتتح قلعة العميدين من أعمال برقة وافتتح عدة جزائر من أعلى الجنادل (وأما ما أنشأه من العمائر فى البلاد) فهو ما جدده فى الحرم الشريف النبوى وجدد عمارة قبة الصخرة ببيت المقدس وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام (وأما ما أنشاه بالديار المصرية وأعمالها) فمن ذلك قناطر شبرامنت بالجيزة وعمر سور مدينة الاسكندرية وجدد بناء المنار الذى بها وعمر منارا بثغر رشيد وردم فم بحر دمياط بالقرابيص حتى لا تدخل اليه مراكب الافرنج وعمر الشوانى وأعادها الى ما كانت عليه بالصناعة وحفر بحر اشموم طناح وعمر القلاع التى ببلاد الشرق التى كان هلاكو ملك التتار قد أخربها وعمر مدرسة بدمشق (وأما ما أنشاه فى القاهرة من العمائر) فهى المدرسة التى بين القصرين بجانب المدرسة الصالحية وعمر الجامع الكبير الذى فى زقاق الكحل خارج الحسينية وأنفق عليه جملة مال من وجه حل من الغنائم التى كانت تفتح عليه من بلاد الافرنج وغيرها من البلاد وكان هذا الجامع ساحة يلعب فيها المماليك القبق وجدد عمارة الجامع الازهر وأعاد فيه الخطبة بعد ما أقام وهو خراب من أيام الحاكم بأمر الله وعمر القصر الابلق بدمشق وعمر خانا بالقدس الشريف وجدد حفر

خليج الاسكندرية وباشر حفره بنفسه وأنشأ ضيعة على فم وادى العباسية وسماها الظاهرية وأخبار الملك بيبرس كثيرة فى عدة مجلدات ولكن الذى ذكرناه هنا من أخباره هو الصحيح وغالب أخباره فيها الزيادة والنقصان وهى موضوعة ومن انشائه بالديار المصرية القناطر التى على بحر أبى المنجا شعيا ومن انشائه قناطر السباع التى بالقرب من ميدان الجبل ومن انشائه البرج الكبير الذى بقلعة الجبل عند طريب التبر قال الشيخ شمس الدين بن الوردى فى ذلك

الملك الظاهر أخباره * تشنف الراحل والقاطن
تأملوا آثاره وانظروا * ما فعل الظاهر بالباطن

(وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء) فهم شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه من أكابر علماء الشافعية وكان يلقب فى أيامه بسلطان العلماء وكانت له كرامات خارقة ودفن بالقرافة الصغرى وتوفى الامام أبو شامة وكان من كبار العلماء وتوفى قاضى القضاه الشافعى ابن بنت الاعز وتوفى الشيخ أبو الحسن ابن بنت الاعز وتوفى الشيخ مجد الدين ابن دقيق العيد والد الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد وتوفى القرطبى صاحب التذكرة وتوفى الشيخ ناصر الدين الطوسى وتوفى اللورقى وكان من كبار العلماء وتوفى غير هؤلاء من العلماء والاعيان جماعة كثيرة انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الظاهر أبى الفتوحات بيبرس البندقدارى وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر سلطنة الملك السعيد أبى المعالى محمد

بركة خان ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائى البندقدارى الصالحى النجمى وهو الخامس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ۞ بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الظاهر وكان مولده فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة وانما سمى بركة خان على اسم جده لابيه فلما تسلطن وجلس على سرير الملك كان القائم بتدبير دولته الامير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة خلف الامراء وتم أمره فى السلطنة ومشى على نظام أبيه واستمر على ذلك مدة يسيرة ثم ان الامير بيليك نائب السلطنة مرض وسلسل فى المرض حتى مات وكان أميرا دينا خيرا كثير البر للفقراء والمساكين فلما مات كثر عليه الحزن والاسف فلما انقضت أيامه طاش الملك السعيد واستبد برأيه فقبض على جماعة من أمراء والده وهم الامير سنقر الاشقر والامير بيسرى وكانا جناحى والده ثم استقر بالامير آق سنقر الفارقانى نائب السلطنة عوضا عن الامير بيليك فأقام فى نيابة السلطنة مدة يسيرة ثم قبض عليه وسجنه بثغر الاسكندرية ثم أرسل بخنقه فخنق ودفن فى السجن

ثم ان الملك السعيد استقر بالامير كوندك نائب السلطنة عوضا عن الامير آق سنقر
الفارقانى (ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمائة) فيها جاءت الاخبار بأن نائب الشام خامر
وخرج عن الطاعة فجرد اليه الملك السعيد وخرج بنفسه فلما دخل الى الشام نزل بالقصر
الابلق الذى أنشاه والده بدمشق فخامر عليه هناك جماعة من الامراء وقد بلغهم
عنه انه يريد قبض جماعة منهم فلما تحققوا ذلك خرجوا من دمشق وتوجهوا الى المرج
الاصفر وأقاموا هناك فلما بلغ الملك السعيد ذلك أرسل اليهم بعض الامراء ليمشى بينهم
وبين السلطان بالصلح فأبوا عن ذلك وانفصل المجلس وكلهم مانع فلما عاد الجواب بالمنع ركبت
خوند أم الملك السعيد وكانت سافرت مع ولدها الملك السعيد الى الشام فلما تغير خاطر
الامراء على السلطان ركبت خوند بنفسها وتوجهت اليهم فى مكان يسمى الكسوة
خارج دمشق فلما اجتمعت بهم مشت بينهم بالصلح فأبوا من ذلك فرجعت من عندهم
والمجلس مانع ثم ان الامراء الذين خامروا اقصدوا ان يتوجهوا نحو الديار المصرية فلما
بلغ الملك السعيد ذلك رحل من دمشق وأخذ من بقى معه من العسكر والامراء وقصدوا
التوجه الى القاهرة فجمع معه من عربان جبل نابلس جماعة كثيرة والتف عليهم جماعة
من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس فلما وصل الى غزة
أنفق عليهم الاموال فأخذوا منه النفقة وتسحب من عنده العربان وعسكر دمشق
وطرابلس ولم يبق معه من العسكر المصرى الا القليل فلما خرج من غزة جد فى السير
حتى دخل المطرية فلما بلغ الامراء الذين كانوا بمصر مجىء السلطان على حين غفلة
خرجوا اليه على حمية وكان من لطف الله تعالى فى ذلك اليوم ضباب عظيم فستر الله تعالى
الملك السعيد حتى طلع القلعة ونجا بنفسه فلما بلغ الامراء أن السلطان طلع
القلعة رجعوا من المطرية وحاصروا السلطان وهو بالقلعة فلما رأى من كان حول
السلطان أن حاله قد تلاشى صاروا يتسحبون من القلعة وينزلون الى الامراء الذين فى
الرميلة واستمر الحرب سائرا بين الامراء وبين الملك السعيد سبعة أيام فلما رأى الملك
السعيد عين الغلب أرسل الى الخليفة الامام أحمد الحاكم بامر الله فمشى بينه وبين الامراء
وقال ايش آخر هذا الحال وما قصدكم فقالوا قصدنا يخلع نفسه من السلطنة ويمضى
الى الكرك ويقيم بها فرجع الخليفة الى السلطان وأخبره بذلك فخلع نفسه من الملك
وشهد عليه القضاة بالخلع وخرج الى الكرك من وقته وكان المتسفر عليه الامير بيدغان
الركنى المعروف بسم الموت وكانت مدة سلطنة الملك السعيد بالديار المصرية سنتين
وشهرا وأياما وهو صاحب الحمام التى بالقرب من سوق الغنم (ثم دخلت سنة ثمان وسبعين
وستمائة) فيها جاءت الاخبار بان الملك السعيد قد توفى الى رحمة الله تعالى وكان سبب موته

انه لعب بالكرة فى ميدان قلعة الكرك فتقنطر به الفرس فانكسر ضلعه فمات من يومه وكانت وفاته فى أول هذه السنة ثم دفن هناك وقيل نقل بعد ذلك الى دمشق ودفن على أبيه الملك الظاهر بيبرس وكان الملك السعيد شابا جميل الصورة حسن الشكل كريما على الرعية ۞ ولما خلع الملك السعيد من السلطنة تولى بعده أخوه سلامش اه ما أوردناه من أخبار الملك السعيد محمد وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر سلطنة الملك العادل سيف الدين سلامش

ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى وهو السادس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ۞ بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك السعيد وكان له من العمر لما تسلطن سبع سنين ونصف وكان يعرف بابن البدوية وكان جلوسه على سرير الملك فى ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وستمائة وكان القائم بتدبير مملكته قلاون الالفى وكان يخطب له وللعادل سلامش على منابر مصر وأعمالها وضربت السكة باسمهما وكان فى الحقيقة قلاون هو السلطان والسلطان ليس له الا مجرد الاسم والامر كله لقلاون وكان الامير بيسرى يشارك قلاون فى أمور السلطنة ولكن كان الامير بيسرى مغرما بحب الصيد والخروج الى السرحات وكان الاتابكى قلاون يمهد لنفسه فى الباطن وأرسل بعزل النواب عن البلاد الشامية وولى من يثق به من خشداشينه ثم انه قبض على جماعة من الامراء الظاهرية وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية فلما صفا له الوقت خلع الملك العادل سلامش من السلطنة وأرسله الى قلعة الكرك وأرسل معه أخاه سيدى خضر فأقاموا فى الكرك مدة ثم نقلهم الملك الاشرف خليل بن قلاون الى القسطنطينية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه فكانت مدة سلطنة الملك العادل سلامش بالديار المصرية خمسة أشهر وأياما ۞ ولما خلع سلامش من السلطنة تولى من بعده قلاون انتهى ما أوردناه من أخبار الملك العادل سلامش وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر سلطنة الملك المنصور سيف الدين قلاون

أبى المعالى الالفى الصالحى النجمى وهو السابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ۞ تسلطن بعد خلع الملك العادل سلامش فى يوم الاحد ثانى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة وتلقب بالملك المنصور وجلس على سرير الملك فى اليوم المذكور وكان أصله من مماليك آق سنقر الكاملى ثم قدمه الى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب المدرسة الصالحية فاعتقه فى أثناء سنة سبع واربعين وستمائة فلما تم أمره فى السلطنة

أنعم على جماعة من خشداشينه بتقادم ألوف وهم طرنطاى وكتبغا ولاجين وقفجق والشجاعى وايبك الخازندار وطقصو وطغريل الايغانى وبلبان الطباخ وأقوش الموصلى وسنقرجركس وازدمر العلائى وقلجق وايدمر الطباخ وقيران الشهابى ومحمد الكورانى وابراهيم الجاكى ثم أمر بالافراج عن جماعة من الامراء الذين كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية منهم الامير ايبك الافرم فخلع عليه واستقر به نائب السلطنة وأقام فى النيابة مدة يسيرة ثم استعفى من ذلك فأعفاه السلطان ورتب له ما يكفيه ولزم بيته ثم ان السلطان خلع على مملوكه طرنطاى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن ايبك الافرم وخلع على الامير سنقر الاشقر واستقر به نائب الشام فلما أن دخل الى الشام خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ثم انه تسلطن هناك وقبلوا له الارض بدمشق وتلقب بالملك الكامل فأقام على ذلك مدة يسيرة ثم فلت عنه الناس واضمحل أمره وقصد أمراء الشام ان يقبضوا عليه فهرب الى صهيون (ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة) فيها جاءت الاخبار ان ملك التتار زحف على البلاد وأرسل أخاه منكوتمر فى جاليش العسكر وقد وصلوا الى حلب وملكوا ضياعها وأشرفوا على أخذ المدينة فلما بلغ الملك المنصور قلاون الالفى ذلك خرج بنفسه هو والامراء على جرائد الخيل فلما وصل الى غزة جاءت الاخبار بان منكوتمر أخا ابغا لما بلغه مجىء السلطان نهب البلاد وأحرق الضياع وقتل الرعية وآذى البرية ثم رجع الى بلاده فلما بلغ السلطان رجع من غزة الى القاهرة فجاءت الاخبار بان التتار رجعوا الى حلب وأفحشوا فى حق الرعية أعظم مما فعلوا فى الاول فخرج اليهم السلطان ثانيا وجد فى السير فتلاقى مع عسكر التتار على المرج الاصفر فكان بينهم واقعة عظيمة وذلك فى أوائل سنة ثمانين وستمائة فكانت النصرة للملك المنصور قلاون فتقنطر منكوتمر أخو أبغا الى الارض فأحاط به التتار حتى حملوه وهربوا به فوقع النهب فى عسكر التتار وولوا منهزمين وقد غنم منهم عسكر السلطان ما لا يحصى من سلاح وخيول وقماش وغير ذلك وكانت هذه الواقعة من الوقعات المشهورة ثم ان السلطان قصد التوجه الى نحو القاهرة فدخلها فى موكب عظيم وحملت على رأسه القبة والطير ومشت الامراء بين يديه حتى طلع القلعة (ثم دخلت سنة احدى وثمانين وستمائة) فيها صدر الوقت للسلطان فقبض على جماعة من الامراء منهم الامير بيسرى والامير بكتوت الشمسى والامير كشغندى وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية ومن خشداشينه وشرع فى انشاء مماليك وأنعم عليهم بتقادم ألوف وبالاقطاعات السنية وفيها تزوج السلطان الملك المنصور قلاون بخوند اشلون بنت الامير شنكاى فكان له مهم عظيم بالقلعة وزفت عليه وفى هذه السنة

توفى مجير الدين محمد بن تميم الدمشقى وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد فمن ذلك قوله

وليلة بت أسقى فى غياهبها * راحا تسل شبابى من يد الهرم
مازلت أشربها حتى نظرت الى * غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

وفيها توفى الشيخ بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى وكان من أعيان الشعراء وله شعر جيد فمن ذلك قوله فى معذر وقد ضمن المثل السائر

صدوا وقد دب العذار بخده * ماضرهم لو أنهم جبروه
هل ذاك غير نبات خد قد حلا * لكنهم لما حلا هجروه

(ثم دخلت) سنة اثنتين وثمانين وستمائة فيها ابتدأ السلطان الملك المنصور قلاون بعمارة القبة التى بين القصرين والمدرسة وأضاف الى ذلك قاعة القطنيين وسماها البيمارستان المنصورى وقيل انتهى منها العمل فى مدة عشرة أشهر على مانقله المؤرخون وجعل لها فى كل يوم من الرواتب ألف دينار ووقف عليها أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك وشرط فى وقفه أشياء كثيرة من أنواع البر والخير ممالم يسبق فعله لاحد من الملوك من قبل ومن بعد فكان كما قال القائل

تمشى الملوك على آثار غيرهم * وأنت تخلق ماتأتى وتبتدع

فهو من حسنات الزمان تحتاج اليه الملوك ويفتقر اليه الغنى والصعلوك (قيل) وكان سبب بناء البيمارستان هذا أن الملك المنصور قلاون أمر مماليكه بان يضعوا السيف فى العوام لامر أوجب تغير خاطر السلطان عليهم فانهم خالفوا أمره فى شئ فعلوه بجهلهم فأمر بقتلهم فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام فقتل فى هذه المدة مالا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح وربما عوقب من لم يجن فلما زاد الامر عن الحد طلع القضاة ومشايخ العلم الى السلطان وشفعوا فيهم فعفا عنهم وكف عنهم القتل فلما جرى ماجرى وراق خاطر السلطان ندم على مافعله وبنى هذا البيمارستان وجعل له جملة أوقاف على رواتب بر واحسان وفعل من أنواع الخير مالا يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه مافعله بالناس لعل الحسنات تذهب السيآت كما قال الله تعالى (ثم دخلت) سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيها خرج السلطان الى نحو البلاد الشامية فوصل الى حصن المرقب ونصب المجانيق وحاصره مدة ثمانية وثلاثين يوما فطلب أهله الامان فأخذه بالامان ثم رجع الى الديار المصرية (ثم دخلت) سنة أربع وثمانين وستمائة فيها أرسل السلطان الامير طرنطاى نائب السلطنة الى حصار سنقر الاشقر الذى كان نائب الشام وأظهر العصيان وتسلطن هناك كما تقدم فلما وصل الامير طرنطاى الى نحو صهيون حاصر سنقر الاشقر أشد المحاصرة فلما رأى سنقر الاشقر عين الغلبة أرسل يطلب من الامير طرنطاى الامان فاجابه الى ذلك فلما وثق منه

بالامان نزل اليـه من قلعـة صهيون فخلف له الامير طرنطاى أنه اذا توجـه الى السـلطان لا يشوش عليه ولا يحصل منه الا كل خير فاخذ عياله وأولاده وتوجه صحبة الامير طرنطاى الى نحو الديار المصرية فلما بلغ السلطان مجىء سنقر الاشقر خرج الى تلقيه فلما وصل الى مسجد التـين بالقرب من المطرية تلاقى هو وسنقر الاشقر هنالك فلما وقعت عـين سنقر الاشقر على السلطان نزل عن فرسه ونزل السلطان أيضا وتعانقا فبكى سنقر الاشقر وطلب الامان من السلطان فأعطاه منـديل الامان فوضعه على رأسه ثم ركبا وتوجها الى القلعة فى موكب عظيم وسنقر الاشقر راكب الى جانب السلطان فلما طلعا القلعة خلع عليه ونزل الى مكان قد أعـد له ونزل معه سائر الامراء الى ذلك المكان ثم انصرفوا وكان ذلك فى يوم السبت ثالث عشر ربيـع الاول من سنة أربـع وثمـانين وستمـائة (ثم دخلت) سـنة خمس وثمـانين وستمـائة فيها قبض السلطان على مملوكه الامير علم الدين سنجر الشجاعى وصادره واحتاط على موجوده واستصفى أمواله بعد ان عصره بالمعاصير حتى كسر رجليه وخلعه من الوزارة ثم خلع على مملوكه الامير بدر الدين بيدرا المنصورى واستقر به وزيرا عوضا عن سنجر الشجاعى وفى هـذه السـنة توفى الشيخ محـيى الدين بن قرناص الحموى وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد فن ذلك قوله

أيا حسن هار وضة قد غدا * جـنونى فنونا بافنانها
أتى الماء فيها على رأسه * لتقبيل أقدام اغصانها

(ثم دخلت) سـنة ست وثمـانين وستمـائة فيها توعك المقام العلائى نور الدين على ولد السلطان الملك المنصور قـلاون وكان والده المنصور ولاه السلطنـة فى أيام حيـاته وركب بشعار السلطنة وجلس على سرير الملك وقبـل له الامراء الارض وجلس الى جانب والده قلاون وكان سبب سلطنته ان الملك المنصور قـلاون كان كثير الاسـفار الى نحو البـلاد الشامية فسلطن ولده نور الدين عليا ولقبـه بالملك الصالح ليكون عوضـه فى مصر اذا سافر الى البلاد الشامية فأقام على ذلك مدة فى حياة والده ثم ان الملك الصالح عليا مرض مرضا شديدا بحمى الكبد حتى أشرف على الموت (ثم دخلت) سـنة سبـع وثمـانين وستمـائة فيها ثقـل على الملك الصالح على المرض وتفـل الدم فلمـا كانت ليلة الجمعـة رابع شهر شعبان سنة سبع وثمـانين وستمـائة توفى الملك الصالح على الى رحمه الله تعالى فلمـا مات حزن عليه والده الملك المنصور حزنا شـديدا وكان الامراء جـلوسا على باب الستارة ينتظرون ما يكون من أمره فلمـا وقع الصراخ فى دور الحرم دخـل الامـير طرنطاى نائب السلطنة فوجـد السلطان مكشوف الرأس وكلوتته مرميـة على الارض وهو يبـكى ويصيح فلما رآه الامـير طرنطاى على هـذه الحالة رمى الآخر كلوتته عن رأسـه ثم ان بقيـة الامراء دخلوا على

السلطان وألقى الكل كلوتاتهم عن رؤسهم وأقاموا على ذلك ساعة ثم ان الامير طرنطاى النائب أخذ كلوتة السلطان فى يده وقبل الارض هو والامير سنقر الاشقر الذى تسلطن بدمشق وناولها للسلطان فدفعه وقال ايش بقيت أعمل بالملك بعد ولدى ثم صبروا له ساعة وقام الامراء جميعا كلهم وقبلوا الارض و وضعوا كلوتة السلطان على رأسه واستمر العزاء قائما فى تلك الليلة فلما أصبحوا يوم الجمعة أخذوا فى أسباب تجهيزه فاخرجوه وصلوا عليه عند باب الستارة ثم نزلوا به من باب المدرج فاراد السلطان أن يمشى فى الجنازة فمنعه الامراء من ذلك فكان له مشهد عظيم وذلك فى يوم الجمعة قبل الصلاة فشت قدامه الناس قاطبة الى تربة والدته خوندخاتون التى فى طريق السيدة نفيسة بجوار المدرسة الاشرفية فدفن هنالك فلما أصبح يوم السبت نزل السلطان الى زيارة قبر ولده وجلس عنده فى ذلك اليوم واستمر الميتم مدة سبعة أيام ولما مات السلطان الملك الصالح على خلف ولدا ذكرا يسمى الامير موسى وهو صاحب الربع الذى فى الغرابليين ومات الملك الصالح وله من العمر نحو عشرين سنة وكان والده قلاون أشركه فى السلطنة من سنة تسع وسبعين وستمائة واستمر على ذلك حتى مات فى سنة سبع وثمانين وستمائة فكان أكبر أولاد قلاون (١) قال ابن خلكان لما مات السلطان الملك الصالح كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف عن لسان أبيه الملك المنصور قلاون الى نائب الشام وغيره من النواب مطالعات ضمنها ماجرى على السلطان من فقد ولده فقال عن لسان والده نحمد الله تعالى على حزن حزنابه بالصبر أجورا فاخره فكان قصدنا أن نجعله ملكا فى الدنيا فاختار الله تعالى أن يكون ملكا فى الآخرة وفى هذه السنة توفى الشيخ ناصر الدين ابن النقيب وكان من أعيان شعراء مصر وله شعر جيد فى نوع التورية فمن ذلك قوله

جودوا لنسجع بالمديح على علا * كم سرمدا
فالطير أحسن مايغرد عند مايقع الندا

(ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة) فيها فى ثالث عشر صفر خرج السلطان على حين غفلة الى نحو البلاد الشامية وتوجه نحو طرابلس وحاصر أهلها ونصب على سورها المجانيق واستمر يحاصرها أربعة وثلاثين يوما ففتحها بالسيف عنوة فى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وستمائه فوردت البشائر الى الديار المصرية بفتح مدينة طرابلس وجبيل ثم ان السلطان عاد الى الديار المصرية فزينت له وحملت على رأسه القبة والطير وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله وفيها جاءت الاخبار بأن ملك النوبة هجم على مدينة اسوان ونهب أسواقها وأحرق جرونها فجرد اليه الامير أيبك الافرم فلما

(١) انظر هذا قال ابن خلكان توفى سنة ٦٨١ والملك الصالح توفى سنة ٦٨٧

ان

أن وصل الى هناك هرب منهم ملك النوبة فتبعه العسكر والامير عز الدين أيبك الافرم الى آخر بلاد النوبة فغنموا منهم أشياء كثيرة من عبيد وجوار وخيول وغير ذلك ورجع العسكر الى الديار المصرية وهم فى غاية النصرة وفى هذه السنة توفى الشيخ ظهير الدين ابن البارزى الدمشقى وكان عالما فاضلا وله شعر جيد فمن ذلك قوله

يذكرنى وجد الحمام اذا غنا * لانا كلانا فى الهوى نعشق الغصنا

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة فيها عزم السلطان الى العود الى السفر ليحاصر مدينة عكا فخرج من القاهرة فى ثامن عشر شوال من السنة المذكورة فلما نزل بالريدانية وأقام بها حتى يتكامل خروج العسكر وجد فى جسده توعكا وحمى فصار الامر فى كل يوم يتزايد عليه حتى ثقل فى المرض وكان الملك المنصور قلاون لما مات ولده الملك الصالح على عهد من بعده الى ولده خليل ولقبه بالاشرف فلما سلسل السلطان اضطربت الاحوال وصار ولده خليل ينزل اليه من القلعة فى كل يوم ويتفقد أحواله ثم يرجع الى القلعة وكانت الامراء يدخلون على السلطان فى كل يوم صحبة الحكماء فلما زاد الامر على السلطان وتغير حاله منع الامير طرنطاى الامراء من الدخول على السلطان فلما تحقق الامراء موت السلطان جاؤا الى الامير طرنطاى النائب وقالوا له أنت تعلم ما بينك وبين ولد السلطان من حظوظ النفس من أيام والده وقد صار الامر اليه والسلطان ما بقى يرجى ومتى صار الحكم الى ولده فهو قاتلك لا محالة فبادر اليه وأمسكه قبل أن يمسكك ونحن كلنا عصبتك فسكت الامير طرنطاى ساعة وقال كيف أمسك ابن أستاذى أو أقتله فايش يشاع على بين الناس ولكن أنا مملوك السلطان ومملوك ولده فان رضينى وأبقانى على حالى كان الفضل له وان قتلنى صرت شهيدا من جملة الشهداء ثم ان السلطان قلاون دخل فى النزع فجلس الامير طرنطاى عند رأسه حتى مات وغمضه بيده فلما أصبح الصباح جاءت الامراء على العادة فلم يمكنهم من الدخول على السلطان ثم انه أرسل خزائن المال والاطلاب التى كانت مع السلطان برسم السفر ثم ان الامير طرنطاى أرسل عرف ولد السلطان الملك الاشرف خليل ان والده قد مات وأشار عليه انه يقيم فى القلعة ولا ينزل ووكل به مقدم المماليك ثم ان الامير طرنطاى حمل السلطان قلاون وهو ميت فى محفة وطلع به الى القلعة بعد المغرب فغسله وكفنه ونزل به فى تابوت بعد العشاء والامراء والقضاة وأعيان الناس مشاة قدامه وكثر عليه الحزن والاسف من الناس الى أن وصلوا به الى البيمارستان فصلوا عليه هناك ودفن داخل القبة التى بين القصرين وكانت وفاته يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ودفن فى ليلة الاحد وكانت مدة توعكه تسعة عشر يوما وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر

وستة أيام فمات وكأنه لم يكن فكان كما قيل في المعنى

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته * يوما على آلة حدباء محمول

ولما مات الملك المنصور قلاون خلف من الاولاد ثلاثة ذكور وهم الاشرف خليل والناصر محمد والامير أحمد ولد بعد وفاة أبيه وكان الملك المنصور قلاون حسن الشكل مربوع القامة درّى اللون وكان قليل الكلام بالعربى وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب وكان مغرما بمشترى المماليك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا عشر ألف مملوك وقيل سبعة آلاف مملوك ومما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمارة البيمارستان الذى بين القصرين ولاسيما مافعله فيه من وجوه البر والصدقات ووقف الاوقاف الجليلة وشرط فى وقفه مالم يشرطه أحد من الملوك قبله ولابعده وقد كفاه ذلك شرفا فى الدنيا والآخرة ومن محاسنه أنه غير تلك الملابس الشنيعة التى كانت تلبسها العسكر فى الدول القديمة قيل كانت كلوتاتهم من الصوف الازرق الغميض وهى مضربة عريضة بغير شاش وكانت المماليك تربى لهم ذوائب من الشعر خلفهم ويجعلونها فى أكياس حرير أحمر أو أصفر وكانوا يشدون فى أوساطهم بنود ابعلبكية عوضا عن الحوائص وكانت خفافهم برغالى اسود وكانوا يشدون فوق قماشهم ابزيم جلد وفيه حلق نحاس وفيها صوالق برغالى اسود وهى كبار يسع الصولق الواحد نصف ويبة قمح وكان لهم فى ذلك الابزيم معلقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح أيديهم وكانوا يربون لهم شوارب قدر السلفة الكتان فلما ولى الملك المنصور قلاون أمر العسكر أن يغيروا هذه الملابس الشنيعة ويدخلوا فى الهيئة المطبوعة وكانت خلع المقدمين من العنتابى فأمر لهم بالخلع المخمل الاحمر والاخضر بالفرو السمور وهو أول من أسكن المماليك فى أبراج القلعة وسماهم المماليك البرجية ۞ وأما ما افتتحه الملك المنصور قلاون فى أيامه من الفتوحات فهو المرقب وجبلة من بلاد الافرنج وفتح طرابلس الغرب واللاذقية وجبيل والكرك والشوبك كانت بيد أولاد الملك بيبرس البندقدارى فأخذها منهم وأما ما أبطله فى أيامه من المظالم فهو أنه كان من قديم الزمان وظيفة تسمى ناظر الزكاة وهو من يأخذ ممن عنده مال زكاته فان مات ذلك الرجل صاحب المال أو عدم ماله فيتم ذلك القدر المقرر عليه فى الدفاتر باقيا يؤخذ من أولاده أو من ورثته أو من أقاربه ولو بقى منهم واحد فأبطل الملك المنصور قلاون ذلك الى يومنا هذا وسطر فى صحائفه ومما أبطله من المظالم أيضا انه كان يؤخذ مال من أهل مصر للبشرين اذا حضروا يبشرون بفتح حصن أو بنصرة عسكر أو بما أشبه ذلك وكان يجبى من أهل مصر على قدر طاقاتهم فى السعة فأبطل ذلك وكان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل المبارك ثمن الحلوى والفاكهة والشوى برسم

السماط الذى يوضع فى المقياس يوم الوفاء فأبطل ذلك عن الناس جميعه وجعل مصروفه من بيت المال وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط وكان من أجل ملوك الترك قدرا وأعظمهم أخبارا وذكرا وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ومشايخ الاسلام فمن ذلك الامام العالم العلامة محيي الدين النووى الشافعى رضى الله عنه وهو صاحب كتاب المنهاج قال الشيخ شمس الدين الذهبى ان الشيخ محيي الدين توفى وله من العمر نحو أربعين سنة ودفن بنوى وهى بلده وقد رثاه الشيخ زين الدين ابن الوردى المعرى بهذه الابيات وهى

لقيت خيرا يانوى * ووقيت من ألم النوى

فلقد نوى بك عالم * لله أخلص مانوى

وعلا علاه بفضله * فضل الحبوب على النوى

وتوفى أيضا الشيخ برهان الدين الشافعى ابن جماعة والشيخ شمس الدين ابن خلكان المؤرخ والشيخ ناصر الدين ابن المنير والشيخ جمال الدين الشريشى شارح مقامات الحريرى وتوفى ابن النحاس النحوى وتوفى علاء الدين ابن النفيس شيخ الاطباء وتوفى غير ذلك من أعيان الناس ومن العلماء جماعة كثيرون ولما توفى الملك المنصور قلاون تولى من بعده ابنه الاشرف خليل انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المنصور قلاون الألفى وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر سلطنة الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور قلاون الالفى الصالحى

وهو الثامن من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية تولى الملك بعهد من أبيه قبل وفاته وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه قلاون وذلك فى يوم الاحد سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة وكان مولده فى سنة ست وستين وستمائة فلما قام بشعائر السلطنة نزل من القلعة الى الميدان الذى تحت القلعة وكان سبب نزوله الى الميدان أن الامراء تخلوا من طلوعهم الى القلعة فلم يطلع منهم أحد الى القلعة فنزل السلطان وهو بشعائر الملك فجلس هنالك على كرسى واستحلف له سائر الامراء فلما حلفوا له خلع فى ذلك اليوم على الامير علم الدين سنجر الشجاعى واستقر به وزيرا كما كان فى أيام والده وكان الاشرف خليل كفؤا للسلطنة وجاء فيها كما ينبغى فى الحرمة والعظمة والشهامة وفيه يقول القائل محمد بن غانم الشاعر

مليكان قد لقبا بالصلاح * فهذا خليل وذا يوسف

فيوسف لاشك فى فضله * ولكن خليل هو الاشرف

فلما تم أمره فى السلطنة وتلقب بالملك الاشرف عمل الموكب ثم قبض على الامير طرنطاى نائب السلطنة وكان بينه وبين الامير طرنطاى عداوة قديمة من أيام والده وكان الشجاعى يكره الامير طرنطاى فحسن للسلطان القبض عليه فقبض عليه فى ذلك اليوم وحمل الى الاعتقال فكان الامر كما قالته الامراء للامير طرنطاى ان الاشرف خليلا يقبض عليه فلما قبض عليه ندم الامير طرنطاى الذى ماقبض على الاشرف خليل قبل أن يتسلطن كما قيل فى المعنى

احذر من الناس ولا * معترك الشك تجل
فى قلب ليث بت وخف * ان بت فى قلب رجل

فاقام الامير طرنطاى بالسجن فى القلعة ثلاثة أيام ثم ان السلطان أمر بقتله فخنق وهو فى السجن فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفن تحت الليل فى القرافة الصغرى ثم ان السلطان رسم للشجاعى بان يحتاط على موجود الامير طرنطاى فنزل الشجاعى الى بيت طرنطاى ورسم على مباشريه وقبض على جميع من كان من حاشيته وقبض على نسائه وسراريه وأحضر لهم المعاصير وعصرهم وقررهم على الاموال والذخائر فكان الشجاعى ينزل فى كل يوم الى بيت الامير طرنطاى ويقرر جماعته ونساءه ويعاقبهم أشد العقوبة فظهر له من الاموال والتحف مالم يسمع بمثله فطلعوا بذلك جميعه الى الخزائن الشريفة ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الامير بيدرا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الامير طرنطاى النائب فلما قتل الاشرف خليل الامير طرنطاى صفاله الوقت فارسل خلف القاضى شمس الدين ابن السعلوس وكان بالحجاز من أيام الملك المنصور قلاون بالحضور وحشاه بخط يده بالقلم العريض بين السطور وهو يقول ياشقير جد السير جاء الخير وكان الاشرف خليل كثيرا مايحشى فى مراسيمه بقلم العلامة وحشى أيضا مرسوما وأرسله الى دمشق لما أمر باسقاط ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل من باب الجابية من القمح خمسة دراهم من المكس فرسم بابطال ذلك وكتب فى مرسومه بين السطور وقد أمرنا بان تكشف عن رعايانا هذه الظلامة ونستجلب بذلك الدعاء الينا من الخاصة والعامة فهو أول سلطان حشى فى مراسيمه بين السطور بخطه بيده فلما حضر شمس الدين ابن السعلوس من مكة الى القاهرة خلع عليه واستقر به وزيرا مستشار المملكة وفوض اليه أمر السلطنة جميعها وأحال الناس فى اشغالهم عليه وفصل الشجاعى من الوزارة وكان حضور شمس الدين ابن السعلوس من مكة فى ثالث عشر المحرم مستهل سنة تسعين وستمائة وقد حضر صحبة مبشر الحاج على الهجن وجد المسير حتى حضر الى مصر قيل وكان أصل ابن السعلوس هذا من دمشق وكان تاجرا بها فحضر فى بعض السنين

الى

الى مصر وكان له خط جيد فسعى عند الاشرف خليل وهو أمير فى أيام والده قلاون فجعله ناظر ديوانه وصار يستأجر له مواضع كثيرة فى البلاد الشامية فيتحصل منها كل سنة جملة من المال فحظى ابن السعلوس عند الاشرف حتى صار نديمه ولا يصبر عنه ساعة واحدة واحتوى على عقله وملك لبه فلما بلغ الملك المنصور قلاون ذلك أمر بنفى ابن السعلوس الى مكة فأقام بها الى أن مات المنصور قلاون وتسلطن ابنه خليل فارسل نحو ابن السعلوس نجابا مطردا كما تقدم فلما حضر واستقر به وزيرا فوض اليه جميع أحوال المملكة فكان يركب ومعه جماعة من الامراء الرؤس النواب والمماليك السلطانية فى كل يوم حسبما رسم له السلطان بذلك وكانت القضاة الاربع تركب قدامه فى أيام الموكب وعظم أمره حتى صارت القصص تقرأ عليه وينفذ أمرها من غير مشورة السلطان فأظهر من الكبرياء والعظمة مالم يظهره غيره وانفرد بالكلمة فى مصر دون غيره وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية والبلاد الشامية وصار يجتمع بالسلطان فى الليل فى خلوة ويقضى أشغال الناس من سهلها الصعبا كما قيل فى المعنى

ملك اذا قابلت بشر جبينه * فارقته والبشر فوق جبينى

واذا لثمت يمينه وخرجت من * أبوابه لثم الملوك يمينى

(ثم دخلت سنة تسعين وستمائة) فيها جرد السلطان وخرج بنفسه هو والعساكر الى حصار مدينة عكا وكانت بيد الافرنج فلما وصل الى عكا حاصر أهلها أشد المحاصرة ونصب حول المدينة خمسة وسبعين منجنيقا وحاصرها مدة أيام فاعطاه الله النصر وفتحها بالسيف فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة فلما افتتحها هدم سورها وقلعتها وكانت عكا بيد الافرنج وكانوا يقطعون على المسافرين الطريق ويأخذون أموال التجار ويقتلون كل من لقوه من المسلمين فلما فتح الملك الاشرف خليل مدينة عكا توجه من هنالك الى جبيت وبيروت فافتتحهما فى تلك السنة قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه ان عكا كانت من أحسن المدائن فى العمارة والبناء فاخر فلما فتحها الملك الاشرف خليل وهدم سورها هرب أهل المدينة منها وصارت خرابا من يومئذ وصار الناس من حينئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة ومن جملة ما نقل منها الباب الرخام الابيض الذى على المدرسة الناصرية التى بين القصرين وكان هذا الباب على كنيسة فنقل الى القاهرة فأخذه الملك الناصر ابن قلاون ووضعه على باب مدرسته الى أنشأها بجانب البيمارستان قيل لما فتحت عكا قتل فى مدة المحاصرة من الامراء اثناعشر أميرا وقتل بها العزى نقيب الجيوش المنصورة وهو صاحب سويقة العزى سميت به وقتل يوم الفتح من المماليك السلطانية نحو مائة وعشرين مملوكا ثم ان الملك الاشرف خليلا لما فتح عكا رجع الى الديار المصرية وهو فى غاية النصر والعظمة فدخل من باب النصر وشق فى المدينة وزينت له

وكان يوم دخوله يوما مشهودا والامراء مشاة بين يديه والامير بيدرا نائب السلطنة حامل القبة والطير على رأسه ولعبوا بالغواشي الذهب بين يديه وكان القضاة الاربع وأرباب الوظائف راكبين بين يديه وكان له موكب عظيم فلما وصل الى البيمارستان ثنى عنان فرسه ونزل وزار قبر والده قلاوون ثم ركب وطلع الى القلعة فخلع على الامراء ونزلوا الى بيوتهم وانفض الموكب ومن غرائب الاتفاق أن الشيخ شرف الدين الابوصيري ناظم البردة رأى فى منامه قبل مسير الملك الاشرف خليل الى حصار عكا فى شوال سنة تسع وثمانين وستمائة كان قائلا ينشد هذه الابيات

قد أخذ المسلمون عكا * وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا اليهم * خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت * لن يتركوا الافرنج ملكا

فلما انتبه الشيخ شرف الدين من منامه أخبر بهذه الرؤيا جماعة من أصحابه فلما توجه الاشرف خليل الى عكا فتحها الله على يديه فكان الامر كما قال الهاتف فى منامه وأخذت عكا وفى ذلك يقول القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف هذين البيتين

يابنى الاصفر قد حل بكم * نقمة الله التى لا تنفصل
نزل الاشرف فى ساحلكم * فابشروا منه بصك متصل

ولما رجع الملك الاشرف من هذه الغزوات عظم فى نفسه واستخف بالامراء فأخذ فى أسباب القبض على جماعة منهم فقبض على الامير حسام الدين لاجين السلحدار وكان نائبا فلما رجع مع السلطان الى الديار المصرية بعد فتح عكا قبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة صفد ثم أمسك الامير سنقر الاشقر الذى كان قد تسلطن بدمشق كما تقدم وقبض على الامير طقصو وقبض على الامير جرمك ثم قبض على أميرين ما يحضرنى اسمهما ثم أرسل خلف الامير لاجين الذى كان فى السجن بقلعة صفد فلما حضر أكملهم سبعة من الامراء وسجنهم بقلعة الجبل فى برج الحية فلما كانت ليلة الاحد أمر بخنق هؤلاء الامراء جميعهم فخنقوا فى البرج تحت الليل فلما أخرجوهم ليدفنوهم وجدوا الامير لاجين نائب الشام فيه بعض نفس فأخبروا السلطان بذلك فعطف عليه وأمر بان يفرج عنه فكان كما قيل الحى مالوا قاتل ولو قتل مامات وكيف يموت وقد كتب الله فى اللوح المحفوظ أن يكون سلطانا بمصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه فلما عوفى الامير لاجين أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف ثم ان السلطان أمر بالافراج عن الامير بيسرى وكان فى السجن بثغر الاسكندرية وكان سبب

ذلك ان السلطان لما حضر من السفر ومر بالمدينة واجتاز امام قصر بيسرى الذى كان تجاه
المدرسة الكاملية وقف له أولاد الامير بيسرى تحت القصر وقبلوا له الارض وكانوا ستة
أولاد ذكور صغار وفيهم من هو رضيع فقال السلطان من هؤلاء فقال له الامراء هؤلاء أولاد
مملوكك بيسرى فرق لهم السلطان وقال لهم يحصل الخير ان شاء الله فلما طلع القلعة وجرى
لهؤلاء الامراء ما جرى أفرج عن الامير بيسرى وأنعم عليه بتقدمة ألف (ثم دخلت سنة
احدى وتسعين وستمائة) فيها توجه السلطان الى نحو الشام فأقام بها مدة أيام ثم توجه الى نحو
حلب ثم توجه من حلب الى قلعة الروم وحاصر أهلها ونصب حول المدينة ثلاثة وعشرين
منجنيقا ففتحها بالسيف فى يوم السبت حادى عشر رجب من سنة احدى وتسعين وستمائة
وكانت قلعة الروم كرسى مملكة الارمن ثم رجع السلطان الى نحو الديار المصرية وطلع
قلعة الجبل (ثم دخلت سنة اثنين وتسعين وستمائة) فيها خرج السلطان على حين غفلة على
الهجن ورسم للعسكر وللامراء بأن يلاقوه على دمشق فلما خرج من القاهرة توجه الى
نحو الكرك فاستقر بالامير اقوش نائبا ثم توجه من هناك الى دمشق فعرض عليه العسكر
بدمشق وعين جماعة من الامراء والمماليك السلطانية ليتوجهوا الى نحو سيس فلما وصلوا
الى سيس أرسل صاحب سيس يطلب الامان فأرسل الامراء يكاتبون السلطان بذلك فعاد
الجواب من السلطان ان كان صاحب سيس يسلم هذه الثلاث قلاع وهى قلعة البهنسا
وقلعة مرعش وتل حمدون فأعطوه الامان وان لم يسلم هذه الثلاث قلاع فحاصروه فلما
وصلت مراسيم السلطان بذلك سلم صاحب سيس تلك القلاع الثلاث وحصل الصلح
ورجع العسكر من سيس ثم ان السلطان أقام بدمشق الى مستهل رجب ثم توجه من
هناك الى نحو حمص فأضافه الامير مهنا بن عيسى ثلاثة أيام بلياليها ثم ان السلطان بدا له
أن يقبض على الامير مهنا بن عيسى وعلى اخوته فقبض عليهم وولى الامير على بن حديثة
عوضا عن الامير مهنا بن عيسى ثم ان السلطان رجع الى دمشق ورسم للامير بيدرا
النائب بأن يأخذ العسكر ويتوجه الى القاهرة فأخذ الامير بيدرا فى أسباب التوجه الى
القاهرة وأخذ معه الامراء والعسكر ورجع الى مصر وأقام السلطان بدمشق على سبيل
التنزه ثم توجه الى الديار المصرية ودخل القاهرة فى موكب عظيم وكان له يوم مشهود لم يسمع
بمثله وزينت له القاهرة بالزينة الفاخرة وسار فى الموكب مثل العروس حتى طلع القلعة
وجلس على سرير المملكة أحسن جلوس وفى هذه السنة توفى القاضى محيى الدين بن
عبد الظاهر كاتب السر الشريف وكان مولده فى سنة عشرين وستمائة فكانت مدة حياته
اثنتين وسبعين سنة وكان له نظم ونثر فائق فمن ذلك قوله

ان كانت العشاق من أشواقهم * جعلوا النسيم الى الحبيب رسولا

فأنا الذى أتلو لهم ياليتنى * كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

(ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة) فيها توجه الملك الاشرف خليل الى نحو البحيرة على سبيل التنزه فخرج من القاهرة فى ثالث المحرم فلما وصل هناك ضرب خيامه فى مكان يعرف بالحمامات وهو غربى تروجه فأقام هناك مدة ثم انه قصد أن يتوجه الى ثغر الاسكندرية فأرسل الصاحب شمس الدين ابن السعلوس الى ثغر الاسكندرية ليجهز الاقامات لاجل قدوم السلطان فلما دخل ابن السعلوس الاسكندرية وجد غلمان الامير بيدرا النائب بثغر الاسكندرية وقد استولوا على بهار الامير بيدرا وأدخلوه فى الحواصل وكان أعظم من بهار السلطان فحصل بين ابن السعلوس وبين الامير بيدرا تشاجر فأرسل ابن السعلوس يكاتب السلطان بما جرى من غلمان الامير بيدرا وما رأى عنده من البهار وما قاله غلمان بيدرا وزاد على كل كلمة عشرة وأغلظ فى القول فلما سمع السلطان ما فى مكاتبة ابن السعلوس غضب على الامير بيدرا أشد الغضب وأضمر له العطب فكان كما قال القائل

يا ناقلا الى قول حاسدى * لا ينبغى نقل الذى لا ينبغى
لا تؤذنى فى حجة النصح فما * أسمعنى السوء سوى مبلغى

ثم ان السلطان أرسل خلف الامير بيدرا وقت الظهر فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام وقصد القبض عليه وتوعده بكل سوء فتلطف به الامير بيدرا فى الكلام حتى خرج من بين يديه فاجتمع بالامراء من خشداشينه واتفق رأيهم على الوثوب على السلطان ثم ان السلطان قصد أن يتصيد ويخلو بنفسه فأعطى الامراء والعسكر دستورا بأن يتوجهوا الى القاهرة الى حين يعود السلطان فمضى الامراء والعسكر الى القاهرة ولم يبق مع الملك الاشرف سوى بعض مماليك جدارية فلما كان يوم السبت خامس المحرم ركب السلطان وانفرد وحده وليس معه سوى أمير شكار شهاب الدين بن الاشل فلما بلغ ذلك الامير بيدرا رجع من أثناء الطريق وقال هذا وقت انتهاز الفرصة قيل فى الامثال

وانتهز الفرصة ان الفرصه * تصير ان لم تنتهزها غصه
وان رأيت النصر قد لاح لكا * فلا تقصر واحترز أن تهلكا

فأرسل الامير بيدرا خلف خشداشينه وهم الامير قرا سنقر والامير لاجين والامير بهادر والامير آقسنقر وجماعة من الخاصكية فشدوا فى أوساطهم تراكيش وسيوفا وركبوا خيولهم ثم ساقوا خلف السلطان فوجدوه منفردا وحده وليس معه سوى أمير شكار وبعض مماليك جدارية فلما رآهم السلطان قاصدينه وكانوا نحو عشرة من الامراء أحس بالشر وظهر له منهم الغدر فلما أن وصلوا اليه عاجلوه بالحسام قبل الكلام فكان أول من

ابتدأه بالحسام الامير بيدرا نائب السلطنة فضربه بالسيف على يده فصاح عليه الامير لاجين وقال له ويلك الذى يريد أن يتسلطن يضرب هذه الضربة ثم ضربه الامير لاجين على كتفه ضربة فوقع الى الارض فجاء الامير بهادر رأس نوبة النواب ونزل عن فرسه وأدخل السيف فى دبر السلطان وأخرجه من حلقه وصار كل واحد من الامراء يظهر ما كان فى نفسه من السلطان ثم تركوه ميتا فى المكان الذى قتل فيه ثم ردوه الى الوطاق وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة فوقع رأيهم على أن يولوا الامير بيدرا نائب السلطنة فحلف له الامراء ثم قبلوا الارض ولقبوه بالملك الامجد وقيل بالملك الرحيم ثم فكوا الوطاق وتوجهوا الى القاهرة فاركبوا الامير بيدرا تحت العصايب السلطانية ثم شرعوا فى مسك جماعة من الامراء منهم الامير بيسرى والامير بكتمر السلحدار وغير ذلك من الامراء فلما وصل هذا الخبر الى الامراء الذين كانوا بالقاهرة ركبوا خيولهم على حمية سائر الامراء والمماليك السلطانية فلما عدوا من الجيزة ووصلوا الى الطرانة تلاقوا هم وبيدرا هنالك فوقع بينهم على الطرانة واقعة عظيمة فانكسر بيدرا وسار يتسحب من كان معه من المماليك ويجيء عند الامير كتبغا وكان بيدرا قد جمع معه من عربان الجيزة جماعة كثيرة فلما رأوا بيدرا قد انكسر رجعوا الى البحيرة مطرودين وكان بيدرا لما انكسر توجه نحو الجبل فتبعه جماعة من المماليك السلطانية فقبضوا عليه وأتوا به عند الامير كتبغا فلما رآه مماليك الاشرف قطعوه قطعا بالسيف وشقوا بطنه وأخرجوا كبده وصار كل واحد منهم يقطع منه قطعة ويأكل منها ثم حزوا رأسه وحملوها على رمح وقصدوا التوجه الى القاهرة فطافوا برأس بيدرا فى المدينة ثم علقوها على باب بيته فلما رأى من كان مع بيدرا من المماليك والامراء أنه قتل هربوا واختفوا ثم ان الامير سنجر الشجاعى نادى النواتية من شاطئ البحر بان لا أحد من النواتية يعدى بمملوك من عسكر بيدرا ولا بأحد من حاشيته هذا ما كان من أمر الامير بيدرا وأما ما كان من أمر الاشرف خليل بعد قتله فانه أقام بغد قتله ثلاثة أيام لم يدفن وهو مطروح فى البرية وقد أكلته الذئاب حتى قال فيه الشاعر هذا المعنى

ألم تر أن الليث حقا تناهشت * ذئاب الفلا منه ذراعا وساعدا

ثم ان والى تروجة ايدمر الفخرى حمل الاشرف خليلا على جمل وأتى به الى القاهرة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى مدرسته التى بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها وكان الملك الاشرف حسن الوجه أبيض اللون مستدير اللحية ضخم الجسد كبير الوجه شديد البأس مهيبا فى أعين الناس كفؤا للسلطنة عارفا بالمملكة وكان بطلا شجاعا مقداما على القتال لا يكل من الحروب ليلا ولا نهارا وكان مسعودا فى حركاته ولو طال عمره لكان يفتح غالب بلاد العراق ولا يعرف فى أبناء الملوك من يناظره فى العزم والشجاعة

والاقدام وعلى هذا قد اتفق أرباب التواريخ فى ترجمته وكان يميل الى شرب الراح والى السماع الطيب وكان كثير الانهماك على اللذات وكان عنده معرفة بصنعة الانشاء والتوقيع وكان يتعاظم حتى كان يكتب فى علامته على المراسيم والمربعات حرف الخاء فقط اشارة الى الحرف الاول من اسمه ومنع الموقعين أن لا يكتبوا لاحد من الامراء والنواب الزعيمى وكان يقول من زعيم الجيوش غيرى قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف قبل موته ما رأيت ولا سمعت بأحسن من فهم الملك الاشرف خليل ولقد كنت أحضر بالمراسيم للعلامة فما علم على مرسوم قط الا وقرأه جميعه وفهم ما فيه بل كان يخرج علينا أشياء كثيرة فى صنعة التوقيع ونرى فيها الصواب منه ولكنه كان من مساويه أنه نفى الملك العادل سلامش وأخاه سيدى خضر وهما أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى كانا فى الكرك فنفاهما الاشرف خليل الى القسطنطينية وقد تخيل من اقامتهما فى الكرك فأرسل الامير عز الدين أيبك الموصلى فأخذهما من الكرك وأمهما معهما وتوجه بهما الى ثغر الاسكندرية ثم أرسلهما من البحر المالح الى القسطنطينية فلما وصلا الى هناك أكرمهما الاشكرى صاحب القسطنطينية وأحسن اليهما ورتب لهما ما يكفيهما من النفقة فى كل يوم وأما سلامش فأدركته المنية هناك فمات فلما مات صبرته أمه فى تابوت الى أن اتفق عودها الى القاهرة فحملته معها وهو ميت فدفنوه بالقرافة ومات سلامش وله من العمر نحو اثنتين وعشرين سنة وأما سيدى خضر فانه عاد الى مصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى ومن مساوى الاشرف خليل أنه خنق سبعة من الامراء المقدمين فى ليلة واحدة كما تقدم وكان سفاكا للدماء قتل خلقا كثيرا من الامراء وغيرهم ومن مساويه أيضا أنه كان يسمع الكلام فى حق الناس بالباطل من وزيره ابن السعلوس وكان ذلك سببا لزوال ملكه ولكن كان عنده العدل فى حق الرعية ويقضى بالحق على الامراء المقدمين للسوقة ولا يراعى فى ذلك أحدا وكان منقادا للشريعة ويحب العلماء وكان اذا ظهر له الحق لا يوالس عليه وفيه يقول بعض الشعراء

يا أيها الملك الذى سطواته * حامت بها الاعداء فى يقظاتها
ملك تقر له الملوك بأنه * انسان أعينها وعين حياتها
شتت شمل المال بعد وفوره * وجمعت شمل الناس بعد شتاتها

وكانت قتلة الاشرف خليل يوم السبت بعد العصر خامس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ومات وله من العمر ثلاثون سنة وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام وأما فتوحاته التى افتتحها فى أيامه من المدن فهى مدينة عكا وصيدا وبيروت وعثليث وبهنسا وقلعة الروم ومرعش وتل حمدون

وصور وأما ما أنشاه من العمارات فهى قاعة الاشرفية التى بقلعة الجبل والمدرسة التى بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها وله غير ذلك من الآثار وقيل بلغت عدة المماليك السلطانية فى أيامه اثنى عشر ألف مملوك انتهى ذلك وتوفى فى أيامه أبو جلنك الحلبى الشاعر وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ومما وقع له انه دخل حلب ودمشق فامتدح القاضى كمال الدين ابن الزملكانى الشافعى بقصيدة سنية وجلس على الباب ينتظر الجائزة فأرسل له القاضى رقعة بان يصرف له رطلان من الخبز فغضب أبو جلنك ومضى ثم بعد مدة دخل أبو جلنك الى بستان من منتزهات دمشق فأقام فيه يومه ثم سأل عن ذلك البستان فقيل له ان البستان لقاضى القضاة كمال الدين ابن الزملكانى المشار اليه فكتب أبو جلنك الحلبى على بعض حيطان ذلك البستان هذين البيتين

لله بستان حللنا دوحه * فى جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبه سنانيرا رأت * قاضى القضاة فنفشت أذنابها

فهجا القاضى بأحسن عبارة وألطف اشارة انتهى ذلك ولما قتل الاشرف خليل وجرى للامير بيدرا ما جرى وقع رأى الامراء على سلطنة محمد بن قلاون أخى الاشرف خليل فسلطنوه ولقبوه بالملك الناصر وكان القائم فى ذلك الامير كتبغا انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الاشرف خليل بن قلاون وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون

وهو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والبلاد الشامية تسلطن بعد قتل أخيه الملك الاشرف خليل فى يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة وكان له من العمر لما تسلطن نحو تسع سنين ودخل فى العاشرة وكان مولده سنة أربع وثمانين وستمائة وكانت أمه أشلون بنت الامير شنكاى فلما أن تسلطن خلع على الامير كتبغا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الامير بيدرا وخلع على الامير سنجر الشجاعى واستقر به وزيرا عوضا عن الامير شمس الدين بن السلعوس وخلع على الامير بيبرس الجاشنكير واستقر به استادارا وكاشف الكشاف وفى ذلك اليوم طافوا برأس بيدرا على رمح ثم علقوها على باب القلعة ولما تولى الملك الناصر واستقر أمره قبض الشجاعى على جماعة من الامراء ممن كان سببا فى قتل الاشرف خليل فقبض على الامير قفجق السلحدار والامير قرمش السلحدار والامير بورى السلحدار وهو صاحب الدرب المنسوب اليه والامير لاجين جركس والامير مغلطاى المسعودى والامير كردى الساقى وهو صاحب الحمام الذى فى المدابغ فلما قبض عليهم قيدهم وسجنهم فى البرج الذى فى القلعة ثم انه قبض على

جماعة من المماليك السلطانية وسجنهم بخزانة شمايل ثم ان الامير بيبرس الجاشنكير تولى عقوبة هؤلاء الامراء وصار يقررهم على من كان سببا فى قتله الاشرف خليل ثم رسم الامير كتبغا بقطع أيديهم وأرجلهم وسمروا على الجمال وطافوا بهم فى القاهرة وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله ثم وسطوهم فى سوق الخيل ومضى أمرهم ثم ان الشجاعى قبض على الصاحب شمس الدين بن السعلوس الذى رآى من العز والعظمة مالم يره غيره من أرباب الوظائف فلما قبض عليه الشجاعى جعل يعاقبه ويعصره بالمعاصير حتى مات تحت الضرب وكانت وفاته فى يوم الاحد خامس عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة فاحتاط الشجاعى على موجوده جميعه وصادر عياله وغلمانه وحاشيته ونساءه وأقاربه واستصفى أموالهم جميعها حتى صادر سائر أصحابه فذهبت أمواله وزال سلطانه واختفى سعده وظهر عكسه وظفرت به أعداؤه وتولى الدهر عنه ومادعاه فكان كما قيل

لا تفرحن بخير جاء من غلط * فللزمان اساآت واحسان
وكن من الدهر ان يصحو على حذر * فما تقدمت الا وهو سكران

ومن النكت اللطيفه قيل ان الصاحب شمس الدين بن السعلوس لما أن رقا وبلغ من العلو مابلغ فى دولة الاشرف خليل أرسل ابن السعلوس يطلب أقاربه الذين كانوا بدمشق فكلهم أجابوه الى الحضور الا شخصا من أقاربه يقال له زين الدين فانه أبى عن الحضور وخاف على نفسه ولم يوافق على الدخول الى مصر وكتب الى ابن السعلوس فى رقعة وهو يقول هذين البيتين

تثبت ياوزير الملك واعلم ، بانك قد وطئت على الافاعى
وكن بالله معتصما فانى ، أخاف عليك من نهش الشجاعى

فكان الفأل بالمنطق فما كان عن قريب حتى قتل الاشرف خليل وتسلم الشجاعى ابن السعلوس واستصفى أمواله وعاقبه حتى مات تحت العقوبة كما تقدم ثم ان سنجر الشجاعى لما رأى أن الوقت قد صفاله وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية استخف بالسلطان الملك الناصر محمد لصغر سنه فحدثته نفسه بالسلطنة فصار يرمى الفتن بين الامراء وبين الامير كتبغا نائب السلطنة فصار مع الامير كتبغا فريق من العسكر وفريق مع الشجاعى فكان الشجاعى يبذل الاموال على جماعة من المماليك البرجية حتى قيل انه أنفق عليهم فى يوم واحد ثمانين ألف دينار واتفق معهم بان كل من قتل أميرا وجاء برأسه من عصبة الامير كتبغا يأخذ بيته وبركه واقطاعه فلما بلغ ذلك الامير كتبغا اجتمع باعيان خشداشينه وألبسهم آلة الحرب ووقفوا فى سوق الخيل فلما علم الشجاعى بذلك أغلق باب القلعة وعلق السنجق السلطانى ودق الكوسات حربى ثم صار ينتظر من يطلع اليه من

الامراء فلم يطلع اليه أحد وصار الامير كتبغا يحاصر القلعة وقطع عنها الماء فلما كان يوم
الجمعة ثالث عشرى صفر نزل المماليك البرجية من القلعة على حين غفلة ووقعوا مع
الامير كتبغا واقعة قوية حتى كاد الامير كتبغا أن ينكسر ثم كسرت عصبة الامير كتبغا
فاجتمع معه الامير بيسرى والامير بكتاش أمير سلاح والامير بكتوت العلائى والامير أيبك
الموصلى والامير آق سنقر والامير بلبان الحسنى وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الامراء الاربعين
والامراء العشراوات والمماليك السلطانية فوقعوا مع المماليك البرجية واقعة قوية
فانكسر المماليك البرجية وطلعوا الى القلعة منهزمين وليس لهم من ناصر ولا معين ثم ان
خوند اشلون أم الملك الناصر محمد أرسلت خلف الامير كتبغا من باب السلسلة وتحدثت
معه من أعلى السور وقالت له ايش قصدك حتى نفعله ان كان قصدك أن تخلع ابنى من
السلطنة فافعل فقال الامير كتبغا أعوذ بالله السميع العليم والله لو بقى من أولاد استاذنا
بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ولاسيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك وانما قصدنا
القبض على الشجاعى واخماد الفتنة فانفصل الامر على ذلك فلما سمع من كان من عصبة
الشجاعى ما جرى صاروا ينزلون من القلعة ويجيئون الى الامير كتبغا فلازالوا على ذلك حتى
لم يبق عند الشجاعى الا القليل فلما رأى الشجاعى عين الغلب أرسل يطلب الامان من
الامير كتبغا فلم يعطه كتبغا أمانا ولا وافقه بقية الامراء على ذلك ثم ان الشجاعى دخل الى
السلطان فى صورة انه يستشيره فيما يكون هذا الامر وما يفعل فى ذلك فقال له السلطان
يا عمى ايش آخر هذا الحال الذى أنتم فيه فقال له الشجاعى هذا كله لاجلك يا ابن أستاذى
فانهم قصدوا أن يخلعوك من السلطنة ويمسكونى أنا فقال له السلطان يا عمى أنا أعطيك
نيابة حلب وأخرج اليهم فى هذه الساعة لتستريح منهم فلم يوافق على ذلك الشجاعى وأغلظ
على السلطان فى القول فقام اليه المماليك الذين كانوا عند السلطان وأمسكوه وقيدوه
وأرسلوه الى البرج فبينماهو فى أثناء الطريق اذ خرج عليه جماعة من المماليك البرجية
فقتلوه وقطعوا رأسه ووضعوها فى فوطة حرير وكان الذى قتل الشجاعى شخصا من المماليك
يقال له بهاء الدين أقوش فلما خرج برأس الشجاعى الى باب القلعة رآه بعض المماليك
البرجية الذين هم من عصبة الشجاعى فقالوا له ما معك فى هذه الفوطة فقال خبز سخن أرسله
السلطان الى الامراء ليعلموا أن عندنا الخبز كثير فتركوه حتى مضى ونزل من القلعة ولو علموا
أن معه رأس الشجاعى لقتلوه شر قتلة فلما نزل الى الرميلة رمى برأس الشجاعى بين يدى الامير
كتبغا فلما رأى الامراء رأس الشجاعى توجه كل واحد منهم الى بيته وخمدت الفتنة ولم يبق
شر بينهم ثم ان الامير كتبغا رسم بان يطوفوا برأس الشجاعى فى مصر والقاهرة فطافوا بها وهى
على رمح والمشاعلية تنادى عليها وكان أكثر الناس من أهل مصر والقاهرة يكرهون سنجرا

الشجاعى فصاروا يعطون المشاعلية شيأ من الفضة و يأخذون منهم الرأس و يدخلون بها الى دارهم ولا يزالون يصفعونها بالقباقيب و النعال حتى يشتفوا منه وطافوا بها فى الحارات والازقة حتى طافوا بها فى حارات زويلة وصار اليهود يدخلون بها الى بيوتهم ولم يزالوا يصفعونها بالنعال حتى اشتفوا منها وربما كانوا يبولون عليها فأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية حتى قيل كان مع المشاعلية برنية خضراء يحصلون فيها الفضة التى تدخل عليهم من الناس فقيل انهم ملؤا البرنية ثلاث مرات فضة ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الوقائع وهى من الغرائب قيل كان سنجر الشجاعى هذا رجلا طويلا عريضا كامل الخلقة أبيض اللون أشقر اللحية مهيب الشكل قاسى القلب مظلم الصورة عسوفا كثير الاذى اذا ظفر بأحد لا يرحمه ولا يراعى فى الأنام خليلا فلما ان قتل لم يرث له أحد من الناس فكان كما قال القائل

لا تفعل الشر فتسمى به * وإفعل الخير تجازى عليه
أما ترى الحية من شرها * يقتلها من لا تؤاسى عليه

فلما اقتل الشجاعى وخمدت الفتنة طلع الامراء عند السلطان و جمعوا المماليك البرجية وكانوا يسكنون فى أبراج القلعة فرسم الامير كتبغا بأن ينزلوا من القلعة و يسكنوا فى الابراج التى فى سور القاهرة خلف البرقية فسكنوا بها وكانوا نحو أربعة آلاف وسبعمائة مملوك فرتب لهم الامير كتبغا ما يكفيهم فى كل يوم وشرط عليهم أنهم لا يركبون ولا يخرجون من الابراج ثم ان الامير كتبغا قبض على جماعة من الامراء الذين كانوا من عصبة الشجاعى وهم الامير بيبرس الجاشنكير أستادار العالية وقبض على الامير اللقانى أمير اخور كبير وقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ثم أفرج عن جماعة من الامراء الذين كانوا مسجونين بالثغر المذكور وهم الامير قفجق السلحدار والامير عبد الله حامل الخبر والامير قرمش والامير بورى والامير لاچين جركس والامير مغلطاى المسعودى والامير كردى الساقى والامير عمر شاه السلحدار فلما حضروا خلع عليهم وأعادهم الى وظائفهم واقطاعاتهم (ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة) فى يوم عاشر المحرم ثار جماعة مماليك الاشرف خليل تحت الليل وفتحوا باب سعادة وهجموا على اصطبلات الناس فلما طلع النهار أرسل الامير كتبغا فقبض على من فعل ذلك من المماليك وقطع أيديهم وصلب على باب زويلة منهم جماعة ووسط منهم جماعة وكانوا نحو ثلثمائة مملوك فلما جرى ذلك اجتمع الامراء وضربوا مشورة وقالوا قد فسدت الاحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك فى حق الرعية ومن الرأى أن نولى سلطانا كبيرا يقمع المماليك عن هذه الافعال فعند ذلك وقع الانفاق من الامراء على خلع الملك

الناصر محمد وان يولوا كتبغا فخلعوا الملك الناصر من السلطنة وولوا كتبغا فكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون فى هذه المرة أحد عشر شهرا وأياما انتهى ما أوردناه على سبيل الاختصار والله سبحانه وتعالى أعلم

ذكر سلطنة الملك العادل كتبغا بن عبد الله المنصورى

وهو العاشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية تسلطن بعد خلع الملك الناصر محمد ابن قلاون فى حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة وتلقب بالملك العادل ونودى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء وكان أصله من سبايا التتار أخذه الملك المنصور قلاون فى وقعة حمص الاولى وذلك فى سنة تسع وخمسين وستمائة فصار من جملة مماليك السلطان قبل ان يلى السلطنة فلما تسلطن جعله أمير عشرة ثم بقى مقدم ألف فلما قتل الاشرف خليل وتولى أخوه محمد جعله نائب السلطنة ثم بقى سلطانا فلما تم أمر كتبغا فى السلطنة استقر بالامير لاچين نائب السلطنة عوضا عن نفسه وكان الامير لاچين ممن تواطأ على قتلة الملك الاشرف فلما تولى أخوه محمد هرب الامير لاچين وكان من عصبة بيدرا فاختفى لاچين مدة طويلة نحو سنة فكان مقيما فى خزانة أحمد بن طولون ثم ان الامير كتبغا شفع فيه عند الملك الناصر محمد بن قلاون فقابله به فرضى عليه السلطان وأنعم عليه بتقدمة ألف فلما تسلطن كتبغا جعله نائب السلطنة وفوض اليه أمور المملكة جميعها وجعل الامير بهادر حاجب الحجاب ثم ان الامير كتبغا لما ثبت أمره فى السلطنة صار يقرب خشداشينه وينعم عليهم بتقادم ألوف وبالاقطاعات السنية وقويت شوكته وراج أمره فى السلطنة وصار له عصبة (ثم دخلت سنة خمس وتسعين وستمائة) فيها أجدبت البلاد وشح النيل وقد وصل الى اثنى عشر ذراعا ثم هبط فشرقت الاراضى ووقع الغلاء والقحط بالديار المصرية وشحط سعر القمح الى مائة وسبعين درهما كل اردب وكذلك الفول وبلغ سعر اللحم كل رطل سبعة دراهم وبيع كل فروج بخمسة عشر درهما وبيعت البيضة الواحدة بأربعة دراهم وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة منها بثلاثين درهما واشتد الامر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال ولم يبق عند أحد شىء من الدواب حتى قيل صار يباع الكلب السمين بخمسة دراهم والقط بثلاثة دراهم فلما طال الامر على الناس أرسل الله تعالى اليهم جرادا كثيرا فأكل الناس منه شيأ كثيرا حتى قيل كان يباع منه كل أربعة أرطال بدرهمين وقد عم هذا الغلاء سائر البلاد حتى البلاد الشامية حتى مكة والمدينة وسائر أعمال الديار المصرية ثم أعقب هذا

فناء عظيم حتى صار الناس يتساقطون موتى فى الطرقات قيل مات فى هذه السنة من الناس نحو الثلث حتى كفن الملك العادل كتبغا من ماله فى مدة يسيرة من مات من العربان على الطرقات نحو مائتين وسبعين ألف انسان فخافت منهم الحارات والازقة وصار الرجل يكون ماشيا فيقع ميتا فى الحال وفى ذلك يقول ابن المعمار

ياطالبا للموت قم واغتنم * هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله * ومات من لا عمره ماتا

ثم كشف الله عن الناس هذه الكربة وتراجع الامر قليلا قليلا وانحطت الاسعار وانصلح الحال كما كان أولا و زالت تلك الشدة العظيمة فكان كما قيل

قل لمن يحمل هما * ان هذا لا يدوم
مثل ما تفنى المسرا * ت كذا تفنى الهموم

وفى هذه السنة وهى سنة خمس وتسعين وستمائة توفى الشيخ الزاهد الناسك سيدى فتح الاسمر رحمة الله عليه وهو فتح بن عثمان الاسمر التكرورى المراكشى قدم من مراكش الى دمياط على سبيل التجريد وكان يسقى فى دمياط الماء فى الاسواق احتسابا من غير أن يأخذ من أحد شيأ وكان يلازم الصلاة فى المسجد مع الجماعة وكان لا يرى الا وقت الصلاة واذا سلم الامام عاد الى انعكافه واستمر على ذلك حتى توفى فى ليلة الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستمائة ودفن بثغر دمياط بجوار مسجد الفتح وقبره يزار الى الآن وقد قيل فى المعنى

لعمرك مادمياط الاحبيبة * تهيم الورى منها باحسن منظر
لها ناظر منها يصول بابيض * و يطعن من فتح القوام باسمر

وفى هذه السنة أيضا كانت وفاة الشيخ سراج الدين الوراق الشاعر الماهر وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد وكان مولده فى سنة خمس عشرة وستمائة و وفاته فى سنة خمس وتسعين وستمائة فكانت مدة حياته نحو ثمانين سنة ومن شعره لنفسه قوله

واخجلتى وصحائفى سوداء غدت * وصحائف الابرار فى اشراق
وموبخ لى فى القيمة قائل * أكذا تكون صحائف الوراق

ومما وقع للسراج الوراق ان الشيخ نصير الدين الحمامى قال له قد عملت قصيدة فى الصاحب تاج الدين السبكى وأشتهى ان تثنى عليها اذا قرئت بحضرتك فلما أنشدها النصير الحمامى بحضرة الشيخ سراج الدين أنشأ على الفور ارتجالا وهو يقول

شاقنى للنصير شعر بديع * ولمثلى فى الشعر نقد بصير
ثم لما سمعت باسمك فيه * قلت نعم المولى ونعم النصير

ومن هنا نرجع الى أخبار كتبغا (ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة) فيها سافر السلطان
الى البلاد الشامية بسبب تمهيد البلاد فلما دخل الشام صلى بها الجمعة ثم فى يوم السبت
لعب فى ميدان دمشق بالكرة وأقام بها أياما وعزل من عزل وولى من ولى ثم قصد التوجه
الى الديار المصرية فلما رحل من دمشق ووصل الى وادى فحمه وقع بين الامير لاجين نائب
السلطنة وبين جماعة من الامراء كلام فبادر الامير لاجين وقبض على جماعة من الامراء
منهم الامير بجاص العادلى والامير بكتوت الازرقى وكانا جناحى الملك العادل كتبغا فلما
بلغه ذلك رجع الى دمشق فى نفر قليل من العسكر فلما رجع كتبغا الى دمشق احتوى
الامير لاجين على خزائن المال وركب تحت العصائب السلطانية وقصد التوجه الى الديار
المصرية هذا ما كان من أمر الامير لاجين وأما ما كان من أمر الملك العادل كتبغا
فانه لما رجع الى دمشق أقام بها ثلاثة عشر يوما وهو بقلعة دمشق وقد أطاعه أهلها
وتعصبوا له فما مضى قليل حتى جاءت الاخبار من القاهرة بأن لاجين قد تسلطن بمصر
وتلقب بالملك المنصور فعند ذلك انحل برم الملك العادل كتبغا وانصرف عنه الناس فلما
كان يوم الخميس ثامن ربيع الاول من السنة المذكورة وصل الى دمشق الامير حسام
الدين لاجين استادار العالية وعلى يده مراسيم لقضاة دمشق وللامراء فاجتمعوا بدار
السعادة وقرؤا مراسيم السلطان لاجين على القضاة والامراء بأن يحضروا الملك العادل
كتبغا ويشهدوا عليه بالخلع من السلطنة فقام قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة
الشافعى هو والامير لاجين الاستادار ودخلوا على العادل كتبغا وهو بقلعة دمشق
وتكلموا معه فلما رأى كتبغا عين الغلبة أذعن وأشهد على نفسه بالخلع ثم فى يوم
الاثنين وصل الى دمشق الامير قبجق المنصورى وقد استقر نائب الشام فلما دخل دمشق
نزل بدار السعادة وأرسل خلف العادل كتبغا وقال له ان السلطان المنصور لاجين يسلم
عليك ورسم لك بأن تتوجه الى مدينة صرخد ويرتب لك ما يكفيك فقال السمع والطاعة
وخرج من يومه الى صرخد وهو معزز مكرم ومعه عياله ومماليكه وغلمانه وبركه وتوجه
الى صرخد فأقام بها فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والديار الشامية الى ان خلع من
السلطنة نحو سنتين الا اشهرين فلما توجه الى صرخد أقام بها الى سنة تسع وتسعين
وستمائة فلما عاد الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة فى المرة الثانية أنعم على الملك
العادل كتبغا بمملكة حماه وأعمالها وكان الملك الناصر يميل الى كتبغا دون أبيه فاستمر
كتبغا فى حماه الى ان مات وكانت وفاته فى يوم عيد النحر من سنة اثنتين وسبعمائة ودفن
بحماه ثم نقل بعد ذلك الى دمشق ودفن بسفح جبل قاسيون وكان كتبغا رجلا قصير
القامة أجرد اللحية أسمر اللون وكان موصوفا بالشجاعة وكان دينا خيرا سليم الباطن

ومات وله من العمر نحو ثلاثة وستين سنة ومن صفاء باطنه انه قرب الامير لاجين وشفع فيه من القتل عند الملك الناصر محمد بن قلاون وكان لاجين ممن تعصب على قتل الاشرف خليل ولما ان تسلطن كتبغا استقر بالامير لاجين نائب السلطنة وفوض اليه أمور السلطنة جميعها وكان لاجين فى قلبه الغدر لكتبغا حتى وثب عليه وخلعه من السلطنة وجرى عليه ما جرى وكان لاجين يظهر المحبة لكتبغا وهو فى الباطن بخلاف ذلك كما قيل فى المعنى

والخل كالماء يبدى لى ضمائره * مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك العادل كتبغا وذلك على سبيل الاختصار ثم تولى من بعده الامير لاجين

ذكر سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين

ابن عبد الله المنصورى وهو الحادى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية بويع بالسلطنة بعد خلع الملك العادل كتبغا وذلك فى نصف شهر صفر سنة ست وتسعين وستمائة وتلقب بالملك المنصور ونودى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء ودقت له الكوسات وكان أصله من مماليك الملك المنصور قلاون فلما تم أمره فى السلطنة خلع على خشداشينه وهم الامير قراسنقر المنصورى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن نفسه وأنعم على مملوكه منكوتمر بتقدمة ألف ثم خلع على الامير سنقر الاعسر واستقر به وزيرا ثم أخذ فى أسباب عمارة جامع أحمد بن طولون وكان خرابا بغير سقف مدة مائة وسبعين سنة وكان لاجين لما قتل بيدرا وجرى ما تقدم ذكره اختفى فى جامع أحمد بن طولون فى المئذنة مدة طويلة حتى شفع فيه العادل كتبغا عند الملك الناصر محمد بن قلاون فلما ظهر ورضى عليه الناصر محمد نذر فى نفسه ان صار سلطانا ليعمرن جامع أحمد بن طولون كما كان فلما صار سلطانا عمره ورتب فى سطح الجامع دكة بسبب الميقاتية لتحرير الوقت ووقف على ذلك أوقافا كثيرة الى الآن تصرف للميقاتية وأحيا رسوم هذا الجامع بعد ما كانت قد درست ومن محاسن الملك المنصور لاجين انه أرسل خلف أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الذين كانوا بالقسطنطينية من حين نفاهم الملك الاشرف خليل بن قلاون وأحضرهم الى مصر فاما سلامش ابن الملك الظاهر فانه أدركته المنية فى القسطنطينية وأتوا به وهو ميت فى سحلية ودفن بالقرافة الصغرى وكان يسمى ابن البدوية وكان جميل الصورة مليح الشكل وأما أخوه سيدى خضر فانه أقام بالقاهرة مدة ثم طلب من

السلطان لاجين دستورا بأن يحج فأذن له فى ذلك فسار الى الحجاز وحج ورجع الى مصر
وأقام بها مدة ومات ودفن مع أخيه سلامش وبه انقرضت أولاد الملك الظاهر بيبرس
البندقدارى ثم ان السلطان لاجين قبض على الامير قراسنقر نائب السلطنة وسجنه
واستقر بمملوكه منكوتمر نائب السلطنة فعز ذلك على بقية الامراء ولم يكن منكوتمر
أهلا لذلك (ثم دخلت سنة سبع وتسعين وستمائة) فيها راك السلطان البلاد المصرية
وهو الروك الحسامى وكان ابتداء ذلك فى سادس جمادى الاولى من السنة المذكورة
وكان المتكلم فى ذلك شخصا من المباشرين يقال له التاج الطويل فشرع فى كتب قوائم
بمساحة البلاد واسمائها وكانت البلاد المصرية مقسومة يومئذ على أربعة وعشرين
قيراطا منها أربعة قراريط للسلطان ومنها عشرة قراريط للامراء والاطلاقات ومنها
عشرة قراريط للجند كلهم فرسم السلطان للمباشرين بأن يكفوا الامراء بعشرة
قراريط مع الاجناد وزاد الذين قد تشكوا من الاجناد قيراطا وبقى للسلطان ثلاثة
عشر قيراطا فشكى الجند وضجوا من ذلك وكان المتكلم فى ذلك الامير منكوتمر النائب
فصار يقابح الامراء والجند أنحس مقابحة وعادى سائر العسكر بسبب ذلك فنفرت
قلوبهم عن السلطان لاجين وتمنى كل أحد زواله وكثر الدعاء عليه من الناس وكان مملوكه
منكوتمر من سيآت الدهر أظلم خلق الله تعالى وأنحسهم فلما كان ثامن رجب من
السنة المذكورة فرقت المثالات بما تقرر عليه المال مع الامراء والجند وهم غير راضين
بذلك ثم لما مضى أمر ذلك أشار الامير منكوتمر على السلطان بأن يقبض على جماعة
من الامراء فقبض على جماعة منهم الامير ايبك الحموى وغيره من الامراء ثم أرسل
بالقبض على قفجق نائب الشام فلما بلغه ذلك خرج من الشام هاربا وخرج معه الامير
بكتمر الابوبكرى والامير بزلار وغيرهم من الامراء الذين كانوا بدمشق فلما خرجوا
من دمشق توجهوا الى القان الاكبر غازان ملك التتار وكان هذا سببا للفتنة العظيمة
التى وقعت بينه وبين عسكر مصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى ۞ وفى
هذه السنة سأل الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله السلطان بأن ينعم له فى ان يحج
فأنعم له فى ذلك ورسم له بألف دينار فأخذها وحج فى تلك السنة ثم عاد مع الحجاج الى
القاهرة (ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمائة) فيها توجه السلطان الى القصر الكبير وكان
صائما وكان ذلك يوما شديد الحر فجلس فى القصر الى وقت الفطور وهو يلعب بالشطرنج
وكان عنده القاضى حسام الدين الرازى الحنفى وامامه محب الدين ابن العسال وشيخ
العرب يزيد فلما جلس فى القصر الى وقت المغرب بلغ ذلك جماعة من المماليك الاشرفية
وكان فى قلبهم من السلطان لاجين شىء لانه كان من جملة من تواطأ على قتل أستاذهم الملك

الاشرف خليل فقالوا هذه ليلة الفرصة فاتفقوا مع جماعة من المماليك البرجية بأن يهجموا على السلطان بعد العشاء وهو فى القصر وكانت تلك الليلة نوبة شخص من السلحدارية يقال له نوغان الكرمانى فاتفق معه شخص يقال له كرجى وهو مقدم المماليك البرجية على ان يدخل المماليك ويهجموا عليه بعد العشاء ويقتلوه فلما دخل وقت المغرب أفطر السلطان فى القصر واستمر يلعب فى القصر الى وقت العشاء فتقدم كرجى مقدم المماليك البرجية الى الشمعة ليصلحها فرمى الفوطة على النمجاة والسلطان منكب على الشطرنج وهو لا يدرى ما خبئ له فى الغيب فالتفت اليه السلطان وقال له غلقت أبواب الاطباق على المماليك البرجية فقال له نعم فشكره وأثنى عليه وكان المماليك البرجية واقفين بالسيوف فى دهليز القصر فلما فات وقت العشاء تقدم كرجى الى السلطان وقال له يا خجم أما تصلى العشاء فقال له السلطان نعم وقام ليصلى العشاء فضربه كرجى بالسيف على كتفه فهدله فقام السلطان ليأخذ النمجاة فلم يجدها فقبض على كرجى ورماه الى الارض فجاء اليه نوغان الكرمانى وأخذ النمجاة وضرب بها السلطان على رجله ضربة قوية فقطعها فصاح عليه القاضى حسام الدين الرازى ويلكم كيف تقتلون أستاذكم فانقلب على ظهره السلطان ووقع الى الارض ميتا فتركوه مكانه ومضوا وأغلقوا عليه باب القصر وتركوا عنده الامام والقاضى حسام الدين الرازى ثم ان كرجى توجه تحت الليل الى الامير منكوتمر النائب وكان ساكنا بدار النيابة بالقلعة فدق عليه الباب وقال له ان السلطان يدعوك فأنكر ذلك وقال لكرجى لعلك قتلت السلطان فقال له كرجى نعم قتلناه وجئنا اليك نقتلك يا نحس وكان بين كرجى وبين الامير منكوتمر حظ نفس من قديم الزمان ثم ان كرجى أحرق الباب ودخل على منكوتمر وقبض عليه وتوجه به الى الجب الذى بالقلعة فحبسه به وكان بالجب جماعة من الامراء مسجونون وكان منكوتمر سببا لسجنهم كافة دم فلما رأوا منكوتمر دخل عليهم قتلوه شر قتلة هذا كله يجرى فى القلعة تحت الليل وأهل المدينة لم يشعروا بشئ من ذلك فلما طلع النهار شاعت الاخبار فى المدينة بما جرى ثم ان الزمام شرع فى تجهيز السلطان فغسل وكفن ونزل من القلعة فى تابوت هو والامير منكوتمر ودفنا بالقرافة الصغرى ولم تنتطح فى ذلك شاتان فكانت مدة سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين بالديار المصرية الى أن قتل سنتين وشهرين وأياما وكانت قتلته فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة وكان رجلا طويل القامة أشقر اللون واللحية أزرق العينين مهيب الشكل وكان موصوفا بالفروسية شجاعا بطلا وكان دينا خيرا أبطل فى أيامه من المكوس التى كانت بالديار المصرية أشياء كثيرة ولم يكن من سيآته سوى مملوكه منكوتمر هو الذى كان يرمى

الفتن بينه وبين الامراء وهو الذى كان يحدث فى القاهرة أبواب الظلم حتى يجلب لاستاذه الدعاء من كل أحد من الناس حتى كرهوه وتمنوا زواله وعود الملك الناصر محمد بن قلاون الى الديار المصرية وفى أثناء قتلة السلطان لاجين حضر الى القاهرة الامير بكتاش أمير سلاح وكان مسافرا مع طائفة من العسكر الى البلاد الشامية فلما ان حضر نزل اليه كرجى ونوغان اللذان قتلا السلطان لاجين فقبض عليهما وقتلهما شر قتلة وكان بين قتلهما وقتل السلطان لاجين ليلة واحدة ثم ان الامراء اجتمعوا فى القلعة وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا فوقع الاتفاق منهم على عود الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك فارسلوا اليه نجابا الى الكرك بالحضور فأبطأ عليهم وأقامت مصر بلا سلطان احدا وأربعين يوما حتى حضر الملك الناصر من الكرك وعاد الى الملك اه ما أوردناه من أخبار الملك المنصور حسام الدين لاجين وذلك على سبيل الاختصار

ذكر عود الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة بالديار المصرية

وهى السلطنة الثانية دخل القاهرة يوم الخميس ثامن جمادى الاولى سنة ثمان وتسعين وستمائة فلما دخل القاهرة زينت له زينة عظيمة ودقت له الكوسات فلما طلع القلعة لبس خلعة السلطنة وهى جبة سوداء بطوق ذهب وعمامة سوداء وسيف بداوى متقلد به وحملت القبة والطير على رأسه ومشت الامراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك وقبل له الامراء الارض من كبير وصغير وفى ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعى رحمه الله هذين البيتين

الملك الناصر قد أقبلت * دولته مشرقة الشمس
عاد الى كرسيه مثل ما * عاد سليمن الى الكرسى

ثم ان الملك الناصر عمل الموكب وخلع على من سيذكر من الامراء وهم الامير اقوش الافرم واستقر به نائب الشام وخلع على الامير سلار المنصورى واستقر به نائب السلطنة وخلع على الامير بيبرس الجاشنكير واستقر به اتابك العساكر وأعيد الامير سنقر الاعسر الى الوزارة وخلع على الامير حسام الدين لاجين وأعيد الى الاستدارية وأنعم على جماعة كثيرة من مماليك أبيه بتقادم ألوف وأنعم على جماعة أيضا من المماليك بالاقطاعات السنية وتم أمره فى المملكة وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة (ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة) فيها جاءت الاخبار من حلب بان غازان ملك التتار قد زحف على البلاد ووصل أوائل

عسكره الى الفرات وهو فى عسكر ثقيل لا يحصى وغازان هذا هو ابن أرغون بن ابغا بن هلاكو الذى أخرب بغداد وقتل الخليفة وجرى منه ما جرى وكان سبب مجى غازان وزحفه على البلاد هو ان قفجق نائب الشام لما بلغه ان الملك المنصور لاچين أرسل بالقبض عليه أخذ أولاده وعياله وبركه وماله وخرج من الشام وتوجه هاربا الى القان غازان وحسن له أن الملك الناصر صغير وان الامراء والعسكر بينهم الخلف وانه اذا زحف القان غازان على البلاد لا يجد من يرده عنها فعند ذلك جمع القان غازان عساكر عظيمة نحو مائتى ألف مقاتل فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت الارض واجتمعت الامراء بالقلعة وضربوا مشورة فوقع الاتفاق على ان الاتابكى بيبرس الجاشنكير يتوجه الى حلب ومعه خمسمائة مملوك قبل خروج السلطان فخرج الاتابكى بيبرس على جرائد الخيل مع العسكر ثم خرج الملك الناصر محمد بعده فى خامس عشر صفر وكان صحبته الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله والقضاة الاربع وكان قاضى القضاة الشافعى حينئذ شيخ الاسلام تقى الدين ابن دقيق العيد وخرج مع السلطان سائر الامراء والعسكر فجد السلطان فى المسير حتى وصل الى دمشق فى ثامن ربيع الاول سنة تسع وتسعين وستمائه ثم خرج من دمشق فتلاقى مع جاليش غازان فى مكان يعرف بسلميه قرب بعلبك فوقع بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها وقتل من الفريقين مالا يحصى عددهم فانكسر عسكر السلطان وهرب الملك الناصر الى بعلبك ونهب بركه وسائر برك العسكر ولم يبق معه من العسكر الا طائفة يسيرة ثم ان القان غازان زحف على ضياع الشام ونهب مافيها وسبى أهلها فلما بلغ أهل الشام ذلك خافوا على أنفسهم من غازان فيما فعله باهل الضياع فتشاوروا مع جماعة من العلماء الذين كانوا بدمشق وخرجوا الى غازان يطلبون منه الامان فخرج قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة الشافعى والشيخ زين الدين الفارقى والشيخ تقى الدين ابن تيمية الحرانى والقاضى نجم الدين ابن الصرصرى والقاضى عز الدين ابن تركى والشيخ عز الدين ابن القلانسى والقاضى جلال الدين القزوينى وغير هؤلاء جماعة من العلماء والصلحاء فلما دخلوا على غازان ووقفوا بين يديه وقف الترجمان وتكلم مع القان غازان فى أمرهم وانهم جاؤا يطلبون الامان منه فقال له غازان قل لهم انى قد أرسلت اليهم الامان قبل حضورهم عندى فرجعوا الى دمشق واجتمع فى جامع بنى أمية الجم الغفير وقرؤا على الناس الامان الذى أرسله القان غازان الى أهل دمشق فلما قرئ عليهم ذلك الامان وسمعوه فرح الناس بذلك وحصل عندهم سكون بعد ما كانوا فى اضطراب من أمر غازان ثم حضر الامير قفجق الذى كان نائب الشام وهرب الى غازان ونزل بالميدان الاخضر وأرسل يقول لنائب قلعة الشام سلم الينا القلعة ولا تحوجنا الى ان نحاصرك

وتغلب بعد ذلك فارسل نائب القلعة يقول لقفجق ليس لك عندى جواب الا السيف وكيف أسلم القلعة والملك الناصر على قيد الحياة فلما بلغ غازان ذلك حاصر القلعة ونصب عليها المجانيق وأحرق البيوت التى حولها فلم يقدر عليها ثم بلغه ان الملك الناصر تراجع اليه العسكر وهو قاصد نحو الشام فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الاولى رحل غازان عن دمشق وترك بها أميرا من التتار يقال له الامير قطلوشاه بيك ومعه عسكر من التتار وولى الامير قفجق نائب الشام كما كان أولا هذا ما كان من أمر القان غازان وأما ما كان من أمر الملك وأمر عسكره فانه لما انكسر ودخل الى بعلبك أقام بها أياما ثم قصد التوجه الى الديار المصرية وجد فى السير حتى وصل الى القاهرة فدخل على حين غفلة وطلع القلعة وقدامه بجميع ما كان معه من البرك وكذلك الامراء والعسكر فلما طلع القلعة فتح الزردخانه وفرق ما كان فيها من الملبوس والسلاح على العسكر ثم فتح خزائن المال وأنفق على العسكر فاعطى كل مملوك ثمانين دينارا وجماعة منهم أعطاهم خمسة وسبعين دينارا وجماعة منهم خمسة وستين دينارا وأعطى مماليك الامراء كل واحد خمسين دينارا ثم أنفق على عسكر الشام الذين حضروا بصحبته فاعطى كل واحد منهم عشرة دنانير ذهبا وعشرة أرادب شعيرا وعشرة أرادب قمحا ثم أنفق على سائر الامراء والمقدمين والطبلخاناة والعشراوات لكل واحد منهم على قدر مقامه وكان القائم فى تدبير مملكته الامير سلار نائب السلطنة والاتابكى بيبرس الجاشنكير ثم ان الملك الناصر قصد العود الى محاربة غازان فبرز بخيامه فى الريدانية وخرج من القاهرة ثانيا وكان صحبته الخليفة الامام أحمد والقضاة الاربع وسائر الامراء والعساكر فلما أقام فى الريدانية تشكى العسكر وتغلبوا عليه فأنفق عليهم نفقة ثانية لترفع أحوالهم ثم رحل من الريدانية وجد فى السير فتقدم فى جاليش العسكر الامير سلار نائب السلطنة والاتابكى بيبرس الجاشنكير فلما وصل الجاليش الى دمشق تلقاهم الامير قفجق وأظهر الطاعة للسلطان وباس الارض واجتمع بالامراء وأشار عليهم بأن السلطان يرجع الى القاهرة ولا يدخل دمشق وسيجيئه الامر كما يختار فعند ذلك رجع السلطان الى القاهرة وكان رجوعه اليها فى ثامن عشر شهر رمضان من سنة تسع وتسعين وستمائة ومن النكت اللطيفة قيل ان الملك المنصور قلاون استاذ الامير قفجق المذكور خرج يوما الى نحو المطرية فى أيام النيل على سبيل التنزه ومعه جماعة من الامراء من أخصائه فانشرح السلطان فى ذلك اليوم وذبح خروفا سمينا بيده فلما حضر السماط قدموا ذلك الرميس بين يديه فقطعه بيده ثم أخذ الكتف منه وجرده من لحمه وتركه ساعة حتى جف ثم لوحه على النار قليلا قليلا ثم أخرجه ونظر فى لوح الكتف ساعة وأطال التأمل ثم تفل عليه وألقاه من يده وظهر فى وجهه الغضب فسأله بعض الامراء

عن ذلك بعد ماسكن غضبه فقال ان وليتم قفجق بعدى نيابة الشام يحصل منه غاية الفساد فلا تخرجوه بعدى من مصر لئلا تتعبوا من أمره فكان الامر كما قاله الملك المنصور قلاون والملوك لهم فراسة فى الامور قبل وقوعها كما قيل فى المعنى

يرى العواقب فى أثناء فكرته * كأن أفكاره بالغيب كهان

لا طرفة منه الا تحتها عمل * كالدهر لادولة الا لها شان

ولم يزل الامير قفجق ممقوتا فى دولة الملك المنصور قلاون حتى مات قلاون وتسلطن خليل ولده الى أن تسلطن الملك المنصور لاجين فاستقر بالامير قفجق نائب الشام فلما ظهر له منه عين العصيان أرسل بالقبض عليه فهرب قفجق الى القان غازان وحسن له بأن يزحف على البلاد كما تقدم من اخباره قال القاضى محيي الدين بن فضل الله حكى لى الامير قفجق بعد أن جرى ما جرى ورجع الى القاهرة وتلاقى عسكر السلطان مع عسكر غازان فكاد غازان أن ينكسر وهم بالهرب فطلبنى ليضرب عنقى لانى كنت السبب فى مجيئه الى دمشق فلما حضرت بين يديه قال لى ماهذا الحال فقلت ماثم الا الخير والسلامة فانا أخبر بعسكر نافان لهم أول صدمة ثم يولوا عن القتال فالقان يصبر ساعة فما يبقى قدامه أحد منهم فصبر ساعة فكان ما قاله صحيحا ولما انكسر عسكر مصر أراد أن يزحف عليهم بما معه من العسكر فقلت فى نفسى متى زحف عليهم لم يبق منهم أحد فقلت له القان يصبر ساعة فان عسكر مصر لهم حيل وخداع وربما يكون لهم كمين وراء الجبل فيخرج علينا فننكسر فسمع لى ثم وقف ساعة حتى أبعدتم عنا ولم يبق منكم أحد قدامه فلو زحف عليكم ما بقى منكم أحد فلولا أنا ما سلم منكم أحد فكان الامر كما قيل

ولو شئت قابلت المسىء بفعله * ولكننى أبقيت للصلح موضعا

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الناصر محمد بن قلاون ثم فى هذه السنة وصل الخبر من البحيرة بأن قد اختلفت طائفتان من العرب وهما جابر ومرديس ونهبوا ضياع البحيرة وأحرقوا الجرون فاضطربت أحوال الديار المصرية وعين لهم السلطان تجريدة فكان باش العساكر الامير بيبرس المنصورى أمير دوادار كبير وصحبته جماعة من الامراء نحو عشرين أميرا ما بين طبلخانات وعشراوات فخرجوا من القاهرة على الفور وجدوا فى السير الى أن وصلوا الى تروجه ووقعوا مع العرب فكسروهم وهربوا الى الجبال حتى لم يبق منهم أحد فاحاط العسكر بجمالهم وأغنامهم وأولادهم ونسائهم ثم عاد الامراء الى القاهرة وهم فى غاية النصرة فخلع السلطان على الامير بيبرس خلعة ونزل الى بيته فى موكب عظيم انتهى ذلك ❁ ثم دخلت سنة سبعمائة من الهجرة النبوية فيها كان خليفة الوقت الامام أحمد الحاكم بأمر الله وسلطان العصر الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون وقاضى القضاة من الشافعية شيخ

الاسلام

الاسلام تقي الدين ابن دقيق العيد وأما الامراء أرباب الوظائف فالامير سلار المنصوري نائب السلطنة والامير بيبرس الجاشنكير اتابك العساكر المنصورة والامير بيبرس المنصوري دوادار كبير والامير سنقر الاعسر وزير والامير لاجين استادار والامير عز الدين أيدمر نقيب الجيوش المنصورة والامير أقوش الشمسي حاجب الحجاب والامير ناصر الدين بن الشيخ واليا بالقاهرة وبقية الامراء لم نذكرهم هنا خوف الاطالة ولكن سيأتي ذكرهم في مواضعه وأما أرباب الوظائف من المتعممين فالقاضي محيي الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف والقاضي بهاء الدين بن الحلي ناظر الجيوش المنصورة والقاضي كريم الدين بن السديد ناظر الخواص الشريفة وكان شاعر الوقت يومئذ الشيخ صدر الدين بن الوكيل كان من فحول الشعراء وله شعر جيد في شعره ونظمه الرقيق قوله من قصيدة خمرية

عناصر أربع في الكأس قد جمعت * وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها القدح * وطوقها فلك والأنجم الحبب
وان اقطب وجها حين تبسم لي * فعند بسط الموالي يحفظ الادب

ومن الحوادث في هذه السنة أن الملك الناصر محمد بن قلاون رسم لليهود بأن يلبسوا عمائم صفرا والنصارى زرقا والسامرية عمائم حمرا واشهر النداء بذلك في القاهرة وكان سبب ذلك أن شخصا مغربيا كان جالسا بباب القلعة فدخل عليه بعض كتاب الديوان وهم بعمائم بيض فقام اليهم ذلك المغربي وبالغ في تعظيمهم وظن أنهم من المسلمين فقيل له ان هؤلاء من أقباط النصارى وهم على دينهم فقام ذلك الرجل المغربي ودخل الى السلطان الملك الناصر وفاوضه في الكلام على تغيير زي أهل الذمة ليمتازوا عن المسلمين ويقل أذاهم ويعرف المجرمون بسيماهم فأجابه الملك الناصر الى ذلك وأمر باشهار النداء في القاهرة فامتثلوا أمره ولبسوا ما أمروا به فلما أصبحوا وهم في ذلك الزي أنشد في هذه الواقعة الشيخ شمس الدين الطيبي يصف اختلاف ألوان عمائمهم وهو قوله

تعجبوا للنصارى واليهود معا * والسامريين لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالاصباغ منسهلا * نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا

وفي أثناء هذه السنة جاءت الاخبار بحركة التتار وقد وصل أوائلهم الى الفرات فجمع السلطان الامراء وضربوا مشورة في ذلك الخبر فقال السلطان للامراء أنتم تعلمون أني رجعت مكسورا من التتار تلك المرة ونهب جميع بركي وذهبت الأموال والآن لم يبق في بيت المال لا دينار ولا درهم فمن أين أنفق على العسكر فاتفق رأي الامراء على أن يوزعوا النفقة على المباشرين وأعيان التجار ومساتير الناس ثم ندبوا الى ذلك الامير سنقر الاعسر وزير الديار المصرية فشرع في استخراج الاموال من الناس فتحصل من ذلك فوق مائتي

ألف دينار ثم ان السلطان أنفق على العسكر وخرج من القاهرة قاصدا نحو البلاد الشامية فلما أن وصل الى غزة جاءت الاخبار من حلب بأن نائب حلب كسر التتار كسرة قوية ورجعوا الى بلادهم هاربين فلما بلغ السلطان رجع الى القاهرة من غزة وكان سبب رجوعه قيل ان العسكر تغلبوا عليه هنالك وقصدوا منه نفقة ثانية من قلة التبن والشعير فانه كان لا يوجد ثم ان السلطان عين من الامراء بكتمر السلحدار وجماعة من الامراء بأن يتوجهوا من غزة الى حلب ويقيموا بها الى أن يظهر ما يكون من أمر التتار ثم ان السلطان رجع الى القاهرة ودخل فى موكب عظيم وطلع الى القلعة وانقضى ذلك الامر ۞ ثم دخلت سنة احدى وسبعمائة فيها توفى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله وكانت وفاته فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى من سنة احدى وسبعمائة وكان قدومه من بغداد فى سنة تسع وخمسين وستمائة وذلك فى دولة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى وأقام فى الخلافة نيفا وأربعين سنة وهو أول خلفاء بنى العباس بمصر ولما مات دفن بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها وبنيت له هنالك قبة وقد تقدم ذكر ذلك عند تراجم الخلفاء العباسيين ولما مات الامام أحمد تولى من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان وهو ثانى خلفاء بنى العباس بمصر واليه تنسب الخلفاء الى الآن بمصر ۞ ثم دخلت سنة اثنتين وسبعمائة فيها جاءت الاخبار بأن أميرا من أمراء القان غازان يقال له قطلوشاه قد دخل الى حلب على حين غفلة من أهلها ومعه طائفة من عسكر التتار وذكروا أن بلادهم قد اضمحلت هذه السنة وقصدهم الاقامة بحلب حتى يشتروا لهم مغلا وكل ذلك حيل وخداع ثم بعد أيام دخل منهم جماعة نزلوا بالمرعش فأرسل نائب حلب يكاتب السلطان بذلك فلما جاء هذا الخبر عين السلطان جماعة من الامراء المقدمين عدتهم ستة من الامراء وعين ألف مملوك من المماليك السلطانية فخرجوا من القاهرة على الفور مسرعين فلما وصلوا الى غزة تواترت الاخبار بوصول غازان الى الرحبة وان نائب الرحبة تلطف به وأرسل له بالاقامة مع ولده ومنعه من محاصرة المدينة فلما أن بلغ السلطان ذلك أحضر الامير سلار النائب والاتابكى بيبرس الجاشنكير وضربوا مشورة فى ذلك فأشاروا على السلطان بالخروج قبل أن تتمكن العدو من البلاد فنادى السلطان فى جميع أماكن القاهرة للعسكر بالرحيل من كبير وصغير ثم ان السلطان أحضر جماعة من عربان الشرقية ومن عربان الغربية ونادى بالنفير عاما وخرج مسرعا على جرائد الخيل وكان معه الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان والقضاة الاربع وسائر الامراء والعسكر من كبير وصغير فلما رحلوا من الريدانية تقدم الاتابكى بيبرس الجاشنكير مع جماعة من العسكر قدام السلطان فلما وصلوا الى الشام جاءت الاخبار بأن جاليش

غازان قد وصل الى قرب حماه فأرسل الاتابكى بيبرس يستحث السلطان فى سرعة الحضور فجد السلطان فى السير حتى وصل الى الشام فى مستهل شهر رمضان من السنة المذكورة ثم ان السلطان لم يقم بالشام و برز الى قتال عسكر غازان فكان مع السلطان من العساكر المصرية والشامية وعربان جبل نابلس نحو مائتى ألف انسان وكان مع غازان مثل ذلك أو أكثر فتلاقى العسكران على مرج راهط تحت جبل غباغب فكان بين الفريقين هنالك واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان فكانت النصرة يومئذ للملك الناصر محمد ابن قلاوون على القان غازان فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم وأسر من عسكر غازان نحو الثلث وقتل من أمراء مصر الامير حسام الدين لاجين استادار العالية والامير أوليا بن قرمان والامير سنقر الكافورى والامير ايدمر الشمسى القشاش والامير أقوش الشمسى الحاجب والامير عز الدين نقيب الجيوش المنصورة والامير علاء الدين بن التركمانى والامير حسام الدين على بن ساخل والامير سيف الدين بهادر الدكاجكى هؤلاء غير من قتل من أمراء دمشق الشام وحماه وحلب وطرابلس وغزة وغير ذلك من الامراء وقتل من المماليك السلطانية والامراء نحو ألف وخمسمائة مملوك هذا خارجا عن العربان والمشاة والعبيد والغلمان وغير ذلك فلما دخل الليل حالت الظلمة بين العسكرين فالتجأ عسكر غازان الى أعلى الجبال و باتوا يوقدون النيران و بات عسكر السلطان محدقين بهم كالحلقة فلما لاح الصباح من يوم الاحد رابع شهر رمضان عاين عسكر التتار الهلاك من العطش والجوع فصاروا ينسحبون فى الاودية أولا بأول فحمل عسكر السلطان عليهم فصيروهم رمما وأسروا منهم ما شاؤا فامتلأت من قتلاهم القفار وضجوا كما قال فيهم القائل

مشوا متسابقى الاعضاء فيهم * بأرجلهم بأرؤسهم عثار
اذا فاتوا السيوف تناولتهم * بأسياف من العطش القفار

فلما وصلت هذه النصرة للملك الناصر محمد أرسل الامير بكتوت الفتاح باخبار هذه النصرة الى الديار المصرية ثم ان السلطان رحل من المكان الذى وقعت فيه الواقعة ودخل الى دمشق وصحبته الخليفة المستكفى بالله سليمان والقضاة الاربع فنزل بالقصر الابلق وكان يوم دخوله الى دمشق يوما مشهودا لم يسمع بمثله و زينت له دمشق زينة عظيمة فأقام بدمشق أياما ثم قصد التوجه نحو الديار المصرية فوصل الى القاهرة فى ثالث عشرى شوال من سنة اثنتين وسبعمائة فدخل الى القاهرة وكان يوما مشهودا والاسارى من عسكر التتار قدامه وهم فى جنازير حديد وصناجق غازان منكوسة وطلائعه معكوسة فشق السلطان من القاهرة وطلع الى القلعة وقد غنم العسكر من التتار لما انكسروا أشياء كثيرة من خيول

وسلاح وقماش وغير ذلك من الغنائم وكانت هذه النصرة على غير القياس فان غازان كسر الملك الناصر قبل ذلك كسرة قوية ونهب جميع ما كان معه ومع العسكر من خيول وسلاح وبرك وغير ذلك كما تقدم فكان كما قيل فى المعنى

فيوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

❁ ومن الحوادث فى هذه السنة ان فى الثالث والعشرين من ذى الحجة وقعت زلزلة عظيمة بالديار المصرية وسائر أعمالها وكانت قوة عملها بثغر الاسكندرية فهدمت سورها والابراج وهدمت جانب المنار وفاض ماء البحر المالح حتى غرقت البساتين وأما بالديار المصرية فهدمت أكثر جدران الجامع الحاكمى وهدمت مئذنة المدرسة المنصورية ومئذنة جامع الظاهر الذى فى الشوايين وهدمت مئذنة جامع الصالح الذى عند باب زويلة وهدمت جانبا من حيطان جامع عمرو بن العاص وقد تشقق من هذه الزلزلة الجبل المقطم وخرج الناس الى الصحراء وظنوا أنها القيمة وأقامت الزلزلة تعاود الناس مدة عشرين يوما وسقطت الدور على الناس وهلك تحت الردم من الناس مالا يحصى وقيل ان شخصا كان يبيع اللبن فسقطت عليه داره فظن الناس انه قد مات فأقام تحت الردم ثلاثة أيام بلياليها فلما شالوا عنه الردم وجدوا فيه الروح وقد تصلبت عليه الاخشاب فسلم وكان معه جرة فيها لبن فوجدت معه كما هى سالمة وفيها اللبن وكانت هذه الزلزلة فى قوة الحر فجاء عقيبها ريح أسود فيه سموم فلفح حتى أغمى على الناس منها وقيل كانت هذه الزلزلة متصلة الى دمشق والكرك والشوبك وصفد وغالب البلاد الشامية وفى ذلك يقول بعضهم

زلزلت الارض فخاف الورى * وابتهلوا الى العزيز الحكيم

فليذكروا مع خوفهم قوله * زلزلة الساعة شئ عظيم

❁ ثم دخلت سنة ثلاث وسبعمائة فيها خرج الامير بيبرس الدوادار لعمارة ما انهدم من الابراج والاسوار بمدينة الاسكندرية بسبب ما حصل من الزلزلة فكان عدة ما سقط من الابراج سبعة عشر برجا وستا وأربعين مئذنة ثم ان جماعة من الامراء التزموا بترميم ما انهدم من الجوامع بالديار المصرية بسبب الزلزلة وصرفوا على ذلك من أموالهم شيأ كثيرا وفى هذه السنة جاءت الاخبار بموت القان غازان الذى جرى منه ما تقدم ذكره فكان غازان هذا من أولاد هلاكو الذى جرى منه فى بغداد ما جرى وقيل ان غازان مات مسموما سمته زوجته فى منديل الفرش وكان موته بالقرب من همذان وحمل الى تبريز ودفن بها وكان أخذ فى أسباب جمع عساكر وقصد بان يزحف على البلاد الشامية وكفى الله المؤمنين القتال وفى ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعى

قدمات غازان بلا علة * ولم يمت فى السنة الماضيه

بل شنعوا في موته فانثني * حياولكن هذه القاضيه

۞ ثم دخلت سنة أربع وسبعمائة فيها حضر الى الابواب الشريفة صاحب دنقلة من أعمال الصعيد وكان صحبته هدايا جميلة من رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك فخلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة وفيها كانت وفاة قاضي القضاة الشافعي شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله تعالى وكان عالما فاضلا بارعا في العلوم وكان من طلبة الشيخ عز الدين بن عبد السلام وكان له نظم رقيق فمن ذلك قوله في نوع الجناس التام

تهيم نفسي طربا عندما * أستلمح البرق الحجازيا
ويستخف الوجد عقلي وقد * لبست أثواب الحجا زيا
ياهل ترى أقضي مني من منى * وأنحر البدن المهاريا
وأرتوي من زمزم فهي لي * ألذ من ريق المها ريا

۞ ثم دخلت سنة خمس وسبعمائة فيها ابتدأ الاتابكي بيبرس الجاشنكير بعمارة خانقاه التي برحبة باب العيد قبالة الدرب الاصفر وكتب له الشيخ شرف الدين بن الوجيه ختمة مكتوبة بالذهب في سبعة أجزاء في ورق قطع البغدادي بقلم الشعر فصرف على أجرة نسخها ألفا وسبعمائة دينار وكتبها برسم هذه الخانقاه التي أنشأها فكانت هذه الختمة من محاسن الزمان وأودعها بها ۞ ثم دخلت سنة ست وسبعمائة فيها وقع الغلاء بالديار المصرية وتشحطت الغلال واشتد سعرها وهاجت الناس على بعضها وعز الخبز من الاسواق وبلغ ثمن الرغيف درهم فضة فأقام الامر على ذلك مدة يسيرة ثم تراجع الحال قليلا قليلا الى أن انحط السعر وظهرت الغلال وفيها توفي الشيخ الزاهد العارف بالله تعالى سيدي ياقوت العرشي رضي الله عنه ودفن بنواحي الاسكندرية وفيها توفي الشيخ زين الدين الفارقي وتوفي الشيخ صدر الدين بن الوكيل صاحب الاشعار اللطيفة وتوفي الشيخ ضياء الدين الطوسي شارح الحاوي

۞ ثم دخلت سنة سبع وسبعمائة فيها وقع بين السلطان وبين الامير سلار نائب السلطنة وثارت بينهما الفتنة وكثر القيل والقال ودبت بينهما عقارب التشاحن ثم انه في يوم الاثنين عمل السلطان الموكب وقبض في ذلك اليوم على جماعة من الخاصكية الذين هم من عصبة الامير سلار النائب وهم يلبغا التركماني وخاص ترك العلائي وبكتمر الفارسي فرسم لهم السلطان بان يتوجهوا الى القدس فعز ذلك على الامير سلار وفيها أظهر صاحب اليمن وهو الملك المؤيد هزبر الدين داود المخالفة للسلطان ومنع ما كان يرسله في كل سنة من الهدايا والتقادم الى السلطان فعز ذلك على الملك الناصر وعين له تجريدة وشرع في عمارة مراكب تسمى جلبات وعين جماعة من الامراء والمماليك السلطانية فلما شرع في ذلك دخل الشتاء فاهمل هذا الامر وبطل ۞ ثم دخلت سنة ثمان وسبعمائة فيها جاءت الاخبار من حلب

بحركة التتار فلما بلغ السلطان ذلك عين تجريدة وبها جماعة من الامراء المقدمين وهم
الامير جمال الدين أقوش الموصلى المسمى قتال السبع وهو صاحب الغيط المنسوب اليه
والامير شمس الدين الدكز السلحدار وعين جماعة من الامراء والطبلخانات والعشراوات
والمماليك السلطانية ورسم لهم بأن يتقدموا ويقيموا فى مدينة حلب الى أن يصير من أمر
التتار ما يكون فلما شرعوا فى أمر السفر وهموا بالخروج الى حلب جاءت الاخبار من عند
نائب حلب بان التتار وقع بينهم خلف ورجعوا الى بلادهم فبطل أمر التجريدة ثم ان
السلطان أظهر أن يحج فى تلك السنة وعبى له سنيحا عظيما فلما كان فى يوم السبت خامس
عشرى شهر رمضان من السنة المذكورة خرج السلطان من القاهرة وصحبته جماعة
من الامراء وهم الامير عز الدين أيدمر الخطيرى استادار العالية وهو صاحب الجامع الذى
فى بولاق والامير حسام الدين لاجين قرا أمير مجلس والامير آل ملك الجوكندار والامير بلبان
المجدى أمير جاندار والامير ايبك الرومى والامير بيبرس الاحمدى وغير ذلك من الامراء
والطبلخانات والعشروات والمماليك السلطانية فخرج السلطان من القاهرة وتوجه الى
الصالحية فعيد بها عيد الفطر ثم رحل وأظهر أنه يقيم بالكرك الى أن يخرج المحمل من
القاهرة فرحل من الصالحية وتوجه الى الكرك فدخل اليها فى يوم الاحد عاشر شهر
شوال فلما دخل المدينة زينت له زينة عظيمة ولما وصل الى خندق قلعة الكرك وقف
حتى مدوا له جسرا من الخشب ليعبر عليه فلما عبر عليه ومشى تكاثرت حوله المماليك
فانكسر ذلك الجسر من تحت أرجلهم بعد أن تقدم فرس السلطان بخطوتين فسقط
المماليك المشاة فى الخندق فانصدع منهم جماعة كثيرة ومات منهم واحد فى تلك الساعة فلما
طلع السلطان الى قلعة الكرك وأقام بها جمع الامراء الذين كانوا معه وصرح لهم بما كان
عنده من الكمين فى خاطره من الامير سلار والاتابكى بيبرس الجاشنكير ورسم الى الامراء
الذين توجهوا معه الى الكرك بان يرجعوا الى القاهرة وانه قد اختار الاقامة بالكرك ثم ان
السلطان رسم لنائب الكرك بان ينزل من القلعة هو وجماعته فتحول فى الحال ونزل من
القلعة بمن كان معه من الرجال واستقر السلطان بقلعة الكرك وكان السلطان قرر مع
الامراء الذين بمصر أنه اذا خرج المحمل من القاهرة يلاقيهم من العقبة وكان قرر معهم أن
حريم السلطان يتوجهون صحبة المحمل وهو يلاقيهم من هناك فلما كان سابع عشر شوال
خرج المحمل الشريف من القاهرة وصحبته حريم السلطان وكان أمير المحمل فى تلك السنة
الامير جمال الدين خضر بك ابن نوكبة فلما وصل الحاج الى العقبة أرسل السلطان فأخذ
عياله من هناك والسنيح ومضوا الى الكرك فلما وصلوا الى هناك رسم السلطان للامراء
بالعود الى الديار المصرية وأعاد صحبتهم خزائن المال والجنائب والعصائب السلطانية

والجبن والسكابيش الزركش التى كانت معه برسم سفرا لحجاز وكتب مع الامراء مرسوما
يتضمن أن السلطان رغب عن الملك واختار الاقامة بالكرك وان الامراء الذين بالقاهرة
يختارون لهم من يولونه سلطانا ثم ان الملك الناصر محمد خلع نفسه من الملك وأشهد عليه
بذلك قضى الامراء من عنده فلما كان يوم السبت ثالث عشرى شوال دخل الامراء الذين
كانوا صحبة السلطان فى الكرك الى القاهرة فلما بلغ الامراء الذين كانوا بمصر مجىء الامراء
على حين غفله ركبوا جميعا وطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل فقرؤا عليهم مرسوم
السلطان بأنه قد رغب عن الملك وأشهد على نفسه بالخلع واختار الاقامة بالكرك فلما
سمع الامراء ذلك ضربوا مشورة مع بعضهم وقالوا ان راددنا السلطان فى العود الى الملك
نخشى أن لا يسمع و يطمع العربان فى البلاد الى أن يعود الجواب الينا بما يكون ثم انفضوا
ولم ينتظم لهم حال فلما كان وقت الظهر من ذلك اليوم ركب سائر الامراء وطلعوا الى
القلعة واجتمعوا فى دار النيابة وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا وكانت الكلمة يومئذ
مجتمعة بين سلار نائب السلطنة و بين الاتابكى بيبرس الجاشنكير فطال بينهما الجدال فى
أمر السلطنة فأما الامير سلار فامتنع من السلطنة بكل ما يمكن وحلف على ذلك بالطلاق
الثلاث من نسائه فلما جرى ذلك وقع الاختيار على سلطنة الاتابكى بيبرس الجاشنكير
وأما الامير سلار فبقى نائب السلطنة على عادته ثم تحالف سائر الامراء على ذلك وانهم
يكونون كلمة واحدة ثم أحضروا خلعة السلطنة والفرس الى بيبرس الجاشنكير وتولى
السلطنة فكانت مدة سلطنة الناصر محمد بن قلاون فى هذه المرة وهى السلطنة الثانية
عشر سنين وأياما قيل وكان سبب توجه الملك الناصر الى الكرك انه كان مع سلار
النائب و بيبرس الجاشنكير كالمحجور عليه لا يتصرف فى شئ من أمور المملكة الا
باختيارهما حتى قيل انه طلب خروفا رميسا بدريا فمنع من ذلك وقيل له حتى يجىء القاضى
كريم الدين كاتب الامير بيبرس الجاشنكير فغضب السلطان من ذلك وأظهر أنه يريد
الحج فى تلك السنة فلما خرج من القاهرة توجه الى الكرك وأقام بها كما تقدم وأخذ
عياله من العقبة انتهى ذلك وسيعود بعد ذلك الى الملك كما سيأتى ذكر ذلك ان شاء الله
تعالى

ذكر سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس

الجاشنكير المنصورى وهو الثانى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية بويع
بالسلطنة بعد خلع الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون وتلقب بالملك المظفر
فركب بشعار السلطنة من الايوان الاشرفى وحملت القبة والطير على رأسه ومشت الامراء

بين يديه حتى جلس على سرير الملك والامراء قبلوا له الارض ونودى باسمه فى القاهرة وضج له الناس بالدعاء وذلك فى يوم السبت بعد العصر الثالث والعشرين من شهر شوال من سنة ثمان وسبعمائة فلما تم أمره فى السلطنة خلع على الامير سلار واستقر به نائب السلطنة على عادته وخلع على الصاحب ضياء الدين النشائى واستقر به وزيرا وخلع فى ذلك على جماعة كثيرة من الامراء والمباشرين حتى قيل انه خلع فى ذلك اليوم ألفين ومائتى خلعة ما بين كوامل سمور ومقرات وغير ذلك (ثم دخلت سنة تسع وسبعمائة) فمن الحوادث فيها ان النيل توقف عن الزيادة واستمر الى آخر مسرى ودخلت أيام النسىء وهو على ذلك ثم نقص فضج الناس وماجوا فى بعضهم وتشحطت الغلال وارتفع الخبز من الاسواق وضج العوام ثم ان السلطان رسم بكسر السد من غير وفاء لان النيل كان نقص عن الوفاء ثلاثة أصابع فكسر السد سابع توت من الشهور القبطية ولم يخلق المقياس لذلك لان التخليق لا يكون الا بالوفا فلما كان السابع والعشرون من توت نقص النيل جملة واحدة فكان منتهى الزيادة فى تلك السنة خمسة عشر ذراعا وسبعة عشر اصبعا فشرقت البلاد بسبب ذلك وقد قال النصير الحمامى فى هذه الواقعة

ان عجل النوروز قبل الوفا * عجل للعالم صفع القفا

فقد كفى من دمعهم ماجرى * وماجرى من نيلهم ما كفا

ثم ان العوام صنعوا كلاما ولحنوه وصاروا يغنونه فى أماكن التفرجات وغيرها وهو هذا

سلطاننا ركين * ونائبو دقين * يجينا الما من أين

هاتوا لنا الاعرج * يجى الما يدحرج

وكان الامير سلار أجرد فى حنكه بعض شعرات لانه كان من التتر فسماه العوام دقين وكان الملك الناصر محمد بن قلاون به بعض عرج فسموه العوام الاعرج وكان السلطان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين فسماه العوام ركين فلما فشا بين الناس هذا الكلام بلغ السلطان بيبرس فرسم بقبض جماعة من العوام نحو ثلثمائة انسان فضرب منهم جماعة بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة ورسم بقطع ألسن جماعة منهم ثم ان السلطان بيبرس بلغه عن بعض الامراء انهم كاتبوا الملك الناصر وهو بالكرك فقبض على جماعة منهم ونفاهم الى ثغر الاسكندرية وقبض على جماعة من المماليك السلطانية ونفاهم نحو قوص وكانوا نحو ثلثمائة انسان فلما وقع ذلك من الملك المظفر نفرت منه قلوب الرعية من الترك والعوام واختار كل أحد من الناس عود الملك الناصر محمد ثم صار جماعة من المماليك الناصرية يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى الملك الناصر بالكرك ويتركون بيوتهم وأولادهم فلما بلغ الملك المظفر بيبرس ذلك أرسل الى الملك الناصر محمد الامير مغلطاى والامير قطلوبغا

وبيدهما كتاب الى الملك الناصر مضمون تلك المطالعة تهديد الملك الناصر ووعيده بكل سوء وارسل يقول له ان لم ترجع عن مكاتبتك الى الامراء والاجرى عليك كما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري ونفيهم الى القسطنطينية وانت تعلم ذلك فلا تحوجنا الى أن نفعل ذلك كما فعل أخوك الاشرف خليل باولاد الظاهر بيبرس كما تقدم فلما وصلت مطالعة الملك المظفر الى الملك الناصر محمد اشتد غضبه على الامير مغلطاى وقطلوبغا اللذين أرسلهما الملك المظفر وضرب الامير مغلطاى بالمقارع لانه أغلظ عليه فى القول ثم اعتقله هو والامير قطلوبغا فى الجب ثم ان الملك الناصر أرسل مكاتبة الى نائب حلب والى نائب طرابلس والى نائب صفد والى نائب حماة يقول لهم فيها لما اشتد على الضنك من الامراء خرجت لهم من مصر وتركت لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الاماكن ليستريح خاطرى من النكد فما رجعوا عنى وأرسل المظفر يهددنى بالنفى الى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه وأنتم تعلمون ما لوالدى الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال فاما انكم تكفوا عنى أذى هؤلاء الامراء الذين يتعصبون على واما انى أتوجه الى بعض بلاد التتار وألتجئ اليهم قبل ما يرسلنى الملك المظفر الى بلاد الكفار ثم أرسل الملك الناصر الى النواب مطالعة الملك المظفر التى أرسلها اليه بالتهديد وكان الذى توجه الى النواب بمطالعة الملك الناصر شخصا يسمى تاج الدين أوزان من أبناء العجم فلما وصلت هذه المطالعات الى النواب أخذتهم الحمية على ابن أستاذهم وتعصبوا له وأرسلوا يقولون له متى أردت أن تتحرك الى التوجه الى مصر فنحن طوع يدك ومماليك أبيك فلما عاد الجواب الى الملك الناصر بذلك أخذ فى أسباب التوجه الى مصر فخرج من الكرك ومعه جماعة من العربان فلما وصل الى البرج الابيض من أعمال البلقاء أرسل نائب الشام أقوش الافرم يعرف الملك المظفر بذلك وكان نائب الشام هذا من عصبة المظفر فلما وقف الملك المظفر على مطالعة نائب الشام وتشاور مع الامير سلار النائب عينوا الى الملك الناصر تجريدة وعينوا بها من الامراء الامير سيف الدين بلغار صهر الملك المظفر والامير عز الدين أيبك البغدادى والامير شمس الدين الدكز السلحدار والامير أقوش الذى كان نائب الكرك وعين معهم ألفى مملوك من المماليك السلطانية ثم ان الملك المظفر أنفق على العسكر المعين للتجريدة فجهزوا أمرهم فى سبعة أيام ثم خرجوا من القاهرة فى يوم السبت تاسع رجب من سنة تسع وسبعمائة فلما نزلوا بالريدانية أقاموا هناك يوما وليلة ثم عادوا الى القاهرة وكان سبب عود الامراء أن ورد كتاب من عند نائب الشام بان الملك الناصر تسلم الشام ودخل اليها فى موكب عظيم وزينت له وكان يوم دخوله يوما مشهودا وأن جميع النواب دخلوا تحت طاعته ومشوا فى ركابه وهم

نائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد ونائب حمص وكل نائب بعسكر فدخل الى الشام في موكب عظيم وكان الامير بهادر المعروف بالحاج بهادر حامل القبة والطير على رأسه الى نزوله بالقصر بميدان دمشق فحضر اليه السنجرى نائب قلعة دمشق بسماط عظيم ثم ان الملك الناصر خلع على الامير أقوش الافرم وأقره نائب الشام على عادته وخلع على الامير استدمر كرجى وأقره نائب طرابلس على عادته وخلع على الامير تمر الساقى وأقره نائب حمص على عادته وخلع على نائب حماه وأقره على عادته ثم حضر الامير قراسنقر المنصورى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية فخلع عليه وأقره على عادته فى نيابة حلب ثم لما كان يوم الجمعة خطب باسم الملك الناصر فى ذلك اليوم على منابر دمشق فلما بلغ الملك المظفر بيبرس ذلك كله اضطربت أحواله وضاقت عليه الارض بما رحبت ونسى حلاوة اللحم بمرارة الاشنان وقد قال القائل فى المعنى

يا طالب الدنيا الدنية انها * شرك الردى وقرارة الاكدار
دار متى ما أضحكت فى يومها * أبكت غدا تبا لها من دار

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان دخل المقر السيفى سلار النائب ومعه جماعة من الامراء الى الملك المظفر بيبرس وقالوا له يا مولانا السلطان ان غالب الامراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من القاهرة وتوجهوا الى الملك الناصر وقد وقع الاختيار على عوده ومن الرأى أن ترسل الى الملك الناصر لتسأله فى مكان تتوجه اليه أنت وعيالك فلعله أن يجيبك الى ذلك وان لم تبادر الى هذا والا دهمتك العساكر وهجموا عليك وأنت هنا فقال له المظفر ومن يتوجه الى الملك الناصر بهذه الرسالة فأشار عليه الامراء بالامير بيبرس الدوادار الكبير والامير بهادر آص فكتب معهما الملك المظفر كتابا الى الملك الناصر وهو يترفق به فيه ويسأله أن ينعم عليه بمكان يتوجه اليه هو وعياله إما الكرك وإما صهيون وإما حماه ثم ان الملك المظفر أحضر القضاة الاربع وخلع نفسه من الملك وأشهد عليه بذلك وجهز ذلك الاشهاد على يد الامير بيبرس والامير بهادر آص وخرجا من يومهما وتوجها الى الشام * ومن عجائب الاتفاق ان الساعة التى خلع فيها الملك المظفر نفسه من الملك كانت هى الساعة التى ركب فيها الملك الناصر من الشام وخرج قاصدا نحو الديار المصرية ودام فيها الملك الناصر فى السلطنة مدة طويلة الى أن مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه فلما توجه الاميران المذكوران الى الملك الناصر برسالة الملك المظفر أقام الملك المظفر بعد ذلك أياما وهو على جمرة نار لا يقر له قرار ثم دخل خزائن بيت المال وأخذ منها ما قدر عليه من الاموال والسلاح والتحف وعين معه من المماليك الذين هم من مشترواته سبعمائة مملوك وأخذ صحبته الامير بكتوت الفتاح والامير أيدمر

المعروف

المعروف بالخطيري والامير قجماس فلما كان يوم الاربعاء سادس عشر شهر رمضان نزل الملك المظفر من القلعة بعد العشاء من باب القرافة وأخذ معه من الاسطبل السلطاني ثلاث طوائل خيل من الخيول الخواص فلما بلغ العوام نزوله من القلعة اجتمعوا ووقفوا له عند باب القرافة ورجموه بالحجارة والمقاليع وسبوه سبا قبيحا فلولا أنه شغلهم بشيء من الفضة نثرها عليهم والا كانوا قتلوه لا محالة فانه كان قد أفحش في حق العوام وشوش على جماعة منهم كما تقدم ذكر ذلك فلما خاص منهم توجه من بركة الحبش الى نحو اطفيح وقصد التوجه الى نحو اسوان فلما أصبح الصباح أشيع هروب الملك المظفر ونزوله من القلعة فلما جرى ذلك دخل الامير سلار النائب وختم على خزائن بيت المال وأطلق من كان مسجونا من الامراء في الابراج بالقلعة ثم انه أرسل يكاتب الملك الناصر بما جرى من أمر الملك المظفر بيبرس وأرسل كتابا بهذه الواقعة على يد الطنبغا الجمدار ولما كان يوم الجمعة خطب باسم الملك الناصر على منابر القاهرة قبل دخوله اليها هذا ما كان من أخبار الملك المظفر بيبرس وأما ما كان من أمر الملك الناصر فانه لما خرج من الشام ووصل الى غزة لاقاه الامير بيبرس الدوادار والامير بهادر آص اللذين أرسلهما الملك المظفر فقدما اليه مطالعة الملك المظفر والخلع الذي أشهد به على نفسه فلما رأى ذلك الملك الناصر فرح وقال الحمد لله الذي صان دماء المسلمين عن القتال وخلع على ذينك الاميرين الخلع السنية ثم ان الملك الناصر كتب أمانا وأرسله الى الملك المظفر على يد الامير بيبرس والامير بهادر آص وعادا الى مصر فوجدا الملك المظفر توجه الى اطفيح فلما رأيا ذلك أرسلا له ذلك الامان وهو في اطفيح فكانت مدة غيبة الاميرين سبعة أيام ذهابا وايابا الى ان عادا بالجواب ثم ان الملك الناصر خرج من غزة وجد في السير فوصل الى بركة الحاج في سلخ شهر رمضان فعيد هناك فخرج اليه الامير سلار النائب وقبل له الارض وكذلك سائر الامراء من الاكابر والاصاغر والقضاة الاربع وأعيان الناس ثم ان الملك الناصر صلى صلاة العيد هناك وطلع الى القلعة في موكب عظيم وحملت القبة والطير على رأسه وفرشت تحت حوافر فرسه الشقق الحرير من بين الترب الى أن طلع الى القلعة وجلس على سرير الملك وقد قال القائل في المعنى

فاستبشرت مصر وهنأ بعضها * بعضا بعودته الى الاوطان

ذكر عود الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة

وهي السلطنة الثالثة فلما كان يوم الخميس ثاني شوال سنة تسع وسبعمائة فيه عمل السلطان الموكب وطلع الى القلعة الخليفة المستكفي بالله سليمن ومعه القضاة الاربع

وبايع الملك الناصر بالسلطنة ولبس خلعة السلطنة وهى جبة سوداء وعمامة سوداء
بعذبة زركش وسيف بداوى متقلد به فجلس على سرير الملك وجميع الامراء من كبير
وصغير قبلوا له الارض وهو جالس فى الايوان الاشرفى ثم خلع على سائر الامراء والنواب
الذين حضروا معه خلع الاستمرار وخلع على الخليفة المستكفى بالله سليمن والقضاة الاربع
وأرباب الدولة من أصحاب الوظائف ثم فى ذلك اليوم قبل الارض الامير سلار النائب
وطلب من السلطان أن يعفيه من النيابة وأن يقيم بالشوبك لانها كانت جارية فى جملة
أقطاعه فأجابه السلطان الى ذلك وخلع عليه خلعة السفر وخرج من يومه الى الشوبك
فكانت مدة نيابته بالديار المصرية احدى عشرة سنة وأياما وكان مستحقا للسلطنة أكثر
من المظفر بيبرس الجاشنكير ولكن كان سلار قانعا بالنيابة وهو نافذ الكلمة وافر
الحرمة كثير المال فقنع بذلك عن السلطنة كما قيل فى المعنى

اذا امتنعت أشجار المعالى * جناها الغض فاقنع بالشميم

ثم ان السلطان عمل الموكب الثانى وخلع على الامير بكتمر الجوكندار واستقر به نائب
السلطنة عوضا عن سلار ثم ان السلطان أرسل الامير بيبرس الدوادار والامير بهادر آص
الى الملك المظفر بيبرس وكان قد توجه نحو اخيم من أعمال الصعيد فلما اجتمعا به تلطفا
معه فى القول حتى استخلصا منه ما كان أخذه من بيت المال من الاموال والتحف وكذلك
ما كان أخذه من الخيول الخواص وأخذا منه ما كان معه من المماليك ثم قالوا له ان
السلطان يقول لك امض الى الكرك وأقم بها وهو يرسل اليك من هناك عيالك
وأولادك فقال الملك المظفر السمع والطاعة ورحل من يومه وتوجه من هناك من طريق
السويس ثم ان الامير بيبرس الدوادار والامير بهادر آص رجعا الى القاهرة ومعهما
الاموال والخيول والمماليك الذين كانوا مع المظفر فلما حضروا الى الملك الناصر وبلغه
توجه المظفر من جهة السويس الى الكرك أرسل اليه الامير استدمر كرجى وهو
فى أثناء الطريق فقبض عليه وأحضره الى الابواب الشريفة فطلع الى القلعة فى الليل
وذلك فى ليلة الخميس رابع عشر ذى القعدة فلما طلع الى القلعة أودعه السلطان فى البرج
فلما كان صبيحة يوم الخميس وقت الظهر فى خلوة مثل بين يديه ووبخه بالكلام وعدد له
ماوقع من القبائح فى حقه ثم أمر بخنقه بين يديه فخنق بوتر حتى مات وقضى نحبه
وذلك فى يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة من سنة تسع وسبعمائة فلما مات أرسله
السلطان الى زوجته وأمر بأن يدفن فى تربة بالقرافة فدفن هناك مدة ثم ان بعض
الامراء تداخل على السلطان بان ينقل ويدفن فى خانقاته التى أنشأها عند الدرب الاصفر
بالقرب من خانقاه سعيد السعداء فكانت مدة سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير

بالديار المصرية أحد عشر شهرا وأياما وكان بيبرس مليح الشكل أبيض اللون أشقر اللحية
أشهل العينين وافر العقل حسن السيرة وكان كفؤا للسلطنة كثير البر والخير والمعروف
والصدقات انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المظفر بيبرس الجاشنكير وذلك على سبيل
الاختصار ﴿ثم دخلت سنة عشر وسبعمائة﴾ فيها خلع السلطان على الامير بكتمر الناصرى
الحاجب واستقر به وزيرا ثم ان السلطان بلغه أن أخا الامير سلار النائب وجماعة من
الامراء الذين هم من عصبة الامير سلار يقصدون الوثوب على السلطان فلما تحقق ذلك
بادر وقبض على أولئك الامراء الذين نقل عنهم أمر الوثوب وكانوا نحوا أربعة عشر
أميرا وقبض معهم على أخى الامير سلار وأودعهم السجن ثم ان السلطان أرسل يكاتب
سلار بما وقع من أخيه وأرسل الى سلار بالحضور الى القاهرة ليزول أمر القال والقيل من
بين الناس ثم ان السلطان أرسل فى هذه الرسالة الامير علم الدين سنجر الجاولى وأمره ان لم
يجئ سلار طوعا يقبض عليه ويحضره كرها فأخذ سنجر الجاولى مراسيم السلطان وتوجه
الى سلار وكان مقيما بالكرك وقيل بالشوبك فلما وصل اليه الجاولى أجاب الى الحضور
فلما حضر الى الابواب الشريفة أودعه السلطان فى السجن بالقاعة فأقام به أياما وأشيع
موته وكان أصله من مماليك الملك الصالح على بن قلاوون وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار
قلاوون وقيل لما سجن الامير سلار بعث اليه السلطان بطعام فلما وصل اليه الطعام
ومثل بين يدى سلار أبى أن يأكل ورده على السلطان وأظهر الحق فلما بلغ السلطان
ذلك منع عنه الاكل والشرب فأقام على ذلك أياما فلما تزايد به الجوع أكل أخفافه وهو
فى السجن ولما بلغ السلطان ذلك رق له وأرسل من يقول له ان السلطان قد رضى عليك
ففرح وقام ومشى خطوات ثم وقع ميتا من شدة الجوع وكان سلار مربوع القامة
غليظ الجسد أسمر اللون خفيف اللحية له بعض شعرات فى حنكه وكان من التتار وكان
شديد البأس صعب الخلق قوى الغضب وكان لطيف الذات فى ملبسه واليه ينسب
السلارى الى الآن والمناديل السلارية وقد اقترح أشياء كثيرة فى الملبوس وقماش
الخيل وآلة الحرب وهى منسوبة اليه الى اليوم وكان كثير البر والصدقات وله آثار
ومعروف وكان فى سعة من المال والعيال مما لا يحصى لكثرته ولما مات سلار تولى أمر دفنه
الامير سنجر الجاولى ودفنه فى مدرسته الجاولية التى عند الكبش ثم ان السلطان احتاط على
موجوده فظهر له من الاموال والتحف ما لم يسمع بمثله فى خزائن الملك قال الشيخ محمد
الكتبى وقفت على قوائم بخط القاضى جمال الدين بن الغويرة تتضمن ما قد اشتملت عليه
تركة الامير سلار النائب وذلك أول ما ضبط فى أول يوم وهو يوم الاحد سادس عشر جمادى
الاولى من سنة عشر وسبعمائة فمن ذلك صناديق افرنجى مصفحة بنحاس ضمنها فصوص

منها فصوص ياقوت أحمر برمان رطلان وفصوص بلخش رطلان ونصف وفصوص زمرذ
بابي عشرون رطلا وفصوص ألماس وعين الهر ثلثمائة قطعة ولؤلؤ كبير مدوّر
كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا
ألف دينار ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم ثم في يوم الاثنين
سابع عشره وجد له من الذهب العين خمسة وخمسون ألف دينار ومن الفضة ألف ألف
درهم ومن الفصوص المختلفة رطلان ووجد له مصاغ من ذهب ما بين خلاخيل وأساور
وزن أربعة قناطير مصري ووجد عنده طاسات فضة وأطباق وأهوان ذهب وطشوت فضة
الوزن ستة قناطير ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشره وجد له من الذهب العين خمسة وأربعون ألف
دينار ومن الفضة ثلثمائة ألف وثلاثون ألف درهم ووجد عنده طلعات فضة للصناجق
وقطريات فضة ثلاثة قناطير ثم في يوم الاربعاء تاسع عشره وجد عنده من الذهب العين
ألف ألف دينار ومن الفضة ثلثمائة ألف درهم ووجد عنده أقبية حرير عمل الدار ملون
بفرو سنجاب العدة أربعمائة قباء ووجد عنده من السروج الذهب مائة سرج والكل
بعبائر زركش على مخمل أحمر ووجد له عند صهره الامير موسى ثمانية صناديق لم يعلم ما فيها
ووجد له من الشقق الحرير الطرد وحش وغيره ألف شقة ووصل صحبته من الكرك من
الذهب العين مائة ألف دينار ومن الدراهم أربعمائة ألف درهم ومن الخلع الملونة ثلثمائة
خلعة ووجد عنده من الخيام ست عشرة نوبة وحركات خشب بغشاء أطلس أحمر مرقوم
مزركش ووجد عنده من الخيول الخاص ثلثمائة رأس دون الدشار ومن البغال مائة
وعشرون قطارا ومن الجمال مائة وعشرون قطارا هذا كله خارج عما وجد له من الاملاك
والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوار وغير ذلك ووجد
عنده من الاغنام والابقار ما لا يحصى ووجد عنده من الغلال ثلثمائة الف اردب في
الشون ومع هذا كله مات من شدة الجوع في السجن بالقلعة ثم بعد أيام ظهر له مخبأة في داره
ظهر فيها أكياس ذهب لا يعلم لها عدد ووجد له في بيت قريب من بيت الخلاء مخبأة فيها
ذهب عين مسبوك بغير أكياس لا يعلم له عدد قيل كان متحصل الامير سلار هذا في كل يوم
من أجرة أملاكه وضياعه ومستأجراته وحماياته مائة ألف دينار ومن العجائب ان الامير
سلار أقام في نيابة السلطنة بمصر احدى عشرة سنة فكيف حوى هذه الاموال العظيمة
في هذه المدة اليسيرة والذي يظهر لي اما انه كان قد ظفر بكنز من كنوز القدماء واما انه
كان أخذ هذه الاموال والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه الملك الناصر الى الكرك
وقد كانت مفاتيح بيت المال بيد سلار لا يمكن منها الملك الناصر بشيء ولكن لما مات سلار
رجع كل شيء لاصله وقد قيل في المعنى شعر

اجمع وأنت من الدنيا على حذر * واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل * محصى عليك وما خلفت موروث

وفى هذه السنة وهى سنة عشر وسبعمائة كانت وفاة الشيخ شمس الدين بن دانيال الحكيم وهو صاحب كتاب طيف الخيال وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد فن ذلك قوله فى حرفته

ياسائلى عن حرفتى فى الورى * وضيعتى فيهم وافلاسى
ماحال من درهم انفاقه * يأخذه من أعين الناس

وفيها توفى الشيخ شمس الدين السروجى شارح كتاب الهداية وكان من كبار الحنفية وتوفى التوريزى محدث مكة ۞ ثم دخلت سنة احدى عشرة وسبعمائة فيها اعظم أمر الملك الناصر محمد بن قلاون حين جاءت الاخبار من افريقية بلاد الغرب انه قد خطب باسمه فيها على المنابر وكان سبب ذلك ان صاحب افريقية وهو أبو يحيى اللحيانى قدم على الملك الناصر فى هذه السنة وقال له أرسل معى عسكرا الى افريقية فاذا فتحت المدينة وملكتها ألتزم للسلطان بان اقيم نفسى بها نائبا عن السلطان فعين معه السلطان تجريدة نحو مائة مملوك ومعهم أمير عشرة فلما توجهوا نحو افريقية تسامعت بهم العربان وأهل النواحى فالتفت عليهم جماعة من العربان والمغاربة فعظم أمر أبى يحيى ومشى على بلاد تونس وغيرها من البلاد فحاصر مدينة افريقية حتى فتحها ودخل اليها وعلى رأسه الصناجق السلطانية والعساكر المصرية فطرد من كان بها وملكها وخطب فيها باسم الملك الناصر محمد بن قلاون كما قرر معه واستمر بها ورجع العسكر الى القاهرة وذلك فى شهر رجب من السنة المذكورة (ومن الحوادث) فى هذه السنة ان السلطان خلع على الامير كراى المنصورى واستقر به نائب الشام فاقام بها مدة يسيرة وأرسل فقبض عليه وأعاد الامير أقوش الافرم الى نيابة الشام وكان بالكرك ثم ان السلطان قبض على الامير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بمصر وسجنه وخلع على الامير بيبرس الدوادار المنصورى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن بكتمر الجوكندار وفيها جاءت الاخبار من دمشق بأن نائب الشام والامير قراسنقر المنصورى هربا من الشام وتوجها الى نحو بلاد التتار وقد بلغهما أن السلطان يروم القبض عليهما فهربا من أجل ذلك ۞ ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة فيها حضر رسل صاحب اليمن وصحبتهم هدايا عظيمة فقبلها السلطان وأكرم قصاده وفيها حضر ملك النوبة الى الابواب الشريفة وصحبته هدايا عظيمة فمن جملة ذلك ألف رأس رقيق وخمسمائة جمل وخمسمائة بقرة خيسية وفيها قبض السلطان على الامير بيبرس الدوادار الذى استقر نائب السلطنة وسجنه واستقر بالامير أرغون الدوادار الناصرى فى نيابة السلطنة بمصر عوضا عن بيبرس الدوادار ثم خلع على الامير تنكز الحسامى واستقر به نائب الشام عوضا عن أقوش الافرم قيل لما

تولى الامير تنكز نيابة الشام جعل السلطان نيابة دمشق أكبر من نيابة حلب وكانت فى قديم الزمان نيابة حلب أكبر من نيابة الشام ثم خلع على الامير سودون الناصرى واستقر به نائب حلب عوضا عن الامير قفجق المنصورى وفيها عمر السلطان الناصر جامعه المسمى بالجديد الذى عند موردة الحلفاء وكان النيل يجرى من تحته صيفا وشتاء قيل لما أراد عمارة هذا الجامع نقل حجارته من صنم كان عند قصر الشمع يقال له السرية قيل كان مقابل ذلك الصنم الذى عند الاهرام فى بر الجيزة الذى يقال له أبو الهول قيل عمل من ذلك الصنم قواعد للاعمدة الكبار التى فى الجامع وفيها عمر السلطان سور الميدان الكبير الذى تحت القلعة وابتدأ بعمارة الميدان الكبير الذى عند موردة الجبس بالقرب من خليج أروى وفيها حضر مملوك نائب حلب وأخبر السلطان بأن التتار قد تحركوا على البلاد فلما تحقق السلطان ذلك عرض العسكر وأنفق عليهم فعبوا احالهم فى سبعة أيام ثم خرج السلطان من القاهرة فى أوائل شهر رمضان وقصد التوجه الى حلب بسبب التتار فلما وصل الى غزة وردت عليه الاخبار بأن التتار بلغهم مجىء السلطان فخافوا ورحلوا عن مدينة الرحبة وتوجهوا الى بلادهم وقد كسرهم نائب الرحبة كسرة قوية فلما تحقق السلطان ذلك قوى عزمه بأن يسافر من هناك الى الحجاز الشريف وقد سميت هذه التجريدة الكذابة ثم ان السلطان رد جماعة من الامراء والعسكر الى القاهرة وأخذ معه بعض أمراء ومماليك سلطانية وتوجه من هناك الى الحجاز الشريف فلما قضى حجه رجع من هناك الى الشام وأقام بها الى أوائل شهر صفر من سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فدخلها ثالث عشر صفر وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا وزينت له المدينة زينة عظيمة وحملت على رأسه القبة والطير وفرشت له الشقق الحرير من التبانة الى القلعة ومشت الامراء بين يديه حتى طلع الى القلعة وكان له موكب عظيم وهذه هى الحجة الاولى * وفى أثناء السنة وهى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة كانت وفاة الشيخ نصير الدين الحمامى وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد فمن ذلك قوله

تكدرت حمامى بغيبتك التى * تكدر فيها العيش من كل مشرب

فما كان صدر الحوض منشرحا بها * وما كان قلب الماء فيها بطيب

وقال فى المعنى

لى منزل معروفه * ينهل غيثا كالسحب

أقبل ذا العذر به * وأكرم الجار الجنب

وفى هذه السنة توفى أبو جبارة شارح الشاطبية وكان من أعيان العلماء ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فيها سافر السلطان الى نحو بلاد الصعيد لتمهيد البلاد فان العربان كانوا قد زادوا فى الفساد فلما توجه السلطان هناك ضيق عليهم حتى رحلوا الى الجبال

فانوا

فماتوا من الجوع والعطش فأسر منهم نحو النصف وحملهم الى القاهرة فى مراكب وهم فى الخشب فسجن منهم جماعة واستعمل منهم جماعة أخر فى حفر الجسور وهم فى جنازير حديد ولما عاد السلطان من بلاد الصعيد أقام عند الاهرام فى بر الجيزة أياما على سبيل التنزه وكان ذلك فى شهر رمضان فلما قرب عيد الفطر طلع الى القلعة وعيد بها وفى هذه السنة شرع السلطان فى روك البلاد الشامية وهو الروك الناصرى فأمر باحضار كتاب الجيوش الشامية وحضر نائب غزة وجماعة من الاجناد الشامية والغزاوية وتكلموا فى ذلك وكتبوا المثالات والمناشير وأرسلوها على يد الامير جليش السلحدار ولما وصل الى الشام سلم الاوراق والمناشير الى نائب الشام ففرقها على العساكر الشامية وفى هذه السنة تحولت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة الخراجية الى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الهلالية ❁ ثم دخلت سنة أربع عشرة وسبعمائة فيها شرع السلطان فى عمارة القصر الابلق الذى بقلعة الجبل وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة فى بعضها وهى خمس قاعات وثلاثة مراقد قال بعض المؤرخين ان الملك الناصر محمدا هذا أكمل عمارة هذه القصور الثلاثة المتداخلة فى عشرة أشهر فلما انتهى العمل جمع فيها سائر الامراء حتى القضاة الاربع وقرأ فيها ذلك اليوم ختمة ومد بها سماطا عظيما وملأ الفسقية التى فى القصر الكبير سكرا بماء ليمون فأكل من ذلك السماط الخاص والعام وأحضر السلطان للامراء القمز فشربوا منه ووقف رؤس النواب على الفسقية يملؤن السكر للناس بالطاسات وخلع السلطان فى ذلك اليوم على المعلمين والمهندسين والمرخمين والنجارين والفعلة نحوا من ألفين وخمسمائة خلعة ما بين متمرات وكوامل وخلع وأقبية وغير ذلك وفرق من الاموال على الفقراء فى ذلك اليوم نحو خمسين ألف دينار وكان ذلك اليوم يعرف بالسلطانى ذكر ذلك صاحب كتاب زبدة الافكار فى أخبار الملك الناصر ❁ ثم دخلت سنة خمس عشرة وسبعمائة فيها جاءت الاخبار بان تنكز نائب الشام جمع سائر النواب وتوجه الى نحو ملطية فحاصر أهلها ومن كان بها من الارمن فطلبوا منه الامان ففتحها بالامان فى يوم الاثنين الثانى والعشرين من المحرم من سنة خمس عشرة وسبعمائة وفى هذه السنة راك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون البلاد المصرية وهو الروك الناصرى بعد الروك الحسامى فزاد عن الروك الحسامى فى مواضع ونقص فى مواضع وفى هذه السنة وهى سنة خمس عشرة وسبعمائة كانت وفاة الشيخ شمس الدين محمد ابن العفيف وكان مولده سنة اثنتين وستين وستمائة فكانت مدة حياته ثلاثا وخمسين سنة وكان شاعرا ماهرا رقيق الشعر والنظم وله شعر جيد فن تغزلاته اللطيفة قوله

يا ساكنا قلبى المعنى * وليس فيه سواه ثانى
لاى معنى كسرت قلبى * وما التقى فيه ساكنان

ثم دخلت سنة ست عشرة وسبعمائة فيها جرد السلطان العساكر نحو صحراء عيذاب بأعالى بلاد الصعيد بسبب فساد العربان فخرج فى هذه التجريدة ستة أمراء مقدمين وألفا مملوك فتوجهوا الى بلاد البجاة وجاوزوا الاقاليم الثلاثة فلم يظفروا بأحد من العربان العصاة فرجعوا الى القاهرة من غير طائل وكان قوت العسكر فى هذه التجريدة الذرة والماء من الحفائر وكانت العرب فى الجبال فلم يظفروا منهم بأحد يلوح وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ علاء الدين ابن المظفر الكندى الشهير بالوداعى وكان مولده سنة أربعين وستمائة ووفاته سنة ست عشرة وسبعمائة فكانت مدة حياته ستا وسبعين سنة وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد فمن ذلك قوله

لقد سمح الزمان لنا بيوم * غدا فيه السمىّ مع السمىّ
تجمعنا كأنا ضرب خيط * علىّ فى علىّ فى علىّ

ثم دخلت سنة سبع عشرة وسبعمائة فيها جرد السلطان العساكر الى نحو مدينة (١) أحد فطرقوها على حين غفلة فهرب أهلها منها فملكها عسكر مصر من غير محاصرة وفى هذه السنة توجه السلطان الى غزة وتوجه من هناك الى زيارة بيت المقدس فزاره ثم توجه الى زيارة الخليل عليه السلام فزاره ثم رجع الى الديار المصرية وذلك فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة وفى هذه السنة وفى النيل فى التاسع والعشرين من أبيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع فكسر بعد العصر خوفا من قوة عزم الماء وفيها أمر السلطان بتوسعة الجامع الذى فى القلعة فوسعه وبنى به المأذنة الخضراء وزخرفه بالرخام الملون وبنى به القبة الخضراء وقيل انتهت منه العمارة فى أربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما ثم دخلت سنة ثمان عشرة وسبعمائة فيها جرد السلطان العسكر الى نحو برقة بسبب فساد العربان لانهم قد منعوا غنم الزكاة وأظهروا العصيان فجرد اليهم السلطان وأخذ أغنامهم وجمالهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون الى نحو بلاد الغرب وفى هذه السنة أجرى السلطان ماء النيل من البحر الى قلعة الجبل وعمل مجراة جارية على قناطر مبنية بالحجر وركز للمياه آبارا وجعل عليها سواقى نقالة فى عدة أماكن وفى هذه السنة عمر السلطان الحوش الكبير الذى بالقلعة وزرع به بستانا ونقل اليه الاشجار والرياحين من سائر الاماكن حتى من البلاد الشامية ومن مكة وطلع فيه الكادى وجوز الهند وغير ذلك من الفواكه وفى هذه السنة قوى عزم السلطان على أن يحج فى تلك السنة وهى الحجة الثانية فعين معه جماعة من الامراء المقدمين اثنى عشر أميرا ومن الامراء الطبلخانات والعشراوات ثلاثين أميرا وحج مع السلطان فى تلك السنة الملك المؤيد عماد الدين اسمعيل صاحب حماه وحج صحبة السلطان من المباشرين القاضى علاء الدين بن الاثير كاتب السر الشريف والقاضى

فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة والقاضى كريم الدين ناظر الخواص الشريفة وغير ذلك من المباشرين فخرج السلطان من القاهرة فى تاسع ذى القعدة فجد فى السير حتى دخل الى مكة قبل الصعود بثلاثة أيام فكنس مكان الطواف ومسحه بيده ثم صعد الى الجبل وقضى مناسك الحج ورجع الى مكة وأقام بها أياما وفرق على الفقراء الذين بمكة جملة من المال وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التى كانت بمكة ثم توجه الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل المدينة الشريفة وهو ماش على أقدامه حافيا فلما دخل المدينة فرق على الفقراء خمسين ألف دينار ثم توجه الى نحو القاهرة فدخلها فى أوائل صفر وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا انتهى ذلك ۞ ثم دخلت سنة تسع عشرة وسبعمائة فيها تزوج السلطان بنت أزبك خان صاحب الموصل فحضرت من بلاد الشرق الى مصر فى محفة مرقومة بالذهب فطلعت الى القلعة وكان لها مهم عظيم ودخل عليها السلطان وحظيت عنده وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ شهاب الدين محمود أبى الثناء وكان عالما فاضلا ناظما ناثرا وله شعر جيد ونثر رقيق فمن شعره قوله

لقد سلبوا نومى ولم تدر مقلتى * وقد سلبوا قلبى ولم تشعر الاعضا

وطلقت نومى والجفون حوامل * فمن أجل ذا فى الخد أبقت لنا فرضا

ثم دخلت سنة عشرين وسبعمائة فيها جرد السلطان العساكر الى مدينة سيس فطردوا من كان بها من الارمن وملكوها وأقاموا بها نائبا من قبل السلطان ثم رجعوا الى القاهرة وهم فى غاية النصرة وفى هذه السنة توفى قاضى القضاة جلال الدين القزوينى ۞ ثم دخلت سنة احدى وعشرين وسبعمائة فيها حجت خوند زوجة الملك الناصر وهى خوند طغاى أم ولده أنوك فحج معها القاضى كريم الدين ناظر الخاص وكان أمير المحمل فى تلك السنة الامير بجليش أمير سلاح وجماعة من الامراء العشراوات فخرجت من القاهرة فى ثامن شوال وحجت فى محفة مرقومة بالذهب وسافر صحبتها الكوسات والعصائب السلطانية فحجت ورجعت الى القاهرة فى عاشر المحرم فنزل السلطان الى تلقيها فتلقاها من بركة الحاج ودخلت فى موكب عظيم والامراء مشاة قدام محفتها حتى طلعت الى القلعة وفى هذه السنة جرد السلطان العساكر الى قلعة اياس ومدينة سيس وذلك أنه لما رحل عنها عسكر السلطان ورجعوا الى القاهرة رجعت اليها الارمن وطردوا النائب الذى كان فيها من قبل السلطان فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليها تجريدة عظيمة كان بها من الامراء الامير طرجى أمير مجلس والامير الماس حاجب الحجاب وهو صاحب الجامع الذى بالقرب من سوق الغنم والامير بهادر آص والامير سنجر الجمقدار والامير ككر العلى والامير أقوش الاشرفى وغير ذلك من الامراء العشراوات وألفان من المماليك السلطانية ولما وصلوا الى سيس

حاصروها أشد المحاصرة حتى هرب من كان بها من الارمن وقتلوا من أهلها مالا يحصى عدده وفتحوها بالسيف وأخربوا سورها وتركوها خاوية على عروشها وزال عنها زخرفها ونقوشها وجعلوا بها اثاثيا قدرماه الدهر فى النوائب وعن لسان نائب سيس يقول بعض الشعراء

قالوا اجعلوا فيها النا نائبا * جيوش سيس قلت رأى تعيس
لو أن ذا الحاكم فى سلطنة * ماتركونى أبقى بسيس

ثم رجع العسكر المصرى الى القاهرة وتركوا نائب سيس تحت مكتوبه وفى هذه السنة رسم السلطان الملك الناصر بعمارة ميدان المهارة الذى عند قناطر السباع وأنزل أمير اخور كبير لعمارته فعمره بالطوب اللبن وانتجز العمل منه فى أسرع مدة ۞ ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة فيها تغير خاطر السلطان على القاضى كريم الدين بن السديد ناظر الخواص الشريفة فقبض عليه وعلى ولده وقد كان نال من العز مالم ينله جعفر البرمكى فى أيام هارون الرشيد وكان الملك الناصر قد صيرله التصرف فى الخزائن والاموال من غير حرج فكانت الامراء والاعيان يركبون فى خدمته وينزلون معه الى بيته ولما تغير خاطر السلطان عليه احتاط على موجوده واستصفى أمواله وذخائره ولم يترك له لاقليلا ولا كثيرا وصادر نساءه وغلمانه وحاشيته ثم بعد ذلك نفاه الى نحو الشوبك هو وولده ثم ان السلطان خلع على القاضى تاج الدين بن عبد الوهاب واستقر به ناظر الخواص الشريفة عوضا عن كريم الدين ثم ان السلطان نقل القاضى كريم الدين من الشوبك الى اسوان من أعمال بلاد الصعيد فتوجه من هناك وهو مقيد بالحديد وسجن هناك فى اسوان فأقام فى السجن مدة يسيرة ومات قيل انه عمد الى خشبة وعمل فيها حبلا وخنق به نفسه فمات وهو فى السجن باسوان فلما مات أحضر السلطان ولده وعاقبه وقرره على الاموال والذخائر فاظهر مخبأة فى دهليز بيته فوجد فيها من الذهب العين مائتى ألف دينار ومن الفصوص والتحف مالا يحصى هذا بعد ما أخذ السلطان منه فى المصادرة أولا وثانيا فكان كما قيل فى المعنى

احذر مداخلة الملوك ولا تكن * ما عشت بالتقريب منهم واثقا
فالغيث غيثك ان ظمئت وربما * ترمى بوارقه اليك صواعقا

وحكى بعض المؤرخين عن القاضى كريم الدين هذا انه شرب فى بعض الايام دواء فجمع وردا كان فى القاهرة ففرش منه فى داره ماقدر عليه حتى فى دهاليز بيت الخلاء وعلى الملاقى وداس منه الناس ماداسوا وأخذوا منه ما أخذوا ثم ان العبيد والغلمان أخذوا ما فضل من ذلك الورد فباعوه بخمسة آلاف درهم وكان القاضى كريم الدين له بر ومعروف وأنشأ جامعا بجزيرة أروى وأنشأ خانقاه بالقرافة الصغرى ووقف عليها الاوقاف الجليلة وفيه يقول ابن نباتة

يا كريما موافق الاسم للفعـ * ـل وأنسى فى الفضل كل قديم

لاتخف نبوة الحوادث فالله * كريم يحب كل كريم

وقيل مات القاضي كريم الدين وله من العمر نحو من ستين سنة ۞ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة فيها ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة خانقاه سرياقوس قيل ان الملك الناصر رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وأشار عليه أن يبني في هذا المكان خانقاه فبني هذه الخانقاه فلما كملت قرر بها الصوفية ووضع في هذه الخانقاه ربعة مكتوبة بالذهب مثل الربعة التي في خانقاه بكتمر التي بالقرافة وجعل فيها حضورا وقرر الشيخ مجد الدين الاقصرائي شيخا بها وكان من كبار العلماء فلما كملت العمارة نزل السلطان هنالك وعمل بها وليمة عظيمة وحضر فيها القضاة الاربع وأعيان الناس من العلماء ثم ان السلطان عمر حول هذه الخانقاه البيوت الجليلة ورغبوا في سكناها وصارت مدينة على انفرادها وتزايدت في العمارة وبني بها الملك الاشرف برسباي مدرسة عظيمة وجعل فيها خطبة وبني فيها عدة مساجد وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قرر بهذه الخانقاه جماعة آفاقية قاطنين بها ليس لهم حرفة وفي ذلك يقول المعمار

قد صار في الخانقاه عرف * من فعلهم وهو شر عاده
لا يدفعون النصيب فيها * الا لمن يترك الشهادة

۞ ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة فيها حضر الى الابواب الشريفة موسى ملك التكرور وصحبته هدايا جليلة الى السلطان وسبب توجهه الى مصر أنه قصد الحج في تلك السنة فحج ورجع الى بلاده وفي هذه السنة رسم السلطان بحفر الخليج الناصري وسبب ذلك ان الخليج القديم المسمى بخليج الذكر كان قد تلاشى أمره وعمي فأمر السلطان بحفر هذا الخليج وجعل مبدأه من عند موردة الجبس الى ان أوصله بالخليج الحاكمي من عند زقاق الكحل ثم وزع حفره على جماعة من الامراء بالقصبة الحاكمية وسبب ذلك ان الامراء الذين تعاونوا على حفره كان لهم بلاد تنتفع بالري من هذا الخليج فوزع السلطان حفره عليهم فاحتفلوا به وحفروه حتى نبع الماء من أرضه وانتجز منه العمل في مدة شهرين فلما أخذوا في أسباب حفره أرادوا أن يوصلوه بالخليج الحاكمي من كوم الريش فأشار عليهم شخص من الصالحين يقال له الشيخ علي الرطلي بأن يمشوا به من بركة قرموط فعطفوا به من عند القنطرة العسراء ومشوا به الى الخليج الحاكمي وطلعوا من قبالة زقاق الكحل والى الشيخ علي الرطلي تنسب بركة الرطلي وكان هذا المكان قديما يعرف بأرض الطبالة فلما مشى هذا الخليج الناصري بالماء جاء أحيا من خليج الذكر وأكثر مياها قيل لما أوفى النيل في تلك السنة ودخل الماء الى الخليج الناصري كان له يوم مشهود ونزل السلطان

واجتمع الامراء يوم كسرسده وفى ذلك يقول الشيخ شهاب الدين ابن أبى حجلة المغربى

ولرب أقطع قال لى بيتنا وقد * كسر الخليج وجاء كالطوفان

أجرى لنا السلطان بحرا ثانيا * مالى بشكر نوالهن يدان

وفى هذه السنة ابتدأ الامير بكتمر حاجب الحجاب بحفر بركته المعروفة الآن ببركة الرطلى وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى وعمل لها جسرا بينها وبين الخليج وأرض البركة جارية الى الآن فى وقف الامير بكتمر الحاجب انتهى ذلك وفى هذه السنة برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بأن يروك البلاد الحلبية كما فعل فى البلاد الشامية فخرج أمير من الامراء العشراوات ومعه جماعة من المباشرين بسبب ذلك فتوجهوا من القاهرة الى حلب وراكوا البلاد الحلبية حكم البلاد الشامية فجميع البلاد المصرية والشامية والحلبية الآن فى الروك الناصرى انتهى ذلك ۞ ثم دخلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة فيها رسم السلطان بابطال الضرب بالمقارع من سائر أعمال مملكته وكتب بذلك مراسيم شريفة وقرئت على منابر مصر والشام بابطال ذلك وفى هذه السنة وقع الغلاء بمصر وسائر أعمالها وتشحطت الغلال وماجت الناس على بعضها وفى هذه السنة أجرى السلطان عين ماء بمكة وهى العين المعروفة بعين بازان فحصل لاهل مكة بها غاية النفع وهى الى الآن جارية يعم نفعها أهل مكة ۞ ثم دخلت سنة ست وعشرين وسبعمائة فيها عمل السلطان الموكب وقبض على الامير طشتمر المعروف بحمص أخضر وقبض على الامير قطلوبغا الفخرى فأما الامير طشتمر حمص أخضر فشفع فيه الامراء فأفرج عنه السلطان من يومه وأما الامير قطلوبغا الفخرى فأرسله السلطان الى دمشق بطالا واستمر طشتمر ممقوتا عند السلطان فانه كان شديد البأس ظالم الصورة وفيه يقول المعمار رحمه الله تعالى

لما طغى طشتمر واعتدى * تفاءل الناس بأقوالها

دنا حصاد الحمص المعتدى * ولم تزل مصر بأفوالها

وفى هذه السنة عمرت القرية المعروفة بالنحريرية من أعمال الغربية وكان سبب انشائها أن الامير شمس الدين سنقر السعدى نقيب الجيوش المنصورة كانت هذه الارض فى أقطاعه جارية فعمر بها الامير سنقر السعدى جامعا وطاحونا وخانا ثم تزايدت فى العمارة وسكن بها جماعة كثيرة من الفلاحين فبلغ خراجها فى كل سنة خمسة عشر ألف دينار فبلغ ذلك الملك الناصر فأخذها من الامير سنقر السعدى وصارت من جملة بلاد السلطان وتزايدت فى العمارة حتى صارت بلدا كرسيا ۞ ثم دخلت سنة سبع وعشرين وسبعمائة فيها توفى الامير سنقر السعدى نقيب الجيوش عند حدرة البقر المسماة بالسعدية وفى هذه السنة أمر السلطان باحضار القاضى محيى الدين بن فضل الله العمرى كاتب سر الشام فلما حضر الى الابواب

الشريفة

الشريفة خلع عليه السلطان واستقر به كاتب السر الشريف بمصر وهو الذى يقول فيه
الشيخ جمال الدين بن نباتة

ياسائلى عن كاتب السر الذى * يعزى علاه الى أب أوّاه
هذا الغيث الله محيى الارض من * بعد الممات وذاك فضل الله

ومما يحكى عن القاضى محيى الدين هذا أنه كان اذا دخل على الملك الناصر فى وقت
العلامة يجمع ما فيها من الرمل الذى يتناثر من العلامة بحضرة السلطان فيجمع ذلك كله
ولا يرمى منه شيأ ويضعه فى حرملته التى لنفسه ويقول هذا رمل سعيد لا يرمى منه شئ
فكان اذا كتب شيأ رمله من ذلك الرمل الذى جمعه من العلامة بحضرة السلطان انتهى
ذلك وفيها حضر الى الابواب الشريفة صاحب حماه وهو الملك المؤيد عماد الدين وصحبته
هدايا جليلة وتقادم عظيمة فاكرمه السلطان غاية الاكرام وأقام بالقاهرة أياما ثم توجه الى
بلاده ۞ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة فيها برزت المراسيم الشريفة ببناء
قناطر على الخليج الناصرى الذى حفره السلطان الملك الناصر فبنى قنطرة عند الميدان
الكبير عوردة الجبس وبنى قنطرة تعرف الآن بقنطرة قديدار قيل ان الامير قديدارا كان
مشرفا على عمارتها فنسبت اليه وبنى قنطرة بظاهر باب البحر وبنى قنطرة عند بركة قرموط
تعرف الآن بقنطرة العسراوى وبنى قنطرة عند بركة الرطلى تعرف الآن بقنطرة الحاجب كان
مشرفا على عمارتها فنسبت اليه وبنى قنطرة عند زقاق الكحل تعرف الآن بالقنطرة الجديدة
فهذه القناطر من انشاء الملك الناصر محمد بن قلاون ۞ ثم دخلت سنة تسع وعشرين وسبعمائة
فيها حفر السلطان الملك الناصر البركة الناصرية المنسوبة اليه المجاورة للميدان الكبير وأجرى
اليها الماء من الخليج الناصرى وفى هذه السنة أخرج السلطان ولده الامير أحمد الى مدينة
الكرك ورسم له بأن يقيم بها فعبى له سنيحا عظيما وتوجه الى هناك ۞ ثم دخلت سنة ثلاثين
وسبعمائة فيها عمر السلطان القصر الكبير الذى فى الميدان عند البركة الناصرية وعمل تحته
بستانا عظيما وكان ينزل هناك ويقيم معه الحريم ويركب من هناك المواكب الجليلة
ويطلع الى القلعة والامراء بين يديه بالشاش والقماش والعسكر مشاة بين يديه حتى يطلع
الى القلعة وفى هذه السنة رسم السلطان بهدم الايوان الاشرفى الذى كان بالقلعة فهدمه
وبناه على هذه الصفة الموجودة الآن وعقد فوقه هذه القبة العظيمة وكان يعمل فيه المواكب
العظيمة وتجتمع به الامراء ويكثر فيه الزحام من العسكر حتى قال فيه بعض الشعراء رحمه الله

ما كان يكفى حرّ ذا الايوان حتى ازداد قبه
فكأنى فيه خروف * قد شوى من تحت كبه

وفى هذه السنة هدم السلطان دور الحرم التى كانت بالقلعة وأنشأها عمارة جديدة وتباهى

فى بنائها وفى هذه السنة حضر الى الابواب المقر السيفى تنكز نائب الشام يزور السلطان فأنزله فى الميدان الكبير عند الناصرية وبالغ فى اكرامه وتعظيمه وأحضر صحبته تقادم عظيمة الى السلطان والامراء ما بين خيول وفراش وقماش وغير ذلك ❁ ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وسبعمائة فيها رسم السلطان بأن يعمل باب للكعبة الشريفة جديد من الخشب السنط الاحمر فعمل وصفحوه فوق الخشب بصفائح الفضة فكان زنتها ثلاثين ألف درهم فلما قلع الباب العتيق وزنوا ما كان عليه من الفضة فكان زنتها ستين رطلا فأنعم بها الملك الناصر على بنى شيبة خدام البيت الشريف فتقاسموه بينهم وهذا الباب كان عمله الخليفة العباسى الملقب بالمقتفى بالله فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة من الهجرة ❁ ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فيها شرع السلطان فى التوجه الى الحجاز الشريف وهى الحجة الثالثة فيها خرج من القاهرة فى سابع شوال وكان سبب هذه الحجة أن السلطان لما عمل هذا الباب الجديد للكعبة قصد أن يوضع على باب الكعبة بحضرته فحج فى تلك السنة وكان بصحبته الملك الافضل محمد ابن الملك المؤيد عماد الدين اسمعيل صاحب حماه وكان مع السلطان من الامراء الامير بكتمر الساقى وولده الامير أحمد ابن أخت الملك الناصر والامير أيدمر الخطيرى والامير جنكى ابن البابا وهو صاحب الدرب المنسوب اليه والامير بيبرس الاحمدى والامير بهادر المعزى والامير ايدغمش وهو صاحب الخوخة المنسوبة اليه والامير قطز أمير اخور كبير والامير طقزدمر وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه والامير سنجر الجاولى والامير قوصون والامير صوصون والامير طاير بغا والامير بشتاك العمرى وهو صاحب الجامع المنسوب اليه والامير اقبغا آص الجاشنكير والامير طقتمر الخازن وهو صاحب الدرب المنسوب اليه والامير تمر الموسوى والامير ايدمر أمير خازندار والامير مسعود حاجب الحجاب والامير صار وجا نقيب الجيوش المنصورة وهو صاحب الجامع الذى عند بركة الرطلى وغير ذلك من الامراء الطبلخانات والعشراوات فكانت عدة من حج مع السلطان من الامراء فى تلك السنة اثنين وسبعين أميرا ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك فكانت مدة غيبة السلطان فى هذه السفرة الى الحجاز ذهابا وايابا أربعة وخمسين يوما لا غير ❁ ومما وقع للسلطان الملك الناصر فى هذه الحجة ان صهره الامير بكتمر الساقى الاتابكى لما حج معه هو وولده الامير أحمد فلما قضوا حجهم ورجعوا مرض الاتابكى بكتمر فى أثناء الطريق فلما وصل الى عيون القصب ثقل عليه المرض فمات هنالك ودفن بعيون القصب وكانت وفاته فى ثانى المحرم من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ثم مرض ولده الامير أحمد أيضا ومات بنخل ودفن بها ثم بعد مدة نقل الاتابكى بكتمر وولده الامير أحمد الى القاهرة ودفنا هنالك فى الخانقاه التى أنشأها بالقرافة الصغرى بالقرب من الجبل المقطم وكان الامير بكتمر أصله من

مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير فلما مات الملك المظفر أخذه الملك الناصر محمد من
جملة موجوده فحظي بكتمر عند الملك الناصر حتى جعله ساقيا ثم صار يرقى في دولة الملك الناصر
حتى بقي اتابك العساكر ثم ان الملك الناصر زوج الاتابكي بكتمر بأخته بنت الملك المنصور
قلاوون وكان الملك الناصر ينزل الى بيت الاتابكي بكتمر وينفرد عنده وينام في بعض
الاوقات حتى يتفرج على بركة الفيل فان الامير بكتمر كان ساكنا في البيت الذي بالقرب
من المدرسة الجاولية فصار الاتابكي بكتمر صاحب الحل والعقد في دولة الملك الناصر ولا
يتصرف الملك الناصر في شئ من المملكة الابعد مشورة الاتابكي بكتمر وكان لايهدى للملك
الناصر شئ من التقادم الاويهدى للاتابكي بكتمر مثله أوأحسن منه فكثرت أموال الاتابكي
بكتمر حتى قيل كان في اسطبله مائة سطل نحاس بيد مائة سائس وتحت يد كل سائس طوالة
خيل من الخيول الخاص وحوى من الاموال والجواهر والتحف مالم يحوه قبله أحد من
الامراء فلما ثقل أمره على الملك الناصر لم يتمكن من القبض عليه فلما حج معه بلغ الملك
الناصر أن الاتابكي بكتمر يقصد قتله في طريق الحجاز ويتسلطن هناك فبادر اليه الملك الناصر
ودس عليه من سقاه سما هو وولده الامير أحمد ابن أخت الملك الناصر فماتا وهما في أثناء
الطريق راجعين كما تقدم ذكر ذلك قال بعض المؤرخين لما مات الاتابكي بكتمر بعيون
القصب احتاط الملك على موجوده الذي كان معه بطريق الحجاز فوجد معه خمسمائة
تشريف مابين خلع أطلس ومتمرات وكوامل وغير ذلك ووجد معه عدة قيود وجنازير في
خوشخانات فعند ذلك تحقق الملك صحة مانقل عن الاتابكي بكتمر في امر أنه قصد قتل
السلطان هنالك وكان الاتابكي بكتمر يغلظ على السلطان في القول اذا رأى منه الجور في
حق الرعية وكان يحجر عليه في ذلك وكان السلطان يرجع الى قول الاتابكي بكتمر في غالب
الامور ولايخالفه في شئ اذا أصرّ عليه وكان صفة الاتابكي بكتمر أبيض اللون مشربا
بحمرة أسود اللحية معتدل القامة وافر العقل حسن العبارة في كلامه عليه سكينة ووقار
وكان قليل الاذى في حق الرعية وله بر ومعروف فمن ذلك أنه أنشأ خانقاه في القرافة الصغرى
بالقرب من الجبل المقطم وقرر بها صوفية وحضورا ووقف عليها أوقافا كثيرة ووضع
بها ربعة عظيمة مكتوبة كلها بالذهب قيل ان مصروفها نحو ألف دينار وهي موجودة
الى الآن وكان بهذا الخانقاه حمام وفرن وطاحون وساقية وجنينة وكان بها جماعة من
الصوفية قاطنون بها وكان له آثار كثيرة بمصر والشام فلما مات الاتابكي بكتمر قرب
السلطان الامير قوصون ورقاه قيل انه أنعم عليه بزردخانة الاتابكي بكتمر فقوم مافيها من
السلاح وغيره فكان بنحو ستمائة ألف دينار ثم ان السلطان زوج الامير قوصون باحدى
بناته ولم يزل قوصون يرقى في أيام الملك الناصر حتى فاق على الاتابكي بكتمر في أيامه قيل وقع

يوما بين الاتابكى بكتمر وبين الامير قوصون تشاجر فقال قوصون للاتابكى بكتمر أنا ما انقلت من الاطباق الى الاسطبلات بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته فلما أخذنى السلطان اتفق أن فى ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال فانعم علىّ السلطان باقطاعه وبركه وبيته وصرت خاصكيا فى ذلك اليوم وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده لما قال له السلطان يعنى هذا المملوك قال التاجر هو حر لوجه الله تعالى فاخذنى السلطان برضاى ولم أقعد فى طبقة ولم أكن تحت حكم أغا ولم أبع مثل بقية المماليك فلما سمع الامير بكتمر ذلك سكت عنه ولم يجبه عن ذلك بشئ انتهى ذلك وفى أثناء هذه السنة وهى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة حضر الى الابواب الشريفة الامير مهنا ابن الامير عيسى من عربان آل فضل وأحضر معه تقادم عظيمة للسلطان فخلع عليه وأقره على حاله شيخ آل فضل ❁ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وسبعمائة فيها حضر الى الابواب الشريفة المقر السيفى تنكز نائب الشام وكان يزور السلطان فى كل سنة مرة وصحبته الهدايا والتقادم فلما حضر أنزله السلطان فى الميدان الكبير الذى عند البركة الناصرية وبالغ السلطان فى اكرامه وتعظيمه وكان ذلك آخر اجتماعه بالسلطان وهو فى عزة وعظمة وقد تناهى سعده فأقام بالقاهرة ثم توجه الى الشام فخلع عليه السلطان خلعة عظيمة ونزل من القلعة فى موكب عظيم والامراء فى خدمته حتى رحل من القاهرة ❁ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة فيها أفرج السلطان عن جماعة من الامراء الذين فى السجن بثغر الاسكندرية وهم الامير بيبرس حاجب الحجاب والامير غمر الساقى والامير غانم بن أطلس خان والامير طغلق والامير بلاط اليونسى والشيخ على الاوجاقى والامير بلزعى والامير بنجاص والامير لاچين الغمرى والامير بيبرس العلمى والامير بكلى فلما حضر هؤلاء الامراء الى القاهرة خلع عليهم السلطان ثم أعادهم الى اقطاعاتهم وقبض على جماعة من الامراء نحو ذلك وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية وفى هذه السنة رسم السلطان بعمارة قنطرة على بحر أبى المنجا عند شبين القناطر وفيها جاءت الاخبار من حلب بان الارمن ملكوا مدينة سيس وطردوا من كان بها من المسلمين فرسم السلطان لنائب حلب بأن يتوجه اليهم ومعه العساكر الحلبية فخرج اليهم فى سابع عشرى شهر رمضان فحاصر من كان بها من الارمن وأحرق الضياع التى حولها وأسر جماعة من الارمن نحو ثلثمائة انسان فلما بلغ ذلك من كان من الارمن بقلعة اياس ثار وا على من كان عندهم فى المدينة من المسلمين وحشروهم فى فندق وأحرقوا ذلك الفندق فاحترق فيه من المسلمين نحو ألفى انسان ما بين رجال ونساء وصغار وذلك فى يوم العيد فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ❁ ثم دخلت سنة ست وثلاثين وسبعمائة فيها رسم السلطان للمقر السيفى تنكز نائب الشام بعمارة قلعة جعبر فتوجه اليها تنكز

وعمرها فى أسرع مدة ورتب بها الرجال الحرسية وجعل لها نائبا مقيما بها وأودع فيها
السلاح وكتب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان وفى هذه السنة توجه الامير أزدمر
الشمسى نائب بهنسا الى قلعة درنده وحاصر أهلها فطلبوا منه الامان فأمنهم فسلموه القلعة
فأقام بها نائبا من قبل السلطان ثم توجه الى قلعة النقير فحاصرها ففعل أهلها مثل
مافعل أهل قلعة درنده وأقام بها نائبا من قبل السلطان وفى هذه السنة وقع الغلاء بالديار
المصرية فبيع القمح كل اردب بسبعين درهما وعدم الخبز من الاسواق وماجت الناس
على بعضها فرسم السلطان بفتح شونه ففتحوها وباعوا منها فانحط السعر الى أن صار
الاردب بثلاثين درهما ولما أن دخل شهر رمضان كثر فيه القمح حتى مابقى أحد يشتريه
ولا يقلبه وسكن وهج الناس ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان الملك الناصر
تغير خاطره على الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ورسم له بأن يتحول من مناظر
الكبش ويسكن بقلعة الجبل فتحول من يومه وطلع الى القلعة هو وعياله فأنزله السلطان
فى البرج الكبير الذى أنزل فيه الظاهر بيبرس البندقدارى الخليفة الامام احمد الحاكم
بأمر الله عند قدومه من بغداد فاستمر الخليفة المستكفى بالله ساكنا فى البرج ومنعه
السلطان من الاجتماع بالناس ومن النزول الى المدينة فأقام على ذلك نحو خمسة أشهر ثم ان
بعض الامراء تشفع فيه فرسم له السلطان باعادته الى مناظر الكبش كما كان أولا وفيها
أرسل السلطان تجريدة الى سيس بسبب فساد الارمن وفيها حضرت الى الابواب الشريفة
الحرة زوجة ملك الغرب طالبة الحج فاهدت الى السلطان هدية جليلة ومن جملتها أعجوبة
وهو ثور أصفر فاقع اللون كامل الخلقة وفى وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع من
رؤس اضلاعه وهو بعرقوق وذراع وحافر مفروق مثل حوافر البقر فكان يطوف بالقاهرة
ويجبى عليه كما يفعل بالسباع وهو بجبل من حرير أصفر ۞ ثم دخلت سنة سبع وثلاثين
وسبعمائة فيها قبض النشو ناظر الخواص الشريفة على ابن فضيل شيخ مدينة ملوى وكان له
دواليب ومعاصر وكان يزرع فى كل سنة من القصب الحلو خمسمائة فدان فلما قبض عليه
النشو وجد عنده فى حاصله أربعة عشر ألف قنطار سكر ومثلها قطر نبات ومثلها عسل
أسود هذا كله خارج عن العبيد والجوارى والغلال وغير ذلك فحمل جميعه الى الحواصل
السلطانية وأقام ابن فضيل فى الترسيم مدة ثم أفرج عنه السلطان وخلع عليه وأعيد الى
عمله بمدينة ملوى انتهى ذلك ۞ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة فيها رسم السلطان
للخليفة المستكفى بالله سليمان بأن يتوجه هو وأولاده وعياله الى نحو مدينة قوص من
أعمال بلاد الصعيد وان يقيم بها فخرج من يومه هو وعياله وأولاده فشق ذلك على الناس
وتأسفوا غاية الاسف على ذلك وفى ذلك يقول الشيخ زين الدين ابن الوردى

أخرجوكم الى الصعيد لامر * غير مخز فى ملتى واعتقادى

لايغير كم الصعيد وكونوا * فيه مثل السيوف فى الاغماد

قيل وكان سبب تغير خاطر السلطان على الخليفة المستكفى بالله انه رفعت قصة الى الملك الناصر وعليها خط الخليفة سليمان ليحضر محمد بن قلاون الى مجلس الشرع أو يوكل فشق ذلك على الملك الناصر وبقى فى خاطره شئ من الخليفة سليمان حتى نفاه الى قوص فأقام بها الى أن مات فى شهر شعبان سنة احدى وأربعين وسبعمائة فكانت مدة خلافته بمصر خمسة وثلاثين سنة وسبعة أشهر فلما نفاه السلطان الى قوص أقامت مصر بلا خليفة أربعة أشهر والسلطان يتروى فيمن يوليه الخلافة وكان الخليفة المستكفى بالله لما توجه الى مدينة قوص عهد الى ولده أحمد وثبت عهده على يد قاضى قوص بشهادة أربعين رجلا من العدول فلم يعض الملك الناصر ذلك العهد لما فى نفسه من الخليفة سليمان فجمع القضاة الاربع وعقد مجلسا بسبب ذلك فلما رأى القضاة ذلك العهد تمسكوا بحكم قاضى قوص فانفض المجلس ولم يول السلطان احمد بن المستكفى بالله وصمم على عدم ولايته ثم ولى ابراهيم أخا المستكفى بالله على حين غفلة ولقبوه بالواثق بالله وكان ذميم السيرة قال قاضى القضاة شهاب الدين ابن حجر فى تاريخه ان العوام كانت تسمى ابراهيم هذا لما ولى الخلافة المستعطى بالله لقذارة نفسه وسوء تدبيره ۞ ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وسبعمائة فيها ظهرت بالقاهرة امرأة تسمى الخناقة وكانت تحتال على النساء والاطفال وتخنقهم وتأخذ ثيابهم فشاع أمرها بين الناس فلا زالوا يحتالون عليها حتى أمسكوها وشنقوها على باب زويلة وكان لها يوم مشهود لما علقت للشنق وفى هذه السنة تغير خاطر السلطان على النشو ناظر الخواص الشريفة وسلمه للامير بشتاك الناصرى حاجب الحجاب يعاقبه فلما تسلمه عاقبه حتى مات تحت العقوبة واستصفى أمواله وكان السلطان قد قرب النشو عنده فى أعلى المراتب وأمن من قبله فكان كما قال الامام على كرم الله وجهه من أمسى من الدنيا وهو على جناح أمن أصبح منها وهو على قوادم خوف فلما مات النشو استقر السلطان بصهر النشو فى نظارة الخاص فجاء أظلم من النشو وفيه يقول المعمار

قد أخلف النشو صهر سوء * قبيح فعل كما تروه

أراد للشر فتح باب * فاغلقوه وسمروه

۞ ثم دخلت سنة أربعين وسبعمائة فيها توفى أنوك ولد الناصر محمد بن قلاون وكان بديع الجمال مليح الشكل وكان السلطان يحبه دون سائر اخوته ومات وله من العمر نحو عشرين سنة فتاسف عليه السلطان أسفا شديدا وقد رثاه الصلاح الصفدى رحمه الله حيث قال

مضيت وكنت للدنيا جمالا * وجرعت النجوم الزهر فقدك

ومن عجب الليالى فيك ان لا * يموت أبوك يا أبوك بعدك

وكان الفال بالمنطق وفيها توفى الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى وكان عالما فاضلا ناظما للشعر وله شعر جيد فمن ذلك قوله

فسرلى عابر مناما * فصل فى قوله وأجمل

وقال لابد من طلوع * فكان ذاك الطلوع دمل

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى كنت بدمشق فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة والشيخ فتح الدين ابن سيد الناس بمصر فكتبت اليه وأنا بدمشق أقول له

كان سمعى فى مصر بالشيخ فتح الدين * يجنى الآداب وهى طرية

يالها غربة بأرض دمشق * أعوزتنى الفواكه الفتحية

وفى هذه السنة تغير السلطان على المقر السيفى تنكز نائب الشام فأرسل الامير بشتاك الناصرى والامير يلبغا اليحياوى وصحبتهم جماعة من المماليك السلطانية ثم كتب مراسيم الى أهل دمشق على يد هؤلاء الامراء بأن يكونوا لهم عونا على القبض على تنكز نائب الشام وكان تنكز هذا أصله من مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين ولما تولى الملك الناصر فأخذ تنكز من جملة موجود لاجين فصار من مماليك الناصر محمد ثم جعله خاصكيا ثم بقى أمير عشرة ثم بقى أمير طبلخانات ثم بقى مقدم ألف كل ذلك فى دولة الملك الناصر محمد ثم جعله نائب الشام فى سنة اثنى عشرة وسبعمائة عوضا عن الامير أقوش الافرم واستمر تنكز فى نيابة الشام ثمانيا وعشرين سنة فعظم أمره وكثرت أمواله وكان له عند السلطان منزلة عظيمة حتى كان يكاتبه فى المراسيم أعز الله أنصار المقر الكريم العالى وزاده فى الالقاب عن العادة وكان السلطان لا يفعل شيأ من أمور المملكة حتى يرسل ويشاور تنكز عليها وكان تنكز يزور السلطان فى كل سنة مرة وصحبته الهدايا الجليلة والتقادم العظيمة ويقيم بمصر أياما ثم يخلع عليه السلطان خلعة ويتوجه الى الشام واستمر تنكز على ذلك حتى أوقعوا بينه وبين السلطان ودبت بينهما عقارب الفتن فأرسل السلطان بالقبض عليه فلما وصل اليه بشتاك الناصرى والامير يلبغا اليحياوى قالوا له ان السلطان رسم لك بأن تحضر الى القاهرة حتى يزوج ابنته بابنك فقال تنكز أنا لى شغل فى هذا الشهر ولكن امضوا أنتم الى القاهرة وأنا أحضر أنا وولدى بعدكم فأغلظوا عليه فى العبارة وأغلظ هو أيضا عليهم فأرسلوا كاتبوا السلطان بذلك وأثخنوا جراحات تنكز عند السلطان فلما سمع السلطان هذا الجواب ازداد حنقه على تنكز وعين اليه الامير طاجار الدوادار الكبير بالقبض عليه ولو أن تنكز حضر الى السلطان صحبة الامير بشتاك والامير يلبغا ما حصل له من السلطان الا كل

خير فلما وصل الامير طاجار الدوادار قال لتنكز قم احضر عند السلطان والخيرة لك فقال له تنكز امض أنت وأنا بعد ثمانية أيام أحضر عند السلطان فرجع الامير طاجار عند السلطان وما أبقى ممكنا في حق تنكز من الاذى فلما سمع السلطان ذلك عين الى تنكز تجريدة ثقيلة من القاهرة ورسم للنواب كلهم أن يمشوا على تنكز فلما وصلت التجريدة الى الشام ومشت على تنكز جماعة من النواب حاصروه وهو بالشام فطلب منهم الامان ونزل اليهم فقبضوا عليه وقيدوه وذلك في ثالث عشر ذى الحجة سنة أربعين وسبعمائة ولما أمسك تنكز احتاطوا على موجوده من صامت وناطق فالذى قد ضبط من الذهب العين ثلثمائة ألف دينار وستون ألف دينار ومن الفضة النقدية ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ووجد له من الفصوص الياقوت والبلخش واللؤلؤ الكبار ثلاثة صناديق ووجد عنده من الطراز الزركش والحوائص الذهب والخلع الاطلس مائة وخمسون بقجة ومن القماش الصوف وغير ذلك خمسمائة بقجة ووجد عنده من الفراش والبرك والاوانى ما حمل الى القاهرة على مائة وخمسين جملا ووجد له ودائع عند الناس مائتا ألف دينار ومن الفضة ألف ألف ومائة ألف درهم وظهر له من الاملاك والضياع بمصر والشام ما قوم في كل سنة بمائة ألف دينار فلما وصل تنكز الى القاهرة حمل موجوده الى الخزائن الشريفة ورسم له بالتوجه الى السجن بثغر الاسكندرية فسجن بها ولما سجن أقام بالسجن أربعين يوما وهو مقيد ثم ان السلطان رسم بخنقه فأرسل اليها الحاج ابراهيم بن صابر مقدم الدولة فخنقه بالسجن وغسله وصلى عليه ودفنه بثغر الاسكندرية فذهب ماله وتخلى عنه سلطانه وقد قيل

لافهم في الدنيا المستيقظ * يلمحها بالفكرة الباصره
ان كدرت عيشته ملها * وان صفت كدرت الآخره

قيل ثلاثة لا يؤمن اليها المال وان كثر والملوك وان قربوا منك والمرأة وان طالت صحبتها ثم ان تنكز أقام مدفونا بثغر الاسكندرية مدة يسيرة ثم ان بعض الامراء شفع فيه بان ينقل ويدفن في مدرسته التي أنشأها بدمشق فرسم السلطان بنقله وهو ميت الى دمشق في أواخر سنة أربعين وسبعمائة وفيه يقول الشيخ صلاح الدين الصفدى

الى دمشق نقلوا تنكزا * فيا لها من آية طاهره
في جنة الدنيا له جثة * وروحه في جنة الآخره

(وقوله فيه أيضا رحمه الله تعالى)

في نقل تنكز سر * أراده الله ربه
أتى به نحو أرض * يحبها وتحبه

وكانت

وكانت صفة تنكز أسمر اللون خفيف العوارض طويل القامة حسن الشكل وافر العقل سديد الرأى حسن السياسة وكان دينا خيرا كثير البر والخير وله معروف وآثار للخير بمصر والشام وكان طاهر الذيل عن الزنا واللواط غير انه كان صعب الخلق شديد الغضب اذا غضب على أحد لم يرض عنه أبدا وكانت مدة نيابته بدمشق ثمانيا وعشرين سنة وهذا لم يتفق لنائب قبله وكانت أهل دمشق عنه راضية فى مدة ولايته انتهى ذلك ﴿ ثم دخلت سنة احدى وأربعين وسبعمائة فيها توفى القاضى محيى الدين بن فضل الله العمرى كاتب السر الشريف فلما توفى استقر ولده القاضى شهاب الدين بن فضل الله عوضه فجاء فى المنصب أعظم من والده وكان عالما فاضلا وله نظم ونثر وألف كتابا فى صنعة الانشاء وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين فى الانشاء وصار عمدة الموقعين وبه يقتدون وقد قال منشيه فى المعنى

يا طالب الانشاء خذ علمه * عنى فعلمى غير منكور
ولا تقف بباب غيرى فما * تدخله الا بدستور

وفى هذه السنة تزايدت عظمة الملك الناصر محمد بن قلاون وكثرت مماليكه حتى صار راتبه وراتب مماليكه كل يوم من اللحم الضانى ستة وثلاثين ألف رطل وبالغ فى مشترى المماليك حتى قيل بلغت مشترواته اثنى عشر ألف مملوك وهو أول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والاقبية المفتوحة واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطة بالذهب والاقبية القاقم وهو أول من رتب المواكب فى القصر على هذا الترتيب الحسن ورتب شرب السكر بعد السماط فى القصر والامراء مجتمعون ورتب وقوف الامراء فى المواكب على قدر منازلهم وكذلك أرباب الوظائف من المتعممين وقد طالت أيامه فى السلطنة بخلاف من تقدمه من الملوك وصفا له الوقت وصار غالب الامراء والنواب مماليكه ومماليك والده قلاون ولا يعلم لاحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه حتى قيل قد تزايدت فى أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية فى العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من العمائر والانشاء قال الشيخ سيف الدين أبو بكر بن أسد فى تاريخه لقد وقفت على تواريخ الملوك السالفة فما سمعت لاحد من الملوك بما للملك الناصر محمد بن قلاون من الوقائع الحسنة فانه خطب له فى أماكن لم يخطب فيها لاحد من الملوك وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر وهادوه وهابوه وصار جميع عسكر مصر فى قبضته من كبير وصغير وفيه يقول الشيخ صفى الدين الحلى

الناصر السلطان قد خضعت له * كل الملوك مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة * ويعد راحات الفراغ متاعبا

ترجى مكارمه ويخشى بطشه * مثل الزمان مسالما ومحاربا
فاذا سطا ملأ القلوب مهابة * واذا سخا ملأ العيون مواهبا

ولم يزل الملك الناصر قائما على سرير ملكه حتى مرض وسلسل فى المرض ومات على فراشه فى ليلة الخميس العشرين من ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة ومات وله من العمر ثمانية وخمسون سنة ودفن فى يوم الخميس المذكور على والده قلاون داخل القبة التى أنشأها قلاون بين القصرين وكانت له جنازة مشهودة وكثر عليه الاسف والحزن من الناس وقد رثاه بعض الشعراء رحمه الله بهذه الابيات

حكم المنية فى البرية جارى * ماهذه الدنيا بدار قرار
ومكلف الايام ضد طباعها * متطلب فى الماء جذوة نار
طبعت على كدر وأنت تريدها * صفوا من الاقذار والاكدار
واذا رجوت المستحيل فانما * تبنى الرجاء على شفير هار
فالعيش نوم والمنية يقظة * والمرء بينهما خيال سار
جاورت أعدائى وجاور ربه * شتان بين جواره وجوار

وكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد هذا بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاثا وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياما وذلك دون خلعه من الولاية نحو أربع سنين وأيام ولما مات خلف من الاولاد أحد عشر ولدا ذكرا دون البنات فالذى تولى السلطنة من أولاده بعده ثمانية وهم سيدى أبو بكر وسيدى أحمد وسيدى كجك وسيدى شعبان وسيدى اسمعيل وسيدى حاجى وسيدى حسن وسيدى صالح فهؤلاء الثمانية الذى تولوا السلطنة كما سيأتى وأما من لم يل السلطنة فثلاثة وهم سيدى رمضان وسيدى حسين وسيدى يوسف وأما من توفى من أولاده فى حال حياته من الذكور فأربعة وهم سيدى ابراهيم وسيدى محمد وسيدى أنوك وسيدى على فهذا مجموع ما جاءه من الاولاد الذكور دون البنات وأما فتوحاته التى فتحها فى أيامه فآمد وملطيه ودرسه وقلعة اياس وبهسنا والمرعش وتل حمدون وقلعة النقير وقلعة نجيمه وابهار ونية وكاورا واسفندكار وغير ذلك من الفتوحات وحج فى أيامه ثلاث حجج وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام ثلاث مرات وسافر الى حلب والشأم عدة مرار وممن تأمر بالديار المصرية فى أيامه الامير تنبغا والامير سلار والامير بكتمر الجوكندار والامير بيبرس الدوادار المنصورى والامير أرغون الناصرى مملوكه وأما وزراؤه بالديار المصرية فالامير سنجر الشجاعى والصاحب تاج الدين بن حنا ابن الصاحب بهاء الدين بن حنا والصاحب فخر الدين الخليلى تولى الوزارة فى أيامه مرتين والامير سنقر الاعسر والامير أيبك البغدادى والصاحب شمس الدين محمد بن الشيخى والامير أيبك الاشقر وهو أول من تسمى

مدبر المملكة وتولى شخص يسمى ابن عطاء وتولى شخص يسمى بدر الدين محمد بن التركمانى وتولى الصاحب أمين الدين بن الغنام تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات والامير بكتمر الحاجب والامير مغلطاى الجمالى فهؤلاء وزراؤه وأما قضاته الشافعية فالشيخ تقى الدين بن دقيق العيد والشيخ بدر الدين بن جماعة المقدسى والشيخ جمال الدين الزرعى والشيخ جمال الدين القزوينى والشيخ عز الدين بن جماعة وأما كاتب سره فالقاضى شرف الدين بن فضل الله والقاضى علاء الدين بن الاثير والقاضى شهاب الدين محمود أبو الثناء والقاضى محيى الدين بن فضل الله وولده القاضى شهاب الدين صاحب كتاب الانشاء فى صنعة التوقيع وأما نظار جيوشه فالقاضى بهاء الدين بن الحلى وتولى شخص يسمى الفخر وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه تولى فى أيامه مرتين وتولى القاضى قطب الدين بن شيخ السلامية والقاضى شمس الدين بن التاج والقاضى مكين الدين بن قزوينة وهو صاحب الغيط المنسوب اليه وتولى شخص يسمى جمال الكفاة فهؤلاء نظار جيوشه وأما نظار خواصه فالقاضى كريم الدين بن السديد وتولى شخص يسمى النشو ثم تولى صهر النشو وأما دواداراته فالامير عز الدين أيدمر الناصرى والامير أرغون الناصرى والامير رسلان والامير الجاى الناصرى والامير صلاح الدين يوسف بن الاسعد والامير بغا والامير طاجار الناصرى وأما ما أنشأه فى أيامه من البناء فهو القصر الكبير الابلق والقصران اللذان يليانه وعمر الايوان الكبير وعقد فوقه القبة العظيمة وعمر الجامع الكبير الذى بالقلعة وعمر الجامع الجديد المطل على بحر النيل عند موردة الحلفاء وأنشأ الخانقاه التى بسرياقوس وعمر الحوش الكبير الذى بالقلعة وعمر دور الحرم التى بالقلعة وعمر المجراة وأجرى ماء بحر النيل الى القلعة وعمر سور الميدان الذى تحت القلعة وعمر الميدان الكبير الذى عند البركة الناصرية وبنى القصر الكبير وميدان المهارة الذى عند قناطر السباع وحفر الخليج الناصرى من موردة الجبس الى زقاق الكحل ومن انشائه الدهيشة المطلة على الحوش السلطانى وهى من محاسن الزمان وأنشأ عدة قناطر كما تقدم وحفر البركة الناصرية المنسوبة اليه وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى وعمر قناطر أم دينار وقناطر شبين وقناطر أبو صير وقناطر اللبينى وعمر الجسر الذى بشبرامنت وعمر جسر ابا الفيوم وجدد عمارة الرصد وجدد عمارة جامع راشده الذى عند دير الطين وجدد عمارة مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ووضع به المحراب على التحرير الصحيح وعمر زاوية الشيخ رجب التى تحت القلعة وعمر الاصطبل السلطانى وجدد عمارة الطبلخانات السلطانية وعمر زربية بثغر دمياط وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام ۞ وأما ما أبطله فى أيامه من وجوه الظلم فهو ضمان الغوانى وكان عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا وذلك لو خرجت أجل امرأة فى القاهرة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة

تسمى الضامنة وأقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها فما قدر أكبر من فى مصر يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة وكان يحصل من ذلك لنساء الاكابر وبناتهم غاية الفساد ولا يقدر أحد يمنعهن من ذلك فأبطل الناصر ذلك وسطر فى صحائفه الى يوم القيامة وكان يحصل من هذه الجهة جملة مال كثير وأبطل أيضا فى أيامه ما كان يؤخذ ممن يبيع ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما فأبطل ذلك جميعه وكان يحصل من ذلك جملة مال وفى الجملة ان الملك الناصر محمد بن قلاون كان من أجل الملوك قدرا وأعظمهم نهيا وأمرا وأكثرهم معروفا وبرا وقد جبلت القلوب على محبته سرا وجهرا ولما مات تولى من بعده ابنه المنصور أبو بكر انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر محمد بن قلاون على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك المنصور سيف الدين أبي بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

وهو الثالث عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية بويع بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه له وكان فى أولاده من هو أكبر منه ولكن الملك الناصر اختار من بين أولاده هذا فقدمه عليهم وعهد له من بعده فهو أول من تسلطن من أولاد محمد بن قلاون لبس شعار الملك وجلس على سرير الملك فى يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة وله من العمر نحو عشرين سنة وقبل الامراء له الارض بالقصر الكبير فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم الامير طقزدمر صاحب القنطرة التى على الخليج الحاكى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية وخلع على الامير قوصون وهو صاحب واستقر به أتابك العساكر وخلع على الامير طشتمر المعروف بحمص أخضر واستقر به دوادارا كبيرا على عادته ثم دبت عقارب الفتن بين قوصون والامير طاجار وصار العسكر فرقتين فرقة مع الامير قوصون وفرقة مع الامير طاجار الدوادار ولم يخضع أحدهما لصاحبه ثم ان الامير طاجار الدوادار حسن للسلطان أن يقبض على الاتابكى قوصون وهو فى الخدمة بالقصر الكبير فأسر السلطان ذلك الى بعض الخاصكية وكان السلطان من طبعه الخفة والوهج فتوجه ذلك الخاصكى الذى أسر اليه السلطان الى الامير قوصون وذكر له ذلك وأخبره بما قد عزم عليه السلطان من مسكه وقد قيل فى المعنى

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

فلما تحقق الاتابكى قوصون ذلك اجتمع بالامير ايدغمش أميراخور كبير وجماعة من الامراء وذكر لهم ذلك فاتفقوا على خلع الملك المنصور أبى بكر فلما كان يوم الموكب امتنع الاتابكى قوصون عن طلوع القلعة فاضطربت الاحوال فى ذلك اليوم ثم ان الاتابكى قوصون طلع القلعة فى ذلك اليوم بعد انفضاض الموكب بعد الظهر على حين غفلة وقبض على السلطان الملك المنصور أبى بكر وأرسله الى السجن بمدينة قوص وأرسل معه أخويه وهما سيدى يوسف وسيدى رمضان فكانت مدة الملك المنصور أبى بكر فى السلطنة نحو ثلاثة أشهر وكان خلعه فى شهر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ثم ان الاتابكى قوصون قبض على الامير طاجار الدوادار والامير بشتاك الناصرى وجماعة من الامراء وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ثم قبض على جماعة من المماليك السلطانية فلما وصل الملك المنصور الى قوص أرسل الاتابكى قوصون الى متولى ناحية قوص بأن يقتل الملك المنصور وهو فى البحر فقتله وقطع رأسه وأرسلها الى الامير قوصون فى الدس وكتم موت الملك المنصور عن الناس ولكن أشيع ذلك فهذا أول ملك من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاون وكان ذلك من أكبر ذنوب الاتابكى قوصون وبه زال أمره انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المنصور أبى بكر بن محمد بن قلاون على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك الاشرف علاء الدين كجك

ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وهو الرابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو الثانى من أولاد محمد بن قلاون ولى السلطنة بعد قتل المنصور أبى بكر تولى الملك وجلس على سريره فى يوم الاثنين حادى عشرى صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فتولى الملك وله من العمر سبع سنين أو أقل فتصرف فى الاحكام صغيرا وأوتى على صغر سنه ملكا كبيرا فكان سابورى الولاية صغير السن الى الغاية وأما تسميته بكجك فهو لفظ أعجمى معناه بالعربى صغير فان والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلى بعده الملك وهو صغير والملوك لهم فراسة فى الامور قبل وقوعها ثم ان الاتابكى قوصون عمل الموكب وأجلس السلطان على تخت المملكة وأحضر خلعة ولبسها واستقر نائب السلطنة واتابك العساكر ثم تحول وسكن فى دار النيابة بالقلعة وتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختاره فنفى الامير طقزدمر نائب السلطنة الى دمياط وقبض على جماعة من الامراء وعزل من عزل وولى من ولى وظن أن الوقت قد صفا له فكان اذا حضرت العلامة أخذ قوصون بيد السلطان كجك والقلم فى يده ويريه كيف يكتب على المراسيم والمناشير وكان الامر كله بيد قوصون

والسلطان معه مثل العصفور بيد النسور فاضطربت أحوال الديار المصرية وتعطلت البلاد الشامية وعصت النواب ووقع الخلف بين الامراء بمصر ووقفت أحوال الرعية وحصل للناس غاية الاذية وقد قال القائل فى المعنى

سلطاننا اليوم طفل والاكابر فى * خلف وبينهم الشيطان قد نزغا

فكيف يطمع من مسته مظلمة * أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا

ثم ان الاتابكى قوصون صار يمسك فى كل يوم جماعة من المماليك السلطانية وأرسل الى الطنبغا نائب الشام بالقبض على طشتمر حمص أخضر نائب حلب فلما بلغ طشتمر ذلك توجه الى الكرك وأخذ الامير أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاون لانه كان مقيما بالكرك من أيام والده الملك الناصر كما تقدم فلما خرج الامير أحمد من الكرك تسامعت به النواب فجاء اليه الامير قطلوبغا الفخرى نائب طرابلس وحضر نائب حماه ونائب صفد وقصدوا التوجه الى مصر وأن يسلطنوا الامير أحمد عوضا عن أخيه الملك كجك وأن يقبضوا على الاتابكى قوصون فلما خرجوا من الكرك توجهوا الى نحو الشام ليقبضوا على الطنبغا نائب الشام لانه كان من عصبة قوصون فأرسل الطنبغا يطلب من النواب الامان وأن يكون معهم تحت طاعة الامير أحمد ابن الناصر فلما خرج النواب على جمية قاصدين الديار المصرية وبلغ ذلك الاتابكى قوصون أراد أن يقبض على الامير ايدغمش أمير اخور كبير فلما بلغ الامير ايدغمش ذلك ركب هو والامير آقسنقر والامير يلبغا اليحياوى وجماعة من الامراء وطلعوا الى الرميلة وأحاطوا بالقلعة ثم ان الامير ايدغمش نادى للعوام بأن ينهبوا بيت الاتابكى قوصون ونادى للعسكر أن كل من لم يكن له فرس فليحضر الى الاصطبل السلطانى ويأخذ له فرسا وطلع اليه لعسكر قاطبة ففرق عليهم فى ذلك اليوم عدة خيول من الاصطبل السلطانى فلما تحقق الاتابكى قوصون ان الركبة عليه جلس بالقلعة وحصنها ثم ان العوام دخلوا بيت قوصون وأحرقوا بابه ونهبوا ما فى اسطبله من الخيول والبغال ونهبوا حواصله وما كان فيها من برك ونحاس وسلاح وصينى وسكر وغير ذلك وقوصون ينظر اليهم من شباك فقال لبعض الامراء الذى فى الاصطبل يا مسلمين أما تحفظون هذا المال الذى تنهبه العوام اما أن يكون لى أو للسلطان فقالوا له الذى معك من الاموال والتحف يكفى السلطان وهذا شكرانه للعوام من عندك ثم ان العسكر صاروا كلما رأوا أحدا من مماليك قوصون أو من حاشيته فى الطرقات قتلوه شر قتلة واستمر الحال على ذلك الى العصر من ذلك اليوم فأرسل قوصون يطلب الامان من لامير ايدغمش وقد تسحب من كان عنده من الامراء والمماليك فهجم عليه الامير ايدغمش وقبض عليه وقيده وسجنه بالزردخانه فلما تحقق العوام مسك قوصون نهبوا خانقاته التى هى خارج باب القرافة وجامعه الذى بالقرب من بركة

الفيل ثم ان الامير ايدغمش صار يمسك من كان من عصبة قوصون من الامراء والخاصكية ثم أرسل الاتابكي قوصون تحت الليل الى ثغر اسكندرية وهو مقيد فسجن بها فعمد أهل مصر وصوّروا صورة قوصون في العلاليق وقد سمروه وفي ذلك يقول المعمار

شخص قوصون رأينا * في العلاليق مسمر

فعجبنا منه لما * جاء في التسمير سكر

وكان الاتابكي قوصون أميرا عظيما مليا مهيبا وصار في دولة الملك الاشرف كجك صاحب الحل والعقد بالديار المصرية وتصرف في أمور المملكة بحسب ما يختاره من ذلك فلما أمسك قوصون وسجن خلع الاشرف كجك من السلطنة ودخل الى دور الحرم وصار الامراء والعسكر ينتظرون قدوم الامير أحمد من الكرك حتى يتسلطن فخطب باسمه في القاهرة قبل حضوره وتلقب بالملك الناصر الى أن حضر وتولى السلطنة كما سيأتي ذلك في موضعه فكانت مدة سلطنة الملك الاشرف كجك بالديار المصرية الى أن خلع خمسة أشهر وأياما فلم تكن الا كسنة من النوم أو يوم أو بعض يوم وأقام في الاسر والاعتقال بدور الحرم الى أن مات على فراشه في دولة أخيه الملك الكامل شعبان كما سيأتي ذلك في موضعه انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الاشرف كجك وذلك على سبيل الاختصار ولم يتسلطن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون أصغر منه سنا انتهى ذلك

ذكر سلطنة الملك الناصر شهاب الدين أحمد

ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وهو الخامس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو الثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون دخل القاهرة وبويع بالسلطنة بعد خلع أخيه كجك وجلس على سرير الملك وقبل له الامراء الارض في يوم الاثنين عاشر شوال سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فلما جلس على سرير الملك وتم أمره في السلطنة وكان أكبر اخوته سنا وأرجحهم في العين وزنا فهو ليثهم الغالب وشهابهم الثاقب ولكن خابت فيه الظنون وقيل معلم مجنون فوقع منه أمور لا تقع الا ممن أصيب في عقله وذلك أنه أمر بقتل سبعة من الامراء الذي كانوا في السجن بثغر الاسكندرية فلما فعل ذلك نفرت منه قلوب العسكر ثم انه خلع على الامير طشتمر حمص أخضر واستقر به نائب السلطنة بمصر وخلع على الامير قطلوبغا الفخري واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا وخلع على الامير ايدغمش أمير اخور واستقر به نائب حلب عوضا عن الامير طشتمر حمص أخضر واستقر بجماعة من الامراء في وظائف من أمسك منهم وسجن فاستمر الامر على ذلك نحو ثلاثة وثلاثين يوما ثم انه قبض على الامير طشتمر حمص أخضر وقيده وسجنه بالقلعة ثم انه

أرسل جماعة من المماليك السلطانية خلف الامير قطلوبغا الفخرى الذى استقر به نائب الشام وقبض عليه وهو فى أثناء الطريق وقيده وكان هذان الاميران سببا فى سلطنته فما شكره أحد من الناس على ذلك ثم انه أقام فى السلطنة الى سلخ ذى القعدة من سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فتوجه الى السفر فخرج فى يوم الاثنين ومعه جماعة من الامراء والعسكر فلم يعلم أحد أين يريد فلما خرج من القاهرة توجه قاصدا نحو الكرك الذى هو محط رحاله وبغية آماله وكان لما أضمر على التوجه الى الكرك دخل الى الخزائن السلطانية وأخذ منها ما قدر عليه من الاموال الجزيلة والتحف الجليلة فوصل الى الكرك يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة فعمل عيد النحر بها وكان لما توجه الى السفر أخذ الامير طشتمر حمص أخضر معه وهو مقيد فى محفة ثم أحضر الامير قطلوبغا الفخرى بين يديه وهو مقيد لما وصل الى الكرك فأمر باعتقاله فى قلعة الكرك هو والامير طشتمر ❁ ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فى خامس المحرم اجتمع الامراء فى سوق الخيل وقالوا ان أحوال المملكة ضائعة والسلطان لا يلتفت لشئ من ذلك فأرسلوا كاتبوه فى الحضور الى مصر فان حضر فذاك وان لم يحضر فولوا غيره فكتبوا كتابا عن لسان الامراء كلهم وأرسلوه على يد خاصكى يقال له طقتمر الصلاحى فأخذ الكتاب ومضى الى الكرك فوصل فى حادى عشر المحرم فلما اجتمع بالسلطان وقرأ ما فى الكتاب كتب للامراء جواب ذلك الكتاب الذى ارسلوه وهو يقول فيه ان الشتاء قد دخل وانى قد اخترت الاقامة بالكرك الى أن يمضى الشتاء وبعد ذلك أحضر الى مصر ثم أخرج الامير طشتمر حمص أخضر والامير قطلوبغا الفخرى من السجن ووسطهما بالسيف فى ميدان قلعة الكرك بحضرة ذلك الخاصكى طقتمر الصلاحى وهذا الامر لا يقع الا من المجانين الذين فى عقلهم خلل مع ان هذين الاميرين كانا سببا لسلطنته ولكن

لا تفعل الاعداء فى جاهل * ما يفعل الجاهل فى نفسه

ومما قاله ابراهيم المعمارى فى الامير طشتمر حمص أخضر

جننت بالملك لما * أتاك بالبسط ماجن
وقد أمنت الليالى * ياحمص اخضر وداجن

وقوله فيه أيضا

أوردت نفسك ذلا * ورد النفوس المهانه
وبالدنا حزت مالا * ملأت منه الخزانه
وكم عليك قلوب * ياحمص اخضر ملانه

وقال فيه بعض الشعراء

طوى الردى طشتمر ابعـــدما * بالغ فى دفع الاذى واحترس
عهدى به كان شـديد القوى * أشجع من يركب ظهر الفرس
ألم تقـــولوا حمصا أخضرا * تعجبـــوا بالله كيف اندرس

وقال فيـــه آخر

لمـــا رجعت الينـا * من بعد ذا البعد والبين
خلنـاك تحنو علينا * يا حمص اخضر بقلبين

فلما رجع طقتمر الصلاحى من عند الملك الناصر أحمد الى القاهرة وأخبر عن هذين الاميرين وما جرى عليهما فعند ذلك نفرت منه قلوب العسكر قاطبة فلما قرؤا كتابه وعلموا أنه اختار الاقامة بالكرك ضربوا مشورة فيمن يولونه السلطنة فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه اسمعيل ابن الملك الناصر محمد فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة و ولوا اسمعيل وكان مدة سلطنة الناصر أحمد بالديار المصرية شهرين واثنى عشر يوما لاغير وأقام بالكرك حتى قتل كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه وكانت سلطنته كالحلم فى المنام كما قيل فى ذلك

فـــلم يقم الابقـــدار أن * قلت له أهـــلا اخى مرحبا

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر سلطنة الملك الصالح علاء الدين

أبى الفداء اسمعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وهو السادس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو الرابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الناصر أحمد فى يوم الخميس ثانى عشر المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فلما جلس على سرير الملك وتم أمره فى السلطنة خلع على الامير آقسنقر السلارى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية وخلع على الامير ايدغمش واستقر به نائب الشام وخلع على الامير طقزدمر واستقر به نائب حلب وقبض على الامير الطنبغا الماردينى وهو صاحب الجامع الذى فى البرادعيين وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ثم عزل من عزل وولى من ولى فما اختلف عليه اثنان ولا قيل هذان خصمان فسار فى الناس سيرة حسنة وبسط العدل وأكثر فى الرعية من البذل وعامل خاصكية أبيه بالمعروف وبذل لهم الالوف بعد الالوف ❁ ثم دخلت سنة أربع وأربعين وسبعمائة فيها تغير خاطر السلطان على الامير اق سنقر نائب السلطنة فقبض عليه وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ثم خلع على الحاج آل ملك واستقر به نائب السلطنة عوضا عن آق سنقر السلارى * والامير آل

ملك هذا هو صاحب الجامع الذى فى الحسينية وكان الامير آل ملك له بر ومعروف ولما ولى نيابة السلطنة أمر بهدم خزانة البنود التى كانت حبسا يحبسون فيها أصحاب الجرائم ثم صارت حارة يسكن بها طائفة من الارمن ويجتمع فيها طائفة من المناحيس والمقامرين فيحصل منهم غاية الفساد فهدمها وبنى مكانها مسجدا فلم يصل أحد فيه لما قد تقدم فيه من الفساد وسفك الدماء وكثرة من به من القتلى مدفونا فصار هذا المسجد مقفلا دائما لا يصلى فيه أحد من الناس وبقى مهجورا وقد قال فيه بعض الشعراء

أنا مسجد سميت بيت عبادة * عارى الملابس ليس فى حصير
هجر المؤذن والجماعة جانبى * وجفانى التهليل والتكبير
الشمع فى خلل المساجد مشعل * وفناء ربعى مظلم مهجور
ماجاء فى القرآن فى عبارة * واليوم للشيطان فى عبور
هل مبلغ عنى الامير شكايتى * فلعله يرثى لمى هو بور

﴿ ثم دخلت سنة خمس وأربعين وسبعمائة فيها أرسل السلطان تجريدة الى أخيه الناصر أحمد وهو فى الكرك فحاصروه أشد المحاصرة فلم يقدروا عليه والسلطان يخرج له تجريدة بعد تجريدة وهولاء يملوا من القتال وقد حصن قلعة الكرك فلم يقدروا على أخذها واستمر على ذلك حتى نفد جميع ما كان عنده من المال والغلال فضرب ما بقى عنده من السروج الذهب والكابيش وخلط مع الذهب النحاس فكان الدينار الذى ضربه يساوى خمسة دراهم فضة وأنفق ذلك على العسكر الذين هم بقلعة الكرك وقد هلكوا من الجوع والعطش والعرى فلما طال عليهم الامر تفرقوا من حوله وقد أقاموا معه فى المحاصرة نحو ثلاث سنين فلما كان يوم الاثنين ثانى عشرى صفر طلب الملك الناصر أحمد من العسكر الامان ونزل اليهم فقيدوه وأرسلوا يعلمون السلطان الملك الصالح بذلك فارسل اليه الامير منجك اليوسفى فقطع رأسه وأحضرها الى القاهرة فى علبة وكانت قتلته فى أواخر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة وكان الناصر أحمد أشجع اخوته وأحسنهم شكلا وأكبرهم سنا لكنه كان سيئ التدبير قليل المعرفة الغالب عليه الجهل وقوة الرأس وقلة الثبات فى الامور وقيل لما وضعوا رأسه بين يدى أخيه الملك الصالح سجد لله شكرا وأمر بدفنها تهى ذلك (ثم دخلت سنة ست وأربعين وسبعمائة) فيها مرض السلطان وسلسل فى مرض فى مات يوم الخميس حادى عشرى ربيع الاول سنة ست وأربعين وسبعمائة فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاث سنين وشهرا ونصفا وكان خيار أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون وله بر ومعروف على جهات خير فمن ذلك انه وقف ضيعة تسمى بيسوس وجعلها مرصدة على كسوة الكعبة الشريفة وكان يحب العدل

والانصاف

والانصاف بين الرعية وساس الملك فى مدة ولايته أحسن سياسة ولم يزل على ذلك الى أن مات على فراشه بخلاف اخوته فكثر عليه الاسف والحزن من الناس وقد رثاه الصلاح الصفدى بقوله

مضى الصالح المرجو للبأس والندى * ومن لم يزل يلــــقى المنا بالمنائح
فيامالك مصر كيف حالك بعــده * اذا نحن أثنينا عليــك بصالح

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تاريخه ان الملك الصالح اسمعيل هــذا كان على مــذهب بعض الخلفاء يميــل الى حب الجوارى المولدات الحبش والسود وكان يحب من يمدح له فى ذلك فكانت الشعراء يكثرون له فى معنى ذلك قال بعضهم

يكون الخال فى خد قبيح * فيكسوه الملاحــة والجمالا
فكيف يلام معشوق على من * يراه كله فى العــين خالا

وقال آخر فى أسماء الجوارى

اذا زار الحبيب على اشتياق * فقد زال العنا وقت الصباح
وان وافتك خمر مع نسيم * فقد دام السرور بالانشراح

ومثله فى المعنى

بدا السعد لى حين زار الحبيب * وجاء الهنــاء ودام السرور
وجاءت نسـيم بتفاحــة * مباركــة من غزال نفور

انتهى ما أوردناه مــن أخبار الملك الصالح عماد الدين اسمعيــل ابن الملك الناصر محمــد بن قلاون وذلك على سبيل الاختصار من أخباره

ذكر سلطنة الملك الكامل شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

وهو السابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو الخامس من أولاد الملك الناصر محمــد بن قلاون بويع بالسلطنة بعــد موت أخيه الملك الصالح اسمعيل بعهد منه له وكان شعبان هذا هو أخو الملك الصالح اسمعيل شقيقه جلس على سرير الملك ولبس شعار السـلطنة فى يوم الخميس حادى عشرى ربيع الاول سـنة ست وأربعين وسبعمائة وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباته

طلعة سـلطاننا تبــدت * بكامل السعد فى الطلوع
واعجب لهاتيك كيف أبدت * هــلال شعبان فى ربيع

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وقبض على جماعة من الامراء منهم الامير آل ملك نائب السلطنة فاقام بالقلعة فى البرج أياما ثم أفرج عنه وولاه نيابة صفد فخرج من يومه فلما وصل الى العريش أرسل بالقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ثم عمل الموكب وخلع على الامير ارقطاى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن آل ملك ثم قبض على الامير قمارى استادار العالية وأرسله الى السجن بثغر دمياط ثم أرسل بالقبض على الامير طقزدمر نائب الشام وسجنه بالكرك وخلع على الامير يلبغا اليحياوى واستقر به نائب الشام عوضا عن طقزدمر وفى هذه السنة توفى الملك الاشرف كجك أخو السلطان وكان مقيما بدور الحرم من حين خلع من السلطنة الى أن مات (ثم دخلت سنة سبع وأربعين وسبعمائة) فيها طاش الملك الكامل شعبان وصار يخرج الاقطاعات بمال معلوم وصار يصادر أرباب الوظائف من المباشرين ويأخذ أموالهم قهرا فتقلقلت منه الناس وفيها جاءت الاخبار بان يلبغا اليحياوى نائب الشام خامر وأظهر العصيان فجمع السلطان الامراء وشاورهم فى أمر نائب الشام فوقع الاتفاق على ان السلطان يرسل الامير منجك اليوسفى لكشف الاخبار فتوجه الامير منجك نحو الشام من يومه ثم ان السلطان عرض العسكر وقصد التوجه الى الشام بسبب عصيان النائب ومن الحوادث فى هذه السنة ان السلطان طلب أخويه الامير حاجى والامير حسينا فأرسل اليهما الساقى سرور الزينى فقال لهما امضيا كلما السلطان فقالا نحن اليوم ضعاف وقد شربنا الدواء فلما رد الجواب على السلطان بذلك أرسل اليهما الامير الزمام صواب الطولونى فقال لهما امضيا كلما السلطان والخيرة لكما فقالا له مثل ما قالا لسرور الزينى فلما رد الجواب على السلطان بذلك اشتد غضبه على أخويه وأرسل خلف الامير استدمر الكاملى والامير قطلوبغا الكركى فلما حضرا قال لهما انى طلبت أخى حاجى وأخى حسينا فأبيا عن الحضور الى فقال الامير استدمر الكاملى للامير أرغون العلائى زوج أم السلطان ادخل أنت اليهما وأخرجهما فدخل الامير أرغون وأخرجهما غصبا وهما يتباكيان فلما حضرا بين يدى السلطان قبلا له الارض وقالا له يا مولانا السلطان لا تؤاخذنا فاننا كنا شربنا دواء فقال لهما السلطان كذبتما انما أنتما اتخامرا ان على فأخرج الامير حاجى خمة كانت معه وحلف عليها انه ما امتنع عن الحضور الا لكونه كان ضعيفا وشرب الدواء فلم يصدقه السلطان فى ذلك ثم جاءت أمهاتهما وحلفن للسلطان وكشفن رؤسهن له وقلن والله ما امتنعا عن الحضور الا لكونهما شربا الدواء فلم يقبل منهن السلطان ذلك وقال لهن أنتن نساء قليلات العقول ثم أمر بادخال أخويه الى موضع فى الدهيشة ورسم عليهما السلطان بجماعة من الخدام فباتا تلك الليلة فى الدهيشة

فلما أصبح الصباح طلب السلطان عشرين فص حجر مسقط وحلى حجر وجبس وقصد أن يدخل أخويه فى مكان عقد تحت الدهيشة ويبنى عليهما بالحجر ويجعل ذلك المكان قبرا لهما فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرى شهر جمادى الاولى من سنة سبع وأربعين وسبعمائة دخل بعض الخاصكية على السلطان وقت صلاة الصبح وأخبره بان الامير ملكتمر الحجازى قد لبس آلة الحرب هو ومماليكه وتوجهوا الى قبة الهواء التى تحت القلعة وكان السلطان قد عول على القبض عليه أيضا فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله فأرسل الى زوج أمه أرغون العلائى وقال له ما الخبر فقال له ان ملكتمر الحجازى وأرغون شاه وجماعة من الامراء لبسوا آلة الحرب وتوجهوا نحو قبة الهواء فلما تحقق السلطان ذلك فتح باب الزردخانه وفرق منها الملبوس وأمر بشد الخيول فلم يجد أحدا عنده من المماليك غير بعض مماليك صغار كتابيه فركب السلطان ووقف على باب السلسلة ودقت الكوسات حربيا ثم مشى الى الطبلخانات ووقف ينتظر من يطلع اليه من الامراء والعسكر فلم يطلع اليه أحد فبقى واقفا ساعة حتى طلعت الشمس ثم مشى وقصد نحو قبة الهواء ولم يكن معه من الامراء سوى الامير أرغون العلائى زوج أمه والامير استدمر الكاملى والامير قطلوبغا الكركى والامير جوهر السحرتى مقدم المماليك وبعض مماليك صغار تحت الصنجق فتقدم الى آخر الصوه فبرز اليه الامير أرغون شاه والامير قرابغا القاسمى والامير آقسنقر وضربوا عليه يزك ووقع بينهما القتال فبرز الامير يلبغا أروس الى الامير أرغون العلائى زوج أم السلطان فضربه بطبر على وجهه فسقط عن فرسه الى الارض فقبضوا عليه وأسروه فلما رأى ذلك من كانوا حول السلطان تسحب أكثرهم من حوله ولم يبق معه أحد الا القليل من المماليك فزحف عليه الامراء فهرب فى أربعة مماليك صغار وتوجه نحو باب السلسلة فلما ولى السلطان مهزوما قبضوا على من معه من الامراء المقدم ذكرهم فلما توجه الى نحو باب السلسلة وجده مقفلا فصار يسأل بعض الاوجاقية فى أن يفتح له الباب حتى يطلع الى القلعة وهو سائق فلما دخل الحوش أراد أن يقتل أخويه حاجى وحسينا فلم يفتح له الخدام باب الدهيشة فرجع الى بيت أمه واختفى فيه وكانت أمه ساكنة بالقلعة هذا ما كان من أمر الملك الكامل شعبان بعد كسرته وأما ما كان من أمر الامراء الذين وثبوا على السلطان فانهم لما انكسر السلطان وولى مهزوما قبضوا على الامراء الذين كانوا معه وشكوهم فى زناجير وأما مقدم المماليك جوهر السحرتى فانه كان واقفا تحت الصنجق فقطعوه بالسيوف ثم ساقوا الى الرميلة وطلعوا من السلسلة الى القلعة فوقفوا على باب الستارة وقالوا للخدام أين ابن استاذنا سيدى حاجى فقالوا لهم فى الدهيشة هو وأخوه سيدى حسين

فدخلوا الحوش وطلعوا الدهيشة وأخرجوا سيدى حاجى وقبلوا له الارض وقالوا له أنت سلطاننا ثم انهم طلبوا الملك الكامل شعبان فلم يجدوه فقال لهم بعض الخدام قد اختفى فى بيت أمه فهجموا عليه فى بيت أمه فلم يجدوه فأمسكوا الجوارى وأرادوا توسيطهم فأقروا بأنه فى بيت الازيار فهجموا عليه فوجدوه واقفا بين الازيار وقد ابتلت أثوابه بالماء فقبضوا عليه ومضوا به الى الدهيشة وسجنوه فى المكان الذى كان به اخواه قال الشيخ صلاح الدين الصفدى حكى لى الامير اسنبغا استدار الصحبة قال هيأنا السماط على ان الملك الكامل شعبان يأكل منه ثم أفردنا منه شيأ لسيدى حاجى وسيدى حسين اللذين كانا فى السجن بالدهيشة فخرج الى السماط سيدى حاجى وجلس فى صدره وأكل منه ثم دخلنا بالطعام الذى كنا أفردناه لسيدى حاجى وأخيه حسين الى الملك الكامل شعبان فأكل منه وهو فى السجن الذى كان فيه أخواه فسبحان القادر على كل شئ ان فى الليل والنهار عجائب وقد قال القائل

لاتأمنن للدهر وهو مسالم * سلس القياد فقد يكون محاربا
واحذر تقلبه ولا تعجب له * ان أركب الماشى وأمشى الراكبا

وقال آخر

كم حاربتنى شدة بجيشها * فضاق صدرى من لقاها وانزعج
حتى اذا آيست من زوالها * جاءتنى الالطاف تسعى بالفرج

ثم ان الملك الكامل أقام محبوسا فى المكان الذى فى الدهيشة ثلاثة أيام ثم ان أخاه حاجى أرسل اليه من يخنقه وهو فى السجن فخنق وكانت قتلته فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنة وشهرين ونصفا ولما مات دفن مع والده داخل القبة التى بين القصرين وكانت صفة الملك الكامل شعبان أشقر اللون أزرق العينين وافر الانف مجدر الوجه يميل الى الصفرة شديد الخلق سيئ التدبير وكانت أمه رومية فجمع بين قبح الشكل والفعل قال الصلاح الصفدى

بيت قلاون سعاداته * فى عاجل كانت بلا آجل
حل على أملاكه للردى * دين قد استوفاه بالكامل

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاون وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

وهو

وهو الثامن عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو السادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون بويع بالسلطنة بعد قتلة أخيه الملك الكامل شعبان في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة وفيه يقول الشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري

يا امام الورى مضى نصف عام * لم أنل فيه من وصولي دربع

سنة ان غفلت عني فيها * كسرتني وكيف لا وهي سبع

وكان مولد حاجي هذا في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ولد بالطريق عند عود أبيه الملك الناصر من الحجاز وهي الحجة الثالثة فلما بشر به سماه حاجي فلما تسلطن وتم أمره في السلطنة أراد أن يقبض على جماعة من الامراء فرسم لنقيب الجيوش المنصورة بان يدور على الامراء المقدمين ويعلمهم بان السلطان رسم بان يعمل الموكب في القصر وتجتمع سائر الامراء فدار عليهم نقيب الجيوش وأعلمهم بذلك فلما طلعوا الى القلعة واجتمعوا في القصر دخل عليهم جماعة من المماليك السلطانية بعد المغرب فقبضوا على جماعة منهم قيل ان الامير آق سنقر لما أرادوا أن يقبضوا عليه جرد سيفه وقصد نحو السلطان ليقتله فأمسكه الامير شجاع الدين عزلو والامير بكلي وأخذوا سيفه من يده ثم قبضوا على الامير ملكتمر الحجازي والامير قرابغا القاسمي والامير ايتمس عبد الغني وبزلار الغمري والامير صمغار فكانت ساعة تشيب فيها النواصي ثم ان السلطان أمر بتقييدهم فقيدوا وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية وأما الامير آق سنقر والامير ملكتمر الحجازي فحبسهما السلطان في البرج الى الليل وأمر بخنقهما فخنقا ودفنا تحت الليل ومضى أمرهما وكانا هذين الاميرين سببا السلطنة المظفر حاجي وقتل أخيه الملك الكامل شعبان وكانا يظنان أنهما في دولة الملك المظفر حاجي يصيران صاحبي الحل والعقد في أمور المملكة فجاء الامر اليهما بخلاف ذلك فكان الامر كما قيل

ربما يرجو الفتى نفع فتى * خوفه أولى به من أمله

ورب من ترجو به دفع الاذى * سوف يأتيك الاذى من قبله

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع في ذلك اليوم على خمسة عشر أميرا وأنعم عليهم بالاقطاعات السنية وقرر منهم جماعة في وظائف وأقام له عصبة من الامراء ثم جاءت الاخبار من دمشق بان نائب الشام يلبغا اليحياوي هرب فتبعه جماعة من عسكر دمشق فتقاتل معهم وقتل فقطعوا رأسه وأحضرت الى القاهرة فرسم السلطان بان تعلق على باب زويلة ثم ان الامير شجاع الدين عزلو تزايد ظلمه في حق الرعية وصار يرمي الفتن بين الامراء فلما بلغ السلطان ذلك قبض عليه وسجنه فوقع منه كلام في حق السلطان فلما

بلغه أمر بقتله فخنق تحت الليل ودفن فى القرافة فلما بلغ العوام ذلك توجه منهم جماعة
الى قبره ونبشوا عليه وأخذوا كفنه وأحرقوا عظامه فلما بلغ السلطان ذلك رسم لوالى القاهرة
بان يقبض على من فعل ذلك فقبضوا على جماعة من العوام وضربوهم بالمقارع وقطعوا
أيديهم وطافوا بهم القاهرة ولما كان يوم الاربعا ثامن شهر رمضان وصل من الشام
موجود يلبغا اليحياوى وكان من جملة ذلك من الذهب العين خمسون ألف دينار فلما وصل
ذلك الى الخزائن الشريفة أنفقه السلطان جميعه على طيور الحمام وكان مولعا بلعب
الحمام فعمل لها خلاخيل ذهب فى أرجلها وألواح ذهب فى أعناقها وصنع لها مقاصير من
خشب الآبنوس وطعمها بالعاج والآبنوس وأقام بها غلمانا يكلفونها فصرف ذلك المال
جميعه عليها قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجله فى ترجمته للملك المظفر حاجى وقد اشتغل
بلعب الطيور عن تدبير الامور والنهى عن الاحكام بالنظر الى الحمام فجعل السطح داره
والشمس سراجه والبرج مناره وأطاع سلطان هواه وخالف من نهاه وخرج فى ذلك
عن الحد وصار لا يعرف الهزل من الجد ثم ان السلطان صار يستخف بالامراء ولا يبيت
عندهم فى القصر فى ليالى الموكب فعند ذلك تغيرت عليه خواطر الامراء ولا سيما ما قد أنفقه
على الحمام من المال الذى جاء به من موجود نائب الشام فدخل الامير جبغا على السلطان
وقت الظهر وخلا به وعنفه على تلك الامور التى يفعلها وقال له ان الامراء والعسكر
قد تغير خاطرهم على السلطان بسبب ذلك فلما سمع السلطان ذلك غضب وقام من وقته
وطلع الى الحمام وذبحها جميعا وأخرب تلك المقاصير وأرسل يقول للامير جبغا انى قد
ذبحت الحمام الذى كان عندى جميعه وأنا ان شاء الله تعالى أذبح فى هذا القرب خياركم كما
ذبحت الحمام فلما سمع الامير جبغا ذلك قام من وقته ودخل الى نائب السلطنة وذكر له ما قاله
السلطان فاتفق رأى الامراء قاطبة على خلعه من السلطنة فلما كان يوم الاحد ثانى
عشر رمضان وثب الامراء على السلطان ولبسوا آلة الحرب وخرجوا الى قبة النصر
فلما بلغ السلطان ذلك رسم بشد الخيول ودق الكوسات حربيا وزعق النفير وركب تحت
الصنجق ومعه جماعة من الامراء العشراوات نحو ثلاثة أنفس وبعض مماليك صغار
ومقدم المماليك الامير عنبر ثم ان السلطان خرج من باب السلسلة ومشى الى رأس
الصوه ووقف ينتظر من يطلع اليه من الامراء فلم يطلع اليه أحد فوقف ساعة ثم مشى
بين الترب فوقف هناك وأرسل خلف الامير شيخو العمرى فجاء من بيته فبعثه السلطان الى
الامراء الذين فى قبة النصر وهو يقول لهم ايش قصدكم حتى نعرف سبب ركوبكم علينا
من غير موجب فلما توجه الامير شيخو من عند السلطان بهذه الرسالة اجتمع بالامراء الذين
فى قبة النصر وبلغهم ما قاله السلطان فقالوا له امض الى السلطان وقل له ينزل عن الملك

ويكف

ويكف هذا القتال عن العسكر فلما رجع الامير شيخو الى السلطان و بلغه ما قالته الامراء قال السلطان كيف أنزل عن الملك والله ما عندى لهم الا السيف فرجع اليهم الامير شيخو بهذا الجواب فزحفوا اليه وأشاروا بالحرب عليه فثار بينهم غبار الحرب الوارد وحملوا عليه حملة رجل واحد وكان رأس الفتنة الامير يلبغا أروس فجاء من وراء السلطان وضرب عليه يزك بمن معه من العسكر فصار من كان مع السلطان من المماليك يتسحبون قليلا قليلا فلم يبق معه الا القليل من المماليك فتقدم اليه الامير يلبغا اروس وضرب السلطان بطبر كان معه فلم تؤثر فيه الضربة فنزل الامير يلبغا اروس عن فرسه وأمسك لجام فرس السلطان وتكاثر عليه العسكر فقلعوه من قربوس السرج وأخذوه وهو حاسر الرأس ومضوا به الى الامير ارقطاى نائب السلطنة فلما رآه نزل عن فرسه ورمى على السلطان قباءه وقال أعوذ بالله ان أقتل ابن أستاذى ولكن امضوا به الى السجن فى القلعة فأخذه الامير يلبغا اروس ومضى به الى تربة فى الباب المحروق فخنقه هنالك ودفن من وقته ولم يشعر به أحد وكان له من العمر نحو عشرين سنة وكان مليح الشكل صبيح الوجه شجاعا بطلا لا يهيب الحرب ولا يخاف الضرب وقد قال فيه الصلاح الصفدى رحمه الله

أيها العاقل اللبيب تفكر * فى المليك المظفر الضرغام
قد تمادى وازداد فى البغى حتى * كان لعب الحمام جد الحمام

فكانت مدة سلطنة الملك المظفر هذا بالديار المصرية سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ولكن قتل فى هذه المدة اليسيرة جماعة كثيرة من الامراء وغيرهم وكان سفاكا للدماء على صغر سنه وفيه يقول الصفدى

خان الردى للمظفر * وفى الثرى قد تعفر
فكم أباد أميرا * على المعالى توفر
وقاتل النفس ظلما * ذنوبه ما تكفر

فلما قتل المظفر حاجى طلع الامراء الى القلعة وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة فاختلفوا فى ذلك فطائفة من الامراء يقولون سيدى حسين وطائفة منهم يقولون سيدى حسن فوقع الخلف بينهم فى ذلك وكان سيدى حسين مجرما سفاكا للدماء فنفر منه العسكر لشدة بأسه ووقع القال والقيل بين الامراء وأقامت مصر يومين بغير سلطان والناس يدعون الى الله باصلاح أحوال المسلمين ثم فى اليوم الثالث وقع الائتلاف من الامراء على سلطنة سيدى حسن فطلبوه من دور الحرم وسلطنوه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك الناصر أبي المحاسن حسن

ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون وهو التاسع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو السابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ﷺ بويع بعد قتل أخيه حاجى فتولى الملك وله من العمر ثلاث عشرة سنة وكان مولده فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة تسلطن فى يوم الثلاثاء فى رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة قيل لما أخرجوه من دور الحرم جلس على باب الستارة وأحضر واله خلعة السلطنة وكان اسمه أولا سيدى قارى لحسنه فلما أرادوا أن يسلطنوه قال للامراء أنا الا اسمى الا بسيدى حسن فقال الامراء على بركة الله تعالى فألبسوه خلعة السلطنة وأركبوه من باب الستارة والامراء مشاة بين يديه الى أن وصل الى الايوان وجلس على سرير الملك ودقت له الكوسات ونودى باسمه فى القاهرة وضج له الناس بالدعاء وفرح كل أحد من الناس بولايته فلما كان يوم الاثنين عمل الموكب وخلع على الامير يلبغا أروس واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الامير ارقطاى ثم خلع على الامير ارقطاى واستقر به نائب حلب ثم خلع على الامير ارغون شاه واستقر به نائب الشام وخلع على الامير منجك اليوسفى واستقر به وزيرا واستادارا بالديار المصرية وخلع على جماعة كثيرة من أرباب الوظائف من الامراء والمتعممين وغير ذلك ثم فرق الاقطاعات على المماليك السلطانية وأرضاهم بكل ما يمكن ثم عينوا الامير استبغا المحمودى السلحدار بأن يتوجه ببشارة ولاية السلطان الى دمشق وأخذ فى أسباب السفر الى دمشق وفيه يقول ابن أبي حجلة

غدا سلطاننا الملك البرايا * رعاه الله يعدل فى الرعايا
حواصل عدل والده حواها * وأخرج من زواياها الخبايا
فهلا فى التمادى والايادى * فقد حزت النهاية فى العطايا

وفى هذه السنة وهى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة احترق بحر النيل احترافا زائدا مما يلى بر مصر فاتفق رأى الامراء بأن يسدوا البحر مما يلى بر الجيزة فرسموا للامير منجك اليوسفى وزير الديار المصرية بأن يتولى أمر ذلك ففرض منجك على كل دكان بمصر والقاهرة درهمين فضة وأخرجوا مراسيم شريفة الى كاشف الشرقية بأن يفرض على كل نخلة فى البلاد درهمين من الفضة فاجتمع من ذلك مال جزيل فأخذ منجك ذلك المال واشترى به مراكب ووسقها حجارة كبارا وغرقها فى البحر مما يلى بر الجيزة فلم يفد من ذلك شيأ وطغى عليهم الماء فقبضوا على منجك ورسموا عليه بسبب ما أخذه من البلاد من المال فصادروه وأخذوا أمواله وعزلوه من الوزارة (ثم دخلت سنة تسع وأربعين وسبعمائة)

فيها خلع السلطان على الأمير جبغا واستقر به نائب طرابلس وخلع على الأمير أحمد شاد الشر نجاناه واستقر به نائب صفد ❁ ومن الحوادث في هذه السنة ان الفناء وقع بالديار المصرية وعم سائر البلاد فكان يخرج من القاهرة في كل يوم ما ينوف عن عشرين ألف جنازة وقد ضبط في شهر شعبان ورمضان فبلغ عدة من مات فيهما من الناس فكان نحو تسعمائة ألف انسان ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطواعين المشهورة في صدر الاسلام قال الشيخ شمس الدين محمد الذهبي ان الطواعين المشهورة في مبتدا الاسلام خمسة وهي طاعون شيرويه وطاعون عمواس كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقع بالشام وأعمالها في سنة ثمان عشرة من الهجرة وعمواس بفتح العين اسم قرية بالشام وطاعون الجارف وقع في زمن عبد الله بن الزبير في سنة سبع وستين من الهجرة قيل مات فيه في ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفا ومات فيه لانس بن مالك رضي الله عنه في ثلاثة أيام ثلاثة وثمانون ولدا وكان في شهر رمضان قوة عمله وطاعون الفتيات كان بالبصرة وواسط قيل انه ابتدأ بالعذارى الصغار فسمي طاعون الفتيات وطاعون جاء في سنة احدى وثلاثين ومائة من الهجرة يسمى طاعون قتيبة فمات فيه ألف ألف وستمائة وخمسون ألف انسان ومات عقيبه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ولكن لم يسمع بمثل هذا الطاعون الذي جاء في هذه السنة لانه عم البلاد قاطبة ومات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم من مسلم وكافر وكانت قوة عمله في بلاد الفرنج وأقام دائرا في البلاد نحو سبع سنين حتى عزت جميع البضائع لقلة الجالب من البلاد وبلغ ثمن الراوية من الماء اثني عشر درهما بالقاهرة وسبب ذلك موت الجمال وبلغ طحن الاردب القمح خمسة عشر درهما ولم يزرع من أراضي مصر في تلك السنة الا القليل بسبب موت الفلاحين وعدم من يزرع فوقع الغلاء حتى بيعت كل ويبة قمح بمائتي درهم وكادت مصر ان تخرب في تلك السنة ووقع الطعن أيضا في القطط والكلاب والوحوش ولقد شوهد شيء كثير من الوحوش وهي مطروحة في البراري وتحت ابطها الطواعين وكذلك الخيل والجمال والحمير وسائر الحيوان حتى الطيور مثل النعام وغير ذلك وفي ذلك يقول الصلاح الصفدي

لما افترست أصحابي * يا عام تسع وأربعينا
ما كنت والله تسعا * بل كنت سبعا يقينا

وقوله أيضا

دارت من الطاعون كاس الفنا * فالنفس من سكرته طافحه
قد خالف الشرع وأحكامه * لانه يثبت بالرائحه

وقوله أيضا

لاتثق بالحياه طرفة عين * فى زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع * والبرايا لها فراش تطير

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى

يقولون شم الخل فى زمن الوبا * وقالها قال الاطباء يا خلى
فان قلت للطاعون تسطو على الورى * يقول نعم أسطو وأنفك فى الخل

وقال ابراهيم المعمار

ياطالباً للموت قم واغتنم * هذا أوان الموت مافاتا
قد رخص الموت على أهله * ومات من لا عمره ماتا

وقوله أيضا

قبح الطاعون داء * فقدت فيه الاحبه
بيعت الانفس فيه * كل انسان بحبه

ومن مجونه قوله

قلت لمن بالحشيش مشتغل * ويحك ماتختشى هذه الكتبه
فالناس ماتوا بكبة ظهرت * فقال انى اعيش بالكبه

وقال بعضهم

تروعنا الجنائز مقبلات * ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ظبية صدفت لذئب * فلما غاب عادت راتعات

وقال آخر

نراع بالموت ساعة ذكره * ونعرض للدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها * وما كنت منه فهو شئ محبب

قيل لما زاد أمر هذا الطاعون بالديار المصرية أمر بعض العلماء بان الناس يخرجون قاطبة الى الدعاء برفعه فخرج الناس قاطبة الى الصحراء وفعلوا كما يفعلون فى الاستسقاء فلم يفد ذلك شيئاً بل زاد أمر الطاعون حتى عم سائر البلاد ودخل الى مكة ولم يعهد هذا قط فى سوى هذه السنة نقل ذلك ابن حجر فى كتاب بذل الماعون فى أخبار الطاعون انتهى ذلك ۞ ثم دخلت سنة خمسين وسبعمائة فيها جاءت الاخبار بان ارغون شاه نائب الشام قتل تحت الليل وسبب ذلك ان الامير جبغا نائب طرابلس دخل الى دمشق فى جماعة كثيرة من عسكر طرابلس وكان ارغون شاه نائب الشام مقيما بقصر الابلق الذى بدمشق فدخل عليه الامير جبغا نائب طرابلس وهو نائم بين عياله فقبض عليه وقيده وسجنه بقلعة دمشق فلما اصبح الصباح طلب الامير جبغا القضاة والامراء بدمشق واخرج لهم مرسوم السلطان

بالقبض على ارغون شاه نائب الشام فعند ذلك سكن ما كان بين الناس من الاضطراب وظنوا ان ذلك صحيح ثم ان الامير جبغا احتاط على موجود ارغون شاه جميعه فلما كانت ليلة الجمعة رابع عشرى ربيع الاول من تلك السنة فيها وجدوا ارغون شاه النائب مذبوحا وهو فى السجن فاحضر الامير جبغا القضاة وكتب محضرا فى شأن ذبح ارغون شاه بانه وجد فى السجن مذبوحا ولا يعلم من فعل ذلك ثم فشا الكلام بين الناس بان ذلك من فعل الامير جبغا فكثر القال والقيل فى حق جبغا بانه هو الفاعل لذلك جميعه فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه فهرب جبغا وتوجه الى نحو المزه وهى من اعمال دمشق فلم يتبعه أحد من عسكر الشام وخافوا عقبى ذلك ثم ان الامير جبغا توجه الى طرابلس بعد ما جرى منه ما جرى ثم ان أمراء دمشق كاتبوا السلطان بما وقع من الامير جبغا فلما وصل الخبر الى السلطان أنكر ذلك وحلف على مصحف انه لم يكن له علم بذلك ثم عاد الجواب الى الامراء بدمشق بان السلطان ليس له علم بما جرى من الامير جبغا ثم رسم لعسكر دمشق بان يحاربوا الامير جبغا ويمشون عليه فى أى مكان كان فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة وحاربوه وهو فى طرابلس فانكسر الجبغا وقبضوا عليه ودخلوا به الى الشام وكان يوم دخوله الى الشام يوما مشهودا لم يسمع بمثله وكان فى مراسيم السلطان الذى جاءت الى دمشق ان ظفرتم بالجبغا فاشنقوه على باب دمشق فلما ظفروا به شنقوه وعلقوه على باب القلعة كما رسم السلطان فاقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى دفن بعد ذلك فكان كما قيل * ليس المغر بمحمود ولو سلما *

❁ ثم دخلت سنة احدى وخمسين وسبعمائة فيها جاءت الاخبار من حلب بان شخصا من التتار يسمى هندو أغار على مدينة سنجار وملكها فارسل السلطان له تجريدة فحاصروه فطلب من العسكر الامان ثم رحل عن سنجار وعاد اليها النائب الذى من قبل السلطان ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم سالمون وفيها توجه الامير طاز أمير حاج بالمحمل الشريف فلما وصل الى مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب اليمن وكان قد حج فى تلك السنة فلما صعدوا الى الجبل وقع بينهما فتنة عظيمة فانكسر الملك المجاهد صاحب اليمن وقبض عليه الامير طاز وقيده وأحضره صحبته الى القاهرة وفيها جمع السلطان الملك الناصر حسن القضاة الاربع وسائر الامراء ورشد نفسه واستعذر الاوصية فاعذروا له فى ذلك ثم بعد أيام قبض السلطان على جماعة من الامراء منهم الامير بيبغا أروس والامير منجك اليوسفى وأرسلهم الى السجن بالاسكندرية وفيها أبطل السلطان ما أحدثه النساء من القمصان التى خرجت فى كبرأ كمامها عن الحد وأبطل ما أخرجوه من الازر الحرير والاخفاف الزركش فاشهروا المناداة فى القاهرة بابطال ذلك فرجعت النساء عن ذلك ❁ ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة فيها عاد الحاج الى القاهرة

فطلع الامير طاز الى القلعة وصحبته الملك المجاهد صاحب اليمن فلما تمثل بين يدى السلطان أطلقه من القيد ورسم له بالعود الى بلاده وهو مكرم وأرسل معه السلطان الامير قشتمر المنصورى ليوصله الى بلاده فلما وصل الى الينبع أراد الملك المجاهد أن يقتل الامير قشتمر ويهرب من هناك فقبض عليه الامير قشتمر ورجع به الى القاهرة فتغير عليه خاطر السلطان بسبب ذلك فقيده وأرسله الى السجن بقلعة الكرك وفيها فى يوم الاحد سابع عشر جمادى الآخرة وثب الامراء على السلطان ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل وكان رأس الفتنة الامير طاز المنصورى والامير بيبغا الشمسى والامير سفر الناصرى فطلع الامير طاز ومعه جماعة من الامراء فطلعوا الى القلعة وهم راكبون الى الحوش السلطانى فقبضوا على السلطان الملك الناصر حسن وسجنوه بالقلعة فى مكان داخل دور الحرم فأقام به الى حين عوده الى السلطنة كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى فكانت مدة سلطنة الملك الناصر حسن فى هذه المرة بالديار المصرية ثلاث سنين وتسعة أشهر وهى السلطنة الاولى ثم تولى من بعده أخوه صالح انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر حسن وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك الصالح صلاح الدين صالح

ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون وهو تمام العشرين من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو الثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون بويع بالسلطنة بعد أخيه الملك الناصر حسن فى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وكان مولده بقلعة الجبل فى شهر ربيع الاول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وأمه خوند قطلوملك بنت الامير تنكز نائب الشام وكان سبب سلطنته ان الملك الناصر لما خلع من السلطنة تعصب الامير طاز وسلطن الملك الصالح فجلس على سرير الملك وتلقب بالملك الصالح ونودى باسمه فى القاهرة وضج له الناس بالدعاء فلما تم أمر سلطنة الملك الصالح صار الامير طاز صاحب الحل والعقد واجتمعت فيه الكلمة وصار الملك الصالح معه مثل المولب بديره كيف شاء وليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط فوقع بين الامراء الخلف وأضمروا السوء للامير طاز ودبت بينه وبينهم عقارب الفتن فوثب عليه جماعة من الامراء ولبسوا آلة الحرب وتوجهوا الى القصر فلما بلغ الامير طاز ذلك أركب السلطان ونزل من القلعة فى جماعة من الامراء ومن المماليك السلطانية ودقت الكوسات حربيا وزعق النفير ومشى السلطان تحت الصنجق ونودى فى القاهرة من وجد مملوكا من مماليك الامير منكلى بغا الفخرى والامير مغلطاى فيقتله حيث وجد فى

أى مكان كان فقتل فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من المماليك وأخذوا خيولهم وقماشهم وسلاحهم ثم زحف السلطان والامير طاز ومن معهما من الامراء والعسكر وتوجهوا الى قبة النصر فوقع بينهم القتال عند خليج الزعفران قرب المطرية فكان بين الامراء واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة من المماليك ثم ان الامير منكلى بغا الفخرى والامير مغلطاى انكسرا وهربا فى بعض بساتين المطرية فقبضوا عليهما فى أواخر النهار فرسم السلطان بسجنهما فى خزانة شمايل ثم أرسلهما الى السجن بثغر الاسكندرية ورسم بالافراج عن الامير شيخو العمرى والامير منجك اليوسفى وكانا بالسجن بثغر الاسكندرية فأفرج عنهما وحضرا الى الابواب الشريفة وطلعا الى القلعة فأنعم السلطان على الامير شيخو فى ذلك اليوم بتقدمة ألف وكذلك الامير منجك اليوسفى ثم ان السلطان أرسل بالافراج عن الامير بيبغا أروس وكان بالسجن فى قلعة الكرك فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب حلب ثم خلع على الامير أرغون الكاملى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية وفى هذه السنة توفى ابن اللبانة الشاعر وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ومن لطائف قوله

هلا نظرت الى قلب مشفق * لترى فراشا فى فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذى لا يرتجى * وبقيت كالنفس الذى لا يلحق
لو فى يدى سحر وعندى همة * لجعلت قلبك كل يوم يعشق
لتذوق ما قد ذقت من ألم الهوى * فترق لى مما تراه وتشفق

وفيها توفى الامام العالم العلامة شيخ الاسلام شمس الدين بن قيم الجوزية وكان له مصنفات كثيرة فى العلوم الجليلة ۞ ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فيها جاءت الاخبار من حلب بان الامير بيبغا أروس قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان وكذلك الامير بكلمش نائب طرابلس وكذلك الامير أحمد نائب حماه وكذلك الامير الطنبغا برناق نائب صفد فأرسل نائب الشام الامير أرغون الكاملى يخبر السلطان بما قد جرى من النواب ثم بعد ذلك بأيام يسيرة جاءت الاخبار بان نائب حلب وصل الى الشام وحاصر المدينة فلما رأى نائب الشام عين الغلبة هرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه الى نحو غزة فأقام بها فأرسل يعلم السلطان والامراء بذلك ثم جاءت الاخبار بان بيبغا أروس لما دخل الى الشام وقف تحت القلعة ومعه من تقدم ذكرهم من النواب فاستعرض هناك العسكر الشامى والعسكر الحلبى فكان مع الامير بيبغا أروس من النواب والامراء نحو ستين أميرا غير العساكر الحلبية والشامية وغير ما التف عليه من العربان والعشائر فقويت شوكته فلما فرغ من العرض نزل عند قبة بيبغا وأرسل الى نائب قلعة دمشق وهو الامير ايابجى يطلب

منه أميرا كان مسجونا بقلعة دمشق فأرسل اليه الامير ايا جى يعتذر له عن ذلك بان هذا فى
سجن السلطان ولا أقدر على اطلاقه من السجن الا بمرسوم السلطان ثم ان نائب قلعة
دمشق حصن القلعة تحصينا عظيما و ركب عليها المكاحل بالمدافع وأرسل يقول لاهل
المدينة لا تفتحوا دكانا ولا سوقا ولا تبيعوا على عسكر حلب شيأ فلما بلغ الامير بيبغا
أروس ذلك اشتد به الغضب و أمر عسكره بان ينهبوا ضياع دمشق والبساتين ويقطعوا
الاشجار فلما سمعوا هذه المناداة ما أبقوا ممكنا من الاذى والفساد فنهبوا حتى النساء والبنات
والقماش وجرى على أهل دمشق من بيبغا أروس مالم يجر عليهم من عسكر غازان لما ان
دخل الى دمشق فلما جاءت الاخبار بذلك الى السلطان علق الجاليش وتجهز للخروج الى
دمشق ثم عين الامير عمر شاه وهو صاحب القنطرة وعين محمد بن بكتمر الساقى والامير
قارى الحموى بان يخرجوا الى الصعيد قبل خروج السلطان لحفظ البلاد من فساد
العربان وصون الغلال فخرجوا من يومهم ثم ان السلطان خرج من القاهرة قاصدا نحو
البلاد الشامية فطلب طلبا عظيما وخرج معه من يذكر من الامراء وهم الامير طاز
والامير شيخو العمرى والامير صرغتمش والامير استدمر العمرى وأخوه الامير طاز
والامير جردمر والامير قرابغا والامير بجاص والامير تجا السلحدار والامير طشتمر القاسمى
والامير سنقر المحمدى والامير قطلوبغا الذهبى وبقية الامراء المقدمين وكان مع السلطان
الطبلخانات والعشراوات نحو ثمانين أميرا ثم ان السلطان ترك فى القاهرة الامير قبلاى
نائب السلطنة ومعه ثلاثة أمراء لصون المدينة ثم خرج السلطان من القاهرة فى يوم
الثلاثاء سابع شهر شعبان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وكان صحبته القضاة الاربع
والخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ابن المستكفى بالله ابن الامام احمد الحاكم بأمر الله وسائر
العسكر قاطبة فكان وصول السلطان الى دمشق فى شهر رمضان فنزل بالقصر الابلق الذى
فى الميدان وصلى الجمعة فى جامع بنى أمية وكان الامير بيبغا أروس لما بلغه وصول الملك
الصالح الى دمشق رحل عنها ثم ان السلطان طلع الى قلعة دمشق وأقام بها وأمر جماعة
من الامراء والعسكر بأن يتوجهوا خلف الامير بيبغا ومن معه من النواب فخرجوا اليهم
وتقاتلوا معهم فلما كان ثالث شهر شوال جاءت الاخبار من عند السلطان بانه قد انتصر على
الامير بيبغا أروس وانكسر بيبغا وهرب الى بلاد التراكمه وقبض على جميع من كان معه
من النواب والعسكر ودخلوا بهم الى دمشق وشهم فى جنازير وقيود وكان لهم فى دمشق
يوم مشهود لم يسمع بمثله ثم ان السلطان جلس فى القصر الابلق بالميدان واجتمع الامراء
عنده فى القصر ودخل العسكر الى الميدان ثم أحضروا النواب بين يدى السلطان فعاتبهم
على ما فعلوا ثم أمر بتوسيطهم فوسطوا ستة من الامراء وهم الطنبغا برقاق نائب صفد وهو

صاحب الدرب المنسوب اليه والامير طنبغا الاوجاقي المعروف بحلاوه والامير مهدي العلائي شاد الدواوين بحلب والامير استبغا التركماني والامير الطنبغا شاد الشر بخاناه والامير شادي أخو الامير احمد نائب حماه ثم أراد أن يوسط الامير بكتمر السعيدي فشفع فيه الامراء فحبس بقلعة دمشق ثم ان السلطان قصد أن يتوجه نحو الديار المصرية فخرج من الشام بعد ما عزل من عزل وولى من ولى وسار حتى دخل القاهرة في أواخر شوال من السنة المذكورة فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا وزينت له وحملت على رأسه القبة والطير وفرشت له الشقق الحرير من باب النصر الى القلعة وهو في غاية العز والنصرة والامراء مشاة بين يديه ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب ونثروا عليه الذهب والفضة وضج له الناس بالدعاء وكان محبا للرعية قليل الاذى فلما استقر بالقلعة ومضى عليه أيام يسيرة قبض على الصاحب علاء الدين بن زنبور وكان قد عظم أمره ونمت أمواله واجتمع فيه من الوظائف السنية مالم يجتمع في غيره فكان وزيرا وناظر الجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريفة فتعاظم على الناس بقوة البأس وفيه يقول الاديب سميكة الشاعر

هذا ابن زنبور الصاحب * في الناس ما أكثر سمه

يامن درى زنبور ايش كان * زنبور أبوه ولا أمه

فلما قبض عليه السلطان ضربه ضربا شديدا وقيده ونفاه الى قوص واحتاط على موجوده من صامت وناطق فكان كما قيل في المعنى

ومباشر السلطان شبه سفينة * في البحر ترجف دائما من خوفه

ان أدخلت من مائه في جوفها * ادخلها وماءها في جوفه

قال قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة رحمة الله عليه وقفت على قوائم فيها ما ضبط من موجود الصاحب علاء الدين بن زنبور وهو قماش ملون ما بين صوف وحرير ألفان وستمائة قطعة منها مفرى بسمور ووشق وسنجاب وقاقوم ألفا قطعة جنداب بوجهين ستمائة قطعة جبينات خمسة آلاف قطعة أواني ذهب وفضة زنتها نحو ستين قنطارا صناديق ضمنها فصوص ملون ما بين ياقوت والماس وعين هر وحبات لؤلؤ كبار وزن ذلك نحو قنطارين وكسور صناديق ضمنها لؤلؤ حب فاعتبروه بالكيل فكان نحو أردبين بالمصري صناديق ضمنها ذهب عين جملته ستمائة ألف دينار حوائص ذهب ستة آلاف حياصة كلوتات زركش ستة آلاف كلوته ووجد له ودائع عند الناس في اماكن عدتها ستة وثلاثون مكانا ما يعلم ما في الصناديق التي وجدت بها ووجد له فضة نقرة محررة بالكيل فكانت ثلاثين أردبا بالمصري حواصل فيها شاشات العدة ثلثمائة ألف شاش حواصل فيها بسط رومي وسقاعة من سائر الالوان خمسة وثلاثون ألف قطعة انطاع كبار وصغار ثلاثون ألف نطع ومن الخيول

والبغال والجمال عشرون ألف رأس ووجد له فى خبية تحت سلم سبعمائة ألف دينار ووجد له عبيد وجوار سبعمائة رأس ومن المماليك الروم خمسون مملوكا ومن الخدام الخصى مائة رأس ووجد له فى حاصل نحو من ثلاثين ألف قطعة صينى ما بين لازورد وأخضر وشفاف ووجد له من النحاس الاصفر المكفت والنحاس الابيض نحو من أربعين ألف قطعة ووجد له من الاملاك والضياع والمسقفات سبعة آلاف مكان قومت بثلثمائة ألف دينار ووجد له من المعاصر خمسة وعشرون معصرة وبها من القنود السكر مالا ينحصر وزنه ووجد لاولاده اقطاعات حلقة سبعمائة اقطاع ووجد له فى حاصل من السروج الذهب والفضة والكبابيش الزركش والبدلات وعدد الخيل قوموا ذلك بثلاثين ألف دينار ووجد له مخازن فيها بضائع وبهار قوموا ذلك بأربعمائة ألف دينار ووجد له من المراكب ستمائة مركب ووجد له من البساتين والغيطان مائتا بستان ووجد له من السواقى فى البلاد ألف وأربعمائة ساقية ووجد له من الابقار الحلابة والاغنام السياق ثلثمائة ألف رأس ووجد له من الغلال ما بين قمح وشعير وفول مالا ينحصر كيله ووجد له ودائع كثيرة عند الناس من قماش ونحاس ومال وغير ذلك مما لا ينحصر قدره والذى ضاع له عند الناس والغلمان ونحو ذلك شئ لا ينحصر وكان له أربع نسوة ومائتا سرية وهذا الموجود لم يسمع بمثله ولا عند الخلفاء وآخر الامر انهم أخذوا ماله جميعه ونفى الى قوص فأقام بها الى أن مات ودفن بقوص ولم يعلم له مكان قبر وزالت الدنيا عنه كما زالت عن غيره كما قيل فى الامثال المال كالماء من استكثر منه غرق فيه وقال بعضهم

خذ القناعة من دنيا العوارض بها * واختر لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مما سمعت به * هل ناله غير بعض القطن والكفن

وقال الزمخشرى رحمه الله

وقائلة أرى الايام تعطى * لئام الناس من رزق خبيث

وتمنع من له شرف وفضل * فقلت لها خذى أصل الحديث

رأت جل المكاسب من حرام * فجادت بالخبيث على الخبيث

انتهى ذلك * وفى هذه السنة توفى الشيخ الامام العالم العلامة زين الدين عمر بن المظفر بن الوردى المعرى الكندى وكان من أعيان علماء الشافعية وله مصنفات كثيرة منها كتاب البهجة وغير ذلك وكان فريد عصره ووحيد دهره وله نظم ونثر رضى الله عنه قال الشيخ عماد الدين اسمعيل بن كثير فى تاريخه ان الشيخ زين الدين بن الوردى دخل الى الشام وكان ضيق المعيشة رث الهيئة ردىء المنظر فحضر الى مجلس القاضى نجم الدين بن صصرى من جملة

الشهود فاستخفت به الشهود وأجلسوه فى طرف المجلس فحضر فى ذلك اليوم مبايعة مشترى ملك فقال بعض الشهود أعطوا المعرى يكتب هذه المبايعة على سبيل الاستهزاء به فقال الشيخ زين الدين اكتبه لكم نظما أو نثرا فازدادوا استهزاؤهم به فقالوا والله بل اكتب لنا نظما فأخذ ورقة وقلما وكتب فيها هذا النظم اللطيف وهو

باسم الله الخلق هذا ما اشترى * محمد بن يونس بن سنقرا
من مالك بن أحمد بن الازرق * كلاهما قد عرفا من جلق
فباعه قطعة أرض واقعه * بكورة الغوطة وهى جامعه
بشجر مختلف الاجناس * والارض فى البيع مع الغراس
وذرع هذى الارض بالذراع * عشرون فى الطول بلا نزاع
وحدّها من قبله ملك التقى * وحاير الرومى حدّ المشرق
ومن شمال ملك أولاد على * والغرب ملك عامر بن جهبل
وهذه تعرف من قديم * بأنها قطعة بيت الرومى
بيعا صحيحا ماضيا شرعيا * ثم شراء قاطعا مرعيا
بثمن مبلغه من فضه * وازنة جيدة مبيضه
جارية للناس فى المعامله * ألفان منها النصف ألف كامله
وسلم الارض الى من اشترى * فقبض القطعة منه وجرى
بينهما بالبدن التفرق * طوعا فما لاحد تعلق
ثم ضمان الدرك المشهور * فيه على بائعه المذكور
وأشهدا عليهما بذاك فى * رابع عشر رمضان الاشرف
من عام سبعمائة وعشره * من بعد خمسة تليها الهجره
والحمد لله وصلى ربى * على النبى وآله والصحب
يشهد بالمضمون من هذا عمر * ابن المظفر المعرّى اذ حضر

فلما فرغ الشيخ من نظمه ووضع الورقة بين يدى الشهود تأملوا هذا النظم مع سرعة الارتجال فقبلوا يده واعتذروا اليه من التقصير فى حقه واعترفوا بفضيلته عليهم ثم ان الشيخ قال لبعض الشهود فى المجلس سد فى هذه الورقة بخطك فقال له ياسيدى أنا ما أحسن النظم فقال له ما اسمك فقال له أحمد بن رسول فكتب الشيخ عنه وهو يقول

قد حضر العقد الصحيح أحمد * ابن رسول وبذاك يشهد

انتهى ذلك * وتوفى فى هذه السنة الشيخ شمس الدين الذهبى المؤرخ وتوفى الشيخ أثير الدين أبو حيان المغربى وكان مالكى المذهب فلما دخل الى مصر تقلد بمذهب الشافعى رضى

الله عنه فسئل عن ذلك فقال بحسب البادة وكان عالما فاضلا ناظما ناثرا وله شعر جيد ومن شعره اللطيف قوله

بدرتم له على الخد خال * فى احرار ينشق منه الشقيق
كتب الحسن بالمحقق معنا * ولكن عذاره تعليق

انتهى ذلك (ثم دخلت سنة أربع وخمسين وسبعمائة) فيها توفى الخليفة الامام الحاكم بأمر الله تعالى أحمد ابن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد فلما مات تولى من بعده ابنه أبو بكر وتلقب بالمعتضد بالله وكان له مشهد عظيم وصلى عليه السلطان الملك الصالح وفيها حضروا برأس الامير بكلمش نائب طرابلس ورأس الامير بيغاروس نائب حلب ورأس الامير أحمد نائب حماه وكانوا هربوا من الملك الصالح لما توجه الى الشام كما تقدم فلما هرب أولئك النواب توجهوا الى بلاد التركمان فقطعوا رؤسهم وأرسلوهم الى السلطان فرسم بأن يعلقوا على باب زويلة فعلقوا عليه ثلاثة أيام وفى هذه السنة جاءت الاخبار من بلاد الصعيد بأن العربان أظهروا الفساد وعصوا ونهبوا جميع الغلال وقتلوا العمال وكان كبير العربان شخصا يسمى ابن الاحدب شيخ قبيلة عرك فاجتمع عليه قبائل كثيرة من العربان حتى سدوا الفضاء فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت الاحوال وخرج اليهم السلطان بنفسه وسائر الامراء قاطبة وكان جاليش العسكر الامير طاز والامير شيخو العمرى والامير صرغتمش الناصرى فلما تقدموا امام العسكر وقع بينهم وبين العربان واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها وقيل مات من العربان نحو النصف وانكسر شيخهم ابن الاحدب وصار الامير شيخو يقطع رأس كل من رآه من الفلاحين يقول دكيك حتى بنى من رؤس العربان مساطب ومواذن على شاطئ البحر ثم ان الامراء مشوا وراء العربان الذين هربوا مسيرة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج ثم رجع الامراء والسلطان الى الديار المصرية ومعهم ألف رأس من أكابر العربان وقد غنموا منهم غنائم كثيرة من خيول وجمال وأغنام وسيوف ودرق وغير ذلك فلما دخل السلطان الى القاهرة كان له يوم مشهود فلما طلع الى القلعة رسم بتوسيط الاسرى من العربان فوسطوا نحو سبعمائة انسان ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن الفلاح لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا ثم ان ابن الاحدب كبير العربان شيخ العرك الذى قد هرب أرسل يطلب من السلطان الامان بأن يقابل فأرسل له السلطان أمانا فحضر الى الابواب الشريفة فخلع عليه السلطان خلعة وأقره على عادته شيخ العركى كما كان وتوجه الى بلاده وفى ذلك يقول بعض الشعراء

ماهادن السلطان أعداءه * الالامر فيه اذلالهم

حتى له تكثر أموالهم * وللسبا تكثر أطفالهم

وفى هذه السنة نادى السلطان فى القاهرة بأن لا يستعان بيهودى ولا نصرانى فى ديوان وان تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير وانهم لا يركبون مع مكارى مسلم واذا مروا بالمسلمين ينزلون عن الحمير ويظهرون المسكنة وانهم لا يدخلون الحمام الا بصليب فى أعناقهم وشرط عليهم أشياء كثيرة من هذا النمط وفيها خلع السلطان على الامير ارغون الكاملى واستقر به نائب حلب عوضا عن بيبغاروس فلما توجه الامير ارغون الى حلب بجرد الى قراجا بن ذو الغادر أمير التركمان وكان ذنب قراجا انه وافق بيبغاروس على العصيان فلما وصل اليه الامير ارغون هرب منه فتبعه الامير ارغون الى أطراف بلاد الروم فقبض عليه وأرسله الى السلطان فلما حضر الى القاهرة ومثل بين يدى السلطان أمر بتسميره فسمروه على جمل وطافوا به مصر والقاهرة ثم وسطوه فى الرميلة بسوق الخيل ثم دفنوه انتهى (ثم دخلت سنة خمس وخمسين وسبعمائة) فيها توفى القاضى شهاب الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية والبلاد الشامية وكان عالما فاضلا ناظما ناثرا وله شعر جيد وصنف كتابا فى صناعة التوقيع وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين وبه يقتدون ومما وقع للقاضى شهاب الدين هذا انه رثى نفسه قبل أن يموت بهذين البيتين ووجدا فى دواته بعد موته

قلت لاقلامى اكتبى وانطقى * فقالت الاقلام واسوأتاه

وشقت الالسن من حزنها * وولولت واسود وجه الدواه

ومن الحوادث فى هذه السنة انه فى يوم الاثنين ثانى شوال وثب جماعة من الامراء على الملك الصالح وكان الامير طاز قد توجه الى نحو البحيرة ليتصيد فاغتنم الامراء هذه الفرصة فركب فى ذلك اليوم الامير شيخو العمرى وجماعة من الامراء وهجموا على السلطان الملك الصالح وخلعوه من الملك وسجنوه بدور الحرم من يومه وزال ملكه كأنه ما كان فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية الى أن خلع من السلطنة ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما وكان ملكا عظيما دينا خيرا حسن السيرة ساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة وكانت الناس عنه راضية وكانت أيامه كلها خيرا وعدلا وكان قليل الاذى كثير الخير ولما خلع من السلطنة اشتور الامراء فيمن يولونه سلطانا فوقع الاتفاق على عود الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون أخى الملك الصالح فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الصالح صلاح الدين صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وذلك على سبيل الاختصار والله أعلم

ذكر عود الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

وهى السلطنة الثانية فلما خلع الملك الصالح صالح من السلطنة وقع الرأى على عود الملك الناصر حسن فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه وذلك فى يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة فلما جلس على سرير الملك هنأه الشيخ جمال الدين بن نباته بهذه الابيات وهى قوله

عد على النصر والسعادة يامن * رفع الله فى السلاطين شانه
أنت سهم لله ما كان يخلى * منه أوطان مصر وهى كنانه

قال الشيخ شهاب الدين بن حجلة التلمسانى ان الملك الناصر حسن وافق والده فى سبعة أشياء وقعت له أولها أنه وافقه فى اللقب لان والده تلقب بالناصر وهو أيضا تلقب بالناصر الثانى أنه ترك الملك وعاد اليه ووالده ترك الملك وعاد اليه الثالث أنه جلس على سرير الملك فى المرة الاولى فى رابع عشر الشهر ووالده جلوسه فى المرة الاولى كان فى رابع عشر الشهر الرابع انه لما عاد الى الملك جلس على سرير الملك فى ثانى شوال ووالده كذلك الخامس انه وزرله متعمم ورب سيف ووالده أيضا وزرله متعمم ورب سيف السادس انه أقام مدة بلا وزير ووالده أقام مدة بلا وزير السابع أنه أقامت مصر فى أيامه مدة بلا نائب سلطنة ووالده أيضا أقامت مصر فى أيامه مدة بلا نائب سلطنة وهذا من غريب الاتفاق فلما عاد فى هذه المرة غاب كالبدر فى سحابه ورجع كالسيف المسلول من قرابه نخضعت له الرقاب وضرب بين الظلم وقلعته بسور له باب وأنشده الدهر * بغيرك راعيا عبث الذئاب * فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى سيف الدين شيخو العمرى الناصرى واستقر به أميرا كبيرا وهو أول من سمى بأمير كبير ولبس لها خلعة وصارت من يومئذ وظيفة مستقلة ثم خلع على المقر السيفى عز الدين ازدمر العمرى الناصرى المسمى أبو ذقن الشهير بالخازندار واستقر به أمير سلاح بالديار المصرية (أقول) والامير ازدمر هذا هو جد والد مؤلف هذا التاريخ وكان جد والده لامه ثم خلع على الامير صرغتمش واستمر رأس نوبة النواب على عادته فصار الامير شيخو والامير صرغتمش فى دولة الناصر حسن صاحبى الحل والعقد ومدبرى المملكة وكانت عظمة الاتابكى شيخو فى دولة الملك الناصر حسن ثم ان الامير طاز الدوادار الكبير حضر عقيب ذلك من البحيرة وقد تقدم انه توجه للصيد فلما حضر قبضوا عليه

وقيدوه وسجنوه بالقلعة هو وأخوه فأقام فى السجن أياما ثم ان بعض الامراء شفع فيه فأفرج عنه وخلع عليه واستقر به نائب حلب فخرج اليها من يومه وفى هذه السنة خلع على القاضى تقى الدين السبكى واستقر به قاضى القضاة الشافعية بدمشق فلما توجه الى دمشق وخرج من القاهرة قال فيه ابراهيم المعمار

مصر للسبكى قالت * سر فلا عدت اليا
عذت بالرحمن ربى * منك ان كنت تقيا

وفيها خلع على القاضى علاء الدين بن فضل الله العمرى واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية على عادته وفيه يقول المعمار أيضا

لابن فضل الله فضل * عم الناس ووفى
كيف لا وهو على * علم السر وأخفى

(ثم دخلت سنة ست وخمسين وسبعمائة) فيها أنشأ المقر السيفى شيخو جامعا وخانقاه بالصليبة الطولونية وأنشأ بها حمامين وربوعا وداكاكين ولما كملت عمارة الخانقاه قرر بها شيخا يحضر فى كل يوم من بعد العصر وصوفية يحضرون معه وكان الشيخ الذى قرره شيخ الاسلام الشيخ أكمل الدين الحنفى وكان من اكابر العلماء الحنفية وقد خضعت له الناس لفضله وزهده وكان بارعا فى العلوم وفيه يقول ابن أبى حجلة التلمسانى

شيخ تقدم فى العلوم لانه * ان عد أرباب الفضائل أول
ما قيل هذا كامل فى ذاته * الا وقلت الشيخ عندى أكمل

ثم ان شيخو أوقف على هذه الخانقاه والجامع أوقافا كثيرة وشرط فى وقفه محاسن جميلة وجعل النظر على تلك الاوقاف لمن يكون رأس نوبة النواب بالديار المصرية وللشيخ الخانقاه المشاركة معه فى النظر وقرر للصوفية الخبز والطعام فى كل يوم والحلوى العجمية فى كل شهر وغير ذلك من الجوامك والمرتبات للصوفية وجعل فى الخانقاه تدريسا وقراءة سبع فى كل يوم قال فى معنى ذلك ابن أبى حجلة

ومدرسة للعلم فيها مواطن * فشيخو بها فرد وايشاره جمع
لترباتها فيها القلوب مهابة * فوا فقها الليث وأشياخها سبع

(ثم دخلت سنة سبع وخمسين وسبعمائة) فيها من الحوادث ان ربعا وقع عند جامع قوصون على ثلاثين نفسا من نساء ورجال فمات منهم ثلاثة وعشرون انسانا وسلم منهم سبعة فقيل ان السبعة الذى سلموا من الردم سافروا فى ذلك الشهر الى نحو بلاد الصعيد فى مركب فهبت عليهم ريح شديدة فغرقت بهم المركب ولم يسلم منهم أحد * فمن لم يمت بالسيف مات بغيره * وفى هذه السنة ابتدأ السلطان الملك الناصر حسن بعمارة مدرسته التى فى سوق الخيل

قباء القلعة وكان مكانها قصر تيبغا اليحياوى نائب الشام فهدمه وبنى مكانه هذه المدرسة التى لم يعمر مثلها فى الاسلام وقيل ان ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى أنوشروان فى الطول والعرض وهذه المدرسة تشتمل على أربعة مدارس لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به وقيل ان بعض الناس كان مسافرا فى البحر المالح فى شهر رمضان فرأى قنديل هلال مأذنة هذه المدرسة من البحر المالح وقيل ان أخشاب أساقيل العمارة قومت بمائة ألف دينار وبالجملة ان بناء مدرسة السلطان حسن دال على أفعاله وعلى علو قدر همته بين الملوك المصرية وقد قال فيه ابن أبى حجلة

لسنا وان كرمت أوائلنا * يوما على الانساب نتكل

نبنى كما كانت أوائلنا * تبنى ونفعل فوق مافعلوا

ولما كملت عمارة هذه المدرسة كان لها يوم مشهود واجتمع بها فى يوم الجمعة القضاة الاربعة وسائر الامراء وأعيان الناس وملئت الفسقية التى بصحن المدرسة سكرا بماء الليمون ووقف رؤس النواب يفرقون السكر على الناس بالطاسات ونزل السلطان وصلى بها الجمعة وخلع على البنائين والمهندسين الخلع السنية وأنعم على الفعلة لكل واحد عشرة دنانير وقال الشيخ جمال الدين ابن نباته فى المعنى

امام الورى هنئت بالجامع الذى * وجدت الى مبناه سعدا موافقا

دعا حسنه أهل الصلاة لقصده * فلا غرو ان جاء المصلى سابقا

وقيل ان السلطان لما حفر أساس هذه المدرسة وجد فى الارض مالا مدفونا فصرفه على عمارة هذه المدرسة فعمرت من وجه حل وقيل لما حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب قيل كان البحر هناك انتهى ذلك ❁ ومن الحوادث فى هذه السنة أن هبت ريح عاصف من جهة الغرب حتى أظلم الجو ظلمة شديدة وهدمت الرياح عدة أماكن وقلعت الاشجار من الارض بعروشها واستمر ذلك من أوائل النهار الى أن طلع الفجر فسكن الريح وأمطرت السماء وأسفر الجو وفى هذه السنة جاءت الاخبار من بغداد بان القان حسن صاحب بغداد قد توفى الى رحمة الله تعالى وتولى أويس ابنه عوضا عنه وفيها توفى الشيخ شهاب الدين بن عقيل والحافظ العلامة مغلطاى (ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وسبعمائة) فيها قتل الاتابكى شيخو العمرى أمير كبير وسبب ذلك ان شخصا من المماليك السلطانية يسمى قطلوقجا السلحدار غافل الاتابكى شيخو وهو فى الايوان فى يوم الموكب فضربه بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات فوقع الاتابكى الى الارض مغشيا عليه فلما جرى ذلك قام السلطان من مجلسه وهو مرعوب فطلع مماليك الاتابكى شيخو وصهره الامير خليل بن قوصون الى القلعة وحملوا الاتابكى شيخو على جنوبة ونزلوا به الى بيته فوجدوا

به بعض رمق فحيطوا به واحتاطوه وكان ذلك في يوم الاثنين حادي عشري شعبان فلما بات في تلك الليلة في بيته نزل له السلطان ثاني يوم يسلم عليه فنزل عن فرسه ودخل الى الاتابكي في المكان الذي كان به فلما سلم عليه السلطان صار يحلف له ان ذلك لم يكن بعلمه ولا له خبر بما جرى ثم ان السلطان أحضر ذلك المملوك الذي ضرب شيخو وقال له هل أغراك على ذلك أحد من الامراء فقال لا والله ما أغراني أحد على ذلك وانما قدمت للامير شيخو قصة بسبب اقطاع فأخرج ذلك الاقطاع لشخص من جماعته فتغير خاطري منه ففعلت ذلك من قهري منه فرسم السلطان بتسمير ذلك المملوك قطلوقجاه الذي ضرب شيخو فسمروه وطافوا به في القاهرة ثم وسطوه في الرميلة قدام مماليك شيخو وكان عدة مماليك شيخو سبعمائة مملوك ثم ان شيخو استمر ملازم الفراش وهو عليل حتى مات يوم الجمعة سادس عشري ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وقد استمر عليلا في الفراش ثلاثة أشهر وأياما وكانت جنازته مشهودة ونزل السلطان وصلى عليه وحضر دفنه ودفن في خانقاته التي في الصليبة داخل القبة وطلعوا بجنازته من بيته الذي عند حدرة البقر فصلوا عليه في سبيل المؤمنين ورجعوا بالجنازة من رأس الصليبة الى خانقاته التي دخل بها السلطان قدام نعشه ماشيا حتى دفن فكثر عليه الاسف والحزن من الناس واتفق ان في ذلك اليوم زلزلت الارض زلزلة خفيفة وأمطرت السماء مطرا غزيرا وذلك في وسط قلب الصيف فقال بعض الشعراء في هذه الواقعة

بروحي من أبكى السماء لفقده * بغيث ظننناه نوال يمينه
وما استعبرت الأسا وتأسفا * والا فما اذا القطر في غير حينه

وقد رثاه بعض الشعراء بقوله

لما أفلت عن المنازل أظلمت * تلك الديار وغاب عنها المشفق
وتقول مصر لفقد شيخو شفني * ارق على ارق ومثلي يأرق

وكان شيخو أميرا خيرا دينا كثير الخير قليل الاذى وله بر ومعروف ولا سيما هذه الخانقاه والجامع الذي في الصليبة وما قرر فيهما من وجوه الخير والاحسان كما تقدم انتهى ذلك (ثم دخلت سنة تسع وخمسين وسبعمائة) فيها ترايدت عظمة المقر السيفي سيف الدين صرغتمش رأس نوبة النوب وصار في رتبة الاتابكي شيخو صاحب الحل والعقد بالديار المصرية فأرسل بالقبض على الامير طاز نائب حلب من غير علم السلطان وأرسله من هناك الى السجن بثغر الاسكندرية فانه كان بينه وبين الامير طاز حظ نفس من أيام الملك الصالح وكان الاتابكي شيخو يرده عن الامير طاز فلما مات شيخو قضى منه الامير صرغتمش أربه وقيده ونفاه الى الاسكندرية فلما جرى ذلك خلع السلطان على الامير منجك اليوسفي

واستقر به نائب حلب عوضا عن الامير طاز ثم ان الامير صرغتمش أشار بضرب فلوس جدد كل فلس بدرهم وشئ بدرهمين وشئ بمثقال فثقل أمر ذلك على الناس وتضررمنه السوقة وغلت سائر البضائع بسبب ذلك ووقف حال الناس وقد قال بعض الشعراء

أميرنا أكرم من حاتم * لايمنع السائل من فلسه

تقضى به حاجة من رامه * نخذه طوعا واخش من بأسه

ومن الحوادث فى هذه السنة رفعت قوائم الى الامير صرغتمش من ديوان الاحباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والديور فكان قدر تلك الحصص خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى فلما سمع الامير صرغتمش بذلك حنق وطلع الى القلعة وشاور السلطان على ذلك فرسم السلطان بان يخرج ذلك من يد النصارى وكتب بذلك مربعات وأنعم بها على الامراء زيادة على اقطاعاتهم ففرقت عليهم تلك المربعات الشريفة وبطل ما كان بيد النصارى من تلك الرزق ثم ان السلطان رسم بهدم الكنائس والديور وكان فى شبرا كنيسة عظيمة على شاطئ بحر النيل وكان بتلك الكنيسة صندوق من الخشب مقفول بقفل من حديد وفى داخله اصبع بعض من هلك من عباد النصارى يسمونه الشهيد وكان هذا الاصبع مقيما بتلك الكنيسة دائما وكان النصارى يتوارثونه من قديم السنين فاذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية أخرجوا ذلك الاصبع من الصندوق وغسلوه فى بحر النيل ويزعمون أن النيل لايزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الاصبع ويسمونه عيد الشهيد ويكون لذلك اليوم عيد ترحل اليه سائر النصارى من جميع القرى وتخرج عامة أهل مصر من غنى وصعلوك وينصبون الخيام على شاطئ بحر النيل بشبرا وفى الجزائر ولايبقى مغنٍ ولامغنية ولارب ملعوب ولاماجن ولاخليع الاويجتمع هناك فيجتمع عالم لايحصى عددهم وتصرف هناك أموال لاتحصر ويتجاهرون هناك بالمعاصى والفسوق وشرب الخمور وربما كان يقتل فى ذلك اليوم جماعة من الناس ولايوجد مايمنع من ذلك لامن وال ولامن حاجب وكانت أهل مصر يستعدون لذلك اليوم فى كل سنة دائما من قديم الزمان حتى قيل كان يباع بشبرا فى مدة ثلاثة أيام بالف دينار خمر وكان فلاحو شبرا الايغلقون خراج أطيانهم الامما يبيعونه على الناس فى يوم عيد الشهيد وكان أعيان القبط والمباشرين وأعيان الناس من المسلمين والامراء يكرون المراكب حتى مايبقى فى البحر مركب ويوقدون فيها الشمع والقناديل فى الليل حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب وكان الناس يعتقدون ان النيل لايزيد الابالقاء هذا الاصبع فيه فقام الامير صرغتمش فى ابطال ذلك قياما عظيما وأرسل الحاجب والامير علاء الدين بن الكورانى الوالى الى شبرا ومنع الناس من نصب الخيام على شاطئ البحر

وأشهر النداء هنالك بمنع ذلك ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة وكان ذلك من أجل متفرجات مصر لم يسمع بمثله فى اللهو والقصف والفرجة ثم ان الامير صرغتمش أمر بهدم تلك الكنيسة فهدموها وأحضروا ذلك الصندوق الذى فيه اصبع الشهيد الى ما بين يدى السلطان الملك الناصر حسن فلما كان يوم الاثنين خامس عشر ربيع الاول جلس السلطان فى الميدان الذى تحت القلعة وأحضر ذلك الصندوق الذى فيه اصبع الشهيد وأمر بحرقه بحضرة الامراء ورسم بان يذر رماد ذلك الاصبع فى بحر النيل ففعلوا ذلك وبطل من يومئذ أمر عيد الشهيد وما كان يحصل فيه من المفاسد العظيمة وزاد النيل فى تلك السنة زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها وزال من ظن الناس ان النيل لا يزيد الا بالقاء ذلك الاصبع فيه وبطلت السيئة فى تلك السنة على يد المقر السيفى صرغتمش رأس نوبة النوب وأتابكى العساكر وسطر ذلك فى صحيفته الى يوم القيامة كما قيل فى المعنى

للخير أهل لا تزال * وجوههم تسعى اليه
طوبى لمن جرت الامو * ر الصالحات على يديه

(ثم دخلت سنة ستين وسبعمائة) فيها توفى الامير تنكز بغا الماردينى أحد الامراء المقدمين وكان صهر الملك الناصر حسن فلما مات أنعم السلطان باقطاعه على مملوكه يلبغا العمرى الناصرى ثم خلع عليه وجعله أمير مجلس وهذا كان أول عظمة الامير يلبغا العمرى وفيها جاءت الاخبار بان الامير منجك اليوسفى تسحب حتى خرج من مصر واختفى ولم يعلم له خبر فعاقب السلطان جماعته بسبب ذلك وحبسهم الى أن ظهر الامير منجك كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه فلما اختفى الامير منجك خلع السلطان على الامير بيدمر الخوارزمى واستقر نائب حلب عوضا عن الامير منجك فلما توجه الامير بيدمر الى حلب جرد الى نحو سيس وحاصر أهلها فطلبوا منه الامان فأخذها بالامان وكذلك المصيصة وفتح فى تلك السنة عدة قلاع ثم رجع الى حلب وفيها ركب السلطان الملك الناصر حسن ومر بالقاهرة وزينت له فلما وصل الى البيمارستان نزل عن فرسه ودخل فزار قبر ابيه قلاون ثم دخل الى الضعفاء والمجانين وتفقد أحوالهم ثم ركب وطلع الى القلعة وضج له الناس بالدعاء حتى طلع الى القلعة وكان يوما مشهودا (ثم دخلت سنة احدى وستين وسبعمائة) فيها ثقل أمر الامير صرغتمش على السلطان وخشى منه فأشار بعض الامراء على السلطان بان يقبض عليه من قريب وقال له ان لم تبادر وتقبض عليه والا قبض هو عليك فبادر السلطان وقبض عليه فكان كما قيل فى المعنى

وربما فات بعض الناس حاجته * مع التوانى وكان الرأى لو عجلا

فلما كان يوم الاثنين حادى عشرى شهر رمضان من السنة المذكورة قبض السلطان على

الامير صرغتمش وهو فى الموكب بالايوان فلما سمع مماليك صرغتمش بذلك لبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة وكانوا نحو ثمانمائة مملوك ووقفوا فى سوق الخيل فوثب عليهم المماليك السلطانية ورموهم بالنشاب فتفرقوا وانكسروا ثم ان الزعر وجماعة العوام نهبوا بيت صرغتمش ونهبوا بسط خانقاته التى بالقرب من حدرة الفيل ونهبوا جميع قناديلها وحوائج الاعجام الصوفية الذين كانوا بها ودكاكين الصليبة ضميمة لذلك وصاروا يمسكون حاشية صرغتمش وغلمانه وينهبون بيوتهم واستمر هذا الامر من أول النهار الى ما بعد العصر فلما كان يوم الثلاثاء صبيحة ذلك اليوم قيدوا الامير صرغتمش وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية وأمسكوا معه جماعة من الامراء ممن كانوا من عصبته وهم الامير طشتمر القاسمى حاجب الحجاب والامير طقبغا صاووق والامير جركس الرسولى وغير ذلك من الامراء وأرسلوهم الى الاسكندرية ثم ان الامير صرغتمش أقام فى السجن نحو ثلاثة شهور وأشاعوا فى القاهرة موته قيل انه خنق وهو فى السجن وكان أميرا عظيما مهيبا وكان فى سعة من المال وقد أخذ بغتة من حيث لا يشعر كما قيل فى المعنى

وان امرأ دنياه أكبر همه * لمستمسك منها بحبل غرور

وفيها جاءت الاخبار بان الامير منجك اليوسفى قد أمسك فلما حضر بين يدى السلطان كان عليه بشت عسلى وعلى رأسه مئزر صوف أبيض فوبخه السلطان بالكلام ثم عفا عنه ورسم له بامرة أربعين فى الشام ويكون له طرخانا فخلع عليه وخرج الى الشام من يومه وسافر (ثم دخلت سنة اثنتين وستين وسبعمائة) فيها تزايدت عظمة السلطان حسن وتناهى أمره فى العلو وكثرت مماليكه وأهدى اليه بعض ملوك اليمن خيمة عظيمة غريبة الشكل بها هيئة قاعة وبها حمام وهى منقوشة بصنعة غريبة فتوجه السلطان الى بر الجيزة ونزل بكوم برا ونصب هناك تلك الخيمة المقدم ذكرها فكان أهل القاهرة يخرجون ويتوجهون الى نحو كوم برا حتى يتفرجوا على تلك الخيمة وفيها يقول ابن أبى حجلة

حوت خيمة السلطان كل عجيبة * فأمسيت منها باهتا أتعجب
لسانى بالتقصير فيها مقصر * وان كان فى أطنابها بات يطنب

(وقال فيها أيضا عفا الله عنه)

اذا ما خيمة السلطان لاحت * فقل فى حسنها نظما ونثرا
وان رفعت ورمت النصب منها * فصف أطنابها وهلم جرا

ثم ان السلطان طابت له الاقامة هناك فأقام نحو ثلاثة شهور وكان زمن الربيع وكان بالقاهرة أوخام وموت فأقام السلطان هناك حتى تذهب تلك الاوخام عن المدينة فكان

هناك

هناك فى أرغد عيش وعنده فى كل ليلة مغانى عرب وخيال ظل وحراقة نفط وهو لا يدرى ماخبئ له فى الغيب من الحوادث فكان كما قيل

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة * وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

فلما أقام السلطان هناك هذه المدة وكان بعض الامراء يرمى بين السلطان وبين الامير يلبغا الفتن وكان الامير يلبغا من مماليك السلطان حسن فحسنوا للسلطان القتك به فدبت بينه وبين السلطان عقارب الفتن فلما كانت ليلة الاربعاء تاسع جمادى الاولى وهو فى الخيام أحس الامير يلبغا بذلك فخرج من الخيام فلما كبس عليه السلطان لم يجد بالخيام أحدا وكان الأمير يلبغا قد أكمن للسلطان كمينا فلما رجع خرج عليه ذلك الكمين فوقع مع السلطان واقعة عظيمة فقتل من مماليك السلطان جماعة وانكسر السلطان وغرق عسكره فهرب تحت الليل وعدى من طرا وطلع الى القلعة وتبعه الامير يلبغا فلما طلع السلطان الى القلعة لم يجد معه من المماليك الا القليل ولم يكن معه من الامراء سوى الاميرغمان تمر العمرى والامير أيدمر الدوادار الكبير وبعض مماليك صغار فلم يجد السلطان للمماليك خيولا يركبونها لان الخيول كانت فى الربيع فلما أسفر النهار هطم الامير يلبغا وطلع الى الرميلة وحاصر السلطان وهو فى القلعة فلما رأى السلطان عين الغلبة نزل من القلعة هو والامير أيدمر الدوادار ولبسوا زى العرب وقصد السلطان بأن يتوجه نحو الشام ليستنجد بالامير بيدمر الخوارزمى نائب الشام فلما نزل السلطان من القلعة ووصل الى المطرية قبض عليه وعلى الامير أيدمر الدوادار جماعة من العربان وأحضروهما الى الامير يلبغا فأما الامير أيدمر فقيدوه وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية وأما السلطان حسن فكان آخر العهد به قيل انه خنق ورمى فى البحر ولم يعرف له مكان قبر ولم يدفن فى مدرسته داخل القبة التى بها وكانت قتلته فى ثانى عشر جمادى الاولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة وكان ملكا شجاعا بطلا مقداما مهيبا نافذ الكلمة وافر الحرمة عالى الهمة وكان محبا للرعية غير أنه كان كثيرا ما يصادر أرباب الوظائف لاجل المال وكان له من العمر لما مات نحو سبعة وعشرين سنة وقد دارت لحيته وكان عربى الوجه اشقر اللحية اشهل العينين لان أمه كانت رومية الجنس وكان نحيف الجسد معتدل القامة وكان يميل الى اللهو والطرب وشرب الراح مولعا بحب الملاح لايمل من شرب الراح وسماع الغناء ليلا ولا نهارا حتى قيل فيه

لما أتى للعاديات وزلزلت * حفظ النساء وما قرا للواقعة

فلاجل هذا الملك أضحى لم يكن * وأتى القتال وفصلت بالقارعه

لو عامل الرحمن فاز بكهفه * وبنصره فى عصره للسابعه

من كانت الانعام من أحزابه * عطعط به الدخان نار لامعه

أراد الناظم بقوله عطعط الاشارة الى مغن كان اسمه عطعط وأشار بالدخان الى اسم مشبب كانا يغنيان بالديار المصرية والبلاد الشامية وكانت مدة سلطنته عشر سنين ونصفا فى السلطنة الاولى ثلاث سنين وتسعة أشهر وأيام والسلطنة الثانية ست سنين وتسعة أشهر وأيام ولما مات السلطان حسن خلف من الاولاد عشرة ذكور وهم سيدى أحمد وسيدى على وسيدى قاسم وسيدى اسكندر وسيدى موسى وسيدى يحيى وسيدى شعبان وسيدى يوسف وسيدى اسمعيل وسيدى محمد وخلف من البنات ستة وكان فى أيامه من أولاد الناس ثمانية أمراء مقدمى الوف وهم عمر بن أرغون النائب واستبغا بن بكتمر الابو بكرى ومحمد بن المحسنى ومحمد بن آل ملك نائب السلطنة وموسى بن أرقطاى النائب ومحمد بن طرغاى ومحمد بن بهادر آص وموسى بن الازكشى وكان من أولاد السلطان حسن ثلاثة أمراء مقدمين وهم سيدى أحمد وسيدى على وسيدى قاسم وكان فى أيامه من أولاد الناس أمراء طبلخانات وعشراوات كثير وكان منهم نواب فى البلاد الشامية بيدمر الخوارزمى نائب الشام والعلائى على بن قشتمر نائب حلب وابن صبيح نائب صفد وكان قصد الملك الناصر حسن انشاء أولاد الناس فى أيامه وهو آخر من تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون وكان مجموع من تولى من أولاد محمد بن قلاون ثمانية وكان الناصر حسن كفؤ السلطنة ولما قتل تولى من بعده ابن أخيه المظفر حاجى ۞ وأما من توفى فى أيامه من الاعيان فهم الملك الصالح صلاح الدين صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاون أخو الملك الناصر حسن وقد تقدم أنه لما خلع من السلطنة استقر مقيما بدار الحرم الى أن مات فى سنة احدى وستين وسبعمائة فى دولة أخيه حسن ودفن فى تربة عمه الملك الصالح على بن قلاون داخل القبة التى أنشأها بجوار المدرسة الاشرفية التى بطريق السيدة نفيسة وتوفى فى أيامه الشيخ بهاء الدين بن عقيل من أعيان العلماء وتوفى الحافظ العلامة مغلطاى وتوفى الشيخ أبو امامة من أعيان العلماء وتوفى ابن النقاش من كبار علماء الشافعية وغير ذلك من أعيان العلماء جماعة كثيرة وتوفى فى أيامه أيضا الشيخ صفى الدين الحلى صاحب شرح البديعية وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد فى ديوان لطيف كله غرر ومحاسن ومن لطائف قوله

من شاء يملك حفظ صحة جسمه * ويفوز طول حياته بدوامها
فليجعلن غذاءه من أربع * لا يقبل التغيير فى اقسامها
من لحم ساعته وخبز نهاره * وطعام ليلته وقهوة عامها

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وذلك على سبيل الاختصار والله سبحانه وتعالى اعلم

ذكر سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر

حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وهو الحادى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية بويع بالسلطنة بعد قتل عمه الملك الناصر حسن فى يوم الاربعاء تاسع جمادى الاولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة فتولى الملك وله من العمر أربعة وعشرون سنة وكان القائم فى أمور تدبير مملكته المقر السيفى يلبغا العمرى فاستقر به أتابك العساكر وكانت عظمة الامير يلبغا فى أيام الملك المنصور فخلع على المقر السيفى قشتمر المنصورى واستقر به نائب السلطنة ثم رسم بالافراج عمن كان مسجونا من الامراء بثغر الاسكندرية وهم الامير طاز الناصرى نائب حلب والامير جركتمر الماردينى والامير قطلوبغا المنصورى والامير طشتمر القاسمى والامير ملكتمر المحمدى والامير اقتمر عبد الغنى والامير بكتمر المؤمنى وهو صاحب سبيل المومنين المصلاة الآن والامير جردمر والامير قرابغا بنحاص فلما حضروا الى القاهرة وطلعوا الى القلعة خلع عليهم وأنعم لهم بتقادم ألوف وفرق عليهم الاقطاعات السنية فلما فعل ذلك وتم أمره فى السلطنة أقام مدة يسيرة وهو نافذ الكلمة وافر العقل فكان كما قيل فى المعنى

لا تركنن الى الدنيا وان كبرت * فصفوها الملك ممزوج بتكدير

ثم جاءت الاخبار من الشام بان بيدمر الخوارزمى نائب الشام أظهر العصيان وخرج عن الطاعة وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب فلما جاءت هذه الاخبار الى القاهرة اضطربت الاحوال وعلق السلطان الجاليش وأخذ فى أسباب الخروج الى الشام فلما كان ثانى شعبان من سنة اثنتين وستين وسبعمائة خرج الملك المنصور محمد من القاهرة قاصدا نحو الشام وخرج صحبته الاتابكى يلبغا العمرى وسائر الامراء فلما وصل السلطان الى الشام أرسل له أمانا فلما نزل من القلعة وقابل السلطان قبض عليه الاتابكى يلبغا وقيده وأرسله الى الاسكندرية ثم ان السلطان خلع على الامير على الماردينى واستقر به نائب الشام عوضا عن بيدمر الخوارزمى واستقر بالامير قطلوبغا الاحمدى نائب حلب ثم رجع السلطان والاتابكى يلبغا الى القاهرة فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا وزينت له المدينة وطلع الى القلعة فى موكب عظيم ۞ ثم دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمائة فيها توفى الامام الخليفة المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفى بالله وكانت وفاته فى ليلة الاربعاء ثامن عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة وكانت مدة خلافته نحو عشر سنين ولما مات عهد بالخلافة الى ولده محمد فولاه السلطان وتلقب بالمتوكل على الله وفيها تزوج الاتابكى يلبغا بخوند طولو زوجة أستاذه الملك الناصر حسن وما كفاه أنه قتله بل تزوج بامرأته زيادة على ذلك ۞ ثم دخلت سنة أربع وستين

وسبعمائة فيها توفى سيدى حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وهو والد الملك الاشرف شعبان وهو آخر من توفى من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون مات ولم يل السلطنة فانه كان عنده خفة وهوج وصعصعة فلما قتل السلطان حسن لم يوافق الاتابكى يلبغا على سلطنته واختار محمد ابن الملك المظفر حاجى فولاه كما تقدم وكانت وفاته يوم السبت رابع ربيع الآخر من السنة المذكورة ﴿ ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الثلاثاء رابع شعبان طلع الاتابكى يلبغا الى القلعة وقبض على السلطان الملك المنصور محمد وخلعه من السلطنة وأدخله دور الحرم متحفظا به وولى سيدى شعبان ابن سيدى حسين المقدم ذكر وفاته فكانت مدة سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى بالديار المصرية سنتين وأربعة أشهر لاغير واستمر فى دور الحرم مقيما فى غبوق وصبوح لا يفيق من السكر ساعة وعنده جوقة جوارى مغنيات نحو عشرة من الجوارى يدفون بالطارات عند الصباح والمساء وكانت هذه عادة رؤساء مصر تغنى عندهم الجوارى المغنيات وآخر من كان يفعل ذلك من أعيان مصر الامير جمال الدين محمود الاستادار ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الاكابر بالديار المصرية ثم ان الملك المنصور أقام على ذلك وهو مختف فى دور الحرم الى أن مات فى ليلة السبت تاسع المحرم سنة احدى وثمانمائة فى دولة الظاهر برقوق ومات وله من العمر نحو خمسة وخمسين سنة ودفن فى تربة جدته أم أبيه خوند طغلى عند الباب المحروق وخلف من الاولاد نحو خمسة ذكور وأناث واستمرت هذه الجوقة المغنيات بعده دائرة فى القاهرة يعرفن بمغانى المنصور وكان الملك المنصور هذا لما خلع من السلطنة قنع من الدنيا بارغد العيش من شرب الخمور وسماع الزمور وكان راضيا بما فيه من ذلك واستغنى بذلك عن السلطنة كما قيل فى المعنى

كل الملوك تسلطنوا * بالملك والسلاح

وانا قنعت منه * بالراح والملاح

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى وذلك على سبيل الاختصار والله سبحانه وتعالى أعلم

ذكر سلطنة الملك الاشرف أبى المعالى زين الدين

شعبان ابن الامجد مجد الدين حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وهو الثانى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية بويع بالسلطنة فى يوم الثلاثاء خامس شهر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة وتلقب بالملك الاشرف ولبس خلعة السلطنة وجلس على سرير الملك ودقت له البشائر ونودى باسمه فى القاهرة وضج له الناس بالدعاء وكان له من العمر لما تسلطن نحو اثنتى عشرة سنة وكان مولده فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وكان

الاشرف شعبان مليح الشكل بديع الجمال تولى الملك بعد خلع ابن عمه محمد المنصور بن المظفر حاجى وقد تعصب لسلطنته الاتابكى يلبغا العمرى وفيه يقول بعض الشعراء

بالملك الاشرف المفدى * شعبان فزنا بكل فضل
من وطن الكون والرعايا * بطى ظلم ونشر عدل

وفيه يقول خلف الغبارى من زجل

حب قلبى شعبان موفق رشيد * وجمالو أشرق ومالو حدود
وأبوه الحسن وعمه الحسن * وارث الملك من جدود الجدود
سل لحظك صارم لقتل العدا * وانت منصور طول المدى والسنين
زعق السعد بين يديك شاويش * فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسى على المملكه * وظهر لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك اشتالت * خفقت فى الركوب عليك البنود
فاحكم احكم فى مصرنا سلطان * فجميع الملاح لحسنك جنود

فلما تم أمر الاشرف شعبان فى السلطنة أقر الاتابكى يلبغا أميرا كبيرا على عادته واستقر بالامير قشتمر المنصورى فى نيابة السلطنة على عادته كما كان ثم عمل الموكب وجلس على سرير الملك وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى طنبغا الطويل واستقر به أمير سلاح عوضا عن الامير ازدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار جد والد مؤلفه واستقر بالامير ازدمر المذكور نائب طرابلس وخلع على الامير عشقتمر الماردينى واستقر به أمير مجلس على عادته وخلع على الامير ارغون الشهير بالاسعردى واستقر به دوادارا كبيرا وخلع على الامير أرغون الارقى واستقر به رأس نوبة النوب وخلع على الامير طيبغا العلائى واستقر به حاجب الحجاب ثم عمل الموكب الثانى وخلع فيه على من يذكر من الامراء وهم أرباب الوظائف وهم المقر السيفى منكلى بغا الشمسى واستقر به نائب الشام وأرسل المراسيم الشريفة الى قطلو بغا الاحمدى بأن يكون نائب حلب على عادته ثم خلع على الامير قشتمر المنصورى واستقر به نائب صفد وخلع على الامير عمر شاه وهو صاحب القنطرة واستقر به نائب حماه وخلع على الامير عمر بن أرغون النائب واستقر به نائب غزة ثم فرق الاقطاعات على جماعة من المماليك وجعل منهم أمراء طبلخانات وأمراء عشراوات ثم أنفق على العسكر وأرضى الجند بكل ما يمكن فاستقام أمره فى السلطنة ونفذت أحكامه ❁ ثم دخلت سنة خمس وستين وسبعمائة فيها أرسل السلطان بالقبض على قطلو بغا الاحمدى نائب حلب وخلع على الأمير طشتمر الماردينى واستقر به نائب حلب عوضا عن قطلو بغا الاحمدى ثم خلع على

الامير خليل بن قوصون واستقر به أمير مجلس عوضا عن الامير طشتمر الماردينى وفى هذه السنة جاءت الاخبار من دمشق بأن نائب دمشق منكلى بغا الشمسى فتح باب كيسان الذى بدمشق وكان هذا الباب مقفلا من أيام نور الدين فاقتضى الرأى فتح الباب بسبب من يمر من المسافرين فجمع النائب القضاة الاربعة وأعيان دمشق واستشارهم فى ذلك فأشاروا بفتحه ففتح ثم ان النائب بنى القنطرة عند هذا الباب فحصل بها منفعة للمسافرين وغيرهم وفى هذه السنة رسم السلطان بابطال الوكلاء من أبواب القضاة والحكام بالديار المصرية والبلاد الشامية فامتثلوا ذلك وقد قال بدر الدين بن حبيب

يقول ذا الحق الذى قاله * خصم ألد ولسان كليل

ان صبروا أمر وكيلى سدى * فحسبى الله ونعم الوكيل

ثم دخلت سنة ست وستين وسبعمائة فيها توفى الملك الصالح ابن الملك المنصور غازى صاحب ماردين وكان ملكا عظيما جليلا عادلا فى الرعية وقد أقام فى مملكة ماردين نحو أربع وخمسين سنة وعاش من العمر احدى وسبعين سنة فلما جاءت الاخبار بذلك تأسف السلطان لموته وفيها توفى نور الدين الاسعردى الشاعر وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد فمن ذلك قوله

دب العذار بخده ثم انثنى * فكأنه من وجنتيه مروع

نمل تحاول نقل حبة خاله * فتمسه نار الخدود فيرجع

وفى هذه السنة فى ربيع الآخر أسلم أبو الفرج المقسى القبطى وتلقب بشمس الدين وقرر فى استيفاء المماليك وهو من أجداد تاج الدين المقسى ناظر الخواص الشريفة ثم دخلت سنة سبع وستين وسبعمائة فيها رسم السلطان لنائب حلب بأن يأخذ العساكر الحلبية ويتوجه الى حصار قلعة خرت برت من أعمال ديار بكر فسار اليها وحاصرها نحوا من أربعة أشهر فطلب أهلها الامان ونزلوا طائعين فأرسل نائب حلب يعلم السلطان بذلك فأرسل اليه السلطان خلعة بان يستقر بنيابة قلعة خرت برت على عادته ويحلفه ايمانا عظيمة بانه لا يرجع يخامر ولا يعصى السلطان وفى هذه السنة جاءت الاخبار من ثغر اسكندرية بأن صاحب قبرص قد وصل الى ثغر الاسكندرية فى سبعين مركبا من المراكب الحربية مشحونة بالمقاتلين فطرقوا المدينة يوم الجمعة ثالث عشرى صفر فخرج اليهم نائب الاسكندرية وجماعة من أهل البحيرة فوقعوا معهم واقعة عظيمة ظاهر باب البحر فانكسر نائب الاسكندرية وهرب وهرب العربان الذين كانوا معه فدخل الفرنج الى المدينة ونهبوا أسواقها وبيوتها وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين وحرقوا باب رشيد فلما جاءت الاخبار بذلك الى القاهرة كان السلطان هو والاتابكى يلبغا فى وادى العباسة

يتصيدون فلما بلغتهم هذه الاخبار رجعوا الى القاهرة ونودى فى العسكر قاطبة بان السلطان يصلى الظهر و يركب فلا يتأخر أحد من المماليك السلطانية فلما صلى السلطان الظهر ركب وعدّى الى بر الجيزة وكان النيل فى قوّة الزيادة فقاس العسكر مشقة زائدة فى التعدية ثم ان السلطان سار الى الطرانة ونزل هنالك وعين الامير طنبغا الطويل أمير سلاح والامير خليل بن قوصون أمير مجلس والامير قطلوبغا المنصورى والامير كوكنداى أخو طنبغا الطويل وعين معهم ألف مملوك ورسم بأن يتقدّموا جاليش العسكر فلما وصلوا الى ثغر الاسكندرية وجدوا الفرنج رحلوا من الثغر وتوجهوا نحو بلادهم بعد ماجرى منهم ماجرى من القتل والنهب وغير ذلك فلما بلغ السلطان رجوع الفرنج الى بلادهم رجع الى القاهرة هو والامراء وأرسل مرسوما الى الامراء الذين تقدّموا الى الاسكندرية بأن يقيموا هنالك و يعمروا مافسد من المدينة ويطمنوا أهل البلد حتى لايرجع اليهم الفرنج ثم ان السلطان خلع على الامير بكتمر الشريف أحد مقدمى الالوف وجعله نائب ثغر الاسكندرية وهو أوّل من تولى نيابة ثغر الاسكندرية من الامراء المقدمين وكان قبل ذلك يتولاها جماعة من الكشاف ومن أولاد الناس فظهرت من يومئذ حرمة ثغر الاسكندرية وزال عنها أولئك النواب الاصاغر فخرج اليها الامير بكتمر الشريف فى برك عظيم ومماليك كثيرة وحرمة وافرة وقد قال بعض الشعراء فى النائب المنفصل على لسان حال الاسكندرية هذين البيتين

اسكندرية قالت * يانائبى صن دماكا
لقد تغير ثغرى * واحتجت فيه سواكا

وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة يرثى ثغر الاسكندرية فيما جرى عليه من الفرنج فى هذه الواقعة

ألا فى سبيل الله ماحل بالثغر * على فرقة الاسلام من عصبة الكفر
أتاها من الافرنج سبعون مركبا * وضاقت بها العربان فى البر والبحر
وصير منها أزرق البحر أسودا * بنو الاصفر الباغون بالبيض والسمر
أتوا نحوها هجما على حين غفلة * وباعهم فى الحرب يقصر عن فتر
فكم من فقير عاش فيها من الغنى * وكم من غنىّ مات فيها من الفقر
نثرت دموعى يوم فرط نظامهم * فياليت شعرى من يبلغهم نثرى

ومن الحوادث فى هذه السنة ان الامير طنبغا الطويل أمير سلاح خرج نحو وادى العباسة على سبيل التنزه فأقام هنالك أياما يتصيد فأرسل اليه الاتابكى يلبغا خلعة مع جماعة من الامراء ومرسوما سلطانيا بان يستقر نائب الشام و يتوجه من هنالك فلما أوصل اليه ذلك

الامراء وهم الامير أرغون الاسعردى الدوادار والامير طيبغا العلائى حاجب الحجاب والامير أرغون الارقى رأس نوبة النوب والامير اروس المحمودى استادار العالية تحدثوا معه فى أمر نيابة الشام لأبى الامير طنبغا الطويل لبس الخلعة وأظهر العصيان والتف عليه أولئك الامراء الذين توجهوا اليه ووافقوه على العصيان وتوجهوا الى القاهرة ليتفقوا مع الاتابكى يلبغا فلما وصلوا الى خانقاه سرياقوس بلغ الاتابكى يلبغا ذلك فطلع الى القلعة وأركب الملك الاشرف شعبان ونزل به من القلعة ووقفوا تحت القلعة ودقت الكؤسات حربيا ونادوا فى القاهرة من أطاع الله والسلطان يركب ويجىء تحت الصنجق السلطانى فركب العسكر قاطبة وطلعوا الى الرميلة فوقف السلطان ساعة حتى تكامل العسكر ومشى تحت الصنجق السلطانى وتوجه الى نحو قبة النصر فوقف هناك وذلك فى يوم السبت سابع ربيع الاول من السنة المذكورة هذا ما كان من أمر السلطان والاتابكى يلبغا وأما ما كان من أمر الامير طنبغا الطويل أمير سلاح والامراء الذين معه فانهم ركبوا من العباسة واستمروا سائقين طول الليل حتى وصلوا الى المطرية فتعبت خيولهم وتشتتت غلمانهم فتلاقوا مع عسكر السلطان على قبة النصر وكان بينهما هناك واقعة عظيمة فانكسر الاتابكى يلبغا وولى مدبرا وكان الاتابكى يلبغا قد أكمن كمينا من العسكر عند فم وادى السدرة فلما ولى الامير يلبغا مهزوما خرج ذلك الكمين من وادى السدرة على الامير طنبغا الطويل ومن معه فانكسروا كسرة عظيمة وقبض على الامير أرغون الاسعردى الدوادار والامير أروس المحمودى الاستادار والامير كوكندى أخو طنبغا الطويل وجماعة كثيرة ممن كانوا معهم من الامراء ثم قبض على الامير طنبغا فى أثناء ذلك اليوم من تربة فى باب القرافة فلما تكامل الامراء قيدهم الاتابكى يلبغا فى تلك الليلة وأرسلهم تحت الليل الى السجن بثغر مدينة الاسكندرية ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على جماعة كثيرة من الامراء عوضا عمن قبض عليهم ممن تقدم ذكرهم كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه وفيها توفى الملك المجاهد سيف على صاحب بلاد اليمن وتولى من بعده ابنه عباس وتلقب بالملك الافضل وفيها حضر الى الابواب الشريفة الامير جبار بن مهنا أمير آل فضل من عربان الشام فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه واستقر به على عادته وكان له مدة طويلة وهو عاص فلم يؤاخذه السلطان وحلم عليه ❁ ثم دخلت سنة ثمان وستين وسبعمائة فيها فرق السلطان اقطاعات الامراء الذين كانوا قد ركبوا مع الامير طنبغا الطويل فنفاهم وأخرج اقطاعاتهم على الامراء الطبلخانات والعشراوات وفيها أرسل المقر السيفى منكلى بغا نائب الشام يسأل السلطان فى الحضور الى مصر زائرا ليرى وجه السلطان فلما حضر الى القاهرة أحضر صحبته تقادم كثيرة للسلطان حتى للامراء

والاتابكي يلبغا فأكرمه السلطان غاية الاكرام وخلع عليه واستقر به نائب حلب وجعل حلب أكبر من الشام كما كانت على القاعدة القديمة وعين معه عسكرا يقيمون بحلب عنده ثم ان السلطان خلع على الامير اقتمر عبد الغنى واستقر به نائب الشام عوضا عن منكلى بغا

ومن الحوادث في هذه السنة أن الاتابكي يلبغا رسم بعمارة مراكب أغربة بسبب تجريدة تتوجه الى بلاد الفرنج فان جماعة من الفرنج صاروا يعبثون في البحر و يقطعون الطريق على التجار فعين لهم السلطان تجريدة وأنشأ مائة غراب ورسم للامير طنبغا العلائى بان يكون شادا على عمارة هذه الاغربة فأنشأ عمارتها في الجزيرة الوسطانية فلما كملت عمارتها نزل السلطان والاتابكي يلبغا الى الجزيرة الوسطى يتفرجان على القائها في البحر فكان يوم نزول السلطان يوما مشهودا فألقوا الاغربة قدامه في البحر والطبل عمال والنفط وزينت الاغربة بالصناجق والسلاح ولعبوا بها في البحر ذهابا وايابا والسلطان ينظر الى ذلك فلما انقضى ذلك اليوم عدى السلطان من هناك الى بر الجيزة وصحبته الاتابكي يلبغا فتوجه الى نحو الطرانة فأقام بها أياما وهو في أرغد عيش فبينما هو على ذلك اذ وثب مماليك الاتابكي يلبغا عليه هناك وسبب ذلك ان الاتابكي يلبغا ضرب بعض مماليكه هناك بالمقارع وقطع أنفه فتعصب عليه جماعة من خشداشيته ووثبوا على أستاذهم فلما كانت ليلة الاربعاء سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وستين وسبعمائة فيها ركب مماليك يلبغا وكبسوا عليه وهو في الخيام فهرب تحت الليل وهو في زى فلاح فعدى من بولاق التكرور وطلع الى الجزيرة الوسطى ثم توجه الى بيته الذى في الكبش فلما طلع النهار طلب الامراء الذين كانوا بالقاهرة ولبسوا آلة الحرب وتوجه الى الجزيرة ونادى ان لا أحد من النواتية يعدى بأحد من المماليك الى بر مصر ومنع المراكب من التعدية وجعل الامراء الذين معه كل واحد في مكان فأقام جماعة منهم في بولاق وجماعة في مصر العتيقة وجماعة في دير الطين وكان معه من الامراء الامير طنبغا العلائى حاجب الحجاب وكان معه استاداره والامير اينبك البدرى وكان أمير اخوره والامير اقبغا جركس وكان دواداره واجتمع عنده جماعة كثيرة من الامراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك السلطانية هذا ما كان من الاتابكي يلبغا وأما ما كان من أمر مماليك يلبغا فانهم لما علموا بهروب أستاذهم جاؤا الى السلطان الملك الاشرف شعبان وقالوا له قم واركب معنا فأبى السلطان ذلك فقالوا له ان لم تركب معنا والا نقتلك فقام وركب معهم وجاء الى بر انبابه فلم يجد مركبا يعدى فيه فأقام في بر انبابه يوم الاربعاء ويوم الخميس ثم ان الاتابكي يلبغا طلع الى القلعة وطلب سيدى انوك أخو السلطان الاشرف شعبان وأخرجه من دور الحرم بالغصب وأجلسه على سرير الملك وقبلوا الارض امامه ولقبوه بالملك

المنصور ونودي باسمه في القاهرة فلما كان يوم الجمعة ركب الاتابكي يلبغا وركب سيدي انوك الذي تسلطن معه وجمع العسكر فصار الملك الاشرف شعبان في برانبابه والاتابكي يلبغا في الجزيرة الوسطى وهما يترامبان بالنشاب والمكاحل النفط حتى حال بينهما الليل ثم ان الملك الاشرف شعبان طلب شخصا من النواتية يسمى محمد لبطه وكان رئيسا على المراكب في أيام الملك الناصر محمد بن قلاون فقال له السلطان قصدي أن تعديني الى ذلك البر فقال له نعم أنا أعدي بك ثم انه أحضر ثلاثين غرابا من الاغربة التي كانت عمرت بسبب التجريدة فكسروا ابروقها وعمروها بالمقاديف وعدى بالسلطان والعسكر من الوراق وهم راكبون خيولهم فطلعوا من جزيرة الفيل وذلك في يوم السبت فلما طلع السلطان من جزيرة الفيل توجه على خليج الزعفران وخرج من بين الترب وطلع الى القلعة فتسامعت به الناس والعسكر فصاروا ينسحبون من عند الاتابكي يلبغا ويطلعون الى السلطان في القلعة فلم يبق عند الاتابكي الا القليل من العسكر فرجع الاتابكي يلبغا من الجزيرة وطلع الى الرميلة بمن بقي معه من العسكر فوقف بسوق الخيل ساعة فلم يجئ اليه أحد من العسكر فتلاشى أمره وولى سعده وبدا عكسه فلما رأى ادبار نفسه نزل عن فرسه وصلى ركعتين في وسط الرميلة قدام باب الميدان ثم حل سيفه وأعطاه للامير طنبغا حاجب الحجاب ثم ركب فرسه وتوجه الى بيته الذي في الكبش فرجمه العوام وسبوه سبا فاحشا لانه كان يبغض العوام ويسلط مماليكه عليهم فلما وصل الى بيته الا بعد جهد كبير فأقام في بيته ذلك اليوم وأرسل اليه السلطان بعض الامراء وقت المغرب فأخذه وطلع به الى القلعة هو والامير طنبغا فسجنوه بها الى ما بعد العصر فهجمت مماليك يلبغا عليه وأخرجوه من السجن ونزلوا به من باب المدرج وهو ماش مشحطط بينهم فلما وصلوا به الى رأس الصوه عند الحوض تقدم اليه مملوك من مماليكه يقال له قراتمر وضربه بالسيف فرمى رأسه عن جثته وأخذ بقية مماليكه الرأس ووضعوها في مشعل ونزلوا بها من الصليبة وتوجهوا بها الى بيته الذي في الكبش فلما طلع النهار أحضروا الرأس بين يدي السلطان وكان الاتابكي يلبغا له خلف أذنه سلعة فلما رأوا ذلك لم يشكوا في قتله ثم صار جسده مرميا في الصوه على الارض والناس ينظرون اليه حتى أخذ رأسه وجثته الامير طشتمر الدوادار ودفنه في تربة عند الباب المحروق ومضى أمره فكانت قتلته في ليلة الاحد تاسع ربيع الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة وفيه قال بعض الشعراء

أتاك على يديك الموت لما * ظهرت بما نهاك الشرع عنه
فلا تعتب سواك على الذي قد * بليت به فدود الخل منه

وقال

وقال آخر

بدا شقا يلبغا وعدت * عداه في سفنه اليه
والكبش لم يفده وأضحت * تنوح غربانه عليه

وقال اخر

حواشي يلبغا كانوا زناة * فلا تعجب اذا رجوا جهارا
ولا عجب اذا سكروا بحروب * فأهل الكبش ما برحوا سكارى

وكان الاتابكي يلبغا أميرا عظيما جليل القدر في سعة من المال وافر الحرمة نافذ الكلمة وكان في دولة الملك الاشرف شعبان صاحب الحل والعقد بالديار المصرية والسلطان معه مثل اللولب يديره كيف شاء وقد تزايدت عظمته في تلك الايام حتى بلغت مماليكه ما يزيد عن ثلاثة آلاف مملوك وكان من مماليكه أربعة مقدمو ألوف غير العشراوات وكان راتب سماطه ضربية كل صحن عشرة أرطال لحم ضاني فيقال صحن يلبغاوي واليه تنسب الطرز العراض اليلبغاوية الى الآن وأشياء كثيرة منسوبة اليه في آلة الحرب الى الآن لكنه كان سيئ الخلق سفاكا للدماء قتل جماعة كثيرة من الامراء ومن مماليكه من غير ذنب ولا سيما قتله لاستاذه السلطان حسن وقيل انه غضب يوما على مثقال مقدم المماليك فضربه ستمائة عصا في وسط القصر الكبير وكان من سيآته جور مماليكه على الناس بالاذى لكنه رأى في مبتدا أمره من العز والعظمة ونفاذ الكلمة ما لا يراه غيره من الامراء قبله ولا بعده وكان كما قيل

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما * وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلي أوائله * لكنه ربما مجت أواخره

قيل كان الاتابكي يلبغا اذا طلع الى القلعة تركب مماليكه ويصطفون من بيته الذي في الكبش الى باب المدرج ويسوق هو بينهم حتى يطلع الى القلعة وكانت مماليكه نحو ثلاثة آلاف مملوك وقيل ان الوزير قرويته كان يحمل الى يلبغا في كل يوم ألف دينار برسم سماطه انتهى ما أوردناه من أخبار الاتابكي يلبغا العمري ۞ ولما قتل يلبغا اضطربت أحوال القاهرة فطلع الامراء الى القلعة وقبضوا على الامراء ممن كان من عصبة الاتابكي يلبغا وهم الامير قرابغا البدري والامير يعقوب شاه والامير طيبغا العلائي حاجب الحجاب وغير ذلك من الامراء الطبلخانات والعشراوات فقيدوهم وأرسلوهم الى السجن بثغر الاسكندرية ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفي استدمر الناصري واستقر به اتابك العساكر عوضا عن يلبغا العمري وخلع على المقر السيفي قشتمر المنصوري واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن طيبغا العلائي

وخلع على المقر السيفي أيدمر الشامي واستقر به دوادارا كبيرا وأضاف اليه نظر الاحباس مع الدوادارية فكان أول من تكلم في نظر الاحباس من الدوادارية وفيها قبض السلطان على الصاحب فخر الدين ابن قروينه وسلمه الى الامير قرابغا الصرغتمشي فلازال يعاقبه حتى مات تحت الضرب قيل انه أحرق أصابعه بالنار وأحمى له خودة في النار وألبسه اياه حتى مات ولما كان يوم الخميس سادس عشر رجب من سنة ثمان وستين وسبعمائة فيه ثارت فتنة بين الامراء فلبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة فنزل اليهم جماعة من المماليك السلطانية والتقوا معهم فكسروهم ومسكوا منهم جماعة من الامراء منهم الامير قرابغا الصرغتمشي والامير برمش العلائي والامير اينبك البدري والامير ايسان الرجبي والامير قرابغا العزي والامير مقبل الرومي فلما قبضوا عليهم طلعوا بهم الى القلعة فرسم السلطان بتقييدهم وارسالهم الى السجن بثغر الاسكندرية فلما جرى ذلك عز على بقية الامراء فركبوا أجمعين وثارت فتنة عظيمة ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة فنزل السلطان الى الحراقة ودقت الكوسات حربيا وأرسل السلطان يقول للامراء إيش سبب هذه الفتنة فقالوا اسلمونا الامير استدمر أمير كبير وكان استدمر هذا لما قتل يلبغا استقر عوضه أميرا كبيرا وسكن في بيته الذي في الكبش والتف عليه جماعة من مماليك يلبغا ومشى على نظام يلبغا في الحرمة والشهامة فلما أرسل الامراء الذين قد ركبوا يقولون للسلطان أنت أستاذنا وما نموت الا تحت أقدامك ولكن سلموا لنا استدمر فانه هو الذي يرمي الفتن بيننا وبين السلطان فلما سمع الامير ذلك نزل هو وجماعة من الامراء الذين كانوا في القلعة عند السلطان والمماليك السلطانية من باب الدرفيل وجاؤا من وراء القلعة وطلعوا من رأس الصوة فلم يشعر الامراء الذين في سوق الخيل الا وقد دهاهم الاتابكي استدمر هو ومن معه من العسكر واجتمع معه الجم الغفير من الزعر والعوام وبأيديهم المقاليع بالحجارة فلما رأى الامراء الذين في سوق الخيل ذلك هربوا أجمعين ولم يثبت منهم أحد ودخل في قلوبهم الرعب فانهزموا من سوق الخيل ولم يثبت من الامراء غير الامير الجاي اليوسفي والامير ارغون شاه تتر فوقع وامع الاتابكي استدمر ومن معه من مماليك يلبغا واقعة عظيمة كانت من أول النهار الى ما بعد الظهر فلم يطلع اليهم أحد من الامراء ولا ساعدهم فانكسر الامير الجاي والامير ارغون شاه تتر وهربا وانتصر عليهم الاتابكي استدمر ومن معه من مماليك يلبغا ثم ان الاتابكي استدمر كبس على الامراء الذين انكسروا وقبض عليهم من بيوتهم وهم الامير جركس أمير سلاح والامير ايدمر الشامي الدوادار والامير الجاي اليوسفي والامير قطلوبغا والامير ارغون شاه تتر والامير طيغتمر النظامي والامير قجماس الطازي والامير اقطاي

اليلبغاوى والاميراقبغا الاحمدى وغيرذلك جماعة كثيرة من الامراء الطبلخانات والعشراوات فقيد الامراء المقدمين وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية فكان عدة من قبض عليهم من الامراء المقدمين فى هذه الحركة ثمانية أمراء ومن الامراء الطبلخانات وغيرذلك من العشراوات نحو احدعشر أميرا ثم ان بعض الامراء قال للاتابكى استدمر اقبض على السلطان وتسلطن أنت فأبى من ذلك وأبقى السلطان على حاله فلما راقت مدة الفتنة عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى والطنبغا الجكى واستقر به أميرمجلس وخلع على المقر السيفى والطنبغا اليلبغاوى واستقر به رأس نوبة النوب وخلع على المقر السيفى بيرم الغزى قطقطاى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن ايدمر الشامى وخلع على المقر السيفى سلطان شاه واستقر به حاجب الحجاب وخلع على الامير قطلقتمر العلائى واستقر به أميرجاندار ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى ازدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار وهو جد مؤلفه كما تقدم وكان السلطان نقله من نيابة طرابلس الى نيابة حلب ثم أرسل خلفه فلما حضر الى القاهرة خلع عليه واستقر به أميرسلاح عوضا عن الامير قطلوبغا جركس وكان الاميرازدمر هذا تولى أميرسلاح أيضا فى دولة الملك الناصر حسن فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة بعد قتلة الاتابكى شيخو العمرى وكان شيخو وأزدمر خشداشين من فرد تاجر فلما كانت دولة الملك الاشرف شعبان أحضر الاميرازدمر وأعاده كما كان ثم ان السلطان أنعم على جماعة حاشيته بامريات طبلخانات وامريات عشراوات واستقام أمر السلطان فى هذه الحركة وزال عنه جماعة من الامراء المتمردين الذين كان يخشى هو منهم وفى هذه السنة وهى سنة ثمان وستين وسبعمائة كانت وفاة العلامة الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن حسين بن حسن بن صالح بن على بن نباتة الفارقى المصرى الجدامى تغمده الله برحمته وكان من فحول المولدين وله شعر جيد فاق به على من تقدمه من الشعراء وكان مولده فى سنة ست وثمانين وستمائة وكان منشؤه بعنشية المهرانى بزقاق القناديل وكانت مدة حياته اثنتين وثمانين سنة وتوفى فى سنة ثمان وستين وسبعمائة كما تقدم ومما وقع للشيخ جمال الدين هذا أنه كان يخترع المعنى الغريب فى شعره الذى لم يسبق اليه فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدى ويأخذه عنه وزنا وقافية وينسبه الى نفسه كما قيل فى المعنى

وفتى يقول الشعر الا انه * فيما علمنا يسرق المسروقا

قال الشيخ جمال الدين فلما طال على الامر فى ذلك جمعت كتابا فيما قلته وسرقه منى ونسبه الى نفسه وسميت هذا الكتاب خبز الشعير لانه مأكول مذموم فمن جملة ذلك انى قلت فى هذا المعنى

بروحى عاطر الانفاس ألمى * ملئ الحسن خالى الوجنتين
له خالان فى دينار خد * تباع له القلوب بحبتين

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى وقال

بروحى خده المحمر أضحت * عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديما * فنقطه بدينار وحبه

قال الشيخ جمال الدين فلما وقفت على هذا المعنى قلت لا اله الا الله سرق الشيخ صلاح الدين الصفدى كما يقال من الحبتين حبه انتهى (ثم دخلت سنة تسع وستين وسبعمائة) فيها جاءت الاخبار من حلب بان الفرنج جاؤا الى قلعة اياس وحاصروها فخرج اليهم الامير منكلى بغا الشمسى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرص وصاحب رودس وصاحب الاستبار فجاؤا فى مائتى مركب حربيه فلما جاؤا الى طرابلس كان النائب غائبا عن المدينة فطمع الفرنج فى أخذ المدينة ثم خرج اليهم بعض عسكر طرابلس فوقعوا معهم فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج الى المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة مسلمين نحوا ألفى انسان فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاؤا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم فانكسرت ملوك الافرنج كسرة قويه ورحلوا عن ساحل طرابلس فلما جاءت الاخبار الى القاهرة بما جرى اضطرب السلطان من ذلك والامراء وقصدوا أن يعينوا لهم تجريدة وكان فى تلك السنة بالقاهرة فناء عظيم حتى كان يخرج من أبواب القاهرة فى كل يوم اثنا عشر ألف جنازه وكان أكثر عمله فى الاطفال والغرباء وقد قيل فى المعنى

وما الدهر أهل ان نؤمل عنده * حياة وأن نشتاق فيه الى النسل

وقال آخر

نحن بنو الموت فما بالنا * نعاف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا * على زمان هى من كسبه

(ثم دخلت سنة سبعين وسبعمائة) فى يوم الجمعة سادس صفر بعد صلاة الجمعة ركب جماعة من مماليك يلبغا ودخلوا الى بيت الاتابكى فقال لهم ايش قصدكم فقالوا قصدنا نمسك خمسة من الامراء وهم الامير أزدمر أمير سلاح المعروف بالخازندار والامير بيرم العزى الدوادار والامير جركتمر المنجكى أمير مجلس والامير بيبغا القوصونى أمير اخور كبير والامير تبك النصر غتمشى الجوكندار فركب معهم الاتابكى استدمر ومسك هؤلاء الامراء من بيوتهم فاما الامير ازدمر أمير سلاح فانه قيد وأرسل الى قلعة الصبيبة فسجن بها وأما بقية الامراء فقيدوا وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية ثم ان الاتابكى استدمر

الناصرى قصد القبض على السلطان فتعصب له جماعة من الامراء فطلعوا الى القلعة ونزل السلطان الى الاسطبل وجلس بالمقعد المطل على الرميلة وعلق الصنجق السلطانى ودقت الكؤسات حربيا فطلع اليه غالب العسكر فاجتمع تحته فى الرميلة الجم الغفير من الزعر والعوام وبايديهم المقاليع والحجارة وكل هذا بغض فى المماليك الذين قد التفتوا على الاتابكى استدمر وكانوا مماليك يلبغا وقد جاروا على الناس وصاروا يهجمون على النساء فى الحمامات ويخطفون قماش الناس من الاسواق فتغيرت منهم القلوب وأبغضهم الناس قاطبة فلما ركب الاتابكى استدمر ومماليك يلبغا توجهوا من وراء القلعة كما فعلوا تلك فلما زحفوا وأقبلوا من عند الصوة لاقتهم الزعر والعوام بالحجارة والمقاليع فالقى الله تعالى الرعب فى قلوب المماليك ومن كان معهم من الامراء فانكسر مماليك يلبغا أنحس كسرة وهرب الاتابكى استدمر من رأس الصوة وكان يظن انه ينتصر كما وقع له تلك المرة فكان كما قيل فى المعنى

أتطمع أن يبقى السرور لاهله * وهذا محال أن يدوم سرور

وتقضى الليالى باجتماع وفرقة * ويحدث من بعد الامور أمور

فلم يكن الا ساعة يسيرة وقد أمسك الاتابكى استدمر وجماعة معه من الامراء ممن كان من عصبته وقد أمسكوا من بين الترب فصار العوام يقبضون على كل من يرونه من مماليك يلبغا ويعرونه ويقتلونه أشر قتلة واستمروا على ذلك الى آخر النهار فلما أمسك الاتابكى استدمر ومن معه من الامراء مثلوا بين يدى السلطان فاراد أن يقيد الاتابكى استدمر ويرسله الى السجن بثغر دمياط فشفع فيه الامراء وعرفوا السلطان بان الاتابكى استدمر مع مماليك يلبغا تحت الضنك ولا يقدر على ردهم فرسم السلطان للاتابكى استدمر أن ينزل الى بيته وأرسل معه الامير خليل بن قوصون وكان الامير خليل بن قوصون ابن عمة السلطان الملك الاشرف شعبان فلما نزل الامير خليل مع الاتابكى استدمر الى بيته اتفق معه على العصيان وتحالفا على ذلك فتسامع بهم بقية الامراء والمماليك الذين كانوا قد اختفوا فجاؤا تحت الليل الى الاتابكى استدمر حتى ضاق بهم المكان من الازدحام لكثرتهم فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر صفر من سنة سبعين وسبعمائة ركب الاتابكى استدمر والامير خليل بن قوصون وجماعة من الامراء الذين من عصبة الاتابكى استدمر فطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل فنزل السلطان الى المقعد المطل على الرميلة وعلق الصنجق ودقت الكؤسات حربيا فحصل فى ذلك اليوم واقعة عظيمة بين الفريقين وظن السلطان أنه مأخوذ لامحالة فكان كما قيل فى المعنى

ولا ترج الا الله فى كل حالة * ولا تعتمد يوما على غير فضله

فكم حالة تأتى و يكرهها الفتى * وخيرته فيها على رغم أنفه

فلم تكن الا ساعة يسيرة وكسر الاتابكى استدمر والامير خليل بن قوصون و بقية الامراء الذين ركبوا مع استدمر فنهب العوام بيوتهم وصاروا يمسكون مماليك يلبغا من الاصطبلات و يودعونهم فى الحبوس ثم قيدوا الاتابكى استدمر والامير خليل بن قوصون و بقية الامراء الذين ركبوا مع استدمر وأرسلوهم الى السجن بثغر الاسكندرية وأما مماليك يلبغا فنفوا منهم وغرقوا منهم جماعة وهرب منهم جماعة الى بلاد المشرق وانتصر عليهم السلطان الملك الاشرف شعبان وقد قال المعمار

سلطاننا دامت له عزة * ونصرة من أجل هاتين

دمر كبشين ومن سعده * ما انتطحت فى ذاك شاتين

وقال الشيخ شهاب الدين بن العطار

هلال شعبان جهرا لاح فى صفر * بالنصر حتى أرى عيدا بشعبان

وأهل كبش كأهل الفيل قد أخذوا * رجما وما انتطحت فى الكبش عنزان

ثم ان السلطان لما خمدت الفتنة رسم بالافراج عن من يذكر من الامراء ممن كان مسجونا بثغر الاسكندرية وهم الامير يلبغا آص والامير الجاى اليوسفى والامير ملكتمر الشيخونى الخازندار والامير ايدمر الخطائى فلما أفرج عنهم وطلعوا الى القلعة خلع على الامير يلبغا آص المنصورى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن استدمر الناصرى وخلع على الامير الجاى اليوسفى واستقر به أمير سلاح عوضا عن الامير ازدمر العمرى الناصرى الخازندار وكان الامير الجاى اليوسفى زوج أم السلطان الملك الاشرف شعبان وأنعم على الامير ايدمر الخطائى بتقدمة ألف وأنعم على الامير ملكتمر الشيخونى الخازندار بتقدمة ألف (أقول) والامير ملكتمر هذا هو الذى عمر الجامع الاخضر الذى عند دفم الخور بين الغيطات ثم استمر الحال ساكنا مدة يسيرة وقبض السلطان على يلبغا آص المنصورى وعلى الامير ملكتمر الشيخونى وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان أن يلبغا آص لما حضر الى القاهرة التف عليه جماعة من الامراء وقد عول على الركوب على السلطان فلما تحقق السلطان ذلك بادر اليه وقبض عليه وعلى الامير ملكتمر وقيدهما وأعادهما الى السجن بثغر الاسكندرية وفى ذلك يقول ابن العطار

يلبغا آص تولى جمعة * فبغى واختار حربا وادعى

ويح من جا لحكم زائرا * ثم ما سلم حتى ودعا

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى منكلى بغا الشمسى نائب حلب فلما حضر خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا آص ثم أرسل خلف الامير على الماردينى

نائب

نائب الشام فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية وكان من خيار الامراء ۞ وفي هذه السنة توفي الملك المنصور غازي صاحب ماردين وتولى من بعده ابنه الملك الصالح محمود ۞ ومن الحوادث في هذه السنة جاءت الاخبار من دمشق أنه قد نزل بها جراد عظيم لم يسمع بمثله وقد أتى هذا الجراد من مكة الى دمشق فأكل الاشجار وسد أعين المياه وكان معظم أمره في قرى دمشق مثل حوران وعجلون فلما كان يوم الجمعة دخل الجراد الى جامع بني أمية حتى ملأ صحن الجامع وصار يترامى على الخطيب وهو فوق المنبر حتى شغله عن الخطبة ثم كثر حتى جافت منه القرى والبلدان فوخم منه الناس حتى صاروا يشمون منه القطران من كثرة رائحته الكريهة ثم تناقص من بعد ذلك حتى ارتفع عن البلاد الشامية ۞ ثم دخلت سنة احدى وسبعين وسبعمائة فيها خلع على المقر السيفي قشتمر المنصوري واستقر به نائب حلب عوضا عن منكلي بغا الشمسي ثم رسم بالافراج عن الامير ازدمر العمري الناصري جد مؤلفه وقد تقدم انه نفي الى الصبيبة في وقعة الاتابكي استدمر بسبب مماليك يلبغا فأقام بالسجن في الصبيبة مدة ثم رسم بالافراج عنه ليوليه نيابة الشام عوضا عن الامير علي المارديني فلما وصل الامير ازدمر الى العريش مرض هنالك ودخل الى القاهرة وهو عليل فأقام مدة يسيرة ومات الى رحمة الله تعالى ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من زاوية الشيخ أبي العباس البصير رضي الله عنه وكان الامير ازدمر هذا أميرا جليلا دينا خيرا له بر ومعروف وآثار فمن ذلك انه لما كان نائب حلب أنشأ خانا بها يعرف بخان سراقب ولما كان نائب طرابلس أنشأ حوضا وسبيلا على الدرب السلطاني في قرية من أعمال جبل نابلس تسمى قرية حلمة بني سعد وله أوقاف على الحرمين الشريفين والذرية وكان قليل الاذى كثير الجود كما قيل

وليس بحيق المال رياحنوطه ، ولكنه ذاك الثناء المخلف

وولي من الوظائف أمير سلاح بالديار المصرية مرتين وولي نيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة صفد وغير ذلك من الوظائف وكانت وفاته أي الامير ازدمر يوم الاربعاء سادس ربيع الآخر سنة احدى وسبعين وسبعمائة ولما توفي الامير ازدمر خلع السلطان على المقر السيفي منجك اليوسفي واستقر به نائب الشام عوضا عن الامير ازدمر العمري وكان قد عين له نيابة الشام وفيها خلع السلطان على الامير اكز الكشلاوي واستقر به وزيرا واستادارا وفيها توجه السلطان الى بر الجيزة ونزل عند الاهرام على سبيل التنزه فاقام هنالك سبعة أيام ثم رحل من هنالك وتوجه الى البحيرة ثم رحل من هناك وتوجه الى ثغر الاسكندرية وكان ذلك في أيام النيل فحصل للعسكر مشقة عظيمة بسبب المخايض في الطريق فلما دخل السلطان الى مدينة اسكندرية دخل من باب رشيد والامراء مشاة بين يديه من باب رشيد الى باب البحر

وفرش له نائب الاسكندرية الشقق الحرير تحت حوافر فرسه ونثر على رأسه الذهب والفضة وكان له يوم مشهود فأقام هناك ثلاثة أيام ودخلت عليه التقادم والهدايا ثم رحل من الاسكندرية ورجع الى القاهرة وطلع الى القلعة ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة أن جماعة من العوام وقفوا تحت القلعة ومنعوا الامراء عن الطلوع الى القلعة وصاروا يرجون الناس فأرسل اليهم السلطان بعض الامراء وهو يقول لهم ايش قصدكم فأرسلوا يقولون للسلطان تسلمنا علاء الدين بن كبك شاد الدواوين ووالى القاهرة فوقفوا تحت القلعة الى ما بعد العصر وحصل منهم غاية الفساد فرسم السلطان للمماليك بان ينزلوا اليهم فنزلوا ورموهم بالنشاب فتشتتوا وهربوا من الرميلة فأمسكوا منهم جماعة وأودعوهم فى الحبس وقتل منهم جماعة بالنشاب وهرب الباقون فارين على وجوههم وغلقت فى تلك اليوم المدينة قاطبة ولم يفد وقوفهم فى الرميلة شيأ فكان كما قيل فى المعنى

سل السيف عن أهل الفخار وفرعه * فانى رأيت السيف أصدق مقولا

ثم ان السلطان نادى للعوام بالامان والاطمئنان وعزل عنهم والى القاهرة وولى الامير حسين ابن الكورانى واليا على القاهرة عوضا عن بكتمر السيفى وفيها جاءت الاخبار من حلب بان نائب حلب قشتمر المنصورى قد قتل هو وولده محمد وسبب ذلك ان شخصا من آل فضل يسمى الامير جبار وقع بينه وبين نائب حلب تشاجر فخرج اليه نائب حلب مع العساكر الحلبية فتقاتل مع الامير جبار فقويت العربان على نائب حلب فقتل هو وولده فى المعركة ثم ان السلطان خلع على الامير عشقتمر الماردينى وهو صاحب الخانقاه التى فى باب القرافة واستقر به نائب حلب عوضا عن قشتمر المنصورى وأرسل خلعة الى الامير زامل من آل فضل بان يكون عوضا عن الامير جبار بن مهنا فخرج الامير عشقتمر وتوجه الى حلب ثم ان السلطان عمل الموكب وأنعم على من يذكر من الامراء بتقادم ألوف منهم الامير بشتاك الكريمى فخلع عليه واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الامير خليل بن قوصون وأنعم على الامير بهادر الجمالى بتقدمة ألف وأنعم على جماعة من الخاصكية بامريات طبلخانات وعشراوات وفى هذه السنة حجت خوند بركة أم السلطان الملك الاشرف شعبان فخرجت من القاهرة فى موكب عظيم فى محفة زركش والامراء مشاة قدامها وخرج صحبتها العصائب السلطانية والكؤسات وحج معها الامير بشتاك رأس نوبة النوب والامير بهادر الجمالى ومائتا مملوك من المماليك السلطانية ۞ ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فيها رجعت خوند أم السلطان من الحجاز الشريف ووصلت الى القاهرة فى سادس عشر المحرم فخرج اليها السلطان ولاقاها من البويب وكان يوم دخولها يوما مشهودا حتى طلعت الى القلعة وفى هذه السنة توفى الامير على الماردينى الناصرى نائب السلطنة بمصر وكان أميرا دينا خيرا

كثير

كثيرالبر والصدقات قليل الاذى كثيرالخير قريبا من الناس تولى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة السلطنة بمصر ومات والناس راضون عنه وكثر عليه الاسف والحزن من الناس ولما مات خلع السلطان على الامير طشتمر العلائى واستقر به نائب السلطنة بمصر عوضا عن الامير على الماردينى الناصرى انتهى ذلك ۞ ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة فيها رسم السلطان بان السادة الاشراف قاطبة يجعلون فى عمائمهم شطفات خضر حتى يمتازوا عن غيرهم وتعظيما لقدرهم فنودى لهم فى القاهرة بذلك فامتثلوا أمره المتداول وفى هذه الواقعة يقول الشيخ شهاب الدين بن جابر الاندلسى

جعلوا لابناء الرسول علامة ۰ ان العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة فى كريم وجوههم ۰ يغنى الشريف عن الطراز الاخضر

وقال الشيخ بدر الدين بن حبيب

عمائم الاشراف قد تميزت ۞ بخضرة رقت وراقت منظرا
وهذه اشارة ان لهم ۞ فى جنة الخلد لباسا أخضرا

وقال الشيخ شمس الدين بن المزين

اطراف تيجان أتت من سندس ۰ خضر كاعلام على الاشراف
والاشرف السلطان خصصهم بها ۰ شرفا لنعرفهم من الاطراف

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة

لآل رسول الله جاه ورفعة ۞ بها رفعت عنا جميع النوائب
وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم ۞ اذا ما بدوا للناس تحت العصائب

وفى هذه السنة عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى بهاء الدين السبكى وأرسل خلف الشيخ برهان الدين بن جماعة خطيب بيت المقدس فلما حضر خلع عليه وولاه قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن بهاء الدين السبكى وكان الشيخ برهان الدين هذا ابن أخى قاضى القضاة عز الدين بن جماعة المقدسى ۞ ثم دخلت سنة أربع وسبعين وسبعمائة فيها توفى الاتابكى منكلى بغا الشمسى وكان من خيار الترك ولما توفى خلع السلطان على المقر السيفى الجاى اليوسفى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن منكلى بغا الشمسى بحكم وفاته وفيه أنعم السلطان على ولده الامير على بتقدمة ألف وفى هذه السنة كانت وفاة خوند بركة أم السلطان الملك الاشرف شعبان وكانت ذات حسن وجمال وذات دين وخير ولها بر ومعروف وهى التى أنشأت المدرسة التى بالتبانة ورتبت بها دروسا للمذاهب الاربعة وحضورا فى كل يوم لصوفية ومكتبا للايتام وحوضا وسبيلا ولما ماتت دفنت

بهذه المدرسة وحزن عليها السلطان حزناً شديداً وكانت ذات عقل ورأى سديد وقد رثاها الشهاب ابن الاعرج بقوله

في الثان والعشرين من ذى قعدة * كانت صبيحة موت أم الاشرف
فالله يرحمها ويعظم أجرها * ويكون في عاشورا موت اليوسفى

فكان الفال بالمنطق كما يقال

لا تنطقن بما كرهت فربما * نطق اللسان بحادث سيكون

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وسبعمائة فيها في يوم الثلاثاء سادس شهر الله المحرم وثب على السلطان الاتابكى الجاى اليوسفى زوج أمه ولبس آلة الحرب وطلع الى الرميلة هو ومماليكه وكان سبب ذلك انه قد حصل بينه وبين السلطان حظ نفس بسبب ميراث أم السلطان فخنق الاتابكى الجاى من السلطان فوثب عليه ثم ان السلطان نادى للعسكر والامراء بان يركبوا ويحاربوا الاتابكى الجاى فركب جميع الامراء والعسكر وطلعوا الى الرميلة ووقعوا مع الجاى واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة وآخر الامر انكسر الاتابكى الجاى وهرب نحو بركة الحبش ثم طلع من عند الجبل الاحمر وأتى الى قبة النصر فأقام بها فأرسل اليه السلطان خلعة بأن يكون نائب حماه ويخرج من هنالك فأبى الجاى من ذلك وأقام بقبة النصر الى يوم الخميس وهو لابس آلة الحرب فنادى السلطان للعسكر والامراء أن يتوجهوا اليه بقبة النصر ويحاربوه فتوجهوا اليه وحاربوه فانكسر الجاى ثانياً وهرب الى نحو شبرا فساقوا خلفه فأدركوه فرمى نفسه في البحر وهو راكب فرسه فغرق الجاى ومات وطلع فرسه من برانبابه من عند الوراق وقبض العسكر على مماليكه وخيوله وسلاحه وأحضروهم بين يدى السلطان وحكوا له ما جرى ثم ان السلطان أرسل جماعة من الغطاسين الى نحو شبرا فغطسوا هنالك وطلعوا بالجاى فاحضروا له تابوتاً وأتوا به الى القاهرة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بمدرسته التي أنشاها في سويقة العزى وكان ذلك في يوم الجمعة عاشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما قالوا عليه وكان الاتابكى الجاى أميراً جليلاً مهيباً كثير البر والصدقات يحب فعل الخير ولو أنه حضر بين يدى السلطان وهو في قيد الحياة ما كان يحصل له من السلطان الا كل خير فانه كان زوج أمه وكان له على السلطان تربية قديمة ولكن كان ذلك مقدراً عليه ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى ايدمر نائب طرابلس فلما حضر خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضاً عن الجاى اليوسفى فأقام ايدمر في نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ثم توفى الى رحمة الله تعالى فأرسل السلطان خلف المقر السيفى منجك اليوسفى نائب الشام فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به أتابك العسكر عوضاً عن أيدمر وأضاف اليه نيابة السلطنة مع

الاتابكية وفوض اليه أمور المملكة قاطبة من الديار المصرية والبلاد الشامية ورسم له بأن يخرج الاقطاعات من غير مشورة السلطان من أربعمائة دينار الى ستمائة دينار وكانت عادة نواب السلطنة من قديم الزمان أن لا يخرجون من الاقطاعات أكثر من أربعمائة دينار الى ما دون وفيها خلع السلطان على مملوكه الامير أرغون شاه الاشرفي واستقر به رأس نوبة النوب وفيها جاءت الفرنج الى رشيد فخرج اليهم الاتابكي منجك مع جماعة من العسكر فكسروهم وهربوا منهم الى بلادهم وفي ذلك يقول ابن أبي حجلة

أمنجك سل في الاعداء بترك * ولا تترك من الافرنج بترك

تداركت المعالي بالعوالي * ولكن فضل جودك ليس يدرك

وقد آنست مصر احين قالت * تولى الله حيث حللت نصرك

❁ ومن الحوادث في هذه السنة ان النيل توقف عن الوفاء ثم هبط ونقص أصبعين فضج الناس لذلك وماجت مصر وتشحطت الغلال وامتنع الخبز من الاسواق فرسم السلطان للناس بأن يخرجوا ليستسقوا فلما كان يوم الخميس ثاني ربيع الآخر من السنة المذكورة خرج الناس قاطبة الى الصحراء واجتمع هناك الجم الغفير من العلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والاطفال وطائفة اليهود وطائفة النصارى وحضر الخليفة محمد المتوكل على الله والقضاة الاربعة ولم يزل السلطان معهم ثم توجهوا من وراء قبة النصر ونصبوا هناك منبرا وصعد اليه قاضي القضاة الشافعي وهو الشيخ شمس الدين بن القسطلاني وخطب خطبة بليغة في الاستسقاء ولما حول رداءه كشف عن رأسه ودعا الله تعالى وكان ذلك اليوم يوما مشهودا تسكب فيه العبرات ولما رجع الناس وباتوا تلك الليلة هبط الماء جملة واحدة وتزايد سعر الغلال وبلغ ثمن كل اردب مائة وعشرين درهما ومن الشعير كل اردب بثمانين درهما وبلغ ثمن الرغيف الخبز الكشكار أربعة دراهم وبلغ الرطل اللحم الضاني درهمين ونصفا كل رطل واللحم البقري كل رطل بدرهم ونصف وبلغ ثمن البيضة عشرة دراهم كل واحدة وبلغ ثمن الراوية الماء خمسة دراهم ومات تلك السنة أكثر الدواب من قلة العلف وغلا سعر كل شيء من أصناف البضائع وجاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى بلغ ثمن البطيخة الصيفي مائة درهم والرمانة ستة عشر درهما وصار القمح كل يوم يتزايد سعره فلما اشتد الامر وشرقت البلاد رسم السلطان للاتابكي منجك بان يجمع حرافيش الذين في القاهرة ويفرقهم على الامراء وأعيان التجار ففعل ذلك ورسم السلطان بان يعطوا لكل فقير رغيفين ومد يشا كل ذلك من الطعام واستمر الامر على ذلك نحو سنة ولم يتراجع السعر ولم ينحط عن ذلك حتى صار الناس يأكلون خبز الفول وخبز النخال ونحو ذلك واستمر الحال على ذلك ❁ ثم دخلت سنة ست وسبعين وسبعمائة فيها جاءت الاخبار من حلب بان نائب حلب خرج الى مدينة سيس

هو والعساكر الحلبية وفتح مدينة سيس وكانت فى ايدى الارمن فلما جاءت الاخبار بذلك فرح السلطان وأمر بدق الكاسات سبعة أيام وزينت القاهرة سبعة أيام وأرسل نائب حلب صاحب سيس وهو أسير ومقيد وكان اسمه تكنور فرسم السلطان باعتقاله ورتب له فى كل يوم ما يكفيه من النفقة وهو فى السجن وقد هنأ بعض الشعراء السلطان بقصائد فى فتح مدينة سيس حيث قال

الملك الاشرف سلطاننا * أيده الله بعز نفيس

ساق الى محو العدا أدهما * وجاءه النصر على أخذ سيس

وفيها جاءت الاخبار من بغداد بان القان أويس صاحب بغداد قد توفى الى رحمة الله تعالى وتولى من بعده ابنه حسين وكانت مدة مملكة القان أويس على توريز وبغداد تسع عشرة سنة وفيها كانت وفاة الاتابكى منجك اليوسفى وكانت وفاته فى يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة ودفن فى خانقاته التى أنشاها فى رأس الصوة تجاه الطبلخانات السلطانية ومات وله من العمر نحو سبعين سنة وكان أميرا جليلا عظيما كثير البر والصدقات وله آثار ومعروف بمصر والشام وقد تولى نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة السلطنة بمصر وأتابك العساكر بالديار المصرية ۞ ثم دخلت سنة سبع وسبعين وسبعمائة أقول وهذه السنة عزيزة الوقوع لانه قد اجتمع فيها ثلاث سباع فهى سبع وسبعون وسبعمائة وهذا غير ممكن أن يتفق مثلها من سنى الهجرة النبوية من الاعوام القابلة ولم يتفق مثلها فى مبتدا الاسلام غيرها من السنين ففيها ختن السلطان أولاده وأقام لهم مهرجانا فى القلعة سبعة أيام وكان ذلك تاسع المحرم وفيها كملت عمارة السلطان التى أنشأها فى رأس الصوة تجاه الطبلخانات ولم يحدث فى هذه السنة من الحوادث شئ وكان غالب الناس يتطيرمنها فلم يحصل فيها الا الخير ۞ ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فيها أبطل السلطان ضمان المغانى من سائر أعمال مملكته وكان ذلك عبارة عن مال كثير مقرر على سائر المغانى من رجال ونساء يؤدونه فى كل سنة الى الخزائن الشريفة فأبطل ذلك ومن جملة ما أبطله ضمان القراريط وكان عبارة عن أن الشخص اذا باع ملكا يؤخذ منه لبيت المال عن كل ألف درهم عشرون درهما فابطل ذلك وصار فى صحيفته الى يوم القيامة وفيها توعك السلطان وأقام فى الفراش منقطعا مدة ثم شفى وخرج الى الموكب ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يحج فى هذا السنة فاشار عليه بعض الصلحاء بترك الحج فى هذه السنة فلم يسمع وأخذ فى أسباب عمل البرق فلما كان يوم السبت ثانى عشر شوال خرج السلطان من القاهرة ونزل من القلعة فى موكب عظيم وطلب وخرج من الميدان الذى تحت القلعة وقد اشتمل الطلب السلطانى من الهجن على عشرين نوبة بقماش زركش

وخمسة عشر نوبة بقماش حرير ملون ونوبة هجن ملبسة خليفتي ونوبة هجن ملبسة أبيض برسم الاحرام وكان في الطلب ما ثناقرس ملبسة بركشتونات مخمل ملون وشى فولاذ مكفت بالذهب وفيه بجاوتين زركش وكان فيه عشر محفات زركش برسم الحريم وكان فيه ستة وأربعون زوجا محاير مخمل ملون برسم السراري والعيال وكان في السنيح خمسمائة جمل محملة سكرا وحلوى وفاكهة وغير ذلك برسم ما يحتاج اليه المطبخ وكان فيه قطاران من الجمال محملة أشجارا مزهرة في طينها وهي في صناديق خشب مزفته فلما انتهى أمر الطلب خرج السلطان من الميدان في موكب عظيم وقدامه سائر الامراء من كبير وصغير وكان له يوم مشهود ولما نزل من القلعة توجه الى نحو بركة الحاج على العادة فلما أقام هناك خلع على الشيخ ضياء الدين الغنوى واستقر به شيخ مدرسته التي أنشاها برأس الصوة وقرر بها حضورا من بعد العصر وصوفية وكانت هذه المدرسة من محاسن الدنيا في الزخرفة والبناء وقد هدمت هذه المدرسة في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج وكان صحبته من الامراء المقدمين تسعة وهم المقر السيفي أرغون شاه الاشرفي والمقر السيفي صرغتمش الاشرفي أمير سلاح والمقر السيفي يلبغا السابقي أمير مجلس والمقر السيفي بهادر الجمالي أمير اخور كبير والمقر السيفي صراي تمر المحمدي رأس نوبة النوب والمقر السيفي طشتمر العلائي الدوادار والامير مبارك شاه الطازي والامير قطلقتمر العلائي الطويل والامير بشتاك العمري ومن امراء الطبلخانات خمسة وعشرون أميرا ثم ان السلطان جعل المقر السيفي اقتمر بن عبد الغني نائب السلطان مقيما بالقاهرة وجعل الامير ايدمر الشمسي نائب الغيبة ورسم للامراء المقيمين بالقاهرة بان يطلعوا الى القلعة في كل يوم اثنين وخميس ويعطوا الخدمة للاسياد أولاد السلطان فصار الامراء بعد توجه السلطان يطلعون الى القلعة ويجلسون على باب الستارة ويخرج اليهم ابن السلطان الامير على وكان أكبر أولاد السلطان فيجلس مع الامراء ساعة لطيفة على باب الستارة ويحضر لهم السكر فيشربون وينصرفون واستمروا على ذلك مدة يسيرة وكان السلطان الملك الاشرف شعبان لما قصد التوجه الى الحجاز الشريف ضبط أمور المملكة قبل خروجه وأخذ معه من الامراء من كان يخشى أمره وترك بالقاهرة من الامراء من كان يركن اليه وظن ان الامور قد استقامت له ان تمدى بما فعله من رأيه كما قيل

يا حاسبا الامر ان تعتريه لقد * حسبت شيأ وغابت عنك أشياء

فلم يتم بذلك مراده وجنى عليه اجتهاده كما قيل

اذا لم يكن عون من الله للفتى * فأول ما يجني عليه اجتهاده

فلما رحل السلطان من بركة الحاج ورجع كل أحد الى بيته وكان يوم السبت ثالث ذى القعدة وثب جماعة من الامراء ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة وكان القائم فى ذلك الامير طشتمر المحمدى المعروف باللفاف أحد الامراء العشراوات والامير قرطاى الطازى أحد رؤس النوب والامير استدمر الصرغتمشى والامير اينبك البدرى ولم يكن فيهم أمير مقدم ألف فلما طلعوا الى الرميلة التف عليهم جماعة كثيرة من المماليك السيفية ومماليك الاسياد فهجموا كلهم وطلعوا الى القلعة ووقفوا على باب الستارة ودقوا الباب فخرج اليهم الامير مثقال الجمالى الزمام والامير جلبان اللالا والامير قطلوبغا جركس اللالا فقالوا للمماليك ما الخبر فقالوا قد سمعنا ان السلطان لما وصل الى العقبة وثب عليه المماليك وقتلوه فأخرجوا لنا الامير على حتى نسلطنه ولم يكن لهذا الكلام صحة ولكن كان الفأل بالمنطق كما يقال فى المعنى

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى * ان البلاء موكل بالمنطق

فلما سمع الامير الزمام ذلك توقف ساعة فاغلظ عليه المماليك فى القول وعينوا له القتل فلما رأى منهم الجد دخل الى دور الحرم وأخرج الامير على ابن الملك الاشرف شعبان فجلس على باب الستارة ساعة ثم توجه المماليك الى الامير ايدمر الشمسى نائب الغيبة وأحضروه الى القلعة فلما حضر أخذوا الامير عليا وتوجهوا به الى الايوان الكبير وأجلسوه على سرير الملك وقبلوا له الارض ثم أرسلوا خلف من كان فى القاهرة من الامراء فطلعوا الى سوق الخيل فطلبوهم ليطلعوا القلعة فأبوا من ذلك فركبوا الامير عليا ونزلوا به الى باب السلسلة وجلس فى الخزانة التى فى الاسطبل السلطانى ونادى لسائر الامراء ان يطلعوا الى باب السلسلة فطلعوا خفوهم وقبلوا للامير على الارض ولقبوه بالملك المنصور ثم ان المماليك أمسكوا فى ذلك اليوم جماعة من الامراء العشراوات وهم الامير طشتمر الصالحى والامير بلاط السيفى الجاى والامير حطط اليلبغاوى أحد رؤس النوب فلما قبضوا عليهم سجنوهم بالقلعة ثم قالوا لوالى القاهرة نادى فى المدينة بالامان والاطمئنان والدعاء للملك المنصور على فنزل الوالى ونادى بذلك فى القاهرة وكان ذلك فى يوم السبت ثالث ذى القعدة من السنة المذكورة فلما كان يوم الاحد صبيحة ذلك والناس مائجة فى بعضهم اشتاعت الاخبار بين الناس بان شخصا من المماليك السلطانية قبض على شخص من المماليك الذين كانوا فى الحجاز يقال له قازان اليرقشى من جملة الامراء الاخورية وكان صحبة السلطان فوجدوه فى المدينة وهو متنكر فقبضوا عليه وأحضروه الى الامير ايدمر الشمسى نائب الغيبة فسأله عن سبب ذلك وحضوره الى القاهرة فغمغم فى الكلام وتلجلج بلسانه فعرّاه الامير ايدمر وأراد توسيطه فقال له امهلنى حتى أخبرك بما

جرى هنالك فألبسه أثوابه وقال له احك فقال لما وصل السلطان الى العقبة دخلها فى يوم الثلاثاء وأصبح فى يوم الاربعاء وقف عليه جماعة من المماليك السلطانية وطلبوا منه العليق فقال لهم اصبروا الى الازلم فرجعوا وهم على غير رضا منه فلما مد السماط لم يحضر من المماليك السلطانية أحد فظهر للسلطان منهم الغدر ثم ان المماليك توجهوا الى جماعة من الامراء منهم الامير طشتمر العلائى الدوادار الكبير والامير مبارك شاه الطازى والامير صراى تمر المحمدى والامير قطلقتمر العلائى الطويل فاتفقوا معهم على الوثوب على السلطان فلما كان يوم الخميس ركب هؤلاء الامراء على السلطان والتف عليهم جماعة كثيرة من مماليك الاسياد فلما تحقق السلطان ذلك ركب هو وجماعة من الامراء منهم الاتابكى أرغون شاه الاشرفى والامير صرغتمش الاشرفى أمير سلاح والامير بشتاك العمرى رأس نوبة النوب والامير بيبغا السابق والامير يلبغا الناصرى والامير أرغون كتك فركب هؤلاء الامراء مع السلطان ووقع واقعة عظيمة فلم تكن الا ساعة يسيرة وانكسر السلطان ومن معه من الامراء وهربوا الى نحو عجرود فلما سمع الامير الشمسى بذلك ركب هو والامير استدمر الصرغتمشى والامير طولو وجماعة من الامراء السلطانية وتوجهوا الى نحو بركة الحاج فتلاقوا هم والامراء الذين كانوا بصحبة السلطان فى العقبة فلما تلاقوا معهم لم يجدوا السلطان صحبتهم ولا الاتابكى ارغون شاه ولا الامير يلبغا الناصرى فوقعوا هناك فى بعضهم وقتلوا الامراء الذين حضروا من العقبة وقطعوا رؤسهم ودخلوا بها الى القاهرة وعلقوها على باب القلعة هذا ما كان من أمر الامراء وأما ما كان من أمر السلطان الملك الاشرف شعبان فانه لما هرب بعد الكسرة من العقبة قال له محمد بن عيسى شيخ لعائد آخذ ذلك وانوجه بك من هنا الى غزة فتقيم بها حتى تتسامع بك العساكر وتجتمع عليك العرب وترجع الى القاهرة وتأخذ الملك بالسيف فوافقه السلطان على ذلك فمنعه الاتابكى ارغون شاه من ذلك ثم انه دخل الى القاهرة وهو مختف فبات تلك الليلة فى تربة فى الصحراء الى آخر الليل ثم قام من هنالك الى حارة الجودرية واختفى عند امرأة يقال لها آمنة زوجة ابن المشتولى وكانت من عيال أم السلطان فخافت من عقبى ذلك على نفسها من القتل فان الامير ايدمر الشمسى نائب السلطنة نادى فى القاهرة كل من وجد السلطان الملك الاشرف شعبان فى بيته ولا يقربه يشنق على باب بيته فلما سمعت آمنة المذكورة ذلك توجهت الى الامير اينبك البدرى وقالت له ان السلطان مختف عندى فى البيت فلما سمع الامير اينبك بذلك أرسل معها مائة مملوك ملبسة ومعهم أمير يقال له الطنبغا السلطانى فتوجهوا الى الجودرية وكبسوا على بيت آمنة زوجة ابن المشتولى فلما أحاطوا بالبيت هرب السلطان وطلع الى

سطح البيت فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه أحدا فطلعوا الى السطح فوجدوا السلطان مختفيا فى الباذهنج وهو بطاق القميص فقبضوا عليه والذى كان خائفا منه وقع فيه كما قيل فى المعنى

عرفت الليالى قبل ماصنعت بنا * فلما دهتنى لم تزدنى بها علما

فلما قبضوا على السلطان نهبوا جميع ما كان فى البيت ثم اركبوا السلطان فرساوهو مغطى الوجه فطلعوا به الى القلعة بعد المغرب وتسلمه الامير اينبك البدرى ولما دخل الليل خلا الامير اينبك بالسلطان وبات فى تلك الليلة يعاقبه ويقرره على الاموال والذخائر فلما كانت ليلة الثلاثاء دخل جركس مملوك الاتابكى الجاى اليوسفى وكان فى قلبه من السلطان من أيام استاذه الجاى شئ فتسلم السلطان وخنقه بوتر حتى مات ثم وضعه فى قفة وكسر ظهره وخيط بلاسى وأرسله تحت الليل على حمار ورماه فى بئر عند باب الزغلة وكانت قتلته فى ليلة الثلاثاء ثالث ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ومات وله من العمر نحو أربع وعشرين سنة وكان مولده فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية أربع عشرة سنة وشهرين ويوما وزال عنه الملك كأنه لم يكن فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير وقد قيل فى المعنى

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض * على الماء خانته فروج الاصابع

ثم ان الملك الاشرف شعبان لما رموه فى البئر كما تقدم أقام فيها أياما فظهرت رائحته وطف على الماء فرآه بعض الطواشية فلما تحقق انه السلطان صبر حتى دخل الليل واحضر له تابوتا وطلعه من البئر وحمله فيه وأتى به الى مدرسة والدته التى فى التبانة فغسله هناك وكفنه وصلى عليه ثم دفنه فى القبة التى تجاه المدرسة وكان الملك الاشرف شعبان من محاسن الزمان فى العدل والحلم وكان ملكا هينا لينا محبا للناس منقادا للشريعة ويحب أهل العلم ويحسن لهم وكان كثير البر والصدقات على الفقراء والمساكين وكان محسنا لاقاربه وابناء عمه بخلاف من تقدمه من بنى قلاون وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجار يدا الى البلاد الشامية وفساد العرب وساس الناس فى أيام دولته أحسن سياسة وكانت الناس راضية عنه حتى مات رحمه الله وقد قال فيه القائل

للملك الاشرف السلطان سيدنا * مناقب بعضها يبدو به العجب

له خلائق بيض لا يغيرها * صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

ولما مات الاشرف شعبان خلف من الاولاد ستة ذكور وسبع بنات فاما الذكور فسيدى على الذى تسلطن بعده وسيدى أمير حاج الذى تسلطن بعد أخيه على وسيدى قاسم وسيدى محمود وسيدى اسمعيل وسيدى ابو بكر وولد له بعد موته سيدى أحمد الذى من خوند

سمراء وأما فتوحاته من المدن فدينة سيس ومدينة سنجار ومدينة دوركى وأما ما انشأه في القاهرة من العمائر فالمدرسة التى كانت في رأس الصوة تجاه الطبلخانات السلطانية والقاعة الاشرفية التى بالقلعة داخل دور الحرم وله غير ذلك آثار كثيرة وتذكار وكان في أيامه جماعة كثيرة من أولاد الناس طبلخانات وأمراء عشراوات فاما الامراء الطبلخانات فالامير على بن منجك اليوسفي والامير أحمد بن يلبغا العمرى والامير عبد الله بن بكتمر الحاجب والامير موسى بن دندار والامير قرطقا بن صوصون وأمير حاج بن مغلطاى والامير محمد بن تنكز بغا وأما من كان منهم من أمراء العشراوات فنهم الامير أبو بكر ابن سنقر الجمالى والامير أحمد بن محمد بن قطلوبغا المحمدى ومحمد بن سنقر المحمدى والامير خضر بن عمر بن أحمد ابن الاتابكى بكتمر الساقى وكان من أولاد الناس في أيامه جماعة كثيرة نواب في البلاد الشامية وبالجملة ان الملك الاشرف شعبان كان آخر بنى قلاون في الحرمة والعظمة ونفاذ الكلمة وكان عارفا باحوال أمور المملكة حسن التدبير ماشيا على القواعد المرضية مستجلبا لخواطر الرعية وكان حسن الشكل سخى النفس شجيع القلب ولكن خانه الدهر وسطا عليه بالقهر فعاجله المنون وخابت فيه الظنون هذا ما كان من أمر الملك الاشرف شعبان بعد رجوعه من العقبة وأما ما كان من أمر الامراء الذين خامروا على السلطان في العقبة فانه لما هرب السلطان من هنالك اجتمعوا ودخلوا على الخليفة المتوكل على الله محمد وكان قد سافر صحبة السلطان هو والاربع قضاة فقالوا له تسلطن أنت أحق بالسلطنة فامتنع من ذلك غاية الامتناع وطال بينه وبين الامراء الجدال فلما صمم الخليفة على الامتناع عينوا مع الحجاج الامير بهادر الجمالى أمير اخور كبير فتوجه صحبة المحمل مع الحجاج وساروا ركبا واحدا ثم ان الامراء أخذوا الخليفة والقضاة الاربع وقصدوا التوجه الى الديار المصرية وصحبتهم حريم السلطان الملك الاشرف شعبان ثم ان القضاة سالوا افضل الامراء أن يزوروا بيت المقدس فانعموا لهم بذلك وأرسلوا معهم جماعة من المماليك السلطانية فتوجهوا من هنالك الى بيت المقدس فلما وصل الخليفة والامراء الى عجرود جاءت الاخبار بما جرى في القاهرة من قتل السلطان وسلطنة ولده الامير على ومن غريب الاتفاق أن اليوم الذى خامر فيه المماليك وركبوا على السلطان في العقبة وافق اليوم الذى ركب فيه الامراء بالقاهرة وسلطنوا سيدى عليا ابن السلطان فلما سمعوا ذلك وصلوا الى بركة الحاج جاءت الاخبار بذلك الى القاهرة وتوجه اليهم جماعة من الامراء والمماليك السلطانية فوقعوا معهم عند المطرية فانكسر الامراء الذين جاؤهم من القاهرة وساق خلفهم الامير قطلقتمر العلائى الطويل الى رأس الصوة فتكاثر عليه المماليك السلطانية حتى أمسكوه وحضروا به الى نائب السلطنة فلم يشوش عليه ثم دخل الامير طشتمر الدوادار

الكبير واختفى فى تربة فى الباب المحروق فنم عليه الغلمان فجاؤا اليه وقبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه الى ثغر الاسكندرية وقبضوا معه على جماعة من الامراء ونفوهم الى الاسكندرية وخمدت الفتنة وسكن الاضطراب واستمر سيدى على سلطانا كما سيذكر ذلك فى موضعه ولما مات الاشرف شعبان رثاه القيم خلف الغبارى بهذه القطعة الزجل فقال

عن منازل طالع القلعة * كوكب السعد اختفى حين بان
اقتران زحل مع المريخ * كسوف شمس انتقل شعبان
صار محرما يوما لما * صفر المنزل من الاشرف
وادخر منا ربيعى عيش * وجمادين فتكهم أسرف
ورجب فيه الملك شعبان * دور المحمل ولا أشرف
ورمضان صاموا وفى شوال * شال وذى القعدة بدا الحرمان
فيه جرت سيره لذى الحجة * ماجرت فى سائر الازمان
قد فهمنا أصل ذى النوبه * بسماع ماجا من الاخبار
فى حصار شعبان وفى ضربوا * نوبتين والخنق بالاوتار
ولذا صار قلبنا موصول * بالهموم والعقل منا طار
وخروج السهم لو تشبيب * فى القصب من داخل الابدان
والسيوف غنت لرقص الخيل * والانامل هزت العيدان
للحجاز لما نوى الاشرف * ورحل مع جملة العشاق
خامرت ميه من العسكر * ولرصد الغدر جوا جواق
قتلوه شركه وتاريخو * للعراق والاصبهان انساق
وقد اضحى فى الرمال مدفون * والذى بيه فى طرب فرحان
صار محيرو الحمام فى الدوح * ناح لفقد و باختلاف ألحان
الذخائر ذاهبه حين صار * واسطة عقد الجيوش غايب
والعقيق كنواقد اتخضب * بالدماحين هربو كارب
وسلوك الدر والياقوت * عقدها انفرط من التيجان
واصبح الجوهر يتيم بعدو * ودموع العين عليه مرجان
ذى الذى كان الملك ايدو * وايدهم فى فرد زبديه
جوه بعمله غدر مدفونه * وخيول فى السر مخفيه
وقلوب بالغلب مغمومه * وكبود بالغبن مشويه

وأمور مزورة لكن * قبل ماسقوه الهوان ألوان
طبخوا القدره وقد صاروا * حولها مستجمعين اخوان
فى أتابك مصركنت اعهد * قوم عزيزين جبر للكسور
منهم ارغون وصرغتمش * والشهير بالسابق المنصور
والامير بشتالئمع الافرم * بامر من لو الحكم والمقدور
جا القضا عاجل خد الجسة * وقد اضحى عزهم منهان
هكذا الدنيا وقد قالوا * فى المثل ماعزشى الاوهان
جاك بنفسو ذا الملك لما * جا يصيب دستو اعليه مقلوب
وأخذ فيكو سريع شامات * وانكشف رخو وصار مغلوب
هكذا فى وقعة الدنيا * دست هذى المملكة المنصوب
ذا يكن راكب فرس عزوا * عاليه فرحان يعود فى أحزان
والذى فى الحاشية بيدق * ينتقل حتى يصير فرزان
مصر وادى تيه وصارت غاب * وسكنوا ابراج حوت رفعه
وأماراتها الذين كانوا * فى هنا من قبل ذى الوقعة
للملك خلان وهم غزلان * واسود وأقمار لهم طلعة
خفيت الاقمار من الابراج * وخلا المسكن من الخلان
وعن الغاب غابت الآساد * وأقفر الوادى من الغزلان
ضم الاشرف قبر ليت شعرى * هو لقنديل نور ضياه جامع
أوصدف فيه خالص الجوهر * أو فلك فيه غاب قمر طالع
أونقول غاب فيه أسد ضارى * أو جفير جواه حسام قاطع
أوكناس فيه أحسن الغزلان * أو جمى فيه أفرس الفرسان
أوجسد فيه روح من الارواح * أوسواد مقله وفيه انسان
نسألك ياالله بجاه موسى * وبعيسى وأحمد المحبوب
غيث الاشرف وأوهبوا رحمه * وعليه أفرغ صبر أيوب
فارق اذ كرنا فراق يوسف * مثل ماأورثنا حزن يعقوب
والخليل مناغدا قائل * خليلو حين يراه لهفان
فى سفين الحزن بعد نوح * وأجر دمعك فى انخدود طوفان
نصر شعبان تم بالكامل * لعلى والحكم للقادر
نسألك ياحق ياعادل * كن بجيش المسلمين ناصر

وأرزق العالم عمل إصالح * واصلح الباطن مع الظاهر
واخمد الفتنا وطمنا * لاتشتتنا من الاوطان
وانصر المنصور على واعفو * عن أبيه الأشرف السلطان
يامن آمسى مثل ماأصبح * فى فرح بالجاه وكنز المال
قط لاتركن لذى الدنيا * واحذر احذر حالها ان حال
كم عزيز ذلته صار يطلب * جاه يجيه ماجاه ومالومال
فالبس البس حلة التقوى * قبل لبسك شقة الاكوان
لاتغرك زينة الدنيا * كل ماتنظر عليها فان
آخر الثامن مع السبعين * بعد تاريخ سبعماية عام
ياغبارى قلت فى الاشرف * نظم شاع فى أقاليم مصر والشام
وأنت فى فن الزجل قيم * بدروج تشهد بها الحكام
وبتنظم النثر من فكرك * كم وكم صنفت من ديوان
والبديع لك صارت الفرسان * فيه رجال والقيمة أدوان

انتهى ذلك وفى أيامه توفى الشيخ نور الدين على بن سعيد المغربي الاندلسى وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد فى ذلك قوله

واطول شوقى الى ثغور * ملأى من الشهد والرحيق
عنها أخذت الذى تراه * يعذب من شعرى الرقيق

انتهى ماأوردناه من أخبار الملك المنصور الاشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك المنصور على ابن الملك الاشرف شعبان

ابن الملك الامجد حسين ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون وهو الثالث والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية بويع بالسلطنة عندما حضر أمير المؤمنين المتوكل على الله من العقبة فبايعه بالسلطنة ولبس خلعة السلطنة وجلس على سرير الملك وجميع الامراء قبلوا له الارض وتلقب بالملك المنصور ونودى باسمه فى القاهرة وضج له الناس بالدعاء فلبس خلعة السلطنة من باب الستارة وركب لابسا شعار الملك والامراء مشاة بين يديه والقبة والطير على رأسه حتى وصل الى الايوان وجلس على سرير الملك ساعة ثم دخل الى القصر الكبير ومد السماط فى القصر وجلس عليه وهو لابس شعار الملك وكانت هذه عادة قديمة ان السلطان يوم يتولى يمد فى القصر سماطا ويجلس عليه وهو

بشعار الملك فلما فرغ من الاكل خلع على المقر السيفى اقتمر الصاحبى الشهير بالحنبلى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية عوضا عن الامير اقتمر عبد الغنى وخلع على المقر السيفى طشتمر المحمدى الشهير باللفاف واستقر به أتابك العساكر بمصر وكان طشتمر المحمدى هذا أمير عشرة فبقى أتابك العساكر فى يوم واحد عوضا عن الاتابكى أرغون شاه الاشرفى وأنعم عليه بيركه ومماليكه وكان ذلك فى يوم الاحد سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وكان السلطان الملك المنصور له من العمر يومئذ نحو سبع سنين وأشهر فلما كان يوم الاثنين سابعه فيه عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم الامير قرطاى الطازى واستقر به رأس نوبة النوب ورسم له بيرك الامير صرغتمش الاميرى الاشرفى وخلع على الامير استدمر الصرغتمشى الناصرى واستقر به أمير سلاح وخلع على الامير قطلوبغا البدرى واستقر به أمير مجلس عوضا عن يلبغا السابق ثم خلع على الامير طشتمر العلائى واستقر به نائب الشام ورسم له بأن يخرج من القاهرة فى يومه وخلع على الامير اياس الصرغتمشى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن طشتمر العلائى وخلع على الامير أينبك البدرى واستقر به أمير اخور كبيرا عوضا عن الامير بهادر الجمالى وأنعم على الامير بلاط السيفى الجاى بتقدمة ألف وكذلك الامير دمرداش اليوسفى وكذلك الامير يلبغا النظامى وكذلك الامير الطنبغا السلطانى وأنعم على جماعة كثيرة من الامراء بامريات طبلخانات وامريات عشراوات فأما الامراء الطبلخانات فهم بيقجا الجمالى وقطلوبغا البشيرى وقطلوبك النظامى وأحمد بن التركمانى وقطلوتجاه أخو أينبك البدرى وتمربغا البدرى والطنبغا المعلم اليلبغاوى وبلكتمر المنصورى ومقبل الرومى واستبغا الدارمى واطلمش الطازى واربغا السيفى جبغا وابراهيم بن قلقتمر العلائى وعلى ابن اقتمر عبد الغنى واستبغا النظامى وماتمور القلمطارى واطلمش الارغونى وأما العشراوات فهم محمد بن قرطاى الطازى وخضر بن الطنبغا السلطانى ومحمد بن شعبان بن يلبغا العمرى ونكا الشمسى واستبغا المحمودى وطيج المحمدى وتلكتمر المنجكى وأقبغا السيفى الجاى وجركس السيفى الجاى وهو الذى خنق الملك الاشرف شعبان رطقتمش السيفى يلبغا وطوغان العمرى الشاطر وخليل بن استدمر العلائى ورمضان بن صرغتمش الناصرى وأخوه حسن ويوسف بن شادى وخضر الرسولى وقطلوبغا أمير علم وسودون النعمانى شاد الزردخاناه واستمر الشرفى ومنكلى بغا الطرخانى ومغلطاى الشرفى ثم نفى جماعة من الامراء وأفرج عن جماعة منهم ممن كان فى السجن بثغر الاسكندرية من أيام الاشرف شعبان ❁ ثم دخلت سنة تسع وسبعين وسبعمائة فيها فى يوم الاحد الحادى والعشرين من شهر صفر عمل المقر السيفى قرطاى الطازى راس نوبه لنوب وليمة فاهدى

اليه المقر السيفى أ ينبك أمير اخور رشتن وعمل له فيه بنجاحر قدا فلما شرب منه الامير قرطاى تبنج ونام حتى طلعت الشمس فركب الامير أ ينبك البدرى ولبس آلة الحرب وطلع الى الرميلة هو ومماليكه والتف عليه جماعة من الزعر والعياق فلما طلع النهار نزل السلطان المنصور الى باب السلسلة وجلس فى المقعد المطل على الرميلة وعلق الصنجق السلطانى ودقت الكؤسات حربيا فطلع بقية الامراء واجتمع المماليك السلطانية فأقام الحرب بينهم عمالا الى يوم الاثنين ثانى عشرى صفر فلما طار البنج من راس الامير قرطاى وصحا من سكره ركب واجتمع بالامراء فأشاروا عليه بأن يرسل فيسأل السلطان فى ذلك بأن يكون نائب حلب فأرسل يسأل السلطان فى ذلك فأرسل له السلطان خلعة بأن يكون نائب حلب ورسم له بأن يخرج من يومه فخرج وتوجه الى نحو سرياقوس فلما ان خرج الامير قرطاى أمسك السلطان جماعة من الامراء ممن كان من عصبة الامير قرطاى ثم ان الامير اقتمر الحنبلى نائب السلطنة أشار على السلطان بأن يقبض على الامير أ ينبك البدرى فلما كان يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من صفر ركب الامير اقتمر الحنبلى نائب السلطنة ليسير نحو المطرية فأرسل اليه الامير أ ينبك البدرى هناك جماعة بخلعة وقال له توجه من هناك الى دمشق واستقر نائب الشام وان رجعت الى بيتك فى هذا اليوم قتلتك فما وسع الامير اقتمر الا الطاعة وتوجه من هناك الى الشام فلما توجه الامير اقتمر الى الشام عمل السلطان الموكب وخلع على الامير أ ينبك البدرى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن الامير طشتمر المحمدى المعروف باللفاف وقبض على الامير طشتمر اللفاف ونفاه الى القدس بطالا ثم أفرج عن الامير اقتمر عبد الغنى وأعاده الى نيابة السلطنة كما كان أولا عوضا عن الامير أقتمر الصاحبى الشهير بالحنبلى وخلع على الامير الطنبغا السلطانى واستقر به أمير مجلس عوضا عن الامير قطلوبغا البدرى وخلع على الامير دمرداش اليوسفى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الامير قرطاى الطازى ثم نفى جماعة كثيرة من الامراء الطبلخانات والعشراوات وأنعم على جماعة كثيرة من غيرهم باقطاعاتهم وخمدت هذه الفتنة ثم ان الاتابكى ا ينبك البدرى وقع بينه وبين الخليفة المتوكل على الله أمور وخلعه من الخلافة وولى زكريا بن ابراهيم ابن عم المتوكل على الله من غير مبايعة ولا عهد وتلقب زكريا بالمستعصم بالله وكانت ولايته من نوع التعصب على المتوكل واستمر الحال ساكنا ثم ان الاتابكى ا ينبك أسكن جماعة من مماليكه فى مدرسة السلطان حسن وأسكن جماعة من مماليكه أيضا فى مدرسة الاشرف شعبان التى كانت فى رأس الصوة وصار يتصرف فى أمور المملكة بحسب مايختار من ذلك وكان له ولد صغير فاعطاه تقدمة الف ولم يزل على ذلك حتى جاءت الاخبار من البلاد الشامية بان النواب جميعا خامروا وخرجوا عن الطاعة فلما تحقق الاتابكى ا ينبك

ذلك علق من يومه الجاليش السلطانى على الطبلخانات وعين الامراء والعسكر الى التجريدة نحو بلاد الشام ثم انه عرض العسكر وأنفق عليهم وخرج مسرعا على جرد الخيل وأخذ معه السلطان الملك المنصور عليا فى محفة وخرج فى تاسع عشر ربيع الاول من السنة المذكورة وتوجه الى هنالك * ومن الحوادث فى هذه السنة ان فى السابع والعشرين من تموز من الشهور الرومية أظلم الجو وأمطرت السماء مطرا شديدا برعد وبرق حتى سال المطر كالغدران ولما أراد السلطان أن يخرج الى التجريدة فصل الخليفة زكريا من الخلافة وولى محمدا المتوكل كما كان أولا وأخذه معه فى التجريدة فكانت مدة الخليفة زكريا فى الخلافة عشرين يوما لاغير وأعيد المتوكل الى الخلافة كما كان فكانت خلافة زكريا كسنة من النوم أو يوم أو بعض يوم فلما رحل السلطان من القاهرة ووصل الى بلبيس رجع الى القاهرة على حين غفلة وكان سبب ذلك ان الامير قطلوبغا أخا الاتابكى اينبك البدرى كان فى الجاليش قدام العسكر فبلغه أن جماعة من المماليك السلطانية قصدوا ان يكبسوا عليه ليقتلوه فهرب تحت الليل هو وثلاثة من الامراء ودخلوا الى القاهرة فلما تحقق اينبك ذلك وأن العسكر قد انقلبوا عليه أخذ السلطان الملك المنصور عليا ورجع الى القاهرة فطلع السلطان الى القلعة وقد ماجت المدينة وكثر القال والقيل بين الناس فلما كان يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر من السنة المذكورة رجع الامراء والعسكر الذين كانوا صحبة السلطان فدخلوا الريدانية وهم على حمية فلبسوا آلة الحرب من وقتهم واجتمعوا فى سوق الخيل وكان العسكر جميعهم مقلوبا على الاتابكى اينبك البدرى فلم تحقق اينبك ان الركبة عليه نزل من القلعة هو وجماعة من الامراء والمماليك السلطانية فوقعوا مع العسكر الذين فى الرميلة فكان بينهم واقعة عظيمة حتى جرى الدم مثل الماء فانكسر الامير قطلوبغا أخو الاتابكى اينبك وقبضوا عليه فلما رأى الاتابكى اينبك ذلك ساق فرسه وهرب من باب القرافة وتوجه الى نحو الكيمان التى بمصر العتيقة فساق خلفه الامير ايدمر الخطائى مع جماعة من الامراء والمماليك السلطانية فادركه فنزل عن فرسه ورمى ملابسه بين الكيمان وهرب وهو ماش فاختفى هنالك فلما هرب اينبك طلع الامراء الى باب السلسلة وصار المتحدث يومئذ فى أمور المملكة المقر السيفى قطلقتمر العلائى الطويل فملك باب السلسلة وأقام بها فاجتمع الامراء وضربوا بينهم مشورة وطلعوا الى باب السلسلة وقبضوا على الامير قطلقتمر العلائى وقيدوه ثم فى صبيحة يوم الاحد ظهر الاتابكى اينبك فى مكان فى كوم الجارح فأرسل الامير يلبغا الناصرى فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية وأرسل معه جماعة من الامراء ممن كانوا من عصبته وفيه يقول الشيخ شهاب الدين بن العطار المصرى رحمه الله

من بعد عز قد ذل اينبكا * وانحط بعد السمو من فتكا

وراح يبكى الدماء منفــردا * والناس لايعرفــون اين بكا

فلما توجه اينبك الى السجن جرى له ماجرى وانتفى مع الجماعة من الامراء واينبك هذا هو صاحب الدرب الذى فى السبع ســقايات ثم ان جماعة من الامراء لبسوا آلة الحرب واقتتلوا فى بعضهم وكان رأس الفتنة الامير برقوق العثمانى والامير بركة الجوبانى والامير يلبغا الناصرى والامير بورى الحلبى الاحمدى وهو صاحب الدرب المنسوب اليه والامير اقبغا من الشيخونى فانفق هؤلاء الامراء مع جماعة من الامراء فانكسر منهم طائفة وهم الامير دمرداش اليوسفى والامير تمرباى الحسنى والامير قطلوبغا الشعبانى والامير دمرداش اليمانى تمرى العلم والامير استدمر العثمانى والامير يجمان العلائى أمير مشوى والامير استبغا التلكى فلما انكسر هؤلاء الامراء قبضوا عليهم وقيــدوهم وأرسلوهم الى السجن بثغر اسكندرية ثم ان الامير يلبغا الناصرى أقام فى باب السلسلة وملك الاسطبل السلطانى وصار يحكم فيه بين الناس فاستمر على ذلك ســبعة أيام فلم يطق ذلك الامير برقوق والامير بركة فهجموا على الامــير يلبغا الناصرى وقت الظهر وأنزلوه من باب السلسلة الى بيته فأقام به ثم ان السلطان عمــل الموكب وخلع فيه على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى برقوق العثمانى واستقر به أميراخور كبير وخلع على المقر بركة واستقر به امير مجلس عوضا عن الامــير الطنبغا السلطانى ثم أرســل خاصكيا مطردا على جرد الخيل ليحضر المقر السيفى طشتمر نائب الشام فلما حضر خرج السلطان الى تلقيه وسائر الامراء فلما طلع الى القلعة خلع عليه واســتقر به أتابك العسا كر عوضا عن اينبك البدرى ولما ان حضر الامير طشتمر نائب الشام حضر صحبته جماعة من الامراء الذين كانوا بدمشق وهــم الامير تمرباى الدمرداشى والامير تغرى برمش العلائى والامير سودون الشيخونى والامير طقتمش اليلبغاوى فلما حضروا أنعم عليهــم السلطان بتقادم ألوف وخلع على الامــير تمرباى الدمرداشى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الامير دمرداش اليوسفى ثم ان السلطان رسم بالافراج عن جماعة من الامراء ممن كانوا مسجونين بثغر الاسكندرية وهم الامير سودون المحكى والامير قطلوبغا البدرى والامير الطنبغا السلطانى والامير اياس الصرغتمشى والامير قطلوبغا البشــيرى والامير أصبغا الناصرى الصارمى وهو صاحب الحوض المنسوب اليه وغــير هؤلاء جماعة كثيرة ممن كان منفيا فى البــلاد الشامية وغيرهم وفيها فى ثالث عشر شوال توجــه الامير بلاط الســيفى الجاى أمير حاج الى نحو الربيع بشــبرمنت فلما أقام هنالك أرســل اليه السلطان خلعــة ورسم له بان يتوجــه الى طرابلس يســتقر بها نائبا فأجاب بالسمع والطاعة وخرج من هنالك من يومــه فلما وصــل الى غزة رسم له بان يقيم فى القــدس بطالا ثم ان السلطان عمــل الموكــب وخلع على الامــير يلبغا الناصرى

واستقر به أميرسلاح عوضا عن بلاط السيفي الجاي وفيها ثارت فتنة بين مماليك الاتابكي طشتمر وبين مماليك الامير الزيني بركة الجوباني فلبسوا آلة الحرب وتقاتلوا في الرميلة أشد القتال فلما طال الامر بينهم ركب الاتابكي طشتمر بعد العصر وطلع الى باب السلسلة عند المقر السيفي برقوق أميراخور كبير فلما طلع اليه قبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية هو وأمير حاج بن مغلطاي فلما مضى ذلك عمل السلطان الموكب وخلع على المقر السيفي برقوق العثماني واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن طشتمر العلائي وخلع على المقر السيفي أيتمش البجاسي واستقر به أميراخور كبير عوضا عن برقوق ثم ان الاتابكي برقوق قبض على الامير يلبغا الناصري أميرسلاح وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على المقر السيفي اينال اليوسفي واستقر به أميرسلاح عوضا عن يلبغا الناصري ۞ ومن الحوادث في هذه السنة أن في ليلة الاحد الخامس والعشرين من ذي الحجة وقع حريق بظاهر باب زويلة عند باب دار التفاح فاحترق دار التفاح والربع الذي كان حوله ووصلت النار الى البراذعيين ثم الى الموازنيين ولولا سور القاهرة لاحترق نصف المدينة في تلك الليلة فلما زاد الامر ركب الامير بركة والامير أيتمش البجاسي والامير قرادمرداش الاحمدي والامير تغرى برمش حاجب الحجاب فاجتمعوا هناك هم ومماليكهم وأخذوا السقائين من بيوتهم وصاروا يطفؤن النار وهي لا تزداد الا وهجا واشتعالا فأقامت النار ونبت الناس على وجل من ذلك وأعيوا عن اطفائها فأقامت على ذلك يومين بلياليهما والناس مائجة على بعضها وفي ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن العطار في المعنى

أرى دار التفاح بليل ... حريقا وقده أمسى عظيما
ونالت بعد ذاك النور نارا ... وكانت جنة فغدت جحيما

وقال الشيخ زين الدين بن حبيب الحلبي

بباب زويلة وافى حريق ... أزال معالم الحسن المصون
ودمر كل عال من بناء ... وصير كل عال مثل دون
وعبرة عبرة الرائين أجرى ... يقينا كالعيون من العيون
ومارح الخلائق في ابتهال ... لمحيي الارض من بعد المنون
الى أن قال في لطف خفي ... وفضل عناية يا نار كوني

فاحترق في ذينك اليومين أكثر من خمسمائة دار ودكان حتى أطفأ الله تعالى وانطفأت النار ۞ ثم دخلت سنة ثمانين وسبعمائة فيها في سادس ربيع الاول قبض الاتابكي برقوق على جماعة من الامراء وهم الامير الطنبغا العلائي والامير قطلوبغا أميرعلم

والامير استبغا التاكى والامير بلك الاجدى والامير غريب الاشرفى والامير جوبان الطيدمرى والامير تمان تمر العثمانى والامير قرطقا بن صوصون والامير يحمان العلائى أمير مشوى والامير أقبغا بلشون فلما قبض على هؤلاء الامراء قيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى يوم الاثنين رابع عشرى شعبان ركب الاتابكى برقوق ليسير نحو المطرية وكان الامير بركة الجوبانى مسافرا فى اقطاعه نحو البحيرة فاغتنم الامير اينال اليوسفى أمير سلاح هذه الفرصة فركب هو ومماليكه ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة فتسامعت به جماعة من الامراء فركبوا وطلعوا الى الرميلة وكان الذين ركبوا مع الامير اينال اليوسفى هم الامير سودون جركس المنجكى والامير سودون النوروزى والامير صصلان الجمالى والامير جق الناصرى والامير حطط وغير ذلك من المماليك السلطانية فاجتمعوا فى الرميلة ثم ان الامير اينال اليوسفى حطم وطلع الى باب السلسلة وجلس فى الحراقة التى فى الاصطبل ثم انه فتح زردخانة الاتابكى برقوق وأخرج مافيها من السلاح ووجد بعض مماليك صغار من مماليك برقوق فألبسهم آلة الحرب وأوقفهم على سور باب السلسلة فقال الامير سودون المنجكى للامير اينال دعنى آخذ معى جماعة من المماليك وأخرج الى برقوق وأقاتله حتى ان يرجع فلم يوافقه الامير اينال على ذلك ولو فعله لكان صوابا فلما بلغ الاتابكى برقوق ذلك رجع من أثناء الطريق ودخل الى بيت الامير ايتمش البجاشى فقام الامير ايتمش وفتح زردخانته وألبس مماليكه ومماليك الاتابكى برقوق وخرجوا على حمية وطلعوا الى الرميلة فوقع وامع الامير اينال اليوسفى والامير سودون المنجكى وبقية الامراء واقعة قوية وقتل فيها جماعة من المماليك السلطانية ثم ان برقوق حاصر باب السلسلة فلما رأى مماليك برقوق الذين أقعدهم الامير اينال على سور باب السلسلة استاذهم يحاصر باب السلسلة رموا الامير اينال بالنشاب وهو جالس فى الحراقة فجاءت نشابة فى رقبة الامير اينال فنأثر لها فقام من وقته وهرب من باب الاصطبل الذى فى باب القرافة فاختفى هنالك فى بعض الترب فطلع الاتابكى برقوق الى باب السلسلة وملكه وانفض ذلك الجمع ثم فى أواخر النهار قبض بعض المماليك على الامير اينال اليوسفى والامير سودون المنجكى وأحضرهما بين يدى الاتابكى برقوق فقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية وفى ذلك يقول ابن العطار

قد ألبس الله برقوقا مهابته + نهار الاثنين فى عز وتمكين
وراح اينال مع سودون وانكسر + وكن يوما عسيرا يوم الاثنين

وقوله أيضا فيه

بغى اينال واعتقد الامانى * تساعده فانال المؤمل
ومد لاخذ برقوق يديه * ولم يعلم بان الخوخ أسفل

وكان الامير اينال صاحب الامير بركة ولما جرت هذه الحركة كان الامير بركة غائبا في البحيرة كما تقدم فلم يجد له اينال من ناصر ولا معين على ماجرى له وفي ذلك يقول شهاب الدين بن العطار رحمه الله

مابال اينال أتى * في مثل هذى الحركه
مع علمه بأنها * خالية من بركه

ثم ان السلطان عمل الموكب وقبض على جماعة من الامراء منهم الامير سودون جركس المنجكى والامير سودون النوروزى والامير صلان الجمالى والامير جق الناصرى والامير قارى الخازندار فلما قبض عليهم قيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية فهذا ما كان من حوادث سنة ثمانين وسبعمائة ❁ ثم دخلت سنة احدى وثمانين وسبعمائة فيها في يوم الاربعاء سابع عشر صفر أرسل الامير بركة يقول للاتابكى برقوق ان الامير ايتمش البجاسى ألبس مماليكه آلة الحرب وهو قاصد الركوب فاضطرب الاتابكى برقوق من ذلك وأرسل الى بيت ايتمش يكشف عن ذلك الخبر فلم يجد لهذا الكلام صحة ولا خبرا فلما بلغ الامير ايتمش ذلك ركب وطلع الى الاتابكى برقوق في باب السلسلة ثم ان برقوق أرسل يطلب الامير بركة بان يطلع الى باب السلسلة و يحقق ماذكره في أمر ايتمش فابى الامير بركة من الطلوع الى برقوق فترددت بينهم الرسل والامير بركة يمتنع من الصلح مع الامير ايتمش ثم ان الاتابكى برقوق أرسل الى الشيخ أكمل الدين الحنفى شيخ الخانقاه الشيخونية والى الشيخ أمين الدين الخلوتى بان يركبا و يتوجها الى الامير بركة و يسعوا في الصلح بين الامير بركة و بين الامير ايتمش البجاسى فتوجه الامير ايتمش صحبة الشيخين ودخلوا الى بيت الامير بركة فما وسع الامير بركة الا انه خلع على الامير ايتمش خلعة تخ وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش فطلع الامير ايتمش وقبل يد الاتابكى برقوق وخمدت الفتنة التى كانت فلما كانت ليلة الجمعة تاسع عشر صفر ركب جماعة من الامراء ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة وسبب ذلك ان الامير بركة ألبس مماليكه آلة الحرب وقصد الركوب فلما تحقق الامراء ذلك ركبوا قاطبة وطلعوا الى الرميلة واضطربت الاحوال فعند ذلك أرسل الاتابكى برقوق خلف القضاة الاربعة ورسم لهم بان يتوجهوا الى بيت الامير بركة ويسعوا بينه وبين الامراء في الصلح واخماد الفتنة فمشى القضاة بينهم وتحالفوا و زال ما كان في خواطرهم من الحقد وطلعوا الى القلعة في يوم السبت ولعبوا الكرة والصولجان وأقاموا على ذلك مدة يسيرة والامر مبنى على السكون فلما

كان يوم الاثنين سابع ربيع الاول ركب الاتابكى برقوق ليسير نحو المطرية وركب معه جماعة من الامراء ممن كانوا من عصبته فلما رجعوا اطلع الاتابكى برقوق الى باب السلسلة ورجع الامراء الذين كانوا معه الى بيوتهم ثم ان الاتابكى برقوق جاءه ولد ذكر من سرية فسماه محمدا فلما كان يوم سابعه عمل له الاتابكى برقوق عقيقة واستدعى سائر الامراء فلم يتأخر عنه احد من الامراء غير الامير بركة الجوبانى فانه لم يطلع اليه وكانت قد دبت بينهما عقارب الفتن وكان الامير بركة صاحب الاتابكى برقوق صحبة مؤكدة لا يعرف أحد ما بينهما فلا زال الامراء يرمون بينهما الفتن حتى أوقعوا بينهما وصار كل منهما عدوا لصاحبه كما قيل سئل بعض الحكماء كيف يمكن ان يبقى الصديق عدوا ولا يمكن أن يبقى العدو صديقا فقال لان تخريب العامر اسهل من عمارة الخراب وتكسير الزجاج اسهل من تصحيحه اذا كان مكسورا فلما تخلف الامير بركة عن الطلوع الى الاتابكى برقوق مد السماط وأكل الامراء ونزلوا الى بيوتهم فقبض الاتابكى فى ذلك اليوم على ثلاثة من الامراء ممن كان من عصبة الامير بركة وهم الامير قرا دمرداش الاحمدى والامير طيج المحمدى والامير اقتمر العثمانى وأمسك معهم أخا الامير بركة وهو صراى الرجبى الطويل ثم ان الاتابكى برقوق البس مماليكه آلة الحرب وأوقفهم على سور باب السلسلة ونزل الامير نزلار العمرى وهو سائق الى مدرسة السلطان حسن فدخلها مع مماليك الاتابكى برقوق فطلعوا الى سطح المدرسة ورموا بالنشاب على الامير بركة وهو جالس فى مقعده وكان الامير بركة ساكنا فى بيت شيخو الذى عند باب الرميلة فلما رأى الامير ذلك ركب وخرج من الباب الكبير الذى بحدرة البقر هو ومماليكه لابسين آلة الحرب وكان معه بعض امراء فر بالمدينة وخرج من باب الفتوح وتوجه من هنالك الى نحو قبة النصر ولما خرج الامير بركة من بيته نادى الاتابكى برقوق للعوام بأن ينهبوا بيت الامير بركة فاحرق العوام باب بيت بركة ودخلوا اليه ونهبوا جميع ما كان فيه حتى أخذوا رخامه وأبوابه وشبابيكه ثم ان الامير بركة أقام فى قبة النصر ذلك اليوم فاجتمع عنده طائفة كثيرة من خشداشينه ثم ان الاتابكى برقوق عين الامير الان الشعبانى والامير ايتمش البجاسى والامير قرطاى التركمانى وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية وتوجهوا الى الامير بركة فى قبة النصر وقت الظهر فوقعوا هنالك معه واقعة قوية فكسرهم الامير بركة وسحبهم الى تحت القلعة فحال بينهما الليل عن القتال فلما أصبحوا يوم الاربعاء تاسع عشرى ربيع الاول نزل السلطان الملك المنصور على الى باب السلسلة وجلس فى المقعد المطل على الرميلة وعلق الصنجق السلطانى ودقت الكاسات حربى فاجتمع الامراء والمماليك السلطانية فلما كان وقت القائلة بعد الظهر أرسل الامير بركة يقول للاتابكى برقوق ايش أنت قاعد تعمل اما أن تجيئنى أو انا اجيئك الى الرميلة فأرسل يقول له الاتابكى برقوق اختر

أنت فى أى مكان نلاقيك ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء وتخمد هذه الفتنة عن المسلمين فلما سمع ذلك الامير بركة حنق وكان السلطان أرسل اليه خلعة وهو فى قبة النصر بأن يستقر نائب طرابلس ويتوجه من هنالك فلم يوافق الامير بركة على ذلك واستمر القال والقيل بينهما عمالا ثم ان بعض خشداشين الامير بركة أشار عليه بأن يركب فى ذلك الوقت ويحطم الى الرميله فان العسكر الذين مع برقوق مقيلون فى هذا الوقت فى بيوتهم والرميلة خالية من العسكر وكان ذلك اليوم شديد الحر فركب الامير بركة فى ذلك الوقت وقسم العسكر الذى معه فرقتين وأمر فرقة أن تمضى من تحت الجبل الاحمر وفرقة تمضى الى الرميلة فلما بلغ الاتابكى برقوق ذلك أرسل جماعة من الامراء والمماليك السلطانية الى الفرقة التى فيها الامير بركة فلاقوه بين الترب فوقعوا معه هناك واقعة قوية من بعد الظهر الى قرب المغرب فانكسر الامير بركة وهرب وتفرق من كان معه من العسكر من شدة الحر ثم ان طائفة من المماليك سحبوا الامير بركة حتى تقنطر من على فرسه فقام وهرب وهو ماش حتى اختفى وأما الفرقة التى أرسلها من تحت الجبل الاحمر فانه كان فيها الامير يلبغا الناصرى أمير سلاح فتوجه اليه الامير ايتمش البجاسى ووقع معه وتقدم اليه الامير ايتمش وضربه بطبر كان معه على وجهه فسقط الى الارض مغشيا عليه وانكسر من كان معه من العسكر فنهب الزعر العسكر الذين كانوا مع يلبغا وقتل من المماليك الذين كانوا معه مالا يحصى ومن الغلمان كذلك فأخذ الامير ايتمش صنجق يلبغا الناصرى وطبلخاناته وأتى بهم الى الاتابكى برقوق وقبض على جماعة كثيرة من المماليك السلطانية ممن كان راكبا مع الامير بركة وجرح فى هذه الواقعة من العسكر والغلمان مالا يحصى وقيل لما هرب الامير بركة اختفى فى بستان حتى دخل الليل وكان معه شخص من الامراء العشراوات يقال له اقبغا سيوان فتوجه الامير بركة الى شخص من الصالحين يقال له الشيخ محمد المقدسى وكان مقيما فى جامع المقس الذى فى باب البحر فاختفى بركة عنده فلما طلع النهار أرسل الامير بركة يعرف الاتابكى برقوق بأنه فى جامع المقس عند الشيخ محمد المقدسى فأرسل اليه الاتابكى برقوق فى ساعته الامير الطنبغا الجوبانى والشرفى يونس دوادار الاتابكى برقوق فلما دخلا عليه أخذاه وأركباه على فرس وطلعا به الى القلعة فلما طلع قيدوه وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية وفى ذلك يقول ابن حبيب الحلبى

ياويحها من حالة * وشؤمها من حركه
وقبحها من فتنة * فيها أزالت بركه

وقال القيم خلف الغبارى

مصر صارت بعد انقباض فى انشراح * وقلعها مزخرف والقصور

يا الهى احفظ لنا برقوق * واحرس الجند وانصر المنصور
جعل الله لكل وقعه سبب * ونقول لك سبب هذه الوقعه
بركه راديعمل على ايتمش * والى الشام يسيروا سرعه
طلب الصلح بينهم برقوق * فأرسلوا له اخلع عليه خلعه
وبقى بعض ما بقى فى النفوس * والعليل ما اشتفى بغل الصدور
وقد أمسوا على حذر بايتين * وايش يفيد الحذر مع المقدور
أصلحوا بينهم نهار جمعه * وصفى ودهم وطابوا الجميع
جا ايتمش عصبة الامير برقوق * وبقى كل أحد لامر ومطيع
فسك فى نهار الاثنين طيح * ودمرداش الدوادار سريع
بركه حين سمع بذلك طلب * قبة النصر خوف من المقدور
كان حذور حتى وقع فى الشرك * والمثل قال ما يقع الا الحذور

ولما وقعت هذه الفتنة أقامت أبواب مصر هى والاسواق مقفلة ثلاثة أيام حتى أمسكوا بقية الامراء الذين ركبوا مع الامير بركة وهم الامير قرا كشك اليلبغاوى والامير ايدمر الخطائى والامير سودون الطيقمرى والامير يلبغا المنجكى والامير قرابلاط الاحمدى والامير قرابغا الابو بكرى والامير غريبغا الشمسى والامير كزك القرمى والأمير قطلوبك النظامى والامير اقبغا صيوان والامير طولوتمر الاحمدى والامير تنكز العثمانى والامير غريب الاشرفى والامير الطنبغا الارغونى وأمير حاج بن مغلطاى والامير طوجى الحسنى ويوسف ابن شادى فلما أمسك هؤلاء الامراء قيدوا وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية وأرسلوا طائفة منهم الى ثغر دمياط وطائفة منهم الى قوص وراقت هذه الفتنة وخمدت ثم ان السلطان أفرج عن جماعة من الامراء ممن كانوا بالسجن معتقلين وأنعم عليهم باقطاعات من نفى من الامراء عوضا عنهم واستمر الحال ساكنا ۞ وفى هذه السنة جاءت الاخبار من الشام بان نائب الشام بيدمر الخوارزمى خامر وخرج عن الطاعة ولما ان خامر قبض عليه عسكر دمشق وقيدوه وسجنوه بقلعة دمشق وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك وانه أخرج بركه وعياله من الشام وقصد الهرب الى نحو بلاد التركمان فقبضوا عليه وسجنوه بقلعة دمشق الى أن يفعل فيه السلطان ما يريد فلما بلغ الاتابكى برقوق ذلك أرسل يطلب بيدمر الخوارزمى الى القاهرة وعين لذلك خاصكيا ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الامير الان الشعبانى واستقر به أمير سلاح عوضا عن يلبغا الناصرى وخلع على الامير الطنبغا الجوبانى واستقر به أمير مجلس عوضا عن الامير بركة الجوبانى وخلع على الامير الان بغا العثمانى واستقر به داودارا كبيرا وخلع على الأمير الطنبغا المعلم واستقر به رأس نوبة النوب ثانى ثم ان السلطان عمل

الموكب الثانى وخلع على من يذكر من الامراء وهم الامير جركس الخليلى واستقر به أمير اخور كبير وخلع على الامير كشبغا الاشرفى واستقر به شاد الشر بخانات السلطانية وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بامريات عشرة منهم أقبغا الناصرى المعروف بالقندسى ومنهم تنكز بغا السيفى يلبغا ومنهم قطلو بغا الكوكاى فخلع عليه واستقر به حاجبا ومنهم الامير سودون باق ومنهم طوجى العلائى وفارس الصرغتمشى وكشبغا الخاصكى وبيرم العلائى وقوصون المحمدى الاشرفى واقبغا الاجنبى وبيبرس التمان تمرى وغير ذلك من الامراء جماعة كثيرة منهم طبلخانات ومنهم عشراوات فاستقامت الاحوال وسكن الاضطراب ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة أن جاءت الاخبار من البحيرة بانه قد جاءت على دمنهور طائفة من العربان نحو خمسة آلاف انسان وكان كبير العربان يسمى بدر بن سلام فكبسوا على دمنهور ونهبوا أسواقها والبيوت وأخربوا عدة بلاد فلما سمع الأتابكى برقوق بذلك عين فى ذلك اليوم ثمانية أمراء مقدمين وهم الامير الان الشعبانى أمير سلاح والامير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس والامير ايتمش البجاشى رأس نوبة النوب والامير أمور القلطاوى أحد المقدمين والامير بلاط الصرغتمشى احد المقدمين والامير بهادر الجمالى والامير نزلار العمرى الناصرى احد المقدمين فهذه ثمانية أمراء مقدمين وعين من الامراء الطبلخانات عشرة ومن الامراء العشراوات اثنى عشر ومن المماليك السلطانية نحو أربعمائة مملوك وأمرهم بان يخرجوا من يومهم فلما كان يوم الجمعة رابع عشر جادى الاولى من السنة المذكورة صلى الامراء صلاة الجمعة وخرجوا قاطبة مع العسكر وعدوا من بر مصر الى الجيزة فقاس العسكر مشقة عظيمة فى التعدية حتى عدوا فلما تكامل العسكر رحلوا من الجيزة وتوجهوا الى نحو البحيرة فلما مضى ثلاثة أيام حضر أمير اخور كبير ايتمش البجاشى وأخبر بان العسكر لما وصلوا الى البحيرة وضربوا خيامهم وباتوا فى تلك الليلة أراد العرب أن يكبسوا على العسكر وهم فى الخيام فجاء شخص من العرب الى الامراء وأخبرهم بأن العرب يقصدون أن يكبسوا على العسكر وهم فى الخيام تحت الليل فلما سمع الامراء والعسكر ذلك خرجوا من الخيام تحت الليل وأكمنوا كمينا بالقرب من الخيام فلما انتصف الليل هجم العرب على الخيام فوجدوها خالية ليس بها أحد فرجع عليهم الترك ولعبوا فيهم بالسيف وأحاطوا بهم فقتلوا منهم نحو ألف انسان وأسروا منهم أكثر من ذلك من نساء وصغار وبنات ولم ينج منهم الا القليل وأخذوا جمالهم وأغنامهم وخيولهم وأموالهم وأولادهم وأما بدر بن سلام كبير العربان فانه لما رأى ذلك هرب تحت الليل الى نحو الجبال فلما حصلت هذه النصرة للعسكر قصدوا التوجه الى نحو الديار المصرية فكان لهم يوم دخولهم الى القاهرة يوما مشهودا فدخلوا بالاسارى وهم فى

زناجير والنساء فى حبال وهن حاملات أولادهن مشاة فلما حصل ذلك خرج أهل مصر جميعا للفرجة عليهم فكان لهم يوم عظيم فى القصف والفرجة عليهم وفى هذه الواقعة يقول القيم خلف الغبارى هذه القطعة الزجل

باسم رب السما ابتدى * فارج الهم والكرب
و يفيد للذى حضر * قصة الترك والعرب
جاء الخبر يوم الاربعا * بان فى ليلة الأحد
جادمنهو رعرب خذوا * سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم * هو الذى للجميع حشد
فبرز ايتمش سريع * بمماليك وروس نوب
وعدد مالها عدد * و يطلبوا لهم طلب
والأمارى المعينين * كل واحد بجيش بدا
عدا بعد الصلا وراح * وغدا قصد للعدا
فى المعادى رأيت لهم * يوم زحام فايش غدا
لتروجا تروحوا * واستراحوا من التعب
ونصب كل أحد خيام * ولصيد العدا انتصب
حضر واما التقوا أحد * من جميع العرب حضر
وابن عزام أتى لهم * بعثوه يكشف الخبر
ماعرف للعرب طريق * بعدوجا عبدو فى الاثر
لا يتمش حدثوا الصحيح * قام سريع ايتمش ركب
ماترك تركى فى الوطاق * والخيام حيل قد نصب
راحت الترك من مكان * وأتى بدر من مكان
ونفر عن وجا الوطاق * ولهم قال أنا فلان
ولموسى بن خضر صاح * مات بطعنه من السنان
ورأى الترك داركوه * فى طلوع النهار هرب
شحتوا ايتمش سريع * و رقاب من معو ضرب
واقعة حرب ذى العرب * لاغنا مالها نبا
بدر فى الليل بعاديات * جا البلد والنسا سبا
طلبوا النصر جالهم * مالهم فى القصص سبا
فى القتال كان لهم نهار * لوتراه ساعة اقترب

يوم قيامه وكم عرب * جاثية فيه على الركب
جس ذى التوب بالسماع * قدفهمنا من الاصول
فى الخروج تابت العرب * فازت الترك بالدخول
والسهام شبيت على * جس الاوتار بالغضب
غنت البيض على الخود * رقصوا الخيل من الطرب
وابن سلام مع الاجل * فاز بنفسو على فرس
والامير ايتمش رحل * لتروحا سريع كبس
فى البيوت حارت النفوس * ماالتقى حدّ لو نفس
نبشوهم من الشون * قببوهم من القبب
وخدوا فضة الجيع * وجميع مالهم ذهب
وقع القتل فى الرجال * وقد انهتك الحريم
والذى كان مقيم رحل * ماعليها أحد مقيم
وكم انسان بسيف وقوس * ماعرف له هناك غريم
جبد السيف من الجفير * وراس من لقيه ضرب
وان جاه مشترى الفداد * سرعا بالقوس عليه عقب
لما تروا السيوف دما * ساعة النحر فى النحور
اعتقدت انها تحيض * صرت تعجب لذى الامور
قال فتى بابلى اللحاظ * كيف يحيضو وهم ذكور
الاذا ساحر القتال * ايتمش للسيوف كتب
باب بزيف نزت الدما * من مماليكه الجلب
البحيره من الفتن * سعدها زال واختفا
وبقى فرحها حزن * وقد تكدر الصفا
والناس قالت ايش جرا * والذى قدجرى كفا
قالوا من تحت رأس بديره * مالو بتقلو قد انتهب
وبنات الخدور سبوا * قلت سبوه فهو السبب
جا ابن سلام معو رجال * كل حد شهو تو رغيف
ذا على رقبتو تفال * وذا فى رقبتو شليف
وذا لو درع سيسبان * وذا لو درع خوص وليف
والقسى قسى من نخيل * وخرائطهم الجعب

وصواريهم الجريد * وخودهم قصع خشب
فاعل النص فى القياس * ماعرف صنعة البنا
يابنى شئ بلا أساس * هدت الترك مابنا
وتروبا المعمره * خربت حسين لها دنا
قلعوا أبوابها الجيع * والسكفات مع العتب
يسكوا بدر يعتبوه * وعليه يوقع العتب
بدر تبت يدا أباه * لصلاح النسا فسد
كم مليحه أتت وفى * جيدها حبل من مسد
ولى قال شخص من حنين * بدر فى ذى الذى قصد
أبو جهل قلت لا * الا قلبو أبو لهب
قال لى وامر تو ايش تكون * قلت حمالة الحطب
حسن غلب منى راجى * وانكسر كسرما انجبر
قالت اقوام يعد سوه * أنت قيم ديار مصر
جا الحكم طابق وقال * ياغبارى جرى خبر
لديار مصر قيمين * فى الزجل ذا يكن عجب
قلت ذا قيم السفه * وأنا قيم الادب

انتهى ذلك ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة قد جاءت الاخبار من ثغر الاسكندرية بأن الامير بركة الجوبانى قد مات وهو بالسجن فأرسل الاتابكى برقوق دواداره الشرفى يونس لكشف اخبار موته على حين غفلة فلما توجه الشرفى يونس الى ثغر الاسكندرية وكشف عن ذلك وجد خليل بن عرام نائب الاسكندرية قد قتله ودفنه فى بعض الترب هنالك فنبش عليه الشرفى يونس وأخرجه من القبر فوجد فيه ثلاث ضربات فى رأسه وهو مدفون فى ثيابه من غير غسل ولا تكفين فغسله الشرفى يونس وكفنه وصلى عليه ودفنه خارج باب رشيد وبنى عليه قبة وكتب بذلك محضرا ثم انه أخذ خليل بن عرام صحبته وأتى به الى القاهرة وهو فى الحديد فلما حضر الشرفى يونس وطلع الى القلعة أودعوا خليل بن عرام فى خزانة الشمايل وباتوا يعاقبونه ويعصرونه لانه قد قيل عنه انه لما قتل الامير بركه كان فى رأسه فصوص مثمنة فأخذها منه فلم يقر ابن عرام بشئ من ذلك فلما كان يوم الخميس خامس عشرى رجب طلب الاتابكى برقوق خليل بن عرام فأخرجوه من خزانة الشمايل ومثل بين يدى الاتابكى برقوق فرسم بضربه بالمقارع فضرب ستة وثمانين شيبا ثم رسم بتسميره فأخذه الامير مأمور القلمطاوى حاجب الحجاب والامير قطلقتمر أمير جاندار فأحضر له جملا ولعبه وسمروه عليه

فلما نزلوا به من القلعة وهو مسمر ووصلوا به الى باب السلسلة جاء اليه مماليك الامير بركة وضربوه بالسيوف حتى مات ثم أنزلوه من على الجمل وصاروا يقطعونه بالسيوف قطعا فقطع بعضهم رأسه وأخذها وعلقها على باب زويله وصار كل واحد من مماليك بركة يقطع من اعضائه قطعة وقيل ان بعض المماليك شق بطنه بالسيف وأخرج كبده وجعل يمضغ من شدة حنقه ثم ان بعض الناس جمع أعضاء خليل بن عزام ودفنها فى مدرسته التى أنشأها عند قنطرة الامير حسين بن جندر على الخليج الحاكمى وصارت هذه الواقعة مثلا عند أهل مصر يقولون نعوذ بالله من حول ابن عزام وكان الاتابكى برقوق أرسل الى ابن عزام مراسيم فى الدس بقتل الامير بركة فأنكر برقوق ذلك وأرسل أخذ منه تلك المراسيم وراحت هذه الواقعة فى رقبة ابن عزام وراح مظلوما فى ذلك بين برقوق ومماليك الامير بركة انتهى ذلك وقد قال بعضهم فى المعنى

مخالط السلطان فى محنة * يرتقب الاوقات فى عكسه

ان سره أسخط خلاقه * أوساءه خاف على نفسه

وفى واقعة خليل بن عزام يقول شهاب الدين بن العطار المصرى رحمه الله

بدت أجزا ابن عزام خليل * مقطعة من الضرب الثقيل

وأبدت أبحر الشعر المراثى * محررة بتقطيع الخليل

وقيل ان الشيخ يحيى الصنافيرى والشيخ بهار بشرا عن خليل بن عزام أنه ما يموت الا مسمرا مقطعا وقال المقريزى ان خليل بن عزام كان شرع قبل موته فى كتابة تاريخ يذكر فيه أشياء من وقائع الاحوال فلما جرى له ما جرى قال فيه ابن العطار

أيا ابن عزام قد سمرت مشتهرا * وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا

مازلت تجهد فى التاريخ تكتبه * حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى يوم الثلاثاء ثامن ذى القعدة حضر من بلاد الجراكسة والد الاتابكى برقوق فخرج الناس لملاقاته قاطبة فلاقوه من العكرشة وقيل هو المكان الذى التقى فيه يوسف الصديق مع أبيه يعقوب عليهما السلام فلما تلاقى برقوق مع أبيه تعانقا ثم بكيا ورجعا الى سرياقوس فمد له برقوق هناك سماطا عظيما وأقاما فى سرياقوس الى ما بعد الظهر فجاءت اليه سائر الامراء وأرباب الدولة حتى القضاة الاربع ثم أن الاتابكى برقوق ركب من سرياقوس ودخل القاهرة فدخل من باب النصر وزينت له المدينة فشق من القاهرة وطلع الى القلعة وكان والد الاتابكى برقوق جركسيا مغلقا لا يعرف ولا كلمة بالعربى وكان اسمه انص وقيل أنس بالسين فلما كان يوم الموكب تقدم ايدمر الشمسى أحد الامراء المقدمين وقبل الارض وسأل الاتابكى برقوق بأن يكون طرخانا ويرتب له

مايكفيه وأن تكون إمريته الى والدالاتابكى برقوق فشكره الاتابكى على ذلك ورتب له مايكفيه وجعله طرخانا كما طلب وأنعم السلطان بامريته على والدالاتابكى برقوق فلم يقم الامير ايدمر الشمسى بعدذلك الاثلاثة أشهر ومات واستمر والدبرقوق مقدم ألف ۞ وفى هذه السنة شرع الاتابكى برقوق فى عمارة جسر الشريعة الذى بطريق الشام عند قرية أريحا على النهر الذى هنالك وجعل طوله مائة وعشرين ذراعا وعرضه نحو عشرين ذراعا فصرف على ذلك جملة مال وكان به نفع عظيم للمسافرين وقد قيل فى المعنى

أيا ملكا بنى جسرا بعدل * به حمل الانام على الشريعه

له شرف على الجوزاء سام * وفوق الحوت أركان منيعه

۞ وفى هذه السنة توفى الشيخ ابراهيم المعمار صاحب الاشعار اللطيفة والابيات العامرة بالمحاسن والتورية وقد رثاه الشيخ برهان الدين القيراطى بهذه الابيات فقال

مذ عمر المعمار دار البلى * رمى بيوتا لنظم بالنقض

فياله من شاعر ميت * بكت عليه طوبة الارض

۞ ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة فيها جاءت الاخبار من البحيرة بأن سائر قبائل عربان البحيرة تحالفوا على العصيان ونهبوا البلاد فخرج اليهم الان الشعبانى أمير سلاح مع خمسمائة مملوك فلما وصلوا اليهم وقع معهم فكسره العرب وقتلوا جماعة كثيرة من المماليك السلطانية فلما جاءت الاخبار بذلك اضطربت أحوال الديار المصرية وعلق السلطان الجاليش وقصد التوجه الى البحيرة ثم ان بعض الامراء أشار بعدم خروج السلطان وأن سائر الامراء يخرجون اليهم فجاءت الاخبار عن ذلك بأن نائب الاسكندرية حضر هنالك وصحبته عربان كثيرة من عربان الغربية فوقعوا مع العربان فكسروهم كسرة قوية وهربوا الى نحو برقة فبطل العسكر الذين كانوا قد توجهوا اليهم وفيها توفى الاديب أحمد سميكة وكان شاعرا ماهرا فى طبقة ابراهيم المعمار ومن شعره قوله

شهر الصيام مبارك * لولم يكن فى شهر آب

خفت العذاب فصمته * فوقعت فى وسط العذاب

۞ ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة فيها هجم الوباء بالديار المصرية ووقع الغلاء أيضا فى تلك السنة وفيها حضر الى القاهرة الشيخ الصالح الزاهد الناسك العارف بالله تعالى الشيخ على الروبى أعاد الله علينا من بركاته فلما حضر عند الاتابكى برقوق وأقام عنده يومين بشره من نفسه بأنه سيلى السلطنة فى يوم الاربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة وبما بشر به الناس أن بعد مضى شهر يرتفع الوباء من القاهرة ويتناقص الغلاء ثم يموت عقيب ذلك الملك المنصور على بن الاشرف شعبان وأقام الشيخ على الروبى

فى مصر أياما ثم توجه الى بلاده فما مضى قليل حتى أشيع بين الناس ان الملك المنصور عليا قد طعن وهو فى حال العدم فلما كان يوم الاحد ثالث عشرى صفر فيه توفى الملك المنصور على ابن الاشرف شعبان وكانت وفاته بعد الظهر ودفن فى يومه وتولى تجهيزه الامير قطلوبغا الكوكاى فغسله وكفنه وصلوا عليه بالقلعة ودفنوه فى مدرسة جدته خوندبركة أم الملك الاشرف شعبان التى بالتبانه ومات الملك المنصور على وله من العمر نحو اثنتى عشرة سنة فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية خمس سنين وثلاثة أشهر ونصفا وكان جميل الصورة حسن الشكل قليل الاذى فى حق الرعية وكان مع الاتابكى برقوق فى غاية الضنك ليس له فى السلطنة الا مجرد الاسم فقط والامر كله للاتابكى برقوق ولما مات الملك المنصور على لم يجسر برقوق أن يتسلطن بعده فأخرج سيدى أمير حاج أخا الملك المنصور على وسلطنه عوضا عن أخيه على انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المنصور على ابن الملك الاشرف شعبان وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الملك الصالح أمير حاج ابن الملك الاشرف شعبان ابن الامجد حسين بن محمد بن قلاون

وهو الرابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية بويع بالسلطنة بعد موت أخيه الملك المنصور على فى يوم الاثنين رابع عشرى صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وتولى الملك وله من العمر نحو احدى عشرة سنة وكانت صفة ولايته ان أمير المؤمنين محمدا المتوكل حضر والقضاة الاربع وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وسائر الامراء فاجتمعوا عند باب الستارة وطلبوا من بقى من أولاد الملك الاشرف شعبان فوقع الاتفاق على تولية سيدى أمير حاج وكان أكبر اخوته فولوه السلطنة ولقبوه بالملك الصالح وأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها وركب من باب الستارة والامراء مشاة بين يديه حتى وصل الى الايوان فجلس على سرير الملك والاتابكى برقوق حامل القبة والطير على رأسه ثم دخل الى القصر ومد السماط ونادى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء فلما تم أمره فى السلطنة رسم بالافراج عن بيدمر الخوارزمى نائب الشام وكان معتقلا بثغر دمياط فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب الشام على عادته ثم جاءت الاخبار من البلاد الحلبية بان طائفة من التركمان نهبوا بعض ضياع حلب وحصل منهم غاية الفساد فلما بلغ الاتابكى برقوق ذلك عين لهم تجريدة وخرج اليهم ثلاثة من الامراء المقدمين وخمسمائة مملوك فلما توجهوا الى هناك التقوا مع التركمان وكسروهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ونهبوا

أموالهم وطردوهم الى ملطية ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم فى غاية النصرة وفيها توفى الشيخ نظام الدين وهو صاحب النظامية التى بطاوق جبل القلعة ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة ان الامير جركس الخليلى أمير اخور كبير حسن للاتابكى برقوق وجماعة من الامراء أن يعمل جسرا ما بين الروضة وبين جزيرة أروى وكان البحر قد احترف فى تلك السنة احترافا زائدا فحفروا فى وسط البحر خليجا من الروضة الى الزربية وشرعوا فى عمل جسر طوله نحو ثلثمائة قصبة وعرضه عشرة أقصاب وجعلوا بظاهر هذا الجسر خوازيق سنط كل خازوق نحو من ثمانية أذرع وسمروا عليها افلاق خشب نخل وردموا عليها بالتراب وأنجز العمل من هذا الجسر فى نحو من شهرين وكان مبتدأ ذلك فى ربيع الاول سنة أربع وثمانين وسبعمائة وفى ذلك يقول الاديب عيسى بن حجاج

جسر الخليلى المقرّ لقد رسا * كالطود وسط النيل كيف يريد
فاذا سألتم عنهما قلنا الكم * ذا ثابت دهرا وذاك يزيد

وقال ابن العطار رحمه الله

راع الخليلى قلب الماء حين طغى * بنى عليه لذا جسرا وجبره
رأى ترمل أرضيه وحدتها * والنيل قد خاف يغشاها بجسره

فلما زاد الماء وبلغ ثمانية عشر ذراعا أكل ذلك الجسر الذى تعب عليه الخليلى ولم يفد من ذلك شيأ وزاد النيل فى تلك السنة زيادة لم يعهد مثلها وفى ذلك يقول بعض الشعراء

قد قطع النيل جسر مصر * ولم يراعى له خليل
تياره صال مثل سيف * يقطع والماء له نصول

۞ وفى هذه السنة زاد شر العربان فى البحيرة حتى نهبوا المغل فى البلاد فلما بلغ الاتابكى برقوق ذلك عين لهم تجريدة فيها ستة أمراء مقدمين وخمسمائة مملوك فلما توجه الامراء الى هناك هرب منهم العرب فغنم منهم العسكر نحو ثلاثة آلاف رأس غنم ومثلها جمال ومثلها معزا فأخذ العسكر ذلك ورجعوا الى القاهرة ۞ ومن الحوادث فى تلك السنة أن فى يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان رقد الاتابكى وقت القائلة فى البيت الذى بباب السلسلة وكان عنده شخص من الخاصكية يكبسه يقال له الشيخ الصفوى فلما أراد برقوق ان يستغرق فى النوم اتكأ الشيخ الصفوى على جنبه بالقوى فقعد برقوق على حيله وقال ايش الخبر فقال له الشيخ الصفوى ان مملوكا اسمه ايتمش الخاصكى اتفق معه جماعة من مماليك الاسياد أنهم يدخلون عليك فى هذه الساعة ويقتلونك فسكت برقوق ساعة ثم ان ايتمش المذكور دخل البيت على برقوق فقام اليه برقوق وأخذ قوس بكاد كان الى جانبه وضرب به ايتمش ضربة فرماه الى الارض فلما وقع قال له برقوق يا علق الذى يريد قتل الملوك يقع

الى الارض من فردضربة ثم قام برقوق وقبض عليه وسجنه فى بعض أبراج باب السلسلة ثم خرج وجلس فى المقعد الذى يطل على الرميلة وطلب بطا الاشرفى فلما طلع اليه قبض عليه وسجنه ثم انه طلب نقيب الجيش وقال له دور على الامراء وقل لهم يطلعوا فى هذه الساعة فدار عليهم نقيب الجيش وطلعوا الى باب السلسلة فلما تكاملوا وحضروا بين يديه تلا عليهم ما بلغه عن مماليك الاسياد وأخبرهم بما وقع له معهم فأشاروا عليه بمسكهم فقبض فى ذلك اليوم على خمسة وستين مملوكا من مماليك الاسياد وأرسلهم الى خزانة شمايل وأما ايتمش الخاصكى و بطا الاشرفى فنفاهما الى الشام ونفى من أعيان مماليك الاسياد الى قوص نحوا من أربعين مملوكا فلما كان يوم الاربعاء تاسع عشر شهر رمضان من السنة المذكورة طلب الاتابكى برقوق الخليفة المتوكل على الله والقضاة الاربع وسائر الامراء فلما اجتمعوا فى باب السلسلة قام القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف فى وسط المجلس وقال يا أمير المؤمنين و ياسادات القضاة ان أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة والاحوال غير مستقيمة وان الوقت قد ضاق ومحتاجون الى اقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة و يسكن الاضطراب فتكلم القضاة مع الخليفة فى سلطنة الاتابكى برقوق فخلعوا الملك الصالح أمير حاج من السلطنة وسلطنوا الاتابكى برقوق ثم ان الملك الصالح أمير حاج دخل الى دور الحرم عند اخوته وكانت مدة سلطنته بعد أخيه على الديار المصرية سنة وسبعة أشهر وأياما واستمر الملك الصالح مقيما فى دور الحرم الى ان عاد الى السلطنة مرة أخرى كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه وأمير حاج هذا هو آخر من تولى السلطنة من ذرية بنى قلاون و به زال الملك عن بنى قلاون كأن لم يكن فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير وقد أقامت السلطنة فى قلاون وذريته مائة سنة وثلاث سنين وأشهرا وزال عنهم الملك انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الصالح أمير حاج وذلك على سبيل الاختصار والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد

ذكر ابتداء دولة الجراكسة

قال الله تعالى فى كتابه العزيز وتلك الايام نداولها بين الناس ﷺ قيل ان أصل الجراكسة كان من العرب من نسل جبلة بن الأيهم بن الحارث بن أبى شمر الغسانى وكان طوله اثنى عشر شبر وكان يمسح بكسائه الارض من طوله وهو راكب على فرسه وكان من فرسان العرب وكان ممن أسلم فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فلما حج عمر حج جبلة بن الايهم الى بيت الله

الحرام فلما كان يطوف بالبيت جاءه رجل من أصاغر العرب من بنى فزارة فزاحمه فداس ذلك الرجل على كساء جبلة فكشف كتفه فقال له جبلة هلا تنحيت عنى فأغلظ عليه ذلك الرجل الاعرابى فى القول فحنق منه جبلة فضربه على وجهه فقلع عينه فشكاه ذلك الرجل الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فاحضر جبلة بين يديه وقال له ان الله تعالى أمر بأن العين بالعين وانا اقلع عينك عوضا عن عين الاعرابى فقال جبلة انا أرضى الاعرابى عن عينه بالمال فابى الاعرابى من ذلك وقال ما آخذ فى عينى الا عينه فلما تحقق جبلة ان أمير المؤمنين عمر يقلع عينه فى عين الاعرابى أخذ جبلة أهله وأولاده وهرب بالليل خوفا من عمر بن الخطاب فلما سرى جبلة وتوجه الى الشام صار مثلا عند العرب فقالوا سرا كسا يعنى صاحب الكساء أى جبلة فلما استقر جبلة بالشام صار فى خدمة هرقل ملك الروم ثم ان جبلة لما استقر دخل فى دين النصرانية فلما فتح عمر بن الخطاب الشام كان جبلة أشد على المسلمين قتالا فى يوم فتح الشام فلما انتصر عمر بن الخطاب على هرقل وفتح الشام هرب جبلة وأخذ أولاده وعياله وتوجه الى نحو انطاكيه فأقام بها أقول وقد أنكر بعض المؤرخين واقعة جبلة هذا وان الجراكسة لا تنتسب اليه كما قيل عنهم وانه ليس لذلك حقيقة والله أعلم بصحة ذلك ۞ واما ما ذكره الحسن البصرى فانه قال ان الترك أصلهم من يأجوج ومأجوج وذلك ان الاسكندر لما بنى السد ترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خارجا عن السد فسموا الترك لكونهم تركوا عن السد لما بنى فقيل ان الترك نسل تلك الشرذمة فلما فتح المسلمون انطاكيه هرب جبلة وتوجه الى نحو القسطنطينية فأقام بها وتزوج من بناتها فاستنسل منهم وكثر نسله وصار منهم قبائل كثيرة يعرفون بقبائل سرا كسا مضافا الاسم جدهم لما وقع له من جر الكساء كما تقدم وقد استعملتها الناس بالجيم فقالوا جرا كسا والله اعلم بذلك ۞ فكان أوّل ملوك الجراكسة بمصر برقوق بن انص العثمانى وقد ذكرت فى هذا الجزء اخبار من تولى بمصر من الجراكسة الى يومنا هذا وما وقع من أخبار دولتهم من الحوادث ومن هنا نشرع فى ذلك وقد قلت فى المعنى

أقول لمن طالعه (١) دع عن ملاله ۞ وأفرغ له قلبا واوسع له صدرا
فتأليفنا كالضيف والضيف حقه ۞ بأن يتلقى بالقبول وان يقرا

ذكر سلطنة الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد برقوق بن أنص

وقيل أنس العثمانى الجركسى وهو أوّل ملوك الجراكسة بالديار المصرية وهو الخامس

(١) طالعه بسكون العين للوزن

والعشرون

والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصريه ❁ بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح أمير حاج ابن الملك الاشرف شعبان ابن الامجد سيدى حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاون تولى الملك فى يوم الاربعاء تاسع عشر شهر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة الموافق لآخر يوم من هاتور من الشهور القبطية وفى حال جلوسه على سرير الملك أمطرت السماء مطرا خفيفا فاستبشر الناس بذلك وكانت صفة ولايته أنه لما صلى الظهر بايعه أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بحضرة القضاة الاربع وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وهو الذى لقبه بالملك الظاهر لانه تولى الملك وقت الظهر فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلعة السلطنة وهى جبة سوداء وشاش أسود ملفوف عمامة وللجبة طرز زركش وسيف بداوى مقلد حمائلى فركب من الحراقة التى فى باب السلسلة والامراء مشاة بين يديه والمقر السيفى ايتمش البجاسى حامل القبة والطير على رأسه الى أن طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ونودى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء من العام والخاص وفى ذلك يقول ابن العطار المصرى

ظهور يوم الاربعاء ابتدا ❁ بالظاهر المعتز بالقاهر
والبشر قد عم وكل امرئ ❁ منشرح الباطن بالظاهر

وفيه يقول الاديب خلف الغبارى من زجل

أشرقت شمس دولة المسلمين ❁ وزها نجم سعدها الزاهر
وصبح يوم العدل نور وظهر ❁ واختفا ليل الظلم بالظاهر
مصر صارت روضه بهذا الملك ❁ زاهيا طيب عبيرها منشوق
وبالاحمر تفاحها فى البياض ❁ قد تخضب لسلطنة برقوق
ورأينا الشمس بلا زعفران ❁ صار مخلق بجملة المخلوق
حمل البان صناجقوا الزاهره ❁ قابلتها شطفات من النامر
زعق الطير شاويش وغنى الحمام ❁ رقص الغصن والنسيم الزامر

ولما تسلطن الملك الظاهر برقوق أقامت القاهرة سبعة أيام وهى مزينة والناس فى فرح وسرور بسلطنته ❁ أقول وكان أصل الملك الظاهر برقوق من مماليك الاتابكى يلبغا العمرى الناصرى جلبه الى مصر الخواجا عثمان بن مسافر فاشتراه منه الاتابكى يلبغا وأقام عنده مدة ثم أعتقه فلما مات يلبغا وجرى لمماليكه ما جرى هرب برقوق وتوجه نحو الشام فخدم عند منجك نائب الشام فلما توفى منجك صار برقوق من جملة مماليك السلطان فلما كانت دولة الاشرف شعبان بقى برقوق أمير عشرة ثم بقى أمير أربعين ثم بقى مقدم ألف ثم بقى أمير اخور كبير ثم بقى اتابك العساكر فى دولة الملك المنصور على ابن الاشرف شعبان

ثم بقي سلطانا بمصر بعد خلع الملك الصالح أمير حاج وكان برقوق من خلاصة الجراكسة فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب وخلع فيه على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفي سودون الفخري الشيخوني خلع عليه واستقر به نائب السلطنة بمصر وخلع على المقر السيفي ايتمش البجاشي واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه وخلع على المقر السيفي الطنبغا المعلم واستقر به أمير سلاح وخلع على المقر السيفي الطنبغا الجوباني واستقر به أمير مجلس وخلع على المقر السيفي جركس الخليلي واستقر به أمير اخور كبير على عادته وخلع على المقر السيفي قردم الحسني واستقر به رأس نوبة النوب وخلع على المقر السيفي قطلوبغا الكركاني واستقر به حاجب الحجاب وخلع على المقر السيفي يونس النوروزي داوداره واستقر به داودارا كبيرا ثم أنعم على جماعة من الامراء بتقادم ألوف وأنعم على جماعة بأمريات أربعين وعلى جماعة بامريات عشرة وأرضى الجند بالاقطاعات وأنفق عليهم نفقة السلطنة واستقامت أموره في المملكة ۞ وكان من العادة أن السلطان اذا خرج من الباب الى صلاة العيد تحمل القبة والطير على رأسه فلما تسلطن برقوق أبطل ذلك ثم قبض على جماعة من الامراء وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندريه ونفى جماعة كثيرة من المماليك الاشرفية وحلف سائر الامراء لنفسه ودخل الرعب في قلوب الرعيـة والعسكر منه حتى كان العوام يقولون للفا كهاني عندك شقير ولا يقولون برقوق تعظيما لاسمه ثم غير جماعة من قضاة القضاة ومن المباشرين من أرباب الدولة منهم القاضي بدر الدين بن فضل الله فصله من كتابة السر واستقر بالقاضي أوحد الدين الحنفي كاتب السر الشريف بمصر عوضا عن ابن فضل الله وغير جماعة كثيرة من المباشرين ۞ وفي هذه السنة عمل الخليلي جركس الراكطي أمير اخور كبير طاحونة لطيفة تدور بالماء فوضعها في مركب وأوقفها عند المقياس فكانت تطحن الدقيق من غير تعب ولا كلفة فكان الناس يخرجون زمرا يتفرجون عليها قال ابن العطار

سر لطاحون الخليلي التي * تدور بالماء بمصر حقيق

قد شنفت من وصفها مسمعي * لانه من كل وجه دقيق

وفي هذه السنة توفي الشيخ يحيي الصنافيري رحمة الله عليه ودفن بالقرافة عند الشيخ أبي العباس البصير انتهى ذلك ۞ ثم دخلت سنة خمس وثمانين وسبعمائة فيها قبض السلطان على الخليفة المتوكل على الله محمد وقيده وسجنه في البرج الذي بالقلعة وسبب ذلك أنه بلغ السلطان عن الخليفة ما غير خاطره عليه فخلعه من الخلافة وسجنه وولى الخلافة عمر أخا زكريا ولقبه بالواثق بالله وكانت مدة خلافة المتوكل على الله في هذه المرة نحو اثنتين وعشرين سنة ونصفا فلما خلعه من الخلافة وسجنه قال شهاب الدين بن العطار

أبشر أمير المؤمنين فما جرى * أقوى دليل أن عزلك سرمد

لاتختشى فيدالعدا مغاولة * ويدالخــلافة لاتطاولها يد

وفى هذه السـنة توفى الشيخ على الروبى وقد تقـدم أنه بشر برقوق بالسلطنة قبل أن يليها بمدة طويلة ۞ ثم دخلت سنة ست وثمانين وسبعمائة فيها حضر المقر السيفى بيدمر الخوارزمى نائب الشام الى الابواب الشريفة ليزور السلطان وأحضر صحبته تقادم عظيمة للسلطان والامراء فخلع عليه السـلطان وأكرمه وجعله فوق الامير سودون الفخرى نائب السلطنة فأقام فى القاهرة مدة ثم رجع الى الشام على عادته ۞ وفى هذه السـنة تغير خاطر السلطان على القاضى تقى الدين ناظر الجيوش المنصورة فضربه علقة فى القصر نحو مائة وخمسين عصا فنزل الى بيته وهو محمول على بغل فأقام فى بيتـه يومين ومات فكانت وفاته فى يوم الاربعاء خامس عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة وفيه يقول ابن العطار

يكفى التقى كرامة أبدت له * نيل الشهادة واغتدى بأمان

بشرى الذى قد عاش طول حياته * عيش الملوك ومات بالسلطان

فكأن لسان حال القاضى تقى الدين مع السلطان برقوق كما قد قيل فى المعنى

احمل نفسى كل وقت وساعة * همومًا على من لا أفوز بخيره

كما سوّد القصار فى الشمس وجهه * حريصا على تبييض أثواب غيره

۞ ولما توفى القاضى تقى الدين خلع السلطان على القاضى موفق الدين أبى الفرج واستقر به ناظر الجيوش المنصورة عوضا عن القاضى تقى الدين (١) وقد راحت القلعة فى كيسه وفى هذه السـنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة أكمل الدين محمد ابن الشيخ شمس الدين محمـد ابن الشيخ جمال الدين أبى الثناء محمود الرومى البابرتى الحنفى شيخ الخانقاه الشيخونية وكانت وفاته فى ليـلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان من سنة ست وثمانين وسبعمـائة المقدم ذكرها ودفن فى يوم الجمعة قبل الصـلاة وكانت جنازته مشهورة وحضر السـلطان جنازته وأخرجوه من الخـانقاه الشيخونية والسـلطان ماش قدامه من الخانقاه الى سبيل المؤمنين وأراد أن يحمل نعشـه فلم يمكنه الامراء من ذلك فصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ثم انهم أعادوه الى الخانقاه والسـلطان ماش قدامه حتى طلعوا به الى الخانقاه فدفنوه داخـل القبـة الى جانب قبر الاتابكى شـيخو والسـلطان حاضر دفنـه وكان الشيخ أكمل الدين من أكابر علماء الحنفية وكان بارعا فى العلوم وله عدة مصنفات فى أنواع العلوم وكان السلطان يسأله أن يتولى قاضى القضاة الحنفية فيأبى من ذلك وكان الاتابكى شيخو جعله ناظرا على وقفه وكان له فى مصر حرمة وافرة وكلمة نافذة عنـد الحكام والامراء ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة ۞ وقد رثاه ابن أبى حجلة بقوله

شيخ الى سبل الرشاد مسلك * وسبيله فى العلم مالا يجهـل

شيخ تبحر في العلوم فمن رأى * بحرا يسوغ لوارديه المنهـــل
شيخ عليه من المهابة رونق * كالبــدر لكن وجهه متهلل
شيخ تقدم في العلوم لانه * ان عــدّ أرباب الفضائل أوّل
شيخ بحسن بيانه وشروحه * ما بات بالمفتاح باب مقفــل
ما قيل هذا كامل في ذاته * الا وقلت الشيخ عندي أكمل

وفي هــذه الســنة كانت وفاة القاضي أوحـد الدين الحنفي كاتب السر الشريف وكان القاضي أوحد الدين سبط قاضي القضاة جمال الدين بن التركماني الحنفي وفيها توفي قاضي القضاة أمين الدين بن الانفي المالكي نائب الحكم بدمشق وفيها توفي الامير كافور الهندي الشبلي وكان من خدام الملك الناصر محمد بن قلاون المتولي الزمامية في دولة السلطان حسن وكان قد قارب من العمر نحو مائة سنة وكان في سعة من المال وهو صاحب التربة التي تحت الجبل المقطم ولما مات دفن بها وكانت وفاته في ثامن ربيع الاول من السـنة المذكورة وكان الامير كافور هذا حسن المحاضرة حلو الكلام وكان ينظم الشعر وله شعر جيد فمن ذلك ما نظمه وكتبه على رفرف مقعد بيته وهو قوله

خذ منا بابواب السلاطين قبلكم * وكانت لنا أهل المماليك تخدم
فما أبطرتنا نايعـــــلم الله نعمة * ولا نيــل منا بالاذية مســـلم

وكان الامير كافور قد اقتنى من الكتب أشياء كثيرة من سائر العلوم فلما مات أودعها في تربته التي تحت الجبــل المقطم انتهى ذلك ولما مات كافور خلع السلطان على الامير صواب السعدي واستقر به في الزمامية عوضا عن الامير نصر البالسي ۞ ثم دخلت سـنة سبع وثمانين وسبعمائة فيها خلع السلطان على القاضي جمال الدين بن خير المالكي السكندري واستقر به قاضي القضاة المالكية بالديار المصرية عوضا عن القاضي ولي الدين بن خلدون المغربي بحكم انفصاله عن القضاء وفيها اشترى السلطان مملوكه تمربغا الافضلي المعروف بمنطاش وهو أخو الامــير تمربای الدمرداشي فأقام مدة ثم ان السلطان أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار جدارا وفيها أرسل السلطان الامير بهادر المنجكي استادار العالية الى يلبغا الناصري نائب حلب فقال له قم كلم السلطان فلما خرج من حلب ووصــل الى غزة قبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ۞ وكان سبب تغير خاطر السلطان على يلبغا الناصري أنه بلغه عنه أنه متواطئ مع الامير سولي بن ذي الغادر أمير التركمان وقد اتفقا على العصيان فلما تحقق السلطان ذلك أرسل قبض على يلبغا الناصري وسجنه بثغر الاسكندرية ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الامير سودون المظفري واستقر به نائب حلب عوضا عن يلبغا الناصري ثم ان الســلطان أرسل الامــير جمال الدين محمود شاد

الدواوين الى حلب بسبب الحوطة على موجود يلبغا الناصرى و توجه الامير محمود الى حلب بسبب ذلك ۞ وفى هذه السنة قبض السلطان على الامير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس فلما قبض عليه السلطان شفع فيه الامراء فخلع عليه ورسم له بأن يكون نائب الكرك فخرج اليها من يومه وتوجه الى هناك وفيها خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الشحنة الحنفى واستقر به قاضى القضاة الحنفية بحلب عوضا عن قاضى القضاة جمال الدين بن العديم بحكم وفاته وكان ابن العديم هذا من أعيان علماء الحنفية وكانت وفاته بحلب وعاش من العمر نحو ثمان وسبعين سنة ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة وهى سنة سبع وثمانين وسبعمائة فيها رسم السلطان الملك الظاهر برقوق بابطال ما كان يعمل فى يوم النوروز وهو أول يوم من السنة القبطية ومما كان يعمل فى ذلك اليوم بالديار المصرية أنه كان يجتمع فى ذلك اليوم السواد الاعظم من الناس الاسافل فيقفون على أبواب الاكابر من أعيان الدولة فيكتب أمير النوروز وصولات بالجمل الثقال وكل من امتنع من الاعطاء من الاكابر بهدلوه وسبوه سبا قبيحا ولايزالون مترسمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقررون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه أمير النوروز فيأخذوا ذلك منه غصبا وعضوا وكان ذلك السواد الاعظم العياق يقفون فى الطرقات ويتراشون بالماء المتنجس ويتراجون بالبيض النىّ فى وجههم ويتصافعون بالانطاع والاخفاف ويقطعون على الناس الطريق ويمتنع الناس من الخروج فى ذلك اليوم الى الاسواق وتغلق فى ذلك اليوم أسواق القاهرة ودكاكينها وكل من ظفروا به فى الطرقات بهدلوه ولو أنه أمير أو من أعيان الناس فيرشونه بالماء المتنجس ويرجونه بالبيض النىّ فى وجهه ويصفعونه بالاخفاف فتتعطل الناس فى ذلك اليوم عن البيع والشراء وكان الناس فى ذلك اليوم يتجاهرون بشرب الخمر وكثرة الفسق فى أماكن المتفرجات حتى يخرجوا فى ذلك عن الحدود وبما كان يقتل منهم جماعة يعربدون على بعضهم وكان هذا الامر مستمرا فى كل سنة على القاعدة القديمة من الدول الماضية ولا ينكر ذلك بين الناس وكان يوم النوروز من أجل المواسم بالديار المصرية وكان يحمل فى ذلك اليوم لاكابر مصر من القبط والمباشرين من أصناف الفواكه الرمان وعراجين الموز ومشنات السفرجل والتفاح الشامى وقفف البسر وأقفاص العنب والتمر القوصى والبطيخ الصيفى والرطب والخوخ المشعر وقدور الهريسة المعمولة من لحوم الدجاج ومعها بطاط الجلاب وصحون الحلاوى القاهرية وغير ذلك من الانواع المطيفة فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق وتم أمره فى السلطنة أمر بابطال ما كان يعمل فى يوم النوروز وأرسل الحجاب مع جماعة من المماليك السلطانية ووالى الشرطة فصفوا فى أماكن المتفرجات وفى الطرقات فمن وجدوه يفعل ذلك يضربونه بالمقارع وصاروا يقطعون ايدى

جماعة ممن كان يفعل ذلك وقاموا في ذلك قياما عظيما حتى بطل ذلك من القاهرة وأشهروا
النداء بتهديد من يفعل ذلك بالشنق فانكف الناس من يومئذ عن ذلك وصاروا يفعلون
بعض شئ في أماكن المتفرجات من الخلجان والبرك ونحو ذلك وهذه الواقعة ذكرها
المقريزي في حوادث سنة سبع وثمانين وسبعمائة ﴿ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وسبعمائة﴾
فيها تزوج السلطان الملك الظاهر برقوق ببنت الامير منكلي بغا الشمسي وهي بنت أخت
الملك الاشرف شعبان فكان له مهم عظيم بالقلعة وحمل بين يديه خمسمائة شمعة وفيها حضر
الى الابواب الشريفة قاصد صاحب ماردين وأخبر بأن خارجيا من التتار الجغطاوية يقال
له تمرلنك قد استولى على البلاد وقد وصل جاليش عسكره الى مدينة تبريز وأخربها وقتل من
أهلها خلائق كثيرة وان القان أحمد بن أويس انتقل الى بغداد وحصنها وأخذ حذره من
تمرلنك وفيها رسم السلطان بنقل الأمير يلبغا الناصري من ثغر الاسكندرية الى ثغر
دمياط فنقله الى ثغر دمياط وكسر قيده وفيها ضرب السلطان القاضي موفق الدين أبا
الفرج ناظر الجيوش المنصورة فضربه مائة وخمسين عصا كما ضرب القاضي تقي الدين بن
محب الدين التيمي ثم فصل موفق الدين من نظارة الجيش وخلع على القاضي كريم الدين بن
مكانس واستقر به في نظارة الجيوش عوضا عن موفق الدين وفيها حضر الى الابواب
الشريفة ابن ملك الكرج وأخبر السلطان بانه قد رأى في المنام النبي صلى الله عليه وسلم
وقال له امض الى مصر وسلم على يد خادم الحرمين فقال له الرجل ابن ملك الكرج ومن
هو خادم الحرمين فقال برقوق سلطان مصر فلما سمع السلطان ذلك أكرمه وأحضر القضاة
واستسلمه بحضرتهم ثم ان السلطان أنزله في قصر خوند الحجازية بنت الملك محمد بن قلاون
وكان هذا القصر عند حبس الرحبة ورتب له ما يكفيه الى أن سافر الى بلاده وفي هذه
السنة كملت عمارة مدرسة السلطان التي بين القصرين فلما كملت نزل السلطان اليها
وذلك في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة فلما نزل السلطان
اجتمع بالمدرسة القضاة الاربع وسائر الامراء ومقرئي البلد ثم ان السلطان مد هناك
سماطا عظيما وملأ الفسقية التي في صحن المدرسة سكرا وفرقه على الناس بالطاسات وفي
ذلك اليوم خلع السلطان على الشيخ علاء الدين السيرامي واستقر به شيخ المدرسة فاضاف
اليه تدريس الحنفية وخلع على الامير جركس الخليلي أمير اخور كبير وكان شاد العمارة
وخلع على معلم المعلمين الشهابي أحمد بن الطولوني قباطح وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش
وخلع على خمسة وعشرين مملوكا من مماليك جركس الخليلي وخلع على المهندسين
والمرخمين والنجارين والدهانين والبنايين لكل واحد خلعة وفرق على الفعلة لكل واحد
أشرفيين وفي ذلك يقول ابن العطار

قدأنشأ الظاهر السلطان مدرسة * فاقت على ارم مع سرعة العمل
يكفى الخليلى ان جاءت لدعوته * صم الجبال لها تسعى على عجل

وقوله فيها أيضا

قل للمليك الظاهر المرتضى * هنيت بالمدرسة الفائقه
خنقت حسادك قهرا بها * فيالها من مدرسة خانقه

قيل كانوا يقطعون حجارة هذه المدرسة من الجبل ويجعلونها على عجل تسحبها الابقار من الجبل الى بين القصرين وهى التى تسمى الحجارة المجالسية انتهى وفى هذه السنة خلع السلطان على المقر الشهابى أحمد بن الاتابكى يلبغا العمرى واستقر به أمير مجلس كما كان عوضا عن الطنبغا الجوبانى وفيها أفرج السلطان عن الامير عشقتمر الماردينى وهو صاحب الخانقاه التى عند باب القرافة وكان مقيما فى القدس بطالا فأرسل اليه خلعة ورسم له بان يكون نائب الشام وفيها عزل السلطان الخليفة الواثق بالله عمر وخلع على الخليفة زكريا ابراهيم واستقر به خليفة عوضا عن أخيه عمر وفيها حضر الى الابواب الشريفة قاصد القان أحمد بن أويس صاحب بغداد وأخبر بأن الخارجى تمرلنك قد وصل الى مدينة قرباغ ونهبها وسبى أهلها فأرسل القان أحمد يعرف السلطان بذلك ليكون على حذر من أمره وفيها جاءت الاخبار من مكة ان أمير مكة أحمد بن عجلان قد قتل وكان سبب ذلك ان المحمل لما دخل الى مكة خرج الامير أحمد يلاقيه فلما نزل عن فرسه ليقبل رجل جمل المحمل على العادة ضربه فداوى بسكين فى جنبه فمات من يومه فاضطربت أحوال مكة وكادت العرب تنهب الحجاج فلبس أمير الحاج والمماليك الذين معه آلة الحرب وأقاموا على ذلك سبعة أيام ثم ان أمير المحمل خلع على الامير عنان بن مغامس واستقر به أمير مكة عوضا عن الامير أحمد فسكن الاضطراب قليلا وفيها توفى الخليفة المنفصل عن الخلافة الواثق بالله عمر وفيها توفى الشيخ محمد بن عثمان القرمى القادرى وكان من أكابر الاولياء فمات بالقدس فى شهر رجب ودفن هناك وقد رثاه ابن العطار فقال

محمد القرمى قطب الزمان قضى * نحبا وصار لدار الخلد والنعم
والقدس كان حوى ثم الخليل به * ومصر والشام كيافى حمى القرمى

وفيها توفى الشيخ شمس الدين القونوى الرومى الحنفى وكان من أعيان علماء الحنفية وله عدة مصنفات فى أنواع العلوم وفيها توفى الشيخ بدر الدين وكان من أولاد الصاحب بهاء الدين ابن حنا وكان من أعيان علماء الشافعية مفتيا وفيها توفى الشيخ برهان الدين القيراطى وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد فى علم البديع ومن لطائف شعره قوله فى مليح مخايل

ومخايل نبت العذار بخده * وله مخايل بالملاحة تشهد

لما رآنى قانعـا بخياله * نزل العذار بوجنتيه يسوّد

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وسبعمائة فيها فى المحرم جاءت الاخبار من تلمسان ببلاد الغرب بانه وقع بها فتنة عظيمة وقتل فى المعركة ما لا يحصى من عساكر الغرب وقتل ملكها أبو حمو المعز وفى صفر استقر الطنبغا الجوبانى فى نيابة الشام عوضا عن اشقتمر وفيه توفى محمد بن عقيل ابن قاضى القضاة بهاء الدين الشافعى وفى ربيع الاول جرت واقعة غريبة وهى أن السلطان دخل الى القصر الكبير فى غير يوم الموكب فلما جلس بالشباك رأى خيمة على بعد مضروبة فى الروضة على شاطئ النيل فبعث من كشف عن خبرها فلما عاد القاصد أخبر السلطان أن بتلك الخيمة كريم الدين الصاحب بن مكانس ومعه جماعة وهم يشربون الخمر فارسل اليهم جماعة من المماليك فاحضروهم بتمامهم وكمالهم بين يدى السلطان فامر بضرب الصاحب كريم الدين بالمقارع وقرر عليه خمسين ألف دينار ثم عفا عن الباقين وهذه من الغرائب وفى ربيع الآخر ابتدأ السلطان بلعب الرمح بعد الظهر وأمر المماليك ان ينزلوا من الطباق ويلعبوا الرمح الى العصر وهو أوّل من أحدث ذلك من الملوك ورسم لهم أن يلعبوا فى الحوش السلطانى من الظهر الى العصر واستمر ذلك بعده الى الآن وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وجعل لها دائرا وفيها اسمه فتقوّل الناس بانه تدور عليه الدوائر ويسجن وكان الامر كذلك كما قيل فى ذلك

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى * ان البلاء موكل بالمنطق

ويقرب من ذلك أن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق لما تسلطن ضرب دنانير وهى المناصرة فجعلوا اسمه فى دائرة فلما رآها يوسف ناظر الخاص قال لمعلم دار الضرب قد ضيقت على عثمان قوى فكان الامر كذلك ووقع مثل ذلك للملك المؤيد أحمد بن اينال انه لما تسلطن ضرب دراهم فضة فجعلوا اسمه فى دائرة فلما عرضوا ذلك عليه تطير منه ورسم لمعلم دار الضرب أن يغير تلك السكة ومع ذلك قيدوه وهذا مجرب وفيه جاءت الاخبار بأن المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام نهبها الشريف على بن عطية أمير المدينة فلما تحقق السلطان ذلك كتب الى أمير مكة المشرفة بأن يتوجه الى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ويحارب على بن عطية وفيه توفى الحافظ ناصر الدين بن عشائر الحلبى وكان فقيها محدثا بارعا فى كل علم وفى جمادى الاولى توفى اشقتمر الماردينى نائب الشام فلما مات أفرج السلطان عن الطنبغا الجوبانى وكان بالكرك فأرسل اليه خلعة واستقر نائب الشام عوضا عن اشقتمر الماردينى وفيه توقف النيل عن الزيادة والوفا ونقص عما زاده واضطربت الاحوال وقلق الناس لذلك ثم رد النقص وأوفى على العادة وقد قال بعضهم

النيل قد أوفى بحمد الهنا * وجرى على العادات بعد توقف
وغدا يقول لاهل مصر وغيرهم * من ذا يقى فى مصر ان أنا لم أف

وفى جمادى الآخرة ظهر فى السماء كوكب من جهة الشمال الى جهة الغرب وكان غريب الصفة له ثلاث شعب فى احداها ذنب طويل قدر رمح وله ضوء زائد كضوء القمر فأقام مدة ثم تحول من جهة المغرب الى جهة الجنوب فلما تحول سمع له صوت شديد مثل الرعد وكان ذلك بعد العشاء وفيه حضر الى الابواب الشريفة الامير طغاى وكان قد توجه الى بلاد الشرق لاخبار تمرلنك فلما حضر أخبر السلطان أن جاليش تمرلنك قد وصل الى الرها وكسر قرا محمد أمير التركمان وان بوادر عساكر تمرلنك قد وصلت الى ملطيه فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقصر الكبير وطلب القضاة الاربعة والخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وأعيان المشايخ المفتين وحضر سائر الامراء فلما تكامل المجلس تكلم السلطان مع الخليفة والقضاة الاربعة فى أمر تمرلنك ثم ان السلطان تكلم فى أخذ مال الاوقاف من الجوامع والمدارس وغيرها فلم يوافق شيخ الاسلام على ذلك ولا القضاة الاربعة فشكا لهم السلطان بأن الخزائن خالية من الاموال والعدو زاحف على البلاد وان لم تخرج العسكر بسرعة والا وصل الى حلب والشام والعسكر لا تسافر بلا نفقة فوقع فى المجلس جدال عظيم ودافعوا السلطان وأغلظوا عليه فى القول فلما طال الامر وقع الاتفاق بحضور الخليفة والقضاة الاربعة بان يؤخذ من مال الاوقاف أجرة الاماكن وخراج الاراضى سنة كاملة وتبقى الاوقاف على حالها وانفصل المجلس على ذلك ورسم السلطان لمحتسب القاهرة بان يتولى جبى الاموال من الناس فاخذوا فى أسباب ذلك ثم ان السلطان عين تجريدة وعين لها جماعة من الامراء وهم الطنبغا المعلم أمير سلاح وقردم الحسنى رأس نوبة أمير كبير ويونس النوروزى الدوادار وسودون باق أحد المقدمين وعين من الامراء والطبلخانات رأس نوبة كبير غمانية ومن الامراء العشراوات عشرة وعين من المماليك السلطانية ثلثمائة مملوك وأنفق عليهم وأخذوا فى أسباب السفر والتوجه الى حلب والاقامة بها الى حضور السلطان ثم ان السلطان رسم باخذ زكاة الاموال من التجار وندب الى ذلك القاضى الطرابلسى الحنفى وفى رجب خرجت التجريدة من القاهرة فى تجمل زائد واستمرت الاطلاب تنسحب من باكر النهار الى قريب الظهر وكان يوما مشهودا فلما خرجت التجريده اشتد الامر على الناس وجبيت الاموال منهم غصبا بالعصا فجبوا ذلك من الناس فى يوم واحد ثم فرج الله عنهم وجاءت الاخبار بان تمرلنك رجع الى بلاده وان ولده قد قتل فسكن الاضطراب ورسم السلطان باعادة ما أخذوه من الناس فتزايدت أدعيتهم له بالنصر وقد قيل

فصبرا ان عقبى الصبر خير * ولا تجزع لنائبة تنوب
فان اليسر بعد العسر يأتى * وعند الضيق تنكشف الكروب
وكم جزعت نفوس من أمور * أتى من دونها فرج قريب

وفى شعبان انفصل قاضى القضاة الشافعى بدر الدين أبو البقاء السبكى وخلع السلطان على الشيخ ناصر الدين محمد بن الملق واستقر قاضى القضاة الشافعية عوضا عن بدر الدين أبى البقاء وقد امتنع ابن الملق من لبس الخلعة غاية الامتناع فألزمه السلطان بذلك على كره منه وفيه توفى الصاحب شمس الدين ابراهيم بن كاتب أرلان القبطى فلما مات خلع السلطان على علم الدين عبد الوهاب بن القسيس المعروف بابن كاتب سيدى وكان مستوفيا فى ديوان المرتجع فبقى وزيرا بالديار المصرية وفى رمضان فى يوم الاحد ثامنه نزل السلطان الى الاصطبل الذى بباب السلسلة وحكم به ونادى فى القاهرة من كان له ظلامة أو خصومة يحضر بين يدى السلطان فى كل يوم أحد وأربعاء وهذا لم يقع لسلطان قبله وهو أول من أحدث ذلك من الملوك واستمر ذلك بعده الى الآن وفيه حضر الى الابواب الشريفة أمير مكة المشرفة على بن عدنان فلما حضر أكرمه السلطان وأنعم عليه وخلع عليه وجعله شريكا لعنان بن مغايس فى امرة مكة المشرفة وأصلح بينهما وفيه طلب السلطان يلبغا الناصرى من ثغر دمياط فلما حضر أكرمه وخلع عليه واستقر نائب حلب على عادته وفى شوال قدم البريد من حلب وأخبر أن منطاش مملوك السلطان الذى قد استقر نائب السلطنة قد خرج عن الطاعة وخامر وفيه حضر رأس بدر بن سلام كبير عربان البحيرة وكان قد ظهر منه غاية الفساد وفى ذى القعدة قرر أمير حاج بن مغلطاى فى نيابة الاسكندرية عوضا عن بجمان المحمدى وفيه جاءت الاخبار بأن الواثق بالله محمد بن أبى الحسن صاحب فاس قد خلع من الملك وأعيد أبو العباس أحمد وسجن الواثق بطنجه وحصل بفاس فتنة عظيمة فى أواخر هذه السنة وفى ذى الحجة جاءت الاخبار بموت ملك التكرور موسى وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية وفيه خلع السلطان على الامير ايدكار العمرى وقرر حاجب الحجاب

ثم دخلت سنة تسعين وسبعمائة فيها حضر الى الابواب الشريفة جراى تمر دوادار المقر الشرفى يونس أمير دوادار وصحبته قاصد نائب حلب المقر السيفى يلبغا الناصرى فاخبر بان العسكر الذى توجه من القاهرة لما وصل الى سيواس أوقع مع جاليش تمرلنك واقعة قوية وقد انكسر عسكر تمرلنك وان الغلاء وقع فى العسكر وعزت سائر البضائع فلما بلغ السلطان ذلك ارسل للعسكر نفقة ليستعينوا بها على ذلك وفيها خلع السلطان على الامير محمود بن على الظاهرى شاد الدواوين واستقر به استادارا العالية عوضا عن الامير بهادر المنجكى وفيها رجع العسكر الذين توجهوا الى حلب وهم فى غاية النصرة على عسكر

التتار وفيها قبض السلطان على جماعة من الامراء الذين كانوا فى التجريدة وهم الامير الطنبغا المعلم أمير سلاح والامير قردم الحسنى رأس نوبة النوب وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ثم أرسل السلطان بالقبض على الطنبغا الجوبانى نائب الشام وسجنه وأرسل خلعة الى الامير طرنطاى حاجب دمشق بان يستقر نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوبانى وأرسل خلعة الى الامير استدمر حاجب طرابلس بان يكون نائب طرابلس واستقر بالامير سودون العثمانى نائب حماة وفيها توفى قاضى القضاة الشافعى برهان الدين بن جماعة الحموى الكنانى وتوفى الشيخ علاء الدين السيرامى الحنفى شيخ المدرسة البرقوقية وتوفى الصاحب علم الدين بن القسيس المعروف بكاتب سيدى وتوفى الامير بهادر المنجكى الذى كان استادارا وتوفى الشيخ شهاب الدين بن النقيب من أعيان العلماء ❀ ثم دخلت سنة احدى وتسعين وسبعمائة فيها فى أوائل صفر ابتدأ السلطان بشرب القمز وهو عبارة عن لبن مصنوع محمض وكان الملوك تعودوا ذلك فرسم السلطان للامراء بان يجتمعوا فى كل يوم اربعاء فى الميدان الذى تحت القلعة ويشربوا القمز وكان ذلك من جملة شعائر المملكة فتجتمع الامراء بحضرة السلطان ويجلسون فى مراتبهم ويبقى الاوزان عمال والامراء بالشاش والقماش والسقاة يسقونهم القمز فى الزبادى الصينى وكان القمز يسكر مثل الشرس ويسمى قراقز وفيها وقع الطاعون بمصر ومات من الناس من كبار وصغار مالا يحصى عددهم وأقام مدة وكثرت الامراض حتى بيعت البطيخة الصيفى باشرفيين ولا توجد ولكن بطل ذلك من بعد الملك الظاهر برقوق وفى هذه السنة جاءت الاخبار بأن يلبغا الناصرى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة وقتل الامير سودون المظفرى الذى كان نائب حلب قبله وقتل اربعة أنفس من مماليك سودون وأمسك حاجب الحجاب بحلب وجماعة من أمرائها وسبب ذلك أنه كان قد وقع بينه وبين سودون المظفرى تشاجر فأرسل سودون يشتكى من يلبغا الناصرى الى السلطان بما وقع منه فى حقه فلما بلغ السلطان ذلك ارسل الامير تلكتمر المحمدى الدوادار الثانى الى حلب ليصلح بين يلبغا الناصرى وبين سودون المظفرى وقيل ان السلطان أرسل فى الدس مراسيم على يد الامير تلكتمر الى سودون المظفرى بان يقبض على يلبغا الناصرى نائب حلب فلما وصل الامير تلكتمر الى حلب بلغ يلبغا الناصرى أمر المراسيم التى جاء بها الامير تلكتمر فخرج الى تلقيه وكان بين يلبغا الناصرى وبين الامير تلكتمر صحبة مؤكدة فما أمكنه أن يخفى منه أمر المراسيم فلما وقف عليها يلبغا الناصرى أخذها وأخذنا ها ثم توجه الى دار السعادة وطلب قضاة حلب والامير سودون المظفرى ليقرأ عليهم المراسيم التى جاءت بالامر بالصلح بين يلبغا وسودون فلما أرسل خلف سودون لم يحضر الى دار السعادة فارسل خلفه أربع مرات

والقضاة جالسون والامير تلكتمر فما حضر سودون الابعد جهد كبير فطلع سودون وهو لابس زردية من تحت ثيابه وكان يلبغا الناصرى ركن جماعة من مماليكه فى دار السعادة وهم لابسون آلة الحرب فلما دخل سودون من باب دار السعادة تقدم اليه مملوك من مماليك يلبغا وجس كتف سودون فرآه لابسها من تحت ثيابه فقال له ياأمير سودون الذى يريد الصلح يدخل الى دار السعادة وهو لابس آلة الحرب فلكمه سودون فصاح على ذلك الكمين فخرجوا الى سودون فقتلوه فى دار السعادة وقتلوا معه أربعة مماليك من مماليكه ثم ان يلبغا الناصرى أظهر العصيان والتف عليه جماعة كثيرة من مماليك الاشرف شعبان وكان من جملة من التف على يلبغا غربغا الافضلى المدعو منطاش مملوك الظاهر برقوق وكان له مدة وهو منفى فى المدن الشامية فالتف على يلبغا الناصرى ثم ان الامير تلكتمر لما جرى ماجرى بحلب رجع وأخبر السلطان بما وقع لسودون المظفرى مع يلبغا فلما تحقق السلطان عصيان يلبغا الناصرى أرسل خلعة الى الامير اينال اليوسفى بان يستقر نائب حلب عوضا عن يلبغا الناصرى وكان اينال أتابكى العساكر بدمشق وكان يلبغا الناصرى فى نفسه من الملك الظاهر برقوق عداوة قديمة كامنة فى قلبه كما قيل

الجرح يبرا ولكن كلما نظرت * عين الجريح اليه جددا لوجعا

فلما كان يوم الاربعاء تاسع عشر صفر من السنة المذكورة نزل السلطان الى الميدان الذى تحت القلعة ونصب هنالك عدة صواوين للامراء ثم انه أرسل خلف الامراء فلما تكاملوا مد لهم سماطا عظيما فلما فرغوا من الاكل جلس معهم السلطان وذكر لهم ماوقع من يلبغا الناصرى من أمر عصيانه ثم أحضر لهم مصحفا شريفا وحلف عليه سائر الامراء من الاكابر والاصاغر بان يكونوا معه كلمة واحدة وعصبة واحدة على يلبغا الناصرى فحلفوا على ذلك جميعهم وانفض المجلس على ذلك فلما كان يوم الاثنين رابع عشرى صفر عرض السلطان العسكر وعين تجريدة الى يلبغا الناصرى وعين خمسة أمراء من المقدمين وأربعمائة مملوك ثم جاءت الاخبار من طرابلس بان عسكر طرابلس ركبوا على النائب وقتلوا من أمراء طرابلس جماعة وهرب النائب الى يلبغا الناصرى وجاءت عقب ذلك أخبار من حماه بان نائبها سودون العثمانى حضر الى دمشق وهو هارب وسبب ذلك أن مماليكه ركبوا عليه مع عسكر حماه وأرادوا قتله فهرب منهم الى دمشق وقد وقعت الفتن فى سائر البلاد الشامية فلما تحقق برقوق أن البلاد قد افتتنت خاف على نفسه وأمر نائب القلعة بان يضيق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس فانه كان مسجونا فى البرج الذى بالقلعة وهو مقيد ورسم السلطان للامير مقبل الزمام بان

يضيق على الاسياد أولاد السلاطين الذين فى دور الحرم ويمنع من كان يدخل لهم ثم ان
السلطان أرسل خلعة الى الامير طغيتمر القيلاوى بان يستقر فى نيابة طرابلس عوضا عن
النائب الذى كان بها ثم حضر قاصد من عند الامير خليل بن قراجاين ذوالغادر فاخبر أن
الامير سنقر نائب سيس قد خامر وخرج عن الطاعة ووافق يلبغا الناصرى على العصيان
ورحل من سيس وأتى الى حلب فلما تحقق السلطان أن النواب قد خامروا عليه أنفق
على العسكر وأخرج التجريدة التى كان عينها الى حلب وكان بها من الامراء الاتابكى
ايتمش البجاسى والامير أحمد بن يلبغا الناصرى أمير مجلس والامير جركس الخليلى
أمير اخور كبير والامير يونس النوروزى الدوادار الكبير والامير ايدكار العمرى حاجب
الحجاب وجماعة من الامراء الطبلخانات والامراء العشراوات وأربعمائة مملوك نفرجوا من
القاهرة فى عظمة زائدة فلما خرجوا من القاهرة ووصلوا الى دمشق جاءت الاخبار من
هناك مع السعاة بان العساكر لما وصلت الى دمشق وجدوا يلبغا الناصرى قد ملك
الشام حتى قلعتها فلما وصل العسكر اليه أوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى
جرى الدم بينهم وقتل من الفريقين مالا يحصى عددهم وآخر الامر انكسر عسكر
السلطان الذى أرسله وانتصر عليهم يلبغا الناصرى وقتل الامير جركس الخليلى
أمير اخور كبير وهرب الامير أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس والامير ايدكار العمرى حاجب
الحجاب والامير يونس الدوادار وأما الاتابكى ايتمش فانه أسر وسجن بقلعة دمشق وأما بقية
الامراء والمماليك السلطانية فشئ أسر وشئ هرب وشئ قتل وكانت هذه الواقعة بدمشق
فى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة فلما ان جاءت هذه الاخبار
الى القاهرة اضطربت الناس من هذه الاخبار وماجت على بعضها وكثر القيل والقال
بين الناس بسبب ذلك وارتج الامر على السلطان فعمل الموكب بالقصر وفرق امريات من
قتل من الامراء فى هذه المعركة فانعم على الامير قرابغا الابوبكرى بتقدمة ألف وأنعم
على الامير بجاس النوروزى بتقدمة ألف وأنعم على الامير شيخ الصفوى بتقدمة ألف
وأنعم على الامير قرقماس الطشتمرى بتقدمة ألف وأنعم على الامير أقبغا المارديني بتقدمة
ألف وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بامريات أربعين وعلى جماعة بامريات
عشرة ثم انه رسم بالافراج عن جماعة من المماليك الاشرفية ومماليك الاسياد وكانوا فى
السجن بخزانة شمايل وصار يرضى خاطر العسكر بكل ما يمكن حتى يمحوا ما وقع منه فى
حق العسكر وكان كما قيل فى المعنى

حسنات الخدمنه * قد أطالت سيآت * كلما ساء فعالا * قلت إن الحسنات

ولما كان يوم الاربعاء مستهل جمادى الاولى حضر تمربغا الغفارى السواق وكان قد

توجه الى نحو الشام بسبب كشف أخبار يلبغا الناصرى فلما وصل الى غزة رأى طوالع
جاليش يلبغا الناصرى قد وصل غزة فلما دخلوا مدينة غزة أنزلهم الامير حسام الدين بن
باكيش نائب غزة فى الميدان الكبير فلما باتوا تلك الليلة كبس عليهم وأمسكهم عن
آخرهم وقيدهم وسجنهم فى دار السعادة وكانوا نحو مائة انسان وفيهم ثلاثة أمراء من
حلب فلما سمع السلطان هذا الخبر فرح وخلع على ذلك السواق كاملية بسمور ثم فى
يوم الاحد خامس جمادى الاولى قعد السلطان فى مقام سيدى محمد الردينى الذى هو
داخل الحرم وطلب الخليفة المتوكل من البرج فخرج وحضر وهو مقيد وكان له نحو ست
سنين فى البرج بالقلعة وهو مقيد وقد أفحش فى حقه الملك الظاهر برقوق وتمادى على
طغيانه فى حق المتوكل وهو فى القيد هذه المدة الطويلة كما قيل فى المعنى

على رأس عبد تاج عز يزينه * وفى رجل حر قيد ذل يشينه

فلما حضر بين يدى السلطان قام اليه وأمر بنزع قيده وصار يعتذر اليه مما وقع منه فى
حقه كما قيل فى ذلك

اذا كان وجه العذر ليس بواضح * فان اطراح العذر خير من العذر

ثم طلب القضاة الاربع وأعاد المتوكل الى الخلافة كما كان وخلع عليه وأركبه فرسا
وسرج ذهب وكنبوش ونزل من القلعة فى موكب عظيم والقضاة قدامه وزينت له
الصليبة وجامع ابن طولون وكان يوما مشهودا فلما نزل الى بيته ارسل اليه السلطان قماشا
بنحو ألف دينار ما بين صوف وسمور ووشق وسنجاب وبعلبكى وغير ذلك وأرسل اليه ألف
دينار ذهب عين ثم ان السلطان نزل الى الميدان الذى تحت القلعة وعرض هناك العسكر
وهم لابسون آلة الحرب راكبون على خيولهم وصار يسأل من كل واحد منهم ماهو عاوز
من آلة الحرب فيعطيه الذى يعوزه من خيل وسلاح وغير ذلك ثم ان السلطان عمل
الموكب فى القصر وخلع على من يذكر من الامراء وهم الامير سودون الصيفى تمرباى
باق واستقر أمير سلاح وخلع على الامير قرابغا الابو بكرى واستقر أمير مجلس عوضا عن
الامير أحمد بن يلبغا العمرى وخلع على الامير قرادمرداش الاحمدى واستقر رأس نوبة
النوب وخلع على الامير قرقماس الطشتمرى واستقر دوادارا كبيرا عوضا عن الشرفى
يونس وخلع على الامير اقبغا الماردينى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن الامير ايدكار
العمرى ثم فى يوم الاثنين حضر الى الابواب الشريفة العلائى على بن الطشلاقى والى قطيا
وأخبر السلطان بان جاليش يلبغا الناصرى قد وصل الى قطيا ثم بعد ذلك جاءت الاخبار
بأن يلبغا الناصرى قد وصل الى الصالحية فلما تحقق السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة
وجلس فى الحراقة وأمر بشد الخيول وعلق الصنجق السلطانى ونادى للعسكر بأن

يطلعوا الى الرميلة وعليهم آلة الحرب فطلع اليـه من الامراء الامير سودون الفخرى نائب السلطنة والامير تمربغا المنجكى والامير أبو بكر بن سنقر الجمالى والامير بيبرس التمان تمرى والامير سودون الطرنطاوى والامير قجماس ابن عم السلطان فلما تكامل العسكر ركب السلطان وخرج من باب السلسلة وعلى رأسه الصنجق السلطانى فتوجه هو والعسكر الى نحو المطرية فأقام السلطان هناك يوم الاربعاء ويوم الخميس فصار جماعة من المماليك السلطانية ينسحبون من عند السلطان ويتوجهون الى يلبغا الناصرى فتوجه اليه جماعة كثيرة من المماليك السلطانية ومن المماليك السيفية فلما رأى السلطان ذلك رجع من هناك وطلع الى القلعة فلما كان يوم السبت خامس عشر جمادى الاولى جاءت الاخبار بأن أوائل عسكر يلبغا الناصرى قد وصل الى أوائل الترب فلما تحقق السلطان ذلك نزل من القلعة ودقت الكوسات حربى وجمع العسكر وتوجه الى نحو قبة النصر فوقف هناك على كوم عالى فوقع هناك بين الفريقين بعض قتال هين فأقام السلطان هناك الى آخر النهار ثم رجع الى القلعة وقعد فى باب السلسلة وبات به فلما كانت تلك الليلة توجه أكثر الامراء الى يلبغا الناصرى فلم يبق مع السلطان الا بعض جماعة من الامراء منهم الامير قجماس ابن عم السلطان وسيدى أبو بكر الجمالى سنقر والامير تمربغا المنجكى والامير سودون الطرنطاوى وبعض مماليك من الجدارية فلما رأى السلطان عين الغلب أراد ان يسلم نفسه ويختفى فى الحيرة فمنعه الامراء من ذلك فأقام الى العصر فى باب السلسلة فبلغه ان الامير نزلار العمرى والامير الطنبغا الاشرفى والامير طقطاى الطشتمرى ومعهم جماعة من المماليك نحو خمسمائة مملوك قد وصلوا الى القلعة فعين لهم السلطان بطا الخاصكى وسكربای الخاصكى ومعهما نحو عشرين مملوكا فنزلوا اليهم واوقعوا معهم فى الرميلة واقعة قوية فكسر عسكر يلبغا الناصرى وطردوهم الى تحت المنجكية فلما بلغ يلبغا الناصرى ان جاليشه قد انكسر هم بالهروب من هناك وأرسل بركه وقماشه الى القنطرة التى عند المرج والزيات خوفا من النهب فلما كانت ليلة الاثنين سابع عشرى جمادى الاولى تسحب من كان بقى عند السلطان من الامراء والمماليك ولم يبق عنده سوى سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى و بيدمر الجدى شاد القصر فقال السلطان لسيدى أبى بكر خذ الترس والنمشاه وامض الى يلبغا الناصرى وقل له السلطان يسلم عليك ويقول لك بانك تؤمنه على نفسه من القتل فمضى سيدى أبو بكر و بيدمر المحدى الى الامير يلبغا وذكروا له ما قاله السلطان فقال الامير يلبغا هو آمن على نفسه من القتل ولكن قولوا له يختفى من القلعة حتى تنكسر حدة العسكر الذى حضر من الشام عنه وبعد ذلك يفعل الله مايشاء وما يكون الا الخير فلما رجع سيدى أبو بكر بن سنقر و بيدمر من عند الامير يلبغا

الناصرى بهذه الرسالة وأخبروه بما قاله الامير يلبغا أقام فى باب السلسلة والخليفة المتوكل عنده الى ان صلى العشاء وقام الخليفة من عنده فبقى هو وخمسة من المماليك الجدارية فامرهم بالانصراف فلما انصرفوا قام السلطان ودخل المبيت وقلع تخفيفته ولبس له عمامة وجوخة من فوق ثيابه وأخذ فى يده عصاه ونزل من باب السلسلة بعد العشاء واختفى فلما نزل السلطان من باب السلسلة وقع النهب فى الحواصل السلطانية وذلك فى ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة فلما اصبح يوم الاثنين وصل الامير يلبغا الناصرى وصحبته الامير تمربغا الافضلى المعروف بمنطاش مملوك الملك الظاهر برقوق فلما وصلوا الى الرميلة وقفوا بسوق الخيل هم والعسكر الذى حضر معهم من البلاد الشامية فوقفوا ساعة ثم ان الخليفة المتوكل أتى الى الامير يلبغا وسلم عليه ثم طلع الامراء والخليفة الى باب السلسلة واشتوروا فى ذلك اليوم فيمن يولوه سلطانا وبات فى تلك الليلة العسكر بغير سلطان فلما اصبحوا يوم الثلاثاء وقع الاتفاق بين الامراء على عود الملك الصالح أمير حاج ابن الاشرف شعبان الذى خلعه برقوق من السلطنة وكان مقيما بدور الحرم فطلبوه فخرج اليهم فاجتمعوا بالحوش السلطانى فلما رأوا الملك الصالح قد حضر باس له الارض سائر الامراء ثم طلبوا القضاة الاربعة وبايعه الخليفة بالسلطنة ثانيا وكان عوده الى الملك على غير القياس فكان كما قيل فى المعنى

أيها الانسان صبرا * ان بعد العسر يسرا

كم لزمنا الصبر حتى * عاد ليل الهم فجرا

فكانت مدة سلطنة الملك الظاهر برقوق فى هذه المرة ست سنين وثمانية أشهر وسبعة وعشرين يوما وكانت مدة اقامته فى الاتابكية خمس سنين الاأشهر الحكم بالديار المصرية أتابكا وسلطانا احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما فهذه كانت مدة سلطنة برقوق الاولى وسيعود الى السلطنة ثانى مرة كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الظاهر برقوق على سبيل الاختصار

ذكر عود الملك الصالح أمير حاج ابن الملك الاشرف شعبان

ابن حسين الى السلطنة وهى السلطنة الثانية جلس على سرير الملك بعد ان بايعه الخليفة بحضرة القضاة الاربعة وباس له الامراء الارض وركب بشعار الملك من الحوش السلطانى الى القصر الكبير فمد هناك السماط وجلس عليه وهو بشعار الملك ثم ان الامير يلبغا الناصرى لما ولى الملك الصالح هذه المرة غير لقبه ولقبه بالملك المنصور وهذا لم يتفق قط فان الملك الناصر محمد بن قلاون لما خلع من الملك وعاد اليه ثلاث مرات لم يتغير لقبه ثم نادوا باسمه

فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وطلع اليه سائر الامراء فلما تكامل الامراء فى الموكب تقدم الامير يلبغا الناصرى وقبض على المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى نائب السلطنة وقبض على الامير سودون باق وقبض على الامير سودون الطرنطاى وقبض على سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى وكان سيدى أبو بكر هذا حاجب الحجاب فى دولة الملك الظاهر برقوق وقبض على الامير بجاس النوروزى وقبض على الامير اقبغا المارديني والامير شيخ الصفوى والامير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق وقبض على الامير محمود بن على الظاهرى استادار العالية فكان عدة من أمسك فى ذلك اليوم من الامراء المقدمين تسعة وقبضوا فى ذلك اليوم على ثمانية وستين أميرا مابين أمراء طبلخانات وأمراء عشراوات حتى ارتجت فى ذلك اليوم القاهرة وكادت ان تخرب عن آخرها وكان الامير يلبغا ومنطاش لما أتوا الى القاهرة دخلوا ومعهم السواد الاعظم من التراكمة ومن العربان وغير ذلك من عساكر البلاد الشامية والبلاد الحلبية فلما أرادوا ان يدخلوا الى المدينة وجدوا أبواب القاهرة مقفلة فجاء الامير ناصر الدين استادار الامير ارغون اشكى وكان قد حضر من الشام صحبة العسكر فاتى الى باب النصر فوجده مقفلا فدق الباب فلم يفتحوا له فدخل من باب سر جامع الحاكم وهو راكب على فرسه وفتح باب النصر وباب الفتوح فدخل السواد الاعظم الى القاهرة فنهبوا عدة دكاكين من سوق باب النصر من البضائع والمآكل وغير ذلك واستمر النهب عمالا من باب النصر الى الركن المخلق وقد تدرجوا الى نهب البيوت واضطربت القاهرة وماجت باهلها فلما بلغ الامير يلبغا ومنطاش ذلك ارسلوا جماعة من رؤس النوب ومن الحجاب وطردوا من يفعل ذلك ونادوا فى القاهرة بالامان والاطمئنان وأن من نهب شيأ يرده والا يشنق فانكف الناس عن النهب وتركوا جماعة من الحجاب فى أماكن من القاهرة فسكن الامر قليلا وخمدت الفتنة ثم ان الامراء تكلموا مع الامير يلبغا الناصرى ومنطاش فى أمر هؤلاء الامراء الذين أمسكوا فافرج الامير يلبغا عن جماعة من الامراء الطبلخانات والامراء العشراوات احدا وعشرين أميرا وأفرج عن الامير شيخ الصفوى ورسم له بان يتوجه الى القدس بطالا ورتب له ما يكفيه ثم ان الامير يلبغا قيد بقية الامراء وارسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية وقد تقدم ذكر أسمائهم ثم ان الامير يلبغا رسم بان يفرج عن جماعة من الامراء ممن كان مسجونا بثغر الاسكندرية فحضروا الى القاهرة وهم الامير الطنبغا الجوبانى والامير الطنبغا المعلم والامير قردم الحسنى وغير ذلك من الامراء الذين كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية فلما تم الامر للملك المنصور أمير حاج فى السلطنة عمل الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى يلبغا الناصرى واستقر أتابكى العساكر بالديار المصرية عوضا عن الاتابكى ايتمش

البجاشى وخلع على المقر السيفى قرادمرداش الاحمدى واستقر أمير سلاح عوضا عن سودون السيفى تمرباى باق وخلع على المقر الشهابى احمد بن الاتابكى يلبغا العمرى واستقر أمير مجلس على عادته وخلع على المقر السيفى الطنبغا الجوبانى واستقر رأس نوبة النوب عوضا عن قرادمرداش الاحمدى وخلع على المقر السيفى تمرباى الحسنى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى وخلع على المقر السيفى الابغا العثمانى واستقر دوادارا كبيرا عوضا عن الامير يونس النوروزى وخلع على الامير اقبغا الجوهرى واستقر بها استادار العالية عوضا عن الامير محمود بن على الظاهرى وخلع على الامير الطنبغا الاشرفى واستقر به رأس نوبة ثانى وخلع على الامير قطلوبك السيفى يلبغا واستقر به أمير جاندار وأنعم على جماعة من الامراء بتقادم ألوف وعلى جماعة بامريات أربعين وعلى جماعة بامريات عشرة ثم عمل الموكب الثانى وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى نزلار العمرى واستقر به نائب الشام وخلع على المقر السيفى كمشبغا الحموى واستقر به نائب حلب وخلع على المقر السيفى قطلوبغا الصفوى واستقر به نائب صفد وخلع على المقر السيفى سنجق الحسنى واستقر به نائب طرابلس وخلع على المقر الشهابى احمد بن المهمندار واستقر به نائب حماه وخلع على الامير بغاجق السيفى صرغتمش واستقر به نائب ملطية ثم رسم للنواب الذين استقروا بأن يتوجهوا الى البلاد الشامية ويستقر كل واحد فى نيابته ويعمر ما فسد من أحوال البلاد الشامية فخرجوا من القاهرة على حميه جميعهم بالسويه ثم ان الاتابكى يلبغا الناصرى نادى فى القاهرة بأن مماليك الظاهر برقوق لا يقيم منهم أحد فى القاهرة وان يخدموا عند النواب ويخرجوا معهم وكل من وجد منهم من بعد ذلك شنق من غير معاودة ثانية وصاروا يكرروا المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية ۞ هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج بعد عوده الى الملك وأما ما كان من أمر الملك الظاهر برقوق بعد اختفائه فان الامير يلبغا الناصرى صار ينادى فى القاهرة كل من كان الملك الظاهر برقوق عنده ولا يقر عليه يشنق على باب داره من غير معاودة فبينما الاتابكى يلبغا الناصرى جالس فى باب السلسلة وقت الظهر اذ دخل عليه مملوك من مماليك أبى يزيد الخازن يقال له سنقر الرومى فقال للاتابكى يلبغا الناصرى ان السلطان برقوق مختف عند استاذى فى بيت شخص خياط فلما سمع الاتابكى يلبغا بذلك طلب أبا يزيد الخازن وقال له انزل احضر الملك الظاهر برقوق من عندك والا شنقتك على باب بيتك فلما سمع أبو يزيد بذلك انكر فامر الاتابكى يلبغا بتوسيطه فلما تحقق ذلك اقر بأنه عنده فقال له يلبغا أنت ما سمعت المناداة بأن من خبى السلطان برقوق عنده ولا يقر به شنق على باب داره فقال أبو يزيد يا خوندان الملك برقوق كان له على احسان عظيم وجاء الى تحت الليل فما أمكنى رده فقال له يلبغا انزل اليه واحضره ثم أرسل معه الامير

الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب ومعه عشرون مملوكا فلما وصلوا البيت الذى فيه السلطان برقوق طلع اليه الامير الطنبغا الجوبانى بمفرده فلما وقعت عينه على الملك الظاهر برقوق بجرى الطنبغا وقبل يد الملك الظاهر برقوق وقال له أنت أستاذنا كلنا ونحن مماليكك ثم ان برقوق قام معه ولبس له عمامة على رأسه وعمل فوقها طيلسانا وركب فرسا وركب الطنبغا الجوبانى الى جانبه ومعهما أبو يزيد فى الترسيم فطلعوا الى باب السلسلة فنزل السلطان برقوق من على الفرس فطلعوا به من باب سر القصر الكبير الذى من الاسطبل فادخلوه الى قاعة النحاس التى لها شبابيك مطلة على الايوان ثم ان الاتابكى يلبغا قال لابى يزيد احضر لنا ما كان مع السلطان من المال لما دخل عندك فأخرج لهم كيسا فيه ألف دينار وقال والله ما أودع عندى غير هذا الكيس وما أعلم ما فيه فقال له الاتابكى يلبغا لقد خاطرت بنفسك ولولا خاطر الملك الظاهر برقوق كنت شنقتك فقال أبو يزيد يا خوند أنا ما فعلت ذلك الا وقد فرغت عن نفسى وحسبت حساب التلف وقد قيل فى المعنى

اذا اعتذر الجانى محا العذر ذنبه * وكل امرئ لا يقبل لعذر مذنب

فقال له يلبغا خذ ذلك الكيس بما فيه ومثلك من يخدم الملوك ثم خرج عنه ونزل الى بيته ثم ان الاتابكى يلبغا الناصرى رتب للملك الظاهر برقوق سماطا فى كل يوم بكرة وعشية وجعل عنده ثلاثة مماليك صغارا يخدمونه وأقام فى قاعة النحاس الى الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة من السنة المذكورة فطلع اليه الامير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب فقيده ونزل به من القلعة فى نصف الليل من باب الدرفيل فأركبه على هجين وركب معه الامير الطنبغا الجوبانى وبعض مماليك وتوجهوا به على قبة النصر وقصدوا به نحو مجرود وقد زالت دولة الظاهر برقوق كأنها لم تكن وقد قاسى مشقة ورعبا فى مدة اختفائه وقد قيل فى المعنى

انى تأملت للعلياء لم أرها * تنال الاعلى كد من التعب

ثم ان الامير عيسى بن مهنا شيخ العرب تسلم السلطان برقوق وتوجه به الى نحو الكرك ورجع الامير الطنبغا الجوبانى الى القاهرة فلما وصل السلطان برقوق الكرك سجن بالقلعة التى به وهو فى القيد وكان نائب الكرك يومئذ الامير حسام الدين الكجكنى فأكرم الملك الظاهر غاية الاكرام وأنزله فى مكان عند الطارمة وكان سبب هذه العداوة التى وقعت بين يلبغا الناصرى وبين السلطان برقوق ان برقوق قبض على يلبغا الناصرى وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية مرتين مرة فى دولة الملك المنصور على بن الاشرف شعبان والمرة الثانية فى دولة الظاهر برقوق لما كان يلبغا نائب حلب ثم ان برقوق أرسل مراسيم على

بدالامير تلكتمر الى الامير سودون المظفرى بقتل يلبغا الناصرى فاطلع عليها يلبغا الناصرى
وجرى ما تقدم ذكره فهذا كان سبب العداوة بين يلبغا الناصرى وبين برقوق واستمرت
العداوة بينهما حتى بلغ يلبغا من برقوق مناه وقيده ونفاه كما تقدم

توقع كيد من خاصمت يوما * ولا تركن الى ودّ الاعادى
فان الجرح ينكث بعد حين * اذا كان البناء على فساد

وكان توجه السلطان برقوق الى الكرك فى ليلة الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة
احدى وتسعين وسبعمائة فلما مضى أمر الظاهر برقوق واستقر بالكرك وقع الخلف بين
الامير تمربغا منطاش وبين الاتابكى يلبغا الناصرى ودبت بينهما عقارب الفتن فأظهر الامير
منطاش انه ضعيف وانقطع فى بيته أياما فلما بلغ الامراء ذلك توجه الامير الطنبغا الجوبانى
رأس نوبة النوب ليسلم عليه فلما دخل الى بيته قبض عليه وكان ذلك فى يوم الاثنين سادس
عشر شعبان من سنة احدى وتسعين وسبعمائة فلما كان وقت الظهر والناس مقيلة فى
بيوتهم ركب الامير منطاش هو ومماليكه وهم لابسون آلة الحرب وكانوا نحوا من أربعين
مملوكا فهجموا على باب السلسلة وأخذوا الذى بالاسطبل السلطانى ثم توجهوا الى بيت
اقبغا الجوهرى استادار العالية فنهبوا كلما فيه والتف على منطاش السواد الاعظم من الزعر
والغلمان والعبيد فهرب اقبغا الجوهرى من بيته الذى على بركة الفيل ثم ان منطاش أرسل
الامير تنكز بغا اليلبغاوى ومعه جماعة من المماليك فطلعوا الى سطح مدرسة السلطان
حسن وصاروا يرمون على كل من يمشى فى الرميلة أو سوق الخيل فتسامعت به مماليك الظاهر
برقوق الذين كانوا قد اختفوا فظهروا وجاؤا الى منطاش وكذلك مماليك الاشرف شعبان
ومماليك الأسياد فاجتمع عند منطاش فى أواخر النهار نحو خمسمائة مملوك وكان معه أول
ما ركب دون الاربعين مملوكا فلما تسامع الامراء والعسكر بذلك طلعوا الى الرميلة وهم لابسون
آلة الحرب فنزل اليهم الاتابكى يلبغا الناصرى ومن كان من عصبته من الامراء والمماليك
فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان وصار
العوام والزعر يساعدون منطاش بالحجارة والمقاليع ثم يلتقطون النشاب الذى يرمونه جماعة
يلبغا الناصرى ويحضرونه الى منطاش ثم تكامل عند منطاش نحو ألفى مملوك وحضر
عنده من الامراء المقدمين أربعة وهم المقر الشهابى أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس والامير
قرادمرداش الاحمدى أمير سلاح والامير الطنبغا المعلم والامير عبد الرحيم بن منكلى بغا
الشمسى وغير ذلك من الامراء الطبلخانات والعشراوات ثم ان الامير منطاش قال للامير
ناصر الدين بن الطرابلسى الزردكاشى انصب على مدرسة السلطان حسن مكحلة فامتنع
ناصر الدين بن الطرابلسى من ذلك فعراه وقصد توسيطه ثم انه نصب مكحلة على المدرسة

و رمى بها على باب السلسلة فهرب المماليك الذين كانوا فى الاسطبل ثم ان الاتابكى يلبغا
نصب مكحلة على المدرسة الاشرفية التى كانت فى رأس الصوة ورمى بها على سوق الخيل
فلم يفد من ذلك شئ ثم ان جماعة من المماليك السلطانية لما رأوا ان الامير منطاش
منتصف على الاتابكى يلبغا صار وا ينسحبون من عند يلبغا و ينزلون عند منطاش
واستمر الحرب سائرا بينهما يومين فلما رأى الاتابكى يلبغا عين الغلب هرب تحت الليل هو
وجماعة من الامراء وهم الامير مأمور القلمطاوى احد المقدمين والامير الابغا العثمانى
الدوادار والامير اقبغا الجوهرى استادار العالية والامير كشكلى احد المقدمين و بعض
مماليك نحو مائتى مملوك خرجوا من باب القرافة وتوجهوا الى الجبل المقطم وخرجوا
من عند وادى السدرة وقصدوا نحو البلاد الشامية وكان الاتابكى يلبغا يظن انه ينتصف
على منطاش كما أنه قد انتصف على الملك الظاهر برقوق وما كل مرة تسلم الجرة فكان كما
قيل فى المعنى

وانى رأيت المرء يشقى لعكسه * كما كان قبل اليوم يسعد بالسعد

هذا ما كان من أمر الاتابكى يلبغا الناصرى وأما ما كان من أمر الامير تمربغا الافضلى
منطاش فانه لما هرب الاتابكى يلبغا ركب وطلع الى باب السلسلة واستولى على حواصل يلبغا
فلما كان فى يوم الخميس تاسع عشر شعبان جاءت الاخبار بأن يلبغا الناصرى قد مسك هو
والامراء الذين كانوا صحبته من بلبيس فلما حضر يلبغا حبسه منطاش فى المكان الذى
حبس فيه الظاهر برقوق والمجازاة من جنس العمل فأقام أياما ثم قيده وأرسله الى السجن
بثغر الاسكندرية وأرسل معه الامراء المقدم ذكرهم فنفى فى هذه الحركة تسعة أمراء وغير
ذلك من الامراء العشراوات ممن كان فى عصبة يلبغا ثم ان الامير منطاش رسم بالافراج عن
جماعة من الامراء الذين كان قد سجنهم يلبغا الناصرى فحضر من ثغر دمياط المقر السيفى
سودون الفخرى نائب السلطنة ثم أرسل باحضار الامير شيخ الصفوى من القدس وأفرج
عن الامير الطنبغا العثمانى والامير بطا الطولوتمرى والامير الطنبغا شادى ثم ان الامير
منطاش عرض مماليك الظاهر برقوق فى باب السلسلة ومسك منهم نحو مائتى مملوك وحبسهم
فى أبراج القلعة ثم ان السلطان الملك المنصور رأمير حاج عمل الموكب فى القصر وخلع على
من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى تمربغا الافضلى منطاش واستقر به أتابك العساكر
عوضا عن يلبغا الناصرى وخلع على الامير استدمر الاشرفى واستقر به أمير مجلس وخلع
على الامير تمان تمر الاشرفى واستقر به رأس نوبة النوب وخلع على الامير الطنبغا الحلبى
واستقر به دوادارا كبيرا وخلع على الامير اياس الاشرفى واستقر به أمير اخور كبير وأنعم على
جماعة من الامراء ممن كان من عصبته بتقادم ألوف و بامريات أربعين و بامريات عشرة

وفرق الاقطاعات على المماليك وأقام له عصبة قوية وظن ان الوقت قد صفا له ثم فى العشر الاخير من شهر رمضان جاء الخبر من الكرك بأن الملك الظاهر برقوق قد ملك قلعة الكرك وعصى بها وكان سبب ذلك ان الاتابكى منطاش أرسل شخصا من البريدية يقال له الشهاب وأرسل على يده مرسوما شريفا الى نائب الكرك بقتل الملك الظاهر برقوق (ومن العجائب) أن منطاش مملوك الملك الظاهر برقوق اشتراه فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة وربّاه صغيرا ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وكان منطاش شجاعا بطلا فظهر منه بعض افساد فى القاهرة فضربه السلطان برقوق علقة قوية ونفاه الى البلاد الشامية فلما عصى يلبغا الناصرى التف عليه منطاش وحضر معه الى القاهرة وحارب أستاذه برقوق أشد المحاربة وقيده ونفاه الى الكرك وما كفاه ذلك حتى أرسل مراسيم بقتله فكان حال السلطان برقوق مع مملوكه منطاش كما قيل فى المعنى

كنت من كربتى أفرّ اليهم * فهمو كربتى فأين المفر

فلما دخل الشهاب البريدى الى الكرك بلغ ذلك الملك برقوق وكان للملك الظاهر فى المكان الذى حبس فيه شباك الى جهة بلاد الخليل عليه الصلاة والسلام فكان برقوق فى كل يوم يقف فى الشباك و يقول يا خليل الله أنا فى حسبك من منطاش قيل ان شخصا من الصالحين رأى الخليل عليه الصلاة والسلام فى المنام فقال له ان برقوق يعود الى ملكه وينصر على منطاش فلما حضر الشهاب البريدى الى الكرك تنسم منه الحاج عبد الرحمن البابا الذى كان بخدمة الملك الظاهر برقوق بأنه جاء بقتل أستاذه برقوق وكان أصل الحاج عبد الرحمن البابا من الكرك وله أقارب هناك فلما كانت تلك الليلة التى قدم فيها الشهاب البريدى كانت نوبة أبى علوان السجان وكان من أقارب الحاج عبد الرحمن البابا فانزلوا ذلك البريدى فى مكان يسمى الطارمة بجانب المكان الذى فيه السلطان برقوق وكان نائب الكرك فى كل ليلة من شهر رمضان لا يفطر الا عند السلطان برقوق فلما كانت تلك الليلة لم يحضر فيها نائب الكرك المذكور فاضطرب الظاهر برقوق لذلك وقال لا آكل شيأ حتى يحضر النائب ثم بعد ساعة حضر وأكل مع السلطان فلما فرغوا دخل أقارب الحاج عبد الرحمن البابا على الشهاب البريدى وهو فى الطارمة فقتلوه ثم أرادوا قتل نائب الكرك فاستجار بالسلطان فمنعهم من قتله فقبضوا عليه وسجنوه وملك الملك الظاهر قلعة الكرك فهذه كانت مبدأ سعد الملك الظاهر برقوق وقد قاسى من المحن والاهوال أمرا عظيما فكان كما قيل فى المعنى

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه * ويعرف عند الصبر فيما يصيبه

ومن قل فيما يتقيه اصطباره * فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

فلما

فلما جاءت الاخبار بان برقوق قد ملك قلعة الكرك اضطربت أحوال الاتابكى منطاش وخانه المراد وجنى عليه الاجتهاد ثم انه أحضر العسكر وعين تجريدة الى برقوق ثم فى أثناء ذلك حضر شخص من العربان الشامية واخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد طرده أهل الكرك وانزلوه من القلعة وهرب الى خارج المدينة وان العربان قد أحاطوا به ولم يكن لذلك صحة وانما السلطان برقوق أرسل هذا الهجان بهذا الخبر الى مصر حتى يبطل أمر التجريدة التى كانوا عينوها له الى أن تستقيم أحواله فلما سمع الاتابكى منطاش بهذا الخبر فرح وخلع على ذلك الهجان كاملية بسمور وبطل أمر التجريدة فكانت هذه أول مكيدة صحت بيد برقوق ثم فى خامس عشر شوال جاءت الاخبار من قوص بأن مماليك الظاهر برقوق الذين كانوا هناك قد توجهوا الى الكرك من وادى القصب الى السويس وقد قتلوا والى قوص ثم فى أثناء ذلك جاءت الاخبار من حلب بان كمشبغا الحموى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة ثم جاءت الاخبار بان الظاهر برقوق قد خرج من الكرك وهو قاصد نحو الشام فلاقاه حسام الدين بن باكيش نائب غزة ومعه جماعة من عربان جبل نابلس نحو خمسة آلاف انسان فاوقعوا مع الظاهر برقوق فى الطريق واقعة قوية وكان الظاهر برقوق قد التف عليه من عربان الكرك نحو ألف انسان فلما خرج من الكرك تسامعت به الناس فجاؤا اليه وصار كلما مر بقرية يخرج اليه أهلها ويلاقونه ومعهم العليق والضيافة فلما لاقاه ابن باكيش نائب غزة وانكسر من كان مع ابن باكيش من العسكر نهبهم عسكر برقوق وغنموا منهم خيولا وسلاحا وقماشا وبركا فقوى عسكر برقوق بتلك الغنيمة فلما وصل برقوق الى شقحب خرج اليه عسكر دمشق وأوقعوا معه هناك واقعة عظيمة فقتل بها من أمراء دمشق ستة عشر أميرا ومن المماليك نحو خمسين مملوكا وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك ثم جاءت الاخبار بان الامير اينال اليوسفى خرج من السجن وملك قلعة صفد وسبب ذلك ان اينال اليوسفى كان مسجونا بقلعة صفد وكان دوادار نائب صفد شخصا يقال له يلبغا السالمى وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق فلما خرج نائب صفد من المدينة وتوجه الى نحو دمشق ليساعد نائب دمشق على قتال الظاهر برقوق بقيت صفد خالية بلا نائب فاتفق يلبغا السالمى مع حاجب صفد ونائب القلعة وأخرجوا الامير اينال اليوسفى من السجن وأخرجوا معه جماعة من المماليك الذين كانوا معه فى السجن وملكوا قلعة صفد فلما بلغ ذلك نائب صفد رجع الى صفد وأراد أن يدخل الى دار السعادة فرموا عليه بالمدافع وطردوه من المدينة واستولى اينال اليوسفى على قلعة صفد ونهب حواصل قطلوبك نائب صفد فقويت شوكة الظاهر برقوق ثم جاءت الاخبار بان نائب صفد ونائب حماه قد وصلا

الى قطيا وهما هاربان من الظاهر برقوق فدخلوا الى القاهرة فى يوم الاحد خامس عشرى شوال فاخبروا الاتابكى منطاش بان أكثر النواب خامر مع الظاهر برقوق فلما سمع منطاش ذلك عقد مجلسا عظيما فى القصر الكبير وأرسل خلف أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الاربع وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى فلما تكامل المجلس عرض عليهم الاتابكى منطاش سؤالا شرحه ما تقول السادة العلماء فى رجل خلع الخليفة وسجنه وقيده من غير موجب لذلك وقتل رجلا شريفا فى الشهر الحرام فى البلد الحرام واستحل أخذ أموال الناس بغير حق واستعان بالكفار على قتال المسلمين ثم كتبوا من هذا السؤال عدة نسخ فقال القضاة ما نكتب على هذا السؤال حتى يكتب شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى فكتب الشيخ سراج الدين البلقينى اذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله ومحاربته فهو خارجى فلما كتب شيخ الاسلام ذلك كتب بعده القضاة ومشايخ العلماء وكتبوا من هذا السؤال عدة فتاوى ثم أرسلوها الى ثغر الاسكندرية ودمياط وغير ذلك من الثغور وكان الظاهر برقوق فى أول سلطنته وقع منه أمور فاحشة فى حق الرعية فكان كما قيل اذا حملت الانفس ما لا تطيق نطقت الألسن بما لا يليق ثم جاءت الاخبار من دمشق بأن الظاهر برقوق بعد ان دخل الى دمشق وملك المدينة ونزل فى الميدان كبس عليه أهل دمشق وأخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد وكان سببه أن الظاهر برقوق لما وصل الى دمشق نزل عند قبة اليلبغا خارج دمشق فأقام هناك فجاء اليه كشبغا الحموى نائب حلب فوجد الظاهر برقوق فى خيمة خلقة صغيرة فأحضر له خيمة مدورة عظيمة وأحضر طشتخاناه وشربخاناه وفرشخاناه وغير ذلك مما يحتاج اليه الملوك من أوانى وفرش حتى أحضر له الخليفة برسم النوبه وصار الظاهر برقوق سلطانا كما كان أولا بعد ما كان قد تلاشى أمره فكان كما قيل

الصبر مثل اسمه فى كل نائبة * لكن عواقبه أحلى من العسل

فاصبر لها غير محتال ولا ضجر * فى حادث الدهر ما يغنى عن الحيل

ثم ان الظاهر برقوق لما استقامت أموره حضر بمن معه من العساكر ودخل الى دمشق وملك المدينة ونزل بالميدان الكبير فجاء اليه الناس من كل فج وقدموا اليه الخيول والقماش والمال وغير ذلك فبينما هو فى الميدان اذ قامت بدمشق عركة ورجموا الملك الظاهر برقوق واخرجوه من الشام وكان سبب ذلك أن بعض مماليك برقوق عبث على بعض سوقة دمشق وأخذ منه شيأ من البضائع بالغصب فاستغاث ذلك السوقى فحضر اليه جماعة من أهل دمشق وتعصبوا له فهاش عليهم ذلك المملوك وضربهم فرجمه أهل دمشق فجاء خشداشى ذلك المملوك ورموا على عوام دمشق بالنشاب فتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقاليع فكسروا المماليك كسرة قوية فركب الظاهر برقوق ومن معه من الامراء وخرجوا من

دمشق الى قبة يلبغا فدخل العوام الى الميدان ونهبوا برك الظاهر برقوق وغلقت أبواب دمشق بعدما كانت مفتحة وكان برقوق أشرف على أخذ قلعة دمشق وراج أمره فتعطل بسبب ذلك كما قيل * ومعظم النار من مستصغر الشرر * ويقرب من هذه الواقعة ما ذكره بعض المؤرخين ان أهل قريتين تقاتلوا حتى تفانوا عن آخرهم على قطرة عسل وسبب ذلك أن رجلا نحالا يبيع العسل وقف على زيات ليبيعه عسلا فبينما الزيات يزن في العسل قطرت منه قطرة على الارض فوقع عليها زنبور فوثب عليه قط كان في دكان الزيات وهو عزيز عنده فخطف ذلك الزنبور فرآه كلب كان مع صاحب العسل وهو عزيز عنده فوثب على قط الزيات فقتله وأكله فلما رأى الزيات قطه قد مات ضرب كلب صاحب العسل فقتله فلما رأى صاحب العسل كلبه قد مات خرج من عقله وكان ذلك الكلب عزيزا عنده فضرب الزيات ضربة فقتله فلما رأى أخو الزيات أخاه قد قتل وثب على صاحب العسل فقتله وكان صاحب العسل من قرية والزيات من قرية فتسامع أهل القريتين بذلك فلبسوا السلاح وما زالوا يتقاتلون بالسيف والرمح والحرب سائر بينهم حتى تفانوا عن آخرهم وكان سبب ذلك القطرة العسل التى أثارت هذه الفتنة العظيمة فنعوذ بالله من آفة الجهل وقلة العقل كما قيل في المعنى

ألم تر أن العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

ومن هنا نرجع الى أخبار الاتابكى منطاش فانه لما سمع ذلك عن الظاهر برقوق لم يشتغل بهذا الكلام وأخذ في أسباب خروج العسكر والسلطان الملك المنصور أمير حاج الى نحو الشام لقتال الظاهر برقوق فلما تحرك أمر التجريدة حصل للناس غاية الضرر من الاتابكى منطاش وتمنى كل أحد عود الملك الظاهر برقوق الى الديار المصرية وكان قد جرى من الاتابكى منطاش عند خروج التجريدة أمور منها انه أخذ خيول الطواحين جميعها حتى غلا الدقيق وأكل الناس بعضهم بعضا ومنها انه نادى في القاهرة بأن لا فقيه ولا متعمم يركب فرسا ومنها أنه أمسك جماعة من مماليك الظاهر برقوق وسجنهم بخزائن شمايل ومنها انه سد باب الفرج وكان ذلك فألا عليه وسد باب حمام ايدغمش ومنها انه رمى على جماعة من المباشرين بالايوان الشريف خمسمائة فرس من الخيول الخاص ومنها انه رمى على أولاد الناس أجناد الحلقة كل واحد فرسا أو ثمنه ورمى على الحجاب المقيمين بالقاهرة كل واحد ثمن فرس خمسين دينارا وفرع من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة لم يسمع بمثلها فيما تقدم فكان كما قيل في المعنى

كفى المرء نقصا أن يرى عيب غيره * وما عاب منه الناس غير معيب

ثم ان السلطان علق الجاليش وأنفق على العسكر فرسم الاتابكى منطاش لكل مملوك من

المماليك السلطانية بنفقة دون المائة دينار فأخذوا ذلك على كره منهم وأظهروا العصيان وكثر القيل والقال فى حق المقر الاتابكى منطاش ثم أشيع بين الناس أن الملك الظاهر برقوق قد انكسر وهرب وان رأس اينال اليوسفى قد قطعت وهى واصلة الى القاهرة فدقت البشائر لذلك ثلاثة أيام وزينت القاهرة وكل ذلك أخبار مصنوعة ليس لها صحة وانما هى اشاعة لتطمئن خواطر العسكر وهذه حيل منطاش ثم ان السلطان برز خيامه فى الريدانية وكذلك سائر الامراء فلما كان يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة سنة احدى وتسعين وسبعمائة نزل السلطان الملك المنصور وأمير حاج من القلعة وصحبته الخليفة المتوكل على الله محمد والقضاة الاربعة وهم قاضى القضاة أبو البقا السبكى الشافعى وقاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى الحنفى وقاضى القضاة جمال الدين بن خير المالكى وقاضى القضاة ناصر الدين بن العسقلانى الحنبلى وسائر الامراء من الاكابر والاصاغر فنزل فى موكب عظيم الى الرايدنية ثم ان السلطان ترك بالقاهرة من الامراء المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ورسم له بان يقيم فى القلعة الى أن يعود السلطان وجعل الامير تكا الاشرفى نائب الغيبة مع الامير صراى تمر والامير قطلو بغا السيفى تمرباى حاجبا ثانيا ومعه جماعة من الحجاب وترك جماعة من المماليك السلطانية نحو خمسمائة مملوك ورسم لهم بأن يتوزعوا فى أبراج القلعة وجوانب المدينة ثم ان فى يوم الجمعة رحل السلطان من الريدانية فلما وصل الى العكرشا وقع من أعلى الفرس الى الارض فتفاءل له الناس بعدم النصرة وكان أكثر العسكر مائلا الى الملك الظاهر برقوق وما مع الاتابكى منطاش من العسكر الا القليل هذا ما كان من أمر الملك المنصور وأمير حاج والاتابكى منطاش وأما ما كان من أمر الامراء الذين بالقاهرة بعد خروج السلطان فان الامير صراى تمر نائب الغيبة لما رحل السلطان من القاهرة أمر بسد أبواب القلعة وهى باب الدرفيل وباب الميدان وباب القرافة وسد بعض أبواب القاهرة الصغار ثم ان نائب الغيبة رمى على أولاد الناس المقيمين بالقاهرة كل واحد فرسا أو ثمنه فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل وصارت القاهرة كل يوم فى اضطراب وقلة أمن وفى هذه السنة توفى الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى وكان من أعيان العلماء وله شعر جيد فى البديع فمن ذلك قوله فى الصاحب كريم الدين بن الغنام

وزير الملك عيد ألف عيد * فأنت الصاحب الخلق الجليل
فذلك غنيت فى الاضحى بكبش * ملىء بالغنا كاف كفيل

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فيها جاءت الاخبار من غزة بان أكثر العسكر تسحب من عند الملك المنصور وتوجهوا الى الظاهر برقوق ومن الحوادث

بالقاهرة أن جماعة من مماليك الامراء اتفقوا مع مماليك الامير صراى تمر نائب الغيبة على
قتل أستاذهم صراى تمر فلما تحقق صراى تمر ذلك ارسل الامير قطلوبغا الحاجب ووالى
القاهرة فكبسا على جماعة من المماليك الذين هم رأس الفتنة فى مكان فى البرقية فمسكا
منهم ستة أنفس وهم لابسون آلة الحرب فلما قبضا عليهم أحضراهم الى الامير صراى تمر
نائب الغيبة فعاقبهم وقررهم فأقروا بأنهم قصدوا قتل جماعة من الامراء فسجنهم
بخزانة شمايل ثم ان الامير صراى تمر أرسل يعرف الامير تكا الاشرفى رأس نوبة ثانى بما
وقع من هذا فلما أشيع ذلك بين الامراء قبض كل أمير من الامراء على جماعة من
مماليكه فمسكوا منهم نحو خمسين مملوكا وسجنوهم ثم ان الامير صراى تمر أرسل فقبض
على سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق وسجنه بالقلعة ثم ان الامير صراى تمر
نائب الغيبة نادى فى القاهرة بان كل من مسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ له
عشرين دينارا فلما جرى ذلك اضطربت القاهرة وأشاعوا بأن المماليك الذين فى القاهرة
يقصدون الوثوب على الامراء فلما تحقق الامير صراى تمر ذلك ما وسعه الا أنه رسم
بالافراج عمن سجن من المماليك قاطبة والافراج عن سيدى بيبرس ابن اخت الملك الظاهر
برقوق ونزل الى بيته ثم فى يوم الخميس حضر هجان من الشام وعلى يده مراسيم الى الامراء
بان السلطان الملك المنصور دخل الى الشام وملكها وأن الملك الظاهر برقوق هرب من
وجهه ولم يقابله فخلعوا على الهجان الذى جاء بهذا الخبر خلعة عظيمة ودقت البشائر
ثلاثة أيام ثم ظهر بأن هذا الخبر كذب مصنوع ليس له صحة وفعلوا ذلك لتطمئن الرعية ثم
فى يوم الاحد سابع عشرى المحرم من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة أشيع بين الناس
بالقاهرة بأن الظاهر برقوق قد انتصر على الملك المنصور وأمير حاج ثم انقطعت هذه الاخبار
مدة طويلة فلما كان ليلة الاربعاء مستهل شهر صفر حدث فى تلك الليلة أن جماعة من
المماليك السلطانية كانوا بائتين فى القلعة فنقبوا حائطا وأخرجوا جماعة من المماليك
الذين كانوا فى السجن بالقلعة فلما كثروا جاؤا الى باب القلعة الذى ينزل الى باب السلسلة
فوجدوه مقفلا فعبثوا فيه بعتلة حديد فلما أحس بهم الحراس ضربوا احد الحراسين
بالسيف فمات من وقته فهرب بقية الحراس لما رأوا ذلك فخلع المماليك الباب ونزلوا فى
الاسطبل السلطانى وجاؤا الى باب السلسلة فوجدوا الحراس قد ناموا وكان ذلك فى آخر
الليل فضربوا من الحراس اثنين فماتا وأخذوا منهم مفتاح باب السلسلة ففتحوا الباب
ونزلوا الى الرميلة هذا كله والامير صراى تمر نائم فى حريمه لم يشعر بشئ من ذلك فلما
أحس بهذا الامر نزل من سور الاصطبل فى حبل الى الرميلة ثم توجه الى بيت الامير
قطلوبغا الحاجب ثم ان المماليك تحايوا وكثروا فلما أصبح الصبح فتحوا أبواب القلعة

وأخرجوا من كان فى الابراج من المماليك مسجونا وكذلك من كان فى خزانة شمايل ثم طلعوا الى الاسطبل السلطانى وأخذوا ما كان به من الخيول وطلعوا الى الطبلخانات السلطانية وأحضروا جماعة الغلمان والعبيد وقالوا لهم دقوا الكوسات حربيا ثم ان الامير صراى تمر نائب الغيبة والامير قطلوبغا الحاجب ركبا ولبسا آلة الحرب ووقفا بسوق الخيل وكان الامير بطا الطولوتمرى قد ملك باب السلسلة فلما طلع الامير صراى تمر والامير قطلوبغا الى سوق الخيل نزل اليهم الامير بطا مع جماعة من المماليك الظاهرية فاوقعوا معهم واقعة قوية فانكسر الامير صراى تمر نائب الغيبة والامير قطلوبغا الحاجب فنهب العوام بيوتهم ومن كان من عصبتهم من الامراء والمماليك ❁ ومن غرائب صنع الله تعالى أن القاهرة اضطربت لهذه الواقعة وكانت المدينة سائبة لا سلطان بها ولا قاضى ولا حاكم ومع هذا لم يفقد لاحد من الناس ما قيمته الدرهم الفرد وكانت الزعر مائجة فى المدينة ولم يتعرضوا لاحد من الناس بسوء ولا نهبوا لاحد شيأ من الدكاكين ولا البيوت ولا الاسواق وكان حفظا من الله تعالى فكان كما قيل فى المعنى

لم لا نرجى الفضل من ربنا * أم كيف لا نطمع فى حلمه
وفى الصحيحين أتى انه * بعبده أشفق من أمه

ثم ان الامير بطا خلع على شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن العادلى واستقر به والى القاهرة عوضا عن حسين بن الكورانى ثم ان محمد بن العادلى نادى فى القاهرة بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وان لا أحد يشوش على أحد والدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر فضج الناس له بالدعاء وهذا كله يجرى بالقاهرة ولم يعلم للملك الظاهر برقوق خبر ان كان قد انتصر أو انكسر ثم ان المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ركب بنفسه وشق القاهرة ونادى قدامه بالامان والاطمئنان والدعاء للملك الظاهر برقوق وكان ذلك يوم الجمعة فنودى للخطباء بأن يخطبوا باسمه فى ذلك اليوم ثم ان الامير صراى تمر والامير قطلوبغا وجماعة من الامراء طلعوا الى باب السلسلة صحبة المقر السيفى سودون النائب وفى رقابهم مناديل فلما طلعوا الى باب السلسلة قيدهم الامير بطا وسجنهم بالقلعة وكان الامير بطا من مماليك الظاهر برقوق وكان يومئذ أمير عشرة ولكن خدم سعده لسعد أستاذه برقوق كما قيل فى المعنى

ملك براه المبتدا * للناس والمدح الخبر
أمضى لسان سيفه * حكم القضاء والقدر

فلما كان يوم السبت أواخر شهر صفر حضر الى القاهرة جلبان الخاصكى وصحبته الامير عيسى بن مهنا شيخ العرب وأخبروا بأن الملك الظاهر برقوق قد انتصر على منطاش وهو

واصل الى غزة فلما سمع ذلك الامير بطا دق الكؤسات ونادى بالزينة فى القاهرة وكتب
مراسيم وأرسلها الى ثغر الاسكندرية ودمياط والصعيد بنصرة الملك الظاهر برقوق على
منطاش ثم ان الامير بطا خلع على الامير حسين بن الكورانى واستقر به والى القاهرة
كما كان أولا ثم فى يوم الاحد ثانى ربيع الاول حضر هجان على يده مراسيم شريفة
متوجة بخط الملك الظاهر برقوق مضمونها ان الامير بطا يجهز الاقامات الى قطيا ثم
بعد ذلك حضر شيخ العرب زيد بن عيسى شيخ العائد وأخبر بما جرى للملك الظاهر برقوق مع
الملك المنصور أمير حاج ومع الاتابكى منطاش فاخبر ان الملك المنصور لما وصل شقحب
تلاقى هنالك هو والملك الظاهر برقوق فحصل بين العسكرين واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها وذلك
فى يوم الاحد رابع عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فلما التقوا هنالك على
شقحب انكسر الملك الظاهر برقوق كسرة قوية وهرب وأسر الامير قجماس ابن عم الملك
الظاهر وجرح فلما انكسر الظاهر برقوق وولى دخل الاتابكى منطاش الى الشام ومعه
الامير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق وهو أسير ثم ان الاتابكى منطاش قال لنائب
الشام الامير تجردمر اخرج أنت وعسكر الشام ولاقى الملك المنصور وكان الملك
المنصور لما انكسر برقوق أخذ الخليفة المتوكل والقضاة الاربعة وخزائن المال وبعض
جماعة من العسكر ونزل تحت جبل خارجا عن الشام يوم هذا ما كان من أمر الملك
المنصور والاتابكى منطاش وأما ما كان من أمر الملك الظاهر برقوق بعد كسرته فانه هرب
هو والامير كمشبغا الحموى نائب حلب فأما نائب حلب فتوجه تحت الليل الى حلب ودخلها
ثم حصن المدينة وظن أن الظاهر برقوق قد تلاشى أمره وأما الملك الظاهر برقوق فانه
لما انكسر هرب فى نفر قليل من العسكر وتوارى خلف الجبل الذى تحته الملك المنصور
والخليفة والقضاة فأتى اليه بعض العرب وأخبره بان الملك المنصور تحت ذلك الجبل
فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر وكانوا نحو أربعين انسانا فألقى الله الرعب فى قلوب
عسكر المنصور وغلت أيديهم عن القتال فنزل عليهم الظاهر برقوق كالباز على الطائر
واحتوى على كل ما معهم من البرك والقماش والسلاح وخزائن المال فلما جرى ذلك تسامع
به الناس فجاؤا اليه أفواجا من كل مكان كما قيل اذا استقام نجم سعدك فاصنع مع السعد
ما شئت فبات برقوق هنالك تلك الليلة فلما بلغ ذلك منطاش حضر ومعه عساكر الشام
والسواد الاعظم من دعر دمشق فحصل بينهم واقعة أعظم من الواقعة الاولى وقتل بها
ما لا يحصى من الخلائق واستمر الحرب سائرا بينهم من باكر النهار الى غروب الشمس فانكسر
الاتابكى منطاش وعسكر الشام كسرة قوية فولوا هاربين الى نحو دمشق وصار القتلى على
الارض مثل الحصا من أهل الشام وعسكر مصر وربما عوقب من لم يجن كما قيل

حب السلامة يثني عزم صاحبه * عن المعالي ويغري المرء بالكسل

فلما جرى ذلك أقام الظاهر برقوق بمنزلة شقحب يومين ثم ان شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفي مشى بين الملك الظاهر برقوق وبين الملك المنصور أمير حاج في أن يخلع نفسه من الملك ويسلم الامر الى الملك الظاهر برقوق فأجاب الملك المنصور الى ذلك وأحضر الخليفة المتوكل والقضاة الاربعة وخلع نفسه من الملك واشهدوا عليه بذلك ثم ان الخليفة والقضاة بايعوا الملك الظاهر برقوق بالسلطنة وذلك بمنزلة شقحب ثم ان الظاهر برقوق أقام هناك تسعة أيام فوقع في العسكر الغلاء وعز الشعير والتبن والقمح حتى بيعت كل بقسماطة بخمسة دراهم شامية وبيع كل فرس بعشرين درهما شامية لعدم العليق وكل جمل بعشرة دراهم ولم يوجد من يشتريه بهذا السعر وبيعت القطعة السكر بثقلها فضة ولم توجد فقلق العسكر قاطبة وهموا بالوثوب على برقوق فلما رأى ذلك عزم على التوجه الى نحو الديار المصرية فخلع عند رحيله على الامير اياس الجرجاوي واستقر به نائب صفد وخلع على الامير قديد القلمطاوي واستقر به نائب الكرك ثم انه أمر العسكر بأن يرحلوا أولا بأول فرحلوا من شقحب وبقي الظاهر برقوق والخليفة والملك المنصور وبعض أمراء ومماليك سلطانية فلما بلغ منطاش ذلك خرج من الشام ومعه نحو مائتي انسان من عسكر دمشق ووقف على تل عال خارج عن دمشق فلما بلغ الظاهر برقوق ذلك ركب وخرج اليه فوقف كلاهما هناك ساعة ولم يقع بينهما قتال ثم ان منطاش رجع الى الشام ورجع برقوق ثم رحل من شقحب وقصد نحو الديار المصرية فسار هو والخليفة والقضاة الاربعة والملك المنصور فلما وصل الظاهر برقوق الى غزة قبض على نائب غزة الامير حسين بن باكيش وكان وقع منه في حق الظاهر برقوق لما خرج من الكرك ما قد تقدم ذكره ثم قيده وأخذه صحبته الى القاهرة وخلع على الامير علاء الدين بن أقبغا السلطاني واستقر به نائب غزة عوضا عن ابن باكيش ولما كان يوم الاربعاء ثامن صفر حضر الى القاهرة اقبغا الطولوتمري المعروف باللكاش وهو أخو الامير بطا وكان قد أرسله الى كشف الاخبار فلما رجع أخبر بان الملك الظاهر برقوق قد خرج من غزة وهو قاصد نحو الديار المصرية فنادى الامير بطا بالزينة فزينت القاهرة ودقت البشائر سبعة أيام ثم ان الامير بطا أرسل بالافراج عن جماعة من الامراء قد كانوا بالسجن بثغر الاسكندرية ودمياط وهم الامير الطنبغا العثماني والامير عبدون العلائي والامير مامق ثم ان الامير بطا قبض على الامير حسام الدين بن الكوراني والي القاهرة وضربه وسجنه وسبب ذلك أنه كان يكبس على مماليك الظاهر برقوق ويقبض عليهم من اصطبلات الحارات فلما انتصر برقوق قال له الامير بطا اقبض على مماليك منطاش كما كنت تقبض على خشداشيننا من الاصطبلات فصار يختلع في

ذلك

ذلك فقبض عليه الامير بطا وضربه وسجنه ثم استقر بالصارمي والى القاهرة عوضا عن ابن الكوراني هذا كله قبل وصول الملك الظاهر برقوق فلما كان يوم الخميس تاسع صفر فيه حضر الى القاهرة الامير سودون الطيار وعلى يده مثالات شريفة الى سائر الامراء بالسلام وأخبر الامير سودون بانه قد فارق السلطان فى الصالحية فخرج أكثر الناس الى ملتقاه فلما كان يوم الثلاثاء وصل الى بركة الحاج فخرج اليه الناس قاطبة من الامراء والعلماء وأعيان الناس وسائر الرعية من العوام وغيرهم حتى طائفة الصيادين بشبكاتهم وطائفة الجيوش ومعهم صنجق وطبل وهم يرقصون وخرج اليه طائفة اليهود وطائفة النصارى وفى أيديهم الشموع والرايات فلما كان يوم الاربعاء خامس عشر صفر فيه دخل السلطان الملك الظاهر برقوق وطلع الى القلعة فكان له موكب عظيم فشق من بين الترب واليهود والنصارى قدامه بالشموع تشعل وهو راكب والامراء مشاة بين يديه والخليفة المتوكل قدامه والقضاة الاربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني وسائر الامراء من الاكابر والاصاغر قدامه وسائر الجند من شيخ وصبي وكان الملك المنصور أمير حاج راكبا عن يمينه وحملت القبة والطير على رأسه ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب وانطلقت له النساء بالزغاريط فلما وصل الى تربة طيبغا الطويل فرشت له الشقق الحرير فلما وصل الى أوائل الشقق ثنى عنان فرسه عن الشقق وأشار الى الملك المنصور أمير حاج بأن يمشي بفرسه على الشقق جبرا لقلبه فدعا له الناس بالنصر فلما ان وصل الى الرميلة طلع الى باب السلسلة وجلس به واجتمع الخليفة والقضاة الاربعة فجددوا له البيعة ثانيا وأشهدوا على الملك المنصور بالخلع فلما انقضى المجلس قال الملك الظاهر برقوق للملك المنصور أمير حاج اطلع سلم على امك فقام الملك المنصور وقدموا له الفرس فركب من المقعد الذى فى الاصطبل فلما ركب قام له الملك الظاهر وعضده من تحت ابطه حتى ركب وبالغ فى تعظيمه فدعا له الناس بالنصر فلما طلع المنصور من الاصطبل السلطانى توجه الى دور الحرم فدخل اليها وهو فى غاية التعظيم بخلاف من تقدم من أقاربه فلما دخل الى دور الحرم أقام بها فى غاية الحفظ فكان آخر من تولى السلطنة بالديار المصرية من ذرية بنى قلاون وبه قد زال عنهم الملك كأنه لم يكن ۞ ومن جملة سعد الملك الظاهر برقوق أنه من حين خلع من السلطنة وعاد اليها لم يجلس أحد على مرتبته الى ان عاد اليها وكانت سلطنة الملك المنصور أمير حاج عبارة عن نيابة عن الملك الظاهر برقوق الى ان عاد الى السلطنة وكان أمر السلطنة جميعها بيد الاتابكى منطاش وكان من جملة سعد الملك الظاهر برقوق انه من حين خرج من الكرك وتوجه الى الشام وخرج اليه المنصور وجرى فى القاهرة ما تقدم ذكره من مسك الامراء وغير ذلك كانت الخطبة باسم الظاهر برقوق على منابر القاهرة قبل دخوله اليها ودخل الى القاهرة من غير قتال ولا حرب

وقد تقدّم مافعله الامير بطا قبل دخول الظاهر الى القاهرة وخدم سعد برقوق فى هذه الولاية الثانية الى ان مات على فراشه وهو سلطان كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ومن جملة سعد برقوق ان الملك المنصور نزل له عن السلطنة بدمشق طائعا ولم يختلف عليه اثنان ومن غرائب الاتفاق أن قلاون لما تولى الملك تلقب بالملك المنصور وآخر من تولى الملك من ذريته تلقب بالملك المنصور واغرب من هذا ان الملك المنصور قلاون الالفى كان قد أخذ الملك من أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى والملك الظاهر برقوق أخذ الملك من أولاد الملك المنصور قلاون وفى المثل كما تدين تدان فكانت مدة سلطنة الملك المنصور أمير حاج فى هذه المرة ثمانية أشهر وستة عشر يوما الى يوم خلعه بشقحب وكان الاتابكى منطاش فى هذه المدة هو السلطان يعزل من يشاء ويولى من يختار من عصبته وقد قال بعض الزجالة هذا المطلع

من الكرك جانا الظاهر * وجب معو أسد الغابه

ودولتك ياامير منطاش * ما كانت الا كذابه

۞ ولما دخل الملك أمير حاج الى دور الحرم أقام بها الى أن مات على فراشه فى ليلة الاربعاء تاسع عشر شوّال سنة أربعة عشر وثمانمائة وذلك فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق وصلى عليه بالقلعة ودفن فى تربة جدته خوند بركة التى بالتبانة ومات وله من العمر نحو سبعة وأربعين سنة وقيل انه مات وهو مقعد فى الفراش مما حصل له فى يوم وقعة شقحب لما كبس عليه الملك الظاهر برقوق واستمرت الطربة معه حتى مات وقد قال القائل فى المعنى

اصبر لدهر نال منك * فهكذا مضت الدهور

فرحا وحزنا تارة * لا الحزن دام ولا السرور

انتهى ما أوردناه من اخبار الملك المنصور أمير حاج ابن الاشرف شعبان وذلك على سبيل الاختصار

ذكر عودة السلطنة للملك الظاهر برقوق

ابن انص وقيل أنس العثمانى وهى السلطنة الثانية لما حضر من دمشق ودخل القاهرة وجلس فى باب السلسلة كما تقدم ذكر ذلك فلما بايعه الخليفة بحضرة القضاة احضروا له خلعة السلطنة فلبسها وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر وجلس على سرير الملك وذلك فى يوم الاربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ۞ ومن العجائب أن سلطنته الاولى كانت فى يوم الاربعاء وسلطنته الثانية كانت فى يوم الاربعاء ولما جلس على سرير الملك نودى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء وبطل القيل والقال من بين الناس وقد قال القائل فى المعنى

ملك به اخضر الزمان كأنما * أيام دولته ربيع ثانى

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى واستقر به نائب السلطنة على عادته وخلع على المقر السيفى اينال اليوسفى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن تمر بغا الافضلى منطاش وخلع على المقر السيفى كمشبغا الاشرفى المعروف بالخاصكى واستقر به أمير مجلس وخلع على الامير الطنبغا الجوبانى واستقر به رأس نوبة النوب على عادته وخلع على الامير بطا الذى جرى منه ما تقدم ذكره واستقر به دوادارا كبيرا وخلع على الامير تكلمش العلائى واستقر به أميراخور كبيرو خلع على الامير تنجاص السودونى واستقر به حاجب الحجاب ثم رسم بالافراج عن المقر السيفى يلبغا الناصرى الذى كان نائب حلب وخامر على السلطان وجرى منه ما جرى وكان سببا لزوال ملك الملك الظاهر برقوق كما تقدم فلما عاد الملك الظاهر فى هذه المرة زال ما كان بينه وبين يلبغا الناصرى من العداوة ورسم بالافراج عنه فلما حضر خلع عليه واستقر به أمير سلاح ولما نفى يلبغا الناصرى كان أتابك العساكر فلما رجع فى هذه المرة استقر أمير سلاح ثم ان الملك الظاهر أفرج عن جماعة كثيرة من الامراء ممن كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية فلما حضروا خلع على الامير الطنبغا الجوبانى واستقر به نائب الشام ثم خلع على الامير قرادمرداش الاحمدى واستقر به نائب طرابلس وخلع على الامير القلمطاوى واستقر به نائب حماه وخلع على الامير ارغون الغلمانى واستقر به نائب ثغر الاسكندرية وخلع على الامير مقبل الرومى واستقر به أمير خازندار وأنعم على جماعة كثيرة من الامراء بتقادم ألوف وامريات أربعين وامريات عشرة واستقامت أمور فى السلطنة أعظم من المرة الاولى ثم بعد ذلك خلع على جماعة من أرباب الدولة من المباشرين فخلع على القاضى علاء الدين الكركى العامرى واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية وخلع على القاضى موفق الدين أبى الفرج واستقر به ناظر الجيوش المنصورة ووزير الديار المصرية على عادته وخلع على القاضى كريم الدين ابن عبد العزيز واستقر به ناظر الخواص الشريفة وخلع على الامير قرقماس الطشتمرى واستقر به استادار العالية فثبت قواعد دولته وأجرى كل احد على عادته فكان أحق بقول القائل

تاب الزمان اليك مما قد جنى * والله يأمر بالمتاب ويقبل
ان كان ماض من زمانك قد مضى * باساءة قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الثانى الذى * أرضاك فيما قد جناه الاول
واليسر بعد العسر موعود به * والنصر بالفرج القريب موكل

والله قد أولاك أمر عباده * لما ارتضاك ولاية لا تعزل
واذا تولاك الاله بنصره * وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

فلما كان يوم الثلاثاء خامس ربيع الاول من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فيه جلس السلطان فى الميدان الذى تحت القلعة وحكم بين الناس على عادته ثم بعد مدة أيام قبض على جماعة من الامراء وهم يلبغا المجنكى وطشبغا السيفى تمرباى وصربغا الناصرى وتلكتمر المحمدى وعلى الجركتمرى ومنكلى بغا المجنكى فلما قبض عليهم قيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على القاضى سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن موفق الدين أبى الفرج وخلع على الصاحب علم الدين سنبره واستقر به ناظر الدولة الشريفة وكان فى قديم الزمان أن الوزير اذا انفصل من الوزارة يستقر ناظر الدولة طوعا أوكرها ويلزمه السلطان بذلك ثم لما كان يوم الاحد رابع عشر ربيع الاول حضر الى الابواب الشريفة السيفى كزل مملوك يلبغا الناصرى وصحبته جماعة من اعيان دمشق فاخبروا بان منطاش قد ملك مدينة بعلبك وقد التف عليه جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس والتف عليه جماعة كثيرة من عربان جبل نابلس وقد نهب عدة ضياع من البلاد الشامية فاخذ السلطان حذره من ذلك *وفيها فى يوم الاربعاء سادس عشر ربيع الاول خلع السلطان على الامير جمال الدين محمود ابن على الظاهرى واستقر به استادار العالية وناظر الخواص الشريفة ومشير الدولة فتزايدت عظمته الى الغاية وخلع السلطان على الامير علاء الدين بن الطبلاوى واستقر به والى القاهرة عوضا عن الصارمى وفى يوم الخميس حادى عشرى رجب جاءت الاخبار من حلب بان منطاش أرسل شخصا يسمى تمان تمر الاشرفى الى مدينة حلب وكان نائب حلب كشبغا الحموى قد ثقل أمره على أهل حلب فاصدقوا بهذه الحركة فحاصروا نائب حلب أشد المحاصرة وتعصبوا الى منطاش فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع فصار كشبغا نائب حلب يقاتلهم من داخل النقب على البرج واستمروا على ذلك نحو ثلاثة أشهر فانتصر كشبغا نائب حلب على تمان تمر الاشرفى الذى ولاه منطاش على حلب فانكسر تمان تمر وولى هاربا ثم ان كشبغا نائب حلب أخذ فى أسباب عمارة ما تهدم من المدينة وزاد ثم بعد مدة جاءت الاخبار بان منطاش توجه الى طرابلس ومعه جماعة من العسكر فحاصر المدينة حتى ملكها وهرب من كان بها من الامراء والنائب وهرب أكثر أهلها الى دمشق ثم بعد مدة جاءت الاخبار من دمشق بان منطاش حاصر دمشق بمن معه من العسكر وكان عوام دمشق يميلون الى منطاش ويكرهون الملك الظاهر برقوق فاتفقوا مع منطاش بان يسلموه المدينة تحت الليل فلما بلغ ذلك الى الامير ايتمش البجاسى والامير يلبغا الناصرى والامير

الطنبغا الاشرفى ركبوا بعد العشاء وخرجوا الى ظاهر دمشق وأوقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة عظيمة فقتل فى تلك الليلة من الفريقين نحو ألف انسان ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة ۞ وفى عقيب هذه الواقعة وثب مماليك الطنبغا الجوبانى نائب الشام على أستاذهم فقتلوه وهربوا من دمشق وتوجهوا الى منطاش فلما بلغ السلطان ذلك أرسل تقليدا الى يلبغا الناصرى واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوبانى ثم بعد مدة جاءت الاخبار بأن الامير جبق الكشبغاوى خرج من دمشق وقصد التوجه نحو طرابلس فأخذه عربان نعير وأحضروه الى منطاش فقتله بين يديه ثم بعد مدة جاءت الاخبار بأن منطاش توجه الى نحو عنتاب فالتف عليه جماعة كثيرة من التركمان فحاصر مدينة عنتاب أشد ما يكون من المحاصرة فملكها وهرب النائب الذى كان بها فلما دخل الليل جمع نائب عنتاب جماعة كثيرة من التركمان وكبس على منطاش فقتل من عسكره نحو مائتى انسان وهرب منطاش نحو الفرات فلما بلغ السلطان هذا الخبر انشرح له ونزل الى الرماية فى بركة الحج ولما عاد من الرماية دخل من باب النصر وشق من بين القاهرة وزينت له ولاقته اليهود والنصارى ومعهم الشموع موقدة وفى ذلك اليوم دخل السلطان الى بيت الامير بطا الدوادار الكبير وسلم عليه فانه كان مريضا ثم ان السلطان طلع الى القلعة وكان له يوم مشهود فانه من حين أتى من الكرك لم يشق من القاهرة سوى ذلك اليوم فضج الناس له بالدعاء ۞ وفى هذه السنة عملت خوند أخت الملك الظاهر برقوق كسوة جليلة للحجرة الشريفة وستارة زركش لباب الحجرة الشريفة فشقت بذلك من القاهرة وكان يوما مشهودا وسبب ذلك أنها نذرت ان عاد أخوها الى السلطنة تكسوا الحجرة الشريفة ففعلت ذلك ۞ وفى هذه السنة عزل السلطان الصاحب سعد الدين بن البقرى واستقر بالجناب الناصرى محمد بن الحسام الصقرى عوضه فى الوزارة فلما نزل الى بيته طلب الوزراء المنفصلين فلما حضروا استقر بالصاحب شمس الدين المقسى ناظر الدولة واستقر بالصاحب سعد الدين بن البقرى ناظر البيوتات ومستوفى الدولة واستقر بالصاحب موفق الدين أبى الفرج مستوفى الدولة تأطلق عليه وزير الوزراء لانه كان مستوفى على أرباب الوظائف بالديوان المفرد واستمروا على ذلك مدة يسيرة ثم ان السلطان غضب على الصاحب فخر الدين بن مكانس وضربه علقة قوية ثم علقه من رجليه بسرياق فأقام وهو منكوس على رأسه نصف نهار ثم ان بعض الامراء اشفع فيه فأنزله فقال فى هذه الواقعة

وما تعلقت بالسرياق منتكسا ۞ لزلة أوجبت تعذيب ناسوتى
لكننى مذ نفثت السحر من غزلى ۞ عذبت تعذيب هاروت وماروت

(١) وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى وكان من أعيان فحول الشعراء وله شعر جيد فى فن البديع وله تذكرة لطيفة وعدة مصنفات جليلة غريبة المعانى فى أيام الملك الظاهر برقوق وكانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة وكان أصله مغربيا من تلمسان وكان من أهل الفضل والعلم وله شعر جيد فى فن البديع وهو صاحب كتاب السكردان وكتاب ديوان الصبابة وله غير ذلك مصنفات كثيرة وكان شيخ المدرسة المحكية التى عند الصوة انتهى ذلك ۞ ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة فيها حضر الى الابواب الشريفة المقر السيفى كمشبغا الحموى نائب حلب وأخبر السلطان بان أكثر التركمان والعربان خامروا وخرجوا عن الطاعة واتفقوا على منطاش فلما سمع السلطان ذلك اجتمع بالامراء وضربوا مشورة فى أمر منطاش وفيها طلب السلطان الامير حسين بن باكيش نائب غزة فلما حضر بين يديه عراه وضربه بالمقارع ثمانين شيبيا وكان ابن باكيش هذا وقع منه فى حق السلطان لما خرج من الكرك أمور عظيمة وجمع له العربان وحاربه أشد المحاربة حتى كاد السلطان أن ينكسر فبقى عند السلطان هذا الكمين حتى اقتص منه فكان كما قيل

وقد يرجى لجرح السيف برء * ولا يرجى لما جرح اللسان

وفيها حضر الامير اينمش البجاسى من الشام هو وجماعة من الامراء وكانوا توجهوا الى الشام بسبب منطاش فبلغ السلطان أنهم كانوا متعاملين على الفساد مع منطاش فلما حضروا قيد منهم جماعة ونفاهم الى ثغر الاسكندرية وفيها جاءت الاخبار بأن منطاش قد ملك حماه وحمص وبعلبك ولم يشوش على أحد من أهلها فمال اليه الرعية وصاروا يسلمونه المدن من غير قتال ثم ان منطاش توجه الى الشام وحاصر المدينة فخرج اليه نائب الشام فهرب منطاش الى جبل يقرب من طرابلس فتبعه نائب الشام فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء الى دمشق فلم يجد بها أحدا من الامراء ولا النائب ففتح له عوام دمشق باب كيسان الصغير فدخل منه الى المدينة ونهب الاسواق وأخذ أموال التجار وكبس على الاصطبلات التى بالشام وأخذ منها نحو مائة فرس والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته وراج أمره فلما بلغ السلطان ذلك نادى للعسكر بالعرض وقوى عزمه على الخروج الى منطاش وعلق من يومه الجاليش ثم عرض العسكر وأنفق عليهم فى يومه فلما كان يوم الاثنين ثانى عشرى شهر شعبان خرج السلطان وتوجه الى نحو الريدانية فى موكب عظيم

---

(١) فى شذرات الذهب ان الصفدى توفى بدمشق فى شوال سنة ٧٦٤ وان ابن أبى حجلة توفى فى مستهل ذى الحجة سنة ٧٧٦

وطلب طلبا عظيما وخرج معه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الاربعة وسائر الامراء
فلما استقر بالريدانية طلب الامير حسين بن باكيش نائب غزة وكان مسجونا بخزانة
شمايل فلما حضر بين يديه أمر بتوسيطه وأحضر جماعة من الامراء كانوا فى خزانة
شمايل من عصبة منطاش فأمر بتوسيطهم فهلكوا أجمعون ثم ان السلطان جعل المقر
السيفى كمشبغا الحموى نائب الغيبة بمصر الى أن يعود اليها السلطان وكان كمشبغا الحموى
من حين حضر من حلب مقيما بالديار المصرية وكان الملك الظاهر يميل اليه دون غيره من
سائر الامراء فاختاره بأن يكون نائب الغيبة الى أن يعود السلطان الى مصر ورسم
السلطان للمقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة بأن يقيم فى القلعة الى أن يعود
السلطان ورسم للامير بجاس النوروزى بالاقامة فى الايوان الذى بالقلعة وترك عنده
ستمائة مملوك وترك بالقاهرة من الامراء المقر السيفى قطلوبغا الصفوى حاجب الحجاب
والامير تنجاص السودونى وترك بالقاهرة من الامراء العشراوات والحجاب نحو عشرين
أميرا ثم ان السلطان رحل من الريدانية وقصد التوجه الى الشام فلما رحل السلطان
عن القاهرة عرض نائب الغيبة أولاد الناس أجناد الحلقة وعين منهم نحو مائتى انسان
بأن يتوجهوا نحو الصعيد ويقيموا عند الكاشف بسبب فساد العربان ثم بعد مدة أيام حضر
الامير سودون الطيار على خيل البريد وعلى يده مثالات شريفة الى الامراء الذين بالقاهرة
فكان من مضمونها أن السلطان لما وصل الى الشام هرب منطاش من وجهه الى بلاد
التركمان فلما سمع الامراء بذلك دقوا الكوسات ونادوا بالزينة فزينت القاهرة سبعة أيام
قيل لما دخل السلطان الى دمشق خاف أهل دمشق وهموا بالهرب من المدينة وقد
تقدم أن أهل دمشق لما خرج الملك الظاهر برقوق من الكرك ودخل الى الشام رجموه
وأخرجوه من الشام هاربا على وجهه ونهبوا بركه وقماشه كما تقدم فلما أن دخل اليهم هذه
المرة وبلغه أنهم خائفون منه نادى لهم بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وأن الماضى
لا يعاد ونحن أولاد اليوم فضج أهل دمشق له بالدعاء وسكن ما كان عندهم من الاضطراب ثم
ان السلطان أقام فى دمشق أياما وتوجه الى حلب فلما خرج من دمشق جاء نعير بن حيار أمير
آل فضل ونهب ضياع دمشق وكان نعير عاصيا على السلطان وهو ملتف على منطاش
وأخرب غالب البلاد الشامية ونهب ضياعها فلما بلغ نائب الشام مجىء نعير خرج اليه
وأوقع معه واقعة قوية فى مكان يسمى الكسوة فانكسر نائب الشام وقتل من عسكر دمشق
نحو خمسة عشر أميرا ثم رجع نعير الى بلاده ورجع نائب الشام الى دمشق ثم بعد مدة
جاءت الاخبار من حلب بأن السلطان قد قبض على يلبغا الناصرى وعلى جماعة من
الامراء وسجنهم بقلعة حلب ثم قتلهم عن آخرهم وكانوا نحو ثلاثة وعشرين أميرا وكان

سبب ذلك أن الامير سالم الدوكارى أمير التركمان أرسل يعرف السلطان بأن يلبغا الناصرى أرسل اليه كتابا وهو يقول فيه خذ منطاش واهرب به الى بلاد الروم فانه مادام منطاش موجودا فنحن موجودون ❁ ثم أن الامير سالم الدوكارى أرسل كتاب يلبغا الناصرى على يد قاصده فلما تحقق السلطان صحة ذلك طلب الامراء فلما حضروا قرأ عليهم كتاب يلبغا الناصرى الذى أرسله الى الامير سالم الدوكارى ثم ان السلطان وبخ يلبغا الناصرى بالكلام فى ذلك المجلس فلم ينطق بحجة وانعقد لسانه عن الكلام فنعوذ بالله من زلة العقل كما قيل

وانى رأيت المرء يشقى بعقله * كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

ثم ان السلطان قبض على يلبغا الناصرى وعلى جماعة من الامراء وسجنهم بقلعة حلب ثم أمر بقتلهم فقتلوا ثم جاءت الاخبار بأن السلطان استقر بالامير بطا الدوادار نائب الشام واستقر بالامير جلبان الكمشبغاوى نائب حلب واستقر بالامير اياس الجرجاوى نائب طرابلس واستقر بالامير قرادمرداش المحمدى نائب حماه واستقر بالامير أبى يزيد دوادار كبير عوضا عن الامير بطا ثم جاءت الاخبار بأن السلطان خرج من حلب وهو قاصد نحو الديار المصرية وقد أنفق على هذه التجريدة جملة مال ولم يظفر بمنطاش ❁ وفى هذه السنة توفى الشيخ شهاب الدين بن النقيب وكان من أعيان العلماء وتوفى الشيخ بهاء الدين السبكى أخو الشيخ تاج الدين وتوفى الشيخ جمال الدين الاسنوى وتوفى الشيخ شهاب الدين بن حبيب وتوفى ابن رافع وتوفى الشيخ عماد الدين الحسبانى وكان من أعيان العلماء بمصر رحمهم الله تعالى أجمعين ❁ ثم دخلت سنة أربع وتسعين وسبعمائة فيها فى ثانى عشر المحرم حضر الى الابواب الشريفة الامير بهادر الشهابى مقدم المماليك السلطانية وصحبته حريم السلطان فان السلطان كان قد تزوج فى دمشق بينت الامير على بن استدمر نائب الشام وأخبر بأن السلطان خرج من غزة ثم جاءت الاخبار بأن السلطان قد وصل الى بلبيس فخرج الامراء الى تلقيه ونادوا فى القاهرة بالزينة فلما كان يوم الخميس سابع عشر المحرم وصل السلطان وطلع الى القلعة من بين الترب ولم يشق من المدينة ففرشت له الشقق الحرير من قبة النصر الى رأس الصوة وحملت على رأسه القبة والطير ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب فطلع الى القلعة فى موكب عظيم وكان له يوم مشهود ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الجناب الركنى عمر بن قايماز وهو صاحب الحوض والسبيل خارج الحسينية واستقر به وزيرا بالديار المصرية عوضا عن الناصرى محمد بن الحسام الصقرى بحكم وفاته وخلع السلطان على الجناب الناصرى محمد ابن الامير جمال الدين محمود الاستادار واستقر به نائب ثغر الاسكندرية وفيها تزوج السلطان بينت الشهابى أحمد بن الطولونى معلم المعلمين وهو جد الزينى حسن وفيها جاءت الاخبار بأن الامير بطا الذى تولى نائب الشام قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى

فخلع السلطان على الامير سودون الطرنطاى واستقر به نائب الشام عوضا عنه وفيها جاءت الاخبار من دمشق بأن جماعة من المماليك نحو خمسة عشر مملوكا هجموا على باب قلعة دمشق وقت الظهر وتوجهوا الى نحو السجن الذى بها وأخرجوا من كان به من المحابيس الذين من عصبة منطاش وكانوا نحو مائة مملوك فلما أخرجوا هؤلاء المحابيس قويت شوكتهم فهجموا على نائب القلعة فقتلوه وملكوا القلعة فلما بلغ ذلك من كان بدمشق من العسكر لبسوا آلة الحرب وركبوا وحاصروا من بالقلعة وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام فقتل من عسكر الشام جماعة كثيرة ثم بعد ذلك هجم عسكر دمشق على باب القلعة وأحرقوه ودخلوا الى القلعة ثم قبضوا على المماليك كلهم ووسطوهم تحت باب القلعة وفيها فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الاولى طلع الامير جمال الدين محمود الاستادار الى القلعة على جارى العادة فلما نزل من القلعة رجمه المماليك الذين بالطباق فهرب منهم فسحبوه الى الرميلة وضربوه بالدبابيس وضربوا القاضى سعد الدين ابن تاج الدين موسى ناظر الخواص الشريفة فلما بلغ الامير ايتمش البجاسى ذلك ركب هو ومماليكه وردوا المماليك عنهم وأدخلهم الى بيته وأغلق عليهم الباب فأقاموا عنده الى آخر النهار فأرسل معهم مماليكه حتى أوصلوهم الى بيوتهم فأقاموا فى بيوتهم مدة لم يركبوا حتى اصطلحوا مع المماليك وفيها خلع السلطان على القاضى تاج الدين بن أبى شاكر واستقر به وزيرا عوضا عن عمر بن قايماز وفيها فى العشرين من شعبان توعك جسد السلطان وأقام مدة وهو منقطع فى الحريم ثم حصل له الشفاء فخرج الى الخدمة ونودى فى القاهرة بالزينة فزينت سبعة أيام وفيها جاءت الاخبار بان نائب الشام سودون الطرنطاى قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى فخلع السلطان على المقر السيفى كمشبغا الاشرفى الخاصكى أمير مجلس واستقر به نائب الشام عوضا عن سودون وفيها تغير خاطر السلطان على جماعة من الامراء فقبض عليهم وسجنهم فى أبراج القلعة ثم أمر بخنقهم فخنقوا تحت الليل ودفنوا وفيها فى شوال عمل السلطان الموكب وخلع على المقر السيفى بكلمش العلائى واستقر به أمير سلاح وخلع على المقر السيفى شيخ الصفوى واستقر به أمير مجلس وكان الامير شيخ من مماليك الظاهر برقوق وفيها فى العشرين من شوال عمل السلطان الموكب وخلع على المقر السيفى ثانى بك اليحياوى واستقر به امير اخور كبير عوضا عن بكلمش العلائى وخلع على قاضى القضاة جمال الدين العنبرى الحنفى واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مضافا لما بيده من قضاء الحنفية ومشيخة الخانقاه الشيخونية وهذا لم يتفق لاحد قبله من الاعيان فيما تقدم وفيها جاءت الاخبار بان منطاش حضر الى حلب مع جماعة من التركمان فحاصر المدينة فخرج اليه عسكر حلب واوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هاربا الى الفرات ثم حضر قاصد نعير على يده كتاب من عند نعير فكان مضمونه انه

أرسل يطلب من السلطان أربع بلاد وهو يلتزم بمسك منطاش فقال السلطان للأمير أبى يزيد الدوادار اكتب له كتابا عن لسانك انك ان أمسكت منطاشا نعطيك جميع ماطلبته وزيادة على ذلك فأرسل اليه الامير أبو يزيد الدوادار بذلك وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ عماد الدين بن كثير المؤرخ صاحب كتاب البداية وتوفى الشيخ سراج الدين الهندى شارح البديعية وتوفى الشيخ شهاب الدين الاوزاعى وتوفى القاضى أبو البقاء السبكى الشافعى وفيها فى ذى الحجة توفى الصاحب فخر الدين بن مكانس القبطى صاحب الاشعار اللطيفة تولى عدة وظائف بمصر ۞ ثم دخلت سنة خمس وتسعين وسبعمائة فيها خلع السلطان على الشيخ صدر الدين المناوى وولاه قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن قاضى القضاة عماد الدين الكركى وفيها خلع السلطان على المقر السيفى تنم الحسنى واستقر به نائب الشام عوضا عن كشبغا الاشرفى بحكم وفاته وفيها جاءت الاخبار من حلب بأن منطاش ونعيرا توجهوا بمن معهم من العساكر الى مدينة حماه فخرج اليهم نائب حماه فأوقع معهم واقعة قوية فانكسر نائب حماه وهرب فدخل منطاش ونعير الى المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا أموال التجار فلما بلغ نائب حلب ذلك ركب هو وعساكر حلب وكبس على بلاد نعير ونهب أمواله وأخذ أولاده ونساءه وأحرق بيوته وقتل من عربانه مالا يحصى عدده وفيها خلع السلطان على المقر السيفى قلمطاى العثمانى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الامير أبى يزيد بحكم وفاته وفيها مرض السلطان مرضا شديدا حتى أشرف على الموت وارجفت القاهرة بموته من شدة قهره من منطاش ثم شفى وركب وشق القاهرة فزينت له وكان له يوم مشهود وموكب عظيم وفيها حضر الى الابواب الشريفة مملوك نائب حلب واخبر بان نعيرا قبض على منطاش وسلمه الى نائب حلب فكان كما يقال سيف السلطان طويل وقد قيل فى المعنى

قالت ترقب عيون الحى ان لها * عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

وكان سبب امساك منطاش ان نعير بن جبار أرسل يطلب من نائب حلب أولاده ونساءه الذين أسرهم كما تقدم فارسل نائب حلب يقول له ما اطلق لك أولادك ونساءك حتى تسلمنا منطاش وكان منطاش قد تزوج من بنات نعير واستنسل منهم فلما رأى نعير أن السلطان ونائب حلب عليه وقد نهبوا أمواله ومواشيه وأسروا أولاده ونساءه قصد أن يرضى السلطان بامساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه فى حق السلطان كما تقدم ثم ان نعيرا ندب الى منطاش أربع عبيد غلاظ شداد فلما أتوا اليه أحس بالشر وكان راكبا على هجين فنزل عنه وركب على فرس فأمسك بعض العبيد لجام الفرس وقال له كلم الامير نعيرا فقال منطاش وايش يعمل بى نعير فتكاثر عليه العبيد وأنزلوه عن فرسه وأخذوا سيفه منه فقال

لهم منطاش دعونى حتى أبول فقصد الى جانب حائط وكان فى تكته خنجر فشق به بطنه فغشى عليه فحمله العبيد وأتوا به الى نعير فقيده وأرسله الى نائب حلب وأرسل معه جماعة من العربان حتى أسلمه الى نائب حلب وكان له يوم مشهود فتسلمه نائب حلب وسجنه بالقلعة وكتب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر خلع على القاصد خلعة عظيمة ودقت الكؤسات وزينت له القاهرة سبعة أيام ونسى السلطان لما ظفر بمنطاش ما قاساه من التعب ومن القهر ومن المال الذى صرفه على التجاريد فكان كما قيل فى المعنى

اذا ظفرت من الدنيا بقربكم * فكل ذنب جناه الدهر مغفور

ثم ان السلطان عين الامير طولو بن على شاه الى حلب ليحضر منطاش فلما وصل الى حلب تسلم منطاش وجعل يعاقبه ويعصره ويقرره على الاموال التى غصبها من البلاد فلم يقر بشئ ودخل عليه النزع فقطع الامير طولو راسه ووضعها فى علبة ثم خرج من حلب وجعل يطوف برأس منطاش فى كل مدينة يدخلها حتى وصل الى القاهرة فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا وزينت المدينة زينة عظيمة فشقوا برأس منطاش فى القاهرة ثم طلعوا بها الى القلعة فرسم السلطان بان تعلق على باب زويلة فعلقت ثلاثة أيام ثم دفنت وقلعت الزينة وانقضى أمر منطاش وقد هنى السلطان بعض الشعراء بهذين البيتين فقال

كأن فجاج الارض عينك ان يسر * بها خائف تجمع عليه الانامل

فأين يفر المرء منك بجرمه * اذا كان تطوى فى يديك المراحل

ثم ان السلطان أرسل الى نعير خلعة وأقره على عادته أمير آل فضل فما صدق الناس بان فتنة منطاش قد خمدت عنهم حتى استئنفت لهم فتنة أخرى وما هى الا أنه فى عقيب ذلك حضر طواشى رومى يسمى صفى الدين جوهرا أرسله صاحب ماردين فأخبر بان تمرلنك قد أخذ تبريز ثم حضر عقيب ذلك قاصد صاحب بسطام فاخبر بان تمرلنك قد أخذ شيراز ثم حضر قاصد نائب الرحبة وأخبر بأن القان أحمد بن اويس صاحب بغداد قد وصل الى الرحبة وهو هارب من تمرلنك وقد احتاط على غالب بلاده وملكها وكان سبب أخذ تمرلنك بلاد القان احمد بن اويس ان تمرلنك أرسل الى القان احمد كتابا يترفق له فيه ويقول له أنا ما جئتك محاربا وانما جئتك خاطبا أتزوج باختك وأزوجك بنتى ففرح القان احمد بذلك وظن ان هذا الكلام صحيح فكان كما قيل فى المعنى

لا تركنن الى الخريف فماؤه * مستوخم وهواؤه خطاف

يمشى مع الاجسام مشى صديقها * ومن الصديق على الصديق يخاف

وكان القان أحمد استعد لقتال تمرلنك وجمع له العساكر فلما أتى اليه قاصد تمرلنك بهذا

الخبر ثنى عزمه عن القتال واستعاد من العسكر الذين قد جمعهم ما أعطاهم من آلة القتال
وصرف همته عن القتال فلم يشعر الا وقد دهمته عساكر تمرلنك من كل مكان فضاق بهم
رحب الفضاء فخرج اليهم القان أحمد بمن بقى معه من العساكر فبينما القان يقع مع
عسكر تمرلنك اذ فتح أهل بغداد بقية أبواب المدينة وقد خافوا على أنفسهم مما جرى عليهم من
هلاكو فى أيام الخليفة المستعصم بالله وقد تقدم ذكر ذلك فى أول التاريخ عند أخبار
الخلفاء العباسية فى الجزء الثانى فلما رأى تمرلنك أبواب المدينة مفتحة دخل الى المدينة
وملكها ولم يجد من يرده عنها فلما بلغ القان أحمد ذلك ما أمكنه الا الهرب فأتى الى جسر
هناك فعدى من فوقه ثم قطعه فلما بلغ عسكر تمرلنك ذلك تتبعوا القان أحمد وخاضوا
خلفه الماء فهرب منهم فتتبعوه مسيرة ثلاثة أيام فلما حصلت له هذه الكسرة قصد التوجه
الى نحو الديار المصرية ثم حضر قاصد نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أويس قد وصل
الى حلب فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر جمع الامراء واستشارهم فيما يكون من
أمر القان أحمد فوقع الاتفاق من الامراء على ان السلطان يرسل اليه الاقامات ويلاقيه
فعند ذلك عين السلطان الامير اردمر الساقى وصحبته الاقامات وما يحتاج اليه القان
أحمد من مال وقماش وغير ذلك فخرج الامير ازدمر على جياد الخيل ثم فى عقيب ذلك
حضر الى الابواب الشريفة قاصد أبى يزيد بن مراد بك بن عثمان ملك الروم على يده تقادم
عظيمة للسلطان وكان سبب مجىء قاصد ابن عثمان انه أرسل يخبر السلطان بأمر تمرلنك
ويحذره عن الغفلة فى أمره وأرسل يطلب من السلطان حكيما حاذقا فى صنعة الطب
وأدوية توافق مرضه الذى كان يشكو به فانه كان يشكو بضربان المفاصل فلما
وقف السلطان على مطالعة ابن عثمان وعلم ما فيها عين له الرئيس شمس الدين بن صغير
وأرسل صحبته حملين من الادوية التى توافق مرضه وأرسل اليه هدية عظيمة على يد قاصد
من عند السلطان فتوجهوا الى ابن عثمان ثم فى عقيب ذلك حضر قاصد صاحب ماردين
وأخبر بان تمرلنك ملك بلاد الاكراد وأخبر بان الملك محمود شاه أستاذ تمرلنك قد توجه الى نحو
البصرة وحاصر أهلها فجمع صاحب البصرة جماعة كثيرة من العساكر والعربان والتقى مع
عساكر الملك محمود شاه فكان بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها فقتل بها الملك محمود شاه أستاذ
تمرلنك وأسر بها ابن تمرلنك فارسل تمرلنك يطلب من صاحب البصرة الامان وأنه يطلق اليه
ولده ومن عنده من الاسرى فارسل صاحب البصرة يقول له ما أطلق ولدك ولا
الاسرى الذين عندى حتى تطلق ابن القان أحمد بن أويس الذى عندك وجميع من عندك
من الاسرى فلما سمع تمرلنك هذا الجواب حنق منه وأرسل عسكرا ثقيلا وحاصر البصرة
فلم يقدر عليها وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده ودخل عليه الشتاء فرجع الى بلاده

ليجمع العساكر ويرجع الى حصار البصرة فلما تواترت الاخبار بذلك رسم السلطان للامير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة بأن ينادى فى القاهرة للعسكر بالعرض فى الميدان بسبب تمرلنك الخارجى وجعل يكرر هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية بأن لا يتأخر عن العرض لا كبير ولا صغير وعلق الجاليش فاضطربت أحوال الديار المصرية وماصدق العسكر بأن فتنة منطاش قد خمدت فانتشت لهم هذه الفتنة الطعمية فكان كما قيل فى المعنى

وثقيل ما برحنا * نتمنى البعد عنه
غاب عنا ففرحنا * جاءنا أثقل منه

وفى هذه السنة توفى من الاعيان عبد الرحمن أبو تاشفين صاحب تلمسان ملك الغرب وتولى من بعده أخوه محمد وتوفى قاضى القضاة ناصر الدين الكنانى العسقلانى الحنبلى وتولى بعده القاضى موفق الدين الحجازى المقدسى الحنبلى وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين الزهرى الشافعى وتوفى الصاحب شمس الدين المقسى وزير الديار المصرية وناظر الخواص الشريفة ودفن فى جامعه الذى أنشأه فى باب البحر المطل على الخليج الناصرى (١) وتوفى الشيخ سراج الدين ابن الملقن والقاضى أبو البقاء السبكى وغير ذلك من الاعيان (١) (هكذا فى النسخ)

۞ ثم دخلت سنة ست وتسعين وسبعمائة فيها جاءت الاخبار بأن القان أحمد بن أويس قد وصل الى غزة فأرسل السلطان لملاقاته ثم ان القان احمد وصل الى الريدانية فى يوم الثلاثاء سابع ربيع الاول سنة ست وتسعين فنزل السلطان من القلعة وخرج الى تلقيه فلما وقعت عين السلطان على القان أحمد بن أويس ترجل له عن فرسه وترجل القان أحمد أيضا ثم ان السلطان أتى بقباء حرير بنفسجى معرى بفاقم بطرز ذهب عريض فألبسه للقان أحمد وأحضر اليه فرسا بسرج ذهب وكنبوش فأركبه اياه وركب السلطان ومشى القان أحمد عن يمينه وطلعا من بين الترب فلما وصلا الى رأس الصوة صوب السلطان وثنى عنان فرسه فنزلت الامراء مع القان أحمد الى بيت الامير طقزدمر المطل على بركة الفيل فنزل به ونزل معه الامراء فمد له السلطان هناك سماطا عظيما فأكل وأكلت معه الامراء ثم قام الامراء وتوجهوا الى بيوتهم وقام القان أحمد ودخل الى البيت ثم ان السلطان أرسل الى القان أحمد تقدمة عظيمة وهى طوالة خيل خاص بسروج ذهب وكنابيش وعشرين مملوكا صغارا وعشرين جارية أبكارا ومائتى تفصيلة اسكندرانية وخمسة آلاف دينار برسم النفقة ثم بعد أيام جاءت الاخبار من نائب حلب بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى الرها فلما تحقق السلطان ذلك عرض العسكر باللبس الكامل فى الميدان بحضرة القان أحمد فصار السلطان يعطى كل من عرضه من المماليك

النفقة وهى دون المائة دينار فامتنعوا عن الاخذ فصار السلطان يعطى النفقة من يده للمماليك فأخذوا النفقة على كره منهم ثم ان السلطان بعث النفقة للامراء المقدمين وغيرهم فلما كان يوم الاحد سابع ربيع الآخر برزت خيام السلطان الى الريدانية فلما كان يوم الخميس عاشر ربيع الآخر رتب السلطان الطلب ونزل من القلعة فجد الطلب من باب الميدان الذى تحت القلعة وصار السلطان يرتب الطلب بنفسه ويسوق فى الرميلة ذهابا وايابا حتى انتهى الطلب الى آخره وكان ما اشتمل عليه الطلب مائتى فرس ملبسة بركستوانات حرير ومخمل ملون وكجاوتين زركش فلما تكامل خروج الطلب خرج بعده السلطان والقان احمد بن اويس صحبته والخليفة محمد المتوكل والقضاة الاربعة وسائر الامراء من كبير وصغير ثم ان السلطان رسم للعسكر بان يخرجوا وهم لابسون آلة الحرب وقد قيل لما تجهز السلطان للسفر طلب تجار الكارم فحضر المحلى والخروبى وابن مسلم فاستقرض السلطان منهم مائتى ألف دينار وكتب عليه بذلك مسطورا وضمن فيه الامير محمود الاستادار فسار السلطان فى ذلك الموكب العظيم حتى وصل الى الريدانية فنزل بالخيم الشريف ولما نزل من القلعة توجه الى الريدانية من بين الترب فلما خرج طلب السلطان ترادفت من بعده أطلاب الامراء فى الخروج فما زالوا يتسحبون الى الظهر حتى انتهوا عن آخرهم فلما استقر السلطان بالمخيم الشريف قبض هناك على الصاحب سعد الدين بن البقرى وعلى ولده القاضى تاج الدين ثم ان السلطان خلع على الجناب الناصرى محمد بن رجب بن كليك واستقر به وزيرا عوضا عن سعد الدين بن البقرى ثم ان السلطان رحل من الريدانية وصحبته القان أحمد بن اويس وسائر الامراء وجد فى السير حتى وصل الى دمشق فى يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر فلما دخلها نزل بالقصر الابلق الذى فى الميدان وحكم بين الناس وأقام بالشام أياما ثم رحل منها وتوجه الى حلب فلما أقام بحلب حضر اليه قاصد من عند ابن عثمان وعلى يده مطالعات مضمونها ان يكون هو والسلطان عونة واحدة على دفع العدو الباغى تمرلنك فأجابه السلطان الى ذلك ورد له الجواب عن ذلك بما يطيب به خاطره ثم حضر اليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمان فأجابه السلطان كما أجاب ابن عثمان فلما أقام السلطان بحلب بلغه ان جاليش عسكر تمرلنك قد وصل الى البيرة فصار جماعة من عسكر السلطان يعدون تحت الليل من الفرات ويكبسوا عليهم فغنموا من عسكر تمرلنك أشياء كثيرة فقيل ان عسكر مصر كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل ويعدون من الفرات تحت الليل حتى يقعوا مع عسكر تمرلنك وفى ذلك يقول القائل

ولما ترامينا الفرات بخيلنا ⁂ سكرناه منا بالقوى والقوائم

فأوقفت التيار عـــن جريانه * الى حيث عدنا بالغنى والغنائم

ثم بلغ السلطان ان تمرلنك رجع الى بلاده فلما تحقق السلطان ذلك قصد الرجوع الى نحو الديار المصرية وكذلك القان احمد بن اويس رجع الى بلاده ولم يقع بين تمرلنك وبين الملك الظاهر برقوق قتال فى هذه المرة بل رجع كل من الفريقين الى بلاده ثم ان السلطان رجع الى الشام فأقام بها أياما وخلع على المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب حلب ونقل الامير أرغون شاه من نيابة صفد الى نيابة طرابلس وخلع على الامير اقبغا الجمالى واستقر به نائب صفد عوضا عن أرغون شاه وخلع على الامير دقماق المحمدى واستقر به نائب ملطية وخلع على الامير مقبل كاور واستقر به نائب طرسوس وخلع على الامير منكلى بغا الاشبغاوى واستقر به نائب الرها وخلع على الامير طغنجى واستقر به نائب قلعة المسلمين وفى هذه السنة جاءت الاخبار من بلاد المغرب بان ابن أبى السباع صاحب تونس قد توفى الى رحمة الله تعالى واستقر ولده أبو فارس عبد العزيز ويعرف بعزوز عوضه فى مملكة تونس وتوفى أبو العباس احمد بن أبى سالم صاحب مدينة فاس وتوفى أبو الحجاج يوسف المعروف بابن الاحمر صاحب بلاد الاندلس وتولى من بعده ابنه أبو عبد الله محمد الاندلسى (أقول) وكان ابن الاحمر ملك الاندلس هذا شاعرا ماهرا وله شعر جيد فى البديع فمن ذلك قوله مخاطبا لمحبوبته حمدونة الاندلسية

أيا ربة الخال التى أذهبت نسكى * على أى حال كان لابد لى منك

فاما بذل وهو أليق بالهـــوى * واما بعـــز وهو أليق بالملك

وفى هذه السنة توفى أبو العباس احمد صاحب بلاد قسنطينية الهواء ببلاد المغرب وفيها توفى القاضى محيي الدين يحيى بن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية وتولى من بعده القاضى بدر الدين أبو الثناء محمود الكلستانى الحنفى وتوفى الصاحب موفق الدين أبو الفرج وتوفى الرئيس علاء الدين بن صغير رئيس الاطباء توفى عند رجوعه من بلاد ابن عثمان وقد تقدم ان السلطان أرسله الى ابن عثمان ليطبه انتهى ذلك * ثم دخلت سنة سبع وتسعين وسبعمائة فيها حضر الى الديار المصرية مملوك الامير جمال الدين محمود الاستادار واخبر بأن السلطان خرج من دمشق وفى هذه السنة كان مولد شيخ الاسلام الشيخ أمين الدين يحيى الاقصرائى الحنفى ولد فى هذه السنة وقد توجه السلطان الى زيارة بيت المقدس ثم جاءت الاخبار بعد ذلك بان السلطان قد وصل الى الصالحية راجعا فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وصل الى القاهرة ودخلها فى موكب عظيم وشق من بين الترب وفرشت له الشقق الحرير الملونة من قبة النصر الى القلعة وحملت على رأسه القبة والطير وعبوا قدامه بالغواشى الذهب وضج الناس له بالدعاء وكان قدامه الخليفة محمد المتوكل والقضاة الاربعة

وسائر الامراء من الاكابر والاصاغر فلما طلع الى القلعة خلع على أرباب الوظائف من المباشرين وغيرهم وفى هذه السنة فى يوم السبت سادس شوال الموافق آخر يوم من أبيب من الشهور القبطية زاد الله فى النيل المبارك اربعين اصبعا فى يوم واحد ثم فى ثانى يوم وهو أول يوم من مسرى زاد الله فى النيل المبارك اثنين وستين اصبعا وذلك ذراعان ونصف واصبعان فبقى عليه من الوفاء ذراعان ثم فى يوم الوفاء الموافق لثالث يوم من مسرى زاد الله فى النيل المبارك خمسين اصبعا فأوفى وزاد اصبعين فكانت جملة مازاده فى أربعة أيام سبعة أذرع ونصف ذراع واصبعين وكان الوفاء فى ثالث يوم من مسرى وهذه الزيادة لم يعهد مثلها فيما تقدم من السنين الخالية ولا سمع بمثل ذلك وفى ذلك يقول الشاعر

النيل زاد جورا ، بحكمه المطاع * يعمل فى الرعايا * بالباع والذراع

وقال آخر فى المعنى

النيل أفرط فيضا * بفيضه المتتابع
فصار مما دهانا * حديثنا بالاصابع

وفى هذه السنة جاءت الاخبار من مكة بأن أمير مكة الشريف على بن عجلان قد قتل والذين قتلوه من أقاربه وفيها كثر الموت بالديار المصرية ومات للسلطان ولدان وهما سيدى محمد وسيدى قاسم وفيها توفى قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن الميلق الشافعى وتوفى الشيخ زين الدين أبو بكر الموصلى الواسطى وتوفى الشيخ غياث الدين العاقولى وكان زين الدين الموصلى من أعيان الصوفيه وفيها كانت وفاة المقر البدر ابن فضل الله كاتب السر الشريف وأخيه حمزة بعده بشهر واحد وفيهما يقول عوس العالية

قضى البدر بن فضل الله نحبا * ومات أخوه حمزة بعد شهر
فلا تعجب لذى الاجلين يوما * فحمزة مات حقا بعد بدر

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وسبعمائة فيها فى يوم السبت سادس صفر تغير خاطر السلطان على الامير جمال الدين محمود الاستادار فأرسل اليه طواشى يسمى شاهين الحسنى الجدار فأخذ ولده الأمير محمدا وأخذ نساءه وسراريه وطلع بهم الى القلعة فسجن الامير محمد فى البرج ورسموا على النساء فاختفى الامير محمود ثم ان القاضى سعد الدين ابراهيم بن غراب وكيل بيت المال نزل الى بيت الامير محمود هو والامير على باى الخازندار فاحتاطوا على موجود الامير محمود فظهر له فى أول يوم فى مكان عقد تحت سلم مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار فلما كان يوم الاثنين ثامن صفر خلع السلطان على الامير قطلوبك العلائى واستقر به استادارا عوضا عن الامير محمود بن على الظاهرى وخلع على القاضى بدر الدين بن غراب واستقر به ناظر الديوان الشريف المفرد وخلع على الامير مبارك شاه واستقر به وزيرا عوضا

عن الناصرى محمد بن رجب بن كلبك ثم ان السلطان اشتد غضبه على الامير محمد ابن الامير محمود الاستادار فسلمه الى الامير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة فعاقبه أشد عقاب وقرره على الاموال فعند ذلك اتسع الخرق على الراقع وتحنت جراحات الامير جمال الدين محمود وكثرت فيه المرافعات من الناس كما قد قيل فى المعنى

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت * ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

ثم ظهر للامير جمال الدين مكان خلف مدرسته التى فى القربين فوجد فيه سبعة أزيار كبار وزلعتان فيها فضة ودراهم نقرة ووجد له فى ذلك المكان جرتان كبيرتان فيهما ذهب عين ثم قبضوا على بوابه موسى وعصروه فأقر على مكان بالاسكندرية فى مخزن جمار فارسل اليه من حفر فى ذلك المكان فوجدوا فيه ستة وثلاثين ألف دينار نقدا ووجدوا له فى مكان آخر بالاسكندرية مائتى ألف دينار وفى مكان آخر بالاسكندرية أيضا ثلاثين ألف دينار ذهبا فاحضروا ذلك جميعه الى الخزائن الشريفة على يد الطواشى زين الدين صندل المنجكى الخازندار فأودع ذلك بالخزائن الشريفة وقد قال القائل فى المعنى

رأيت الدرهم المضروب أضحى * كلص ماله أبدا أمانه

ألم تر كل انسان حريصا * يحصله ويرميه الخزانه

ووجد له عند مملوك لاجنبى ثلاثون ألف دينار ووجد له عند مملوكه شاهين أربعون ألف دينار ووجد له عند امامه سراج الدين ثلاثون ألف دينار ووجد له عند قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون المالكى عشرون ألف دينار ووجد له عند فراشه شقير زير كبير فيه سبعون ألف دينار ووجد له عند باب سره فى مكان بكلتان نحاس فيهما ثلاثة وستون ألف دينار ووجد له فى سطح مدرسته التى فى القربين خمس قدور فيها نحو خمسين ألف دينار ووجد له فى مكان عند الجامع الازهر زير كبير فيه مائة وسبعة وثلاثون ألف دينار ووجد له فى مكان عند البرقية عند جارية سوداء زير كبير فيه مائة ألف دينار وثلاث برانى فيها لؤلؤ كبير وفصوص مختلفة الالوان فتسلم ذلك جميعه الزينى صندل المنجكى الخازندار فكان كما قيل

قد يجمع المال غير آكله * ويأكل المال غير من جمعه

ويقطع الثوب غير لابسه * ويلبس الثوب غير من قطعه

ووجد له عند شخص اسكافى بقج فيها طرز زركش وحوائص ذهب وكلابيش زركش ما يعلم عدد ذلك ووجد له فى مكان عند حارة بنى سيس خلف بيته زلعة فيها ذهب عين جملة ذلك مائة ألف دينار وثمانية وثلاثون ألف دينار ومن الفضة الدراهم زلعتان هذا كله خارج عما وجد له من القماش والفرش والخيول والبرك وغير ذلك من حلى نسائه وسراريه وغير ما وجد له من الاملاك والضياع والمراكب والمعاصر والجوارى والعبيد والمماليك والطواشية وغير ذلك وقد ضاع له عند الناس أضعاف ذلك ووجد له من الغلال فى الشون ما لا يحصى من

المغل * أقول وهذا الموجود يقارب موجود الصاحب علم الدين بن زنبور وقد تقدم ذكر ذلك
فى الجزء الثانى عند أخبار دولة بنى قلاون ۞ ثم ان بعض الناس قبض على الامير محمود من
مكان من كوم الجارح وأحضره الى السلطان فلما امثل بين يديه رسم بتسليمه هو وولده محمد
الى شاد الدواوين فسجنهما بخزانة شمايل فزالت عنه الدنيا كأنها لم تكن وقيل فى المعنى

وان امرأ دنياه أكبر همه * لمستمسك منها بحبل غرور

وفى هذه السنة وقع الغلاء العظيم بمصر فرسم السلطان بأن يعمل فى كل يوم عشرون اردبا
من الدقيق خبزا و يفرق على الفقراء والمساكين وفى الزوايا فلما اشتد الامر بذلك توجه
شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى الى الجامع الازهر واجتمع من الخلائق مالا يحصى ودعوا
الله تعالى فى كشف ذلك عن الناس وقد اجتمع الغلاء والفناء فى تلك السنة انتهى ذلك
۞ وفى أواخر هذه السنة حضر الى الابواب الشريفة قاصد من عند قرا يوسف بن قرا محمد
وحضر صحبته شخص من التتر قيل انه من قرابة تمرلنك وذكروا ان تمرلنك لما رحل جعله نائبا
عنه بالرها فنزل فى بعض الايام ليتصيد فسمع به قرا يوسف فركب مع جماعة من التركمان
فقبض عليه وهو سكران وقيده وأرسله الى السلطان فلما امثل بين يديه أمر بسجنه فى خزانة
شمايل وفيها خلع على الصاحب سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن مبارك
شاه وخلع على القاضى بدر الدين بن الطوخى واستقر به ناظر النظار ۞ وفى هذه السنة
كانت وفاة المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى نائب السلطنة بالديار المصرية وتوفى
الصاحب محمد بن رجب بن كابك وغير ذلك جماعة من الاعيان والعلماء انتهى ذلك ۞ ثم
دخلت سنة تسع وتسعين وسبعمائة فيها حضر قاصد من عند تمرلنك يطلب أطلمش الذى كان
قد أمسكه قرا يوسف كما تقدم فأرسل السلطان يقول لتمرلنك ما أطلق لك أطلمش حتى
تطلق أنت من عندك من النواب ومن الاسرى الذين أسرتهم من البلاد فعاد الجواب الى
تمرلنك بذلك وفيها حضر الى الابواب الشريفة المقر السيفى تنم الحسنى نائب الشام فلما بلغ
السلطان وصوله الى الريدانية نزل السلطان من القلعة ولاقاه وخلع عليه وأنزله بالميدان
الكبير الذى عند الناصرية فقدم نائب الشام الى السلطان عشرة مماليك جراكسة وعشر
جوار وعشرة آلاف دينار ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب وغجاه مسقطة بالذهب ومرصعة
بفصوص ياقوت وفيروز وأربعة كنابيش زركش وأربعة سروج ذهب وأربع بدلات
ذهب زنة كل بدلة أربعمائة مثقال شغل المعلم بهرام وعشرة كواهى برسم الصيد ومائة
وخمسين جملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات وأثواب صوف ملون ومائة
فرس خاص وخمسين بغلة وخمسين جملا وعشرين حمل أثواب بعلبكى وثلاثين حمل فاكهة
وحلوى شامية وعشرين حمل مخللات وحملين علب سكر نبات حموى وحملين سواقة فى علب

كبار

بكار وغير ذلك أشياء كثيرة ثم ان السلطان عدّى الى بر الجيزة وعزم نائب الشام ثم توجه الى بلاده على عادته وفى هذه السنة حضر قاصد صاحب اليمن وهو الملك الاشرف محمد بن الفضل وحضر صحبته القاضى برهان الدين المحلى التاجر الكارمى وأحضر اصحبتهما هدية عظيمة للسلطان لم يسمع بمثلها على أنواع مختلفة فخلع السلطان على قاصد ملك اليمن وأكرمه غاية الاكرام وفى هذه السنة خلع السلطان على القاضى تقى الدين الزبيرى واستقر به قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن القاضى صدر الدين المناوى الشافعى وفيها جاءت الاخبار من دمشق بان عوام دمشق قتلوا شخصا من الناس يقال له ابن النشو ولما قتلوه أحرقوه بالنار وكان سبب ذلك ان هذا الشخص كان يشترى الغلال فى أيام الرخص ويخزنها حتى تنشحط المدينة من الغلال فيبيعها باغلى ثمن فتحملت منه الناس وتعاونوا على قتله فقتلوه وأحرقوه ولم تنتطح فى ذلك شاتان وفيها خلع السلطان على الامير يلبغا الاحمدى المعروف بالمجنون واستقر به استادارا عوضا عن قطلوبك العلائى وفيها جاءت الاخبار من حلب بان چاليش تمرلنك قد وصل الى أطراف بلاد الروم وأخذ مدينة تسمى ارزنكان وقتل أهلها ونهب ما فيها فلما سمع السلطان ذلك أرسل الى سائر النواب بان يتوجهوا الى شاطئ الفرات ويحصنوا البلاد فخرج سائر النواب الى شاطئ الفرات وأقاموا هناك وفيها حصل للسلطان توعك فى جسده وأقام منقطعا فى الحريم أياما لم يعمل الموكب ثم عوفى بعد ذلك ودخل الحمام ثم ركب من بعد ذلك وشق القاهرة وزينت له ففرحت الناس بعافيته فلما طلع الى القلعة انتكس من يومه وضعف أكثر مما كان أولا وكثر فى القاهرة القيل والقال بين الناس فأقام على ذلك أياما ثم عوفى وركب وتوجه الى سرياقوس ثم انه رجع الى القلعة ❊ وفيها توفى سيدى اسمعيل ابن السلطان حسن وتوفى الصاحب سعد الدين بن البقرى وتوفى قاضى القضاة جمال الدين القيصرى الحنفى وتوفى قاضى القضاة شمس الدين الطرابلسى الحنفى وتوفى السيد الشريف الاخلاطى الحنفى وتوفى الامير جمال الدين محمود بن على الظاهرى الاستادار كان وقد تقدم أن السلطان سجنه هو وولده محمد فى خزانة شمايل فاستمر مقيما بها الى أن مات فغسل وكفن وصلى عليه ودفن فى مدرسته التى أنشأها خارج باب زويلة وقد قاسى من الشدائد ما الاخير فيه وآخر الامر ذهب ماله ومات وهو فى السجن ولم يوجد له ثمن كفن حتى ان بعض مماليكه أخرجه من عنده فكان كما قيل فى المعنى

أف لدنيانا وأفعالها ❊ فانها للهم مخلوقه

همومها لا تنقضى ساعة ❊ عن ملك فيها ولا سوقه

واعجبا منها ومن فعلها ❊ عدوّة للناس معشوقه

۞ثم دخلت سنة ثمانمائة من الهجرة وانقضى قرن السبعمائة وقد جرى فيه من الحوادث ما تقدم ذكره وقد ورد فى الاخبار على رأس كل قرن فتنة وهذا حديث صحيح فيها رسم السلطان باحضار السيفى المقر تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب فتوجه لاحضاره أخو الامير بكتمر جلق ۞ومن الحوادث فيها أن السلطان تغير خاطره على الاتابكى كشبغا الحموى وعلى المقر السيفى بكلمش العلائى أمير سلاح فقيدهما فى يوم واحد وأرسلهما الى السجن بثغر الاسكندرية ثم ان السلطان عمل موكبا وخلع على المقر السيفى ايتمش البجاسى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن كشبغا الحموى وأنعم على الامير نوروز الحافظى بتقدمة ألف ثم حضر المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب فلما حضر أنزله السلطان فى بيت الامير طاز الذى عند حمام الفارقانى ثم عمل بعد أيام الموكب وخلع على جماعة من الامراء وهم المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب واستقر به أمير سلاح عوضا عن الامير بكلمش العلائى وخلع على الامير اقبغا اللكاش واستقر به أمير مجلس عوضا عن الامير شيخ الصفوى وخلع على الامير نوروز الحافظى واستقر به أمير اخور كبير وخلع على الامير بيبرس قريب السلطان واستقر به دوادار كبير فلبس هؤلاء الامراء كلهم فى يوم واحد وأنعم السلطان على مملوكه على باى بتقدمة ألف وأنعم على الامير يشبك الشعبانى بتقدمة ألف وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات عشرة وفيها خلع السلطان على الامير بيقجاه طيفور الشرفى واستقر به نائب غزة عوضا عن الامير أحمد ابن الشيخ على ونقل الامير أحمد ابن الشيخ على الى نيابة صفد ونقل نائب صفد الى نيابة طرابلس وفيها أرسل السلطان خلف القاضى جمال الدين الملطى من حلب فلما حضر الملطى خلع عليه واستقر به قاضى القضاة الحنفية بالديار المصرية عوضا عن القاضى شمس الدين الطرابلسى الحنفى بحكم وفاته ثم بعد مدة عمل السلطان الموكب وخلع على مملوكه على باى ويدعى المالباى واستقر به رأس نوبة النوب ۞ومن الحوادث فى هذه السنة ان السلطان تغير خاطره على الامير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة فقبض عليه وعلى أخيه وابن عمه وجميع أصحابه وحاشيته وغلمانه وأودعهم فى الترسيم بالقلعة فلما كان يوم السبت طلع جماعة من العوام الى الرميلة ومعهم مصاحف وأعلام فوقفوا واستغاثوا فأرسل اليهم السلطان وجاقا وقال لهم ما شأنكم فقالوا نسأل السلطان فى أن يفرج عن الامير علاء الدين بن الطبلاوى الوالى فلما سمع السلطان ذلك حنق على العوام وأرسل اليهم جماعة من المماليك فشتتوهم من الرميلة واستمر علاء الدين بن الطبلاوى فى الترسيم ثم قال ان لى كلاما سرا ما أقوله الا فى أذن السلطان فلم يوافق السلطان على ذلك ورسم للامير يلبغا الاحمدى الاستادار بأن يتسلم ابن الطبلاوى ويستخلص منه الاموال فلما أراد أن ينزل به من القلعة قعد ابن الطبلاوى على باب الزردخانه وأخرج من

وسطه

وسطه خنجرا صغيرا وشق به بطن نفسه فأمسك الناس يده فلم يؤثر فيه ذلك فلما بلغ السلطان هذه الواقعة تحقق ان ابن الطبلاوى ما كان يريد القرب من السلطان الا ليضربه بذلك الخنجر فاشتد عليه غضبه وأمر يلبغا الاحمدى بأن يعاقبه فنزل به الى بيته وعاقبه وعصره بالمعاصير فى أكعابه وسقاه الجير بالملح وضربه بالكسارات وأذاقه ما كان يفعله بالناس وقد قيل فى المعنى

جرع كاسا كان يسقى بها * والمرء مجزى بأعماله

فظهر له من المال فى مكان ستون ألف دينار وفى مكان عشرون ألف دينار ثم ان يلبغا الاحمدى احتاط على موجوده جميعه فباعوه بمائة ألف دينار فلم يكتفوا بذلك وعاقبوه ثانيا وألبسوه خودة حديد محمية بالنار فأقر أن له عند ابن عمه مائتى ألف درهم فضة نقرة وأقر بان له عند أخيه مثل ذلك ثم أقر بأن له عند قريبه تقى الدين الخطيب خمسين ألف دينار وعند دواداره على بن عمر عشرة آلاف دينار فحمل ذلك جميعه الى الخزائن السلطانية وذهب ما كان جمعه ابن الطبلاوى من حلال وحرام وبقى عليه اثم ذلك فذهبت عنه الدنيا والآخرة وقد قيل فى المعنى

النار آخر دينار نطقت به * والهم آخر هذا الدرهم الجارى

والمرء ما دام مشغوفا بحبهما * معذب القلب بين الهم والنار

ثم ان السلطان رسم بسجن علاء الدين بن الطبلاوى فى خزانة شمايل فسجن بها ۞ وفى هذه السنة وقع الرخاء بمصر حتى بيع كل أربعة ارطال خبز بدرهم ولا أحد يشتريه ۞ ومن الوقائع اللطيفة انه فى يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة لعب السلطان بالكرة والصولجان مع الاتابكى ايتمش البجاسى فى الحوش السلطانى فغلب السلطان المقر الاتابكى ايتمش فقال له السلطان جاء عليك يوم بالقفيرى فأراد الاتابكى ايتمش أن يعمل وليمة من ماله فقال له السلطان أنا أقوم عنك بذلك من مالى فضرب خيمة كبيرة مدورة وعدة صواوين فى الميدان الذى تحت القلعة وأرسل خلف سائر الامراء من الاكابر والاصاغر ورسم للوزير وناظر الخاص بأن يتكلفوا بامر ذلك المهم فعمل فيه من اللحم الضأن عشرين ألف رطل ومن الاوز مائتى زوج ومن الدجاج ألف طير ومن الخيول للذبح عشرين فرسا ومن السكر ثلاثين قنطارا ومن الفاكهة مائتى علبة ومن الحلوى مائتى جمع ومن الزبيب برسم الاقسمة ثلاثين قنطارا ومن الدقيق ستين اردبا برسم البوزة فعملت البوزة والشش فى ادنان وأحضر السلطان مغانى البلد جميعها والاوزان ثم ان السلطان صلى الصبح ونزل الى الميدان ورسم بأن لا يمنعوا أحدا من الدخول الى الميدان فلما تكاثر الناس فى الميدان أشار بعض الامراء على السلطان بان يمد السماط الى القلعة فمد السماط وأكل هؤلاء والامراء ثم خلع على الوزير وناظر الخاص ثم ركب وطلع الى القلعة من وقته وكان قصد السلطان أن يقيم فى

الميـدان الى آخر النهار ويجتمع هنالك أرباب الملاهى والملاعب فما تم له ذلك فلما ركب وطلع الى القلعة تكاثر العوام ودخلوا الى الميدان ونهبوا الدنان البوزة والشش وحصل فى ذلك اليوم بعض اضطراب بسبب ذلك وقال بعض الشعراء

سلطان مصر دام فضـل علائه * قد عمنا بالفضل والاحسان
لم أنس يوم السبت حسن مهمه * قد كان يوما جاء بالسلطان

انتهى ذلك ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة انه فى يوم الاحد تاسع عشر ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك فنزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس ليخلق العمود ويكسر السد على العادة فلما دخل الى المقياس وخلق العمود ونزل الى الحراقة لتكسير السد جاء اليه مملوك من خشداشينه من مماليك الاتابكى يلبغا العمرى يقال له سودون الاعور وكان ساكنا فى البيوت التى باعلى الكبش فجاء الى السلطان وأسر اليه حديثا فى أذنه فكان مضمون ذلك انه قال له رأيت فى بيت الامير على باى الذى تحت الكبش مماليك لابسة آلة الحرب وقد دخلوا تحت بوائك الخيل وستروا على البوائك بالاخاخ حتى لايراهم أحد وكان هذا البيت محل سكن على باى فلما سمع السلطان ذلك أنكره وكان الامير على باى من مماليك السلطان الخواص وقد رقاه حتى جعله رأس نوبة النوب وكان الامير على باى قبل هذه الواقعة انقطع فى بيته أياما وأظهر أنه مريض وظن أن السلطان اذا رجع من كسر السد يدخل يسلم عليه فاذا دخل يسلم عليه تخرج تلك المماليك من تحت البوائك التى سترها بالاخاخ فيقتلوا السلطان وظن أن هذه الحيلة تصـعد من يده فكان تدميره فى تدبيره كما قيل فى الامثال

وان من حارب من لا يقوى * لحربه جر اليه البـلوى
حارب الاكفاء والاقرانا * فالمرء لا يحارب السلطانا

۞ ثم ان السلطان أرسل الامير ارسطاى أحد رؤس النوب الى بيت الامير على باى ليكشف له الخبر عن صحة ذلك فتوجـه الامير ارسطاى الى بيت الامير على باى وأعـلم جماعته بان السلطان اذا رجع من السـد يدخـل يسـلم على الامير على باى فلما فتح السلطان السـد ورجع توجه الى بيت الامـير على باى فلما أراد أن يدخـل الى بيته نادته امرأة من أعلى البيوت التى فى الكبش وقالت له لا تدخل له وقد قيل ان تلك المرأة رمت على السلطان لما أراد أن يدخل الى بيت على باى قلة فلما شال السلطان وجهه اليها قالت له لا تدخل اليه فثنى السلطان عنان فرسه ومضى فأشار عليه بعض الامراء بان ينقل فى مشـيه فنقل وساق هو والامراء فتقنطر فى ذلك اليوم الامـير فارس حاجب الحجاب والامير بيبرس الدوادار الكبير ثم ركبا فلما تحقق على باى رجوع السلطان الى القلعة خرج من بيتـه ومماليكه وكانوا نحو

أربعين مملوكا فساقوا خلف السلطان الى الرميلة وكان من جملة سعد السلطان لما مضى من بيت على باى أنه ساق وطلع الى الرميلة فوجد باب السلسلة مفتوحا فطلع منه هو والامراء ثم أغلقوه خلفهم فلما جلس فى المقعد الذى فى الاسطبل السلطانى طلع على باى خلفه الى الرميلة فوقف فى سوق الخيل هو ومماليكه ساعة فنزل اليه جماعة من الامراء والمماليك سلطانية فاوقعوا معه واقعة قوية فقتل فيها من المماليك السلطانية خاصكى يقال له يسق المصارع وجرح فيها جماعة كثيرة من المماليك السلطانية فلما رأى على باى عين الغلب هرب وانكسر وكان معه الامير يلبغا الاحمدى الاستادار فلما هرب على باى قبضوا على يلبغا الاحمدى وطلعوا به الى باب السلسلة فاراد المماليك السلطانية قتله فمنعهم السلطان من ذلك ثم قيدوه ورموه فى البرج ثم ان مماليك السلطان مسكوا مملوكا من مماليك على باى وهو شاد الشر بخاناه عنده كان يقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا فلما قبضوا عليه وأحضروه بين يدى السلطان أمر بقتله فقتلوه قدام السلطان بالسيوف فلما انكسر على باى وهرب من الرميلة نهب العوام بيته الذى تحت الكبش وأخذوا جميع بركه وقماشه حتى أخذوا رخام بيته وأبوابه ونهبوا بيوت حاشيته وغلمانه فلما دخل الليل ظهر الامير على باى فى مستوقد حمام بالقرب من بيته فأتى اليه الامير بيبرس الدوادار الكبير وقبض عليه وطلع به الى القلعة فأمر السلطان بسجنه وكان سبب ركوب على باى على السلطان أن مملوكا من مماليكه أفسد جارية من جوارى الامير اقباى الطرنطاى وكان ساكنا بجوار بيت على باى فلما علم الامير اقباى بذلك قبض على مملوك الامير على باى وضربه نحو أربعمائة عصا فلما بلغ الامير على باى ذلك تعصب لمملوكه وطلع الى القلعة واشتكى الامير اقباى الى السلطان فلم يلتفت السلطان الى كلام على باى فحنق من السلطان وقال أنا آخذ ثارى بيدى ثم انقطع على باى فى بيته أياما وأظهر أنه مريض وأضمر فى نفسه أن السلطان اذا سمع أنه مريض يدخل يسلم عليه فاذا دخل اليه يقتله وتصعد هذه الحيلة من يده فكان الأمر بخلاف ذلك وخانه المراد وجنى عليه الاجتهاد فلما ركب على باى وجرى منه ما جرى قبضوا عليه فلما طلعوا به الى القلعة سجنه السلطان ثم طلبه فى قاعة البحرة وخلا به وقال له من ألجأك الى هذا الذى قد فعلته فقال ما ألجأنى أحد لذلك ولكن فعلت ذلك من قهرى منك حيث لم تأخذ بثارى من اقباى ثم ان السلطان أحضر اليه المعاصير وعصره بحضرته وقرره ان كان لاحد من الامراء خبرة فى ذلك فبرأ سائر الامراء فصار السلطان يعصر على باى فى كل يوم مرتين ويقرره فلم يقر بشىء فتزايد حنق السلطان عليه فضربه بكاز فولاد كان فى يده فخسف به صدر على باى فمات من وقته فغسلوه وكفنوه ودفنوه تحت الليل وانقضى أمره وصار ذلك مثلا بين الناس يقولون زلة على باى فكان كما قيل فى المعنى

وإذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الاجسام

ثم ان السلطان أفرج عن الامير يلبغا الاحمدى استادار ونزل الى بيته وخلع على الامير ارسطاى بن شجاعلى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن على باى وخمدت هذه الفتنة عن الناس فلما كان يوم الاثنين وقت الظهر ماجت الرميلة ولبس المماليك آلة الحرب ووقفوا فى الرميلة فغلقوا ابواب السلسلة وأشاعوا بين الناس أن الامير أقبغا اللكاش والامير يلبغا الاميرى الاستادار قد ركبا على السلطان وليس لهذا الكلام صحة وكان سبب هذه الفتنة أن بعض المماليك السلطانية رأى مملوكا من مماليك على باى فساق خلفه وتبعه وسيفه مسلول فظن الناس أن العسكر قد ركب على السلطان فلبس المماليك آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة وأشاع العوام بأن يلبغا الاحمدى وأقبغا اللكاش قد ركبا على السلطان ثم ان يلبغا الاحمدى وأقبغا اللكاش طلعا الى القلعة وقالا للسلطان ياخوند هذا كذب العوام فالسلطان لا يصدق فينا كلام ثم ان السلطان قبض على يلبغا الاحمدى وأرسله الى ثغر دمياط وخلع على الناصرى محمد بن سنقر البجكاوى واستقر به استادارا عوضا عن يلبغا الاحمدى وفى أثناء هذه الواقعة قبض السلطان على سبعة أنفس من جماعة على باى ورسم للوالى بأن يسمرهم فسمروا وطافوا بهم فى القاهرة على الجمال وكان فيهم شخص عجمى يسمى رمضان وكان على باى يقول له يا أبى وفيهم مملوك أقبغا الفيل كان أغات على باى فوسطوا الجميع عند بركة الكلاب ۞ وفى هذه السنة توفى القاضى برهان الدين صاحب سيواس وتوفى الامير جانى بك اليحياوى أمير اخور كبير وتوفى الامير قلمطاى العثمانى وتوفى القاضى أمين الدين الحمصى كاتب السر بالشام وتوفى القاضى تاج الدين بن الشهيد وتوفى القاضى نجم الدين بن الطميدى محتسب القاهرة وغير ذلك من الاعيان

۞ ثم دخلت سنة احدى وثمانمائة فيها فى يوم السبت ثالث عشر صفر نزل السلطان الى الاصطبل السلطانى وحكم بين الناس وكان من حين جرى من على باى ما جرى لم ينزل الى الاصطبل ولم يحكم به فلما نزل فى ذلك اليوم تغير خاطره على الامير نوروز الحافظى أمير اخور كبير فقبض عليه وسجنه بقاعة الفضة المطلة شبابيكها على الايوان وكان سبب تغير خاطر السلطان على الامير نوروز الحافظى ما قيل من أنه نقل عنه كلام أنه اتفق مع جماعة من المماليك على قتل السلطان فلما تحقق السلطان ذلك بادر وقبض على الامير نوروز الحافظى أمير اخور كبير فقبض عليه وسجنه بقاعة الفضة وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ونفى معه جماعة من الخاصكية ممن كان من عصبته ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الامير سودون قريب السلطان واستقر به أمير اخور كبير عوضا عن نوروز الحافظى وخلع على الامير أرغون شاه الاقبغاوى واستقر به أمير مجلس عوضا عن أقبغا اللكاش وخلع على أقبغا اللكاش واستقر به نائب الكرك ورسم له بأن يخرج اليها فلما

خرج من القاهرة ووصل الى غزة أرسل السلطان فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة الصليبة ۞ ثم ان السلطان أنعم على الامير عمر از الناصرى بتقدمة ألف وفيها جاءت الاخبار بأن نائب حلب أرغون شاه الابراهيمى قد توفى الى رحمة الله تعالى فرسم السلطان للامير أقبغا الجمالى نائب طرابلس بأن ينتقل الى نيابة حلب عوضا عن أرغون شاه فتوجه الى تقليده الامير اينال باى بن قجماس قريب السلطان وأرسل تقليدا الى الامير يونس المطاوى الظاهرى بأن يكون نائب طرابلس وأرسل تقليدا الى الامير دمرداش المحمدى بأن يكون نائب حماه على يد الامير شيخ المحمودى وأرسل تقليدا الى الامير سودون الظريف بأن يكون نائب الكرك ۞ وفى هذه السنة نادى السلطان للناس بأن يحجوا رجبيا وكان ذلك قد بطل من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة فرسم باعادته على جارى العادة ۞ وفى هذه السنة أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشراوات منهم تغرى بردى الجلبانى ومنكلى بغا الناصرى وبكتمر جلق الناصرى وأحمد بن قطينة وأنعم على جماعة بامريات أربعين منهم يسباى بن باكى وتمربغا بن باشاه وشاهين بن اسلام وجوبان العثمانى وجكم العوضى ۞ وفى هذه السنة قبض السلطان على الصاحب بدر الدين بن الطوخى وخلع على الامير تاج الدين عبد الرزاق والى قطيا واستقر به وزيرا عوضا عن ابن الطوخى ۞ وفيها رسم السلطان بالافراج عن الامير يلبغا الاحمدى الاستادار وأعيد الى وظيفته كما كان أولا وفيها خلع السلطان على القاضى فتح الله واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية عوضا عن القاضى بدر الدين الكلستانى الحنفى بحكم وفاته وفيه يقول بعض الشعراء

فتح الله بعلو اشتهر ۞ فسبحان من أعطاه
وتبت يد الكافرين ۞ اذا جاء فتح الله

وفيها خلع السلطان على الامير فرج استادار الذخيرة واستقر به نائب ثغر الاسكندرية عوضا عن الامير صرغتمش المحمدى بحكم وفاته وفيها فى يوم الثلاثاء سابع عشرى شهر رمضان رسم السلطان بالافراج عن الامير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة وكان له مدة وهو فى السجن بخزانة شمايل كما تقدم فتجمع وقت خروجه الجم الغفير من الناس وأوقدوا له الشموع على الدكاكين وتخلق الناس فى ذلك اليوم بالزعفران حتى قيل اشترى الناس فى ذلك اليوم زعفران بعشرين أشرفى فلما خرج ابن الطبلاوى من خزانة شمايل أقام مدة فى بيته ثم رسم له السلطان بأن يتوجه الى الكرك ويقيم بها وفيها فى يوم الثلاثاء خامس شوال لعب السلطان بالرمح فى الحوش وكان ذلك اليوم شديد الحر فلما فرغ من لعب الرمح أكل عسل نحل كغناوى فطاب له وأكل منه كثيرا وشرب عقيب ذلك أقسمة محرفة فاستحال خلطا صفراويا فاشتدت به الحمى فضعف من يومه وثقل فى المرض الى يوم

السبت بعد العصر فأشيع بين الناس انه فى النزع فأقام على ذلك الى يوم الاربعاء ثالث عشر شوال فطلع عليه الوو شكين ثم حصل له الفواق فاضطربت فى ذلك اليوم القاهرة وضجت فركب والى القاهرة ونادى فى المدينة بالامان والاطمئنان والبيع والشراء فلما كان يوم الخميس رابع عشر شوال حصل للسلطان افاقة فطلب أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الاربعة وسائر الامراء وأرباب الدولة فلما تكامل المجلس عهد السلطان بالملك من بعده الى ولده المقر الزينى فرج ثم من بعده الى ولده المقر العزى عبد العزيز ثم من بعده الى ولده المقر الصارمى ابراهيم ثم ان السلطان كتب فى ذلك المجلس وصية فأوصى فيها لزوجاته وسراريه وخدامه بمال جملته مائتا ألف دينار وأوصى بأن تعمر له تربة بثمانين ألف دينار ويشترى لها أوقاف بعشرين ألف دينار وأوصى بأن يدفن فى لحد لا فى فسقية وان يكون دفنه بين الفقراء الذين هناك وأوصى بأن يكون سائر املاكه أوقافا على تربته وأوصى بأن يكون المقر الاتابكى ايتمش البجاسى وصيا على أولاده وفوض اليه أمر الولاية والعزل ثم جعل أمير المؤمنين المتوكل على الله وصيا على أولاده من بعده وجعل المقر السيفى تغرى بردى أمير سلاح وصيا والامير بيبرس الدوادار وصيا والامير يشبك الشعبانى وصيا وجعل المقر السيفى تنم الحسنى نائب الشام وصيا ثم خلع على الاتابكى ايتمش خلعة ونزل الى بيته ومعه سائر الامراء واستمر السلطان ملازم الفراش قال الامير صندل المنجكى الخازندار ان السلطان تصدق فى هذه الضعفة فى مدة انقطاعه على الفقراء والعلماء بمائتين وخمسين ألف دينار فلما كان ليلة الجمعة خامس عشر شوال من سنة احدى وثمانمائة توفى السلطان الملك الظاهر برقوق بن أنص العثمانى رحمة الله تعالى عليه وكانت وفاته وقت السحر فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية الى أن مات على فراشه ست عشرة سنة وأربعة أشهر وسبعة وعشرين يوما فكانت كما قيل فى المعنى

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها * فهل سمعت بظل غير منتقل

وكانت مدة سلطنته الاولى ست سنين وثمانية أشهر الا يوما ومدة السلطنة الثانية الى أن مات تسع سنين وثمانية أشهر الا يوما ومدة خلعه بين السلطنتين ثمانية أشهر وأياما وكانت مدة اتابكيته بمصر أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام فكانت مدة حكمه بالديار المصرية أتابكا وسلطانا احدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما وزال ملكه كأن لم يكن فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير ومات الملك الظاهر برقوق وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة وخلف من الاولاد ستة ثلاثة ذكور وهم سيدى فرج وسيدى عبد العزيز وسيدى ابراهيم وثلاث بنات وخلف من المال فى الخزائن ألف ألف دينار واربعمائة ألف دينار وخلف من الخيول اثنى عشر ألف فرس ومن الجمال خمسة آلاف جمل ومثلها من البغال

قال الامير شهاب الدين بن قطينة لما كنت متولى الاستادارية كان عليق السلطان الظاهر برقوق فى أيامى فى كل شهر اثنى عشر ألف أردب شعير ومن اللحم ستة وعشرين ألف رطل فى كل يوم وبلغت عدة مماليكه المشتراة سبعة آلاف مملوك بجوا كسة خارجا عن أصحاب الجوامك وكان كثير البر والصدقات فمن ذلك انه أوقف بلدا فى بر الجيزة على سحابة تطلع فى كل سنة الى الحجاز الشريف برسم الحجاج المنقطعين وكان له فى كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ فى قايزية وتفرق على الحبوس والزوايا وعلى الفقراء ومعها ألف رغيف وكان يفرق فى كل سنة من القمح سبعة آلاف أردب فى الزوايا والمزارات وأبطل فى أيامه مكوسا كثيرة بمصر والشام كانت تحصل مع غاية الضرر فأبطل ذلك جميعه وعظم أمره حتى خطب باسمه فى اماكن لم يخطب فيها لاحد قبله من الملوك فخطب باسمه فى تبريز العجم وفى الموصل وفى ماردين وفى سنجار وفى دوركى وفى أرض الروم وفى ارزنكان وضربت السكة باسمه فى هذه الاماكن ﷺ وأما ما أنشأه فى أيامه من العمائر فهو جسر الشريعة بالغور وجدد بناء خزائن السلاح بثغر الاسكندرية وجدد عمارة زريبة البرزخ بثغر دمياط بعدما كان قد ظهر منها عظام الشهداء وعمل سورا على مدينة دمنهور وعمر قناة العروب بالقدس الشريف وجوّد عمارة المجراة التى تجرى من بحر النيل الى قلعة الجبل وعمر فساقى بطريق المدينة الشريفة عند رأس وادى بنى سالم وعمر سور الميدان الذى تحت القلعة بعدما كان قد خرب فرمى بارضه أحمال طين ثم سقاه بماء النيل وزرع فيه القرظ فلم يطلع فيه شئ غير النخيل وعمر صهريجا كبيرا بالقلعة وعمل السبيل والمكتب الذى قدام دار الضيافة بظاهر القلعة وعمر بالقلعة طاحونا ولم يكن بها قبل ذلك طاحون وعمر المدرسة العظيمة التى بين القصرين والوكالة التى تجاه باب الجوانية وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام وكانت دولته ثابتة القواعد * فأما قضاته الشافعية بمصر فالقاضى برهان الدين بن جماعة والقاضى ناصر الدين بن الميلق والقاضى بدر الدين بن التقى السبكى والقاضى عماد الدين الكركى والقاضى صدر الدين المناوى والقاضى تقى الدين الزبيرى وأما قضاته الحنفية فالقاضى صدر الدين بن منصور والقاضى شمس الدين الطرابلسى والقاضى مجد الدين الكنانى والقاضى جمال الدين محمود القيصرى والقاضى جمال الدين الملطى وأما قضاته المالكية فالقاضى جمال الدين بن خير والقاضى ولى الدين بن خلدون المغربى والقاضى شمس الدين الركراكى والقاضى شهاب الدين النحريرى والقاضى ناصر الدين بن التونسى وأما قضاته الحنابلة فالقاضى ناصر الدين العسقلانى وولده برهان الدين وأما كتاب سره بالديار المصرية فالقاضى بدر الدين بن فضل الله والقاضى علاء الدين الكركى والقاضى بدر الدين محمود الكلستانى والقاضى فتح الدين فتح الله وأما نظار جيوشه

فالقاضى تقى الدين عبد الرحمن والقاضى موفق الدين بن الفرج والقاضى جمال الدين القيصرى والقاضى كريم الدين بن عبد العزيز والقاضى شرف الدين بن الدماميني والقاضى سعد الدين بن غراب وأما وزراؤه بمصر فالصاحب شمس الدين بن كاتب الازلان والصاحب علم الدين بن القسيس والصاحب كريم الدين بن الغنام والصاحب موفق الدين أبو الفرج والصاحب سعد الدين بن البقرى والصاحب ناصر الدين بن الحسام الصفوى والصاحب ركن الدين عمر بن قيماز والصاحب تاج الدين بن أبى شاكر والصاحب ناصر الدين محمد بن كلبك والصاحب مبارك شاه الظاهرى والصاحب بدر الدين بن الطوخى والصاحب تاج الدين عبد الرزاق والصاحب شهاب الدين احمد بن قطينة وأما استاداريته بمصر فالامير قرقماس السيفى طشتمر والامير جمال الدين محمود بن على الظاهرى والامير عمر بن قايماز والامير قطلوبك العلائى والامير يلبغا الاحمدى المعروف بالمجنون والامير ناصر الدين محمد بن سنقر البكاوى والامير بهادر المنجكى والامير يلبغا السالمى وأما نظار خواصه فالقاضى سعد الدين موسى والقاضى سعد الدين بن البقرى والقاضى موفق الدين أبو الفرج والقاضى سعد الدين بن غراب قال المقريزى ان الذى أبطله الملك الظاهر برقوق فى أيامه من المكوس وهو ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بظاهر باب النصر وأبطل ما كان مقررا لنائب طرابلس عند توجهه اليها وذلك أنه كان يؤخذ ممن يسرح للأمراء نحو العباسة من التجار وأعيان الناس من كل واحد فرس أو جمل أو ثمن ذلك وأبطل ما كان يرمى على البلاد من الابقار عند فراغ الجسور السلطانية وأبطل ما كان يؤخذ على معمل الفراريج بناحية النحريرية وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط بالديار المصرية والبلاد الشامية واستمر ذلك بطالا الى الآن فى صحيفة الملك الظاهر برقوق رحمة الله تعالى عليه وقد رثاه الشيخ شمس الدين الزركشى بقصيدة منها

في باطنى للملك الظاهر * حزن سرى منى فى سائرى
قد صير الندب لناسنة * عليه من باد ومن حاضر
فبعده للملك يتم غدا * تبكى عليه أعين الناظر
لكن أتانا فرج عاجلا * من بعده بالملك الناصر

انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الملك الظاهر برقوق وذلك على سبيل الاختصار ولما توفى الملك الظاهر برقوق نزل من بعده ابنه فرج

ذكر سلطنة الملك الناصر زين الدين أبى السعادات فرج ابن الملك الظاهر برقوق بن أنص العثمانى

وهو

وهو السادس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو الثاني من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر تولى الملك بعهد من أبيه وجلس على سرير الملك في يوم الجمعة خامس عشر شهر شوال سنة احدى وثمانمائة فبايعه أمير المؤمنين المتوكل بحضرة القضاة الاربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي وبحضرة الاتابكي ايتمش البجاسي وسائر الامراء فالبسوه خلعة السلطنة وهي جبة سوداء بطرز زركش وركب من الاصطبل السلطاني وطلع من باب سر القصر الكبير والاتابكي ايتمش حامل القبة والطير على رأسه فجلس على سرير الملك وباس له الامراء الارض وفي حال جلوسه على الكرسي جاء ابن الرداد ببشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة فاستبشر الناس بذلك ثم دقت الكؤسات ونودي باسمه في القاهرة وضج الناس له بالدعاء وخطب باسمه في ذلك اليوم على منابر القاهرة قيل ان الملك الناصر فرج تولى الملك وله من العمر نحو اثنتي عشرة سنة وكانت أمه رومية الجنس تسمى شيرين الطويلة وفيه يقول بعض الشعراء

مضى الظاهر السلطان أعظم مالك * الى ربه يرقى الى الخلد في الدرج
وقالوا ستأتي شدة بعد موته * فأكذبهم ربي وماجاسوى فرج

فلما انفض أمر الموكب شرع الامراء في تجهيز الملك الظاهر برقوق فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه بالقلعة ونزلوا به والامراء مشاة قدامه وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوك وكثر عليه الاسف والحزن والبكاء من الناس حتى وصلوا به الى البقعة التي اختار الدفن فيها فحفر واله هنالك قبرا ودفنوه فيه بين قبور المشايخ والفقراء الذين هنالك ونصبوا على قبره خيمة كبيرة وأقام القراء يقرؤن على قبره ثمان ليال متوالية وكان القائم بأمر المأتم الامير يلبغا الاحمدي الاستادار والناصري محمد بن سنقر البجكاوي استادار الذخيرة فلما كان يوم السبت ثاني يوم موت الملك الظاهر طلع الاتابكي ايتمش هو والامراء الى القلعة وعينوا الامير سودون الناصري الطيار بأن يتوجه الى تنم الحسني نائب الشام بالتعزية بموت الملك الظاهر والبشارة بسلطنة ولده الملك الناصر وعينوا الامير يلبغا الحافظي الى نائب حماه وكذلك الى نائب غزة وكذلك الى نائب الكرك وعينوا الامير سنبغا الى الامير نصير شيخ آل فضل وأرسلوا اليه خلعة بأن يكون على عادته ولما كان يوم الاثنين ثامن عشر شوال عمل السلطان الموكب في القصر واجتمع الامراء فلم يطلع الامير سودون أمير اخور كبير وكان من قرابة الملك الظاهر برقوق فلما امتنع من الطلوع الى القلعة ارسل خلفه الاتابكي ايتمش فلم يطلع فأرسل خلفه ثانيا فلم يطلع وكثرا القال والقيل بين الناس فأرسل الاتابكي ايتمش يقول له انزل من الاسطبل الى بيتك فامتنع من ذلك وأرسل الى الاتابكي ايتمش جوابا يابسا فحنق منه ايتمش فأرسل اليه جماعة من المماليك فقبضوا عليه وقيدوه

وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية فهذه كانت أول ماجرى من الحوادث فى دولة الملك الناصر فرج ثم ان الاتابكى ايتمش تحول وطلع الى باب السلسلة وسكن به ولما كان يوم الخميس حادى عشرى شوال عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم الاتابكى ايتمش البجاسى أتابك العساكر على عادته واستقر أميراخور كبيرا أيضا وخلع على المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أمير سلاح وخلع على المقر السيفى أرغون شاه واستقر به أمير مجلس وخلع على المقر السيفى ارسطاى واستقر به رأس نوبة النوب وخلع على المقر السيفى بيبرس واستقر به دوادارا كبيرا وخلع على المقر السيفى فارس واستقر به حاجب الحجاب وخلع على الامير يلبغا الاحمدى واستقر به استادارا على عادته وخلع على الصاحب تاج الدين بن أبى شاكر واستقر به وزيرا وأنعم على جماعة من الامراء بتقادم الوف وامريات أربعين وامريات عشرة وخلع على الشيخ بدر الدين محمود العينى الحنفى واستقر به محتسب القاهرة عوضا عن تقى الدين المقريزى وهذه أول وظائف للعينى بمصر وفى ذلك اليوم قبض الاتابكى ايتمش على جماعة من الامراء وهم الامير تمراز الناصرى والامير تمربغا المنجكى والامير طقلجى السيفى يلبغا والامير بلاط السعدى والامير طولو فقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ثم بعد أيام تغير خاطر الاتابكى ايتمش على الامير يلبغا الاحمدى الاستادار فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ثم خلع على الامير مبارك شاه الظاهرى واستقر به استادارا عوضا عن يلبغا الاحمدى فأقام بها مبارك شاه دون الشهر واستعفى منها واستقر بها الصاحب تاج الدين بن أبى شاكر فصار وزيرا واستادارا وفى أواخر هذه السنة حضر الامير سودون الطيار الذى كان قد توجه الى تنم نائب الشام فاخبر بان تنم نائب الشام دخل تحت طاعة السلطان الملك الناصر وباس له الارض ونادى فى مدينة دمشق بالزينة سبعة أيام ودقت لها البشائر فلما حضر سودون الطيار بالبشارة خلع عليه السلطان واستقر به أميراخور كبير وأنعم على الامير اينال باى من قرابة الملك الظاهر برقوق بتقدمة ألف وأنعم على الامير طاز بتقدمة ألف وأنعم على الامير اقباى الطرنطاى بتقدمة ألف ثم خلع على الامير سودون الماردينى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الامير ارسطاى وخلع على الامير يلبغا السالمى واستقر به استادارا عوضا عن الصاحب تاج الدين عبد الرزاق وخلع على الامير شهاب الدين احمد بن عمر الحسنى بن قطينة واستقر به وزيرا بدلا عن تاج الدين عبد الرزاق وفيها جاءت الاخبار من القدس الشريف بأن الامير علاء الدين بن الطبلاوى قد هرب من القدس وتوجه الى تنم نائب الشام وقد تقدم ان الملك الظاهر برقوق نفاه الى الكرك وفى أواخر هذه السنة انفصل ابن قطينة من الوزارة واستقر بها القاضى فخر الدين بن غراب وفى أواخر هذه السنة جاءت الاخبار من حلب بان ابن عثمان ملك الروم

قد تحرك على بلاد السلطان وقد وصل أوائل جالشيه الى بلاد الابلستين وهو قاصد حلب فلما بلغ السلطان والامراء هذا الخبر امر الاتابكى ايتمش بعقد مجلس بالقصر الكبير فحضر أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الاربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقينى وسائر الامراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان فوقع الاتفاق على محاربته والخروج اليه وان يؤخذ من أجرة الاملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو ثم بعد مدة جاءت الاخبار بان ابن عثمان وصل الى ملطية وملكها ولم يشوش على أحد من أهلها وأمر عسكره بان لا ينهبوا لاحد من الرعية شيأ فأقام بملطية أياما ثم رجع الى بلاده فبطل أمر التجريدة وسكن الحال وفى هذه السنة توفى الامير بكلمش العلائى بالقدس الشريف وتوفى فى هذه السنة أيضا الامير شيخ الصفوى أمير مجلس وكانت وفاته بالقدس الشريف أيضا ومات الاتابكى كمشبغا الحموى بالسجن بثغر الاسكندرية وتوفى أرغون شاه الابراهيمى نائب حلب وتوفى قاضى القضاة الشافعى عماد الدين الازرقى وهو صاحب تاريخ مكة وتوفى قاضى القضاة المالكى ناصر الدين بن التونسى ومات فيها جماعة كثيرة ۞ ثم دخلت سنة اثنتين وثمانمائة فيها فى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ركب الملك الناصر ونزل من القلعة وزار قبر والده برقوق وشق من القاهرة ودخل من باب النصر وكان له موكب عظيم وزينوا له المدينة وضجوا له بالدعاء فشق من المدينة وطلع الى القلعة وهذا كان أول مواكبه وفيها جاءت الاخبار من دمشق بان تنم نائب الشام خامر وأظهر العصيان وخرج عن الطاعة وأطلق من كان مسجونا من الامراء بقلعة دمشق من أيام الملك الظاهر برقوق فلما بلغ السلطان ذلك طلب المقر الاتابكى ايتمش فلما حضر قال له أنا قد بلغت الحلم وقصدى ان أترشد فقال الاتابكى ايتمش نعم السمع والطاعة ثم أرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الاربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى فلما تكامل المجلس قام المقر السعدى سعد الدين بن غراب وكيلا عن السلطان وادعى فى المجلس بين يدى القضاة فاعذر له الاتابكى ايتمش وثبت رشده فى ذلك اليوم وحكم به القضاة واعذر له أمير المؤمنين ثم ان السلطان خلع على أمير المؤمنين وعلى القضاة الاربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقينى والاتابكى ايتمش ونزلوا الى بيوتهم ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بالزينة فزينت له سبعة أيام ودقت البشائر ونودى بالامان والاطمئنان والبيع والشراء والدعاء بالنصر للسلطان فضج الناس له بالدعاء فلما كان يوم الاثنين عاشر ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانمائة ركب المقر الاتابكى ايتمش على السلطان والبس مماليكه آلة الحرب وطلع الى الرميلة بين المغرب والعشاء فاجتمع عنده جماعة من الامراء المقدمين وهم الامير تغرى بردى أمير سلاح والامير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس والامير فارس حاجب الحجاب وغير ذلك جماعة

من الامراء الطبلخانات والامراء العشراوات واجتمع عنده من المماليك السلطانية والسيفية مالا يحصى واجتمع عند الملك الناصر بالقلعة جماعة من الامراء المقدمين وهم الامير شيبك الشعبانى والامير طاز والامير سودون المارديني والامير بيبرس الدوادار والامير اينال باى بن قجماس وجماعة كثيرة من الامراء الطبلخانات والعشراوات وجماعة كثيرة من المماليك الظاهرية فلما لاح الصباح نزلوا الى باب السلسلة وأوقعوا مع ايتمش واقعة عظيمة من طلوع الفجر الى بعد الظهر ثم ان الاتابكى ايتمش نادى للعوام بأن كل من أمسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ عريه وفرسه فلما سمع المماليك الذين كانوا مع ايتمش هذه المناداة تسحبوا من عنده وقالوا نحن نقاتل معه وهو يريد مسكنا فشدا شيئنا فطلعوا الى القلعة فلم يبق مع ايتمش الا بعض مماليك صغار فلما تلاشى أمره فل الامراء الذين كانوا عنده فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انكسر الاتابكى ايتمش وهرب نحو قبة النصر وقد قتل فى هذه الواقعة بعض أمراء وجرح منهم جماعة وقتل جماعة كثيرة من المماليك الذين كانوا معه ولما انكسر ايتمش ومن كان معه من الامراء نهب العوام بيوتهم وأخذوا كل ما فيها حتى الرخام والابواب ثم نهبوا مدرسة ايتمش التى عند باب الوزير وأحرقوا ربعه المجاور للمدرسة ثم حفروا قبر أولاده وقد ظنوا أن فيه مالا فلم يلقوا فيه شيأ غير العظام ونهبوا جامع آقسنقر المجاور لبيت ايتمش ونهبوا قبة خوند زهرة بنت الملك الناصر محمد بن قلاون المجاورة لبيت ايتمش ونهبوا وكالة ايتمش التى عند مدرسته ونهبوا مدرسة السلطان حسن وأحرقوا بابها لكون ايتمش كان يحاصر القلعة منها ثم نهبوا بيوت الامراء الذين ركبوا مع ايتمش واستمر النهب فى المدينة يومين ثم ان الزعر زاد أمرهم حتى كسروا باب حبس الرحبة وأطلقوا من كان به من المحابيس وصارت المدينة مائجة ليس بها حاكم ولا وال ولا حاجب والسلطان صغير ليس له حرمة ولا كلمة واضطربت الاحوال ولولا لطف الله تعالى بالناس لنهبوا القاهرة عن آخرها فى هذه الحركة ثم جاءت الاخبار بان الاتابكى ايتمش ومن معه من الامراء لما انكسروا توجهوا الى نحو باب الشام فلما وصلوا الى هناك تلقاهم تنم نائب الشام وأنزلهم بالقصر الابلق الذى بالميدان ومد لهم سماطا عظيما وأنعم عليهم بكسوة وخيول ومال ورتب لهم فى كل يوم ما يكفيهم من سماط وعليق وغير ذلك وكان وصول الاتابكى ايتمش والامراء الذين معه الى دمشق فى يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الاول من السنة المذكورة وكان يوم دخولهم الى دمشق يوما مشهودا وموكبا عظيما فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر اجتمع هو والامراء وضربوا مشورة فى هذا الامر ثم وقع الاتفاق على أن يفرجوا عن جماعة من الامراء ممن كان مسجونا بثغر الاسكندرية فرسم السلطان بالافراج عن يذكر من الامراء وهم الامير نوروز الحافظى والامير سودون قريب الملك الظاهر برقوق والامير قرازا الناصري والامير

أقباى السيفى طرنطاى فلما حضروا عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى بيبرس واستقر به أتابك العساكر عوضاعن ايتمش البجاسى وخلع على المقر السيفى بكتمر الركنى واستقر به أمير سلاح عوضاعن تغرى بردى بن يشبغا وخلع على المقر السيفى تمراز الناصرى واستقر به أمير مجلس وخلع على المقر السيفى نوروز الحافظى واستقر به رأس نوبة النوب والامير نوروز الحافظى هو الذى جدد القبة على فسقية الخانقاه الشيخونية لما بقى رأس نوبة النوب ولم يكن بها قبل ذلك قبة وخلع على المقر السيفى سودون قريب السلطان واستقر به دودارا كبيرا وخلع على المقر السيفى أقباى الطرنطاى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن الامير فارس وخلع على المقر السيفى سودون بن على باى واستقر به أمير آخورا كبيرا عوضا عن سودون الطيار وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الامراء وهم الامير اينال باى بن قجماس والامير سودون بن زاده وهو صاحب الجامع الذى فى سويقة العزى والامير اينال العلائى حطب وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات عشرة واستقامت أموره فى السلطنة وفيها قبض السلطان على الصاحب فخر الدين بن غراب وفصله من الوزارة وقبض على أخيه القاضى سعد الدين بن ابراهيم ناظر الجيش وناظر الخاص وقبض على الامير شهاب الدين أحمد بن قطينة الاستادار وقبض على الشريف علاء الدين البغدادى شاد الدواوين وسلمهم جميعهم الى الامير أزبك الرمضانى رأس نوبة ثانى ليستخرج منهم الاموال فأقاموا فى بيت الامير أزبك أياما ثم ان الاتابكى بيبرس شفع فيهم وفرج السلطان عنهم وخرجوا الى بيوتهم بطالين ثم ان السلطان خلع على الصاحب بدر الدين الطوخى وأعاده الى الوزارة وخلع على القاضى شرف الدين بن الدماميني واستقر به ناظر الجيش وناظر الخاص ووكيل بيت المال فأقام هؤلاء فى هذه الوظائف نحو ثلاثة شهور ثم ان السلطان رضى على الصاحب فخر الدين بن غراب وأعاده الى الوزارة وأعاد أخاه القاضى سعد الدين بن غراب الى وظائفه كما كان وخلع على القاضى شرف الدين بن الدماميني واستقر به قاضى ثغر الاسكندرية عوضا عن أخيه وفيها خلع السلطان على الشيخ أبيا التركمانى واستقر به شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس عوضا عن الشيخ اسلام الحنفى وفيها جاءت الاخبار من دمشق بان تنم نائب الشام جمع عسكرا عظيما من الشام وهو قاصد نحو الديار المصرية وقد وصل أوائل عسكره غزة فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر علق الجاليش ونادى للعسكر بالعرض وانفق عليهم فى يومه ثم برز خيامه الى الريدانية فلما كان يوم الخميس رابع رجب من السنة المذكورة طلب السلطان ونزل من القلعة وخرج فى موكب عظيم ومعه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الاربعة وسائر الامراء فتوجه الى نحو الريدانية وخرج من بعده اطلاب الامراء المسافرين معه ثم ان السلطان جعل الاتابكى بيبرس نائب

الغيبة بمصر الى أن يعود السلطان الى الديار المصرية وترك بمصر جماعة من الامراء العشراوات والحجاب وبعض مماليك سلطانية ثم ان الملك الناصر عين جماعة من الامراء بأن يتقدموا امام العسكر وهم الامير بكتمر الركنى أمير سلاح والامير قرازا الناصرى أمير مجلس والامير شيخ المحمودى الخاصكى احد الامراء المقدمين والامير سودون قريب السلطان والامير دقاق المحمدى وجماعة من العسكر والمماليك السلطانية نحو ألف مملوك فتقدموا امام العسكر فلما كان يوم الجمعة ثامن رجب رحل السلطان من الريدانية وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ۞ ومن هنا نرجع الى أخبار تنم نائب الشام فانه لما تولى الملك الناصر فرج خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ووضع يده على البلاد الشامية وقد وافقه على العصيان نائب حلب ونائب حماه ونائب صفد ونائب طرابلس والتف عليه من العسكر والعربان مالا يحصى عددهم فلما ركب الاتابكى ايتمش بمصر وانكسر كما تقدم توجه اليه هو والامراء الذين ركبوا معه فلما توجهوا اليه قويت شوكته وعظم أمره فصار تنم يركب فى كل يوم بالشام فى المواكب العظيمة مثل مواكب السلطان والامراء والنواب قدامه والدف والشبابة والاوزان والجاويشية والشعراء قدامه وكان يركب فى خدمته من الامراء المقدمين مايزيد على خمسة وعشرين أميرا واجتمع عنده من النواب ومن عساكر البلاد الشامية نحو أربعة آلاف انسان مابين تركمان وعربان وغير ذلك من العساكر فحدثت نفس تنم انه صار سلطانا لا محالة وعظم فى نفسه هذا ما كان من أمر تنم نائب الشام وأما ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد خروجه من مصر فانه لما خرج من مصر كان أكثر الناس لايشكون انه هو المكسور لا محالة وان تنم هو المنتصر عليه والله غالب على أمره وكان أكثر الامراء والعساكر خامروا على السلطان فى الباطن ومالوا الى تنم نائب الشام والسلطان بينهم مثل العصفور فى يدى النسور فخرج من مصر وهو فى غاية الضنك فكان كما قيل فى المعنى

خف اذا أصبحت ترجو * وارج ان أمسيت خائف

رب مكروه مخوف * فيه لله لطائف

فلما وصل السلطان كان اقبغا اللكاش نائب غزة خرج هو ونائب حماه ونائب صفد الى قتال الملك الناصر فالقى الله تعالى الرعب فى قلوب النواب فأول من دخل تحت طاعة السلطان دمرداش نائب حماه وكذلك نائب صفد فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان خامر الجميع على تنم نائب الشام ودخلوا تحت طاعة السلطان وتوجهوا اليه فى غزة ثم ان نائب غزة اقبغا اللكاش هرب من وجه الملك الناصر وملك السلطان مدينة غزة فلما بلغ ذلك تنم نائب الشام خرج من الشام هو والاتابكى ايتمش وبقية الامراء وأتوا الى مدينة الرملة فصار السلطان فى غزة وهم فى الرملة ثم ان السلطان

أرسل الى تنم نائب الشام والى الاتابكى ايتمش قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى والامير ناصر الدين بن الرماح بان يمشوا فى أمر الصلح بينهم وبين السلطان فتوجهوا اليهم ثم انهم عادوا بالجواب بأنهم قد أبوا الصلح ولم يوافقوا على ذلك فلما سمع السلطان جوابهم ركب من غزة هو والامراء والعسكر وتوجهوا اليهم وذلك فى يوم السبت ثانى عشرى رجب فتلاقى العسكران على مكان يسمى الجبتين فكان بينهم هنالك واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى وقعت الكسرة على تنم نائب الشام وأمسك واحتاطوا على بركه ودوابه ثم ان الاتابكى ايتمش وبقية الامراء هربوا وتوجهوا الى نحو الشام ثم ان العساكر المصرية نهبوا مدينة الرملة وسبوا أهلها ثم ان الامير جكم العوضى توجه خلف الذين هربوا الى الشام فقبض على الاتابكى ايتمش البجاسى وعلى الامير تغرى بردى أمير سلاح وعلى الامير اقبغا اللكاش نائب غزة والامير بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق والامير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس والامير يعقوب شاه الكشبغاوى والامير فارس حاجب الحجاب فلما قبض عليهم قيدهم وحبسهم بقلعة دمشق ونادى فى الشام بالامان والاطمئنان والبيع والشراء والدعاء بالنصر للسلطان الملك الناصر فضج أهل الشام له بالدعاء ثم بعد أيام وصل السلطان الى دمشق وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا ودخل فى موكب عظيم وقدامه تنم نائب الشام وهو مقيد راكب على كديش أبلق ومعه عشرة من أمراء دمشق وهم فى قيود فحبسهم فى قلعة دمشق عند الاتابكى ايتمش وفيه يقول بعض الشعراء

أملت انك لاتزال بكل من ✻ عاداك بالنصر القريب مظفرا
ورجوت أن تطأ الكواكب رفعة ✻ من فوق اعناق العدا وكذا جرى

ولما دخل السلطان الى دمشق نزل بالقصر الابلق ثم انه شرع فى القبض على أصحاب تنم نائب الشام وحاشيته فكان من جملة من أمسك من الامراء الامير علاء الدين بن الطبلاوى وقد تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى القدس فلما مات الملك الظاهر هرب وتوجه الى تنم نائب الشام وصار يفرع الظلم بدمشق كما كان يفعل بمصر ثم أراد السلطان أن يقبض على الناصرى محمد بن تنكز نائب الشام فهرب تحت الليل وتوجه الى بلاد التركمان فكان كما قيل فى المعنى

من عاشر الزبدانى فاحت عليه روائحو ✻ ويحترق بشرار ومن عاشر الحداد

فلما كان يوم الخميس خامس عشرى شعبان حضر الى القاهرة قجق الخاصكى وعلى يده مثالات شريفة تتضمن أخبار هذه النصرة التى حصلت للسلطان وقد حضر قجق المذكور من البحر المالح من على الطينة لان الدرب السلطانى كان مضطرب الاحوال بسبب

فساد العربان فلما جاء هذا الخبر الى القاهرة نادى نائب الغيبة فى القاهرة بالزينة فزينت سبعة أيام ۞ ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن الامير يلبغا الاحمدى المعروف بالمجنون وكان استادارا بالديار المصرية لما توجه السلطان الى الشام صار يرمى الفتنة بين الامراء الذين كانوا فى القاهرة فوثبوا على بعضهم ووقع بينهم الخلف وصار كل واحد منهم كل يوم فى فتن واضطربت أحوال الديار المصرية وتخبطت البلاد الشرقية والغربية وكثرت المناسر فى القاهرة حتى صار فى كل حارة مركز يغفر ونها فى الليل من الحرامية وصاروا يخطفون العمائم فى الحارات الظهر ثم جاءت الاخبار من دمشق بأن السلطان لما قام من دمشق بعد هذه النصرة خلع هناك على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى سودون قريب السلطان واستقر به نائب الشام عوضا عن تنم الحسنى وخلع على المقر السيفى دمرداش المحمدى ونقله من نيابة حماه الى نيابة حلب وخلع على المقر السيفى شيخ المحمودى واستقر به نائب طرابلس وخلع على الامير دقماق المحمدى واستقر به نائب حماه عوضا عن دمرداش المحمدى وخلع على الامير الطنبغا العثمانى واستقر به نائب صفد على عادته وخلع على الامير جنتمر التركمانى واستقر به نائب بعلبك ثم ولى جماعة من القضاة بدمشق منهم القاضى تقى الدين ابن المكفرى الحنفى وولى القاضى شمس الدين النابلسى الحنبلى ثم جاءت الاخبار من دمشق بأن السلطان قتل جماعة من الامراء وهم الاتابكى ايتمش البجاسى والامير فارس حاجب الحجاب والامير اقبغا اللكاش نائب غزة والامير جلبان الكمشبغاوى والامير بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق والامير أرغون شاه الاقبغاوى والامير يعقوب شاه الكمشبغاوى والامير يقوت اليحياوى والامير مبارك شاه المعروف بالمجنون والامير بهادر العثمانى نائب البيرة وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء مصر والشام فكان عدة من قتل فى هذه الحركة نحو أربعة عشر أميرا فذبحوا الجميع ببرج الحمام بقلعة دمشق ثم ان السلطان أرسل رأس الاتابكى ايتمش البجاسى ورأس الامير فارس حاجب الحجاب الى القاهرة فى علبة فطافوا بهما فى القاهرة ثم علقوهما على باب زويلة ثم جاءت الاخبار بأن السلطان قد خنق تنم نائب الشام والامير يونس نائب طرابلس قيل انما أخر تنم نائب الشام بعد قتل الامراء ليستصفى أمواله ويقرره على الاموال التى أخذها من البلاد لما أظهر العصيان ولعبت به الدنيا ثم رمته وتخلت عنه فكان كما قيل فى المعنى

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

ولما كان يوم الاثنين ثامن شهر رمضان فيه حضر خاصكى وأخبر بأن السلطان خرج من دمشق وهو قاصد نحو الديار المصرية ثم فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر رمضان حضر الى القاهرة المقر السعدى سعد الدين بن غراب وصحبته حريم السلطان

الملك الناصر وأخبر بأن السلطان قد وصل الى الصالحية ولما حضر ابن غراب أشيع بين الناس أن الامير علاء الدين بن الطبلاوى لما قدم على السلطان بدمشق قيده وأرسله هو والقاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام صحبة ابن غراب فلما وصل الى غزة أرسل السلطان بقتل علاء الدين بن الطبلاوى فمات مخنوقا بغزة ودفن هناك وقد قاسى شدائد عظيمة فى أيام الملك الظاهر برقوق وفى أيام ابنه فرج وآخر الامر مات قتيلا بعد ما قاساه فكان كما قيل

ترجو الوليد وقد أعياك والده * فارجاؤك بعد الوالد الولدا

ثم وقعت شفاعة من الامراء فى القاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام بعد ما كان قد رسم بقتله فعفا عنه من القتل وحضر صحبة ابن غراب الى مصر ولما كان يوم الجمعة سادس عشرى شهر رمضان وصل السلطان الى الديار المصرية ودخلها فى موكب عظيم وزينت له القاهرة فلم يطلع الامن بين الترب فدقت له البشائر وفرشت له الشقق الحرير من عند تربة طيبغا الطويل الى رأس الصوة وحملت القبة والطير على رأسه وكان له يوم مشهود حتى طلع الى القلعة وجلس على سرير الملك ثم عمل الموكب وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الامراء منهم قطلوبغا الكركى واقباى الاينالى وجركس القاسمى وجكم العوضى ثم خلع على الامير مقبل واستقر به زماما وخلع على الامير صواب الجنكلى واستقر به مقدم المماليك السلطانية وخلع على فارس الدين شاهين الحلبى واستقر به نائب مقدم المماليك وفيها فى يوم الثلاثاء رابع عشر شوال جاءت الاخبار من بلاد الصعيد بان الناصرى محمد بن عمر الهوارى كبس على الامير يلبغا الاحمدى فسلك جماعة من أصحابه وغلمانه وهرب يلبغا الاحمدى وكان سبب ذلك أن يلبغا الاحمدى لما سافر السلطان صار يرمى الفتن بين الامراء الذين كانوا بمصر حتى افتتنوا فى بعضهم ووثبوا على بعضهم فقصد نائب الغيبة بان يقبض على يلبغا الاحمدى فهرب وتوجه الى نحو بلاد الصعيد فلما أراد محمد بن عمر الهوارى أن يقبض على يلبغا هرب فتبعوه فنزل عن فرسه ورمى نفسه فى البحر فغرق ثم بعد أيام طلعوا به وقد أكل السمك وجهه فدفنوه ومضى أمره بعد ما أخرب بلاد الصعيد ونهب أموال الناس وفيها فى ثانى ذى القعدة حضر مملوك نائب حلب وأخبر بان القان أحمد بن أويس صاحب بغداد وقرا يوسف أمير التركمان حضر اليهم جاليش تمرلنك فأوقعوا معهم واقعة عظيمة فانكسر جاليش تمرلنك فلما انكسروا أتوا الى نحو ملطية وكانوا نحو سبعة آلاف انسان فارسلوا الى نائب حلب يقولون له عين لنا مكانا ننزل به فلما سمع نائب حلب ذلك ركب هو ونائب حماه وتوجهوا الى عسكر تمرلنك فاوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها فانكسر نائب حماه وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة منهم جانى بك اليحياوى أتابك العساكر بحلب

وأسر نائب حماه دقماق المحمدى حتى اشترى نفسه منهم بمال جزيل ورجع نائب حلب الى حلب وهو مكسور وكانت هذه أول الفتن بين عسكر مصر وبين تمرلنك فلما بلغ السلطان ذلك رسم لنائب الشام ونائب صفد ونائب طرابلس بان يجمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقيمون بها وفيها حضر نجاب من مكة المشرفة وأخبر بان الحرم احترق منه نحو الثلث ومن الاعمدة الرخام مائة وثلاثون عامودا وعملت النار من باب عزورة الى باب العمرة وكان هذا حادثا عظيما لم يسمع بمثله فلما بلغ السلطان ذلك عين الامير بيسق الشيخى لعمارة ما احترق من الحرم وأرسل معه الخواجا برهان الدين المحلى التاجر الكارمى وبعث معه السلطان عشرة آلاف دينار بسبب العمارة فعمروه كما كان ولم يجدوا أعمدة رخام فعملوا عوض ذلك حجرا أسود وفيها ظهر الامير صرق وكان مختفيا من حين خامر تنم نائب الشام فلما ظهر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بحلب فسافر الى حلب من يومه وتوفى فى هذه السنة من الاعيان قاضى القضاة مجد الدين الكنانى الحنفى وقاضى القضاة برهان الدين العسقلانى الحنبلى والشيخ اسلام الاصبهانى الحنفى والامير بهادر الشهابى مقدم المماليك السلطانية وغير ذلك من الاعيان ۞ (ثم دخلت سنة ثلاث وثمانمائة) فيها حضر مملوك من عند نائب حلب وأخبر بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى سيواس وان ابن تمرلنك فى الجاليش ومعه عساكر عظيمة وان ابن عثمان والقان أحمد بن أويس وقرايوسف توجهوا الى مدينة برصا وتركوا بلادهم من خوفهم من تمرلنك وقد أشيع عنه أنه لما دخل الى سيواس نهبها وقتل أهلها وكان يحفر للناس حفيرة ويدفنهم فيها وهم بالحياة وكان يحرق بعضهم بالنار وكانت فتنة تمرلنك أول فتنة وقعت على رأس القرن الثامن ثم جاءت الاخبار من حلب بان تمرلنك قد ملك البهسنا وعنتاب وقد وصل الى الباب وبزاعا بالقرب من حلب ثم ان تمرلنك أرسل الى نائب حلب قاصدا ومعه مكاتبات من عند تمرلنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب فلما سمع نائب حلب ذلك حنق وأمر بضرب أعناق قصاد تمرلنك فعند ذلك اضطربت أحوال مدينة حلب وحصنوا اسوارها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين فلما بلغ تمرلنك ما فعلوا بقصاده زحف الى قرية من قرى حلب يقال لها جبلان واحتاط بمدينة حلب ونهب ما حولها من الضياع فلما كان يوم السبت حادى عشر ربيع الاول من سنة ثلاث وثمانمائة خرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم وأوقعوا مع تمرلنك فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى وقد دهمتهم عساكر تمرلنك كامواج البحار المتلاطمة ومالت عليهم كتائب الجنود المتزاحمة فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مدبرين وأقبلوا نحو المدينة مهزمين وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة وحل بهم من البؤس كل داهية طامة وكان قد احتمى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والاطفال فدخلوا اليهم

وأسروهم وقرنوهم بالحبال وأسرفوا فى قتل النساء والرجال وصارت الابكار تفتض فى المساجد ولم يراعوا حرمة المساجد فلم يرثوا البكاء الرضع ولم يخشوا دعاء الركع وقد صارت المساجد كالجزرة من القتلى فلا حول ولا قوة الا بالله واستمر هذا الامر الشنيع يتزايد من يوم السبت الى يوم الثلاثاء فلما رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب نزل من القلعة هو وبقية النواب وأخذوا فى رقابهم مناديل وتوجهوا الى تمرلنك يطلبون منه الامان فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل أحمر وألبسهم تيجان مذهبة وقال لهم أنتم صرتم نوابى ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة فاستنزلوا من كان بها وهم فى قيود واستمر مقيما على حلب نحو شهر وعسكره ينهبون القرى التى حول المدينة ويقطعون الاشجار التى بها ويهدمون البيوت وقد أسرفوا فى القتل ونهب الاموال وصارت الارجل لا تطأ الا على جثة انسان لكثرة القتلى حتى قيل انه بنى من رؤس القتلى عشرة مآذن دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعا وصعودها فى الهواء مثل ذلك وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح وتركوا أجسادا لقتلى فى الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش فكان عدة من قتل فى هذه الواقعة من أهل حلب من صغار وكبار ونساء ورجال نحوا من عشرين ألف انسان هذا خارج عما هلك من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة وقت الهزيمة وهلك من الجوع والعطش أكثر من ذلك فلما ملك تمرلنك مدينة حلب والقلعة نهب جميع ما فى المدينة والقلعة ثم ان تمرلنك أقام على حلب نحو شهر ثم رحل عنها بعد ما جعلها خاوية على عروشها وقد تعطلت فى مدة هذه المحاصرة عن الاذان والاقامة وعن صلاة الجمعة ۞ ومما يحكى عن أخبار عسكر تمرلنك فيما فعلوه بعسكر حلب قيل كانوا يطؤن الابكار فى محراب المساجد وآباؤهن يشاهدون ذلك بعينهم ولقد حكى من أسر معهم أنهم من حين استولوا على حلب الى حين رحلوا عنها لم يسمع فى عسكرهم أذان وانهم يجامعون النساء فى المحيض ولا يعاودون الوطء الا بعد اغتسال ولو كان فى قلب الشتاء بالماء البارد وقيل ان تمرلنك كان يحتجب عن عسكره نحوا من سبوعين فلا يجتمع على أحد من عسكره وينعكف على شرب الخمور ففى مدة انعكافه تنهب عساكره البلاد ويفسقون فى أهلها فلم يجدوا من يمنعهم عن ذلك ولا يردهم فيستمروا على ذلك ولما كان يوم السبت خامس عشرى ربيع الاول من سنة ثلاث وثمانمائة حضر مملوك بكلمش العلائى وأخبر بما قد جرى من تمرلنك وبما وقع فى حلب وبما جرى على النواب فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية مما جرى فى البلاد الشامية فعين السلطان فى يومه الامير سودون بن زاده والامير اينال حطب رأس نوبة ثانى فتوجهوا الى السفر من يومهم لكشف الاخبار عن صحة ذلك ثم جاءت الاخبار عقيب ذلك بان تمرلنك لما أن رحل

عن حلب الى حماه فعل بأهلها كما فعل بأهل حلب من القتل والنهب كما تقدم من أفعاله الشنيعة ثم حضر نجاب من عند نائب الشام وأخبر بان جاليش تمرلنك قد وصل الى الشام عند جبل الثلج فلما تحقق السلطان ذلك علق الجاليش ونادى للعسكر بالعرض فعرض وأنفق على العسكر وبرز خيامه الى الريدانية فاضطربت فى ذلك الوقت أحوال الديار المصرية وماجت القاهرة بأهلها فكان كما قيل فى المعنى

كم لى أنبه مقلة من نائم * لم يهد غير سروره الاحلام
فكأنه اذا جئته مستصرخا * طفل يحرك مهده فينام

قيل لما علق السلطان الجاليش بسبب خروجه الى تمرلنك ركب شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى والقضاة الاربعة وحاجب الحجاب ووالى القاهرة ونادوا فى الشوارع بان النفير عام بسبب قتال تمرلنك فاضطربت أحوال القاهرة فى ذلك اليوم جدا وكان الملك الناصر كلما طرقته هذه الاخبار يتغافل عنها ويتشاغل بشرب الراح وحب الملاح حتى تمكن تمرلنك من البلاد وعم فعله من الفساد فعند ذلك خرج الملك الناصر وطلب ونزل من القلعة فى يوم الاحد ثالث ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانمائة فخرج فى موكب عظيم وكان صحبته أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الاربعة وهم قاضى القضاة الشافعى صدر الدين المناوى وقاضى القضاة جمال الدين يوسف الملطى الحنفى وقاضى القضاة نور الدين بن الجلال المالكى وقاضى القضاة موفق الدين الحنبلى وخرج معه سائر الامراء من المقدمين والاربعينات والعشراوات وسائر العسكر فأقام فى الريدانية يومين ثم عين ستة من الامراء المقدمين يتقدمون جاليش العسكر وهم الاتابكى بيبرس الركنى والمقر السيفى بكتمر أمير سلاح والمقر السيفى نوروز الحافظى رأس نوبة النوب والمقر السيفى اقباى الطرنطاى حاجب الحجاب والمقر السيفى اينال باى بن قجماس والمقر السيفى يلبغا الناصرى ثم ان الملك الناصر رحل من الريدانية وترك المقر السيفى تمراز الناصرى أمير مجلس نائب الغيبة بمصر الى أن يحضر السلطان والامير جكم أحد المقدمين وجماعة من الحجاب والمماليك السلطانية فلما وصل السلطان الى غزة جاءت الاخبار الى القاهرة بأن السلطان لما دخل الى غزة خلع على المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب الشام وخلع على المقر السيفى اقبغا الجمالى واستقر به نائب طرابلس وخلع على المقر السيفى تمربغا المنجكى واستقر به نائب صفد وخلع على المقر السيفى طولو بن على شاه واستقر به نائب غزة وخلع على الامير صدقة بن الطويل واستقر به نائب القدس الشريف ثم ان السلطان رحل من غزة فى يوم الاثنين خامس عشر ربيع الآخر وقصد التوجه الى الشام ولما رحل السلطان من غزة أرسل يطلب من نائب الغيبة ألف فرس وألف جمل يتقوى بها العسكر ثم جاءت الاخبار بأن الامير ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكر كثيرة من التركمان وجاء الى حلب وطرد من بها من عسكر تمرلنك الذين

نزلوا بحلب وأرسل يكاتب السلطان بذلك ثم جاءت الاخبار من دمشق بان تمرلنك نازل
بالقرب من سلمية وانه أرسل جماعة من عسكره الى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق فدخلوا
فى وادبين جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب
والحجارة فولوا مدبرين ثم ان السلطان دخل الى دمشق فى يوم الخميس سادس جمادى الاولى
ونزل بالميدان الكبير وجلس بالقصر الابلق وحكم بين الناس وصلى الجمعة بدمشق ثم
برز خيامه الى قبة يلبغا فلما كان وقت الظهر جاء جاليش تمرلنك من تحت جبل الثلج
وكانوا نحو ألف فارس فبرز اليهم جاليش السلطان وكانوا نحوا من مائة فارس فاوقعوا مع
عسكر تمرلنك واقعة قوية فانكسر جاليش تمرلنك وولوا مدبرين ثم فى تلك الليلة جاء
جماعة من امراء تمرلنك ومن عسكره ودخلوا تحت طاعة السلطان وأخبروا بان ولد
تمرلنك كان فى الجاليش فقتل وكذلك صهره وقد حصل لتمرلنك على ولده غاية الحزن
فخلع السلطان على أمراء تمرلنك وأنزلهم بدمشق ثم حضر عند السلطان الامير نعير بن
حيار أمير آل فضل وجمع من العربان مالا يحصى عددهم من عربان حارثة وغير ذلك من
القبائل ثم بلغ السلطان بان عسكر تمرلنك قد تغلبوا عليه ومات من عسكره جماعة
كثيرة تزيد عن خمسة آلاف انسان من الثلج الذى ينزل من الجبل وصار يحضر الى السلطان فى
كل يوم جماعة من عسكر تمرلنك ويدخلون تحت الطاعة والتف على السلطان جماعة كثيرة
من العربان وغيرهم حتى قيل انه تكامل عنده نحو اثنى عشر ألف انسان خارجا عن عسكر
مصر وكانت طوالع الملك الناصر فى مبتداها سعيدة والنصر لائح عليه ولكن كما قيل فى المعنى

يريد المرء أن يعطى مناه * ويأبى الله الا ما أرادا

فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة حضر السلطان الملك
الناصر فرج الى الديار المصرية على حين غفلة وطلع الى القلعة وحضر صحبته الخليفة
المتوكل وجماعة من النواب وهم نائب الشام ونائب صفد ونائب غزة وغالب أمراء
دمشق وحضر مع السلطان من العسكر نحو ألف مملوك وحضر مع كل أمير مملوكان من
مماليكهم وليس معهم برك ولا خيول ولا قماش وكان سبب حضور السلطان على هذا
الوجه أن عسكر السلطان بعد ان أوقع مع عسكر تمرلنك مرتين وهو ينكسر أرسل
تمرلنك يطلب من السلطان الصلح وأرسل الى السلطان أميرا من أمرائه يقال له الامير حسين
وأرسل معه ابن بنته يمشون بينه وبين السلطان فى أمر الصلح فلما أن حضروا الى السلطان
خلع عليهم وأحسن اليهم وأرسل تمرلنك يسأل السلطان أن يطلق له قريبه أطلمش الذى
أسر فى أيام الملك الظاهر برقوق كما تقدم وأن تمرلنك يطلق من عنده من الاسرى جميعهم
وصارت الرسل تتردد بين السلطان وبين تمرلنك مرارا عديدة وآخر ذلك كان ليلة الجمعة رابع

عشر جمادى الآخرة فاقام رسل تمرلنك عند السلطان الى ثلث الليل واتفق معهم على أنه
فى باكر النهار ينعقد الصلح بينهما فبلغ السلطان أن العسكر تقلبوا عليه فى تلك الليلة وهرب
منهم جماعة من الامراء وقصدوا بذلك التوجه الى نحو الديار المصرية وكان الذى قد تسحب
من الامراء تحت الليل الامير سودون الناصرى الطيار والامير قانى باى العلائى والامير
أحمد ابن الشيخ على والامير جقمق ومن الخاصكية يشبك العثمانى ويشبك الساقى الاعرج
وقجق الحافظى وبرسبغا وطراباى بن عبد الله وجماعة من المماليك السلطانية نحو من أربعين
مملوكا فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة قام الامراء على السلطان وأركبوه غصبا
وخرجوا به من دمشق قرب التسبيح وقد جعل الله لكل شئ سببا حتى ينفذ القضاء والقدر
فلما خرج السلطان والامراء من دمشق طلعوا على عقبة قدوم ونزلوا على ساحل البحر
المالح وتوجهوا الى صفد فأخذوا نائب صفد معهم وتوجهوا الى غزة فلما دخل
السلطان الى غزة وجد الامراء الذين تسحبوا من دمشق هنالك فتوجهوا مع السلطان الى
مصر قيل وكان سبب تسحب الامراء من دمشق أن جماعة تقلبوا هنالك على الملك الناصر
وخرجوا من الشام وقصدوا أن يتوجهوا الى مصر ويسلطنوا الامير لاجين الجركسى
فلما تحقق الامراء ذلك قاموا على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق فلما
دخل السلطان الى القاهرة رسم للامير يلبغا السالمى استادار العالية بأن يشرع فى عمل برك
للسلطان وكسوة للامراء والخليفة فانهم خرجوا من الشام ولا برك ولا قماش فشرع
الامير يلبغا السالمى فى ذلك ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يخرج الى الشام ثانى مرة
فعلق الجاليش ورسم بأن يأخذ من بلاد المقطعين على العبرة القديمة وأن يأخذ من أملاك
القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد ومن الرزق عن كل فدان عشرة دراهم ومن
البساتين عن كل فدان مائة درهم ثم صاروا يفتحون حواصل التجار أصحاب الاموال
ويزعمون أن السلطان يقترض أموال التجار على ذمته الى أن يجى له مال من البلاد فيعيد
لهم ما أخذه من المال فكانوا يكبسون حواصل التجار فان وجدوا صاحب الحاصل
أخذوا من ماله النصف وتركوا له النصف وان لم يجدوا صاحب الحاصل أخذوا جميع
ما فى الحاصل من قماش أو مال ولم يتركوا للتجار شيأ ثم أخذ من أوقاف الجوامع والمساجد
أجرة شهر واحد حتى من أوقاف البيمارستان المنصورى فحصل للناس من ذلك غاية
الضرر وصاروا فى التراسيم والمصادرة وكان المتكلم فى ذلك الامير يلبغا السالمى الاستادار
فلما تكامل جبى الاموال تكلم الناس فى حق يلبغا السالمى بأنه أخذ لنفسه فى هذه الحركة
من الناس أضعاف ما أورده للسلطان فلما كثر الكلام فى حقه قبض عليه
السلطان وخلع على المقر السعدى سعد الدين ابراهيم بن غراب واستقر به استادارا

فصار

فصار ناظر الجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريفة واستادار العالية ثم ان السلطان سلم اليه الامير يلبغا السالمي وكذلك الصاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة سلمه الى ابن غراب أيضا ثم ان السلطان عرض أجناد الحلقة والبحرية فكل من يكون قادرا على السفر يأمره بالسفر وكل من يكون عاجزا عن السفر يقيم له بديلا أو يأخذ منه نصف خراج اقطاعه عن سنة كاملة وفرع أشياء كثيرة من ابواب هذه المظالم فجمع من ذلك جملة كبيرة وقوى عزمه على العود الى الشام ليوقع مع تمرلنك مرة أخرى وينفق ما جمعه من المال على العسكر ثم أخذ في أسباب جمع عربان فحضر كاشف البحيرة وصحبته ستة آلاف فارس من عربان البحيرة وحضر شيخ العرب ابن بقر وصحبته ألفان وخمسمائة فارس من عربان الشرقية وحضر شيخ بني وائل وصحبته ألف وخمسمائة فارس من بني وائل وجاءت الاخبار من عند الامير نعير شيخ آل أفضل أنه قد جمع خمسة آلاف فارس من عربان جبل نابلس ثم صار العسكر الذي انقطع في الشام يدخلون الى مصر وهم في أنحس حال من العري والجوع فصار السلطان ينعم على كل مملوك بجامكية شهرين معجلا وينعم عليه بألف درهم خارجا عن الجامكية ليرقع أحوالهم وقد شرع في أمر النفقة عليهم والعود الى السفر نحو الشام هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد حضوره من دمشق ❁ وأما ما كان من أمر أهل دمشق مع تمرلنك بعد خروج السلطان منها فانه خرج الى الشام في ليلة الجمعة حادي عشرى جمادى الاولى من السنة المذكورة فأصبح الناس في يوم السبت ماجين في بعضهم وغلقوا أبواب المدينة وركبوا على الاسوار وصاروا يترامون بالنشاب على عسكر تمرلنك وصار أهل دمشق يسحبون بعضهم بعضا على القتال فكان بينهم في أول يوم واقعة عظيمة فقتل في ذلك من عسكر تمرلنك نحو ألفي انسان فلما كان يوم الاحد أرسل تمرلنك يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم حتى يمشي بينه وبين أهل دمشق في الصلح فلما أتى قاصد تمرلنك بهذه الرسالة اشتور أهل دمشق فيمن يرسلوه الى تمرلنك فوقع الاختيار أن يرسلوا اليه القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي فانه كان انسانا طلق اللسان يعرف بالتركي وباللسان العجمي فارخوه من أعلا السور بسرياق ومعه خمسة أنفس من أعيان دمشق فغاب عند تمرلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بان تمرلنك تلطف معه في القول وقال له هذه بلد فيها الانبياء وقد أعتقتها لهم وذكر عنه أنه قد زار قبر أم حبيبة احدى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما زاره قال يا أهل الشام مثل هذا القبر يكون بلا قبة أنا ان شاء الله تعالى أبني عليه قبة وذكر عنه أنه كان في مجلسه كثيرا ما يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه وأن السبحة لا تزال في يده دائما كما قال ابراهيم المعمار

قد بلينا بامير ٭ ظلم الناس وسبح ٭ فهو كالجزار فيهم ٭ يذكر الله ويذبح

وشرح ابن مفلح عن تمرلنك محاسن كثيرة وجعل يخذل أهل الشام عن قتال تمرلنك ويرغبهم

فى طاعته فصار أهل البلد فرقتين فرقة ترى ما رآه ابن مفلح وفرقة ترى محاربته ولم تسمع قول ابن مفلح وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح ولم يرجعوا عن قتال تمرلنك وهم الجم الغفير من أهل دمشق فباتوا على ذلك ليلة الاثنين فلما أصبحوا يوم الاثنين غلب رأى ابن مفلح وأصحابه على تلك الطائفة المخالفة لذلك ثم ان ابن مفلح قصد أن يفتح باب النصر الذى بدمشق فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم ان فعلتم ذلك أحرقت البلد جميعها ثم ان ابن مفلح أخذ أعيان أهل دمشق من العلماء والقضاة والمشايخ وتوجهوا الى تمرلنك من أعلى السور بسرياقات فلما توجهوا الى تمرلنك باتوا فى وطاقه تلك الليلة وأضافهم فلما أصبحوا رجعوا الى دمشق وعلى أيديهم مثال من عند تمرلنك مكتوب فيه تسعة أسطر يذكر فيها أمانا لاهل دمشق فقرئ ذلك المرسوم على أهل دمشق فى جامع بنى أمية ففرح أهل دمشق بذلك وفتحوا باب المدينة وهو الباب المسمى بالصغير فحصل لهم طمأنينة وما يعلم ما فى القلوب الا الله وقد قيل فى المعنى

لقد ضرنى من كنت أرجو به نفعا * وقد ساءنى أفعاله خلتها أفعى
اذا ما بدا لى ضاحكا زدت خيفة * وفى ضحكة الافعى فلا آمن اللسعا

فلما فتحوا باب دمشق دخل الى المدينة أمير من أمراء تمرلنك وجلس على الباب وأظهر أنه يحفظ المدينة من أذى عسكرهم ثم ان تمرلنك أرسل خلف ابن مفلح وقرر معه بأن يجبى له من أهل دمشق ألف ألف دينار فلما رجع ابن مفلح من عنده شرع فى استخراج ذلك من أهل دمشق فلما كملت تلك الاموال وحملت الى تمرلنك حنق ولم يرض بذلك وقال لابن مفلح أنا قررت معكم أن تجمعوا من دمشق ألف ألف تومان والتومان عندنا كل تومان عشرة آلاف ألف دينار فرجع ابن مفلح من عند تمرلنك بخفى حنين فلما رجع ابن مفلح الى دمشق أطلق بأهلها النار واستخرج من أهلها الاموال بالضرب والعصارات فأخذ على رأس كل انسان من كبير وصغير عشرة دراهم شامية وفرض على أوقاف الجوامع والمساجد والزوايا أجرة ثلاثة أشهر فعند ذلك تزايدت البلايا وعظمت الرزايا فى استخراج الاموال من الناس وفى مدة هذه المحاصرة عزت الاقوات بدمشق حتى بيع كل مد من القمح باربعين درهما شامية وفى هذه المدة تعطلت صلاة الجمعة والخطبة بدمشق ونزل فى جامع بنى أمية أمير من أمراء تمرلنك يقال له شاه ملك فدخل بحرمه فى الجامع وأغلق بابه وأخذ بسط الجامع وحصره فستر بها على البوايك وصاروا يشربون الخمور فى الجامع ويضربون بالطنبور ويلعبون بالكعاب وفى هذه المدة تعطلت الصلوات الخمس من مساجد دمشق وتعطل الاذان والبيع والشراء وتعطلت الاسواق وصار عسكر تمرلنك يدخلون المدينة فى كل يوم قليلا قليلا حتى امتلأت منهم المدينة وصاروا يحاصرون القلعة

أشد المحاصرة فلما رأى نائب القلعة عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوما فملكوها واحتاطوا على كل ما فيها من صامت وناطق واستولوا على المدينة بأسرها ثم ان ابن مفلح جمع الاموال ثانيا وأحضرها بين يدى تمرلنك فقال لابن مفلح هذه بحسابنا ثلاثة آلاف ألف دينار وبقى عليكم سبعة آلاف ألف دينار وكان تمرلنك أول ما فرض على أهل دمشق القدر الاول وهو ألف ألف دينار فقرر مع ابن مفلح ان هذا القدر يكون خارجا عما تركه العسكر والامراء لما رحل السلطان من دمشق من برك وقماش وسلاح ودواب وغير ذلك فلما رجع ابن مفلح من عند تمرلنك أمر المنادى بان ينادى فى دمشق بان كل من كان عنده ودائع للامراء والعسكر والسلطان يحضر ذلك من غير تأخير فامتثل الناس ذلك وأحضروها بين يدى تمرلنك فقال لابن مفلح قد بقى عليك أن تجمع لنا أموال التجار الغائبين وأعيان البلد فجمع له ذلك وأحضره بين يديه فقال لابن مفلح قد بقى عليك أن تجمع لنا كل دابة فى البلد من فرس وبغل وجمل وحمار فلما رجع ابن مفلح من عنده جمع كل دابة فى البلد فكان عدتها اثنى عشر ألف دابة فلما أحضر ذلك بين يديه قال لابن مفلح اجمع لنا ما فى البلد من سلاح من جليلها لحقيرها فلما جمع له ذلك وأحضره بين يديه قال له قد بقى عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها والخطط فرجع من عنده وكتب له ذلك وأحضره اليه فلما قدمت اليه القوائم وعلم أن الطلب قد انتهى قال لابن مفلح قد بقى تكملة ما تقرر عليه الحال من تفريدة المال الذى وقع عليه القرار وهو سبعة آلاف ألف دينار فقال له ابن مفلح لم يبق فى البلد لا درهم ولا دينار فخنق من ابن مفلح وقبض عليه وعلى أصحابه وأودعهم فى الحديد وآخر الطب الكى فكان كما قيل فى المعنى

ان الملوك ظروف الصبر داخلها * وفوق أفواهها شئ من العسل

تحلو لذائقها حتى اذا انكشفت * له تبين ما تحويه من دغل

ثم ان تمرلنك فرق تلك الاوراق التى بأسماء الحارات على أمرائه فتقاسموها ثم دخل الى المدينة السواد الاعظم فنزل كل أمير من أمرائه فى حارة وطلب سكانها وفرض عليهم من المال ما لا يقدروا على شئ منه فكان الرجل يقام على باب داره وهو فى أنحس هيئة و يقولون له هات ما عليك من المال فيقول ما عندى شئ من المال فيضرب ضربا شديدا فيخرج جميع ما فى بيته من قماش ونحاس وغير ذلك حتى يخرج أولاده ونسائه وعياله فتوطأ نساؤه وبناته بين يديه وهو يشاهد ذلك بعينه فتفتض أبكار بناته ويلاط بولده بين يديه فاذا اقضوا من الوطء أوطارهم أوجعوهم بعد ذلك ضربا هذا وصاحب البيت قائم يضرب فى وسط داره ولقد تنوعوا فى عذابهم أنواعا فكان أحدهم يشد رأس الرجل بحبل قنب ثم يلويه ليا عنيفا حتى يغوص ذلك الحبل فى رأسه ثم يؤخذ من تحت ابطيه وتربط ابهام يديه

من وراء ظهره ثم يلقى على ظهره ويغم بخرقة فيها رماد سخن أو يعلق الرجل من ابهام رجليه في سقف الدار ثم يوقد واتحته النار حتى يموت من ذلك العذاب أو يسقط من الحبل في النار ففعل عسكر تمرلنك بأهل دمشق من هذا النمط وأمثاله ماتشيب من سماعه النواصي فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوما وهم على ماذكرناه من أنواع هذا العذاب فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سنة ثلاث وثمانمائة دخل في ذلك اليوم الى دمشق عسكر كامواج البحر وهم مشاة وبأيديهم سيوف مسلولة فنهبوا ما بقي في المدينة وأسروا النساء والشباب والرجال وساقوهم في حبال لايعلمون أين يذهبون بهم ثم تركوا الاطفال الرضع ومن عمره أربع سنين والشيوخ الفانية والعجائز بالمدينة وكان من جملة من أسروه في هذه المعركة قاضي القضاة صدر الدين المناوى الشافعي وغيره من العلماء والفقهاء وقضاة دمشق وأعيان دمشق من التجار وغيرها وأسروا جماعة كثيرة من عسكر مصر وأمرائها وقضاتها وغير ذلك وكان ممن أسره تمرلنك من النواب المقر السيفي دمرداش نائب حلب والمقر السيفي سودون قريب المقام الشريف نائب الشام والمقر السيفي شيخ المحمودى نائب طرابلس والمقر السيفي دقماق المحمدى نائب حماه وأسر من العساكر الحلبية والشامية ومن أمرائهم مالا يحصى عددهم فقيدهم وزنجرهم وساقهم قدامه وقيل انه لما توجه الى بلاد ابن عثمان حاصرها وانكسر ابن عثمان وهو بايزيد بن مراد فلما أسره جعله في قفص من حديد وبقي يجيب عليه في البلاد التي يدخلها وأسر جماعة من ملوك الهند وأخرب بلاد الشرق ونهب ما بها فلما كان يوم الخميس مستهل شهر شعبان أمر تمرلنك باحراق مدينة دمشق فأضرم بها النار حتى صارت ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر وأحرقوا جامع بني أمية حتى بقي جدارا قائما بغير سقوف ولا أبواب ولا رخام وأحرقوا غالب جوامع دمشق ومساجدها وأحرقوا الاسواق التي بها والقياسر بعدما نهبوا ما فيها وأحرقوا غالب حاراتها التي صارت لا تعرف كما قيل في المعنى

وأمرّ بالاوطان والسكن الذى * قد كنت أعهده بخير وافر
لم ألق غير البوم فيها ساكنا * تباله من طير نحس واكر

وقد أصبحت دمشق بعد البهجة والسرور والنضرة والحبور اطلالا بالية ورسوما خالية قد خوت على عروشها وأقفرت من زخرفها ونقوشها لاترى بها دابة تدب ولا حيوان يهب سوى جثث قد احترقت وصور في الثرى قد تعفرت وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ومغنما للكلاب ونهبا لا يستهدى اللبيب فيها الى داره ولا يفطن الذكي الى محل سكنه من مزاره فانا لله وانا اليه راجعون لعظم هذه المصائب وشناعة هذه النوائب فلم توقظنا حوادث الايام ونحن في ليل الغفلة نيام فلا نعتبر بما جرى للانام ولا نرجع عن ذنوبنا

والاّنام وقد قال القائل فى المعنى

ان ترمك الاقدار فى أزمة * أوجبها أجرامك السالفه

فادع الى ربك فى كشفها * ليس لها من دونه كاشفه

وقد هلك فى هذه النازلة من الناس مالا يحصى عددهم جماعة بالقتل وأنواع العذاب وجماعة بالجوع والعطش فى مدة هذه المحاصرة لعدم الاقوات فكانت هذه الفتنة من أعظم فتن قرن الثمانمائة (روى) فى بعض الاخبار عن موسى عليه الصلاة والسلام انه قال يارب أنت فى السماء ونحن فى الارض فما علامة غضبك من رضاك فأوحى الله تعالى اليه ياموسى اذا استعملت عليكم خياركم فهى علامة رضائى واذا استعملت عليكم شراركم فهى علامة سخطى فلا تشتغلوا بسب الملوك وتوبوا الى أعطف عليكم قلوب الملوك انتهى فلما كان يوم الجمعة ثانى شهر شعبان فيه رحل تمرلنك عن دمشق بعد ما فعل الذى فعله فاخذ عسكره وخرج من دمشق وكانت مدة اقامته بدمشق الى أن رحل عنها نحو ثمانين يوما قيل ان تمرلنك لما أراد أن يرحل عن دمشق جمعوا له أطفال المدينة الذين أسر أهلهم فكانوا مابين ابن خمس سنين الى شهر وشهرين فوكب تمرلنك وأتى الى ذلك المكان الذى هم به خارجا عن المدينة فلما أتى اليهم وقف ساعة وهو ينظر اليهم ويتأملهم ثم قال للعسكر سوقوا عليهم بالخيل فساقوا بالخيل فماتوا أجمعين وكانوا نحو عشرة آلاف طفل فلما رجع لامه أمراؤه على ذلك فقال ما نزل على قلبى فيهم رحمة فكان تمرلنك يقول أنا غضب الله فى أرضه يسلطنى على من يشاء من خلقه فكان حال الاطفال مع تمرلنك كما قيل فى المعنى

وجرم جره سفهاء قوم * فحل بغير جانيه العذاب

۞ ولما رحل تمرلنك عن دمشق صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون مامعهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس فى وسطهم فجرى عليهم من العربان والعشير مالم يجر عليهم من عسكر تمرلنك فكان أكثرهم ينزل من البحر المالح ويجىء من جهة دمياط فيدخلون الى مصر وهم فى أنحس حال وقد ذهبت حرمة المملكة ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة فعزم السلطان الناصر على العود الى دمشق ثانيا ويقع مع تمرلنك مرة أخرى ثم حضر الطنبغا العنبرى وأخبر الملك الناصر بأن تمرلنك رحل عن دمشق وهو مريض وقد طلعت له جمرة فى جسده وقد تألم لها فلما تحقق السلطان ذلك أبطل أمر التجريدة ولطف الله تعالى بالناس كما قيل فى المعنى

اصبر قليلا فبعد العسر تيسير * وكل شئ له وقت وتقدير

وللمهيمن فى أحوالنا نظر * وفوق تدبيرنا لله تدبير

❁ ثم حضر سودون نقيب قلعة دمشق وعلى يده كتاب من عند تمرلنك للسلطان وهو يعتذر له عما قد جرى وأرسل يطلب قريبه اطلمش الذى كان قد أسر فى أيام الملك الظاهر برقوق وقد تقدم سبب ذلك وأنه اذا حضر اطلمش عنده يطلق من عنده من الاسرى فلما حضر كتاب تمرلنك الى السلطان جمع الامراء واستشارهم فى ذلك وما يصنع فأشار وا عليه بأن يطلق أطلمش ويرسله اليه فرسم باطلاقه وكان فى البرج بالقلعة ثم عين معه الامير قانباى النوروزى اغات سودون بقجة وعين معه الامير شهاب الدين بن غلبك من أمراء حلب فتوجهوا الى تمرلنك وصحبتهم أطلمش وقد كساه السلطان وأحسن اليه فلما وصلوا الى تمرلنك أكرمهم وقبل مراسيم السلطان وتفارش وبكى واعتذر عما وقع منه وقال هذا كان مقدرا وقيل كان تمرلنك مع هذه السطوة العظيمة أعرج بوركه الايمن وكان اذا أراد أن يركب تحمله الرجال على أكتافهم حتى يركب وكان قصير القامة غليظ الجسد مستدير اللحية قد وكزه الشيب وكان ثقيل الحركة ولكن كان له سعد خارق حتى جرى منه ما جرى وملك البلاد وقهر العباد ونهب الاموال وأسر النساء والرجال ويتم الاطفال وقد قيل فى المعنى

رزق الضعيف بعجزه * فاق القوى الاغلبا
فالنسر يأكل جيفة * والنحل يأكل طيبا

فلما تسلم تمرلنك أطلمش أطلق من كان عنده من الاسرى جميعهم وأرسلهم صحبة قانباى النوروزى وأرسل للسلطان هدية صحبة الخواجا مسعود الكججاوى وكان من جملة الهدية فيل عظيم الخلقة وعلى ظهره صندوق خشب يجلس فيه نحو عشرة أنفس يضربون بالكوسات وأرسل مع الفيل أشياء كثيرة جليلة غير ذلك فلما دخل قانباى النوروزى الى القاهرة كان له يوم مشهود ودخل لابسا خلعة تمرلنك وهى مخمل أحمر مزهر وعلى رأسه تاج مخمل مذهب وقدامه الاسرى الذين كانوا عند تمرلنك وقد خلع عليهم فلما رأى أهل مصر ذلك الفيل تعجبوا من خلقته غاية العجب ولما عاد قانباى النوروزى من عند تمرلنك كان يدعى قانباى التمرلنكى ثم بعد مدة خلع السلطان على قانباى المذكور واستقر به نائب الكرك فأقام هناك مدة يسيرة ثم نقله الى نيابة الاسكندرية فلما سكن أمر تمرلنك وتحقق رجوعه الى بلاده عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى نوروز الحافظى وجعله مشير الدولة ومدبر المملكة فعظمت حرمته على الاطلاق ونفذت كلمته فى الآفاق وخلع على المقر السيفى تغرى بردى واستقر به نائب الشام عوضا عن سودون قريب السلطان فلما خلع عليه رسم له بأن يخرج الى الشام من يومه ليعمر ما أفسده تمرلنك من دمشق فخرج على جياد الخيل من غير طلب ثم فى أثناء ذلك حضر المقر السيفى شيخ المحمودى وكان أسيرا عند تمرلنك فهرب من عنده وحضر الى القاهرة فلما حضر فرح به السلطان

وخلع عليه واستقر به نائب طرابلس على عادته فخرج اليها من يومه بسبب عمارة البلاد ثم فى أثناء ذلك حضر المقر السيفى دقماق المحمدى نائب حماه وكان أميرا عند تمرلنك فهرب من عنده وحضر الى القاهرة فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به نائب حماه على عادته ورسم له السلطان بأن يخرج من يومه لعمارة ما أفسده تمرلنك من حماه فخرج على جرائد الخيل من غير طلب ثم فى أثناء ذلك خلع السلطان على الامير تمربغا المنجكى واستقر به نائب صفد وخلع على الامير تنكز الحطى واستقر به نائب بعلبك وخلع على الامير طولو ابن على شاه واستقر به نائب ثغر الاسكندرية عوضا عن قانباى النوروزى وأنعم على قانباى النوروزى بتقدمة ألف بمصر وفيها فى يوم الخميس تاسع عشرى شعبان خلع السلطان على القاضى ناصر الدين الصالحى واستقر به قاضى قضاة الشافعية بمصر عوضا عن قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى بحكم أسره عند تمرلنك وخلع على القاضى أمين الدين الطرابلسى الحنفى واستقر به قاضى قضاة الحنفية بمصر عوضا عن القاضى جمال الدين الملطى الحنفى بحكم وفاته فى البلاد الشامية وخلع على القاضى جمال الدين الاقفهسى المالكى واستقر به قاضى قضاة المالكية بمصر عوضا عن نور الدين بن الجلالى بحكم وفاته وخلع على القاضى مجد الدين بن سالم الحنبلى واستقر به قاضى قضاة الحنابلة بمصر عوضا عن القاضى موفق الدين الحنبلى بحكم وفاته ثم ان القاضى جمال الدين الاقفهسى المالكى أقام فى القضاء الى ثالث عشرى شهر رمضان وعزل عنه وتولى عوضه القاضى ولى الدين بن خلدون المالكى المغربى وفيها خلع السلطان على المقر السيفى يشبك الشعبانى واستقر به داودار كبير ومشير المملكة مع نوروز الحافظى وخلع على الامير يشباى بن باكى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن اقباى الطرنطاى وخلع على الامير تمر البريدى واستقر به مهمندارا عوضا عن الطنبغا المعروف بسيدى وأنعم على الطنبغا المذكور بتقدمة ألف بحلب ۞ ومما وقع من الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الاحد ثامن شوال نزل من القلعة الامير قطلوبغا الكركى وخشداشه الامير اقباى الخازندار فلما وصلوا الى سوق الخيل خرج اليهم جماعة كثيرة من المماليك السلطانية فضربوا قطلوبغا واقباى حتى وقعوا عن خيولهم الى الارض فأما الامير قطلوبغا الكركى فحملوه الى بيته وهو مغمى عليه وأما الامير اقباى الخازندار فهرب ودخل الى بيت الامير يشبك الشعبانى الذى فى الرميلة فلما بلغ السلطان ذلك نادى للمماليك بالعرض وعمل الموكب فطلع سائر الامراء الى القلعة الا الامير يشبك الشعبانى فانه لم يطلع الى القلعة الا بعد العشاء فطلع هو والامير نوروز الحافظى رأس نوبة النوب ومعهما الامير اقباى الكركى فأقاموا فى القلعة ساعة ثم نزلوا الى بيوتهم وقت الاذان فلما أسفر صبح يوم الاثنين تاسع شوال ركب جماعة من الامراء

وهم الامير جكم العوضى والامير قانباى العلائى والامير سودون الناصرى الطيار والامير قرقماس الاينالى والامير تمربغا المشطوب والامير جقمق من دمشق فلبسوا آلة الحرب هم ومماليكهم وطلعوا الى الرميلة فوقفوا فى سوق الخيل ساعة فاجتمع عندهم جماعة كثيرة من المماليك السلطانية والامراء العشراوات فلما تكاملوا دقوا الطبل حربى وتوجهوا الى نحو بركة الحبش فاقاموا هناك وضربوا لهم وطاقا ثم ان الامراء الذين كانوا فى القلعة نزلوا الى بيوتهم واستمر الحال على ذلك الى يوم الاربعاء فطلع الامير يشبك الشعبانى الى القلعة وأقام بها فطلب السلطان بقية الامراء بعد العصر فارسل لهم جداريه وقال لهم اطلعوا الى القلعة وباتوا بها فطلع منهم جماعة كثيرة الا الامير سودون بن على باى أمير اخور كبير فانه نزل من باب السلسلة وبات فى بيته فبلغه ان المماليك السلطانية يريدون قتله فاخذ الخيول الخاص التى بالاصطبل السلطانى وتوجه هو ومماليكه الى نحو الامراء الذين فى بركة الحبش فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله فأشار عليه الامراء بان يجمع العسكر وأن يتوجه اليهم فلما كان يوم الخميس نزل السلطان الملك الناصر فرج الى باب السلسلة وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ودق الكوسات حربى فطلع اليه الامراء الذين هم من عصبته فلما طلعوا عند السلطان ضربوا مشورة فى ذلك فاشار الامراء على السلطان بان يرسل لهم أمانا فارسل اليهم السلطان بعض الامراء فلما اجتمع بهم قالوا والله أما السلطان فأستاذنا وابن أستاذنا ولكن لنا غرماء يسلمهم لنا وهم يشبك الشعبانى واقباى وقطلوبغا الكركى فلما عاد هذا الجواب الى السلطان أرسل اليهم قاضى القضاة الشافعى ناصر الدين الصالحى والامير ناصر الدين بن الرماح لكى يمشوا بين الامراء بالصلح فلما توجه اليهم القاضى تلطف معهم فى القول فابوا من الصلح وقالوا لابد لنا من غرمائنا فرجع قاضى القضاة برد الجواب بالمنع من الصلح فلما سمع الملك الناصر بذلك قال للامير يشبك الشعبانى انفصل أنت وغرماؤك فنزل الامير يشبك من عند السلطان الى بيته فاقام به ساعة ثم عاد وطلع الى السلطان فلم يمكنوه من الدخول عليه ومنع من ذلك فنزل من القلعة ووقف بسوق الخيل ساعة فلم يشعر الا والامراء قد أتوا من باب القرافة فى عسكر عظيم فجاؤا الى سبيل المؤمنين فوقفوا هناك واستمر يشبك الشعبانى واقفا هو ومماليكه فى سوق الخيل ثم انه نادى المماليك السلطانية بان كل مملوك قاتل معه ينعم عليه بعشرة آلاف درهم وفرس فاجتمع عنده بعض مماليك سلطانية فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليهم جماعة من رؤس النوب فضربوهم وشتتوهم من عند يشبك فلما رأى يشبك عين الغلاب هرب من سوق الخيل فلما هرب نهب العوام بيته وبيت قطلوبغا الكركى وبيت أقباى الكركى ثم بعد ساعة أمسك الامير أقباى المذكور والامير

قطلوبغا

قطلوبغا الكركى والامير جركس القاسمى المصارع فقيدوا وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية وأما الامير يشبك الشعبانى فلم يعلم له خبر ثم بعد أيام غمز عليه فأمسك من تربة خوند سمرا التى تجاه باب جامع قوصون الذى هو خارج باب القرافة قيل لما دخل عليه حاجب الحجاب ليمسكه رمى نفسه من حائط عال فوقع على وجهه فانقطع حاجبه فأحضروا له مزينا فخيط له ذلك الجرح ثم قيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية وكان المتسفر عليه الامير سودون الجلب فلما سكنت هذه الحركة عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى جكم العوضى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن يشبك الشعبانى وخلع على المقر السيفى يونس الحافظى واستقر به نائب حماه وخلع على المقر السيفى سودون زاده واستقر به خازندارا كبيرا مقدم ألف وخلع على المقر السيفى أرغون ابن يشبغا واستقر به شاد الشر بخانات وأنعم فى ذلك اليوم على المقر السيفى سودون الناصرى المعروف بالطيار بتقدمة ألف وأنعم على المقر السيفى تمربغا بن باشاه بتقدمة ألف ثم ان السلطان رسم للمماليك بالنفقة فى نظير تعبهم معه وتعصبهم له فى امساك الامراء فوزع هذه النفقة على أعيان المباشرين فألزم المقر السعدى ابراهيم بن غراب بمائة ألف دينار فاختفى فى تلك الليلة مع أخيه المقر الفخرى محمد وقد تحققا بان السلطان يروم القبض عليهما فاختفيا بسبب ذلك فلما اختفيا خلع السلطان على الصاحب علم الدين بن أبى كم واستقر به وزيرا وناظر الخاص عوضا عن سعد الدين بن غراب وخلع على القاضى سعد الدين سبط الصاحب تاج الدين بن الملكى واستقر به ناظر الجيوش المنصورة ثم بعد ذلك جاءت الاخبار من تروجة بان العربان قبضوا على سعد الدين بن غراب وعلى أخيه وأرسلوا يطلبون من السلطان أمانا فكتب لهما السلطان أمانا وكذلك بقية الامراء ولم يكتب لهما الامير جكم العوضى أمانا فعز ذلك على السلطان وفى يوم الاثنين ثانى عشرى ذى الحجة حضر قاصد من عند ابن عثمان صاحب بلاد الروم وهو أبو يزيد بن مراد بك بن عثمان وأرسل معه هدية جليلة للسلطان وكذلك للامراء وأرسل يعرف فى كتابه السلطان بأن يكون على حذر من تمرلنك فانه جمع عسكرا عظيما وقال ما أرجع حتى آخذ مصر وفى يوم الثلاثاء سادس عشرى ذى الحجة وصل المقر السعدى بن غراب وأخوه عند الامير سودون أمير اخور كبير فقابل بهما السلطان فخلع عليهما ونزلا الى بيت الامير جكم العوضى أمير دوادار كبير فلم يمكنهما من الدخول الى بيته ثم بعد أيام قابل بهما الامير سودون زاده وهو صاحب الجامع الذى فى سويقة العزى فلما قابل بهما الامير جكم لم يخاطبهما الخطاب الشرعى فقبلا يده فلم يلتفت اليهما فرادا منه خوفا وكان نفس الملك الناصر يخشى من الامير جكم هذا كما قيل فى المعنى

ان الاسود لتخشى وهى ساكنة * والكلب يخسا العمرى وهو نباح

وفى هذه السنة توقف النيل عن الزيادة ووقع الغلاء بالديار المصرية وتشحطت الغلال حتى بلغ سعرها الى أربعة أشرفية كل اردب وأقام على ذلك أياما ثم ان النيل زاد فى يوم واحد ثمانية وأربعين اصبعا وبقى على الوفاء ستة عشر اصبعا ثم أوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع قال القائل فى المعنى

يانيل مصر كم بذلك بالوفا * أوليتنا بالكسر جبرا دائما

أوفيت قبل الكسر خمس أصابع * كرما فكانت للوفاء خواتما

۞ وأما من توفى فى هذه السنة من الاعيان فهم المقر السيفى سودون نائب الشام مات مأسورا عند تمرلنك وتوفى الامير بجاس النوروزى احد الامراء المقدمين وتوفى قاضى القضاة بدر الدين أبو البقاء السبكى الشافعى وكانت وفاته فى ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة وتوفى قاضى القضاة جمال الدين يوسف الملطى الحنفى وتوفى قاضى القضاة نور الدين بن الجلال المالكى مات فى تجريدة تمرلنك باللجون من طريق الشام لما توجه مع السلطان فى تجريدة تمرلنك وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد النحريرى المالكى مات وهو منفصل عن القضاء وتوفى القاضى شرف الدين بن الدماميني قاضى القضاة بثغر الاسكندرية وتوفى الشيخ الحافظ المحدث علاء الدين بن اللحام الحنبلى الدمشقى وتوفى سيدى أبو بكر ابن الملك الاشرف شعبان وتوفى الصاحب فخر الدين بن مكانس صاحب الاشعار اللطيفة وقيل توفى الصاحب فخر الدين بن مكانس فى دولة الملك الظاهر برقوق كما تقدم والله أعلم وقد تولى الوزارة مرتين وتولى ناظر الجيش وناظر الخاص وباشر وظائف كثيرة وكان من أهل الفضل والعلم وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ومصنعات لطيفة ومن شعره قوله فى الامام على كرم الله وجهه

يا ابن عم الرسول ان أناسا * قد تولوك بالسعادة فازوا

أنت للعلم فى الحقيقة باب * ياماما وماسواك مجاز

وتوفى فى هذه السنة أيضا الشيخ بهاء الدين أبو الفتح أخو الشيخ سراج الدين عمر البلقينى الشافعى وتوفى الشيخ شمس الدين بن المكين المالكى شيخ الحديث الشريف وتوفى سيدى خليل بن تنكز نائب الشام وكان ابن بنت الناصر محمد بن قلاون وتوفى قاضى القضاة بدر الدين الاقفهسى وتوفى الخواجا نور الدين بن الخروبى التاجر الكارمى وهو صاحب المدرسة التى فى مصر بالقرب من شاطئ النيل وكانت وفاته فى عاشر رجب من هذه السنة وتوفى الشيخ الصالح المجذوب سيدى أبو بكر صاحب الكلوته وكان من كبار الاولياء

۞ ثم دخلت سنة أربع وثمانمائة فيها جاءت الاخبار بأن عربان بنى عقبة قد تعرضوا للحجاج

ونهبوا

ونهبوا ما معهم فأوقع معهم أمير الحاج فكسرهم وأسر شيخهم منجد بن خاطر وأحضره بين يدي السلطان فأراد توسيطه فالتزم برد ما نهب للحجاج فسجن حتى شرع في رد ذلك وفيها جاءت الاخبار من دمشق بأن أهل دمشق رجموا نائب الشام تغري بردي وأرادوا قتله فهرب عند نائب حلب فلما بلغ السلطان ذلك أرسل تقليد الى المقر السيفي اقبغا الجمالي بأن يستقر نائب الشام عوضا عن تغري بردي وفيها تزوج المقر السيفي نوروز الحافظي بأخت الملك الناصر فرج وهي بنت الملك الظاهر برقوق فكان لهما مهم عظيم ودخل عليها في العشرين من المحرم وفي أثناء ذلك تزوج أيضا المقر السيفي اينال باي بن قجماس بأخت السلطان الصغرى ودخل عليها في نصف صفر وكان لهما مهم عظيم وفيها في يوم الاربعاء خامس عشري صفر بلغ الامراء بأن السلطان قد أسكن الان الخاصكي في القاعة الاشرفية وفتح لها من دهليز القصر بابا فتخوف الامراء من ذلك وامتنعوا من الطلوع الى القلعة وأقاموا على ذلك أياما فأرسل اليهم السلطان الامير أقباي حاجب الحجاب وهو يقول لهم لم لا تطلعوا تبيتوا في القصر على جري العادة فقالوا ما نطلع الى القلعة حتى يمسك لنا السلطان ثمانية من الامراء العشراوات فرسم السلطان لهم بالخروج الى ثغر دمياط وجماعة منهم الى الشام فركب المقر الاتابكي بيبرس وأتى الى بيت الامير نوروز الحافظي فشفع عنده فيهم فلم يوافقه بقية الامراء على ذلك وأرسلوا اليهم حاجب الحجاب فأخرجهم من بيوتهم فلما أتى الى بيت الامير سودون بقجه وأراد القبض عليه رمى نفسه من الطاق الى بركة الفيل وهرب ثم توجه الى غيره من الامراء فلم يجد منهم أحدا في بيته وكان السلطان أرسل يقول لهم تغيبوا من بيوتكم ثم ان السلطان رسم للخليفة والقضاة الاربعة بأن يتوجهوا الى بيوت الامراء ويشفعوا في هؤلاء الامراء فتوجهوا اليهم وتحدثوا معهم في ذلك فوقع الاتفاق على أن الامير سودون الجزاوي يستقر في نيابة صفد ويخرج اليها من يومه وبقية الامراء يخرجون الى الشام كما تقرر عليه الحال أولا ولم يقبلوا شفاعة الخليفة ولا القضاة الاربعة فلما كان يوم الاثنين خامس عشري صفر طلع الامير سودون الجزاوي الى القلعة فأحضروا له خلعة ليستقر نائب صفد كما تقرر فلما أحضروا له الخلعة لم توافق المماليك السلطانية على ذلك ومنعوه من لبس الخلعة فحصل في ذلك اليوم بعض اضطراب بين العسكر وفيها أرسل السلطان تقليدا الى دقماق المحمدي نائب حماه بأن يستقر نائب حلب عوضا عن المقر السيفي دمرداش المحمدي ورسم لدمرداش المحمدي بأن يحضر الى القاهرة لما تقتضيه الآراء الشريفة وفيها حضر الى الابواب الشريفة الطواشي عبد اللطيف الساقي وكان ممن اسر عند تمرلنك فهرب من عنده بعد أن قاسى من الشدائد ما لا خير في ذكره وأخبر بأن ابن تمرلنك توجه الى ماردين ثم الى بغداد وأوقع مع أهل بغداد واقعة عظيمة فكسره أهل بغداد كسرة قوية هذا بعد أن

رجع من الشام فلما بلغ تمرلنك أن ولده قد انكسر توجه هو بنفسه الى بغداد وحارب أهلها وأخربها وفعل بها كما فعل بالشام وأخبر أيضا عن تمرلنك أنه وضع قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى فى تليس وأغرقه فى نهر الفرات عند القنطرة * وفيها فى يوم الاثنين رابع جمادى الآخرة خلع الملك الناصر على الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى واستقر به قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن القاضى ناصر الدين بن الصالحى ۞ وفيها جاءت الاخبار من غزة بأن الامير صرق الظاهرى نائب غزة قد خامر وخرج عن الطاعة فلما تحقق السلطان ذلك خلع على الامير الطنبغا العثمانى واستقر به نائب غزة عوضا عن صرق ثم بعد أيام حضر مقدم البريدية ومعه سيف صرق وأخبر بأن أمير جرم مع عربان نابلس أوقعوا مع صرق فانكسر صرق وقتل فى المعركة فأرسلوا سيفه الى السلطان واحتاطوا على موجوده وفى أثناء ذلك جاءت الاخبار من طرابلس بأن نائب طرابلس شيخ المحمودى قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان وأمسك حاجب طرابلس وجماعة من أمرائها وسجنهم بسجن المرقب وانه قد استخدم جماعة كثيرة من التركمان والعشير وعمل له برك عظيم وفيها جاءت الاخبار من حلب بأن الامير دقماق المحمدى لما استقر نائب حلب وتوجه اليها خرج اليه دمرداش نائب حلب وأوقع معه واقعة قوية فانكسر دمرداش ونهب بركه وهرب الى نحو ملطية وفيها فى يوم الاثنين رابع عشرى رجب خلع السلطان على القاضى جمال الدين البساطى المالكى واستقر به قاضى القضاة المالكية عوضا عن قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون المغربى الحضرمى المالكى ۞ ومن الحوادث الفلكية أن نجما طلع فى الجانب الغربى وله ذؤابة صاعدة الى السماء فاستمر يطلع فى كل ليلة بعد المغرب ويقيم الى ثلث الليل فأقام على ذلك الى أواخر شهر شعبان فكان يطلع بالنهار عند طلوع الشمس فكان يرى بالنهار مع ضوء الشمس ويقيم الى وقت الظهر ثم اختفى من بعد ذلك ۞ ومن الوقائع اللطيفة أنه فى يوم الاثنين مستهل شهر شعبان من هذه السنة أخرجوا الفيل الكبير الذى كان تمرلنك أرسله الى الملك الناصر صحبة قانباى النوروزى وتقدم ذكر ذلك فلما أخرجوه ليسيروا به توجهوا به الى نحو بولاق ثم رجعوا به من على قنطرة الفخر ليطلعوا به على باب البحر فلما عدوا به على قنطرة الفخر وأتوا به الى رأس العطفة التى تخرج الى الخليج الناصرى وهناك بجمون فداس الفيل على ذلك البجمون فانخسف به فغاصت رجله فيه الى نخذه فلم يقدر أحد من الناس أن يخلصه فأقام على ذلك ساعة ثم مات فلما أشيع أمره فى القاهرة خرجت اليه الناس زمرا يتفرجون عليه وقد غلقت الاسواق فى ذلك اليوم بسبب الفرجة وكان يوما مشهودا وقد رثاه بعض الزجالة بهذا الزجل اللطيف

تعا اسمعوا بالله ياناس اللى جره * الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطره
لما أفلسوا غلمان الفيل راموا الجزاف
خدوه وراحوا صوب بولاق يجيبوا المطاف
رأوا شويخ من أهل الله مافيه خلاف
جوا ياخدوا اشاشومنو بالزنطره * دعا على الفيل أتقنطر فى القنطره
قالوا بأنو فى البجمون مغروس يصيح
فقلت حتى أروح أبصر ان كان صحيح
أجى ألاقى الفيل ميت ملقى طريح
والناس تطلع فوق ظهره مستظهره * لما وقع يوم الاثنين فى القنطره
وأولاد ديار مصر الساده حولوا زمر
يتعجبوا من هذا الفيل اللى انحصر
رأوا دموع عينو تجرى مثل المطر
ولو جعير والعالم دول متفكره * لما وقع يوم الاثنين فى القنطره
فقلت لو يا فيل مرزوق يا اسود دغوش
أين حرمتك بين العالم وانتا تهوش
وكنت يا فيل السلطان زين الوحوش
وكنت بالاعجاب تزهو فى المحطره * وقد بقيت اليوم مطروح فى القنطره
والفيل لسان حالو ناطق للناس يقول
كم كنت نا أدور فى الزفه فوقى طبول
وكنت نا أدور فى المحمل ولى قبول
كنى عروسه حين تجلى فى المنظره * واليوم كان آخر مشي فى القنطره
وقالت الفيله امراتو من لى معين
سهم الفراق قد صاب قلبى يا مسلمين
وناغريبه هنديه قلبى حزين
وكان هذا الفيل زوجى لا معيره * واليوم كان آخر عمرو فى القنطره
وعيطت حتى أبكت جيرانها
من كترما ناحت ناحو لاحزانها
من نارها صارت تلطم بودانها
حتى الزرافة جاءتها منحسره * تبكى على الفيل اللى مات فى القنطره

لما ظهر دا فى شعبان آخر رجب
لاحت لنا فيه نجمه لها ذنب
فقالت العالم أجمع دا لوسيب
وايش دلايل ذى الكوكب يامن دره * دلت على الفيل اللى مات فى القنطره
يا ناصر الدين من عمرى ادرا الدخول
والناس تقول انى قيم صاحب قبول
لما هلك ذا الفيل مرزوق فصرت أقول
تعا اسمعوا بالله يا ناس اللى جره * الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطرة

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الجمعة ثانى شوال وقعت الفتنة بين الامير نوروز الحافظى وبين الامير جكم العوضى والامير سودون طاز أمير اخور كبير فلبسوا آلة الحرب فى ذلك اليوم ووقفوا بسوق الخيل ونزل السلطان الى باب السلسلة ثم جلس فى المقعد المطل على الرميلة وطلع الامراء الذين هم من عصبة السلطان الى باب السلسلة وتقاتلوا مع هؤلاء الامراء أشد القتال ثم ان السلطان رسم للخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى والقضاة الاربعة بأن يتوجهوا الى الامراء ويمشوا بينهم بالصلح مع بعضهم فتوجهوا اليهم وسعوا بينهم بالصلح فاصطلحوا اصطلاحا على فساد وصارت القلوب معمرة بالعداوة لبعضهم كما قال بعضهم فى المعنى

أعدى عدوك أدنى من وثقت به * فاحذر الناس واصحبهم على دخل
فانما رجل الدنيا وواحدها * من لا يعول فى الدنيا على رجل

فطلع السلطان الى القلعة وخمدت الفتنة قليلا ثم فى يوم السبت رسم السلطان للخليفة والقضاة الاربعة بأن يتوجهوا الى الامراء ويحلفوهم للسلطان فتوجهوا الى بيت الامير يبرس وحلفوه ثم توجهوا الى بيت الامير نوروز الحافظى وحلفوه ثم توجهوا الى بيت الامير سودون طاز أمير اخور كبير وكذلك بقية الامراء فكانت أيمانهم كاذبة كما قيل فى المعنى

حلفتم لا يخونوا فى الهوى ذممى * كأنما حلفوا لى ان ما حلفوا

فلما كان يوم الاثنين خامس شوال طلع الامراء الى القلعة وباسوا الارض للسلطان واصطلحوا فخلع على جماعة منهم ونزلوا الى بيوتهم فلما نزل الامير جكم الى بيته أرسل السلطان اليه خلعة وقال هذه لاخيك قانباى رسم له السلطان بأن يستقر نائب حماه فلما سمع الامير جكم ذلك عز عليه وتوجه الى نحو بركة الحبش وأخذ معه أخاه قانباى العلائى والامير قرقماس الاينالى فلما بلغ ذلك الى المماليك السلطانية توجه اليه منهم جماعة نحو

خمسمائة مملوك فأقاموا هنالك يوم الخميس ويوم الجمعة فلما كان يوم الجمعة طلع الامير نوروز
القلعة وصلى مع السلطان صلاة الجمعة ثم نزل الى بيته فأقام ساعة فأرسل اليه السلطان
جداراو قال له قم كلم السلطان فقال انا كما نزلت من عند السلطان ايش يعمل بى ولكن غدا
أنا بين يديه فلما رجع من عنده الجدار أقام فى بيته الى بعد العشاء ثم أرسل خلف الامير تمربغا
المشطوب والامير سودون زاده وجماعة من الامراء العشراوات فلما تكاملوا ركب
الامير نوروز ومعه الامراء الذين أرسل خلفهم وتوجهوا جميعا الى الامير العوضى فلما بلغ
السلطان ذلك اضطربت أحواله ونزل الى باب السلسلة وجلس فى المقعد المطل على الرميلة
وعلق الصنجق السلطانى ودقت الكوسات حربى فطلع اليه جماعة من الامراء والمماليك
السلطانية فوقفوا فى سوق الخيل فأقاموا على ذلك يوم السبت ويوم الاحد فلم يجئ اليهم أحد
من الامراء الذين توجهوا الى بركة الحبش فلما كان يوم الاحد توجه المماليك السلطانية
الى نحو باب الزغلة عند زاوية القاضى بكار فبعد ساعة واذا بجاليش الامير جكم العوضى
قد أقبل من نحو بركة الحبش فتلاقوا هنالك ووقعوا مع عسكر السلطان فكان بينهم واقعة
قوية فقتل فى ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية وجماعة من الغلمان فكان عدة من
قتل وجرح من الناس والغلمان نحو ستين انسانا وأسر من المماليك السلطانية اثنا عشر
انسانا ثم حال بينهم الليل ففى تلك الليلة تسحب جماعة من الامراء من عند السلطان الى
الامراء الذين فى بركة الحبش وكان من الذين تسحبوا الامير سودون البجاسى والامير تمربغا
الطرنطاى والامير سودون الجلب وتسحب معهم نحو مائة مملوك من المماليك السلطانية
فلما كان يوم الثلاثاء أشهر السلطان المنادى للمماليك السلطانية بالعرض فعرضوا فى يوم
الاربعاء فلما كان يوم الخميس فرق السلطان خيولا ولبوسا على المماليك الذين عرضهم ثم
انه ركب وخرج من باب السلسلة ووقف بسوق الخيل ساعة حتى تكامل العسكر وأرسل
خلف أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الاربعة فلما حضروا جميعا توجه السلطان والامراء
والعسكر الى باب القرافة فتقدم جاليش السلطان وكان فيه من الامراء الامير يشبك
السودونى والامير سودون تلى ثم تبعهما الاتابكى بيبرس ومعه نحو من ألف مملوك فلما
وصلوا الى مصلت خولان التى بالنقعة أقبل جاليش الامراء الذين فى بركة الحبش فأوقع
الفريقان هنالك واقعة قوية ثم بعد ساعة واذا بالملك الناصر قد أقبل ومعه السواد الاعظم
فوقع فى قلوب الامراء الذين أتوا من بركة الحبش الرعب من السلطان فلما وقع القتال بينهما
انكسر الامراء الذين كانوا فى بركة الحبش فاول من أمسك منهم الامير تمربغا المشطوب
والامير سودون بن زاده والامير على بن اينال وجرح الامير يشبك الساقى والامير قجق الحافظى
وأسر جماعة كثيرة من الامراء العشراوات والخاصكية والمماليك السلطانية وهرب بقية

الامراء منهزمين الى نحو بركة الحبش وقد تمزقوا كل ممزق من الطفشان فلما حصلت هذه النصرة للملك الناصر وكانت على غير القياس رجع الى القلعة ومعه الخليفة والقضاة الاربعة والامراء الذين أسروا قدامه مشاة وهم فى زناجير حديد حتى طلع الى القلعة وهو فى غاية النصر وفى ذلك يقول بعض الشعراء

ألملك الناصر أعظم به * من ملك جاء بأمر عجيب

قد كتب السعد باقباله * نصر من الله وفتح قريب

هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج ﴿وأما ما كان من أمر الامير جكم العوضى والامير نوروز الحافظى والامير قانباى العلائى والامير يشبك بن أزدمر أخواينال والامير قرقماس وبقية الامراء لما أن وقعت عليهم الكسرة وهربوا استمروا الى أن وصلوا الى الميمون فأقاموا هناك يومين ثم عدوا الى بر الجيزة فأخذوا خيول الدشار والهجن التى هناك وأقاموا فى الجيزة ثلاثة أيام ثم ان الامير نوروز الحافظى حضر تحت الليل الى القاهرة وتوجه الى بيت الاتابكى بيبرس فطلع به الى السلطان وقابل به فان نوروز كان صهر الملك الناصر فرج زوج أخته فلما أن قابله رسم له السلطان بأن يستقر نائب الشام وأرسل اليه خلعة ورسم له بأن يخرج من يومه وكان من جملة سعد الملك الناصر أن فى تلك الليلة اتفق جماعة من المماليك السلطانية نحو من ألف مملوك بأن يتوجهوا الى الامير نوروز والامير جكم فلما حضر الامير نوروز رسم له بأن يستقر نائب الشام فلما برز خيامه فى الريدانية وخرج اليها أرسل اليه السلطان من قيده ثم أرسله من هناك الى ثغر الاسكندرية فسجن بها فلما بلغ الاتابكى بيبرس ذلك عز عليه لكونه حلف لنوروز بالطلاق أنه اذا قابل به السلطان لا يشوش عليه فلما فعل به السلطان ذلك عز على الاتابكى بيبرس هذا ما كان من أمر الامير نوروز الحافظى وأما ما كان من أمر الامير جكم العوضى فانه أرسل يسأل السلطان أن يرسم له بان يتوجه الى ثغر دمياط من غير سجن فرسم له بذلك فتوجه اليه الامير اينال حطب رأس نوبة ثانى فاحضره الى القاهرة فى ليلة الاربعاء فلما حضر طلع الى باب السلسلة عند الامير سودون أمير اخور كبير فشاور عليه السلطان فرسم بتقييده فقيد هو والامير سودون زاده وجماعة من الامراء الذين قد خامروا على السلطان وتوجهوا الى الامير جكم فقيدوا أجمعين وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية وكان المتسفر عليهم الامير سودون تلى ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الامير يشبك الشعبانى وكان بالسجن بثغر الاسكندرية فلما حضر خلع عليه واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الامير جكم العوضى ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الامير قطلوبغا الحسنى والامير اقباى الكركى والامير جركس القاسمى المصارع فتوجه لاحضارهم الامير سودون بقجه فاخرجهم من السجن بثغر

الاسكندرية

الاسكندرية فلما حضروا طلعوا الى القلعة وباسوا الارض فانعم عليهم السلطان بتقادم ألوف عوضا عن الامراء الذين توجهوا الى السجن بثغر الاسكندرية كما تقدم فكانوا مثل بابات خيال الظل فشئ يجئ وشئ يروح كما قد قيل فى المعنى

رأيت خيال الظل أعجب منظرا * لمن هو فى علم الحقيقة راقى
تمر وتمضى بابة بعد بابة * وتفنى جميعا والمحرك باقى

(١) وفى هذه السنة فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شوال ورد كتاب من ثغر الاسكندرية بحضر من بلاد ابن عثمان على يد جماعة من التركمان فاخبروا فيه بان تمرلنك قد هلك عن يقين قال القاضى تقى الدين المقريزى محتسب القاهرة كنت عند القاضى فتح الله كاتب السر الشريف فجاءه كتاب ابن عثمان يذكر فيه موت تمرلنك وان القان أحمد بن أويس رجع الى بلاده وكذلك قرا يوسف وأخبر بان الجمرة التى طلعت فى جسد تمرلنك وهو على دمشق استمرت ترعى فى جسده حتى مات بها وعجل الله بروحه الى النار كما قد قيل

زبانية النيران تكره وجهه * ومنه استعاذت مذ رأته جهنم

قيل انه لما دفن كان يسمع عواء فى قبره مثل عواء الكلاب وقال بعض السواح انه قد شاهد الدخان يطلع من قبره وقيل انه لما دفن لم تقبله الارض فصنعوا له صندوقا من خشب ووضعوه فيه وعلقوه بين السماء والارض وقيل ان تمرلنك كان قد جمع عساكر كثيرة وقال ما أرجع حتى أدخل مصر وأفعل بها ما فعلت فى دمشق فاخذه الله تعالى وكفى الناس شره وقد قال القائل

مات تمرلنك وجاءت لنا * أخباره فيما تأتى اليه
وقد كفانا ربنا شره * والله كافى من توكل عليه

انتهى ذلك ۞ وفى هذه السنة تأخر خروج المحمل من القاهرة الى ثانى عشرى شوال وهذا لم يعهد قط وكان أمير المحمل فى تلك السنة الامير نكسبيه الازدمرى فكان تأخير المحمل الى هذه المدة لامر حصل لامير الحاج فعاقه عن الخروج ۞ ومن الحوادث فى هذه السنة أن الامراء دخلوا بيت الاتابكى بيبرس ولعبوا معه بالكرة فلما فرغوا وقصدوا التوجه الى بيوتهم خرج اليهم فى أثناء الطريق جماعة من المماليك الناصرية فضربوا الامراء فهرب الامير يشبك الشعبانى الدوادار فطلع الى باب السلسلة وأقام فيه الى العصر فلما بلغ ذلك الى السلطان رسم لوالى القاهرة بان يحضر المماليك الذين فعلوا هذه الفعلة فاحضر منهم ثلاثة مماليك فضربهم السلطان بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة فخمدت الفتنة قليلا وفى هذه السنة تزايدت عظمة المقر السعدى ابراهيم بن غراب وحظى عند الملك الناصر حتى انه استقر به أمير مجلس وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية وصار يجلس مع الامراء المقدمين تحت أمير كبير

---

(١) فى المنهل الصافى والشذرات وغيرهما ان تمرلنك توفى سنة ٨٠٧

وفيها جاءت الاخبار من البحيرة بان العربان نهبوا البلاد وأخذوا المغل وقتلوا جماعة كثيرة من الفلاحين فارسل اليهم السلطان تجريدة وكان بها من الامراء المقدمين عشرة وهم الامير بكتمر الركنى أمير سلاح والمقر السعدى ابراهيم بن غراب أمير مجلس والمقر السيفى يشبك الشعبانى أمير دوادار والامير سودون المارديني والامير يلبغا الناصرى واينال باى بن قجماس والامير سودون بن على باى والامير قطلوبغا الكركى والامير الان اليحياوى والامير اينال العلائى نائب حلب ومن الامراء الطبلخانات والعشراوات أربعة عشر أميرا ومن المماليك السلطانية اربعمائة مملوك فخرجوا من القاهرة على حمية وتوجهوا الى البحيرة فاوقعوا مع العربان فطردوهم الى برقة ونهبوا أموالهم ومواشيهم ﴿ثم دخلت سنة خمس وثمانمائة) فيها تغير خاطر السلطان على المقر الاتابكى بيبرس فرسم له بان يتوجه هو وعياله الى ثغر دمياط فأخذ فى أسباب توجهه الى دمياط فطلع سائر الامراء المقدمين وشفعوا فيه عند السلطان فبطل أمر سفره الى دمياط ورضى عليه ﴿ (ثم دخلت سنة ست وثمانمائة) فيها وقع الخلف بين الامراء بمصر وجاءت الاخبار بان عربان الشرقية والغربية قد كثر منهم الفساد ثم جاءت الاخبار من البلاد الشامية والحلبية بان النواب قد خامروا وخرجوا عن الطاعة وصار القيل والقال فى كل يوم عمال بين الناس والامراء فرقتان فرقة مع الملك الناصر وفرقة عليه ﴿ (ثم دخلت سنة سبع وثمانمائة) فيها وقع الوباء بالديار المصرية وكثر موت الفجأة وتحركت دموية بالناس وكان ذلك فى قوة البرد والشمس فى برج الدلو وكثر بالناس السعال والانحدار فمات فى مدة سبعة عشر يوما وقيل دون الشهر كثير من الناس وصاروا يتساقطون فى الطرقات موتا فأقام مدة يسيرة ثم ارتفع فمات فى هذه المدة اليسيرة نحو ما كان يموت فى الفصول الكبار ولكن لم يظهر فيه طعن بل كان أهوية متحركة وأوخاما ولاجل ذلك لم يعده الشيخ شهاب الدين بن حجر رضى الله عنه من جملة الطواعين التى وقعت بمصر لانه لم يظهر فيه طاعون وقد فرق بين الوباء وبين الطاعون فى كتابه المسمى ببذل الماعون فى أخبار الطاعون فلما وقع هذا الوباء بمصر فتح المقر السعدى بن غراب مغسلا برسم الاموات عند بيته الذى عند جامع بشتك الناصرى فكانوا يأتون اليه بالاموات على عتالين يطرحونهم على بابه حتى يخرجهم من مغسله فكفن فى تلك السنة من ماله جماعة كثيرة من الغرباء وغيرهم لا يحصى عددهم فسمى فصل ابن غراب انتهى وفيها توفى سيدى على ابن سيدى محمد وفى رضى الله تعالى عنه انتهى ذلك ﴿ ثم دخلت سنة ثمان وثمانمائة فيها خلع على سعد الدين بن غراب واستقر كاتب السر الشريف بمصر عوضا عن فتح الله بعد القبض عليه والمصادرة له وأقيم فى الترسيم وفيها جاءت الاخبار بان دمرداش نائب حلب قد أطلق الامير جكم العوضى من السجن ومعه جماعة من الامراء وتوجه بهم الى حلب فاضطربت

أحوال الملك الناصر بسبب ذلك وضاقت عليه الامور وصار فى غاية الضنك مع الامراء بخلفهم وتعصب عليه الاتابكى بيبرس وجماعة من الامراء وصاروا يعاكسونه فى الامور فلما كان يوم الاحد خامس عشرى ربيع الاول من السنة المذكورة نزل الملك الناصر من القلعة بعد العصر وهو ماش متنكر فاختفى فى مكان لايعلم فلما نزل من القلعة وبلغ ذلك الامراء ركبوا وطلعوا الى باب السلسلة فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فيمن يسلطنونه فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه المقر العزى عبد العزيز فطلبوه من دور الحرم وسلطنوه فى ذلك اليوم ولقبوه بالملك المنصور وخلع الملك الناصر فرج من السلطنة فكانت مدة سلطنته فى هذه المدة ست سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام ثم يعود الى السلطنة من بعد ذلك مرة ثانية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم

ذكر سلطنة الملك المنصور عز الدين أبي العز عبد العزيز ابن الملك الظاهر برقوق بن انص العثمانى الجركسى

وهو السابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بمصر وهو الثالث من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية بويع بالسلطنة بعد العشاء وتلقب بالملك المنصور وجلس على سرير الملك ليلة الاثنين سادس عشرى ربيع الاول من سنة ثمان وثمانمائة بعهد من أبيه الملك الظاهر برقوق كما تقدم فباس واله الارض ونودى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء ولم تدق له الكوسات فلبس خلعة السلطنة من القصر الكبير وحملت القبة والطير على رأسه وجلس على سرير الملك قال المقريزى تسلطن الملك المنصور عبد العزيز وله من العمر عشر سنين وكانت أمه أم ولد رومية الجنس تسمى تنق باى فلما تسلطن لم يتم أمره فى السلطنة ولا ساعدته الاقدار ولم يبلغ المراد كما قيل فى المعنى

ما كل من نال المعالى ناهضا * فيها ولا كل الرجال فحول

فلما تسلطن المنصور صار الاتابكى بيبرس صاحب الحل والعقد بالديار المصرية وصار يتصرف فى أمر المملكة بحسب ما يختار من ذلك فانخفضت كلمة المقر السيفى يشبك الشعبانى الدوادار فعز ذلك عليه وتمنى عود الملك الناصر فرج فشكا ذلك الى المقر السعدى ابن غراب فى خلوة فقال له ابن غراب لا تهتم لذلك الملك الناصر عندى مختفى ففرح يشبك بذلك وقام الى ابن غراب وقبل رأسه ثم أخذ فى أسباب ظهور الملك الناصر فرج فلما كان يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهر الملك الناصر من بيت سودون الجزاوى الذى عند البركة

الناصرية فلما أشيع ذلك اضطربت القاهرة وماجت ولبس العسكر آلة الحرب وصار الامراء والعسكر فرقتين فرقة مع الملك الناصر وفرقة مع أخيه عبد العزيز وكان من عصبة الملك المنصور عبد العزيز الاتابكى بيبرس والامير سودون المحمدى والامير اينال باى ابن قجماس والامير سودون الماردينى وجماعة من الامراء الطبلخانات والعشراوات وجماعة من العسكر وكان من عصبة الملك الناصر فرج المقر السيفى يشبك الشعبانى الدوادار وجماعة كثيرة من الامراء وكان أكثر العسكر مع الملك الناصر فلبسوا آلة الحرب واقتتلوا فى ذلك اليوم أشد القتال فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر الاتابكى بيبرس ومن معه من الامراء وانتصر عليهم الملك الناصر فرج فركب من بيت سودون الجزاوى وطلع الى القلعة وملكها فرسم لاخيه عبد العزيز بأن يدخل الى دور الحرم فدخلها وأقام بها محتفظا فكانت مدة سلطنته بمصر شهرين وعشرة أيام وكان فى السلطنة آلة لا ينتفع بها والامر كله فى هذه المدة للاتابكى بيبرس انتهى

ذكر عود الملك الناصر فرج بن برقوق الى السلطنة ثانى مرة

قال المقريزى عاد الملك الناصر فرج الى السلطنة وجلس على سرير الملك فى يوم الخميس رابع جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانمائة وبايعه الخليفة ثانيا فلما جلس على سرير الملك قبض على الاتابكى بيبرس وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية وأرسل معه جماعة من الامراء الذين كانوا اسيا السلطنة أخيه عبد العزيز والذى كان قصد الملك الناصر يفعله بالاتابكى بيبرس فى الاول فعله فى الآخر كما قيل فى المعنى

قالت ترقب عيون الحى ان لها * عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

ثم ان الملك الناصر عمل الموكب وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن بيبرس وأنعم على جماعة من الامراء بتقادم ألوف عوضا عن نفى من الامراء فاستقامت أموره فى هذه المرة ولم يختلف عليه اثنان كما قيل * وربما صحت الاجسام بالعلل * ومن الحوادث فى هذه السنة كانت وفاة أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله ابن الخليفة المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله ابن الامام احمد الحاكم بأمر الله وكانت وفاته فى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سنة ثمان وثمانمائة فكان مجموع خلافته بالديار المصرية الى أن مات نحوا من خمسة وأربعين سنة بما فيها من عزل وولاية وكان كريما جوادا ممدوحا لا يرد سائلا كما قيل

كأنه فى العطا بحر ندى * وبذله النقد فيه تيار

ولكن قاسى من الملك الظاهر برقوق شدائد عظيمة وتركه فى القيد وهو مسجون ببرج الحية

الذى بقاعة الجبل نحو سبع سنين وكان اماما عظيما كفأ للخلافة كثير البر والصدقات يحب فعل الخير فلما مات دفن عند أقاربه بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ولما مات خلف من الاولاد سبعة وهم العباس وكان أكبرهم وداود وسليمن وحمزة ويوسف ويعقوب وموسى وكل منهم ولى الخلافة الا يعقوب وموسى لم يليا الخلافة وقيل جاء للمتوكل نحو مائة ولد من صلبه ما بين ذكور واناث وسقوط وهذا لم يقع لخليفة قبله سوى عبد الملك بن مروان الاموى فانه لما مات خلف من الاولاد أربعة وهم الوليد وسليمن ويزيد وهشام وكل منهم ولى الخلافة ولما توفى محمد المتوكل تولى الخلافة من بعده ابنه العباس وتلقب بالمستعين بالله ومن الحوادث ان ابن نعير أرسل الى السلطان رأس جكم العوضى الذى تسلطن بحلب وتلقب بالملك العادل فخرج من حلب الى قتال قرا ملك أمير التركمان فقتل فى المعركة بين بساتين آمد ولا يعلم من قتله فكانت مدة سلطنته بحلب نحوا من شهرين فعلقت رأسه على باب زويلة وكان له يوم مشهود وكفى الملك الناصر شره (وقد تكرر فى أخبار سنة عشر وثمانمائة) وفيها توفى الامير بيبرس الفارقانى وهو صاحب الحمام التى تجاه المدرسة البندقدارية وكان بيبرس هذا من المعمرين وكان من أهل الدين والصلاح وله مشاركة فى العلم وكان له شعر جيد وكان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب وكان يزن الشعر بالطباع وينظم منه ما لا تمجه الاسماع فمن ذلك قوله

من لى بظبى غرير * باللحظ يسبى الممالك

اذا تبدى بليل * جلا سناه الحوالك

من حور رضوان ابهى * لكنه نجل مالك

ذكر ذلك صاحب كتاب زهر الخمائل فيمن نظم الشعر من الترك الاصائل اه ذلك

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثمانمائة ﴾ فيها أخرج الملك الناصر أخاه عبد العزيز الذى تسلطن الى ثغر الاسكندرية فسجن بها وأرسل معه أخاه سيدى ابراهيم وذلك فى ثامن صفر وأقاما بثغر الاسكندرية نحو أربعين يوما ثم جاءت الاخبار بموتهما فى يوم واحد وكانت وفاتهما فى ليلة الاثنين سابع ربيع الاول من سنة تسع فقيل ان الملك الناصر أشغلهما فى حلوى أرسلها اليهما فلما بلغه موتهما أرسل فاحضرهما ودفنهما فى الخانقاه البرقوقية التى فى الصحراء وفيها خلع على البدرى حسن بن نصر الله واستقر به وزيرا بمصر عوضا عن ابن البقرى وفيها عزل جلال الدين البلقينى عن القضاء واعيد اليه الاخنائى فاقام به مدة ثم أعيد اليه الجلال البلقينى ﴿ ثم دخلت سنة عشر وثمانمائة ﴾ فيها افرج السلطان عن الامير جكم العوضى والامير نوروز فلما حضرا خلع على الامير نوروز الحافظى واستقر به نائب الشام وخلع على الامير جكم العوضى واستقر به نائب حلب فلما توجها الى البلاد أظهر كل

منهما العصيان والمخامرة على السلطان فاما جكم العوضى فانه تسلطن بحلب وباس له الامراء الارض وتلقب بالملك العادل وصار واضع اليد على البلاد الحلبية واخرج أوقاف الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب وصار يحكم من الشام الى الفرات فانتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية والحلبية وصار حكمه لا يجاوز غزة فضاق الامر على الملك الناصر حتى كادت روحه تزهق فما مضى قليل حتى جاءت الاخبار من حلب بان جكم العوضى قد قتل ولا يعلم من قتله وكان سبب ذلك ان خارجيا من التركمان من أولاد قرا يوسف خرج عليه فخرج اليه جكم مع العساكر الحلبية فالتقى معه فكان بينهم واقعة عظيمة فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم و فقد جكم العوضى فى المعركة ولا يعلم له خبر ولا عرف كيف قتل فلما جاءت الاخبار الى مصر بذلك سر الملك الناصر وقد كفاه الله تعالى أمر جكم بعد غيره كما قد قيل

الصبر أولى بوقار الفتى * من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة * كان على أيامه بالخيار

وفى المعنى

صبرنا على جور الزمان وربما * تفرج أيام الكريهة بالصبر

فلما اقتتل جكم التف الامير نوروز الحافظى على الامير شيخ المحمودى نائب طرابلس واظهروا العصيان والتف عليهم جماعة من النواب وصاروا يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى الفرات وصار بيد الملك الناصر مصر وأعمالها فقط وهو فى غاية الحصر مع مماليك أبيه بمصر فكان يسلى همه بكثرة السكر لا يصحو منه ليلا ولا نهارا كما قيل فى المعنى

وما اجتمعت والهم يوما لانها * بكاساتها صفراء للهم قاقعه

انتهى ذلك ۞ ثم دخلت سنة احدى عشرة وثمانمائة فيها ظهر فى السماء بعد مغيب الشفق حمرة عظيمة من الجهة الغربية ثم اشتدت تلك الحمرة حتى صارت كالنار الموقدة ثم جاور تلك الحمرة برق ساطع فصار كلما لمع يخيل للناظر انها نار لا محالة ثم انتشرت تلك الحمرة حتى كادت ان تغطى ثلث السماء واستمر الحال على ذلك الى نصف الليل فخاف الناس من ذلك وتضرعوا الى الله بالدعاء فانكشفت تلك الحمرة قليلا قليلا وصحت السماء فاصبح الناس يتحدثون بما وقع فى تلك الليلة من العجائب وقد قال القائل

ما خاب عبد على الله الكريم له * توكل صادق فى السر والعلن
حاشاه ان يحرم الراجى اجابته * اذا دعاه لكشف الهم والحزن

۞ ومن الوقائع الغريبة جاءت الاخبار بان جاليش الامير شيخ المحمودى والامير نوروز قد جاء من غزة وهم فى عساكر لا تحصى فلما سمع الملك الناصر بذلك خرج هو والامراء على

الهجين فتقاتلا في العسكران على السعيدية وكان بينهما واقعة عظيمة فانكسر الملك الناصر ورجع الى القاهرة وهو مهزوم فتبعه شيخ ونوروز ودخلا الى القاهرة فقوى حال الملك الناصر على شيخ ونوروز فكسرهما كسرة قوية فرجعوا الى الشام مهزومين وانتصر عليهما الملك الناصر ولكن قتل في هذه الحركة جماعة كثيرة من الامراء والمماليك وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم بطل نوروز من نيابة الشام وارسل السلطان تقليدا الى شيخ بنيابة الشام وتقليدا الى دمرداش بنيابة حلب ثم عين نوروز الى القدس بطالا ثم كتب الى دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ورسم لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب وهذا من العجائب ثم ان شيخ بعد ذلك خامر على السلطان فجرد اليه ورجع من غير طائل وفيها توفى الامير باش باى رأس نوبة النوب انتهى ذلك ۞ (ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وثمانمائة) فيها ترايد جور الملك الناصر فى حق مماليك أبيه فصار ينفى منهم جماعة ويغرق منهم جماعة فكان الاتابكى تغرى بردى ينهى الملك الناصر عن هذه الافعال الشنيعة فلا يلتفت الى كلامه فلما ثقل عليه أمره خلع عليه واستقر به نائب الشام فلما توجه تغرى بردى الى الشام أسرف الملك الناصر فى قتل مماليك أبيه فكان يسكر الى نصف الليل ويخرج الى الحوش وهو سكران فيعرض المماليك الذين فى السجن بالابراج فيحضرونهم فى زناجير فيقدمون اليه واحدا بعد واحد فيقول من هذا فيقولون له هذا فلان من الطبقة الفلانية فيقول قدموه فيبطحونه على الارض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله وربما كان يبول عليهم أو يصب عليهم النبيذ وكل هذا من شدة قهره وما قاساه منهم فكان يذبح من المماليك فى كل ليلة بحسب ما يختار فى تلك الليلة وذكروا عنه أشياء شنيعة من هذا النمط فاستمر على هذه الحالة مدة طويلة حتى قيل انه ذبح فى هذه المدة من مماليك أبيه نحوا من الفى مملوك وقد تجرأ على القتل حتى صار يقتل فى كل ليلة نحو عشرين مملوكا وكان الملك الناصر معذورا فيهم فانه كان يسامح الواحد منهم المرة والمرتين والثلاث وهم يغدرونه ويخامرون عليه حتى كان يقول الملك المؤيد شيخ فى بعض مجالسه بعد قتل الملك الناصر فرج ما صبر أحد من الملوك كصبر الملك الناصر على مماليك أبيه فانه ما كان يقتل الواحد منهم حتى يكون قد سامحه مرارا عديدة وهم يغدرونه وقد جرى له معهم من الوقائع ما يطول شرحه عن هذا المختصر وهم مع ذلك لا يزدادون عليه الا طغيانا ولو اسرف فى قتلهم ۞ (ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وثمانمائة) فيها وقع الطاعون بالقاهرة وكانت قوة عمله فى شهر رمضان وفى ذلك يقول القاضى مجد الدين بن فضل الله

تزايد الطاعون لما أتى ، شعبان والحى به صعبه
ودام فى الصوم على فتكه ، وفطر الضعيف على كبه

وفيها انتهت زيادة النيل الى أحد وعشرين ذراعا وكان الوفاء أول مسرى وفيها جاءت الاخبار بان شيخ المحمودى ونوروز الحافظى قطعا اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق وأعمالها وفيها توفى جلال الدين بن خطيب داريا وكان عالما فاضلا بارعا فى فن البديع وله شعر جيد حسن ۞ (ثم دخلت سنة أربع عشرة وثمانمائة) فيها انفرت قلوب المماليك من الملك الناصر وصار منهم جماعة يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى نوروز الحافظى وشيخ المحمودى فكانوا يتوجهون من العقبة الى غزة ومن غزة الى الشام فتسحب من العسكر نحو الثلث وفى هذه السنة وفى النيل المبارك فى أول يوم من مسرى وبلغت الزيادة فى تلك السنة اثنين وعشرين ذراعا واصبعا من الثالث والعشرين فحصل للناس فى تلك السنة غاية الضرر الشامل وغرقت أكثر البساتين وانقطعت الطرقات حتى قيل فى المعنى

قد زاد هذا النيل فى عامنا * فاغرق الارض بانعامه
وكاد ان يعطف من مائه * عرى على ازرار اهرامه

وفيها جاءت الاخبار بان نوروز الحافظى وشيخ المحمودى قد قويت شوكتهما والتف عليهما سائر النواب وغالب عسكر مصر والتف عليهما جماعة كثيرة من العشير ومن عربان جبل نابلس واجتمع عندهما من الامراء ما يزيد على أربعة وعشرين أميرا من أمراء مصر والشام فنهم الامير قرقماس المعروف بسيدى الكبير والامير بكتمر جلق والامير سودون المحمدى والامير شاهين الافرم والامير طوغان الحسنى وغير ذلك من الامراء المصرية والشامية فلما تحقق الملك الناصر ذلك عرض العسكر وأنفق عليهم وبرز خيامه الكل فى جمعة واحدة ثم نزل من القلعة فى موكب عظيم وطلب طلبا عظيما وأمر العسكر بان يخرجوا وهم لابسون آلة الحرب وكان صحبته الخليفة العباس والقضاة الاربعة منهم قاضى القضاة الشافعى جلال الدين بن سراج الدين البلقينى وبقية القضاة ما يحضرنى أسماؤهم الآن ومن المباشرين القاضى فتح الله كاتب السر الشريف وسائر الامراء والعسكر فتوجه الملك الناصر الى نحو الريدانية فاقام بها يومين ثم انه رحل منها وقصد التوجه الى نحو الشام وكانت هذه التجريدة ثالث تجريدة خرج فيها الملك الناصر بنفسه فان أول تجريدة جردها الى الشام كانت بسبب تنم الحسنى نائب الشام لما أظهر العصيان كما تقدم والتجريدة الثانية كانت بسبب تمرلنك لما وصل الى الشام وجرى منه ما جرى كما تقدم والتجريدة الثالثة كانت بسبب نوروز الحافظى وشيخ لما أظهروا العصيان فخرج اليهم الملك الناصر بنفسه ۞ ثم دخلت سنة خمس عشرة وثمانمائة فيها دخل الملك الناصر الى الشام وأقام بها أياما ثم توجه خلف النواب فكانوا يتوجهون فى كل يوم من بلد الى

بلدو الملك الناصر يسوق خلفهم ليلا ونهارا فاتعب العسكر وانقطع منهم جماعة من شدة السوق والتعب فلما كان يوم الثلاثاء خامس عشري المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة وصل الملك الناصر الى اللجون وهي من ضياع الشام فتلاقى هنالك الملك الناصر والنواب بعد العصر وكان الملك الناصر قد اصطبح وهو لا يعي من شدة السكر فاراد الكبس على النواب فى تلك الساعة فمنعه الامراء من ذلك فلم يسمع لهم فتقدم اليه القاضى فتح الله كاتب السر وتكلم معه فى أن ينزل هذه الساعة حتى يستريح العسكر من شدة السوق فلم يلتفت الى كلامه وقال أنا الى سنين أنتظر هذا اليوم ومتى نزلت هنا ساعة هربوا من وجهى الى مكان آخر فلما رأى الامراء والعساكر هذه الاحوال الفاسدة تسحبوا من عنده الى النواب فاول من تسحب من عنده من الامراء الامير قجقار أمير سلاح فتوجه الى النواب فلما رأى العسكر ذلك صاروا يتسحبون من عنده قليلا قليلا حتى لم يبق معه الا القليل من العسكر فبان عليه عين الغلب فكبس على النواب وقت غروب الشمس فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر الملك الناصر وهرب بمن بقى معه من العسكر فولى مدبرا الى نحو الشام فكان كما يقال فى المعنى

ما تفعل الاعداء فى جاهل * ما يفعل الجاهل فى نفسه

فدخل الى الشام وبات فى تربة تنم فى ليلة الاربعاء سادس عشري المحرم فلما ولى الملك الناصر استولى الامير نوروز وشيخ على بركه وخزائن المال وملكوها وقد انتصر شيخ ونوروز على الملك الناصر وفى ذلك يقول الشيخ تقى الدين بن حجة الحموى من قصيدة يمدح بها الملك المؤيد شيخ

وجمعت باللجون جم عساكر * دارت عليهم من سطاك دوائر

وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة * فكأن هاتيك السروج مقابر

فلما دخل شيخ ونوروز الى الشام طلعوا الى دار السعادة واجتمع هنالك سائر الامراء وأحضروا القضاة الاربعة ورسموا بان يكتبوا محضرا بافعال الملك الناصر بانه سفاك للدماء مدمن للخمر فكتبوا المحضر بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من أعيان الناس ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة واشتوروا فيمن يولونه السلطنة فقال نوروز لشيخ لا أنا ولا انت نتسلطن ولكن اجعلوا الخليفة العباس هذا هو السلطان ويكون الامير شيخ أتابك العسكر ومدبر المملكة بمصر ويكون الامير نوروز نائب الشام ويحكم فى البلاد الشامية من غزة الى الفرات يولى بها من يختار ويعزل من يختار فتراضوا على ذلك وحلف جميع الامراء على ذلك وتعاهد الامير شيخ ونوروز على ذلك وان الخليفة اذا بقى سلطانا بمصر لا يعزل ولا يولى حتى يراجع فى ذلك الامير شيخ والامير نوروز ثم سلطنوا الخليفة العباس كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى واستقر الامير شيخ أتابك العساكر بمصر واستقر الامير نوروز الحافظى نائب الشام كما

تقرر الحال عليه هذا ما كان من أمر النواب وأما ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد الكسرة التى وقعت له على اللجون فانه لما جرى له ما جرى ولى منهزما فتوجه الى نحو الشام وأقام فى تربة تنم وأرسل الى الامير شيخ يطلب منه الامان وكان الامير نوروز صهر الملك الناصر زوج أخته فلو طلب منه الامان أولا ما أصابه شئ ولكن قصد الامير شيخ فأرسل اليه من قيده وأحضره الى السجن بقلعة دمشق ثم انهم أثبتوا عليه الكفر كما قيل والله أعلم بحقيقة ذلك فلما كانت ليلة السبت سادس شهر صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة دخل على الملك جماعة من الفداوية وقتلوه بالخناجر فى تلك الليلة وهو بالبرج بقلعة دمشق فلما أصبحوا وأشيع ذلك بين الناس لم يصدقوا بذلك فاخرجوه من البرج وألقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس فى وسطه وصار الناس يأتون اليه أفواجا ينظرون اليه ولو أمكن مماليك أبيه ان يحرقوه لفعلوا به ذلك مما قاسوه منه فأقام على ذلك ثلاثة أيام لم يدفن ثم غسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بمقبرة باب الفراديس بدمشق هذا ما جرى للملك الناصر فرج والله أعلم * فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر واحد عشر يوما وذلك خارج عن مدة خلافه بأخيه عبد العزيز وهى شهران وعشرة أيام وقتل وله من العمر نحو ستة وعشرين سنة والله أعلم وقد قيل فى المعنى

يا نفس صبرا والا فاهلكى جزعا * ان الزمان على ما تكرهين بنى

لا تحسبى نعمة سرتك صحتها * الا مفتاح أبواب من الحزن

ولما توفى الملك الناصر خلف من الاولاد سبعة ثلاثة صبيان وأربع بنات فاما الصبيان فهم محمد وفرج وخليل الذين نفاهم المؤيد شيخ الى ثغر الاسكندرية وأقام خليل هناك الى ان توفى فى أثناء دولة الملك الاشرف اينال ونقل بعد موته ودفن بتربة جده الملك الظاهر برقوق التى بالصحراء وأما البنات فخوند شقرا وخوند آسية وخوند زينب وخوند هاجر وكان الملك الناصر فرج شجاعا بطلا مقداما كريما غير أنه كان سفاكا للدماء مسرفا على نفسه منهمكا فى شرب الخمر وسماع الزمور عنده كثرة الجهل مع قلة الدين وكانت الدنيا على أيامه جائلة وحقوق الناس ضائعة وقد خربت غالب البلاد الشامية فى أيامه من تمرلنك ومن عصيان النواب وخربت أوقاف الناس التى بالبلاد الشامية فى أيامه لما عصى بحكم العوضى وتسلطن بحلب وكم قتل من أبطال ويتم من أطفال وجرت فى أيامه أمور شتى يطول شرحها عن هذا المختصر حتى فرج الله تعالى بموته وزوال دولته وكانت الناس معه فى غاية الضنك وكانت صفته أبيض اللون يميل الى صفرة أشهل العينين وافر الانف نحيف الجسد معتدل القامة عربى الوجه مستدير اللحية أشقر الذقن مهيب الشكل وكانت أمه

رومية تجمع بين قبح الفعل والشكل وكان كل من يراه يرعد لشدة بأسه وعظمة سطوته انتهى ذلك وأما ما أنشاه بالديار المصرية من العمائر فهو المدرسة التي تجاه باب زويلة التي تسمى الدهيشة وعمر الجامع الذي هو داخل الحوش السلطاني بالقلعة وجدد بالدهيشة التي بالقلعة أشياء كثيرة وعمر الربعين اللذين عند جامع الصالح خارج باب زويلة وله غير ذلك أشياء كثيرة من الانشاء بالديار المصرية وأما من توفي في أيامه من الاعيان فمنهم شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي وتوفي القاضي تقي الدين بن الشهيد صاحب ديوان الانشاء وتوفي في أيامه القيم خلف الغباري صاحب الازجال اللطيفة وكان فريد عصره في هذا الفن الشريف بدمشق وتوفي الشيخ شمس الدين الشهير بالمزين وكانا من أعيان دمشق فلما بلغ الشيخ عز الدين الموصلي وفاتهما وكانا من أضداده أنشد يقول

دمشق قالت لنا مقالا * معناه في ذا الزمان بين

اندمل الجرح واستراحت * ذاتي من الفتح والمزين

وتوفي الشيخ زين الدين بن العجمي عين كتاب الانشاء بالديار المصرية وكان له شعر جيد فمن ذلك قوله

انظر الى الغدران كيف تجعدت * أمواجها فزهت وراقت منظرا

وحكت سطورا في طروس خطها * قلم النسيم بلطفه لما انبرى

وتوفي الشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقي وكان من فحول الشعراء انتهى ما أوردناه من اخبار دولة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق وذلك على سبيل الاختصار

ذكر سلطنة الخليفة المستعين بالله

أبي الفضل العباس ابن الامام محمد المتوكل على الله ابن المعتضد بالله بن المستكفي بالله ابن الامام أحمد الحاكم بامر الله تسلطن بدمشق بعد خلع الملك الناصر فرج بن برقوق في يوم الاثنين سابع عشري المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة فن المؤرخين من عده من جملة السلاطين بالديار المصرية ومنهم من عده من جملة خلفاء بني العباس وهذه القواعد لم تتفق لخليفة قبله من بني العباس انه تسلطن بمصر وحكم بها على هذا الوجه وفيه يقول بعض الشعراء

سلطاننا حاز الفخار باسره * وباسره مجموع كل الناس

ولقد روى الضحاك عن ثغره * والجفن في الاغضا عن العباس

وكان سبب سلطنة الخليفة العباس انه لما عصى نوروز الحافظي وشيخ المحمودي جرد اليهم

الملك الناصر فلما انكسر الملك الناصر خلعوه من السلطنة واتفق رأى نوروز وشيخ
على سلطنة الخليفة العباس كما تقدم ذكر ذلك فاحضروا له خلعة السلطنة وألبسوها له
وباسوا له الارض وكان القائم فى سلطنة الخليفة الامير نوروز الحافظى قيل لما أرادوا
ان يولوا الخليفة السلطنة امتنع من ذلك غاية الامتناع فقال له الامير نوروز لا تخف انا ظهرك
لا يصيبك الا ما يصيب رقبتى فشرط عليهم الخليفة العباس قبل أن يلى السلطنة
شروطا كثيرة منها انه اذا خلع من السلطنة يستمر فى الخلافة على حاله الأول فأجابوه
الى ذلك فلما ولوه السلطنة خلع على المقر السيفى نوروز الحافظى واستقر به نائب الشام
وأضاف اليه جميع خراج البلاد الشامية وسلم اليه قلعة دمشق ثم خلع على المقر السيفى
شيخ المحمودى واستقر به أتابكى العساكر بمصر ومدبر المملكة ونظام الملك وصار نوروز
يحكم من غزة الى الفرات والخليفة والاتابكى شيخ يحكمون من قطيا الى أقصى بلاد الصعيد
وأعمال الديار المصرية قاطبة فلما وقع الاتفاق على ذلك خرج الخليفة من دمشق وصحبته
الاتابكى شيخ وبقية الامراء والعساكر فلما توجهوا قاصدين مصر كان الخليفة
العباس فى مدة السفر فى غاية العز والعظمة نافذ الكلمة وأطاعه سائر العسكر فلما دخلوا
الى مصر كان للخليفة العباس موكب عظيم وحمل الاتابكى شيخ على رأسه القبة والطير فلما
طلع الخليفة الى القلعة وسكن بها سكن الاتابكى بباب السلسلة فكانت الامراء اذا نزلوا من
عند الخليفة يدخلون الى المقر الاتابكى شيخ فى باب السلسلة ويعطونه الخدمة ثانيا فيقع
بين يديه الابرام والنقض والحل والعقد وكان الاتابكى شيخ لا يمكن الخليفة من كتابة
مربعة أو منشور أو مرسوم حتى يعرض عليه ذلك جميعه فاستمر الامر على ذلك مدة يسيرة
ثم ان الاتابكى شيخ بدا له ان يتسلطن ويخلع الخليفة العباس من السلطنة فعند ذلك أحضر
القضاة الاربعة وسائر الامراء وكتب محضرا بان عربان الشرقية والغربية قد خرجوا من
الطاعة وكثر الفساد فى البر والبحر واضطربت الاحوال وان الوقت محتاج لاقامة سلطان
تركى له سطوة يقمع أهل الفساد وتنصلح الاحوال على يده فعند ذلك خلعوا الخليفة العباس
من السلطنة ولم يخلعوه من الخلافة فبايع الاتابكى شيخ بالسلطنة فلما تسلطن شيخ استمر
الخليفة العباس بالقلعة فى مكان محتفظا به لا يجتمع به أحد فأقام على ذلك مدة يسيرة ثم
ان شيخ خلعه من الخلافة أيضا وولى أخاه داود وتلقب بالمعتضد بالله وكان الخليفة العباس
لما خلع من الخلافة عهد الى ولده فلم يمض الملك المؤيد شيخ عهده وولى أخاه داود ثم أرسل
الخليفة العباس الى السجن بثغر الاسكندرية وكانت مدة سلطنته بالشام ومصر ستة أشهر
الا أياما فما كان اغناه عن هذه السلطنة وكان فى مدة سلطنته مع الاتابكى شيخ فى غاية الضنك
ليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط والامر كله للاتابكى شيخ وكانت مدة خلافته

دون

دون السلطنة ثمان سنين وأشهرا واستمر الخليفة فى السجن بثغر الاسكندرية الى دولة الملك الاشرف برسباى فاخرجه من السجن واسكنه فى بعض دور الاسكندرية واستمر على ذلك الى ان مات فى الوباء الذى وقع فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وكانت وفاته فى يوم الاربعاء حادى عشرى جمادى الآخرة من تلك السنة ودفن هناك رحمة الله عليه ومن الحوادث فى أيامه ما نقله الشيخ شهاب الدين بن حجر فى تاريخه ان قاضى قضاة الحنفية صدر الدين بن العديم تولى الحسبة فى تلك الايام مضافا لما بيده من قضاء الحنفية وهو أول من جمع بين القضاء والحسبة فى وقت واحد ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الدول الماضية وفيه يقول بعض الشعراء

من ولى الحسبة يصبر على * تعرض الخارج والعابر

فليس يحظى بالمنى والغنى * فيهم سوى المحتسب الصابر

انتهى ما أوردناه من أخبار الخليفة المستعين بالله أبى الفضل العباس وذلك على سبيل الاختصار

تم الجزء الأول من تاريخ مصر لابن اياس المسمى بدائع الزهور فى وقائع الدهور ويليه فى الجزء الذى بعده ذكر سلطنة الملك المؤيد أبى النصر شيخ بن عبد الله المحمودى